رحلة ابن بطوطة

٧٠٣ - ٧٧٩ هـ

المسمَّاة

تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

علق عليه
محمد السعيد محمد الزيني

المكتبة التوفيقية

إهـــــــداء٢٠٠٩
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

رحلة ابن بطوطة

(٧٠٣ - ٧٧٩هـ)

المسماة

تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

علق عليه

محمد السعيد محمد الزيني



المكتبة التوفيقية

القاهرة – مصر
العنوان: أمام الباب الأخضر – سيدنا الحسين
تليفون: ٥٩٠٤١٧٥ – ٥٩٢٢٤١٠ (٠٠٢٠٢)
فاكس: ٦٨٤٧٩٥٧

Al Tawfikia Bookshop

Cairo-Egypt
Add.: In Fornt of the Green Door Of El Hussen
Tel. : (٠٠٢٠٢) ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠
Fax : ٦٨٤٧٩٥٧

إشراف
توفيق شعلان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

إن الحمـد لله، نحمـده ونستـعينه ونسـتغـفره، ونعوذ بـالله من شرور أنفسنا، وسيـئات أعمالنا، من يهده الله فـلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحـده لا شريك له، وأشهد أن محمـداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإن أصـدق الحديث كتـاب الله، وأحسن الهـدى هدى محمـد، وشر الأمور مـحدثاتها، وكل محـدثة بدعة، وكل بدعة ضـلالة، وكل ضلالة فى النار.

قال تعـالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[الروم: ٢٢].

قال الحـافظ ابن كثير فى تفـسيره (٣/ ٤١٤): يقـول تعالى: ﴿ومن آياته﴾ الدالة على قـدرته العظيمـة ﴿خلق السمـوات والأرض﴾ أى: خلق السموات فى ارتفاعها واتساعها وسقـوف أجرامها وزهاوة كواكبها ونجومها

الثوابت والسيارات، وخلق الأرض فى انخفاضها وكثافتها، وما فيها من جبال وأودية وبحار وقفار وحيوان وأشجار. وقوله تعالى: ﴿واختلاف ألسنتكم﴾ يعنى: اللغات؛ فهؤلاء بلغة العرب، وهؤلاء تتر لهم لغة أخرى، وهؤلاء كرج، وهؤلاء روم إفرنج، وهؤلاء بربر، وهؤلاء تكرور، وهؤلاء حبشة، وهؤلاء هنود، وهؤلاء عجم، وهؤلاء صقالبة، وهؤلاء جزر، وهؤلاء أرمن، وهؤلاء أكراد إلى غير ذلك مما لا يعلم إلا الله تعالى من اختلاف لغات بنى آدم، واختلاف ألوانهم، وهى حلاهم، فجميع أهل الأرض بل أهل الدنيا منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة كل له عينان وحاجبان وأنف وجبين وفم وخدان وليس يشبه واحد منهم الآخر، بل الأبدان مفارقة بشيء من السمت أو الهيئة أو الكلام ظاهراً كان أو خفيًّا يظهر عند التأمل، كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئة لا تشبه أخرى، ولو توافق جماعة فى صفة من جمال أو قبح لابد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر ﴿إن فى ذلك لآيات للعالمين﴾. اهـ.

ولما كان التفكر فى ذلك من الآيات التى تزيد الإيمان، وتحض العبد على الاستقامة على الطريق القويم، لما يستقر فى قلب المرء من قدرة الله تعالى وبديع صنعه - فإننا نقدم للقارئ الكريم كتاب «رحلة ابن بطوطة» الذى حوى من ذلك ما لم يحوه غيره. فإن المرء ليزداد إيمانًا بمعرفة هذه الآيات البديعة. فقد سرد ابن بطوطة من عجيب طبائع الناس وأخلاقهم وألسنتهم، ومن اختلاف الأرض وأحوالها، وما عليها من الكائنات والحيوانات ما لم ينبئ به غيره، فكان كتابه روضة فيحاء، وجنة عامرة كثيرة العطاء، ولكن بمرور الزمان تختلف الطبائع وتتغير الأحوال، ولكن فى سرد سير السالفين من العبر والعظات ما لا يستغنى عنه لبيب.

وقد قمت بتوضيح معانى الكلمات التى يصعب فهمها على القارئ، وضبطت ما يشكل عليه. ولم أتتبع ما يذكره ابن بطوطة من الأمور الشرعية التى تخالف منهج السلف، فإنه كان من المتصوفة، وكان متمذهبًا

على مذهب الإمام مالك كما ظهر من حكاياته ومن تراجم المصنفين له. فإنه يستحسن زيارة غير المساجد الثلاثة، وشد الرحال لغيرها مما نهى عنه الشرع.

وقد استحسن أيضًا بعض الطرق المبتدعة التى اخترعها الصوفية فى الذكر والعبادة، فليتنبه لذلك، فليس معنى عدم إنكارنا لذلك فى أثناء الكتاب أننا نقره عليه، ولكن ليس المجال مناسبًا لتوضيح ذلك ومناقشته، وإنما لكل مقام مقال.

ونسأل الله تعالى أن يرزقنا سواء السبيل، فإنه نعم المولى ونعم النصير، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أبو عبد الله

محمد السعيد محمد الزينى

ترجمة ابن بطوطة

هو: محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، أبو عبد الله، ابن بطوطة، رحالة مؤرخ، ولد سنة (٧٠٣هـ)، ونشأ في طنجة بالمغرب الأقصى، وخرج منها سنة (٧٢٥هـ)، فطاف بلاد المغرب ومصر والشام والحجاز والعراق وفارس واليمن والبحرين وتركستان، وما وراء النهر وبعض الهند والصين والجاوة وبلاد التتر وأواسط إفريقية. واتصل بكثير من الملوك والأمراء، فمدحهم، وكان ينظم الشعر واستعان بهباتهم على أسفاره، وعاد إلى المغرب الأقصى فانقطع إلى السلطان أبي عنان من ملوك بني وين، فأقام في بلاده. وأملى أخبار رحلته على محمد بن جزى الكلبي بمدينة فاس سنة (٧٥٦هـ). وسماها «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار». ترجمت إلى اللغات البرتغالية والفرنسية والإنكليزية، ونشرت بها، وترجمت فصول منها إلى الألمانية ونشرت أيضًا، وكان يحسن التركية والفارسية. واستغرقت رحلته (٢٧سنة) - (١٣٢٥-١٣٥٢)م. ومات في مراكش. وتلقبه جمعية كمبردج في كتبها وأطالسها بأمير الرحالين المسلمين، وفي نابلس بفلسطين أسرة الآن تدعى بيت بطوط، وتعرف ببيت المغربي وبيت الكمال، تقول: إنها من نسل ابن بطوطة.

وتوفي رحمه الله سنة (٧٧٩هـ). انظر ترجمته في الأعلام للزركلي (٦/ ٢٣٥، ٢٣٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

قال العلامة محمد بن محمد بن جزى الكلبى

الحمدُ لله الذى ذلَّل الأرض لعباده ليسلكوا منها سبلاً فجاجًا، وجعل منها وإليها تاراتهم الثلاث نباتًا وإعادة وإخراجًا. دحاها[١] بقدرته فكانت مهادًا للعباد، وأرساها بالأعلام الراسيات والأطواد، ورفع فوقها سمك السماء بغير عماد، وأطلع الكواكب هداية فى ظلمات البر والبحر، وجعل القمر نورًا والشمس سراجًا، ثم أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد الممات، وأنبت فيها من كل الثمرات. وفطر أقطارها بصنوف النبات، وفجر البحرين عذبًا فراتًا، وملحًا أجاجًا، وأكمل على خلقه الإنعام بتذليل مطايا الأنعام، وتسخير المنشآت كالأعلام لتمتطوا من صهوة القفر ومتن البحر أثباجًا[٢]. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الذى أوضح للخلق منهاجًا. وطلع نور هدايته وهّاجًا. بعثه الله تعالى رحمة للعالمين، واختاره خاتمًا للنبيين، وأمكن صوارمه[٣] من رقاب المشركين حتى دخل الناس فى دين الله أفواجًا، وأيده بالمعجزات الباهرات، وأنطق بتصديقه الجمادات، وأحيا بدعوته الذمم الباليات، وفجر من بين أنامله ماء ثجّاجًا، ورضى الله تعالى عن المتشرفين بالانتماء إليه أصحابًا وآلاً وأزواجًا، المقيمين تقاة الدين فلا تخشى بعدهم اعوجاجًا، فهم الذين آزروه على جهاد الأعداء، وظاهروه على إظهار الملة البيضاء، وقاموا بحقوقها الكريمة من الهجرة والنصرة والإيواء، واقتحموا

(١) دحاها: أى: بسطها ووسعها. الوجيز ص(٢٢٢).

(٢) الثبج: وسط الشىء تجمع وبرز، ومنه ثبج البحر، وثبج الصدر والظهر. والجمع أثباج وثبوج. الوجيز ص(٨٢).

(٣) الصوارم، جمع صارم: والمراد به السيف القاطع. الوجيز ص(٣٦٤).

دونه نار البأس حامية، وخاضوا بحر الموت عَجَّاجًا(١)، ونستوهبُ اللهَ تعالى لمولانا الإمام الخليفة أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين المجاهد فى سبيل الله المؤيد بنصر الله - أبى عنان فارس ابن موالينا الأئمة المهتدين الخلفاء الراشدين نصرًا يوسع الدنيا وأهلها ابتهاجًا، وسعادًا يكون لزمانة الزمان علاجًا، كما وهبه الله بأسًا وجودًا لم يدع طاغيًا ولا محتاجًا، وجعل بسيفه وسيبه(٢) لكل ضيقة انفراجًا.

وبعد، فقد قضت العقول، وحكم المعقول والمنقول، بأن هذه الخلافة العلية، المجاهدة المتوكلة الفاسية، هى ظل الله الممدود على الأنام، وحبله الذى به الاعتصام، وفى سلك طاعته يجب الانتظام، فهى التى أبرأت الدين عند اعتلاله، وأغمدت سيف العدوان عند انسلاله، وأصلحت الأيام بعد فسادها، ونفقت سوق العلم بعد كسادها، وأوضحت طرق البر عند انتهاجها، وسكنت أقطار الأرض عند ارتجاجها، وأحيت سنن المكارم بعد مماتها، وأماتت رسوم المظالم بعد حياتها، وأخمدت نار الفتنة عند اشتعالها، وأنقضت حكام البغى عند استقلالها، وشادت مبانى الحق على عماد التقوى، واستمسكت من التوكل على الله بالسبب الأقوى، فلها العز الذى عقد تاجه على مفرق الجوزاء، والمجد الذى جر أذياله على مجرة السماء، والسعد الذى رد على الزمان غض شبابه، والعدل الذى على أهل الإيمان مدّ يد أطنابه، والجود الذى قطر سحابة اللجين والنضار، والبأس الذى فيه غمامة الدر الموار، والنصر الذى تفض كتائبه الأجل، والتأييد الذى بعض غنائمه الدول، والبطش الذى سبق سيفه العذل(٣)، والأناة التى لا يمل عندها الأمل، والحزم الذى يسد على الأعداء وجوه المسارب، والعزم الذى يفل جموعها قبل قراع الكتائب، والحلم الذى يجنى العفو من ثمر الذنوب، والرفق الذى جمع على

---

(١) العجاج: يُقال: نهر عجاج بالتشديد أى لمائه صوت. مختار الصحاح ص(٤١٣)، الوجيز ص(٤٠٦).

(٢) السيب: العطاء. الوجيز ص(٣٣١).

(٣) العذل: اللوم. وفى المثل: سبق السيف العَذَل: يضرب لما قد فات ولا يستدرك، فهو عاذل. الوجيز ص(٤١١).

محبته بنات القلوب، والعلم الذى يجلو نوره دياجى المشكلات والعمل المفيد بالإخلاص والأعمال بالنيات.

ولما كانت حضرته العلية: مطمح الآمال، ومسرح همم الرجال، ومحط رحال الفضائل، ومثابة أمن الخائف، ومنية السائل، توخى الزمان خدمتها ببدائع تحفه، وروائع طرفه، فانثال عليها العلماء انثيال جودها على الصفات، وتسابق إليها الأدباء تسابق عزماتها إلى العداة، وحج العارفون حرمها الشريف، وقصد السائحون استطلاع معناها المنيف، ولجأ الخائفون إلى الامتناع بعز جنابها، واستجارت الملوك بخدمة أبوابها، فهى القطب الذى عليه مدار العالم، وفى القطع بتفضيلها تساوت بديهة عقل الجاهل والعالم، وعن مآثرها الفائقة يسند صحاح الآثار كل مسلم، وبإكمال محاسنها الرائقة يفصح كل معلم، وكان ممن وفد على بابها السامى، وتعدى أوشال البلاد إلى بحرها الطامى، الشيخ الفقيه السائح الثقة الصدوق، جوال الأرض، ومخترق الأقاليم بالطول والعرض، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى المعروف بابن بطوطة المعروف فى البلاد الشرقية بشمس الدين، وهو الذى طاف الأرض معتبراً، وطوى الأمصار مختبراً، وباحث فرق الأمم، وسبر[1] سير العرب والعجم، ثم ألقى عصا التسيار بهذه الحضرة العليا، لما علم أن لها مزية الفضل دون شرط ولا ثنيا، وطوى المشارق إلى مطلع بدرها بالغرب، وآثرها على الأقطار إيثار التبر[2] على الترب، اختياراً بعد طول اختبار البلاد والخلق، ورغبة اللحاق بالطائفة المثلى، التى على الحق: فغمره من إحسانه الجزيل، وامتنانه الحفى الحفيل، ما أنساه الماضى بالحال، وأغناه عن طول الترحال، وحقر عنده ما كان مَنْ سواه يستعظمه، وحقق لديه ما كان من فضله يتوهمه، فنسى ما كان ألفه من جولان البلاد،

---

(١) سبر سير العرب: أى علمها جيداً. الوجيز ص(٣٠٠). وانظر مختار الصحاح ص(٢٨٣).

(٢) التبر: ما كان من الذهب غير مضروب، فإذا ضرب دنانير فهو عين ولا يُقال: تبر إلا للذهب وبعضهم يقوله للفضة أيضًا. مختار الصحاح ص(٧٤).

وظفر بالمرعى الخصب بعد طول الارتياد، ونفذت الإشارة الكريمة بأن يملى ما شاهده فى رحلته من الأمصار، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار، ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار، وعلمائها الأخيار، وأوليائها الأبرار، فأملى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر، وبهجة المسامع والنواظر، من كل غريبة أفاد باجتلائها، وعجيبة أطرف بانتحائها، وصدر الأمر العالى لعبد مقامهم الكريم، المنقطع إلى بابهم المتشرف بخدمة جنابهم: محمد بن محمد بن جزى الكلبى، أعانه الله على خدمتهم، وأوزعه شكر نعمتهم، أن يضم أطراف ما أملاه الشيخ أبو عبد الله من ذلك مشتملاً فى تصنيف يكون على فوائده مشتملاً، ولنيل مقاصده مكملاً، متوخيًا تنقيح الكلام وتهذيبه، معتمدًا إيضاحه وتقريبه، ليقع الاستمتاع بتلك الطرف، ويعظم الانتفاع بدرّها عند تجريده من الصدف. فامتثل ما أمر به مبادراً، وشرع فى منهله ليكون بمعونة الله عن توفية الغرض منه صادراً، ونقلت معانى كلام الشيخ أبى عبد الله بألفاظ موفية للمقاصد التى قصدها، موضحة للمناحى التى اعتمدها، وربما أوردت لفظه على وضعه، فلم أخل بأصله ولا فرعه، وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار، ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار، على أنه سلك فى إسناد صحاحها أقوم المسالك، وخرج عن عهدة سائرها بما يشعر من الألفاظ بذلك، وقيدت المشكل من أسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط، ليكون أنفع فى التصحيح والضبط، وشرحت ما أمكننى شرحه من الأسماء العجمية، لأنها تلتبس بعجمتها على الناس، ويخطئ فى فك معماها معهود القياس، وإنا لنرجو أن يقع ما قصدته من المقام العلى، أيده الله بمحل القبول، وأبلغ من الإغضاء عن تقصيره المأمول، فعوائدهم فى السماح جميلة، ومكارمهم بالصفح عن الهفوات كفيلة، والله تعالى يديم لهم عادة النصر والتمكين، ويعرفهم عوارف التأييد والفتح المبين.

نقطة البداية

قال الشيخُ الفقيه العالمُ الشقةُ الناسكُ الأبرُّ وفد الله المعتمر شرف الدين المعتمد فى سياحته على رب العالمين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد

ابن إبراهيم اللواتى ثم الطنجى المعروف بابن بطوطة رحمه الله ورضى عنه وكرّمه آمين:

كان خروجي من طنجة مسقط رأسى فى يوم الخميس الثانى من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة، معتمداً حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام. منفرداً عن رفيق آنس بصحبته، وراكب أكون فى جملته، لباعث على النفس شديد العزائم، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن فى الحيازم[١]. فحزمت أمرى على هجر الأحباب من الإناث والذكور، وفارقتُ وطنى مفارقةَ الطيورِ للوكور. وكان وَالِدَى بقيد الحياة، فتحملت لبعدهما وصبا[٢]، ولقيت -كما لَقيا- من الفراق نصَبًا[٣] وسنى يومئذ اثنتان وعشرون سنة.

قال ابن جزى: أخبرنى أبو عبد الله بمدينة غرناطة أن مولده بطنجة فى يوم الإثنين السابع عشر من رجب الفرد سنة ثلاث وسبعمائة.

وكان ارتحالى فى أيام أمير المؤمنين وناصر الدين، المجاهد فى سبيل رب العالمين، الذى رويت أخبار جوده موصولة الإسناد بالإسناد، وشهرت آثار كرمه شهرة واضحة الإشهاد، وتحلت الأيام بحلى فضله، ورتع الأنام فى ظل رفقه وعدله، الإمام المقدس أبى سعيد ابن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين الذى فل حدَّ الشرك صدقُ عزائمه، وأطفأتْ نارَ الكفر جداولُ صارمه، وفتكت بعباد الصليب كتائبه، وكرمت فى إخلاص الجهاد مذاهبه، الإمام المقدس أبى يوسف ابن عبد الحق، جدد الله عليهم رضوانه وسقى ضرائحهم المقدسة من صوب الحيا طله[٤] وتهتانه، وجزاهم أفضلَ الجزاءِ عن الإسلام والمسلمين، وأبقى الملك فى عقبهم إلى يوم الدين. فوصلت مدينة

(١) الحيازم: جمع حيزوم: وهو الصدر أو وسطه، ويُقال: اشدد للأمر حيازيمك: استعدله. الوجيز ص(١٤٨).

(٢) الوصب: الوجع والمرض والتعب والفتور فى البدن. الوجيز ص(٦٧١).

(٣) يُقال نَصِبَ ينصب نَصَبًا: أعيا وتعب. الوجيز ص(٦١٧).

(٤) الطَّلُّ: المَطر الخَفيف يكون له أثر قليل. الوجيز (٣٩٤).

تلمسان وسلطانها يومئذ أبو تاشفين عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمر اسن ابن زيان. ووافقت بها رسولى ملك إفريقية السلطان أبى يحيى رحمه الله، وهما قاضى الأنكحة بمدينة تونس أبو عبد الله محمد بن أبى بكر على بن إبراهيم النفزاوى، والشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله القرشى الزُّبيدى (بضم الزاى) نسبة إلى قرية بساحل المهدية، وهو أحد الفضلاء، وكانت وفاته عام أربعين. وفى يوم وصولى إلى تلمسان، خرج عنها الرسولان المذكوران، فأشار على بعض الإخوان بمرافقتهما، فاستخرتُ الله عزَّ وجلَّ فى ذلك[1] وأقمت بتلمسان ثلاثًا فى قضاء مآربى، وخرجت أجدّ السير فى آثارهما، فوصلت مدينة مليانة، وأدركتهما بها، وذلك فى إبان القيظ. فلحق الفقيهين مرضٌ أقمنا بسببه عشرًا، ثم ارتحلنا وقد اشتد المرض بالقاضى[2] منهما، فأقمنا ببعض المياه على مسافة أميال من مليانة ثلاثًا، وقضى القاضى نحبه ضحى اليوم الرابع، فعاد ابنه أبو الطيب ورفيقه أبو عبد الله الزبيدى إلى مليانة فقبروه بها. وتركتهم هنالك، وارتحلت مع رفقة من تجار تونس، منهم الحاج مسعود بن المنتصر، والحاج العدولى، ومحمد بن الحجر، فوصلنا مدينة الجزائر، وأقمنا بخارجها أيامًا،

---

(١) الاستخارة أن يصلى المرء ركعتين من غير الفريضة ويدعو بدعاء الاستخارة الذى أخرجه أحمد (٣/ ٣٤٤)، وعبد بن حميد (١٠٨٩)، والبخارى (٢/ ٧٠)، (٨/ ١٠١)، (٩/ ١٤٤)، وفى الأدب المفرد (٧٠٣)، وأبو داود (١٥٣٨)، وابن ماجه (١٣٨٣)، والترمذى (٤٨٠)، والنسائى (٨٠١٦)، وفى عمل اليوم والليلة (٤٩٨) عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله -ﷺ- يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها، كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم يقول: اللهم إنى أستخيرك بعلمك، وأستعينك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى - أو قال: فى عاجل أمرى وآجله - فاقدره لى ويسره لى ثم بارك لى فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى - أو قال: فى عاجل أمرى وآجله - فاصرفه عنى واصرفنى عنه، واقدر لى الخير حيث كان، ثم رضنى به. قال: ويسمى حاجته.

(٢) يعنى: أبا عبد الله محمد بن أبى بكر على بن إبراهيم.

إلى أن قدم الشيخ أبو عبـد الله، وابن القاضى. فتوجهنا جميعًا على منبجة جبل الزان، ثم وصلنا إلى مدينة بجاية فنزل الشيخ أبو عبد الله بدار قاضيها أبى عبد الله الزواوى، ونزل أبو الطيب ابن القاضى بدار الفقيه أبى عبد الله المفسر، وكان أميرُ بجاية إذ ذاك أبا عبـد الله محمد بن سيد الناس الحاجب، وكان قد توفى من تجار تونس الذين صحبتهم من مليانة محمد بن الحجر الذى تقدم ذكره، وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب، وأوصى بها لرجل من أهل الجزائر يعرف بابن حديدة، ليوصلها إلى ورثته بتونس فانتهى خبره لابن سيد الناس المذكور فانتزعها من يده، وهذا أول ما شاهدته من ظلم الموحدين وولاتهم. ولما وصلنا إلى بجاية كما ذكرته، أصابتنى الحمى، فأشار على أبو عبد الله الزبيدى بالإقامة فيها حتى يتمكن البرء منى، فَأَبَيْتُ وَقُلْتُ إن قضى الله عز وجل بالموت فتكون وفاتى بالطريق وأنا قاصد أرض الحجاز. فقال لى أما إن عزمت فبع دابتك وثقل المتاع، وأنا أعيرك دابة وخباءً وتصحبنا خفيفًا، فإننا نجدُّ السير خوف غارة(١) العرب فى الطريق، ففعلت هذا، وأعارنى ما وعد به، جزاه الله خيرًا وكان ذلك أول ما ظهر لى من الألطاف الإلهية فى تلك الوجهة الحجازية، وسرنا إلى أن وصلنا مدينة قسنطينية، فنزلنا خارجها وأصابنا مطر جود فاضطررنا إلى الخروج عن الأخبية ليلاً إلى دور هنالك. فلما كان من الغد تلقانا حاكم المدينة، وهو من الشرفاء الفضلاء يسمى بأبى الحسن، فنظر إلى ثيابى وقد لوثها المطر، فأمر بغسلها فى داره. وكان الإحرام منها خلقًا(٢)، فبعث مكانه إحرامًا بعلبكيًّا، وصرّ فى أحد طرفيه دينارين من الذهب. فكان ذلك أول ما فتح به على فى وجهتى. ورحلنا إلى أن وصلنا مدينة بونة، ونزلنا بداخلها، وأقمنا بها أيامًا، ثم تركنا بها ما كان فى صحبتنا من التجار؛ لأجل الخوف فى الطريق، وتجردنا للسير، وواصلنا الجد، وأصابتنى الحمى، فكنت أشد نفسى بعمامة فوق السرج خوف السقوط بسبب الضعف، ولا يمكننى النزول من الخوف، إلى أن وصلنا إلى مدينة

---

(١) الغارة: الهجوم على العدو. الوجيز ص(٤٥٧).

(٢) خلق الثوب والجلد وغيرهما يخلَق خَلَقًا: بلى. الوجيز ص(٢٠٩).

تونس، فبرز أهلها للقاء الشيخ أبى عبد الله الزبيدى، ولقاء أبى الطيب ابن القاضى أبى عبد الله النفزاوى، فأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال، ولم يسلّم علىَّ أحدٌ، لعدم معرفتى بهم، فَوَجَدَتْ مِنْ ذلك النفسُ ما لم أملك معه سوابقَ العبرةِ، واشتد بكائى، فشعر بحالى بعض الحجاج فأقبل على بالسلام والإيناس، وما زال يؤنسنى بحديثه حتى دخلت المدينة ونزلت منها بمدرسة الكتبيين.

قال ابن جزى: أخبرنى شيخى قاضى الجماعة أخطب الخطباء أبو البركات محمد بن محمد إبراهيم السلمى هو ابن الحاج البلفيقى أنه جرى له مثل هذه الحكاية، قال: قصدت مدينة بلش من بلاد الأندلس فى ليلة عيد، برسم رواية الحديث المسلسل[1] بالعيد عن أبى عبد الله ابن الكماد، وحضرت المصلى مع الناس، فلما فرغت الصلاة والخطبة، أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام، وأنا فى ناحية لا يسلم على أحد، فقصد إلىَّ شيخ من أهل المدينة المذكورة، وأقبل على بالسلام والإيناس، وقال: نظرت إليك، فرأيتك منتبذاً من الناس، لا يسلم عليك أحد فعرفت أنك غريب فأحببت إيناسك جزاه الله خيراً.

خبر حاكم تونس

وكان سلطانُ تونس عند دخولى إليها السلطان أبا يحيى ابن السلطان أبى زكريا يحيى ابن السلطان أبى إسحاق إبراهيم ابن السلطان أبى زكريا يحيى ابن عبد الواحد بن أبى حفص رحمه الله. وكان بتونس جماعة من

---

(١) أى أنه مسلسل بسماع رجاله جميعًا فى يوم العيد.

والحديث المسلسل: هو الذى اتفق رواته على تلقى الحديث بصيغة معينة أو حالة معينة.

قال البيقونى:

مسلسل قل ما على وصف أتى ... مثل: أما والله أنبأنى الفتى
كذاك قد حدثنيه قائمًا ... أو بعد أن حدثنى تبسما

وانظر الباعث الحثيث (ص١٤٢، ١٤٣).

أعلام العلماء منهم قاضى الجماعة بها أبو عـبد الله محمد ابن قاضى الجماعة أبى العباس أحمد بن محمـد بن حسن بن محمد الأنصارى الخزرجى البلنسى الأصل، ثم التونسى هو ابن الـغماز، ومنهم الخطيب أبو إسـحاق إبراهيم بن حسين بن على بن عـبد الرفيع، وولى أيضًا قضاء الجـماعة فى خمس دول، ومنهم الفقيـه أبو على عمر بن على بن قداح الهوارى، وولى أيضًـا قضاءها وكان من أعلام العلماء. ومن عوائده[1] أنه يستند كل يوم جمعة بعد صلاتها إلى بعض أساطين الجامع الأعظم المعـروف بجامع الزيتونة، ويستفـتيه الناس فى المسائل. فإذا أفـتى فى أربعين مسألة انصرف عـن مجلسه ذلك، وأظلنى بتونس عـيد الفطر، فحـضرت المصلّى، وقد احتـفل الناس لشهود عـيدهم، وبرزوا فى أجمل هيئة وأكمل شارة. ووافى المسجد السلطان أبو يحيى المذكور راكبًا وجـميع أقاربه وخواصـه، وخدم مملكته مشاة على أقـدامهم فى ترتيب عجـيب، وصليت الصلاة، وانقضت الخطبـة، وانصرف الناس إلى منازلهم. وبعد مدة تعين لركب الحـجاز الشريف شيخه ويعـرف بأبى يعقوب السوسى من أهل أقل من بلاد إفـريقية، وأكـثره المصامـدة. فقدمـونى قاضـيًا بينهم، وخرجنا من تونس فى أواخر شهر ذى القعدة سالكين طريق الساحل، فوصلنا إلى بلدة سوسـة، وهى صغيـرة حسنة مبنيـة على شاطئ البحـر، بينها وبين مدينة تونس أربعـون ميلاً، ثم وصلنا إلى مدينة صفـاقس وبخارج هذه البلدة قبر الإمام أبى الحسن اللخمى المالكى مؤلف كتاب «التبصرة» فى الفقه.

قال ابن جزى: فى بلدة صفاقس يقول على بن حبيب التنوخى:

سـقـيـًا لأرض صفـاقـس ... ذات الـمصانـع والمصلَّـى
محمـى القصير إلى الخليج ... فقصرهـا السامـى المعلّـى
بلـد يكـاد يقـول حـين ... تـزوره أهـلاً وسهـلاً
وكـأنـه والـبحـر يحـ ... ـسـر تـارة عنـه ويـملا
صَـب يـريـد زيـادة ... فـإذا رأى الـرقـبـاء ولّـى

(١) العوائد: العادات: وهى الحالة تتكرر على نهج واحد. الوجيز ص(٤٣٩).

وفى عكس ذلك يقولُ الأديبُ البارعُ أبو عبد الله محمد بن أبى تميم وكان من المجيدين المكثرين:

صفاقس لا صفا عيش لساكنها ... ولا سقى أرضها غيث[١] إذا انسكبا
ناهيك من بلدة من حل ساحتها ... عانى بها العاديين الروم والعربا
كم ضل فى البر مسلوبًا بضاعته ... وبات فى البحر يشكو الأسر والعطبا[٢]
قد عاين البحر من لؤم لقاطنها ... فكلما هَمَّ أن يدنو لها هربا

ثم وصلنا إلى مدينة قابس ونزلنا بداخلها، وأقمنا بها عشرًا لتوالى نزول الأمطار.

قال ابن جزى: فى ذكر قابس يقول بعضهم:

لهفى على طيب ليال خلت ... بجانب البطحاء من قابس
كأن قلبى عند تذكارها ... جذوة[٣] نار بيد القابس

ثم خرجنا من مدينة قابس قاصدين طرابلس، وصحبنا فى بعض المراحل إليها نحو مائة فارس أو يزيد، وكان بالركب قوم رماة فهابتهم العرب، وتحامت مكانهم، وعصمنا الله منهم، وأظلنا عيد الأضحى فى بعض تلك المراحل. وفى الرابع بعده وصلنا إلى مدينة طرابلس، فأقمنا بها مدة وكنت عقدت بصفاقس على بنت لبعض أمناء تونس، فبنيت عليها بطرابلس، ثم خرجت من طرابلس أواخر شهر المحرم من عام ستة وعشرين، ومعى أهلى، وفى صحبتى جماعة من المصامدة وقد رفعت العلم، وتقدمت عليهم، وأقام الركب فى طرابلس خوفًا من البرد والمطر، وتجاوزنا مسلاته ومصراته وقصور سرت. وهنالك أرادت طوائف العرب الإيقاع بنا ثم صرفتهم القدرة، وحالت دون ما راموه من أذيتنا ثم توسطنا الغابة، وتجاوزناها إلى قصر برصيصا العابد، إلى قبة سلام، وأدركنا هنالك الركب الذين تخلفوا

---

(١) الغيث: المطر، أو الخاص منه بالخير. الوجيز ص(٤٥٨).
(٢) العطب: يُقال: عطب يعطَب عطبًا: هلك، أو فسد. الوجيز ص(٤٢٣).
(٣) الجذوة: الجمرة الملتهبة، والجمع جذى، وجذاء، وفى القرآن الكريم: ﴿لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون﴾. الوجيز ص(٩٨).

بطرابلس، ووقع بيني وبين صهري مشاجـرة أوجبت فراق بنته، وتزوجت بنتًا لبعض طلبة فـاس، وبنيت بها بقصر الزعافيـة، وأولمت وليمة[١] حبست لها الركب يومًـا وأطعـمـتـهم، ثم وصـلنا في أول جـمـادى الأول إلى مـدينة الإسكندرية حرسها الله، وهي الثغر المحروس، والقطر المأنوس العجيبة الشأن الأصيلة البنيان، بهـا ما شئت من تحسين وتحصين، ومـآثر دنيا ودين، كرمت مغانيـها، ولطفت معانيـها، وجمعت بين الضخـامة والإحكام مبانيـها، فهي الفـريدة في تجلي سناها، والخـريدة[٢] تجلي في حـلاها، الزاهيـة بجـمالهـا المُغرب، والجامعة لمفترق المحاسن، لتوسطها بين المشرق والمغرب، فكل بديعة بها اخـتلاؤها، وكل طرفـة فإليهـا انتهـاؤها. وقد وصفـها الناس فـأطنبوا، وصنفوا في عجائبها فأغربوا، وحسب المشوق إلى ذلك ما سطره أبو عبيد في كتاب «المسالك».

مدينة الإسكندرية - أبوابها - مرساها

ولمدينة الإسـكندرية أربعـة أبواب: بـاب السـدرة وإليـه يشـرع طريق المغرب، وباب رشـيد، وباب البحـر، والباب الأخضـر، وليس يفتح إلا يوم الجمعة، فيخـرج الناس منه إلى زيارة القبور. ولها المُرْسَى[٣] العظيم الشأن، ولم أر في مراسي الدنيـا مثله، إلا ما كان من مـرسى كولـم وقاليقـوط ببلاد الهند، ومرسى الكفـار بسرادق ببلاد الأتراك، ومرسى الزيتـون ببلاد الصين، وسيقع ذكرها.

منار الإسكندرية

قصدت المنار[٤] في هذه الوجهة فرأيت أحد جوانبه متهدمًا. وصفته أنه

---

(١) الوليمة: كل طعام صنع لعرس وغيره. الوجيز ص(٦٨١).

(٢) الخريدة: اللؤلؤة لم تثقب: والجمع - رائد. الوجيز ص(١٩٠).

(٣) المُرْسَى: محط السفينة بالساحل، والجمع مراسٍ. الوجيز ص(٢٦٤).

(٤) المنار، والمنارة: مـا يُقـام في المـواني لتـهـتـدى به السـفن. والجـمع منارات. الوجيـز ص(٦٣٨).

بناء مربع، ذاهب فى الهواء، وبابه مرتفع على الأرض، وإزاء بابه بناء بقدر ارتفاعه، وضعت بينهما ألواح خشب، يُعْبَرُ عليها إلى بابه، فإذا أزيلت لم يكن له سبيل. وداخل الباب موضع لجلوس حارس المنار. وداخل المنار بيوت كثيرة. وعرض الممر بداخله تسعة أشبار، وعرض الحائط عشرة أشبار، وعرض المنار من كل جهة من جهاته الأربع مائة وأربعون شبرًا، وهو على تل مرتفع. ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ واحد فى بر مستطيل، يحيط به البحر من ثلاث جهات، إلى أن يتصل البحر بسور البلد، فلا يمكن التوصل إلى المنار فى البر إلا من المدينة، وفى هذا البر المتصل بالمنار مقبرة الإسكندرية. وقصدت المنار عند عودى إلى بلاد المغرب عام خمسين وسبعمائة، فوجدته قد استولى عليه الخراب، بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه. وكان الملك الناصر -رحمه الله- قد شرع فى بناء منار بإزائه، فعاقه الموت من إتمامه.

عمود السوارى الهائل

ومن غرائب هذه المدينة عمود الرخام الهائل الذى بخارجها، المسمى عندهم بعمود السوارى، هو متوسط فى غابة نخل، وقد امتاز عن شجراتها سموًا وارتفاعًا. وهو قطعة واحدة محكمة النحت، قد أقيم على قواعد حجارة مربعة، أمثال الدكاكين العظيمة، ولا تعرف كيفية وضعه هنالك ولا يتحقق من وضعه.

قال ابن جزى: أخبرنى بعض أشياخى الرحالين أن أحد الرماة بالإسكندرية صعد إلى أعلى ذلك العمود ومعه قوسه وكنانته واستقرَّ هنالك وشاع خبره، فاجتمع الجمع الغفير لمشاهدته، وطال العجبُ منه، وخفى على الناس وجه احتياله. وأظنه كان خائفا، أو طالب حاجة، فأنتج له فعله الوصول إلى قصده لغرابة ما أتى به، وكيفية احتياله فى صعوده أنه رمى بنشابة قد عقد بفُوقها[1] خيطًا طويلاً، وعقد بطرف الخيط حبلاً وثيقًا،

(١) الفوق من السهم: حيث يثبت الوتر منه، وله زغتان وهما حرفاه. الوجيز ص(٤٨٥).

فتـجاوزت النشابة أعلى الـعمود معـترضة عـليه، ووقعت من الجـهة الموازية للرامى، فصار الخيط مـعترضًا على أعلى العمود، فـجذبه حتى توسط الحبل أعلى العمود مكان الخـيط، فأوثقه من إحدى الجـهتين فى الأرض، وعلق به صاعدًا من الجـهة الأخرى، واستقـر بأعلاه وجذب الحبل، واسـتصحب من احتمله، فلم يهتد الناس لحيلته، وعجبوا من شأنه.

وكان أمـير الإسكندرية فى عهد وصـولى إليها يسـمى بصلاح الدين، وكان فيها أيضًا فى ذلك العهد سلطان أفريقية المخلوع، وهو زكرياء أبو يحيى ابن أحمد بن أبى حـفص المعروف باللحيانى. وأمـر الملك الناصر بإنزاله بدار السلطنة من إسكندرية، وأجرى له مائة درهم فـى كل يوم، وكان معه أولاده عبد الواحد ومصرى وإسكندرى، وحـاجبه أبو زكريا بن يعقوب، ووزيره أبو عبد الله بن ياسين. وبالإسكندرية توفى اللحيانى المذكور، وولده الإسكندرى وبقى المصرى بها.

قال ابن جـزى: من الغريب ما اتفق من صدق الزجـر فى اسمى ولدى اللحيانى الإسـكندرى والمصرى فمات الإسكندرى بهـا، وعاش المصرى دهرًا طويلاً بها وهى من بلاد مـصر. وتحول عـبد الواحد لبـلاد الأندلس والمغرب وأفريقية، وتوفى هنالك بجزيرة جربة.

خبر بعض علماء الإسكندرية

وعلى رأسهم عـماد الدين الكندى، إمـام من أئمة علم اللسـان. وكان يعتم بعمامة خرقت المعتاد للعمـائم لم أر فى مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها، رأيته يومـًا قاعدًا فى صدر المحراب، وقد كادت عـمامته أن تملأ المحراب. ومنهم فـخر الدين بن الريغى، وهو أيضًا من قـضاة الإسكندرية، وفاضـل من أهل العلم. يذكر أن جـده كان من أهل ريغـة، واشتـغل بطلب العلم، ثم رحل إلى الحـجاز، فـوصل الإسكندرية بالعـشى، وهو قليل ذات اليد، فأحب أن لا يدخلها حتى يسمع فألاً حـسنًا، فقعد قريبًا من بابها، إلى أن دخل جميع الناس. وجاء وقتُ سدِّ الباب، ولم يبق هنالك سواه، فاغتاظ

الموكل بالباب من إبطائه، وقال متهكمًا: ادخل يا قاضى، فقال: قاضٍ إن شاء الله، ودخل إلى بعض المدارس، ولازم القراءة، وسلك طريق الفضلاء، فعظم صيته، وشهر اسمه، وعرف بالزهد والورع، واتصلت أخباره بملك مصر. واتفق أن توفى قاضى الإسكندرية وبها إذ ذاك الجم الغفير من الفقهاء والعلماء، وكلهم متشوف للولاية، وهو من بينهم، لا يتشوف لذلك فبعث إليه السلطان بالتقليد، وهو ظهير القضاء، وأتاه البريد بذلك، فأمر خديمه أن ينادى فى الناس من كانت له خصومة فليحضر لها، وقعد للفصل بين الناس، فاجتمع الفقهاء وسواهم إلى رجل منهم كانوا يظنون أن القضاء لا يتعداه، وتفاوضوا فى مراجعة السلطان فى أمره، ومخاطبته بأن الناس لا يرتضونه. وحضر لذلك أحد الحذاق[١] من المنجمين، فقال لهم: لا تفعلوا ذلك فإنى عدلت طالع ولايته، وحققته فظهر لى أنه يحكم أربعين سنة. فأضربوا عما هموا به من المراجعة فى شأنه. وكان أمره على ما ظهر للمنجم[٢]. وعرف فى ولايته بالعدل والنزاهة. ومنهم وجيه الدين الصنهاجى من قضاتها، مشتهر بالعلم والفضل. ومنهم شمس الدين ابن بنت التنيسى فاضل شهير الذكر. ومن الصالحين بها الشيخ أبو عبد الله الفاسى من كبار أولياء الله تعالى، يذكر أنه كان يسمع رد السلام عليه إذا سلم من صلاته.

ومنهم الإمام العالم الزاهد الخاشع الورع خليفة صاحب المكاشفات، وأخبرنى بعض الثقات من أصحابه قال: رأى الشيخ خليفة رسول الله -ﷺ- فى النوم، فقال يا خليفة: زرنا فرحل إلى المدينة الشريفة، وأتى المسجد الكريم، فدخل من باب السلام، وحيا المسجد، وسلم على رسول الله -ﷺ-، وقعد مستندًا إلى بعض سوارى المسجد، ووضع رأسه على ركبتيه، وذلك يسمى عند المتصوفة الترفيق. فلما رفع رأسه وجد أربعة أرغفة، وآنية فيها لبن،

(١) يُقال: حذق فلان العمل، وفيه حِذقًا: أوغل فى ممارسته حتى مهر فيه فهو حاذق، والجمع حذاق. الوجيز ص(١٤١).

(٢) المنجم: من ينظر فى النجوم يحسب مواقيتها وسيرها ويستطلع من ذلك أحوال الكون. الوجيز ص(٦٠٤).

وطبقًا فيها تمر، فـأكل هو وأصحابه وانصرف عائدًا إلى الإسكندرية ولم يحج تلك السنة.

ومنهم الإمام الـعالم الزاهد الورع الخاشع برهـان الدين الأعرج، من كبار الزهاد وأفراد العباد، لقيتـه أيام مقامى بالإسكندرية وأقمت فى ضيافته ثلاثًا، ودخلت عليه يومًا فقال لى: أراك تحب السياحة والجولان فى البلاد، فقلت له: نعم إنى أحب ذلك. ولم يكن حينئذ بخاطرى التوغل فى البلاد القاصية من الهند والصيـن، فقال لابد لك، إن شاء الله من زيارة أخى فريد الدين بـالهند، وأخى ركـن الدين زكــرياء بالـسند، وأخى برهـان الدين بالصين. فإذا بلغتهم فأبلغهم منى السلام فعجبت من قوله وألقى فى روعى التوجـه إلى تلك البلاد ولم أزل أجول حـتى لقيت الثـلاثة الذين ذكرهم، وأبلغتهـم سلامه. ولما ودعته زودنى دراهم لم تزل عـندى محوطة(١). ولم أحتج بعد إلى إنفاقـها، إلى أن سلبها منى كفار الهنود فـيما سلبوه لى فى البحر.

ومنهم الشـيخ ياقوت الحـبشى، من أفراد الـرجال. وهو تلمـيذ أبى العـباس المرسى. وأبو العـباس المرسى تـلميـذ ولى الله تعالى أبى الحـسن الشاذلى الـشهيـر ذى الكرامات الجليلة والمقـامات العـالية. **أما أبو الحـسن الشاذلى** أخبرنى الشيخ ياقوت عن شيـخه أبى العباس المرسى أن أبا الحسن كان يحجُّ فى كـلِّ سنة، ويجعل طريقـه على صعيـد مصـر، ويجاور بمكة شهر رجب وما بعده إلى انقضـاء الحج، ويزور القبر الشريف، ويعود على الدرب الكبيـر إلى بلده. فلما كان فى بعض السنين، وهى آخـر سنة خرج فيها، قال لخديمه: اسـتصحب فأسًا وقفة وحنوطًا(٢)، وما يجهز به الميت. فقال له الخديم: ولماذا يا سيدى؟ فقال له: فى حميثرا سوف ترى. وحميثرا

---

(١) محوطة أى محفوظة. الوجيز ص(١٧٨، ١٧٩).

(٢) الحنوط: كل ما يـخلط من الطيب بأكفـان الموتى وأجسامـهم خاصـة، من مسك وذريرة وصندل وعنبر وكافور وغير ذلك. الوجيز ص(١٧٥).

فى صعيد مصر فى صحراء عيذاب، وبها عين ماء زعاق. وهى كثيرة الضباع. فلما بلغا حميثرا اغتسل الشيخ أبو الحسن، وصلى ركعتين، وقبضه الله عز وجل فى آخر سجدة من صلاته، ودفن هناك. وقد زرت قبره وعليه تبرية مكتوب فيها اسمه ونسبه متصلاً بالحسن بن على -رضي الله عنه-. كان يسافر فى كل عام كما ذكرناه على صعيد مصر وبحر جدة، فكان إذا ركب السفينة يقرأ حزبًا، وتلامذته إلى الآن يقرؤنه فى كل يوم، وهو هذا: يا الله يا على يا عظيم يا حليم يا عليم، أنت ربى وعليك حسبى، فنعم الرب ربى، ونعم الحسب حسبى، تنصر من تشاء، وأنت العزيز الرحيم، نسألك العصمة فى الحركات والسكنات والكلمات والإرادات والخطرات من الشكوك والظنون والأوهام الساترة للقلوب عن مطالعة الغيوب فقد ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً، ليقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً، فثبتنا وانصرنا وسخر لنا هذا البحر، كما سخرت البحر لموسى -عليه السلام-، وسخرت النار لإبراهيم -عليه السلام-، وسخرت الجبال والحديد لداود -عليه السلام-، وسخرت الريح والشياطين والجن لسليمان -عليه السلام-، سخر لنا كل بحر هو لك فى الأرض والسماء، والملك والملكوت، وبحر الدنيا وبحر الآخرة، وسخر لنا شيئًا يا من بيده ملكوت كل شىء. كهيعص حم عسق، انصرنا فإنك خير الناصرين، وافتح لنا فإنك خير الفاتحين، واغفر لنا فإنك خير الغافرين، وارحمنا فإنك خير الراحمين، وارزقنا فإنك خير الرازقين، واهدنا ونجنا من القوم الظالمين، وهب لنا ريحًا طيبة كما هى فى علمك، انشرها علينا من خزائن رحمتك، واحملنا بها حمل الكرامة مع السلامة والعافية فى الدين والدنيا والآخرة، إنك على كل شىء قدير. اللهم يسر لنا أمورنا مع الراحة لقلوبنا وأبداننا، والسلامة والعافية فى ديننا ودنيانا، وكن لنا صاحبًا فى سفرنا، وخليفة فى أهلنا، واطمس على وجوه أعدائنا، وامسخهم على مكانتهم، فلا يستطيعون المضى ولا المجىء إلينا، ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ

فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ ﴾(١) ﴿ يسٓ ﴾ إلى ﴿ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾(٢) شاهت الوجوه ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾(٣) طس طسم حم عسق ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾(٤) حم حم حم حم حم حم حم الأمر، وجاء النصر فعلينا لا ينصرون ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾(٥) باسم الله بابنا، تبارك حيطاننا يس سقفنا. كهيعص كفايتنا. حم عسق حمايتنا: ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾(٦) ستر العرش مسبول علينا، وعين الله ناظرة إلينا، بحول الله لا يقدر علينا ﴿ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾(٧) ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾(٨) ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾(٩) ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾(١٠) بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم(١١).

---

(١) سورة يس: ٦٦، ٦٧.
(٢) سورة يس: ١-٩.
(٣) سورة طه: ١١١.
(٤) سورة الرحمن: ١٩، ٢٠.
(٥) سورة غافر: ١-٣.
(٦) سورة البقرة: ١٣٧.
(٧) سورة البروج: ٢٠-٢٢.
(٨) سورة يوسف: ٦٤.
(٩) سورة الأعراف: ١٩٦.
(١٠) سورة التوبة: ١٢٩.
(١١) ولا شك أن ذلك من البدع التى يجب الكف عنها وعدم فعلها، فإن أحسن الهدى هدى محمد -ﷺ- وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار.

ومما جرى بمدينة الإسكندرية سنة سبع وعشرين، وبلغنا خبر ذلك بمكة شرفها الله، أنه وقع بين المسلمين وتجار النصارى مشاجرة، وكان ولى الإسكندرية رجلاً يعرف بالكركى، فذهب إلى حماية الروم، وأمر المسلمين فحضروا بين فصيلى باب المدينة. وأغلق دونهم الأبواب نكالاً لهم. فأنكر الناس ذلك وأعظموه، وكسروا الباب، وثاروا إلى منزل الوالى، فتحصن منهم، وقاتلهم من أعلاه، وطير الحمام بالخبر إلى الملك الناصر، فبعث أميرًا يعرف بالجمالى، ثم أتبعه أميرًا يعرف بطوغان، جبارًا قاسى القلب متهمًا فى دينه. يقال: إنه كان يعبد الشمس، فدخلا الإسكندرية، وقبضا على كبار أهلها وأعيان التجار بها، كأولاد الكوبك وسواهم، وأخذا منهم الأموالَ الطائلةَ، وجعلت فى عنق عماد الدين القاضى جامعة حديد. ثم إن الأميرين قتلا من أهل المدينة ستة وثلاثين رجلاً، وجعلوا كلَّ رجلٍ قطعتين، وصلبوهم صفين، وذلك فى يوم جمعة، وخرج الناس عن عادتهم بعد الصلاة لزيارة القبور وشاهدوا مصارع القوم، فعظمت حسرتهم وتضاعفت أحزانهم، وكان فى جملة أولئك المصلوبين تاجر كبير القدر يعرف بابن رواحة. وكان له قاعة معدة للسلاح. فمتى كان خوف أو قتال جهز منها المائة والمائتين من الرجال بما يكفيهم من الأسلحة. بالمدينة قاعات على هذه الصورة لكثير من أهلها. فزل لسانه وقال للأميرين: أنا أضمن هذه المدينة وكل ما يحدث فيها أطالب به، وأحوط على السلطان مرتبات العساكر والرجال. فأنكر الأميران قوله، وقالا: إنما تريد الثورة على السلطان وقتلاه. وإنما كان قصده -رحمه الله- إظهار النصح والخدمة للسلطان فكان فيه حتفه(١).

وكنتُ سمعتُ أيامَ إقامتى بالإسكندرية، بالشيخ الصالح العابد المنقطع المنفق من الكون: أبى عبد الله المرشدى، وهو من كبار الأولياء المكاشفين، وأنه منقطع بمنية بنى مرشد له هنالك زاوية، هو منفرد فيها، لا خديم له ولا

---

(١) الحتف: الهلاك، ويُقال: مات فلان حتف أنفه: مات على فراشه بلا ضرب ولا قتل. الوجيز ص(١٣٤).

صاحب. ويقصده الأمـراء والوزراء، وتأتيه الوفود من طوائف الناس فى كل يوم، فيطعمهم الطعام. وكل واحد منـهم ينوى أن يأكل عنده طعامًا أو فاكهة أو حلوى فـيأتى لكل واحـد بما نواه، وربما كان ذلك فى غـير إبانه. ويأتـيه الفقهاء لطلب الخطبـة، فيولى ويعزل، وذلك كله أمر مستفـيض متواتر. وقد قصده المـلك الناصر مرات بموضعـه. فخرجت من مدينة الإسكندريـة قاصدًا هذا الشيخ نفـعنا الله به، ووصلت قرية تَروجَه (وضبطهـا بفتح التاء الفـوقية وواو وجيم مـفتوحة)، وهى عـلى مسيرة نصف يـوم من مدينة الإسكندرية. وهى قـرية كبـيرة بهـا قاضٍ ووالٍ وناظر، ولأهلهـا مكارم أخلاق ومـروءة. صحبت قاضيها صفى الدين، وخطيبها فخر الدين، وفاضلاً من أهلها يسمى بمبارك، وينعـت بزين الدين ونزلت بها على رجل من العـباد الفـضلاء كبـير القدر يسـمى عبد الوهاب. وأضافنى ناظـرها زين الدين بن الواعظ، وسألنى عن بلدى وعن مَجباه، فـأخبـرته أن مجـباه نحو اثـنى عشر ألفًـا من دينار الذهب. فعجب وقال لى: رأيت هذه القرية فإن مـجباها اثنان وسبعون ألف دينار ذهبًا. وإنما عظمت مجـابى ديار مصر؛ لأن جميع أملاكـها لبيت المال. ثم خـرجت من هذه القرية، فـوصلت مدينة دمنهـور، وهى مديـنة كبـيرة، جبايتها كـثيرة، ومحاسنها أثيرة، أم مدن البحيـرة بأسرها، وقطبها الذى عليه مدار أمرها، (وضبطها بدال مهملة وميم مفتوحتين ونون ساكنة وهاء مضمومة وواو وراء) وكان قـاضيها فى ذلك الـعهد فخـر الدين بن مسكين من فقـهاء الشافعيـة، وتولى قضاء الإسكندرية لما عزل عنها عـماد الدين الكندى بسبب الواقعة التى قصصناها. وأخبرنى الثـقة أن ابن مسكين أعطى خمسة وعشرين ألف درهم، وصـرفـهـا من دنانيـر الذهب ألـف دينار على ولاية القـضـاء بالإسكندرية. ثم رحلنا إلى مـدينة فوا: وهذه المديـنة عجيـبة المنظر، حـسنة المخبر، بها البساتين الكثيرة، والفوائد الخطيرة الأثيرة، (وضبطها بالفاء والواو المفتوحين مع تشديد الواو). بها قبـر الشيخ الولى أبى النجاة الشهير الاسم، خبير تلك البلاد، وزاوية الشيخ أبى عـبد الله المرشدى الذى قصدته بمقربة من المدينة. يفـصل بينها خليج هـنالك. فلما وصلت، تعـديتهـا، ووصلت إلى

زاوية الشيخ المذكور قبل صلاة العصر، وسلمت عليه، ووجدت عنده الأمير سلف الدين يلْمَلَك، وهو من الخاصكية. (وأول اسمه ياء وآخر الحروف كاف، ولامه الأولى مسكنة، والثانية مفتوحة، مثل الميم) والعامة تقول فيه الملك فيخطئون. ونزل هذا الأمير بعسكره خارج الزاوية، ولما دخلت على الشيخ رحمه الله قام إلى وعانقنى، وأحضر طعامًا فواكلنى. وكانت عليه جبة صوف سوداء، فلما حضرت صلاة العصر قدمنى للصلاة إمامًا، وكذلك لكل ما حضرنى عنده حين إقامتى معه من الصلاة. ولما أردتُ النومَ قال لى: اصعد إلى سطح الزاوية فنم هناك وذلك أوان القيظ فقلت للأمير: بسم الله. فقال لى: وما منا إلا له مقام معلوم. فصعدت السطح، فوجدت به حصيرًا ونطعًا[1] وآنية للوضوء، وجرة[2] ماء، وقدحًا للشرب فنمت هنالك. وكانت لهذا الشيخ كرامة: فقد رأيت ليلتى تلك، وأنا نائم بسطح الزاوية، كأنى على جناح طائر عظيم يطير بى فى سمت القبلة. يتيامن ثم يشرق، ثم يذهب فى ناحية الجنوب، ثم يبعد الطيران فى ناحية الشرق، وينزل فى أرض مظلمة خضراء ويتركنى بها. فعجبت من هذه الرؤيا، وقلت فى نفسى: إن كاشفنى الشيخ برؤياى فهو كما يحكى عنه. فلما غدوت لصلاة الصبح قدمنى إمامًا لها. ثم أتاه الأمير يلملك فوادعه وانصرف. ووادعه من كان هناك من الزوار وانصرفوا أجمعين من بعد أن زودهم كعيكات صغارًا. ثم سبحت سبحة الضحى[3]. ودعانى وكاشفنى برؤياى، فقصصتها عليه فقال سوف تحج وتزور النبى -ﷺ-، وتجول فى بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك، وتبقى بها مدة طويلة، وستلقى بها دلشاد الهندى، ويخلصك من شدة تقع فيها. ثم زودنى كعيكات ودراهم وودعته وانصرفت. ومنذ فارقته لم ألق فى أسفارى إلا خيرًا، وظهرت على بركاته. ثم لم ألق فيمن لقيته مثله إلا الولى سيدى محمدًا الموله بأرض الهند.

---

(١) النطع: بساط من الجلد، كثيرًا ما كان يقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل. الوجيز ص(٦٢١).

(٢) الجرة: إناء من خزف. الوجيز ص(١٠٠).

(٣) أى صلى صلاة الضحى، وهى مستحبة وتصلى من بعد طلوع الشمس إلى وقت الزوال.

ثم رحلنا إلى مدينة النحرارية، وهى رحبة الفناء، حديثة البناء، أسواقها حسنة الرؤية، (وضبطها بفتح النون وحاء مهمل مسكن وراءين)، وأميرها كبير القدر يعرف بالسعدى، وولده فى خدمة ملك الهند، وسنذكره. وقاضيها صدر الدين سليمان المالكى من كبار المالكية سفر عن الملك الناصر إلى العراق، وولى قضاء البلاد الغربية، وله هيئة جميلة وصورة حسنة. وخطيبها شرف الدين السخاوى من الصالحين. ورحلت منها إلى مدينة أبيار، وهى قديمة البناء، أرجة الأرجاء كثيرة المساجد، ذات حسن زائد (وضبط اسمها بفتح الهمزة وإسكان الباء الموحدة وياء آخر الحروف وألف وراء)، وهى بمقربة من النحرارية. ويفصل بينهما النيل، وتصنع بأبيار ثياب حسان تعلو قيمتها بالشام والعراق ومصر وغيرها. ومن الغريب قرب النحرارية منها. والثياب التى تصنع بها غير معتبرة ولا مستحسنة عند أهلها. ولقيت بأبيار قاضيها عز الدين المليجى الشافعى، وهو كريم الشمائل كبير القدر. حضرت عنده مرة يوم الركبة، وهم يسمون ذلك يوم ارتقاب هلال رمضان. وعادتهم فيه أن يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها[1] بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضى، ويقف على الباب نقيب المتعممين، وهو ذو شارة وهيئة حسنة. فإذا أتى أحد الفقهاء أو الوجوه، تلقاه ذلك النقيب، ومشى بين يديه قائلاً: بسم الله، سيدنا فلان الدين، فيسمع القاضى ومن معه فيقومون له، ويجلسه النقيب فى موضع يليق به. فإذا تكاملوا هنالك، ركب القاضى وركب من معه أجمعون، وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان، وينتهون إلى موضع مرتفع خارج المدينة، وهو مرتقب الهلال عندهم، وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش، فينزل فيه القاضى ومن معه، فيرتقبون الهلال، ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس، ويوقد أهل الحوانيت[2] بحوانيتهم الشمع، ويصل

(١) وجوه جمع وجه، وهو سيد القوم وشريفهم. الوجيز ص(٦٦١).
(٢) الحانوت: دكان الخمار، أو: محل التجارة. الوجيز ص(١٧٤).

الناس مع القاضى إلى داره، ثم ينصرفون، هكذا فعلهم فى كل سنة. ثم توجهت إلى مدينة المحلة الكبيرة وهى جليلة المقدار، حسنة الآثار، كثير أهلها، جامع بالمحاسن شملها، واسمها بيّنٌ. ولهذه المدينة قاضى القضاة ووالى الولاة، وكان قاضى قضاتها أيام وصولى إليها فى فراش المرض ببستان له على مسافة فرسخين[1] من البلد، وهو عز الدين بن الأشمرين، فقصدت زيارته بصحبة نائبه الفقيه أبى القاسم ابن بنون المالكى التونسى، وشرف الدين الدميرى قاضى محلة منوف. وأقمنا عنده يومًا، وسمعت منه، وقد جرى ذكر الصالحين أن على مسيرة يوم من المحلة الكبيرة بلاد البرلس ونسترو، وهى بلاد الصالحين، وبها قبر الشيخ مرزوق صاحب المكاشفات، فقصدت تلك البلاد، ونزلت بزاوية الشيخ المذكور وتلك البلاد كثيرة النخل والثمار والطير البحرى والحوت[2] المعروف بالبورى، ومدينتهم تسمى ملطين، وهى على ساحل البحيرة المجتمعة من ماء النيل وماء البحر المعروفة ببحيرة تنيس. ونسترو بمقربة منها. نزلت هنالك بزاوية الشيخ شمس الدين القلوى من الصالحين، وكانت تنيس بلداً عظيمًا شهيراً، وهى الآن خراب. قال ابن جزى: (تنيس بكسر التاء المثناة والنون المشددة وياء وسين مهمل)، وإليه ينسب الشاعر المجيد أبو الفتح ابن وكيع، وهو القائل فى خليجها:

قم فاسقنى والخليج مضطرب   والريح تثنى ذوائب القصب
كأنها والرياح تعطفها   صب قنا سندسية العذب
والجو فى حلة مُمَسَّكة   قد طرّزتها البروق بالذهب

ونسترو (بفتح النون وإسكان السين وراء مفتوحة وواو مسكن)، والبرلس (بباء موحدة وراء وآخره سين مهملة، وقيده بعضهم بضم حروفه الأول الثلاثة وتشديد اللام، وقيده أبو بكر بن نقطة بفتح الأولين) وهو على

(١) الفرسخ: مقياس من مقاييس الطول يقدر بثلاثة أميال. الوجيز ص(٤٦٧).
(٢) الحوت: السمكة. الوجيز ص(١٧٦).

البحر، ومن غريب ما اتفق به ما حكاه أبو عبد الله الرازى عن أبيه أن قاضى البرلس - وكان رجلاً صالحًا - خرج ليلة إلى النيل. فبينما أسبغ الوضوء، وصلّى ما شاء الله أن يصلى، إذ سمع قائلاً يقول:

لولا رجال لهم سرد يصومونا وآخرون لهم ورد يقومونا
لزلزلت أرضكم من تحتكم سَحَرًا لأنكم قوم سوء لا تبالونا

قال: فتجوزت فى صلاتى، وأدرت طرفى، فما رأيت أحدًا، ولا سمعت حسًّا، فعلمت أن ذلك زاجر من الله تعالى.

ثم سافرت فى أرض رملة إلى مدينة دمياط. وهى مدينة فسيحة الأقطار، متنوعة الثمار، عجيبة الترتيب، آخذة من كل حسن بنصيب. والناس يضبطون اسمها بإعجام الذال. وكذلك ضبطه الإمام أبو محمد عبد الله بن على الرشاطى. وكان شرف الدين الإمام العلامة أبو محمد عبد المؤمن ابن خلف الدمياطى إمام المحدّثين يضبطها بإهمال الدال، ويتبع ذلك بأن يقول خلاف الرشاطى وغيره. وهو أعرف بضبط اسم بلده. ومدينة دمياط على شاطىء النيل، وأهل الدور الموالية يستقون منه الماء بالدلاء[١]، وكثير من دورها بها دركات[٢] ينزل فيها إلى النيل. وشجر الموز بها كثير، يحمل ثمره إلى مصر فى المراكب. وغنمها سائمة[٣] هملاً بالليل والنهار. ولهذا يقال فى دمياط: سورها حلوى، وكلابها غنم. وإذا دخلها أحد، لم يكن له سبيل إلى الخروج عنها إلا بطابع الوالى، فمن كان من الناس معتبرًا، طبع له فى قطعة كاغد، يستظهر به لحراس بابها. وغيرهم يطبع على ذراعه، فيستظهر به. والطير البحرى بهذه المدينة كثير، متناهى السمن. وبها الألبان الجاموسية التى

(١) الدلاء جمع دلو، والدلو: إناء يستقى به من البئر. الوجيز ص(٢٣٣).
(٢) دركات جمع دركة، والدركة: المنزلة السفلى، ضد الدرجة وهى المنزلة العليا. فالنزول لأسفل بالدركة. والصعود لأعلى بالدرجة. الوجيز ص(٢٢٦).
(٣) السائمة: كل إبل أو ماشية ترسل للرعى ولا تعلف. وجمعها سوائم. الوجيز ص(٣٣٠).

لا مثل لها فى عذوبة الطعم وطيب المذاق. وبها الحوت البورى يحمل منها إلى الشام وبلاد الروم ومصر. وبخارجها جزيرة بين البحرين والنيل تسمى البرزخ. بها مسجد وزاوية، لقيت بها شيخها المعروف بابن قفل، وحضرت عنده ليلة جمعة ومعه جماعة من الفقراء الفضلاء المتعبدين الأخيار. قطعوا ليلتهم صلاة وقراءة وذكرًا. ودمياط هذه حديثة البناء والمدينة القديمة هى التى خربها الإفرنج على عهد الملك الصالح. وبها زاوية الشيخ جمال الدين الساوى، قدوة الطائفة المعروفة بالقلندرية، وهم الذين يحلقون لحاهم وحواجبهم. ويسكن الزاوية فى هذا العهد الشيخ فتح التكرورى. وقد روى أن السبب الذى كان يدعو الشيخ جمال الدين الساوى إلى حلق لحيته وحاجبيه أنه كان جميل الصورة حسن الوجه فعلقت به امرأة من أهل ساوة، وكانت تراسله وتعارضه فى الطرق وتدعوه لنفسها، وهو يمتنع ويتهاون، فلما أعياها أمره دست له عجوزًا تصدت له إزاء دار على طريقه إلى المسجد، وبيدها كتاب مختوم، فلما مر بها قالت له: يا سيدى أتحسن القراءة؟ قال: نعم. فقالت له: الكتاب وجهه إلىَّ ولدى، وأحب أن تقرأه على. فقال لها، نعم. فلما فتح الكتاب، قالت له: يا سيدى إن لولدى زوجة، وهى بأسطوان الدار، فلو تفضلت بقراءته بين بابى الدار بحيث تسمعها. فأجابها لذلك. فلما توسط بين البابين غلقت العجوز الباب، وأخرجت المرأة جواريها فتعلقن به، وأدخلنه إلى داخل الدار. وراودته المرأة عن نفسه، فلما رأى أن لا خلاص له، قال لها: إنى حيث تريدين. فأرينى بيت الخلاء. فأرته إياه. فأدخل معه الماء. وكانت عنده موسى جديدة، فحلق لحيته وحاجبيه، وخرج عليها، فاستقبحت هيئته، واستنكرت فعله، وأمرت بإخراجه وعصمه الله بذلك، فبقى على هيئته فيما بعد، وصار كل من يسلك طريقته يحلق رأسه ولحيته وحاجبيه. وذكر أنه لما قصد مدينة دمياط لزم مقبرتها. وكان بها قاض يعرف بابن العميد. فخرج يومًا إلى جنازة بعض الأعيان، فرأى الشيخ جمال الدين بالمقبرة. فقال له: أنت الشيخ المبتدع. فقال له: وأنت القاضى الجاهل، تمر بدابتك بين القبور، وتعلم أن حرمة الإنسان ميتًا كحرمته حيًّا. فقال له

القاضى: وأعظم من ذلك حلقك للحيتك. فقال له: إياى تعنى. وزعق الشيخ، ثم رفع رأسه، فإذا هو ذو لحية سوداء، عظيمة. فعجب القاضى ومن معه، ونزل إليه عن بغلته. ثم زعق ثانيًا فإذا هو ذو لحية بيضاء حسنة، ثم زعق ثالثًا ورفع رأسه. فإذا هو بلا لحية كهيئته الأولى فقبل القاضى يده، وتتلمذ له، وبنى له الزاوية الحسنة، وصحبه أيام حياته حتى مات الشيخ. فدفن بزاويته. ولما حضرت القاضى وفاته أوصى أن يدفن بباب الزاوية، حتى يكون كل داخل إلى زيارة الشيخ يطأ قبره. وبخارج دمياط المزار المعروف بشطا، (بفتح الشين المعجمة والطاء المهملة)، وهو ظاهر البركة، يقصده أهل الديار المصرية. وله أيام فى السنة معلومة لذلك. وبخارجها أيضًا بين بساتينها موضع يعرف بالمنية، فيه شيخ من الفضلاء يعرف بابن النعمان. قصدت زاويته وبت عنده. وكان بدمياط أيام إقامتى بها وال يعرف بالمحسنى من ذوى الإحسان والفضل. بنى مدرسة على شاطئ النيل بها كان نزولى فى تلك الأيام. وتأكدت بينى وبينه مودة.

ثم سافرت إلى مدينة فارسكور، وهى مدينة على ساحل النيل (والكاف الذى فى اسمها مضموم). ونزلت بخارجها. ولحقنى هنالك فارس وجّهه إلىّ الأمير المحسنى، فقال لى: إن الأمير سأل عنك، وعرف بسيرتك، فبعث إليك بهذه النفقة. ودفع إلى جملة دراهم، جزاه الله خيراً. ثم سافرت إلى مدينة أشمون الرمان، (وضبط اسمها بفتح الهمزة وإسكان الشين المعجم). ونسبت إلى الرمان لكثرته بها. ومنها يحمل إلى مصر. وهى مدينة عتيقة كبيرة على خليج من خلج النيل، ولها قنطرة[1] خشب ترسو المراكب عندها، فإذا كان العصر رفعت تلك الخشب، وجازت المراكب صاعدة ومنحدرة. وبهذا البلد قاضى القضاة ووالى الولاة. ثم سافرت عنها إلى مدينة سمنود، وهى على شاطىء النيل. كثيرة المراكب حسنة الأسواق وبينها وبين المحلة الكبيرة ثلاثة فراسخ (وضبط اسمها بفتح السين المهملة والميم وتشديد النون

---

(١) القنطرة: جسر متقوس مبنى فوق النهر يعبر عليه. والجمع قناطر. الوجيز ص(٥١٧).

وضمها وواو ودال مهمل). ومن هذه المدينة ركبت النيل مصعداً إلى مصر، ما بين مدائن وقرى منتظمة، المتصل بعضها ببعض. ولا يفتقر راكب النيل إلى استصحاب الزاد. لأنه مهما أراد النزول بالشاطىء، نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك. والأسواق متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مصر، ومن مصر إلى مدينة أسوان من الصعيد. ثم وصلت إلى مدينة مصر هى أم البلاد، وقرارة فرعون ذى الأوتاد(١)، ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة، المتناهية فى كثرة العمارة، المتناهية بالحسن والنضارة، ومجمع الوارد والصادر، ومحط رجل الضعيف والقادر، وبها ما شئت من عالم وجاهل، وجاد وهازل، وحليم وسفيه، ووضيع ونبيه، وشريف ومشروف، ومنكر ومعروف، تموج موج البحر بسكانها، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها. شبابها يجد على طول العهد، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد. قهرت قاهرتها الأمم، وتمكنت ملوكها من نواصى العرب والعجم. ولها خصوصية النيل الذى أجل خطرها، وأغناها عن أن يستمد القطر(٢) قطرها، وأرضها مسيرة شهر لمجد السير. كريمة التربة، مؤنسة لذوى الغربة. قال ابن جزى: وفيها يقول الشاعر:

لَعمرُكَ ما مصرٌ بمصرٍ وإنما ... هى الجنة الدنيا لمن يتبصَّرُ
فأولادها الولدان والحور عينُها ... وروضتها الفردوس والنيل كوثر

وفيها يقول ناصر الدين بن ناهض:

شاطئ مصر جنة ... ما مثلها من بلد
لا سيّما مُذْ زُخرفَتْ ... بنيلها المطَّرِد
وللرياح فوقه ... سوابغٌ من زَرَد(٣)

---

(١) ذى الأوتاد: الجيوش الكثيرة التى تشد ملكه. كلمات القرآن لمخلوف ص(٣٨٧).
(٢) القطر: المطر، والمعنى أن بلد النيل مصر استغنت بالنيل عن المطر.
(٣) زرد الدرع: سردها. الوجيز ص(٢٨٧).

مسـرودةٌ مـا مَسّهـا داوُدُهـا بمبـرد
سائلـة هـواؤهـا يـرعـد عـارى الجسـد
والفـلك كـالأفـلاك بيـ ـن حـادر(١) ومُصْعِد

ويقال: إن بمصر من السقائين على الجمال اثنى عشر ألف سقاء، وأن بها ثلاثين ألف مكار، وأن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفًا للسلطان والرعية، تمر صاعدة إلى الصعيد، ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق. وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة، وهو مكان النزهة والتفرج، وبه البساتين الكثيرة الحسنة. وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو. شاهدت بها مرة فرجة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده. فزين كل أهل سوق سوقهم، وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلى وثياب الحرير وبقوا على ذلك أيامًا.

مسجد عمرو بن العاص والمدارس والمارستانات والزوايا

ومسجد عمرو بن العاص مسجد شريف كبير القدر شهير الذكر، تقام فيه الجمعة. والطريق يعترضه من شرق إلى غرب، وبشرقه الزاوية حيث كان يدرس الإمام أبو عبد الله الشافعى. وأما المدارسُ بمصر فلا يحيط أحدٌ بحصرها لكثرتها؛ وأما المارستان(٢) الذى بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون، فيعجز الواصف عن محاسنه. وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر. يذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم. وأما الزوايا فكثيرة، وهم يسمونها الخوانق. واحدتها خانقة. والأمراء بمصر يتنافسون فى بناء الزوايا وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء، وأكثرهم الأعاجم. وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف. ولكل زاوية شيخ وحارس. وترتيب أمورهم عجيب. ومن عوائدهم فى الطعام أنه يأتى خديم الزاوية إلى الفقراء صباحًا،

---

(١) حدر الشيء حدورًا: أنزله من علو إلى سفل. الوجيز ص(١٤٠).
(٢) المارستان: المصحة أو المستشفى. الوجيز ص(٥٧٨).

فيعـين له كل واحد ما يشتهيـه من الطعام. فإذا اجتمـعوا للأكل جعلوا لكل إنسان خبزهُ ومرقهُ فى إناء على حدة لا يشاركه فيه أحد. وطعامهم مرتان فى اليوم. ولهم كـسوة الشتاء وكسـوة الصيف ومرتب شهـرى من ثلاثين درهمًا للواحد فى الشهر إلى عشـرين. ولهم الحلاوة من السكر فى كل ليلة جمعة، والصابون لغسل أثوابهم، والأجرة لدخول الحمام، والزيت للاستصباح. وهم أعزاب. وللمتزوجين زوايا على حدة. ومن المـشترط عليهم حضور الصلوات الخمس، والمبيت بالزاوية، واجتمـاعهم بقبة داخل الزاوية. ومن عوائدهم أن يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به. وإذا صلوا صلاة الصبح قرأوا سورة الفـتح، وسورة الملك، وسورة عمّ، ثم يؤتى بنسـخ من القرآن العظيم مجزأة، فيأخـذ كل فقير جزءًا، ويختمون القـرآن، ويذكرون، ثم يقرأ القراء على عادة أهل المشرق. ومثل ذلك يفعلون بعـد صلاة العصر. ومن عوائدهم مع القـادم أنه يأتى باب الزاوية فـيقـف به مشـدود الوسط، وعلى كـاهله(٢) سجادة، وبيمناه العكاز، وبيسـراه الإبريق. فيعلم البواب خديم الزاوية بمكانه فيـخرج إليـه، ويسألـه من أى البلاد أتى، وبأى الزوايا نزل فى طريقـه ومن شيخه، فـإذا عرف صحة قوله أدخله الزاوية، وفرش له سـجادته فى موضع يليق به، وأراه موضع الطهارة، فيجـدد الوضوء، ويأتى إلى سجادته، فيحل وسطه، ويصلى ركعـتين، ويصـافح الشيخ ومن حضـر ويقعد مـعهم. ومن عوائدهم أنهم إذا كان يوم الجمعة أخذ الخادم جـميع سجاجيدهم فيذهب بها إلى المسجد ويـفرشها لهم هنالك. ويخـرجون مجتمـعين، ومعهم شـيخهم فيأتون المسجد، ويصلى كل واحد على سجادته. فإذا فرغوا من الصلاة قرأوا القرآن على عادتهم. ثم ينصرفون مجتمعين إلى الزاوية ومعهم شيخهم.

قرافة مصر ومزاراتها

ولمصر القرافة(٢) العظيمة الشأن فى التبـرك بها. وقد جاء فى فضلها أثر

---

(١) الكاهل من الإنسان: ما بين كتفيه، أو موصل العنق فى الصلب، الوجيز ص(٥٤٤).

(٢) القرافة: المقبرة، وهى اسم قبيلة يمنية جاورت المقـابر بمصر فغلب اسمها على كل مقبرة. الوجيز ص(٤٩٩).

أخرجه القرطبى وغيـره، لأنها من جملة الجبل المقطم الذى وعد الله أن يكون روضة من رياض الجنة. وهم يبنون بالقـرافة القباب الحسنة، ويجـعلون عليها الحيطان فتكون كالدور، ويبنون بها البيوت، ويرتبون القراء يقرأون ليلاً ونهاراً بالأصـوات الحسـان. ومنهم من يبنـى الزاوية والمدرسة إلى جـانب التـربة، ويخـرجون كل ليلة جـمعـة إلى المبيـت بأولادهم ونسائهم، ويطوفـون على الأسواق بصنوف المآكل، ومن المزارات الشـريفة المشهد المقـدس العظيم الشأن حيث رأس الحسين بن على عليهما السلام، وعليه رباط ضخم عجيب البناء، على أبوابه حلق الفـضـة وصفـائحهـا أيضًـا. كذلك، وهو مـوفى الحق من الإجلال والتعظيم. ومنهـا تربة السيدة نفيسـة بنت الحسن الأنور بن على بن الحسين بن على علـيهم السلام. وكانت مجـابة الدعوة مجتهـدة فى العبادة. وهذه التربة أنيقـة البناء، مشرقة الضيـاء، عليها رباط(١) مقصود. ومنها تربة الإمام أبى عبد الله مـحمد بن إدريس الشافعى -رضي الله عنه-، وعليهـا رباط كبير. ولها جراية(٢) ضخمة. وبها القـبة الشهيرة البديعة الإتقان، العـجيبة البنيان، المتناهية الإحكام، المفرطة السمو، وسعـتها أزيد من ثلاثين ذراعًا. وبقرافة مصر من قبـور العلماء والصالحين ما لا يضبطه الحـصر. وبها عدد جم من الصحابة، وصـدور السلف والخلف -رضى الله تعالى عنهم-، مثل عبد الرحمن بن القاسم، وأشهب بن عـبد العزيز، وأصبغ بن الفرج، وابنى عبد الحكم، وأبى القـاسم ابن شعبان، وأبى محمـد عبد الوهاب. لكن ليس لهم بها اشتهار، ولا يعرفـهم إلا من بهم عناية. والشافعى -رضي الله عنه- ساعده الجد فى نفسه وأتباعه وأصحابه فى حياته ومماته. فظهر من أمره مصداق قوله:

الـجد يدفـى كل أمر شائع ... والجد يفتح كل باب مغلق

نيل مصر

ونيل مصر يفضل أنهار الأرض عذوبة مذاق واتساع قطر وعظم منفعة.

---

(١) الرباط: ملجأ الفقراء من الصوفية. الوجيز ص(٢٥٢).
(٢) الجراية: الجارى من الرواتب. الوجيز ص(١٠٢، ١٠٣).

والمدن والقرى بضفتيه منتظمة، ليس فى المعمور مثلها. ولا يعلم نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل. وليس فى الأرض نهر يسمى بحرًا غيره. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾(١) فسماه يَمًّا وهو البحر. وفى الحديث الصحيح أن رسول الله -ﷺ- وصل ليلة الإسراء إلى سدرة المنتهى، فإذا فى أصلها أربعة أنهار: نهران ظاهران، ونهران باطنان. فسأل عنها جبريل -عليه السلام- فقال: أما الباطنان ففى الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات(٢). وفى الحديث أيضًا النيل والفرات وسيحون وجيحون كل من أنهار الجنة(٣). ومجرى النيل من الجنوب إلى الشمال خلافًا لجميع الأنهار. ومن عجائبه أن ابتداء زيادته فى شدة الحر عند نقص الأنهار وجفوفها، وابتداء نقصه حين زيادة الأنهر وفيضها. ونهر السند مثله فى ذلك، وسيأتى ذكره. وأول ابتداء زيادته فى حزيران وهو يونيه، فإذا بلغت زيادته ستة عشر ذراعًا تم خراج السلطان. فإن زاد ذراعًا كان الخصب فى العام والصلاح التام، فإن بلغ ثمانية

---

(١) سورة القصص: ٧.

(٢) هذا الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٧/ ٢٤١، ٢٤٢ فتح). كتاب مناقب الأنصار، باب: المعراج (٣٨٨٧) عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة، وذكر حديث الإسراء، وذكر فيه ما ذكره المصنف.

(٣) هذا الحديث أخرجه أحمد (٢/ ٢٨٩، ٤٤٠)، ومسلم (٨/ ١٤٩) عن أبى هريرة مرفوعًا: «سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة». وأخرجه الحميدى (١١٦٣)، وأحمد (٢/ ٢٦٠) عن أبى هريرة مرفوعًا: «أربعة أنهار من الجنة: الفرات وسيحان وجيحان والنيل». وأما لفظ سيحون وجيحون بالواو فلم أجده، قال النووى: اعلم أن سيحان وجيحان غير سيحون وجيحون، فأما سيحان وجيحان المذكوران فى هذا الحديث اللذان هما من أنهار الجنة فى بلاد الأرض فجيحان نهر المصيصة، وسيحان نهر إذنة، وهما نهران عظيمان جدًّا أكبرهما جيحان، فهذا هو الصواب فى موضعهما. وأما قول الجوهرى فى صحاحه: جيحان نهر بالشام فغلط، أو أنه أراد المجاز من حيث أنه ببلاد الأرمن وهي مجاورة للشام، قال الحازمى: سيحان نهر عند المصيصة. قال: وهو غير سيحون. وقال صاحب نهاية الغريب: سيحان وجيحان نهران بالعواصم عند المصيصة وطرسوس، واتفقوا كلهم على أن جيحون بالواو نهر وراء خراسان عند بلخ، واتفقوا على أنه غير جيحان، وكذلك سيحون غير سيحان.

عشر ذراعًا أضر بالضياع[١]، وأعقب الوباء. وإن نقص ذراعًا عن ستة عشر نقص خراج السلطان، وإن نقص ذراعين استسقى الناس، وكان الضرر الشديد. والنيل أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار، وهى النيل والفرات والدجلة وسيحون وجيحون وتماثلها أنهار خمسة أيضًا: نهر السنة ويسمى ينج اب ونهر الهند ويسمى الكنك، وإليه تحج الهنود. وإذا حرقوا أمواتهم رموا برمادهم فيه. ويقولون هو من الجنة. ونهر الجون بالهند أيضًا، ونهر اتل بصحراء قفجق، وعلى ساحله مدينة السرا، ونهر السرو بأرض الخطا، وعلى ضفته مدينة خان بالق، ومنها ينحدر إلى مدينة الخنسا ثم إلى مدينة الزيتون بأرض الصين، وسيذكر ذلك كله فى مواضعه إن شاء الله. والنيل يفترق بعد مسافة من مصر على ثلاثة أقسام ولا يعبر نهر منها إلا فى السفن شتاءً وصيفًا. وأهل كل بلد لهم خلجان تخرج من النيل فإذا مد أترعها ففاضت على الزارع.

الأهرام والبرابى

وهى من العجائب المذكورة على مر الدهور. وللناس فيها كلام كثير، وخوض فى شأنها، وأولية بنائها. ويزعمون أن العلوم التى ظهرت قبل الطوفان أخذت من هرمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى ويسمى أخنوخ وهو إدريس -عليه السلام-. وأنه أول من تكلم فى الحركات الفلكية، والجواهر العلوية، وأول من بنى الهياكل، ومجد الله تعالى فيها، وأنه أنذر الناس بالطوفان[٢]، وخاف ذهاب العلم ودروس الصنائع، فبنى الأهرام والبرابى، وصور فيها جميع الصنائع والآلات، ورسم العلوم فيها لتبقى مخلدة. ويقال: إن دار العلم والملك بمصر مدينة منف، وهى على بريد[٣] من

(١) الضياع: جمع ضيعة، والضيعة: هى الأرض المغلة. الوجيز ص(٣٨٤).
(٢) الطوفان: الفيضان العظيم. الوجيز ص(٣٩٧).
(٣) البريد: المسافة بين كل منزلين من منازل الطريق، وهى أميال اختلف فى عددها. الوجيز ص(٤٤).

الفسطاط. فلما بنيت الإسكندرية انتقل الناس إليها، وصارت دار العلم والملك. إلى أن أتى الإسلام فاختطَّ عمرو بن العاص -رضي الله عنه- مدينةَ الفسطاط، فهى قاعدةُ مصر إلى هذا العهد. والأهرام بناء بالحجر الصلد المنحوت، متناهى السمو، مستدير متسع الأسفل، ضيق الأعلى كالشكل المخروط ولا أبواب لها، ولا تعلم كيفية بنائها. ومما يذكر فى شأنها أن ملكًا من ملوك مصر قبل الطوفان رأى رؤيا هالته(١)، وأوجبت عنده أنه بنى تلك الأهرام بالجانب الغربى من النيل، لتكون مستودعًا للعلوم، ولجثث الملوك، وأنه سأل المنجمين هل يفتح منها موضع، فأخبروه أنها تفتح من الجانب الشمالى، وعينوا له الموضع الذى تفتح منه، ومبلغ الإنفاق فى فتحه. فأمر أن يجعل بذلك الموضع من المال قدر ما أخبروه أنه ينفق فى فتحه، واشتد فى البناء، فأتمه فى ستين سنة. كتب عليها بنينا هذه الأهرام فى ستين سنة فليهدمها من يريد ذلك فى ستمائة سنة، فإن الهدم أيسر من البناء، فلما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين المأمون أراد هدمها، فأشار عليه بعض مشايخ مصر أن لا يفعل فلجّ فى ذلك، وأمر أن تفتح من الجانب الشمالى فكانوا يوقدون عليها النار، ثم يرشونها بالخل، ويرمونها بالمنجنيق، حتى فتحت الثلمة التى بها إلى اليوم، ووجدوا بإزاء النقب مالاً أمر أمير المؤمنين بوزنه فحصر ما أنفق فى النقب، فوجدهما سواء. فطال عجبه من ذلك ووجدوا عرض الحائط عشرين ذراعًا.

خبر الملك الناصر سلطان مصر

وكان سلطان مصر على عهد دخولى إليها الملك الناصر أبا الفتح محمد ابن المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى. وكان قلاوون يعرف بالألفى لأن الملك الصالح اشتراه بألف دينار ذهبا وأصله من قفجق. وللملك الناصر رحمه الله السيرة الكريمة والفضائل العظيمة. وكفاه شرفًا انتماؤه لخدمة الحرمين الشريفين، وما يفعله فى كل سنة من أفعال البر التى تعين الحجاج

---

(١) هالته: أى أفزعته. الوجيز ص(٦٥٥).

من الجمال التى تحمل الزاد(١) والماء للمنقطعين والضعفاء، وتحمل من تأخر أو شـعف(٢) عن المشى فى الـدربين المصـرى والشـامى. وبنى زاويـة عظيـمـة بسرياقص خـارج القاهرة. لكن الزاوية التى بناها مولانا أميـر المؤمنين وناصر الدين وكهف الفقـراء والمساكين، خليفة الله فى أرضه القـائم من الجهاد بنفله وفرضه أبو عنان أيد الله أمره، وأظهره، وسنّى له الفتح المبين ويسره، بخارج حضرته العلية المدينة البـيضاء حرسها الله لا نظير لهـا فى المعمور، فى إتقان الوضع وحسن البناء والنقش فى الجص(٣)، بحيث لا يقـدر أهل المشرق على مثله. وسـيأتى ذكـر ما عمـره أيده الله من المدارس والمرستـان والزوايا ببلاده حرسها الله وحفظها بدوام ملكه.

أمراء مصر

منهم الأميـر بُكْتُمور (وضبط اسـمه بضم الباء الموحدة، وكـاف مسكن وتاء معلوة مـضمومة وآخـره راء)، وكان ساقى الملك الناصر وقـد قتله الملك الناصـر بالسم، وسيـذكر ذلك، ومنـهم نائب الملك الناصر أَرْغُـون الدودار، وهو الذى يلى بكتمـور فى المنزلة، (وضبط اسمه بفتـح الهمزة وإسكان الراء وضم الغين المعجمة)، ومنهم طُشْط المعروف بحمص أخضر، (واسمه بطاءين مهـملين مضـمومين وبينهـما شـين معجم). وكـان من خيـار الأمراء. وله الصدقات الكثيرة على الأيتام من كسـوة ونفقة وأجرة لمن يعلمهم القرآن. وله الإحسـان العظيم للحرافـيش، وهم طائفة كبـيرة أهل صلابة وجـاه ودعارة. وسجـنه الملك الناصر مـرة، فاجـتمع من الحـرافيش آلاف، ووقـفوا بأسـفل القلعة، ونادوا بلسـان واحد يا أعرج النحس، يعنون الملك الناصـر، أخرجه من محبسه، وسجنه مرة أخرى. ففعل الأيتام مثل ذلك فأطلقه. ومنهم وزير

---

(١) الزاد: طعام يتخذ للسفر. الوجيز ص(٢٩٥).

(٢) شعف: أى ذعر وخاف أن يمشى فى هذين الـدربين. الوجيز ص(٣٤٥). ولعل الصواب «ضعف».

(٣) الجص: ما تطلى به البيوت من الجير. الوجيز ص(١٠٧).

الملك الناصر يعرف بالجمالى (بفتح الجيم). ومنهم بدر الدين بن البابه. ومنهم جمال الدين نائب الكرك. ومنهم تُقُزْدُمُر (واسمه بضم التاء المعلوة وضم القاف وزاء مسكن ثم دال مضموم وميم مثله وآخره راء)، ودمور بالتركية الحديد. ومنهم بهادر الحجازى (واسمه بفتح الباء الموحدة وضم الدال المهملة وآخره راء). ومنهم قوصون (واسمه بفتح القاف وصاد مهمل مضموم). ومنهم بشتك (واسمه بفتح الباء الموحدة وإسكان الشين المعجم وتاء معلوة مفتوحة). وكل هؤلاء يتنافسون فى أفعال الخيرات وبناء المساجد والزوايا. ومنهم ناظر جيش الملك الناصر وكاتبه فخر الدين القبطى، وكان نصرانيًّا من القبط، فأسلم وحسن إسلامه، وله المكارم العظيمة والفضائل التامة، ودرجته من أعلى الدرجات عند الملك الناصر، وله الصدقات الكثيرة والإحسان الجزيل[١]. ومن عادته أن يجلس عشى النهار فى مجلس له بأسطوان داره على النيل ويليه المسجد، فإذا حضر المغرب صلى فى المسجد وعاد إلى مجلسه وأوتى بالطعام. ولا يمنع حينئذ أحد من الدخول كائنًا من كان. فمن كان ذا حاجة تكلم فيها فقضاها له، ومن كان طالب صدقة أمر مملوكًا له يدعى بدر الدين، واسمه لؤلؤ، يصحبه إلى خارج الدار، وهنالك خازنه معه صرر[٢] الدراهم فيعطيه ما قدر له. ويحضر عنده فى ذلك الوقت الفقهاء، ويقرأ بين يديه كتاب البخارى، فإذا صلى العشاء الأخيرة انصرف الناس عنه.

قضاة مصر عند دخولى إليها

فمنهم قاضى القضاة الشافعية، وهو أعلاهم منزلة وأكبرهم قدرًا، وهو القاضى الإمام العالم بدر الدين ابن جماعة كان أعلاهم منزلة وأكبرهم قدرًا، وإليه ولاية القضاة بمصر وعزلهم. وابنه عز الدين هو الآن متولى ذلك. ومنهم قاضى القضاة المالكية الإمام الصالح تقى الدين الأخنائى. ومنهم

(١) الجزيل: الكثير العظيم. الوجيز ص(١٠٤).

(٢) الصرة: ما يجمع فيه الشيء ويشد، وجمعه صرر. الوجيز ص(٣٦٣).

قاضى القضاة الحنفية الإمام العالم شمس الدين الحريرى، وكان شديد السطوة لا تأخذه فى الله لومـة لائم. وكانت الأمراء تخافه. ولقـد ذكر لى أن الملك الناصـر قـال يومًـا لجلسـائه: إنى لا أخـاف من أحـد إلا من شـمس الدين الحريرى. ومنهم قاضى القضاة الحنبلية. ولا أعرفه الآن إلا أنه كان يدعى بعز الدين.

وكـان الملك الناصـر -رحمـه الله- يقـعد للـنظر فى المظالـم ورفع قصص المتشكين كل يوم إثنين وخميس. ويقعد القضاة الأربعة عن يساره وتقرأ القصص بين يديه، ويعين من يسأل صاحب القصة عنها وقد سلك مولانا أمير المؤمنين ناصـر الدين أيده الله فى ذلك مسلكًا لم يسبق إليه، ولا مـزيد فى العـدل والتواضع عليـه، وهو سـؤاله بذاته الكريمـة لكل متظلم، وعرضـه بين يديه المستقيمة أبى الله أن يحـضرها سواه، أدام الله أيامه. وكان رسم القضاة المذكورين أن يكون أعلاهـم منزلة فى الجلوس: قاضى الشافـعية ثم قاضى الحنفـية ثم قاضى المالكية ثم قـاضى الحنبلية. فلمـا توفى شمس الدين الحـريرى، وولى مكانه برهان الدين عـبد الحق الحنفى أشار الأمـراء على الملك الناصر بأن يكون مجلس المالكى فـوقه، وذكروا أن العادة جرت بذلك قديمًا؛ إذ كان قاضى المالكية زين الدين بن مخلوف يلى قـاضى الشافعـية تقى الدين ابن دقيق العـيد، فأمـر الناصر بذلك. فلما علـم به قاضى الحنفيـة غاب عن شهـود المجلس أنفة[1] من ذلك، فأنكر الملك الناصر مغيبه، وعلم مـا قصده، فأمر بإحضاره. فلما مثل[2] بين يديه أخذ الحاجب بيده، وأقعـده حيث نفذ أمر السلطان، مما يلى قاضى المالكية واستمر حاله على ذلك.

نبذة عن بعض علماء مصر وأعيانها

فمنهم شمس الدين الأصبهانى إمـام الدنيا فى المعقولات، ومنهم شرف

---

(١) الأنفة: العزة والحمية. الوجيز ص(٢٨).

(٢) مثل الرجل بين يدى فلان يمثل مثولاً: قام بين يديه منتصبًا. الوجيز ص(٥٧٢).

الدين الزواوى المالكى، ومنهم برهان الدين ابن بنت الشاذلى نائب قاضى القضاة بجامع الصالح، ومنهم ركن الدين بن القويع التونسى من الأئمة فى المعقولات، ومنهم شمس الدين بن عدلان كبير الشافعية، ومنهم بهاء الدين بن عقيل فقيه كبير، ومنهم أثير الدين أبو حيان محمد ابن يوسف بن حيان الغرناطى، وهو أعلمهم بالنحو، ومنهم الشيخ الصالح بدر الدين عبد الله المنوفى، ومنهم برهان الدين الصفاقسى، ومنهم قوام الدين الكرمانى، وكان سكناه على سطح الجامع الأزهر، وله جماعة من الفقهاء والقراء، يلازمونه ويدرسون فنون العلم، ويفتى فى المذاهب، ولباسه عباءة صوف خشنة، وعمامة صوف سوداء، ومن عاداته أن يذهب بعد صلاة العصر إلى موضع الفرج والنزهات، منفردًا عن أصحابه. ومنهم السيد الشريف شمس الدين ابن بنت الصاحب تاج الدين بن حناء. ومنهم شيخ شيوخ القراء بديار مصر مجد الدين الأقصرائى، نسبة إلى أقصرا، من بلاد الروم، ومسكنه سرياقص. ومنهم الشيخ جمال الدين الحويزائى، والحويزا على مسيرة ثلاثة أيامٍ من البصرة. ومنهم نقيب الأشراف بديار مصر السيد الشريف المعظم بدر الدين الحسينى من كبار الصالحين. ومنهم وكيل بيت المال المدرس بقبة الإمام الشافعى مجد الدين بن حرمى، ومنهم المحتسب بمصر نجم الدين السهرتى من كبار الفقهاء، وله بمصر رياسة عظيمة وجاه.

يوم المحمل

وهو يوم دوران الجمل يوم مشهود، وكيفية ترتيبهم فيه أنه يركب فيه القضاة الأربعة، ووكيل بيت المال والمحتسب وقد ذكرنا جميعهم، ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة، ويقصدون جميعًا باب القلعة دار الملك الناصر، فيخرج إليهم المحمل على جمل، وأمامه الأمير المعين لسفر الحجاز فى تلك السنة،ومعه عسكره والسقاؤون على جمالهم، ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء، ثم يطوفون بالمحمل وجميع

من ذكرنا معه بمدينة القـاهرة ومصر، والحداة يحدون(١) أمامهم، ويكون ذلك فى رجب فعند ذلك تهيـج العزمات، وتنبعث الأشواق، وتتـحرك البواعث، ويلقى الله تعالى العزيـمة على الحج فى قلب من يشاء من عباده، فـيأخذون فى التأهب لذلك والاستعداد.

ثم كان سـفرى من مصر على طريق الصـعيد برسم الحجـاز الشريف. فبت ليلة خروجى بالرباط الذى بناه الصاحب تاج الدين بن حناء بدير الطين، وهو رباط عظيم بناء على مـفاخر عظيـمة، وآثار كريمـة، أودعها فـيه وهى قطعة من قصـعة رسول الله -ﷺ-، والميل الذى كان يكتحل به، والدرفش وهو الأشفا الذى كان يخصف به نعله، ومـصحف أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى بخط يده -رضي الله عنه-. ويقـال: إن الصاحب اشـترى ما ذكـرناه من الآثار الكريمة النبوية بمائة ألف درهم، وبنى الرباط، وجعل فيه الطعام للوارد والصادر، والجراية لخدام تلك الآثار الشريفة، نفعه الله تعالى بقصده المبارك. ثم خرجت من الرباط المذكـور، ومررت بمنية القائد، وهى بلدة صـغيرة على ساحل النـيل. ثم سرت منهـا إلى مدينة بوش (وضـبطها بضم البـاء الموحدة وآخره شـين معجم) وهذه المدينة أكـثر بلاد مصر كـتانًا(٢) ومنها يجلب إلى سائر الدنيـا المصرية، وإلى إفريـقية. ثم سافـرت منها، فـوصلت إلى مدينة دلاص (وضبط اسمـها بفتح الدال المهملة وآخره صـاد مهملة)، وهذه المدينة كثـيرة الكتان أيضًا، كـمثل التى ذكرناها قـبلها. ويحمل أيضًـا منها إلى ديار مصر وإفريقية. ثم سافرت منها إلى مدينة ببا (وضبط اسمها بباءين موحدتين أولاهما مكسـورة). ثم سافرت منهـا إلى مدينة البهنسـا، وهى مدينة كبـيرة وبساتينهـا كثـيرة، (وضبط اسـمها بفـتح الموحدة وإسكان الهـاء وفتح النون والسين). وتصنع بهـذه المدينة ثياب الصوف الجيدة. وممن لقـيته بها قاضـيها العام شرف الدين، وهو كـريم النفس فاضل. ولقيت بها الـشيخ الصالح أبا

---

(١) يُقال: حدا الإبل، وبها يحـدُو حُداء: ساقها وحثها على السـير بالحداء، والحداء: الغناء للإبل. الوجيز ص(١٤٠).

(٢) الكتان: نبات زراعى يتخذ من أليافه النسيج والأقمشة. الوجيز ص(٥٢٨).

بكر العجمى، ونزلت عنده وأضافنى. ثم سافرت منها إلى مدينة منية ابن خصيب، وهى مدينة كبيرة الساحة متسعة المساحة، مبنية على شاطىء النيل. وحق حقيق لها على بلاد الصعيد التفضيل. بها المدارس والمشاهد والزوايا والمساجد، وكانت فى القديم منية عامل مصر الخصيب.

قصة خصيب

يذكر أن أحد الخلفاء من بنى العباس -ﷺ- غضب على أهل مصر، فآلى(١) أن يولى عليهم أحقر عبيده، وأصغرهم شأنًا، قصدًا لإذلالهم والتنكيل بهم، وكان خصيب أحقرهم؛ إذ كان يتولى تسخين الحمّام فخلع عليه، وأمره على مصر، وظنه أنه يسير فيهم سيرة سوء، ويقصدهم بالإذاية، حسبما هو المعهود ممن ولى عن غير عهد بالعز. فلما استقر خصيب بمصر، سار فى أهلها أحسن سيرة، وشهر بالكرم والإيثار. فكان أقارب الخلفاء وسواهم يقصدونه، فيجزل العطاء لهم، ويعودون إلى بغداد شاكرين لما أولاهم. وأن الخليفة افتقد بعض العباسيين وغاب عنه مدة ثم أتاه، فسأله عن مغيبه، فأخبره أنه قصد خصيبًا. وذكر له ما أعطاه خصيب. وكان عطاء جزيلاً. فغضب الخليفة، وأمر بسمل(٢) عينى خصيب، وإخراجه من مصر إلى بغداد، وأن يطرح فى أسواقها. فلما ورد الأمر بالقبض عليه حيل بينه وبين دخوله منزله، وكانت بيده ياقوتة(٣) عظيمة الشأن فخبأها عنده، وخاطها فى ثوب له ليلاً وسملت عيناه، وطرح فى أسواق بغداد. فمر به بعض الشعراء فقال له يا خصيب: «إنى كنت قصدتك من بغداد إلى مصر مادحًا لك بقصيدة فوافقت انصرافك عنها، وأحب أن تسمعها. فقال: كيف

(١) آلى: أقسم. الوجيز ص(٢٣).
(٢) سمل: العين يسمُل سمولاً وسمولة: فقأها. الوجيز ص(٣٢٢).
(٣) الياقوت: حجر من الأحجار الكريمة، وهو أكثر المعادن صلابة بعد الماس، ويتركب من أكسيد الألومنيوم، ولونه فى الغالب شفاف مشرب بالحمرة أو الزرقة أو الصفرة، ويستعمل للزينة، واحدته أو القطعة منه: ياقوتة والجمع يواقيت. الوجيز ص(٦٨٦).

بسماعهـا وأنا على ما تراه؟ فقال: إنما قصدى سماعك لهـا. وأما العطاء فقد أعطيت الناس وأجزلت جزاك الله خيرًا قال فافعل فأنشد:

أنت الخصيب وهذه مصر فتدفقا فكلاكما بحـر

فلما أتى على آخرها قال له: افتق هذه الخياطة، ففعل ذلك. فقال له: خذ الياقـوتة. فأبى، فأقسم عليـه أن يأخذها. فأخذها وذهب بـها إلى سوق الجوهريين. فـلما عرضـها عليهـم قالوا له: إن هذه لا تصلح إلا للخليـفة. فرفعوا أمـرها إلى الخليفة، فأمر الخليفـة بإحضار الشاعر واستفـهمه عن شأن الياقوتة، فـأخبره بخبرها. فـتأسف على ما فعله بخصـيب، وأمر بمثوله بين يديه، وأجزل لـه العطاء، وحكَّمه فـيما يريد. فـرغب أن يعطيه هـذه المنية، ففعل ذلك، وسكنهـا خصيب إلى أن توفى، وأورثها عقبـه إلى أن انقرضوا. وكان قاضى هذه المنيـة أيام دخولى إليها فخر الـدين النويرى المالكى، وواليها شمس الدين أميـر خير كريم. دخلت يومًا الحمـام بهذه البلدة، فرأيتُ الناسَ بها لا يَسْتَتِرُونَ. فَعَظُمَ ذلك على وأتيـته، فأعلمته بذلك. فأمرنى ألا أبرح، وأمر بإحضار المكترين للحمامات، وكـتبت عليهم العقود، أنه متى دخل أحد الحمام دون مئزر، فإنهم يؤاخـذون على ذلك. واشتد عليهم أعظم الاشتداد. ثم انصرفت عنه وسافرت من منية ابن خصيب إلى مدينة منلوى وهى صغيرة مبنيـة على مسافـة ميلين من النيل (وضبـط اسمها بفـتح الميم وإسكان النون وفتح اللام وكسر الواو). وقـاضيها الفقيه شـرف الدين الدميرى (بفتح الدال المهمل وكسر الميم) الشـافعى. وكبارها قوم يعرفون بـبنى فضيل، بنى أحدهم جامعًا وأنفق فيه صميم[1] ماله. وبهذه المدينة إحدى عشرة معصرة للسكر - ومن عوائدهم أنهم لا يمنعـون فقيرًا من دخـول معصرة منهـا، فيأتى الفـقير بالخبزة الحارة، فيطرحها فى القدر التى يـطبخ السكر فيها، ثم يخرجها، وقد امتلأت سكرًا فينصرف بهـا. وسافرت من منلوى المذكورة إلى مدينة منفلوط وهى مـدينة حسن رواؤها، مـؤنق بناؤها على ضـفة النيل، شـهيـرة البركـة

---

(١) الصميم من كل شىء: المحض الخالص فى الخير والشر. الوجيز ص(٣٧٠).

(وضبط اسمـها بفتح الميم وإسكان النون وفتح الفـاء وضم اللام وآخرها طاء مهمل).

وقد أخبرنى أهل هذه المدينة أن الملك الناصـر -رحمه الله-، أمر بعمل منبـر عظيم، محكم الصنعـة بديع الإنشاء، بـرسم المسجـد الحرام، زاده الله شرفًـا وتعظيمًا. فلمـا تم عمله، أمر أن يصـعد به فى النيل ليجـاز إلى بحر جدة، ثم إلى مكة شرفها الله، فلما وصل المركب الذى احتمله إلى منفلوط، وحاذى مسجدها الجامع وقف، وامتنع مـن الجرى مع مساعدة الريح. فعجب الناس من شـأنه أشد العجب، وأقـاموا أيامًـا لا ينهض بهم المركب. فكتـبوا بخبـره إلى الملك الناصر - رحمه الله -، فـأمر أن يجعل ذلك المنبـر بجامع مديـنة منفلوط، ففـعل ذلك. وقد عـاينته بهـا، ويصنع فى هذه المدينة شـبه العسل، يستخرجونه من القمح ويسمونه النيدا. يباع بأسواق مصر. وسافرت من هذه المدينة إلى مدينة أسيـوط. وهى مدينة رفيعة أسواقـها بديعة (وضبط اسمهـا بفتح الهمزة وسكون السين المهملة وضم اليـاء آخر الحروف واو وطاء مهملة) وقاضيها شـرف الدين بن عبد الرحيم الملقب (بحاصل ما ثم)، لقب اشتهر به وأصله أن القضـاة بديار مصر والشام بأيديهم الأوقاف[1] والصدقات لأبناء السبيل، فإذا أتى فقير لمدينة من المدن قصد القاضى بها، فيعطيه ما قدر له. فكان القاضـى إذا أتاه الفقيـر يقول له حاصل مـا ثم أى لم يبق من المال الحاصل شىء فلقب بذلك ولزمـه. وبها من المشايخ الفضلاء الصـالح شهاب الدين بن الصباغ، أضـافنى بزاويته. وسافرت منها إلى مـدينة أخميم، وهى مدينة عظيمـة أصيلة البنيان عجيـبة الشان، بها البربى المعـروف باسمه، وهو مبنى بالحـجارة، فى داخله نقوش وكـتابة للأوائل، لا تفهم فى هذا العـهد، وصور الأفلاك والكواكب. ويزعمون أنهـا بنيت والنسر الطائر ببرج العقرب. وبها صور الحـيوانات وسواها. وعند الناس فى هذه الصـور أكاذيب لا يعرج عليـهـا. وكان بأخـمـيم رجُلٌ يعـرف بالخطيب، أمـر على هدم بعض هذه

(١) الوقف: حبس مال وصرف منفـعته لجهة معينة، ويجوز فى الخيـرات ابتداء وانتهاء، وفى غيرها ابتداء وينتهى بالخيرات. الوجيز ص(٦٧٩).

البرابى، وابتنى بحجارتها مدرسة. وهو رجل موسر(١) معروف باليسار. ويزعم حساده أنه استفاد ما بيده من المال من ملازمته لهذه البرابى. ونزلت من هذه المدينة بزاوية الشيخ أبى العباس ومجد الدين وواحد الدين. ومن عادتهم أن يجتمعوا جميعًا بعد صلاة الجمعة، ومعهم الخطيب نور الدين المذكور وأولاده، وقاضى المدينة الفقيه مخلص، وسائر أهلها، فيجتمعون للقرآن، ويذكرون الله إلى صلاة العصر. فإذا صلوها، قرأوا الكهف، ثم انصرفوا. وسافرت من أخميم إلى مدينة (هُو): مدينة كبيرة بساحل النيل (وضبطها بضم الهاء). نزلت منها بمدرسة تقى الدين ابن السراج. ورأيتهم يقرأون بها فى كل يوم بعد صلاة الصبح حزبًا من القرآن، ثم يقرأون أوراد الشيخ أبى الحسن الشاذلى وحزب البحر. وبهذه المدينة السيد الشريف أبو محمد عبد الله الحسنى من كبار الصالحين. كرامة له: دخلت إلى هذا الشريف متبركًا برؤيته والسلام عليه، فسألنى عن قصدى، فأخبرته أنى أريد البيت الحرام على طريق جدة: فقال لى: لا يحصل لك هذا فى هذا الوقت، فارجع. وإنما تحج أول حجة على الدرب الشامى. فانصرفت عنه، ولم أعمل على كلامه. ومضيت فى طريقى حتى وصلت إلى عيذاب. فلم يتمكن لى السفر، فعدت راجعًا إلى مصر ثم إلى الشام. وكان طريقى فى أول حجاتى على الدرب الشامى، حسبما أخبرنى الشريف نفع الله به. ثم سافرت إلى مدينة قنا، وهى صغيرة حسنة الأسواق (وضبط اسمها بقاف مكسورة ونون). وبها قبر الشريف الصالح الولى صاحب البراهين العجيبة والكرامات الشهيرة عبد الرحيم القناوى رحمة الله عليه. ورأيت بالمدرسة السيفية حفيده شهاب الدين أحمد. وسافرت من هذا البلد إلى مدينة قوص (وهى بضم القاف). مدينة عظيمة لها خيرات عميمة، بساتينها مورقة، وأسواقها مونقة، ولها المساجد الكثيرة، والمدارس الأثيرة، وهى منزل ولاة الصعيد. وبخارجها زاوية الشيخ شهاب الدين بن عبد الغفار، وزاوية الأفرام، وبها اجتماع الفقراء المتجردين فى شهر رمضان من كل سنة، ومن علمائها القاضى جمال الدين

---

(١) الموسر: ذو اليسار والغنى. الوجيز ص(٦٨٥).

ابن السديد، والخطيب بها فتح الدين بن دقيق العيد أحد الفصحاء البلغاء الذين حصل لهم السبق فى ذلك، لم أر من يماثله إلا خطيب المسجد الحرام بهاء الدين الطبرى، وخطيب مدينة خوارزم حسام الدين المشاطى، وسيقع ذكرهما، ومنهم الفقيه برهان الدين إبراهيم الأندلسى، له زاوية عالية.

ثم سافرت إلى مدينة الأقصر (وضبط اسمها بفتح الهمزة وضم الصاد المهمل)، وهى صغيرة حسنة، وبها قبر الصالح العابد أبى الحجاج الأقصرى. وعليه زاوية، وسافرت منها إلى مدينة أرمنت، (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون الراء وميم مفتوحة ونون ساكنة وتاء فوقية)، وهى صغيرة ذات بساتين مبنية على ساحل النيل. أضافنى قاضيها، وأنسيت اسمه. ثم سافرت منها إلى مدينة أسنا (وضبط اسمها بفتح الهمزة وإسكان السين المهمل ونون)، مدينة عظيمة متسعة الشوارع ضخمة المنافع كثيرة الزوايا والمدارس والجوامع، لها أسواق حسان، وبساتين ذات أفنان(١). قاضيها قاضى القضاة شهاب الدين ابن مسكين، أضافنى وأكرمنى، وكتب إلى نوابه بإكرامى. وبها من الفضلاء الشيخ صالح نور الدين على، والشيخ الصالح عبد الواحد المكناسى، وهو على هذا العهد صاحب زاوية بقوص. ثم سافرت منها إلى مدينة أدفو (وضبط اسمها بفتح الهمزة وإسكان الدال المهمل وضم الفاء). وبينها وبين مدينة أسنا مسيرة يوم وليلة فى صحراء، ثم جزنا النيل من مدينة أدفو إلى مدينة العطوانى، ومنها اكترينا(٢) الجمال. وسافرنا مع طائفة من العرب تعرف بدغيم (بالغين المعجمة) فى صحراء لا عمارة بها إلا أنها آمنة السبل. وفى بعض منازلها نزلنا حميثرا حيث قبر ولى الله أبى الحسن الشاذلى، وقد ذكرنا كرامته فى أخباره أنه يموت بها. وأرضها كثيرة الضباع. ولم نزل ليلة مبيتنا بها نحارب الضباع. ولقد قصدت رحلى ضبع منها فمزقت عدلاً كان به، واجترت منه جراب تمر، وذهبت به. فوجدناه لما أصبحنا ممزقًا مأكولاً معظم

---

(١) أفنان جمع فن، والفن: الغصن المستقيم من الشجرة، وجمعه أفنان. الوجيز ص(٤٨٢).

(٢) اكترى الجمل وغيره: استأجره، واكترى الدار وغيرها استأجرها. الوجيز ص(٥٣٣).

ما كان فيه. ثم لما سرنا خمسة عشر يومًا وصلنا إلى مدينة عيذاب، وهى مدينة كبيرة كثيرة الحوت(١) واللبن، ويحمل إليها الزرع والتمر من صعيد مصر. وأهلها البجاة، وهم سود الألوان يلتحفون بملاحف صفر، ويشدون على رؤوسهم عصائب يكون عرض العصابة أصبعًا وهم لا يورثون البنات. وطعامهم ألبان الإبل ويركبون المهارى(٢)، ويسمونها الصهب. وثلث المدينة للملك الناصر وثلثاها لملك البجاة، وهو يعرف بالحدربى (بفتح الحاء المهمل وإسكان الدال وراء مفتوحة وباء موحدة وياء) وبمدينة عيذاب مسجد ينسب للقسطلانى شهير البركة. رأيته وتبركت به. وبها الشيخ الصالح موسى والشيخ المسن محمد المراكشى. زعم أنه ابن المرتضى ملك مراكش، وأن سنه خمس وتسعون سنة، ولما وصلنا إلى عيذاب وجدنا الحدربى سلطان البجاة يحارب الأتراك، وقد خرق المراكب، وهرب الترك أمامه فتعذر سفرنا فى البحر. فبعنا ما كنا أعددناه من الزاد، وعدنا مع العرب الذين اكترينا الجمال منهم إلى صعيد مصر، فوصلنا إلى مدينة قوص التى تقدم ذكرها، وانحدرنا منها فى النيل، وكان أوان مدّه(٣)، فوصلنا بعد مسيرة ثمان من قوص إلى مصر، فبت بمصر ليلة واحدة، وقصدت بلاد الشام. وذلك فى منتصف شعبان سنة ست وعشرين فوصلت إلى مدينة بلبيس، (وضبط اسمها بفتح الموحدة الأولى وفتح الثانية ثم ياء آخر الحروف مسكنة وسين مهملة)، وهى مدينة كبيرة، ذات بساتين كثيرة، ولم ألق بها من يجب ذكره. ثم وصلت إلى الصالحية. ومنها دخلنا الرمال، ونزلنا منازلها، مثل السوادة والورادة والمطيلب والعريش والخروبة. بكل منزل منها فندق. وهم يسمونه الخان. ينزله المسافرون بدوابهم. وبخارج كل خان ساقية للسبيل، وحانوت يشترى منها المسافر ما يحتاجه لنفسه ودابته ومن منازلها قَطْيَا المشهورة وهى (بفتح القاف

---

(١) الحوت: السمك.

(٢) المهارى جمع مهرية: يُقال: إبل مهرية: أى نجائب تسبق الخيل، منسوبة للقبيلة مهرة بن حيدان. الوجيز ص(٥٩٣).

(٣) المد: ارتفاع ماء النهر أو البحر على الشاطئ، ضد الجزر. الوجيز ص(٥٧٥).

وسكون الطاء وياء آخر الحروف مفتوحة وألف). والناس يبدلون ألفها هاء تأنيث. وبها تؤخذ الزكاة من التجار، وتفتش أمتعتهم، ويبحث عما لديهم أشد البحث. وفيها الدواوين[١] والعمال والكتاب، والشهود. ومجباها فى كل يوم ألف دينار من الذهب. ولا يجوز[٢] عليها أحد من الشام إلا ببراءة[٣] من مصر. ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام، احتياطًا على أموال الناس، وتوقيًا من الجواسيس[٤] العراقيين. وطريقها فى ضمان العرب قد وكلوا بحفظه. فإذا كان الليل مسحوا على الرمل حتى لا يبقى به أثر، ثم يأتى الأمير صباحًا، فينظر إلى الرمل فإن وجد به أثرًا طالب العرب بإحضاره مؤثره، فيذهبون فى طلبه، فلا يفوتهم فيأتون به الأمير، فيعاقبه بما شاء، وكان بها فى عهد وصولى إليها عز الدين أستاذ الدار اقمارى من خيار الأمراء، أضافنى وأكرمنى وأباح الجواز لمن كان معى. وبين يديه عبد الجليل المغربى والوقاف، وهو يعرف المغاربة وبلادهم، فيسأل من ورد منهم من أى البلاد هو لئلا يلبس عليهم، فإن المغاربة لا يعترضون جوازهم على قطيا. ثم سرنا حتى وصلنا إلى مدينة غزة، وهى أول بلاد الشام مما يلى مصر متسعة الأقطار، كثيرة العمارة حسنة الأسواق، بها المساجد العديدة والأسوار عليها. وكان بها جامع حسن، والمسجد الذى تقام الآن به الجمعة فيها، بناه الأمير المعظم الجاولى، وهو أنيق البناء محكم الصنعة، ومنبره من الرخام الأبيض. وقاضى غزة بدر الدين السلختى الحورانى. ومدرسها علم الدين بن سالم. وبنو سالم كبراء هذه المدينة، ومنهم شمس الدين قاضى القدس. ثم سافرت من غزة إلى مدينة الخليل صلى الله على نبينا وعليه وسلم تسليمًا، وهى مدينة صغيرة الساحة، كبيرة المقدار، مشرقة الأنوار حسنة المنظر عجيبة المخبر،

---

(١) الديوان: الدفتر يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء، أو: الكتبة، أو: مكانهم. الوجيز ص(٢٤٠).

(٢) يجوز: يمر. الوجيز ص(١٢٦).

(٣) براءة: إذن. الوجيز ص(٤٢).

(٤) الجواسيس جمع جاسوس، وهو من يتجسس الأخبار ليأتى بها. الوجيز ص(١٠٥).

فى بطن وادٍ، ومسجدها أنيق الصنعة محكم العمل بديع الحسن سامى الارتفاع، مبنى بالصخر المنحوت. فى أحد أركانه صخرة أحد أقطارها سبعة وثلاثون شبرًا. ويقال: إن سليمان -عليه السلام- أمر الجن ببنائه وفى داخل المسجد الغار المكرم المقدس. فيه قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب -صلوات الله على نبينا وعليهم-. ويقابلها قبور ثلاثة، هى قبور أزواجهم. وعن يمين المنبر، بلصق جدار القبلة موضع يهبط منه على درج رخام محكمة العمل إلى مسلك ضيق، يفضى إلى ساحة مفروشة بالرخام، فيها صور القبور الثلاثة. ويقال: إنها محاذية لها. وكان هنالك مسلك إلى الغار المبارك. وهو الآن مسدود. وقد نزلت بهذا الوضع مرات، ومما ذكره أهل العلم دليلاً على صحة كون القبور الثلاثة الشريفة هنالك، ما نقله من كتاب على بن جعفر الرازى الذى سماه: «المسفر للقلوب عن صحة قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب»، أسند فيه إلى أبى هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «لما أُسرى بى إلى بيت المقدس مرّ بى جبريل على قبر إبراهيم فقال: انزل فصلّ ركعتين. فإن هنا قبر أبيك إبراهيم. ثم مر بى على بيت لحم وقال: انزل فصلّ ركعتين، فإن هنا ولد أخوك عيسى -عليه السلام-. ثم أتى بى الصخرة»[1] وذكر بقية الحديث. ولما لقيتُ بهذه المدينة المدرس الصالح المعمر الإمام الخطيب برهان الدين الجعبرى، أحد الصلحاء المرضيين، والأئمة المشهورين. سألته عن صحة كون قبر الخليل -عليه السلام- هنالك، فقال لى: كل من لقيته من أهل العلم يصححون أن هذه القبور قبور إبراهيم وإسحاق ويعقوب -على نبينا وعليهم السلام-، وقبور زوجاتهم، ولا يطعن فى ذلك إلا أهل البدع، وهو نقل الخلف عن السلف لا يشك فيه، ويذكر أن بعض الأئمة دخل إلى الغار، ووقف عند قبر سارة؛ فدخل شيخ فقال له: أى هذه القبور هو قبر إبراهيم؟ فأشار له إلى قبره

(١) لم أقف عليه، وجملة عيسى ابن مريم -عليه السلام- عزاها الحافظ ابن كثير فى «تفسيره» (٣/ ٥، ٦) للنسائى فى حديث الإسراء من رواية أنس بن مالك، وقال إن فى هذه الرواية غرابة ونكارة.

المعروف، ثم دخل شاب فسأله كذلك، فأشار له إليه. ثم دخل صبى فسأله أيضًا فأشار له إليه، فقال الفقيه: أشهد أن هذا قبر إبراهيم -عليه السلام- لا شك. ثم دخل إلى المسجد فصلى به وارتحل من الغد. وبداخل هذا المسجد أيضًا قبر يوسف -عليه السلام-. وبشرقى حرم الخليل تربة لوط -عليه السلام-. وهى تل مرتفع، يشرف منه غور[1] الشام. وعلى قبره أبنية حسنة. وهو فى بيت منها حسن البناء مبيض ولا ستور عليه. وهنالك بحيرة لوط، هى أجاج[2]. يقال: إنها موضع ديار قوم لوط، وبمقربة من تربة لوط مسجد اليقين، وهو على تل مرتفع له نور وإشراق ليس لسواه، ولا يجاوره إلا دار واحدة يسكنها قيمه. وفى المسجد بمقربة من بابه موضع منخفض فى حجر صلد قد هيىء فيه صورة محراب، لا يسع إلا مصليًا واحدًا، ويقال: إن إبراهيم سجد فى ذلك الموضع شكراً لله تعالى عند هلاك قوم لوط، فتحرك موضع سجوده، وساخ[3] فى الأرض قليلاً. وبالقرب من هذا المسجد مغارة فيها قبر فاطمة بنت الحسين بن على -عليهما السلام- وبأعلى القبر وأسفله لوحان من الرخام فى أحدهما مكتوب منقوش بخط بديع بسم الله الرحمن الرحيم لله العزة والبقاء وله ما ذرأ وبرأ وعلى خلقه كتب الفناء. وفى رسول الله أسوة. هذا قبر أم سلمة فاطمة بنت الحسين -رضي الله عنه-. وفى اللوح الآخر منقوش: صنعه محمد بن أبى سهل النقاش بمصر. وتحت ذلك هذه الأبيات:

أسكنت من كان فى الأحشاء مسكنه ... بالرغم منى بين الترب والحجر

يا قبر فاطمة بنت ابن فاطمة ... بنت الأئمة بنت الأنجم الزهر

يا قبر ما فيك من دين ومن ورع ... ومن عفاف ومن صون ومن خفر[4]

---

(١) الغور: كل منخفض من الأرض، والغور من كل شيء: قعره وعمقه. الوجيز ص(٤٥٧).

(٢) الأجاج: ما يلذع الفم بمرارته أو ملوحته. الوجيز ص(٦).

(٣) ساخ فى الأرض: غطس فيها. الوجيز ص(٣٢٧).

(٤) الخفر: الوفاء. الوجيز ص(٢٠٤).

ثم سافرت من هذه المدينة إلى القدس. فزرت فى طريقى إليه تربة يونس -عليه السلام-، وعليها أبنية كبيرة ومسجد. وزرت أيضًا بيت لحم، موضع ميلاد عيسى -عليه السلام-، وبه أثر جذع النخلة، وعليه عمارة كثيرة. والنصارى يعظمونه أشد التعظيم، ويضيفون من نزل به، ثم وصلنا إلى بيت المقدس، شرفه الله، ثالث المسجدين الشريفين فى رتبة الفضل، ومصعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم تسليمًا-، ومعرجه إلى السماء. والبلدة كبيرة مبنية بالصخر المنحوت. وكان الملك الصالح الفاضل صلاح الدين بن أيوب جزاه الله عن الإسلام خيراً، لما فتح هذه المدينة هدم بعض سورها. ثم استنقض الملك الظاهر هدمه خوفًا أن يقصدها الروم فيتمنعوا[١] بها. ولم يكن بهذه المدينة نهر فيما تقدم، وجلب لها الماء فى هذ العهد الأمير سيف الدين تنكيز أمير دمشق.

خبر المسجد المقدس

وهو من المساجد العجيبة الرائقة الفائقة الحسن، يقال: إنه ليس على وجه الأرض مسجد أكبر منه، وإن طوله من شرق إلى غرب سبعمائة واثنتان وخمسون ذراعًا بالذراع المالكية وعرضه من القبلة إلى الجوف أربعمائة ذراع وخمس وثلاثون ذراعًا. وله أبواب كثيرة فى جهاته الثلاث، وأما الجهة القبلية منه فلا أعلم بها إلا بابًا واحدًا، وهو الذى يدخل منه الإمام، والمسجد كله فضاء وغير مسقف إلا المسجد الأقصى فهو مسقف فى النهاية من إحكام الفعل وإتقان الصنعة مموه[٢] بالذهب والأصبغة الرائقة، وفى المسجد مواضع سواه مسقفة.

قبة الصخرة

من أعجب المبانى وأتقنها وأغربها شكلاً. قد توفر حظها من المحاسن وأخذت من كل بديعة بطرف، وهى قائمة على نشز فى وسط المسجد، يصعد

---

(١) تمنع به: احتمى. الوجيز ص(٥٩٢).

(٢) موه الشيء: طلاه بفضة أو ذهب إذا لم يكن جوهره منهما. الوجيز ص(٥٩٥).

إليهـا فى درج رخام. ولها أربعة أبواب. والـدائر بها مفروش بالرخـام أيضًا محكم الصنعة، وكذلك داخلهـا وفى ظاهرها وباطنها من أنواع الزواقة ورائق الصنعة ما يعجز الواصف. وأكثـر ذلك مغشى بالذهب فهى تتلألأ أنوارًا، أو تلمع لمعان البرق. يحار بصـر متأملها فى محاسنها، ويقصـر لسان رائيها عن تمثيلها. وفى وسط القبة الصخرة الكريمة التى جاء ذكرها فى الآثار. فإن النبى -ﷺ- عرج منها إلى السماء(١). وهى صخرة صماء، ارتفـاعها نحو قامة. وتحتهـا مغارة مقـدار بيت صغيـر. ارتفاعها نحـو قامة أيضًا ينزل إليـها على درج. وهنالك شكل محراب. وعلى الصـخر شباكان اثنان مـحكما العمل، يغلقان عليـها، أحدهمـا: وهو الذى يلى الصخرة من حـديد بديع الصنعة، والثانى: من خـشب. وفى القبـة درقة(٢) كبـيرة من حديد، مـعلقة هنالك. والناس يزعمون أنها درقة حمزة بن عبد المطلب -رضي الله عنه-.

المشاهد المباركة بالقدس الشريف

فمنهـا بعدوة الوادى المعـروف بوادى جهنم فى شـرقى البلد، على تل مرتفع هنالك، بنـية يقال: إنها مـصعد عـيسى -عليه السلام- إلى السمـاء. ومنها أيضًـا قبـر رابعـة البدوية، منسـوبة إلى البـادية وهى خـلاف رابعة العـدوية الشهيرة. وفى بطن الوادى المذكور كنيسة يعظمها النصارى، ويقولون: إن قبر مـريم عليهـا السلام بهـا. وهنالك أيضًـا كنيسـة أخرى مـعظمة، يحـجهـا النصـارى، وهى التى يكذبون عليـها، ويعـتقـدون أن قبـر عيـسى -عليه السلام- بها(٣). وعلى كل من يحجها ضريبة معلومة للمسلمين. وضروب من الإهانة يتحملها على رغم أنفه. وهنالك موضع مهد عيسى -عليه السلام- يتبرك به.

---

(١) أخرجه البزار عن بريدة أن رسول الله قال: «لما كـان ليلة أسرى بى - قال - فأتى جبريل الصخرة التى ببيت المقدس. قال: فوضع أصبعه فيـها فخرقها فشد بها البراق». وأخرجه الترمذى (٣١٤٣) بنحوه. انظر «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٠).

(٢) الدرقة: التُّرس من جلد. الوجيز (ص٢٢٦).

(٣) بل إن عيسى -ﷺ- لا زال حيًّا كما قال تعالى: ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن =

فضلاء القدس المشهورين

منهم قاضيه العالم شمس الدين محمد بن سالم الغزى (بفتح الغين)، وهو من أهل غـزة وكبـرائها. ومنهم خـطيبـه الصالح الفـاضل عمـاد الدين النابلسى. ومنهم المحدث المفتى شهـاب الدين الطبرى. ومنهم مدرس المالكية وشيخ الخانقاه الكـريمة أبو عبد الله محمد بن مثـبت الغرناطى نزيل القدس. ومنهم الشيخ الزاهد أبو على حـسن المعروف بالمحجوب من كـبار الصالحين. ومنهم الشـيخ الصالح الـعابد كـمال الدينى المراغـى. ومنهم الشيخ الصـالح العابد أبو عبد الرحيم عـبد الرحمن بن مصطفى من أهل أرز الروم، وهو من تلامذة تاج الدين الرفاعى. صـحبته ولبست منه خرقة التـصوف. ثم سافرت من القدس الشريف برسم زيارة ثغـر عسقلان، وهو خراب. قد عـاد رسومًا طامسةً، وأطلالاً دارسة[1]. وقل بلد جمع من المحاسن مـا جمعته عـسقلان إتقانًا وحـسن وضع، وأصالة مكان، وجـمعًا بين مـرافق البر والبحـر، وبها المشهد الـشهير حيث كـان رأس الحسين بن على -عليه السلام-، قبل أن ينقل إلى القاهرة، وهو مسجـدٌ عظيم سامى العلو، فيه جبٌّ[2] للماء أمر ببنائه بعض العبيد، وكـتب ذلك على بابه وفى قبلة هذا المزار مسجد كبيـر يعرف بمسجد عمـر، لم يبق منه إلا حيطانه، وفـيه أساطين رخـام لا مثل لهـا فى الحسن، وهى ما بين قائم وحـصيد[3]، ومن جملتهـا أسطوانة حمراء عجـيبة، يزعم الناس أن النصارى احتملوها إلى بلادهم، ثم فقدوهـا، فوجدت فى موضعها

= مريم رسول الله وما قـتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلـفوا فيه لفى شك منه ما لهم بـه من علم إلا اتباع الظن وما قـتلوه يقينا بل رفـعه الله إليه وكـان الله عزيزًا حكيمًا﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨].

(١) يُقال: درس يدرس درسًـا ودروسًا: عفا وذهب أثـره، فهو دارس وهى دارسة. الوجـيز ص(٢٢٥).

(٢) الجب: البئر الواسعة. الوجيز ص(٩٠).

(٣) يعنى: منها باق ومنها هالك؛ قـال تعالى: ﴿ذلك من أنباء القرى نقصـه عليك منها قائم وحصيد﴾ [هود: ١٠٠] قال ابن كثير (٢/ ٤٤٠): ﴿منها قائم﴾ أى عامر ﴿وحصيد﴾ أى هالك.

بعسقلان. وفى القبلة من هذا المسجد بئر تعرف ببئر إبراهيم -عليه السلام-، ينزل إليها فى درج متسعة، ويدخل منها إلى بيوت، وفى كل ناحية من جهاتها الأربع تخرج من أسراب مطوية بالحجارة. وماؤها عذب، وليس بالغزير. ويذكر الناس من فضائلها كثيرًا. وبظاهر عسقلان وادى النمل، ويقال: إنه المذكور فى الكتاب العزيز. وبجبانة عسقلان من قبور الشهداء والأولياء ما لا يحصر لكثرته، أوقفنا عليهم قيّم المزار المذكور، وله جراية يجريها له ملك مصر، مع ما يصل إليه من صدقات الزوار.

ثم سافرت منها إلى مدينة الرملة وهى فى فلسطين مدينة كبيرة، كثيرة الخيرات، حسنة الأسواق. وبها الجامع الأبيض. ويقال: إن فى قبلته ثلاثمائة من الأنبياء، مدفونين عليهم السلام. وفيها من كبار الفقهاء مجد الدين النابلسى. ثم خرجت منها إلى مدينة نابلس، وهى مدينة عظيمة، كثيرة الأشجار مطردة الأنهار، من أكثر بلاد الشام زيتونًا. ومنها يحمل الزيت إلى مصر ودمشق. وبها تصنع حلواء الخروب، وتجلب إلى دمشق وغيرها. **وكيفية عملها:** أن يطبخ الخروب، ثم يعصر، ويؤخذ ما يخرج منه من الرّبّ فتصنع منه الحلواء. ويجلب ذلك الرب أيضًا إلى مصر والشام. وبها البطيخ المنسوب إليها وهو طيب عجيب. والمسجد الجامع فى نهاية من الإتقان والحسن. وفى وسطه بِرْكَةٌ(١) ماء عذب. ثم سافرت منها إلى مدينة عجلون (وهى بفتح العين المهملة)، وهى مدينة حسنة لها أسواق كثيرة، وقلعة خطيرة. ويشقها نهر ماؤه عذب. ثم سافرت منها بقصد اللاذقية، فمررت بالغور، وهو واد بين تلال به قبر أبى عبيدة بن الجراح أمين هذه الأرض -رضي الله عنه-(٢)، زرناه وعليه زاوية فيها الطعام لأبناء السبيل. وبتنا هنالك ليلة، ثم وصلنا إلى القصير، وبه قبر معاذ بن جبل -رضي الله عنه-، تبركت أيضًا بزيارته. ثم سافرت على الساحل، فوصلت إلى مدينة عكة، وهى خراب وكانت عكة قاعدة بلاد الإفرنج بالشام، ومرسى سفنهم، وتشبه قسطنطينية

(١) البركة: مستنقع الماء. الوجيز ص(٤٧).

(٢) وفيه حديث أخرجه البخارى ومسلم عن أنس: «أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

العظمى، وبشرقيها عين ماء تعرف بعين البقر، يقال: إن الله تعالى أخرج منها البقر لآدم -عليه السلام-. وينزل إليها في درج. وكان عليها مسجد بقي منه محرابه. وبهذه المدينة قبر صالح -عليه السلام-. ثم سافرت منها إلى مدينة صور، وهي خراب وبخارجها قرية معمورة، وأكثر أهلها أرفاض[1]، ولقد نزلت بها مرة على بعض المياه أريد الوضوء. فأتى بعض أهل تلك القرية ليتوضأ فبدأ بغسل رجليه، ثم غسل وجهه، ولم يتمضمض ولا استنشق، ثم مسح بعض رأسه، فأخذت عليه في فعله فقال لي: إن البناء إنما يكون ابتداؤه من الأساس. ومدينة صور هي التي يضرب بها المثل في الحصانة والمنعة، لأن البحر محيط بها من ثلاث جهاتها. ولها بابان أحدهما للبر، والثاني للبحر. ولبابها الذي يشرع للبر أربعة فصلات كلها في ستائر محيطة بالباب، وأما الباب الذي للبحر فهو بين برجين عظيمين. وبناؤها ليس في بلاد الدنيا أعجب ولا أغرب شأنًا منه، لأن البحر محيط بها من ثلاث جهاتها. وعلى الجهة الرابعة سور، تدخل السفن تحت السور، وترسو هنالك. وكان فيما تقدم بين البرجين سلسلة حديد معترضة، لا سبيل إلى الداخل هنالك، ولا إلى الخارج إلا بعد حطها، وكان عليها الحراس والأمناء، فلا يدخل داخل، ولا يخرج خارج، إلا على علم منهم. وكان لعكة أيضًا ميناء مثلها، ولكنها لم تكن تحمل إلا السفن الصغار. ثم سافرت منها إلى مدينة صيدا، وهي على ساحل البحر، حسنة كثيرة الفواكه يحمل منها التين والزبيب والزيت إلى بلاد مصر، نزلت عند قاضيها كمال الدين الأشموني المصري، وهو حسن الأخلاق كريم النفس. ثم سافرت منها إلى مدينة طبرية. وكانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة، ولم يبق منها إلا رسوم تنبئ عن ضخامتها، وعظم شأنها. وبها الحمامات العجيبة؛ لها بيتان أحدهما للرجال، والثاني للنساء. وماؤها شديد الحرارة. ولها البحيرة الشهيرة، طولها نحو ستة فراسخ،

---

(١) يعني من الرافضة: وهم فرقة من الشيعة تجيز الطعن في الصحابة، سموا بذلك لأنهم رفضوا نصح زيد بن علي حين نهاهم عن الطعن في الشيخين أبي بكر وعمر. الوجيز ص(٢٧١).

وعرضها أزيد من ثلاثة فراسخ. وبطبرية مسجد يعرف بمسجد الأنبياء، فيه قبر شعيب -عليه السلام-، وبنته زوج موسى الكليم -عليه السلام-، وقبر سليمان -عليه السلام-، وقبر يهودا، وقبر روبيل -صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم-. وقصدنا منها زيارة الجب الذى ألقى فيه يوسف -عليه السلام-، وهو فى صحن مسجد صغير وعليه زاوية. والجب كبير عميق، شربنا من مائه المجتمع من ماء المطر، وأخبرنا قيّمه[1] أن الماء ينبع منه أيضًا. ثم سرنا إلى مدينة بيروت وهى صغيرة، حسنة الأسواق، وجامعها بديع الحسن، ويجلب منها إلى ديار مصر الفواكه. وقصدنا منها زيارة أبى يعقوب يوسف الذى يزعمون أنه من ملوك المغرب. وهو بموضع يعرف بكرك نوح من بقاع العزيز، وعليه زاوية يطعم بها الوارد. ويقال: إن السلطان صلاح الدين وقف عليها الأوقاف، وقيل: السلطان نور الدين، وكانوا من الصالحين. ويذكر أنه كان ينسج الحصر ويقتات بثمنها.

حكايةُ أبى يعقوب يوسف المذكور

يحكى أنه دخل مدينة دمشق، فمرض بها مرضًا شديدًا، وأقام مطروحًا بالأسواق. فلما برئ من مرضه، خرج إلى ظاهر دمشق ليلتمس بستانًا يكون حارسًا له. فاستؤجر لحراسة بستان للملك نور الدين، وأقام فى حراسته ستة أشهر، فلما كان فى أوان الفاكهة أتى السلطان إلى ذلك البستان، وأمر وكيل البستان أبا يعقوب أن يأتى برمان يأكل منه السلطان، فأتاه برمان. فوجده حامضًا، فأمره أن يأتى بغيره، ففعل ذلك. فوجده أيضًا حامضًا. فقال له الوكيل: أتكون فى حراسة هذا البستان منذ ستة أشهر ولا تعرف الحلو من الحامض؟ فقال: إنما استأجرتنى على الحراسة لا على الأكل، فأتى الوكيل إلى الملك فأعلمه بذلك فبعث إليه الملك، وكان قد رأى فى المنام أنه يجتمع مع أبى يعقوب، وتحصل له منه فائدة، فتفرس أنه هو. فقال له: أنت أبو يعقوب؟ قال: نعم. فقام إليه، وعانقه، وأجلسه إلى جانبه، ثم احتمله إلى مجلسه، فأضافه بضيافة من الحلال بكدّ يمينه، وأقام عنده أيامًا. ثم خرج من

---

(١) القيم على الجب يعنى: من يقوم عليه ويتولى أموره. الوجيز ص(٥٢١).

دمشق فاراً بنفسه فى أوان البرد الشديد، فأتى قرية من قراها. وكان بها رجل من الضعفاء فعرض عليه النزول عنده ففعل. وصنع له مرقة، وذبح دجاجة فأتاه بها، وبخبز شعير فأكل من ذلك، ودعا للرجل، وكان عنده جملة أولاد، منهم بنت قد آن بناء زوجها عليها. ومن عوائدهم فى تلك البلاد أن البنت يجهزها أبوها. ويكون معظم الجهاز أوانى النحاس، وبه يتفاخرون، وبه يتبايعون. فقال أبو يعقوب للرجل: هل عندك شىء من النحاس؟ قال: نعم، قد اشتريت منه لتجهيز هذه البنت، قال ائتنى به. فأتاه به. فقال له: استعر من جيرانك ما أمكنك منه، ففعل، وأحضر ذلك بين يديه فأوقد عليه النيران. وأخرج صرة كانت عنده فيها الإكسير[1]. فطرح منه على النحاس فعاد كله ذهبًا، وتركه فى بيت مقفل وكتب كتابًا إلى نور الدين ملك دمشق يعلمه بذلك. وينبهه على بناء مارستان للمرضى من الغرباء، ويوقف عليه الأوقاف، ويبنى الزوايا بالطرق، ويرضى أصحاب النحاس، ويعطى صاحب البيت كفايته، وقال له فى آخر الكتاب: وإن كان إبراهيم بن أدهم قد خرج عن ملك خراسان، فأنا قد خرجت من ملك المغرب، وعن هذه الصنعة والسلام. وفرّ من حينه، وذهب صاحب البيت بالكتاب إلى الملك نور الدين، فوصل الملك إلى تلك القرية واحتمل الذهب، بعد أن أرضى أصحاب النحاس، وصاحب البيت. وطلب أبا يعقوب فلم يجد له أثراً ولا وقع له على خبر. فعاد إلى دمشق وبنى المارستان المعروف باسمه الذى ليس فى المعمور مثله. ثم وصلت إلى مدينة طرابلس، وهى إحدى قواعد الشام، وبلدانها الضخام، تخترقها الأنهار، وتحفها البساتين والأشجار، ويكنفها البحر بمرافقه العميمة، والبر بخيراته المقيمة. ولها الأسواق العجيبة، والمسارح الخصيبة. والبحر على ميلين منها. وهى حديثة البناء. وأما فى طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر وتملّكها الروم زمانًا، فلما استرجعها الملك الظاهر خربت، واتخذت هذه الحديثة. وبهذه المدينة نحو أربعين من أمراء

(١) الإكسير: مادة مركبة، كان الأقدمون يزعمون أنها تحول المعدن الرخيص إلى ذهب. والإكسير فى زعمهم: شراب يطيل الحياة. الوجيز ص(٢١).

الأتراك. وأميرها طيلان الحاجب المعروف بملك الأمراء. ومسكنه منه بالدار المعروفة بدار السعادة. ومن عوائده أن يركب في كل يوم إثنين وخميس، ويركب معه الأمراء والعساكر، ويخرج إلى ظاهر المدينة، فإذا عاد إليها، وقارب الوصول إلى منزله، ترجل الأمراء(١)، ونزلوا عن دوابهم، ومشوا بين يديه، حتى يدخل منزله، وينصرفون وتضرب الطبلخانة عند دار كل أمير منهم بعد صلاة المغرب من كل يوم، وتوقد المشاعل. وممن كان بها من الأعلام كاتب السر بهاء الدين بن غانم أحد أفضل الحسباء معروف بالسخاء والكرم وأخوه حسام الدين هو شيخ القدس الشريف، وقد ذكرناه، وأخوهما علاء الدين كاتب السر بدمشق. ومنهم وكيل بيت المال قوام الدين بن مكين من أكابر الرجال. ومنهم قاضي قضاتها شمس الدين بن النقيب من أعلام علماء الشام. وبهذه المدينة حمامات حسان منها حمام القاضي القرمي. وحمام سندمور. وكان سندمور أمير هذه المدينة. ويذكر عنه أخبار كثيرة في الشدة على أهل الجنايات. منها أن امرأة شكت إليه بأن أحد مماليكه الخواص تعدى عليها في لبن كانت تبيعه فشربه، ولم تكن لها بينة. فأمر به فوسط فخرج اللبن من مصرانه. وقد اتفق مثل هذه الحكاية للعتريس أحد أمراء الملك الناصر أيام إمارته على عيذاب. واتفق مثلها للملك كبك سلطان تركستان. ثم سافرت من طرابلس إلى حصن الأكراد، وهو بلدٌ صغيرٌ كثير الأشجارِ والأنهارِ بأعلى تل. وبه زاوية تعرف بزاوية الإبراهيمي نسبة إلى بعض كبراء الأمراء. ونزلت عند قاضيها ولا أحقق الآن اسمه. ثم سافرت إلى مدينة حمص وهي مدينة مليحة، أرجاؤها مونقة، وأشجارها مورقة، وأنهارها متدفقة، وأسواقها فسيحة الشوارع، وجامعها متميز بالحسن الجامع، وفي وسطه ماء. وأهل حمص عرب لهم فضل وكرم. وبخارج هذه المدينة قبر خالد بن الوليد سيف الله ورسوله، وعليه زاوية ومسجد وعلى القبر كسوة سوداء. وقاضي هذه المدينة جمال الدين الشريشي من أجمل الناس صورة

(١) الراجل: الماشي على رجليه. الوجيز ص(٢٥٧).

وأحسنـهم سيرة. ثم سـافرت منهـا إلى مدينة حـماة إحـدى أمهـات الشام الرفيـعة، ومـدائنها البـديعة، ذات الحسن الرائـق، والجمال الفـائق، تحفـها البساتين والجنات، عليـها النواعير[1] كالأفلاك الدائرات، يشقـها النهر العظيم المسمى بالعاصى. لها ربض سمى بالمنصورة أعظم من المدينة، فى الأسواق الحافـلة، والحمامـات الحسـان، وبحمـاة الفواكـه الكثيـرة ومنها المشـمش اللوزى، إذا كسـرت نواته وجدت فى داخلها لوزة حلوة. قـال ابن جزى: وفى هذه المدينة ونهرها ونواعيرها وبساتينها يقول الأديب الرحال نور الدين أبو الحسن على بن موسى بن سعيد العبـسى العمارى الغرناطى نسبة لعمار ابن ياسر -رضي الله عنه-:

حَمـى الله مـن حـمـاةَ منـاظـرًا ... وقفتُ عليها السمعَ والفكر والطَّرْفا
تَغَنَّـى حَـمـام أو تـميـل خمـائـل ... وتزهى مبانى تمنع الواصف الوصفـا
يلومموننى أن أعصىَ الصَّونَ والنُّهَى ... بها وأطيع الكأسَ واللهوَ والقصفا
إذا كان فيها النهرُ عـاصٍ فكيف لا ... أحاكيه عصيانًا وأشـربُـها صرْفـا
وأشدو لدى تلك النواعرِ شَدْوهـا ... وأغلبُـهـا رقـصًا وأشبهـهـا عَـزْفا
تَـئِنُّ وتـذرى دمعَهـا فكـأنـهـا ... تَهيـمُ بمرآهـا وتسـألُـهـا العَطْفا

ولبعضهم فى نواعيرها ذاهبًا مذهب التورية:

ونـاعـورة رقَّـت لـعَظْـم خـطيـئتى ... وقد عاينت قصدى مـن المنزل القاصى
بكَـتْ رحمـةً ثـم باحَـتْ بِشَجْـوِها[2] ... وحَسْبُكَ أن الخُشبَ تبكى على العاصى

ولبعض المتأخرين فيها أيضًا من التورية:

يـا سـادةً سـكـنوا حمـاةَ وحقِّكُـم ... ما حِلْتُ عن تقوى وعن إخـلاصِ
والطَّـرْفُ بعـدكـم إذا اذكـرَ اللقـا ... يجرى المدامـع طائـعًـا كالعاصـى

---

(١) نواعيـر جمع ناعورة؛ دولاب ذو دلاء أو نحوها، يدور بدفع الماء أو جـر الماشية فيـخرج الماء من البئر أو النهر إلى الحقل. الوجيز ص(٦٢٤).

(٢) بشجوها: يعنى: بحزنها الوجيز ص(٣٣٦).

ثم سافرت إلى مدينة المعرّة، التى ينسب إليها الشاعر أبو العلاء المعرى، وكثير سواه من الشعراء. قال ابن جزى: وإنما سميت بمعرة النعمان لأن النعمان بن بشير الأنصارى صاحب رسول الله -ﷺ- توفى له ولد أيام إمارته على حمص، فدفنه بالمعرة، فعرفت به. وكانت قبل ذلك تسمى ذات القصور. وقيل: إن النعمانَ جبلٌ مطلٌّ عليها سميت به. والمعرة مدينة كبيرة حسنة، أكثر شجرها التين والفستق، ومنها يحمل إلى مصر والشام. وبخارجها على فرسخ منها قبر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز. ولا زاوية عليه ولا خديم له. وسبب ذلك أنه وقع فى بلاد صنفٍ من الرافضة أرجاس، يبغضون العشرة من الصحابة -رضي الله عنهم-، ولعن مبغضهم ويبغضون كل من اسمه عمر خصوصًا عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه- لما كان من فعله فى تعظيم على -رضي الله عنه-. ثم سرنا منها إلى مدينة سرمين، وهى حسنة كثيرة البساتين، وأكثر شجرها الزيتون. بها يصنع الصابون الأجرى، ويجلب إلى مصر والشام. ويصنع بها أيضًا الصابون المطيب لغسل الأيدى، ويصبغونه بالحمرة والصفرة. ويصنع بها ثياب قطن حسان تنسب إليها. وأهلها سبابون يبغضون العشرة. ومن العجب أنهم لا يذكرون لفظ العشرة وينادى سماسرتهم بالأسواق على السلع، فإذا بلغوا إلى العشرة قالوا تسعة وواحد. وحضر بها بعض الأتراك يومًا فسمع سمسارًا ينادى تسعة وواحد فضربه بالدبوس على رأسه وقال: قل عشرة بالدبوس. وبها مسجد جامع فيه تسع قباب. ولم يجعلوها عشرة قيامًا بمذهبهم القبيح. ثم سرنا إلى مدينة حلب، المدينة الكبرى والقاعدة العظمى. قال أبو الحسين ابن جبير فى وصفها: قدرها خطير، وذكرها فى كل زمان يطير، خطابها من الملوك كثير، ومحلها من النفوس أثير(١)، فكم هاجت من كفاح(٢)، وسُلّ عليها من بيض الصفاح، لها قلعة شهيرة الامتناع، بائنة الارتفاع، تنزهت حصانة من أن ترام أو

---

(١) الأثير: المفضل على غيره، يُقال: هو أثيرى: يعنى: أوثره وأفضله. الوجيز ص(٦).

(٢) يُقال: كافح قرنه: قاومه بقوة، ويُقال: كافح القوم أعداءهم وكافح الأطباء الأمراض، وكافحت الدولة البطالة، وتكافح المقاتلون: تضاربوا وجها لوجه. الوجيز ص(٥٣٦).

تستطاع، منحوتة الأجـزاء، موضوعة على نسبة اعتـدال واستواء، قد طاولت الأيام والأعـوام، ووسـعت الخـواص والعـوام، أين أمـراؤها الحـمـدانيـون وشعراؤها؟ فنى جميعهم، ولم يبق إلا بناؤها. فـيا عجبًا لبلاد تبقى ويذهب ملاكها، ويهلكون ولا يقـضى هلاكها، وتخطب بعدهم فلا يتعـذر أملاكها، وترام فيـتيسر بأهون شيء إدراكـها. هذه حلب كم أدخلت ملوكها فـي خبر كان، ونسـخت صرف الزمان بالمكان. أنت اسمـها، فتحلت بحليـة الغوان، وأتت بالعـذر فيمن دان، وانجلت عـروسًا بعـد سيف دولتـها ابن حـمدان. هيهات سيهرم شبابها، ويعدم خطابهـا، ويسرع فيها بعد حين خرابها. وقلعة حلب تسمى الشـهباء. وبداخلهـا جبلان ينبع منهـما الماء، فلا تخـاف الظمأ ويطيف بهـا سوران. وعليـهـا خندق عظيم ينبع منه الماء. وسـورها متـدانى الأبراج وقد انتظمت بهـا العلالى العجـيبة المفتـحة الطيقـان. وكل برج منها مسكون. والطعام لا يتغير بهذه القلعة على طول الـعهد. وبها مشهد يقصده بعض الناس، يقال: إن الخليل -عليه السلام- كان يتعبد به. وهذه القلعةُ تشبه قلعةَ رحبـة مالك بن طوق التى على الفرات بين الشـام والعراق. ولما قصـد قازان طاغية التتر مدينة حلب حاصر هذه القلعة أيامًا، ونكص عنها خائبًا، قال ابن جزى: وفى هذه القلعة يقول الخالدى شاعر سيف الدولة:

وخرقـاءَ قـد قامَـتْ على مَنْ يَرُومُـهـا ... بمرْقَبِهـا العالـى وجانبِهـا الصَّعْـبِ
يـجـرُّ عليها الـجـو جَيْبَ غمامـةٍ ... ويُلْبِسُهـا عِـقْـدًا بأنجمِـه الشُّـهْـبِ
إذا مـا سَرَى بَرْقٌ بَـدَتْ مِـنْ خَلالِـه ... كما لاَحَتِ العذراءُ من خَلَلِ السُّحْبِ
فكـم مِـن جـنـودٍ قـد أماتـتْ بِغصَّـةٍ ... وذى سطواتٍ قـد أبانَـتْ على عقبِ

وفيها يقول أيضًا وهو من بَديع النظم:

وقلعــة عـانـق العنقـاءَ سافلُـهـا ... وجـازَ منطـقـةَ الجـوزاء عاليـها
لا تعرفُ القَطْرَ إذ كان الغمامُ لها ... أرضًا تُـوطِّـأُ قـطـرَيْـه مواشيـها
إذا الغمامةُ راحَتْ غـاضَ ساكنها ... حياضُهـا قبـل أن تهمـى عواليهـا

يُعَدُّ من أنجم الأفلاك مرْقَبُها   لو أنه كان يجرى فى مجاريها
ردَّت مكايدَ أَقوامٍ مكايدُها   ونصرَتْ لِدَواهيهم دواهيها

وفيها يقول جمال الدين على ابن أبى المنصور:

كادت لبَوْن سموّها وعلوّها   تستوقفُ الفُلْكَ المحيطَ الدائرا
وَرَدت قواطنُها المجرةَّ[1] مَنْهلاً   ورعَتْ سوابقُها النجومَ زَواهِرا
ويَظلُّ صرْف الدهرِ[2] منها خائفًا   وَجلاً[3] فما يُمْسى لديها حاضرا

ويقال: فى مدينة حَلَب إبراهيم، لأن الخليل -صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه- كان يسكنها. وكانت له الغنم الكثيرة. فكان يسقى الفقراء والمساكين، والوارد والصادر من ألبانها، فكانوا يجتمعون ويسألون: حلب إبراهيم، فسميت بذلك، وهى من أعز البلاد التى لا نظير لها فى حسن الوضع، وإتقان الترتيب، واتساع الأسواق، وانتظام بعضها ببعض. وأسواقها مسقفة بالخشب، فأهلها دائمًا فى ظل ممدود وقيساريتها لا تماثل حسنًا وكبرًا، وهى تحيط بمسجدها وكل سماط منها محاذ لباب من أبواب المسجد. ومسجدها الجامع من أجمل المساجد فى صحنه بركةً ماء، ويطيف به بلاط عظيم الاتساع. ومنبرها بديع العمل، مرصع بالعاج والآبنوس. وبقرب جامعها مدرسة مناسبة له فى حسن الوضع، وإتقان الصنعة، تُنسب لأمراء بنى حمدان، وبالبلد سواها، ثلاث مدارس، بها مارستان. وأما خارج المدينة فهو بسيط أفيح عريض، به المزارع العظيمة، وشجرات الأعناب منتظمة به، والبساتين على شاطىء نهرها. وهو النهر الذى يمر بحماة، يسمى العاصى، وقيل: إنه سمى بذلك؛ لأنه يخيل لناظره أن جريانه من أسفل إلى علو.

---

(١) المجرة: مجموعة كبيرة من النجوم تركزت حتى تراءت من الأرض كوشاح أبيض يعترض فى السماء. الوجيز ص(١٠٠).

(٢) صرف الدهر: نوائبه وحدثانه. والجمع صروف. الوجيز ص(٣٦٤).

(٣) وجلا يعنى: خائفًا، يُقال: وجل يوجل وجلاً: خاف وفزع فهو أوجل ووجل. والجمع وجال، وهى وجلة. الوجيز ص(٦٦١).

والنفس تجد فى خـارج مدينة حلب انشـراحًا وسرورًا ونشـاطها لا يكون فى سواها، وهى من المدن التى تصلح للخلافة.

قال ابن جزى: أطنبت الشعراء فى وصف محاسن حلب، وذكر داخلها وخارجها. وفيها يقول أبو عبادة البحترى:

يا برقُ أسفـرْ عن قُوَيْـقَ فَطُـرَّتَـىْ ... حلب فأعلى القصر مـن بطـياس
عن منبت الـورد المُعَصْفَرِ صبغـة ... فى كُل ضاحيـة ومَجْنَى الآس[1]
أرضٌ إذا استـوحشتكـم بتذكـرٍ ... حشدَت على فأكثرت إيناسـى[2]

وقال فيها الشاعر المجيد أبو بكر الصنوبرى:

سَقى حلبُ المزنِ مَغْنَى حلب ... فكـم وصلَـتْ طـربًا بالطربْ
وكم مستطاب من العيش لـذٍّ ... بها إذ بها العيش لـم يُستَطَـبْ
إذا نَشـرَ الـزهـرُ أعـلامَـه ... بهـا ومطـارفُـه والـعـذَبْ
غـدًا وحـواشـيـه مـن فضَّـةٍ ... تروقُ وأوسـاطُـه مـن ذَهـبْ

وقال فيها أبو العلاء المعرى:

حلـب للـوارد جنـةُ عـدن ... وهـى للغـادريـن نـارُ سعـيرِ
والعظيمُ العظيمُ يكبُرُ فى عَيْنَيْه ... فيه منـها قدرُ الصغـير الصغيرِ
فَقُوَيْقٌ فى أنفُسِ القـومِ بحـرٌ ... وحَصَـاةٌ منـه مكـانَ ثَبيـرِ[3]

وقال فيها أبو الفتيان بن جبوس:

يـا صاحبـىَّ إذا أعـياكُـمـا سَقَمـى ... فَلَقيانى نسيمَ الريـحِ مـن حلـبِ
مـن الـبـلاد التـى كـان الصِّبـا سكنًا ... فيها وكان الهوى العذرَى من أرَبى[4]

---

(١) الآس: شجر دائم الخـضرة، بيضى الورق، أبيض الزهر أو ورديّه، عطرى، وثمـاره لُبِّيَّة سود، تؤكل غضة، وتجفف فتكون من التوابل. الوجيز ص(١).

(٢) يقال: آنس فلانًا يؤنسه إيناسًا: لاطفه وأزال وحشته. الوجيز ص(٢٧).

(٣) ثبير: جبل بمكة. مختار الصحاح ص(٨٢).

(٤) الأرب: البغية والمنية. الوجيز ص(١١).

وقال فيها أبو الفتح كشاجم:

ومـا أمتعـتْ جـارَها بلــدةٌ كما أمتعتْ حلـبٌ جـارَهـا
بها قـد تَجَمَّـعَ مـا تشتهـى فزُرْهـا فَطُـوبَى لمن زارَهـا

وقال فيها أبو الحسن على بن موسى بن سعيد الغرناطى العنسى:

حـادىَ العيسِ كـم تُنيخُ المطايا سُقْ فروحى منْ بُعْدهم فى سياقِ
حلـبٌ إنهـا مـقـرُّ غـرامـى ومرامى[1] وقبلـةُ الأشـواقِ
لا خَـلا جوْشَنُ بطياسَ والعبـدِ مـن كـلِّ وابـلٍ غَـيْـداقِ
كـم بها مـرتـعٌ لطرْف وقلـب فيـه سَقـىُ المُنى بكأسٍ دهاقِ[2]
وتـغـنَّـى طيـوره لارتبـاحٍ وتثنّـى غصـونُـة للعـنـاقِ
وعلوُ الشهباءِ حيثُ استـدارَتْ أنجُـمُ الأفـقِ حـولهـا كـالنَّطـاقِ

وبحلب ملك الأمراء أرغـون الدوادار، أكبر أمـراء الملك الناصر. وهو من الفقهاء، موصوف بالعـدل، لكنه بخيل. والقضاة بحلب أربعة للمذاهب الأربعة. فمنهم الـقاضى كمال الدين بن الزملكانى، شـافعى المذهب، عالى الهمـة، كبيـر القدر، كريم النفس، حـسن الأخلاق، متـفنن بالعلوم. وكان الناصر قد بعث إليـه ليوليه قضاء القضـاة بحضرة ملكه، فلم يقض له ذلك، وتوفى ببلبيس، وهو متوجه إليها. ولما ولى قضاء حلب، قصدته الشعراء من دمشق وسواها. وكان فـيمن قصده شاعر الشام شهـاب الدين أبو بكر محمد ابن الشيخ المحدث شـمس الدين أبى عبد الله مجد بن نبـاتة القرشى الأموى الفارقى فامتدحه بقصيدة طويلة حافلة أولها:

أسِفَـتْ لفقــدك جلّـقُ الفيحـاءُ وتبـاشَـرَتْ لقـدومـك الشَّهبـاءُ
وعلى دمشقَ وقـد رحلْـتَ كآبـةٌ وعَـلا ربُـى حَلَـب سنًـا وسنـاءُ

(١) يُقال: رام يرومه روما ومراما: طلبه. والمرام: المطلب. الوجيز ص(٢٨٢، ٢٨٣).
(٢) يُقال: كأس دهاق: مترعة ممتلئة. الوجيز ص(٢٣٦).

قد أشرقت دارٌ سكنْتَ فناءَها ... حتى غدَتْ ولنورها لألاءُ
يا سائراً سقى المكارم والعلى ... ممّن يبخّلُ عنده الكرماءُ
هذا كمالُ الدين لُذْ بجنابه(١) ... تنعَمْ فثَمَّ الفضلُ والنعماءُ
قاضى القضاة أجل من أيامه ... تُعْنَى بها الأيتامُ والفقراءُ
قاض زكا أصلاً وفَرْعًا فاعتلى ... شرُفَتْ به الأدباءُ والأبناءُ
مَنَّ الإلهُ على بنى حلب به ... لله وَضْعُ الفضلِ حيثُ يشاءُ
كَشَفَ المُعَمَّى فهمُهُ وبيانُه ... فكأنما ذاك الذكاءُ ذُكَاءُ(٢)
يا حاكم الحكّام قدْرُك سابقٌ ... عن أن تَسُرَّك رُتْبةٌ شَمَّاءُ
إنّ المناصبَ دونَ همَّتك التى ... فى الفضل دون محلّها الجوزاءُ
لك فى العلوم فضائلٌ مشهورةٌ ... كالصبح شقّ له الظلامَ ضياءُ
ومناقبٌ شهِدَ العدوُ بفضلها ... والفضلُ ما شهِدَتْ به الأعداءُ

وهى أزيد من خمسين بيتًا. وأجازه عليها بكسوة ودراهم. وانتقد عليه الشعراء ابتداءه بلفظ أسفت. قال ابن جزى: وليس كلامه فى هذه القصيدة بذاك وهو فى المقطعات أجود منه فى القصائد، وإليه انتهت الرياسة فى الشعر على هذا العهد، فى جميع بلاد المشرق. وهو من ذرية الخطيب أبى يحيى عبد الرحيم بن نباتة، منشىء الخطب الشهيرة، ومن بديع مقطعاته فى التورية(٣) قوله:

عُلّقتها غيداء حالية العلى ... تجنى على عقلِ المحبِّ وقلبه
بخلَتْ بلؤلؤِ ثغرِها عن لاثمٍ ... فغدت مطوقةً بما بخلت به

(١) لذ بجنابه: أى: الجأ إليه فإنه يعين المحتاج. انظر الوجيز ص(١١٩).
(٢) الذكاء: الشمس، وابن ذكاء: الصبح. الوجيز ص(٢٤٦).
(٣) يُقال: ورى عن الشىء: أراده وأظهر غيره. الوجيز ص(٦٦٦).

ومن قضاة حلب قاضي الحنفيـة الإمام المدرس ناصر الدين بن العديم، حسن الصورة والسيرة، أصيل مدينة حلب:

تـراه إذا ما جئـتَهُ متهـلّلاً   كأنك تعطيه الذى أنت سائله

ومنهم قاضى قضاة المالكية، لا أذكره. كان من الموثقين بمصر. وأخذ الخطة عن غير استحقاق. ومنهم قاضى قضاة الحنابلة، لا أذكر اسمه، وهو من أهل صالحية دمشق، ونقيب الأشراف بحلب بدر الدين بن الزهراء. ومن فقهائها شرف الدين بن العجمى، وأقاربه هم كبراء مدينة حلب، ثم سافرت منها إلى مدينة تيزين. وهى على طريق قنسرين (وضبط اسمها بتاء معلوة مكسورة وياء مد وزاى مكسورة وياء مد ثانية ونون)، وهى حديثة اتخذها التركمان. وأسواقها حسان، ومساجدها فى نهاية من الإتقان. وقاضيها بدر الدين العسقلانى. وكانت مدينة قنسرين قديمة كبيرة، ثم خربت، ولم يبق إلا رسومها. ثم سافرت إلى مدينة أنطاكية. وهى مدينة عظيمة أصيلة وكان عليها سور محكم، لا نظير له فى أسوار بلاد الشام. فلما فتحها الملك الظاهر هدم سورها. وأنطاكية كثيرة العمارة، ودورها حسنة البناء، كثيرة الأشجار والمياه. وبخارجها نهر العاصى. وبها قبر حبيب النجار -ﷺ-. وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر. وشيخها الصالح المعمر محمد بن على، سنّه ينيف[1] على المائة، وهو ممتع بقوته، دخلت عليه مرة فى بستان له وقد جمع حطبًا، ورفعه على كاهله ليأتى به منزله بالمدينة، ورأيت ابنه قد أناف على الثمانين، إلا أنه محدودب[2] الظهر، لا يستطيع النهوض، ومن يراهما يظن الوالد منهما ولداً، والولد والداً. ثم سافرت إلى حصن بُغْراس، (وضبط اسمه بباء موحدة مضمومة وغين معجمة مسكنة وراء وآخره سين مهمل)، وهو حصن منيع لا يرام، عليه البساتين والمزارع، ومنه يدخل إلى بلاد سيس، وهى بلاد كفار الأرمن، وهم رعية للملك الناصر، يؤدون إليه مالاً ودراهم فضة خالصة

(١) ينيف على المائة: يزيد عليها. الوجيز ص(٦٤٠).

(٢) احدودب: حدب، وحدب الرجل: ارتفع ظهره فصار ذا حدبة، ويُقال: حدب ظهره، فهو أحدب، وهى حدباء. الوجيز ص(١٣٨).

تعرف بالبغلية. وبها تصنع الثياب الدبيلية. وأمير هذا الحصن صارم الدين ابن الشيـباني. وله ولد فاضل اسمـه علاء الدين، وابن أخ اسمه حـسام الدين، فـاضل كـريم يسكن الموضع المعـروف بالرُّصُص (بضم الراء والصـاد المهـمل الأول)، ويحفظ الطريق إلى بلاد الأرمن.

وقـد شكا الأرمن مـرةً إلى الملك الناصـرِ من الأمـير حـسـام الدين، وزوّروا(١) عليه أمـورًا لا تليقُ. فأنفـذ أمره لأمـير الأمراء بحلب أن يـخنقه. فلمـا توجه الأميـر بلغ ذلك صديقًـا له من كبـار الأمراء فـدخل على الملك الناصر وقـال: يا خوند إن الأمير حـسام الدين هو من خيـار الأمراء، ينصح للمسلمين، ويحفظ الطريق، وهو من الشجـعان، والأرمن يريدون الفساد فى بلاد المسلمين، فـيمنعهـم ويقهرهم. وإنما أرادوا إضـعاف شـوكة(٢) المسلمين بقتله. ولم يزلْ به حـتى أنفذ أمرًا ثانيًـا بسراحه والخلع عليه وردّه لموضـعه. ودعا الملك الناصر بريديًّا يعرف بالأفوش، وكان لا يُبعث إلا فى مهم، أمره بالإسراع والجدّ فى السير. فسار من مـصر إلى حلب فى خمس. وهى مسيرة شهر. فـوجد أمير حلب قـد أحضر حسام الدين وأخـرجه إلى الموضع الذى يُخْنَقُ به الناسُ، فخلصه الله تـعالى، وعاد إلى موضعه. ولقـيتُ هذا الأميرَ ومعه قاضــى بغراس شرف الدين الحموى، بموضع يقال له: العـمق، متوسط بين أنطاكية وتيـزين وبغراس، ينزله التركمان بمواشـيهم، لخصبه وسـعته. ثم سافرت إلـى حصن القُصَيْـر: تصغير قصـر، وهو حصن حسن، أمـير علاء الدين الكردى، وقـاضيه شـهاب الدين الأرمنتى من أهل الديار المـصرية، ثم سافرت إلى حــصن الشُغْرُبُكَاس. (وضبط اسمـه بضم الشين المعجم وإسكان الغين المعـجم وضم الراء والباء الموحدة وآخـره سين مهـملة)، وهو منيع فى رأس شاهق، أمـيره سيف الدين الطنطاش فـاضل، وقاضيه جـمال الدين بن شجرة، من أصحـاب ابن تيمية. ثم سافرتُ إلى مدينة صـهيون، وهى مدينة حسنة بها الأنهار المطردة، والأشجار المورقة، ولها قلعة جيدة، وأميرها يعرف

(١) يُقال: زور عليه: قال عليه زورًا. الوجيز ص(٢٩٦).

(٢) الشوكة: القوة والبأس. الوجيز ص(٣٥٥).

بالإبراهيمى، وقاضيها محيى الدين الحمصى، وبخارجها زاوية فى وسط بستان فيها الطعام للوارد والصادر وهى على قبر الصالح العابد عيسى البدوى رحمه الله، وقد زرت قبره. ثم سافرت منها، فمررت بحصن القَدْمُوس، (وضبط اسمه بفتح القاف وإسكان الدال المهمل وضم الميم وآخره سين مهمل)، ثم بحصن المَيْنَقَة، (وضبط اسمه بفتح الميم وإسكان الياء وفتح النون والقاف)، ثم بحصن العليقة، واسمه على لفظ واحدة العليق، ثم بحصن مصياف (وصاده مهملة)، ثم بحصن الكهف. وهذه الحصون لطائفة يقال لهم: الإسماعيلية[1]، ويقال لهم الفداوية. ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم. وهم سهام الملك الناصر، بهم يصيب من يعدو عنه من أعدائه بالعراق وغيرها، ولهم المرتبات. وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدو له أعطاه ديته، فإن سلم بعد تأتى ما يراد منه فهى له، وإن أصيب فهى لولده. ولهم سكاكين مسمومة يضربون بها من بعثوا إلى قتله. وربما لم تصح حيلهم فقتلوا. كما جرى لهم مع الأمير قراسنقور. فإنه لما هرب إلى العراق بعث إليه الملك الناصر جملة منهم فقتلوا ولم يقدروا عليه لأخذه بالحزم.

وكان قراسنقور من كبار الأمراء، وممن حضر قتل الملك الأشرف أخى الملك الناصر، وشارك فيه. ولما تمهد الملك للملك الناصر، وقرّبه القرار، واشتدت أواخى سلطانه، جعل يتتبع قتلة أخيه، فيقتلهم واحدًا واحدًا، إظهارًا للأخذ بثأر أخيه، وخوفًا أن يتجاسروا[2] عليه بما تجاسروا على أخيه. وكان قراسنقور أمير الأمراء بحلب. فكتب الملك الناصر إلى جميع

---

(١) الإسماعيلية: هم الذين أثبتوا الإمامة لإسماعيل بن جعفر الصادق، ومن مذهبهم: أن الله تعالى لا موجود ولا معدوم، ولا عالم ولا جاهل ولا قادر ولا عاجز، وكذلك فى جميع الصفات، وذلك لأن الإثبات الحقيقى يقتضى - فى زعمهم - المشاركة بينه وبين الموجودات، وهو تشبيه، والنفى المطلق يقتضى مشاركته للمعدومات، وهو تعطيل، بل هو واهب هذه الصفات ورب المتضادات. فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. التعريفات (١٣٧).

(٢) يُقال: جسر فلان على الشىء: أقدم. الوجيز ص(١٠٥).

الأمراء أن ينفروا بعساكرهم وجعل لهم ميعادًا يكون فيه اجتماعهم بحلب، ونزولهم عليها، حتى يقبضوا عليه. فلما فعلوا ذلك، خاف قراسنقور على نفسه، وكان له ثمانمائة مملوك، فركب فيهم، وخرج على العساكر صباحًا، فاخـترقهم وأعجـزهم سبقًـا. وكانوا فى عشريـن ألفًا، وقصد منزل أمـير العرب مهنا بن عـيسى، وهو على مسيرة يومـين من حلب. وكان مهنا فى قنص له، فقـصد بيتـه، ونزل عن فرسه، وألقى العـمامة فى عنق نفـسه، ونادى الجوار[1] يا أمير العرب، وكـانت هنالك أم الفضل زوج مهنا وبنت عمـه فقالت له: قد أجـرناك وأجرنا من معك. فـقال: إنما أطلب أولادى ومالى. فـقالت له: لك مـا تحب، فانزل فـى جوارنا. ففـعل ذلك. وأتى مهنا، فـأحسن نزله وحكَّمه فـى ماله. فقال: إنمـا أحب أهلى ومالى الذى تركته بحلب، فدعا مهنا بإخوانه وبنى عمه، فشاورهم فى أمره. فمنهم من أجابه إلى ما أراد، ومنهم من قال: كـيف نحارب الملك الناصر، ونحن فى بلاده بالشام؟ فقال لهم مهنا: أمـا أنا فأفعل لهذا الرجل ما يريده، وأذهب مـعـه إلى سلطان العـراق. وفى أثـناء ذلك ورد عليـهم الخـبـر بأن أولاد قراسنقور سيـروا على البريد إلى مصر. فقال مـهنا لقراسنقور: أما أولادك فلا حيلة فـيهم، وأما مالك فنجتـهد فى خلاصه. فركب فـيمن أطاعه من أهله، واستنـفر من العرب نحـو خمـسة وعشـرين ألفًا، وقـصدوا حلب، فأحرقوا باب قلعتـها، وتغلبوا عليها، استخلصوا منـها مال قراسنقور ومن بقى من أهله، ولـم يتـعـدّوا إلى سـوى ذلك. وقـصـدوا ملك العـراق، وصحبهـم أمير حمص الأفرم. ووصلوا إلى الملك محـمد خدابنده سلطان العـراق، وهو بموضع مصـيفـه المسمّـى قراباغ (بفـتح القاف والراء والبـاء الموحدة والغين المـعجمـة)، وهو ما بين السلطانيـة وتبريز، فـأكرم نزلهم، وأعطى مـهنا عراق العـراق، وأعطى قـراسنقور مـدينة مـراغة من عـراق العجم، وتسمى دمشق الصغيـرة، وأعطى الأفرم همدان. وأقاموا عنده مدة مات فيها الأفرم. وعاد مهـنا إلى الملك الناصر بعد مواثيق وعهود، أخذها

(١) الجوار: العهد والأمان. الوجيز ص(١٢٦).

منه، وبقى قراسنقور على حاله. وكان الملك الناصر يبعث له الفداوية مرة بعد مرة فمنهم من يدخل عليه داره فيقتل دونه، ومنهم من يرمى بنفسه عليه وهو راكب فيضربه. وقتل بسببه من الفداوية جماعة، وكان لا يفارق الدرع(١) أبداً، ولا ينام إلا فى بيت العود والحديد. فلما مات السلطان محمد وولى ابنه أبو سعيد وقع ما سنذكره من أمر الجوبان، كبير أمرائه، وفرار ولده الدمرطاش إلى الملك الناصر. ووقعت المراسلة بين الملك الناصر وبين أبى سعيد، واتفقا على أن يبعث أبو سعيد إلى الملك الناصر برأس قراسنقور، ويبعث إليه الملك الناصر برأس الدمرطاش. فبعث الملك الناصر برأس الدمرطاش إلى أبى سعيد، فلما وصله أمر بحمل قراسنقور إليه فلما عرف قراسنقور بذلك أخذ خاتمًا كان له مجوفًا، وفى داخله سم ناقع، فنزع فصه، وامتص ذلك السم فمات لحينه، فعرف أبو سعيد بذلك الملك الناصر، ولم يبعث له برأسه.

ثم سافرتُ من حصون الفداوية إلى مدينة جبلة، وهى ذات أنهار مطردة وأشجار، البحر على نحو ميل منها. وبها قبر الولى الصالح الشهير إبراهيم ابن أدهم -رحمه الله-، وهو الذى نبذ الملك، وانقطع إلى الله تعالى، حسبما شهر ذلك. ولم يكن إبراهيم من بيت ملك كما يظنه الناس، إنما ورث الملك عن جده أبى أمه. وأما أبوه أدهم فكان من الفقراء الصالحين السائحين المتعبدين الورعين المنقطعين. وحكى أن أدهم مر ذات يوم ببساتين مدينة بخارى، وتوضأ من بعض الأنهار التى تتخللها، فإذا بتفاحة يحملها ماء النهر. فقال: هذه لا خطر لها. فأكلها، ثم وقع فى خاطره من ذلك وسواس، فعزم على أن يستحل من صاحب البستان، فقرع باب البستان فخرجت إليه جارية. فقال: ادعى لى صاحب المنزل فقالت: إنه لامرأة. فقال: استأذنى لى عليها، ففعلت فأخبر المرأة بخبر التفاحة. فقالت له: إن

(١) الدرع: القميص من حلقات من الحديد متشابكة تلبس وقاية من السلاح. الوجيز ص(٢٢٦).

هذا البستان نصفه لي، ونصفه للسلطان، والسلطان يومئذ ببلخ، وهي على مسيرة عشرة من بخارى، وأحلته المرأة من نصفها، وذهب إلى بلخ فاعترض السلطان في موكبه فأخبره الخبر، واستحله. فأمره أن يعود إليه من الغد. وكان للسلطان بنت بارعة الجمال، قد خطبها أبناء الملوك فتمنعت، وحببت إليها العبادة وحب الصالحين. وهي تحب أن تتزوج من وَرِعٍ[1] زَاهِدٍ في الدنيا. فلما عاد السلطان إلى منزله أخبر ابنته بخبر أدهم، وقال: ما رأيت أورع من هذا، يأتي من بخارى إلى بلخ لأجل نصف تفاحة. فرغبت في تزوجه. فلما أتاه من الغد، قال: لا أحلك إلا أن تتزوج ببنتي. فانقاد لذلك بعد استعصاء، وتمنع، فتزوج منها، فلما دخل عليها وجدها متزينة. والبيت مزين بالفرش وسواها. فعمد إلى ناحية من البيت، وأقبل على صلاته حتى أصبح، ولم يزل كذلك سبع ليال. وكان السلطان ما أحله قبل فبعث إليه أن يحله فقال لا أحلك حتى يقع اجتماعك بزوجتك. فلما كان الليل واقعها، ثم اغتسل، وقام إلى الصلاة فصاح صيحة وسجد في مصلاه فوجد ميتًا -رحمه الله-، وحملت منه، فولدت إبراهيم. ولم يكن لجده ولد فأسند الملك إليه. وكان من تخليه عن الملك ما اشتهر. وعلى قبر إبراهيم بن أدهم زاوية حسنة فيها بركة ماء، وبها الطعام للصادر والوارد، وخادمها إبراهيم الجمحي من كبار الصالحين، والناس يقصدون هذه الزاوية ليلة النصف من شعبان من سائر أقطار الشام[2]، ويقيمون بها ثلاثًا. ويقوم بها خارج المدينة سوق عظيم، فيه من كل شيء ويقدم الفقراء المتجردون من الآفاق لحضور هذا الموسم، وكل من يأتي من الزوار لهذه التربة يعطى لخادمها

---

(١) الورع: الذي يتحرج ويتوقي المحارم، ثم استعير للتأثم من الحلال المباح. الوجيز ص(٦٦٥).

(٢) قلت: وهذا مخالف لسنة رسول الله -ﷺ- من وجهين: الأول: أن الاحتفال بليلة النصف من شعبان ليست مما سنه رسول الله -ﷺ- وإن كان لها فضل، فنحن نعظم ما عظمه رسول الله بالكيفية التي ثبتت عنه، والثاني: أنه لا يشرع شد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد كما ثبت عن رسول الله -ﷺ- فيما رواه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

شمعة، فيجتمع من ذلك قناطير كثيرة. وأكثر أهل هذه السواحل هم الطائفة النصيرية[١] الذين يعتقدون أن على بن أبى طالب إله، وهم لا يصلون ولا يتطهرون ولا يصومون. وكان الملك الظاهر ألزمهم بناء المساجد بقراهم، فبنوا بكل قرية مسجداً بعيداً عن العمارة ولا يدخلونه ولا يعمرونه. وربما أوت إليه مواشيهم ودوابهم، وربما وصل الغريب إليهم فينزل بالمسجد ويؤذن إلى الصلاة فيقولون لا تنهق علفك يأتيك وعددهم كثير.

وبلغنى أن رجلاً مجهولاً وقع ببلاد هذه الطائفة، فادعى الهداية[٢]، وتكاثروا عليه فوعدهم بتملك البلاد، وقسَّم بينهم بلاد الشام، وكان يعين لهم البلاد، يأمرهم بالخروج إليها، ويعطيهم من ورق الزيتون، ويقول لهم: استظهروا بها، فإنها كالأوامر لكم فإذا خرج أحدهم إلى بلد أحضره أميرها فيقول له: إن الإمام المهدى أعطانى هذا البلد، فيقول له: أين الأمر فيخرج ورق الزيتون. فيضرب ويحبس. ثم إنه أمرهم بالتجهيز لقتال المسلمين وأن يبدأوا بمدينة جبلة، وأمرهم أن يأخذوا عوض السيوف قضبان الآس ووعدهم أنها تصير فى أيديهم سيوفًا عند القتال فغدروا مدينة جبلة، وأهلها فى صلاة الجمعة، فدخلوا الدور، وهتكوا[٣] الحريم. وثار[٤] المسلمون من مساجدهم، فأخذوا السلاح وقتلوهم كيف شاءوا واتصل الخبر باللاذقية، فأقبل أميرها بهادر عبد الله بعساكره، وطيرت الحمام إلى طرابلس. فأتى أمير الأمراء بعساكره واتبعوهم حتى قتلوا منهم نحو عشرين ألفًا، وتحصن الباقون بالجبال. وراسلوا ملك الأمراء والتزموا أن يعطوه ديناراً عن كل رأس، إن هو حاول إبقاءهم. وكان الخبر قد طير به الحمام إلى الملك الناصر. وصدر جوابه أن يحمل عليهم السيف. فراجعه ملك الأمراء وألقى له أنهم عمال المسلمين فى حراثة الأرض، وأنهم إن قتلوا ضعف المسلمون لذلك، فأمر بالإبقاء

(١) انظر التعريفات ص(٢٤١).
(٢) يعنى: ادعى أنه المهدى المنتظر.
(٣) هتكوا الحريم: اعتدوا على النساء. الوجيز ص(٦٤٤).
(٤) يُقال: ثار يثور ثوران وثورة: هاج وانتشر، فهو ثائر. الوجيز ص(٨٩).

عليهم. ثم سافرت إلى مدينة اللاذقية وهى مدينة عتيقة على ساحل البحر. يزعمون أنها مدينة الملك الذى كان يأخذ كل سفينة غصبًا. وكنت إنما قصدتها لزيارة الولى الصالح عبد المحسن الإسكندرى - فلما وصلتها وجدته غائبًا بالحجاز الشريف. فلقيت من أصحابه الشيخين الصالحين سعيد البجائى ويحيى السلاوى، وهما بمسجد علاء الدين بن البهاء، أحد فضلاء الشام وكبرائها، صاحب الصدقات والمكارم، وكان قد عمر لهما زاوية بقرب المسجد، وجعل بها الطعام للوارد والصادر. وقاضيها الفقيه الفاضل جلال الدين عبد الحق المصرى المالكى فاضل كريم تعلق بطيلان ملك الأمراء فولاه قضاءها.

وكان باللاذقية رجلٌ يُعرف بابن المؤيد هجّاء[1] لا يسلم أحد من لسانه، متهم فى دينه، مستخف يتكلم بالقبائح من الإلحاد. فعرضت له حاجة عند طيلان ملك الأمراء، فلم يقضها له. فقصد مصر، وتقوّل أمورًا شنيعة، وعاد إلى اللاذقية. فكتب طيلان إلى القاضى جلال الدين أن يتحيل فى قتله بوجه شرعى، فدعاه القاضى إلى منزله وباحثه واستخرج كامن إلحاده، فتكلم بعظائم أيسرها يوجب القتل، وقد أعد القاضى الشهود خلف الحجاب ليكتبوا عقدًا بمقاله، وثبت عند القاضى وسجن، وأعلم ملك الأمراء بقضيته، ثم أخرج من السجن، وخنق على بابه، ثم لم يلبث ملك الأمراء طيلان أن عزل عن طرابلس، ووليها الحاج قرطية من كبار الأمراء، وممن تقدمت له فيها الولاية، وبينه وبين طيلان عداوة، فجعل يتبع سقطاته، وقام لديه إخوة ابن المؤيد شاكين القاضى جلال الدين، فأمر به بالشهود الذين شهدوا على ابن المؤيد فأحضروا وأمر بخنقهم، وأخرجوا إلى ظاهر المدينة حيث يخنق الناس، وأجلس كل واحد تحت مخنقته، ونزعت عمائمهم. ومن عادة أمراء تلك البلاد أنه متى أمر أحدهم بقتل أحد من الناس يمر الحاكم من مجلس الأمير سبقًا على فرسه إلى حيث المأمور بقتله، ثم يعود إلى الأمير فيكرر استئذانه

(١) يُقال: هجا فلانًا يهجو هجوًا وهجاء: ذمه وعدد معايبه، والهجاء: من يكثر سب غيره، وتعديد معايبه. الوجيز ص(٦٤٥).

يفعل ذلك ثلاثًا، فإذا كان بعد الثلاث أنفذ الأمر، فلما فعل الحاكم ذلك قامت الأمراء فى المرة الثالثة وكشفوا رؤوسهم وقالوا: أيها الأمير هذه سبة فى الإسلام يقتل القاضى والشهود. فقبل الأمير شفاعتهم وخلى سبيلهم. وبخارج اللاذقية الدير[١] المعروف بدير الفاروص، وهو أعظم دير بالشام ومصر يسكنه الرهبان[٢]، ويقصده النصارى من الآفاق، وكل من نزل به من المسلمين. فالنصارى يضيفونه. وطعامهم الخبز والجبن والزيتون والخل البكر. وميناء هذه المدينة عليها سلسلة بين برجين لا يدخلها أحد، ولا يخرج منها حتى تحط له السلسلة. وهى من أحسن المراسى بالشام. ثم سافرت إلى حصن المرقب، وهو من الحصون العظيمة يماثل حصن الكرك. ومبناه على جبل شامخ، وخارجه ربض ينزله الغرباء، ولا يدخلون قلعته. وافتتحه من أيدى الروم الملك المنصور قلاوون، وعليه ولد ابنه الملك الناصر. وكان قاضيه برهان الدين المصرى من أفاضل القضاة وكرمائهم.

ثم سافرت إلى الجبل الأقرع، وهو أعلى جبل بالشام، وأول ما يظهر منها من البحر، وسكانه التركمان. وفيه العيون والأنهار. وسافرت منه إلى جبل لبنان، وهو من أخصب جبال الدنيا، فيه أصناف الفواكه وعيون الماء والظلال الوافرة، ولا يخلو من المنقطعين إلى الله تعالى والزهاد والصالحين، وهو شهير بذلك. ورأيت به جماعة من الصالحين قد انقطعوا إلى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه. وأخبرنى بعض الصالحين الذين لقيتهم به قال: كنا بهذا الجبل مع جماعة من الفقراء أيام البرد الشديد، فأوقدنا نارًا عظيمة، وأحدقنا بها. فقال بعض الحاضرين: يصلح لهذه النار ما يشوى فيها. فقال أحد الفقراء ممن تزدريه[٣] الأعين ولا يعبأ به: إنى كنت عند صلاة العصر بمتعبد إبراهيم بن أدهم، فرأيت بمقربة منه حمار وحش قد أحدق الثلج به من كل

(١) الدير: دار الرهبان والراهبات. والجمع أديار.

(٢) الرهبان جمع راهب: وهو المتعبد من النصارى فى صومعة. الوجيز ص(٢٤٠). يتخلى فيها عن أشغال الدنيا وملاذها. الوجيز ص(٢٧٩).

(٣) ازدراه: حقره وعابه. الوجيز ص (٢٨٨).

جانب، وأظنه لا يقدر على الحراك، فلو ذهبتم إليه لقدرتم عليه، وشويتم لحمه في هذه النار. قال: فقمنا إليه في خمسة رجال، فلقيناه كما وصف إلينا، فقبضناه وأتينا به أصحابنا، وذبحناه وشوينا لحمه في تلك النار، وطلبنا الفقير الذي نبه عليه فلم نجده، ولا وقعنا له على أثر، فطال عجبنا منه. ثم وصلنا من جبل لبنان إلى مدينة بعلبك. وهي حسنة قديمة من أطيب مدن الشام، تحدق بها البساتين الشريفة والجنات المنيفة، وتخترق أرضها الأنهار الجارية، وتضاهي[1] دمشق في خيراتها المتناهية. وبها من حب الملوك ما ليس في سواها. وبها يصنع الدبس المنسوب إليها وهو نوع من الرُّب يصنعونه من العنب، ولهم تربة يضعونها فيه فيجمد وتكسر القلة التي يكون بها، فيبقى قطعة واحدة، وتصنع منه الحلواء، ويجعل فيها الفستق واللوز ويسمونها حلواء بالملبن، ويسمونها أيضًا بجلد الفرس. وهي كثيرة الألبان، وتجلب منها إلى دمشق وبينهما مسيرة يوم للمجد، وأما الرفاق فيخرجون من بعلبك فيبيتون ببلدة صغيرة تعرف بالزبداني، كثيرة الفواكه ويغدرون منها إلى دمشق، ويصنع ببعلبك الثياب المنسوبة إليها من الأحرام وغيره. ويصنع بها أواني الخشب، وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد، وهم يسمون الصحاف[2] بالدسوت. وربما صنعوا الصحفة وصنعوا صحفة أخرى تسع في جوفها، وأخرى في جوفها، إلى أن يبلغوا العشرة، يخيل لرائيها أنها صحفة واحدة، وكذلك الملاعق يصنعون منها عشرًا، واحدة في جوف واحدة، ويصنعون لها غشاء من جلد، ويمسكها الرجل في حزامه، وإذا حضر طعامًا مع أصحابه أخرج ذلك، فيظن رائيه أنها ملعقة واحدة ثم يخرج من جوفها تسعًا، وكان دخولي لبعلبك عشية النهار. وخرجت منها بالغد، ولفرط اشتياقي إلى دمشق وصلت يوم الخميس التاسع من شهر رمضان المعظم عام ستة وعشرين إلى مدينة دمشق الشام. فنزلت منها بمدرسة المالكية المعروفة بالشرابشية، ودمشق هي التي تفضل جميع البلاد حسنًا وتتقدمها جمالاً، وكل وصف، وإن طال،

---

(١) ضاهاه: شابهه وفعل مثل فعله. الوجيز ص(٣٨٣).

(٢) الصّحاف جمع صحفة: وهي إناء من آنية الطعام. الوجيز ص(٣٦٠).

فهو قاصر عن محاسنها. ولا أبدع مما قاله أبو الحسين ابن جبير -رحمه الله تعالى- فى ذكرها قال: وأما دمشق فهى جنة المشرق، ومطلع نورها المشرق، وخاتمة بلاد الإسلام متى استقريناها[١]، وعروس المدن التى اجتلبناها. قد تحلت بأزاهير الرياحين وتجلّت فى حلل سندسية من البساتين، وحلّت موضع الحسن بالمكان المكين، وتزينت فى منصتها أجل تزيين، وتشرفت بأن أوى المسيح -عليه السلام- وأمه منها إلى ربوة منها ذات قرار ومعين[٢] وظل ظليل، وماء سلسبيل[٣]: تنساب مذانبه انسياب الأراقم بكل سبيل، ورياض يحيى النفوس نسيمها العليل، تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل، وتناديهم هلموا إلى معرس للحسن ومقيل، وقد سئمت أرضها كثرة الماء، حتى اشتاقت إلى الظلماء. فتكاد تناديك بها الصم والصلاب: اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب. وقد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر والآكام بالثمر، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر، وكل موضع لحظت بجهاتها الأربع نضرته اليانعة قيد البصر، ولله صدق القائلين عنها: إن كانت الجنة فى الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت فى السماء فهى تساميها وتحاذيها. قال ابن جزى: وقد نظم بعض شعرائها فى هذا المعنى فقال:

إن تكن جنة الخلود بأرض ... فدمشق ولا تكون سواها
أو تكن فى السماء فهى عليها ... قد أبدت هواءها وهواها
بلد طيب ورب غفور ... فاغتنمها عشية وضحاها

(١) يُقال: استقرى الشىء تتبع جزئياته. الوجيز ص(٥٠٠).

(٢) المعين من الماء: الظاهر الذى تراه العين يجرى على وجه الأرض، وفى القرآن الكريم: ﴿فمن يأتيكم بماء معين﴾. ويُقال: معن الماء يمعن معنا: سهل وسال فهو معين. الوجيز ص(٥٨٦).

(٣) السلسبيل: الشراب السهل المرور فى الحلق لعذوبته، والسلسبيل: الخمر، والسلسبيل: وصف لكل عين عذبة سريعة الجريان. الوجيز ص(٣١٧).

وذكر شيخنا المحدث الرحال شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر ابن حسان القيسى الوادى آشى، نزيل تونس: نص كلام ابن جبير، ثم قال: ولقد أحسن فيما وصف منها وأجاد. وتتوق الأنفس للتطلع على صورتها بما أفاد. هذا وإن لم تكن له بها إقامة. فيعرب عنها بحقيقة وعلامة. ولا وصف ذهبيات أصيلها. وقد حان من الشمس غروبها ولا أزمان جفولها المنوعات. ولا أوقات سرورها المنبهات، وقد اختص من قال: ألفيتها كما تصف الألسن. وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

قال ابن جزى: والذى قالته الشعراء فى وصف محاسن دمشق لا يحصر كثرة، وكان والدى رحمه الله كثيرًا ما ينشد فى وصفها هذه الأبيات، وهى لشرف الدين بن محسن -رحمه الله تعالى-:

دمشق بنا شوق إليها مبرح ... وإن لجّ واش أو ألحّ عَذولُ
بلاد بها الحصباءُ دُرٌّ وتربها ... عبيرٌ وأنفاسُ الشمالِ شَمول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق ... وصحّ نسيم الروض وهو عليل

وهذا من النمط العالى من الشعر. وقال فيها عرقلة الدمشقى الكلبى:

الشام شامة[1] وجنة الدنيا كما ... إنسانُ مقلتها الغضيضة جِلَّقُ
مِنْ آسِها لك جنةٌ لا تنقضى ... ومن الشقيقِ جهنَّمٌ لا تَحْرِقُ

وقال أيضًا فيها:

أما دمشقُ فجناتٌ معجَّلةٌ ... للطالبين بها الولدانُ والحُورُ
ما صاح فيها على أوتاره قمرٌ ... إلا يغنّيه قُمْرىٌ وشحرورُ
يا حبَّذا ودروعُ الماءِ تنسجها ... أناملُ الريحِ إلا أنها زُورُ

(١) الشامة: علامة فى البدن يخالف لونها لون البشرة، وهى دائمًا علامة على البهاء والجمال، فالشام بين غيرها من البلاد، كالشامة بين غيرها من لون البدن الوجيز ص(٣٥٧).

وله فيها أشعار كثيرة سوى ذلك. وقال فيها أبو الوحش سبع بن خلف الأسدى:

سقـى دمشـقَ الله غيثًا مُحْسنًا — مـن مستهـلّ ديمــة دهاقهـا
مدينـة ليس يُضـاهى حُسنُها — فى سائر الدنيــا ولا آفاقهـا
تــودُّ زَوْراءُ الـعــراق أنــهـا — منـهـا ولا تُعْـزَى إلـى عراقها
فأرضُها مثـلُ السَّمـاء بهجـةً — وزهـرُها كالزُّهْرِ فى إشراقـها
نسيمُ روضها متَى ما قَدْ سَرَى — فَكَّ أخـا الهمـوم مـن وَثاقـها
قد رتـع الرَّبيـع فـى ربـوعهـا — وسيقـت الدنـيـا إلى أسواقها
لا تسأم العيـون والأنوف مـن — رؤيتهـا يومًـا ولا استنشاقـهـا

ومما يناسب هذا للقاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى فيها من قصيدة، وقد نسبت أيضًا لابن المنير:

يـا برقُ هل لك فى احتمــال تحيــة — عَذُبَتْ فصارَتْ مثلَ مائـكَ سَلْسَلا
بــاكِــرْ دمـشـقَ بِمَشْـقِ الحَـيَــا — زهـرَ الـرياضِ مرصـعًــا ومُكَـلَّلاً
واجرر بجيرون ذيولَك واختصص — مَغْـنــى تــأزّر بالعـلا وتسـربــلا
حيث الحيا الربعـى محلـول الحيـا — والـوابـل الربعـى مفـرى الكـلا

وقال فيها أبو الحسن على بن مـوسى بن سعيد العنسى الغرناطى المدعو نور الدين:

دمشـق منـزلنـا حـيث النعيـم بدا — مكملاً وهو فـى الآفـاق مختـصـرُ
القصب راقصة والطير صادحـة[1] — والزهر مرتفـع والـمــاء منحــدر
وقد تجلت مـن اللـذات أوجهـهـا — لكنهـا بظــلال الـــدوح تسـتــر
وكـل واد بـه مـوسـى يـفـجـره — وكل روض على حـافـاته الخـضر

---

(١) يُقال: صدح الطائـر يصدح صدحًا وصداحًـا: رفع صوته فأطرب فهـو صادح وصداح. الوجيز ص(٣٦٠، ٣٦١).

وقال أيضًا فيها:

خَيّمْ بجلق بين الكاس والوترِ في جنة هي ملء السمع والبصرِ
ومتّع الطَّرْفَ في مرأى محاسنه وروّض الفكرَ بين الروضِ والنهرِ
وانظرْ إلى ذهبيّات الأصيل(١) بها واسمعْ إلى نغماتِ الطير في الشجرِ
وقل لمن لام في لذاته بشرًا دعني فإنك عندي سُوقة البشرِ

وقال أيضًا فيها:

أما دمشق فجنَّةٌ ينسى بها الوطنَ الغريبْ
لله أيام السبوتِ بها ومنظرها العجيبْ
انظر بعينك هل ترى إلا محبًّا أو حبيبْ
في موطن غنّى الحمام به على رقص القضيبْ
وغدَتْ أزاهرُ روضه تختالُ في فرح وطيبْ

وأهل دمشق لا يعلمون يوم السبت عملاً، إنما يخرجون إلى المتنزهات وشطوط الأنهار ودوحات الأشجار، بين البساتين النضرة والمياه الجارية فيكونون بها يومهم إلى الليل، وقد طال بنا الكلام في محاسن دمشق فلنرجع إلى كلام الشيخ أبي عبد الله.

خبر جامع بني أمية الكبير

وهو أعظمُ مساجدِ الدنيا احتفالاً، وأتقنها صناعة، وأبدعها حسنًا وبهجة وكمالاً، ولا يعلم له نظير، ولا يوجد له شبيه، وكان الذى تولى بناءه وإتقانه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان. ووجه إلى ملك الروم بقسطنطينية يأمره أن يبعث إليه الصناع، فبعث إليه اثنى عشر ألف صانع. وكان موضع المسجد كنيسة. فلما افتتح المسلمون دمشقَ دخل خالد ابن الوليد -رضي الله عنه- من إحدى جهاتها بالسيف، فانتهى إلى نصف الكنيسة.

(١) الأصيل: الوقت حين تصفر الشمس لمغربها، والجمع آصال، وأصائل. الوجيز ص(١٩).

ودخل أبو عبيدة بن الجراح -رضي الله عنه- من الجهة الغربية صلحًا، فانتهى إلى نصف الكنيسة. فصنع المسلمون من نصف الكنيسة الذى دخلوه عنوة[١] مسجدًا، وبقى النصف الذى صالحوا عليه كنيسة. فلما عزم الوليد على زيادة الكنيسة فى المسجد طلب من الروم أن يبيعوا له كنيستهم تلك بما شاءوا من عوض، فأبوا عليه. فانتزعها من أيديهم. وكانوا يزعمون أن الذى يهدمها يجن، فذكروا ذلك للوليد فقال: أنا أول من يُجَنُّ فى سبيل الله، وأخذ الفأسَ وجعل يهدمُ بنفسه. فلما رأى المسلمون ذلك تتابعوا على الهدم. وأكذب الله زعم الروم. وزين هذا المسجد بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء، تخالطها أنواع الأصبغة الغريبة الحسن، وذرع المسجد فى الطول من الشرق إلى الغرب مائتا خطوة، وهى ثلاثمائة ذراع، وعرضه من القبلة إلى الجوف مائة وخمس وثلاثون خطوة، وهى مائتا ذراع، وعدد شمسات الزجاج الملوّن الذى فيه أربع وسبعون. وبلاطاته الثلاثة مستطيلة من شرق إلى غرب، سعة كل بلاط منها ثمانى عشرة خطوة. وقد قامت على أربع وخمسين سارية، وثمانى أرجل حصية، تتخللها، وست أرجل مرخمة مرصعة بالرخام الملون، قد صور فيها أشكال محاريب وسواها. وهى ثقل قبة الرصاص التى أمام المحراب المسماة بقبة النسر، كأنهم شبهوا المسجد نسرًا طائرًا، والقبة رأسه، وهى من أعجب مبانى الدنيا.

ومن أى جهة استقبلت المدينة بدت لك قبة النسر ذاهبة فى الهواء منيفة على جميع مبانى البلد، وتستدير بالصحن بلاطات ثلاثة من جهاته الشرقية والغربية والجوفية، سعة بلاط منها عشر خطى. وبها من السوارى ثلاث وثلاثون، ومن الأرجل أربع عشرة، وسعة الصحن مائة ذراع، وهو من أجمل المناظر وأتمها حسنًا، وبها يجتمعُ أهلُ المدينة بالعشايا، فمن قارىء ومحدث وذاهب. ويكون انصرافهم بعد العشاء الأخيرة، وإذا لقى أحد كبرائهم من الفقهاء وسواهم صاحبًا له أسرع كل منهما نحو صاحبه وقبّل

(١) العنوة: أخذ الشيء قسرًا. الوجيز ص(٤٣٨).

رأسه. وفى هذا الصحن ثلاث من القباب: **إحداها:** فى غربيه، وهى أكبرها وتسمى قبة عـائشة أم المؤمنين، وهى قـائمة علـى ثمانى سوارٍ مـن الرخام مزخرفة بالفصوص والأصبغة الملونة مسقفة بالرصاص. ويقال: إن مال الجامع كان يختـزن بها، وذكر لى أن فوائد مـستغلات الجامع وجـبايته نحو خـمسة وعشرين ألف دينار ذهبًا فى كل سنة. **والقبة الثانية:** من شرقى الصحن على هيئـة الأخرى، إلا أنهـا أصغر منهـا قائمـة على ثمانٍ من سـوارى الرخام، وتسمى قبـة زين العابدين. **والقبة الـثالثة:** فى وسط الصحن، وهى صـغيرة مثمنة من رخـام عجيب محكم الإلصاق، قائمـة على أربع سوارٍ من الرخام الناصع، وتحتـها شبـاك حديد فى وسطه أنبوب نـحاس، يمج الماء إلى علو، فيرتفع ثم ينثنى كـأنه قضيب لجين[١]. وهم يسمونه قفـص الماء. وتستحسن الناس وضع أفـواههم فيـه للشرب. وفى الجـانب الشرقى من الصـحن باب يفضى إلى مسـجد بديع الوضع يسمى مشـهد على بن أبى طالب -رضي الله عنه-، ويقابله من الجهة الغربية حيث يلـتقى البلاطان الغربى والجوفى موضع يقال: إن عائشة -رضي الله عنها- سمعت الحديث هنالك.

وفى قبلة المسجد المقصورة[٢] العظمى التى يؤم فيها إمام الشافعية، وفى الركن الشرقى منها إزاء المحراب خزانة كبيرة فيها المصحف الكريم الذى وجهه أمير المؤمنين عثمان بن عـفان -رضي الله عنه- إلى الشام. وتفتح تلك الخزانة كل يوم جمعة بعد الصلاة فيزدحم الناس على لثم[٣] ذلك المصحف الكريم. وهنالك يحلف الناس غرماءهم ومن ادعـوا عليه شيئًا. وعن يسار المقـصورة محراب الصحابة. ويذكـر أهل التاريخ أنه أول محراب وضع فى الإسـلام، وفيه يؤم إمام المالكيـة - وعن يمين المقصورة مـحراب الحنفية وفـيه يؤم إمامـهم، ويليه محراب الحنابلة وفيه يؤم إمامهم. ولهذا المسجد ثلاث صوامع:

(١) اللجين: الفضة. الوجيز (ص٥٥٢).
(٢) المقصورة مـن الدار: حجرة خاصة مـفصولة عن الغـرف المجاورة فوق الطبقـة الأرضية. الوجيز ص(٥٠٤).
(٣) لثم: تقبيل.

إحداها: بشرقيه، وهى من بناء الروم. وبابها داخل المسجد، وبأسفلها مطهرة وبيوت للوضوء يغتسل فيها المعتكفون والملتزمون للمسجد ويتوضأون.

والصومعةُ الثانيةُ: بغربيه وهى أيضًا من بناء الروم.

والصومعةُ الثالثةُ: بشماله، وهى من بناء المسلمين. وعدد المؤذنين به سبعون مؤذنًا. وفى شرقى المسجد صومعة كبيرة فيها صهريج ماء وهى لطائفة الزيالعة السودان. وفى وسط المسجد قبر زكريا -عليه السلام-، وعليه تابوت معترض بين أسطوانتين، مكسو بثوب حرير أسود، معلم فيه مكتوب بالأبيض: ﴿**يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ**﴾[١].

وهذا المسجد شهير الفضل، وقرأت فى «فضائل دمشق» عن سفيان الثورى أن الصلاةَ فى مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة[٢]. وفى الأثر عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «**يعبد الله فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة**»[٣]. ويقال: إن الجدار القبلى منه وضعه نبى الله هود -عليه السلام-، وأن قبره به. وقد رأيت على مقربة من مدينة ظفار اليمن بموضع يقال له: الأحقاف بنية فيها قبر مكتوب عليه هذا قبر هود بن عابر -صلى الله عليه وسلم-. ومن فضائل هذا المسجد أنه لا يخلو عن قراءة القرآن والصلاة إلا قليلاً من الزمان، كما سنذكره. والناس يجتمعون به كل يوم إثر صلاة الصبح فيقرأون سُبُعًا من القرآن، ويجتمعون بعد صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية، يقرأون فيها من سورة الكوثر إلى آخر القرآن. وللمجتمعين على هذه القراءة مرتبات تجرى لهم وهم نحو ستمائة إنسان. ويدور عليهم كاتب الغيبة، فمن غاب منهم قطع له عند دفع المرتب بقدر غيبته. وفى هذا المسجد جماعةٌ كبيرةٌ

(١) سورة مريم، الآية (٧).

(٢) قلت: مثل هذا لو ثبت عن سفيان الثورى - رحمه الله- لم يكن حجة فى دين الله عز وجل، لأن مثل هذا لا يثبت إلا بحديث صحيح عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

(٣) لم أقف عليه.

من المجاورين، لا يخرجون منه، مقبلون على الصلاة والقراءة والذكر، لا يفترون[١] عن ذلك، ويتوضأون من المطاهر التى بداخل الصومعة الشرقية التى ذكرناها، وأهل البلد يعينونهم بالمطاعم والملابس من غير أن يسألوهم شيئًا من ذلك. وفى هذا المسجد أربعة أبواب: باب قبلى يعرف بباب الزيادة، وبأعلاه قطعة من الرمح الذى كانت فيه راية خالد بن الوليد -رضي الله عنه-، ولهذا الباب دهليز[٢] كبير متسع فيه حوانيت السقاطين وغيرهم، ومنه يذهب إلى دار الخيل. وعن يسار الخارج منه سماط الصفارين، وهى سوق عظيمة تمتد مع جدار المسجد القبلى، من أحسن أسواق دمشق. وبموضع هذه السوق كانت دار معاوية بن أبى سفيان -رضي الله عنه- ودور قومه، وكانت تسمى الخضراء. فهدمها بنو العباس -رضي الله عنهم- وصار مكانها سوقًا. وبابٌ شرقى، وهو أعظم أبواب المسجد، ويسمى بباب جيرون. وله دهليز عظيم يخرج منه إلى بلاط عظيم طويل أمامه خمسة أبواب لها ستة أعمدة طوال. وفى جهة اليسار منه مشهد عظيم كان فيه رأس الحسين -رضي الله عنه-، وبإزائه مسجد صغير ينسب إلى عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه-، وبه ماء جار. وقد انتظمت أمام البلاط درج ينحدر فيها إلى الدهليز، وهو كالخندق العظيم يتصل بباب عظيم الارتفاع تحته أعمدة كالجذوع طوال بجانبى هذا الدهليز أعمدة، قد قامت عليها شوارع مستديرة، فيها دكاكين البزازين[٣] وغيرهم. وعليها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين وصناع أوانى الزجاج العجيبة. وفى الرحبة المتصلة بالباب الأول دكاكين لكبار الشهود، منها دكان للشافعية، وسائرها لأصحاب المذاهب. يكون فى الدكان منها الخمسة والستة من العدول، والعاقد للأنكحة من قِبَل القاضى، وسائر الشهود مفترقون فى المدينة. وبمقربة من هذه الدكاكين سوق الورّاقين

---

(١) يُقال: فتر يفتر فتورًا: لان بعد شدة، أو سكن بعد حدة ونشاط. وفى القرآن الكريم: ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾. انظر الوجيز ص(٤٦١).

(٢) الدهليز: المدخل بين الباب والدار، والجمع دهاليز. الوجيز ص(٢٣٦).

(٣) البَزُّ: نوع من الثياب، والبزاز: بائع البز. الوجيز ص(٤٩).

الذين يبيعون الكاغد[١] والأقلام والمداد[٢]. وفى الدهليز المذكور حوض من الرخام كبير مستدير عليه قبة لا سقف لها، تقلها أعمدة رخام وفى وسط الحوض أنبوب نحاس يمج الماء بقوة فيرتفع فى الهواء أزيد من قامة الإنسان يسمونه الفوارة، منظره عجيب. وعن يمين الخارج من باب جيرون وهو باب الساعات، غرفة لها هيئة طاق كبير، فيه طيقان صغار مفتحة، لها أبواب على عدد ساعات النهار. والأبواب مصبوغ باطنها بالخضرة وظاهرها بالصفرة، فإذا ذهبت ساعة من النهار انقلب الباطن الأخضر ظاهراً والظاهر الأصفر باطنًا. ويقال: إن بداخل الغرفة من يتولى قلبها بيده عند مضى الساعات. والباب الغربى يعرف بباب البريد، وعن يمين الخارج منه مدرسة الشافعية. وله دهليز فيه حوانيت للشماعين، وسماط لبيع الفواكه. وبأعلاه باب يصعد إليه فى درج له أعمدة سامية فى الهواء. وتحت الدرج سقايتان عن يمين وشمال مستديرتان. والباب الجوفى يعرف بباب النطفانيين، وله دهليز عظيم. وعن يمين الخارج منه خانقاه تعرف بالشميعانية، فى وسطها صهريج ماء. ولها مطاهر يجرى فيها الماء. ويقال: إنها كانت دار عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه-. وعلى كل باب من أبواب المسجد الأربعة دار وضوء، يكون فيها نحو مائة بيت تجرى فيها المياه الكثيرة.

أئمة المسجد الكبير

وأئمته ثلاثة عشر إمامًا. أولهم الشافعية، وكان فى عهد دخولى إليها إمامهم قاضى القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزوينى من كبار الفقهاء، وهو الخطيب بالمسجد، وسكناه بدار الخطابة، ويخرج من باب الحديد إزاء المقصورة، وهو الباب الذى كان يخرج منه معاوية. وقد تولى جلال الدين بعد ذلك قضاء القضاة بالديار المصرية، بعد أن أدى عنه الملك الناصر نحو مائة ألف درهم كانت دينًا عليه بدمشق. وإذا سلم إمام الشافعية

(١) الكاغد والقرطاس: الصحيفة يكتب فيها.
(٢) المداد: سائل ذو لون يكتب به. الوجيز ص(٥٧٥).

من صلاته أقـام للصلاة إمام مـشهد على، ثم إمـام مشهد الحـسين، ثم إمام مشهد الكلاسـة، ثم إمام مشهد أبى بكر، ثم إمام مشهـد عثمان -رضى الله عنهم أجمعين-، ثم إمام المالكيـة. وكان إمامهم فى عهد دخولى إليهـا الفقية أبو عمـر بن الوليد بن الحـاج التجيـبى، القرطبى الأصل، الغـرناطى المولد، نزيل دمشق. وهو يتناوب الإمـامة مع أخيه رحـمهما الله. ثم إمام الحـنفية، وكان إمامـهم فى عهد دخولى إليهـا الفقيه عمـاد الدين الحنفى المعروف بابن الرومى، وهو من كبـار الصوفيـة. وله شياخة الخـانقاه الخاتونيـة؛ وله أيضًا خانقـاه بالشرف الأعلى. ثم إمـام الحنابلة وكان ذلك العـهد الشيخ عـبد الله الكفيف أحد شيوخ القراء بدمشق. ثم بعد هؤلاء خمسة أئمة لقضاء الفوائت فلا تزال الصلاة فى هذا المسجد من أول النهار إلى ثلث الليل، وكذلك قراءة القرآن وهذا من مفاخر الجامع المبارك.

حلقات الدرس والمشرفون عليها

ولهذا المسجد حلقات للتدريس في فنون العلم. والمحدثون يقرأون كتب الحديث على كراسى مرتفـعة. وقراء القرآن يقرأون بالأصوات الحـسنة صباحًا ومساءً. وبه جماعة من المعـلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم إلى سارية من سوارى المسجد يلقن الصبيان ويقرئهم. وهم لا يكتبون القرآن فى الألواح تنزيهًا لكتاب الله تعالى(١)، وإنما يقرأون القرآن تلقينًا. ومعلم الخط غير معلم القرآن، يعلـمهم بكتب الأشعـار وسواها، فـينصرف الصبى من التـعليم إلى التكتيب، وبذلك جاد خطه؛ لأن المعلـم للخط لا يعلم غيره. ومن المدرسين بالمسجـد المذكور العـالم الصالح برهان الدين بن الفـركاح الشافـعى، ومنهم العـالم الصـالح نور الدين أبو اليـسـر بن الصـائع من المشتـهـرين بالفـضل والصلاح. ولما ولى القضـاء بمصر جلال الدين القزوينى وجـه إلى أبى اليسر

(١) ليس ذلك من تنزيه كتاب الله، وإنما ينزه كتـاب الله بما نزهه به السلف الصالح، فقد كان الصـحابة يكتـبون القـرآن فى الألواح على عهـد النبى -ﷺ- ولا يمنعـهم وكتب بعـد الصحابة ولم ينكر أحد على من كتب.

الخلعة والآمر بقضاء دمشق، فامتنع من ذلك. ومنهم الإمام العالم شهاب الدين بن جهيل من كبار العلماء. هرب من دمشق لما امتنع أبو اليسر من قضائها خوفًا من أن يقلد القضاء فاتصل ذلك بالملك الناصر فولى قضاء دمشق شيخ الشيوخ بالديار المصرية قطب العارفين لسان المتكلمين علاء الدين القونوى وهو من كبار الفقهاء. ومنهم الإمام الفاضل بدر الدين على السخاوى -رحمة الله عليهم أجمعين-.

مشاهير قضاة دمشق وفقهائها

قد ذكرنا قاضى القضاة الشافعى بها جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزوينى. وأما قاضى المالكية فهو شرف الدين، خطيب الفيوم، حسن الصورة والهيئة من كبار الرؤساء، وهو شيخ شيوخ الصوفية، والنائب عنه فى القضاء شمس الدين بن القفصى، وجلس حكمه بالمدرسة الصمصامية. وأما قاضى قضاة الحنفية فهو عماد الدين الحوارنى. وكان شديد السطوة[١]. وإليه تحاكم النساء وأزواجهن. وكان الرجل إذا سمع اسم القاضى الحنفى أنصف من نفسه قبل الوصول إليه. وأما قاضى الحنابلة فهو الإمام الصالح عز الدين ابن مسلم من خيار القضاة ينصرف على حمار له ومات بمدينة رسول الله -ﷺ- لما توجه للحجاز الشريف.

وكان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقى الدين ابن تيمية كبير الشام يتكلم فى الفنون. إلا أن فى عقله شيئًا[٢]. وكان أهل دمشق يعظمونه أشد التعظيم، ويعظهم على المنبر. وتكلم مرة بأمر أنكره الفقهاء، ورفعوه إلى الملك الناصر فأمر بإشخاصه إلى القاهرة، وجمع القضاة والفقهاء بمجلس

---

(١) السطوة: البطش والقهر. الوجيز ص(٣١٠).

(٢) قلت: لقد آذى هذا المصنف نفسه بالتعرض لمثل هذا الجبل الضخم، العَلَم الفذ، شيخ الإسلام، إمام أهل السنة فى عصره وإلى يومنا هذا، تقى الدين ابن تيمية، ولسنا - نحن والقارئ الكريم - بحاجة إلى الرد على مثل هذه الترهات، فحكايتها تغنى عن ذلك. وتلك شكاة ظاهر عنك عارها.

الملك الناصر، وتكلم شرف الدين الزواوى المالكى وقال: إن هذا الرجل قال كذا وكذا، وعدد ما أنكر على ابن تيمية، وأحضر العقود بذلك ووضعها بين يدى قاضى القضاة وقال قاضى القضاة لابن تيمية: ما تقول؟ قال: لا إله إلا الله فأعاد عليه فأجاب بمثل قوله. فأمر الملك الناصر بسجنه فسجن أعوامًا. وصنف فى السجن كتابًا فى تفسير القرآن سماه البحر المحيط، فى نحو أربعين مجلدًا. ثم إن أمه تعرضت للملك الناصر، وشكت إليه، فأمر بإطلاقه إلى أن وقع منه مثل ذلك ثانية. وكنت إذ ذاك بدمشق، فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم. فكان من جملة كلامه أن قال: إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولى هذا ونزل درجة من درج المنبر، فعارضه فقيه مالكى يعرف بابن الزهراء، وأنكر ما تكلم به. فقامت العامة إلى هذا الفقيه وضربوه بالأيدى والنعال ضربًا كثيرًا حتى سقطت عمامته، وظهر على رأسه شاشية حرير، فأنكروا عليه لباسها واحتملوه إلى دار عز الدين بن مسلم قاضى الحنابلة، فأمر بسجنه وعزره بعد ذلك. فأنكر فقهاء المالكية والشافعية ما كان من تعزيره، ورفعوا الأمر إلى ملك الأمراء سيف الدين تنكيز، وكان من خيار الأمراء وصلحائهم. فكتب إلى الملك الناصر بذلك، وكتب عقدًا شرعيًّا على ابن تيمية بأمور منكرة، منها: أن المطلق بالثلاث فى كلمة واحدة لا تلزمه إلا طلقة واحدة، ومنها: المسافر الذى ينوى بسفره زيارة القبر الشريف زاده الله طيبًا لا يقصر الصلاة، وسوى ذلك ما يشبهه، وبعث العقد إلى الملك الناصر فأمر بسجن ابن تيمية بالقلعة، فسجن بها حتى مات فى السجن.

مدارس دمشق

اعلم أن للشافعية بدمشق جملة مدارس، أعظمها العادلية وبها يحكم قاضى القضاة. وتقابلها المدرسة الظاهرية، وبها قبر الملك الظاهر، وبها جلوس نواب القاضى. ومن نوابه فخر الدين القبطى، وكان والده من كتاب

القبط وأسلم. ومنهم جمال الدين بن جملة، وقد تولى قضاء قضاة الشافعية بعد ذلك، وعزل لأمر أوجب عزله.

وكان بدمشق الشيخُ الصالح ظهير الدين العجمى. وكان سيف الدين تنكيز ملك الأمراء يتتلمذ له ويعظمه. فحضر يومًا بدار العدل عند ملك الأمراء، وحضر القضاة الأربعة. فحكى قاضى القضاة جمال الدين بن جملة حكاية. فقال له ظهير الدين: كذبت فأنف القاضى من ذلك وامتعض[1] له. فقال الأمير: كيف يكذبنى بحضرتك؟ فقال له الأمير: احكم عليه، وسلمه إليه وظنه أنه يرضى بذلك فلا يناله بسوء. فأحضره القاضى بالمدرسة العادلية وضربه مائتى سوط، وطيف به على حمار فى مدينة دمشق، ومنادٍ ينادى عليه، فمتى فرغ من ندائه ضربه على ظهره ضربة، وهكذا العادة عندهم. فبلغ ذلك ملك الأمراء، فأنكره أشد الإنكار، وأحضر القضاة الفقهاء، فأجمعوا على خطأ القاضى، وحكمه بغير مذهبه. فإن التعزير عند الشافعى لا يبلغ به الحد. وقال قاضى المالكية شرف الدين: قد حكمت بتفسيقه فكتب إلى الملك الناصر بذلك، فعزله. وللحنفية مدارس كثيرة. أكبرها مدرسة السلطان نور الدين، وبها يحكم القاضى للحنفية. وللمالكية بدمشق ثلاث مدارس إحداها الصماصمية، وبها سكن قاضى قضاة المالكية وقعوده للأحكام، والمدرسة النورية عمرها السلطان نور الدين محمود بن زنكى، والمدرسة الشرابشى التاجر، وللحنابلة مدارس كثيرة أعظمها النجمية.

أبواب دمشق

ولمدينة دمشق ثمانية أبواب، منها باب الفراديس، ومنها باب الجابية ومنها باب الصغير. وفيما بين هذين البابين مقبرة فيها العدد الجم من الصحابة والشهداء، فمن بعدهم.

---

(١) امتعض من الأمر: تألم وغضب. الوجيز ص(٥٨٦).

قال محمد بن جزى: لقد أحسن بعضُ المتأخرين من أهلِ دمشق فى قوله:

دمشق فى أوصافها جنة خلد راضيه
أما ترى أبوابها قد جعلت ثمانيه

بعض المشاهد والمزارات فى دمشق

فمنها بالمقبرة التى بين باب الجابية والباب الصغير قبر أم حبيبة بنت أبى سفيان أم المؤمنين، وقبر أخيها أمير المؤمنين معاوية، وقبر بلال مؤذن رسول الله -ﷺ-، ورضى الله عنهم أجمعين، وقبر أويس القرنى، وقبر كعب الأحبار -رضي الله عنهما-. ووجدت فى كتاب المعلم فى شرح صحيح مسلم للقرطبى أن جماعة من الصحابة صحبهم أويس القرنى من المدينة إلى الشام، فتوفى فى أثناء الطريق فى برية لا عمارة فيها ولا ماء فتحيروا فى أمره، فنزلوا، فوجدوا حنوطًا وكفنًا وماء، فعجبوا من ذلك، وغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه. ثم ركبوا فقال بعضهم: كيف نترك قبره بغير علامة فعادوا للوضع فلم يجدوا للقبر من أثر.

قال ابن جزى: ويقال: إن أويسًا قتل بصفّين مع على -عليه السلام-، وهو الأصح إن شاء الله. ويلى باب الجابية باب شرقى عنده جبانة فيها قبر أبى بن كعب صاحب رسول الله -ﷺ-، وفيها قبر العابد الصالح أرسلان المعروف بالباز الأشهب.

ويحكى أن الشيخَ الولىَّ أحمدَ الرفاعى -رحمه الله- كان مسكنه بأم عبيدة بمقربة من مدينة واسط، وكانت بين ولى الله تعالى أبى مدين شعيب بن الحسين وبينه مؤاخاة ومراسلة. ويقال: إن كل واحد منهما كان يسلم على صاحبه صباحًا ومساء فيرد عليه الآخر. وكانت للشيخ أحمد نخيلات عند زرويته، فلما كان فى إحدى السنين جذها[1] على عادته عذقًا منها وقال

(١) يُقال: جذ النخل جذًا وجذاذًا: قطع ثمره وجناه. الوجيز ص(٩٧).

هذا برسم أخى شعيب فحج الشيخ أبو مدين تلك السنة واجتمعا بالموقف الكريم بعرفة. ومع الشيخ أحمد خديمه أرسلان، فتفاوضا الكلام، وحكى الشيخ حكاية العذق فقال له أرسلان عن أمرك يا سيدى آتيه به، فأذن له، فذهب من حينه وأتاه به ووضعه بين أيديهما، فأخبر أهل الزاوية أنهم رأوا عشية يوم عرفة بازًا[1] أشهب قد انقض على النخلة فقطع ذلك العذق وذهب به فى الهواء، وبغربى دمشق جبانة تعرف بقبور الشهداء، فيها قبر أبى الدرداء وزوجه أم الدرداء، وقبر فضالة بن عبيد، وقبر واثلة بن الأسقع، وقبر سهل بن حنظلة من الذين بايعوا تحت الشجرة[2] -رضى الله عنهم أجمعين-. وبقرية تعرف بالمنيحة شرقى دمشق وعلى أربعة أميال منها قبر سعد بن عبادة -رضي الله عنه-، وعليه مسجد صغير حسن البناء، وعلى رأسه حجر مكتوب عليه هذا قبر سعد بن عبادة رأس الخزرج صاحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقرية قبلى البلد وعلى فرسخ منها مشهد أم كلثوم بنت على بن أبى طالب من فاطمة -عليهم السلام-، ويقال: إن اسمها زينب وكناها النبى -صلى الله عليه وسلم- أم كلثوم لشبهها بخالتها أم كلثوم بنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وعليه مسجد كبير، وحوله مساكن، وله أوقاف. ويسميه أهل دمشق قبر الست أم كلثوم. وقبر آخر يقال: إنه قبر سكينة بنت الحسين بن على -عليه السلام-. وبجامع النيرب من قرى دمشق فى بيت بشرقيه قبر يقال: إنه قبر أم مريم -عليها السلام-. وبقرية تعرف بداريا، غرب البلد وعلى أربعة أميال منها قبر أبى مسلم الخولانى، وقبر أبى سليمان الدارانى -رضي الله عنهما-. ومن مشاهد دمشق الشهيرة البركة مسجد الأقدام، وهو فى قبلى دمشق، على ميلين منها، على قارعة الطريق الأعظم الآخذ إلى الحجاز الشريف والبيت المقدس وديار مصر وهو مسجد عظيم كثير البركة وله أوقاف كثيرة، ويعظمه أهل دمشق تعظيمًا شديدًا. والأقدام التى ينسب إليها هى أقدام

---

(١) الباز: ضرب من الصقور يستخدم فى الصيد، والجمع بيزان.

(٢) وهم الذين ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبًا﴾ [الفتح: ١٨].

مصورة فى حجر مكتوب عليه كان بعض الصالحين يرى المصطفى -ﷺ- فى النوم فيقول له ها هنا قبر أخى موسى -عليه السلام-. وبمقربة من هذا المسجد موضع يعرف بالكثيب[١] الأخضر، وبمقربة من بيت المقدس وأريحاء موضع يعرف بالكثيب الأحمر تعظمه اليهود.

وحين نزل الطاعون الأعظم بدمشق فى أواخر ربيع الثانى سنة تسع وأربعين[٢] شاهدتُ من تعظيم أهل دمشق لهذا المسجد ما يعجب منه، وهو أن ملك الأمراء نائب السلطان أرغون شاه أمر مناديًا ينادى بدمشق أن يصومَ الناسُ ثلاثة أيام، ولا يطبخون بالسوق. فصام الناس ثلاثة أيام متوالية، كان آخرها يوم الخميس. ثم اجتمع الأمراء والشرفاء والقضاة والفقهاء وسائر الطبقات على اختلافها فى الجامع، حتى غص[٣] بهم، وباتوا ليلة الجمعة ما بين مصلٍّ وذاكر وداع، ثم صلوا الصبح، وخرجوا جميعًا على أقدامهم، وبأيديهم المصاحف، والأمراء حفاة. وخرج جميع أهل البلد ذكورًا وإناثًا، صغارًا وكبارًا، وخرج اليهود بتوراتهم، والنصارى بإنجيلهم، ومعهم النساء والولدان، وجميعهم باكون متضرعون إلى الله بكتبه وأنبيائه، وقصدوا مسجد الأقدام، وأقاموا به فى تضرعهم ودعائهم إلى قرب الزوال، وعادوا إلى البلد، وصلوا الجمعة. وخفف الله تعالى عنهم عندما انتهى عدد الموتى إلى ألفين فى اليوم الواحد - وقد انتهى عددهم بالقاهرة ومصر إلى أربعة وعشرين ألفًا فى يوم واحد.

والباب الشرقى من دمشق منارة بيضاء يقال: إنها التى ينزل عيسى -عليه السلام- عندها حسبما ورد فى صحيح مسلم[٤].

---

(١) الكثيب: الرمل المستطيل المحدودب، والجمع: كثبان. الوجيز ص(٥٢٨).

(٢) يعنى سنة: تسع وأربعين وسبعمائة.

(٣) يُقال: غص المكان بأهله: امتلأ بهم وضاق.

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٣٧)، وأبو داود (٤٣٢١)، والترمذى (٢٢٤٧) من حديث النواس بن سمعان -رضي الله عنه-.

أرباض دمشق

وتدور بدمشق ما عدا الشرقية أرباض[١] فسيحة المساحات، دواخلها أملح من داخل دمشق، لأجل الضيق الذى فى سكناها. وبالجهة الشمالية منها ربض الصالحية، وهى مدينة عظيمة لها سوق لا نظير لحسنه، وفيها مسجد جامع ومارستان، وبها مدرسة تعرف بمدرسة ابن عمر موقوفة على من أراد أن يتعلم القرآن الكريم من الشيوخ والكهول. وتجرى لهم ولمن يعلمهم كفايتهم من المآكل والملابس وبداخل البلد أيضًا مدرسة مثل هذه تعرف بمدرسة ابن منجا وأهل الصالحية كلهم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل -رضي الله عنه-.

جبل قاسيون ومشاهده المباركة

وقاسيون: جبل فى شمال دمشق، والصالحية فى سفحه وهو شهير البركة، لأنه مصعد الأنبياء عليهم السلام. ومن مشاهده الكريمة الغار الذى ولد فيه إبراهيم -عليه السلام- وهو غار مستطيل ضيق، عليه مسجد كبير، وله صومعة عالية، ومن ذلك الغار رأى الكوكب والقمر والشمس حسبما ورد فى الكتاب العزيز وفى ظهر الغار مقامه الذى كان يخرج إليه. وقد رأيت ببلاد العراق قرية تعرف ببُرْص (بضم الباء الموحدة وآخرها صاد مهمل)، ما بين الحلة وبغداد يقال: إن مولد إبراهيم -عليه السلام- كان بها وهى قرية بمقربة ذى الكفل -عليه السلام-، وبها قبره، ومن مشاهده بالغرب منه، مغارة[٢] الدم، وفوقها بالجبل دم هابيل بن آدم -عليه السلام-، وقد أبقى الله منه فى الحجارة أثرًا محمرًا وهو الموضع الذى قتله أخوه به، واجتره إلى المغارة، ويذكر أن تلك المغارة صلى فيها إبراهيم وموسى وعيسى وأيوب ولوط -صلى الله عليهم أجمعين-. وعليها مسجد متقن البناء يصعد إليه على درج وفيه بيوت ومرافق للسكنى ويفتح فى كل يوم إثنين وخميس والشمع والسُّرج توقد فى المغارة.

---

(١) الربض ما حول المدينة. والجمع أرباض. الوجيز ص(٢٥١، ٢٥٢).

(٢) الغار، والمغار، والمغارة: مكان منقور فى الجبل يشبه البيت. الوجيز ص(٤٥٧).

ومنها كهف بأعلى الجبل ينسب لآدم -عليه السلام- وعليه بناء وأسفل منه مغارة الجوع يذكر أنه أوى إليها سبعون من الأنبياء -عليهم السلام-، وكان عندهم رغيف يدور عليهم، وكلٌّ منهم يؤثر صاحبه به، حتى ماتوا جميعًا -صلى الله عليهم-، وعلى هذه المغارة مسجد مبنى والسرج توقد فيه ليلاً ونهارًا ولكل مسجد من هذه المساجد أوقاف كثيرة معينة ويذكر أن فيما بين باب الفراديس وجامع قاسيون مدفن سبعمائة نبى، وبعضهم يقول سبعين ألفًا، وخارج المدينة المقبرة العتيقة، وهى مدفن الأنبياء والصالحين وفى طرفها مما يلى البساتين أرض منخفضة غلب عليها الماء يقال إنها مدفن سبعين نبيًّا وقد عادت قرارًا للماء ونزهت من أن يدفن فيها أحد.

وفى آخر جبل قاسيون الربوة المباركة المذكورة فى كتاب الله ذات القرار والمعين[١]، ومأوى المسيح وأمه - عليهما السلام -، وهى من أجمل مناظر الدنيا ومنتزهاته، وبها القصور المشيدة والمبانى الشريفة والبساتين البديعة، والمأوى المبارك: مغارة صغيرة فى وسطها كالبيت الصغير، وإزاءها بيت صغير يقال: إنه مصلى الخضر -عليه السلام- يبادر الناس إلى الصلاة فيها. وللمأوى باب حديد صغير، والمسجد يدور به وله شوارع دائرة وساقية حسنة، ينزل لها الماء من علو وينصب فى شاذروان فى الجدار يتصل بحوض من رخام، ويقع فيه الماء ولا نظير له فى الحسن وغرابة الشكل، وبقرب ذلك مطاهر للوضوء يجرى فيها الماء وهذه الربوة المباركة هى رأس بساتين دمشق، وبها منابع مياهها، وينقسم الماء الخارج منها على سبعة أنهار، كل نهر آخذ فى جهة، ويعرف ذلك الموضع بالمقاسم، وأكبر هذه الأنهار النهر المسمى بتورة، وهو يشق تحت الربوة، وقد نحت له مجرى فى الحجر الصلد، كالغار الكبير، وربما انغمس ذو الجسارة[٢] من العوّامين فى النهر من أعلى الربوة واندفع فى

---

(١) وذلك قوله تعالى: ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾ [المؤمنون: ٥٠].

(٢) يُقال: جسر يجسُر جسورًا وجسارة: شَجُع، ومضى ونفذ، فهو جسر وجسور، والجمع جُسْر. وهى جسور وجسورة.

الماء حتى يشق مجراه ويخرج من أسفل الربوة، وهى مخاطر عظيمة، وهذه الربوة تشرف على البساتين الدائرة فى البلد، ولها من الحسن واتساع مسرح الأبصار ما ليس لسواها. وتلك الأنهار تذهب فى شتى، فتحار الأعين فى حسن اجتماعها وافتراقها واندفاعها وانصبابها. وجمال الربوة وحسنها التام أعظم من أن يحيط به الوصف. ولها الأوقاف الكثيرة من المزارع والبساتين والرياع، تقام منها وظائفها للإمام والمؤذن والصادر والوارد، بأسفل الربوة قرية النيرب، وقد تكاثرت بساتينها، وتكاثفت ظلالها، وتدانت أشجارها، فلا يظهر من بنائها إلا ما سما ارتفاعه، ولها حمام مليح، ولها جامع بديع مفروش صحنه بفصوص الرخام، وفيها ساقية رائعة الحسن، ومطهرة فيها بيوت عدة يجرى فيها الماء، وفى القبلى من هذه القرية قرية المزة، وتعرف بمزة كلب، نسبة إلى قبيلة كلب بن وبرة بن ثعلب بن حلوان بن عمران بن الحاف ابن قضاعة، وكانت إقطاعًا لهم، وإليها ينسب الإمام حافظ الدنيا جمال الدين يوسف بن الزكى الكلبى المزى، وكثير سواه من العلماء، وهى من أعظم قرى دمشق بها جامع كبير عجيب، وسقاية معينة، وأكثر قرى دمشق فيها الحمامات، والمساجد الجامعة والأسواق، وسكانها كأهل الحاضرة فى مناحيهم، وفى شرقى البلد قرية تعرف ببيت الأهبة، وكانت فيها كنيسة يقال: إن آزر كان يجلب فيها الأصنام فيكسرها الخليل -عليه السلام-، وهى الآن مسجد جامع بديع مزين بفصوص الرخام الملونة بأعجب نظام وأزين التئام.

أخبار الأوقاف بدمشق وبعض فضائل أهلها وعوائدهم

والأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج، يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته، ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن، وهن اللواتى لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن، ومنها أوقاف لفكاك الأسارى، ومنها أوقاف لأبناء السبيل، يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم، ومنها أوقاف على تعديل الطريق ورصفها لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان فى جنبيه

يمر عليها المترجلون، ويمر الركبان بين ذلك، ومنها أوقافُ لسوى ذلك من أفعال الخير.

مررت يومًا ببعض أزقة دمشق فرأيت به مملوكًا صغيرًا قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصينى، وهم يسمونها الصحن، فتكسرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم: اجمع شقفها[١] واحملها معك لصاحب أوقاف الأوانى، فجمعها وذهب الرجل معه إليه فأراه إياها فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن. وهذا من أحسن الأعمال فإن سيد الغلام لابد له أن يضربه على كسر الصحن، أو ينهره وهو أيضًا ينكسر قلبه، ويتغير لأجل ذلك فكان هذا الوقف جبرًا للقلوب جزى الله خيرًا من تسامت همته فى الخير إلى مثل هذا. وأهل دمشق يتنافسون فى عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد، وهم يحسنون الظن بالمغاربة، ويطمئنون إليهم بالأموال والأهلين والأولاد، وكل من انقطع من جهات دمشق لابد أن يتأتى له وجه من المعاش، من إمامة مسجد، أو قراءة بمدرسة أو ملازمة مسجد، يجىء إليه فيه رزقه أو قراءة القرآن، أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة، أو يكون كجملة الصوفية بالخوانق، تجرى له النفقة والكسوة، فمن كان بها غريبًا على خير لم يزل مصونًا عن بذل وجهه محفوظًا عما يزرى[٢] بالمروءة، ومن كان من أهل المهنة والخدمة فله أسباب أخر، من حراسة بستان أو أمانة طاحونة أو كفالة صبيان يغدو معهم إلى التعليم ويروح، ومن أراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الإعانة التامة على ذلك. ومن فضائل أهل دمشق أنه لا يفطر أحد منهم فى ليالى رمضان وحده ألبتة[٣] فمن كان من الأمراء والقضاة والكبراء، فإنه يدعو أصحابه والفقراء يفطرون عنده، ومن كان من التجار وكبار السوقة[٤] صنع

---

(١) الشقف: الخزف، أو مُكسَّرُهُ، والواحدة: شقفة.

(٢) يُقال: زرى عليه يزرى زريا وزراية: عابه وعتب عليه، وأزرى عليه: زرى. وأزرى بالشىء: تهاون به وقصر. وازدراه: حقره وعابه. الوجيز ص(٢٨٨).

(٣) البتة: ألبتة: يُقال: لا أفعله بتة، والبتة وألبتة: قطعًا لا رجعة فيه. الوجيز ص(٣٤).

(٤) السوقة: من يبيع فى السوق.

مثل ذلك، ومن كان من الضعفاء والبادية فإنهم يجتمعون كل ليلة فى دار أحدهم أو في مسجد، ويأتى كل أحد بما عنده فيفطرون جميعًا، ولما وردتُ دمشقَ وقعتْ بينى وبين نور الدين السخاوى مدرس المالكية صحبة فرغب منى أن أفطر عنده فى ليالى رمضان فحضرت عنده أربع ليالٍ ثم أصابتنى الحمى فغبت عنه، فبعث فى طلبى، فاعتذرت فى المرض، فلم يسعنى عذراً، فرجعتُ إليه وبت عنده، فلما أردت الانصراف بالغد منعنى من ذلك وقال لى: أحسب دارى كأنها دارك أو دار أبيك أو أخيك، وأمر بإحضار طبيب وأن يصنع لى بداره كل ما يشتهيه الطبيب من دواء أو غذاء، وأقمت كذلكً عنده إلى يوم العيد، فحضرت المصلى وشفانى الله تعالى مما أصابنى. وقد كان ما عندى من النفقة نفذ، فعلم بذلك فاكترى لى جمالاً وأعطانى الزادة وسواه، وزادنى دراهم وقال لى: تكون لما عسى أن يعتريك من أمر مهم، جزاه الله خيراً.

وكان بدمشق فاضل من كتاب الملك الناصر يسمى عماد الدين القيصرانى، من عادته أنه متى سمع أن مغربيًّا وصل إلى دمشق بحث عنه وأضافه وأحسن إليه، فإن عرف منه الدين والفضل أمره بملازمته. وكان يلازمه منهم جماعة. وعلى هذه الطريقة كاتب السر الفاضل علاء الدين بن غانم وجماعة غيره.

وكان بها فاضل من كبرائها وهو الصاحب عز الدين القلانسى، له مآثر ومكارم وفضائل وإيثار، وهو ذو مال عريض وذكروا أن الملك الناصر لما قدم دمشق أضافه وجميع أهل دولته ومماليكه وخواصه ثلاثة أيام فسماه إذ ذاك بالصاحب. ومما يؤثر من فضائلهم أن أحد ملوكهم السالفين لما نزل به الموت أوصى أن يدفن بقبلة الجامع المكرم، ويخفى قبره. وعين أوقافًا عظيمة لقراء يقرأون سبعًا من القرآن الكريم فى كل يوم إثر[1] صلاة الصبح بالجهة الشرقية

---

(١) إثر صلاة الصبح: أى بعدها. وقد رجح الألبانى أن ثواب هذه القراءة لا يصل إلى الميت فى كتاب أحكام الجنائز ص(١٧٣-١٧٥) وناقش الرأى المخالف فى بحث جيد فلينظره من شاء فإن فيه فوائد جمة.

من مقصورة الصحابة -ﷺ- حيث قبره، فصار قراءة القرآن على قبره لا تنقطع أبدًا، وبقى ذلك الرسم الجميل بعده مخلدًا، ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد أنهم يخرجون بعد صلاة العصر من يوم عرفة، فيقفون بصحون المساجد كبيت المقدس وجامع بنى أمية وسواها، ويقف بهم أئمتهم كاشفى رؤوسهم داعين خاضعين خاشعين ملتمسين البركة، ويتوخون الساعة التى يقف فيها وفد الله تعالى بحجاج بيته إلى أن تغيب الشمس، فينفرون كما ينفر الحاج، باكين على ما حرموه من ذلك الموقف الشريف بعرفات، داعين إلى الله تعالى أن يوصلهم إليها ولا يخيبهم من بركة القبول فيما فعلوه، ولهم أيضًا فى اتباع الجنائز رتبة عجيبة وذلك أنهم يمشون أمام الجنازة، والقراء يقرأون القرآن بالأصوات الحسنة والتلاحين المبكية التى تكاد النفوس تطير لها رقة، وهم يصلون على الجنائز بالمسجد الجامع قبالة المقصورة، فإن كان الميت من أئمة الجامع أو مؤذنيه أو خدمه أدخلوه بالقراءة إلى موضع الصلاة عليه، وإن كان من سواهم قطعوا القراءة عند باب المسجد وأدخلوا الجنازة، وبعضهم يجتمع له بالبلاط الغربى من الصحن بمقربة من باب البريد، فيجلسون وأمامهم ربعات القرآن يقرأون فيها ويرفعون أصواتهم بالنداء لكل من يصل للعزاء من كبار البلدة وأعيانها ويقولون بسم الله فلان الدين من كمال وجمال شمس وبدر وغير ذلك، فإذا أتموا القراءة قام المؤذنون فيقولون افتكروا واعتبروا صلاتكم على فلان الرجل الصالح العالم ويصفون بصفات من الخير، ثم يصلون عليه ويذهبون به إلى مدفنه. ولأهل الهند رتبةٌ عجيبةٌ فى الجنائز أيضًا زائدة على ذلك، وهى أنهم يجتمعون بروضة الميت صبيحة الثالث من دفنه وتفرش الروضة بالثياب الرفيعة، ويكسى القبر بالأكسية الفاخرة، وتوضع حوله الرياحين من الورد والنسرين(١) والياسمين، وذلك النوار لا ينقطع عندهم ويأتون بأشجار الليمون والأترج، ويجعلون فيها حبوبها إن لم تكن فيها، ويجعلون صيوانًا يظلل الناس نحوه، ويأتى القضاة

(١) النسرين: ورد أبيض عطرى قوى الرائحة. واحدته: نسرينة. الوجيز ص(٦١٣).

والأمراء ومن يماثلهم فيقعدون، ويقابلهم القراء ويؤتى بالربعات الكرام فيأخذ كل واحد منهم جزءًا، فإذا تمت القراءة من القراء بالأصوات الحسان يدعو القاضى ويقوم قائمًا ويخطب خطبة معدة لذلك، ويذكر فيها الميت ويرثيه بأبيات شعر، ويذكر أقاربه ويعزيهم عنه، ويذكر السلطان داعيًا له، وعند ذكر السلطان يقوم الناس ويحطون رؤوسهم إلى سمت الجهة التى بها السلطان، ثم يقعد القاضى، ويأتون بماء الورد فيصب على الناس صبًّا يبدأ بالقاضى ثم من يليه كذلك إلى أن يعم الناس أجمعين، ثم يؤتى بأوانى السكر وهو الجلاب محلولاً بالماء فيسقون الناس منه، ويبدأون بالقاضى ومن يليه، ثم يؤتى بالتنبول، وهم يعظمونه ويكرمون من يأتى لهم به، فإذا أعطى السلطان أحدًا منه فهو أعظم من إعطاء الذهب والخلع. وإذا مات الميت لم يأكل أهله التنبول إلا فى ذلك اليوم، فيأخذ القاضى، أو من يقوم مقامه، أوراقًا منه فيعطيها لولى الميت فيأكلها وينصرفون حينئذٍ، وسيأتى ذكر التنبول إن شاء الله تعالى.

خبر سماعى بدمشق ومن أجازنى من أهلها

سمعت بجامع بنى أمية، عمره الله بذكره جميع صحيح الإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفى البخارى -رضي الله عنه- على الشيخ المعمر رحلة الآفاق ملحق الأصاغر بالأكابر، شهاب الدين أحمد بن أبى طالب بن أبى النعم بن حسن بن على بن بيان الدين، مقرىء الصالحى، المعروف بابن الشحنة الحجازى، فى أربعة عشر مجلسًا، أولها: يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان المعظم سنة ست وعشرين وسبعمائة، وآخرها: يوم الإثنين الثامن والعشرين منه، بقراءة الإمام الحافظ مؤرخ الشام علم الدين أبى محمد القاسم ابن محمد بن يوسف البرزالى، الإشبيلى الأصل، الدمشقى، فى جماعة كبيرة كتب أسماءهم محمد بن طغربل بن عبد الله بن غزال الصيرفى، سماع الشيخ أبى العباس الحجازى لجميع الكتاب، من الشيخ سراج الدين أبى عبد الله الحسين بن أبى بكر المبارك بن محمد بن يحيى بن على بن المسيح بن

عمران الربيعى البغدادى الزبيدى الحنبلى، فى أواخر شوال وأوائل ذى القعدة من سنة ثلاثين وستمائة بالجامع المظفرى بسفح جبل قاسيون ظاهر دمشق، وبإجازته فى جميع الكتاب من الشيخين: أبى الحسن محمد بن أحمد بن عمر ابن الحسين بن الخلف القطيعى المؤرخ، وعلى بن أبى بكر بن عبد الله بن رؤبة القلانسى العطار البغدادى ومن باب غيرة النساء ووجدهن، إلى آخر الكتاب من أبى المنجا عبد الله بن عمر بن على بن زيد الليثى الخزاعى البغدادى، بسماع أربعتهم من الشيخ شديد الدين أبى الوقت عبد الأول بن عيسى بن شعيب بن إبراهيم السجزى الهروى الصوفى، فى سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ببغداد قال: أخبرنا الإمام جمال الإسلام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر بن محمد بن داود بن أحمد بن معاذ بن سهل ابن الحكم الداودى قراءة عليه، وأنا أسمع ببوشنج سنة خمس وستين وأربعمائة، قال: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حوبة بن يوسف بن أيمن السرخسى قراءة عليه، وأنا أسمع فى صفر سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، قال: أخبرنا عبد الله بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر بن إبراهيم الفربرى قراءة عليه، وأنا أسمع سنة ست عشرة وثلاثمائة بفربر، قال: أخبرنا الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى -ﷺ- سنة ثمان وأربعين ومائتين بفربر، ومرة ثانية بعدها، وبعدها سنة ثلاث وخمسين.

ومن إجازاتى من أهل دمشق إجازة عامة الشيخ أبو العباس الحجازى المذكور، سبق إلى ذلك وتلفظ به - ومنهم الشيخ الإمام شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد المقدسى، ومولده فى ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين وستمائة - ومنهم الشيخ الإمام الصالح عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن النجدى - ومنهم إمام الأئمة جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن الزكى عبد الرحمن بن يوسف المزنى الكلبى، حافظ الحفاظ، ومنهم الإمام علاء الدين على بن يوسف بن محمد ابن عبد الله الشفاعى، والشيخ الإمام الشريف محيى الدين بن يحيى بن على العلوى، ومنهم الشيخ الإمام المحدث مجد الدين القاسم بن عبد الله بن أبى

عبد الله بن المعلى الدمشقى، ومولده سنة أربع وخمسين وستمائة. ومنهم الشيخ الإمام العالم شهاب الدين أحمد بن إبراهيم بن فلاح بن محمد الإسكندرى. ومنهم الشيخ الإمام ولى الله تعالى شمس الدين بن عبد الله بن تمام والشيخان الأخوان شمس الدين محمد وكمال الدين عبد الله، ابنا إبراهيم بن عبد الله بن أبى عمر المقدسى، والشيخ العابد شمس الدين محمد ابن أبى الزهراء بن سالم الهكارى. والشيخة الصالحة أم محمد عائشة بنت محمد بن مسلم بن سلامة الحرانى، والشيخة الصالحة رحلة الدنيا زينب كمال الدين أحمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد بن أحمد المقدسى كل هؤلاء أجازنى إجازة عامة فى سنة ست وعشرين بدمشق. ولما استهل شوال من السنة المذكورة خرج الركب الحجازى إلى خارج دمشق ونزلوا القرية المعروفة بالكسوة، فأخذت فى الحركة معهم، وكان أمير الركب سيف الدين الجوبان، من كبار الأمراء وقاضيه شرف الدين الأذرعى الحورانى، وحج فى تلك السنة مدرس المالكية صدر الدين العمارى، وكان سفرى مع طائفة من العرب تدعى العجارمة، أميرهم محمد بن رافع كبير القدر فى الأمراء وارتحلنا من الكسوة إلى قرية تعرف بالصنمين عظيمة، ثم ارتحلنا منها إلى بلدة زرعة وهى صغيرة من بلاد حوران نزلنا بالقرب منها ثم ارتحلنا إلى مدينة بُصْرى، وهى صغيرة ومن عادة الركب أن يقيم بها أربعًا ليلحق بهم من تخلف بدمشق لقضاء مآربه[1] - وإلى بصرى وصل رسول الله -ﷺ- قبل البعث فى تجارة خديجة، وبها مبرك ناقته قد بنى عليه مسجد عظيم، ويجتمع أهل حوران بهذه المدينة، ويتزود الحاج منها ثم يرحلون إلى بركة زيرة (زيرا)، ويقيمون عليها يومًا، ثم يرحلون إلى اللجون، وبها الماء الجارى ثم يرحلون إلى حصن الكرك، وهو من أعجب الحصون وأمنعها وأشهرها ويسمى بحصن الغراب. والوادى يطيف به من جميع جهاته وله باب واحد قد نحت المدخل إليه فى الحجر الصلد، ومدخل دهليزه كذلك وبهذا الحصن يتحصن الملوك، وإليه يلجئون فى النوائب وله لجأ الملك الناصر، لأنه ولى الملك وهو صغير السن،

(١) المآرب جمع مَأْرَب، والمأرب: الأرب والبغية. الوجيز ص(١١).

فاستولى على التدبير مملوكه سلار النائب عنه، فأظهر الملك الناصر أنه يريد الحج، ووافقه الأمراء على ذلك فتوجه إلى الحج، فلما وصل عقبة أيلة، لجأ إلى الحصن، وأقام به أعوامًا إلى أن قصده أمراء الشام، واجتمعت عليه المماليك وكان الملك فى تلك المدة بيبرس الششنكير، وهو أمير الطعام وتسمى بالملك المظفر، وهو الذى بنى الخانقاه البيبرسية، بمقربة من خانقاه سعيد السعداء التى بناها صلاح الدين بن أيوب فقصده الملك الناصر بالعساكر، ففر بيبرس إلى الصحراء، فتبعته العساكر وقُبض عليه، وأتى به إلى الملك الناصر فأمر بقتله فقتل. وقبض على سلار، وحبس فى جب حتى مات جوعًا. ويقال: إنه أكل جيفة(١) من الجوع نعوذ بالله من ذلك. وأقام الركب بخارج الكرك أربعة أيام بموضع يقال له الثنية، وتجهزوا لدخول البرية. ثم ارتحلنا إلى معان، وهو آخر بلاد الشام، ونزلنا من عقبة الصوان إلى الصحراء التى يقال فيها: داخلها مفقود وخارجها مولود(٢). وبعد مسيرة يومين نزلنا ذات حج، وهى حسيان لا عمارة بها، ثم إلى وادى بلدح ولا ماء به، ثم إلى تبوك وهو الموضع الذى غزاه رسول الله -ﷺ-. وفيها عين ماء كانت تبض(٣) بشىء من الماء. فلما نزلها رسول الله-ﷺ-. وتوضأ منها، جادت بالماء المعين(٤). ولم يزل إلى هذا العهد ببركة رسول الله -ﷺ-. ومن عادة حجاج الشام إذا وصلوا منزل تبوك، أخذوا أسلحتهم، وجرّدوا سيوفهم، وحملوا على المنزل، وضربوا النخل بسيوفهم، ويقولون: هكذا دخلها رسول الله -ﷺ-. وينزل الركب العظيم على هذه العين فيروى منها جميعهم، ويقيمون أربعة أيام للراحة وإرواء الجمال واستعداد الماء للبرية المخوفة التى بين العلا وتبوك. ومن عادة السقائين أنهم ينزلون على جوانب هذه العين، ولهم أحواض مصنوعة

(١) يُقال: جافت الميتة: أنتنت، وجيّفت الميتة: جافت. والجيفة: جثة الميت إذا أنتنت، والجمع جيف وأجياف. الوجيز ص(١٢٩).

(٢) يعنى أنه لا يكاد أن ينجو أحد دخل فيها، فإنه من دخلها فقد فُقِد، فإذا خرج فكأن ذلك عمر جديد كتب له، لأنه نجا مما لا ينجو منه أحد.

(٣) يُقال: بض الماء يَبَضُّ بَضًّا وبضوضًا: رشح. الوجيز ص(٥٣).

(٤) لم أقف عليه.

من جلود الجواميس، كالصهاريج الضخام يسقون منها الجمال، ويملأون الرّوايا والقِرَب. ولكل أمير أو كبير حوض يسقى منه جماله وجمال أصحابه، ويملأ رواياهم. وسواهم من الناس يتفق مع السقائين على سقى جمله وملء قربته، بشىء معلوم من الدراهم. ثم يرحل من تبوك، ويجدّون السير ليلاً ونهاراً خوفاً من هذه البرية. وفى وسطها الوادى الأخيضر: كأنه وادى جهنم، أعاذنا الله منها. وأصاب الحجاج به فى بعض السنين مشقة بسبب ريح السموم التى تهب، فانتشفت المياه، وانتهت شربة الماء إلى ألف دينار، ومات مشتريها وبائعها. وكتب ذلك فى بعض صخر الوادى. ومن هنالك ينزلون بركة المعظم، وهى ضخمة، نسبتها إلى الملك المعظم من أولاد أيوب. ويجتمع بها ماء المطر فى بعض السنين، وربما جف فى بعضها، وفى الخامس من أيام رحيلهم عن تبوك يصلون إلى بئر الحجر حجر ثمود، وهى كثيرة الماء، ولكن لا يردها أحد من الناس، مع شدة عطشهم، اقتداء بفعل رسول الله -ﷺ- حين مر بها فى غزوة تبوك، فأسرع براحلته وأمر أن لا يسقى منه أحد. ومن عجن به أطعمه الجمال. وهنالك ديار ثمود فى جبال من الصخر الأحمر منحوتة، لها عتب منقوشة يظن رائيها أنها حديثة الصنعة، وعظامهم نخرة فى داخل تلك البيوت. إن فى ذلك لعبرة، ومبرك ناقة صالح -عليه السلام- بين جبلين هنالك، وبينهما أثر مسجد يصلى الناس فيه، بين الحجر والعلا نصف يوم أو دونه. والعلا قرية كبيرة حسنة لها بساتين النخل والمياه المعينة، يقيم بها الحجاج أربعاً، يتزودون ويغسلون ثيابهم ويدعون بها ما يكون عندهم من فضل زاد ويستصحبون قدر الكفاية. وأهل هذه القرية أصحاب أمانة، وإليها ينتهى تجار نصارى الشام، لا يتعدونها، ويبايعون الحجاج الزاد وسواه. ثم يرحل الركب من العلا فينزلون فى غد رحيلهم الوادى المعروف بالعطاس، وهو شديد الحر تهب فيه السَّموم[1] المهلكة. هبّت السنين على الركب فلم يخلص منها إلا اليسير. وتعرف تلك السنة سنة الأمير الحالقى، ومنه ينزلون

(١) السَّمُومُ: الريح الحارة تهب غالباً بمصر فى شهر مايو، وأكثر ما تكون نهاراً. الوجيز ص(٣٢٢).

هدية، وهى حسيان ماء بواد يحفرون به، فيخرج الماء وهو زُعاق. وفى اليوم الثالث ينزلون بظاهر البلد المقدس الكريم الشريف.

طيبَة مدينة رسول الله -ﷺ- وكَرَّمَ وشَرَّفَ وَعَظَّمَ

وفى عشى ذلك اليوم دخلنا الحرم الشريف، وانتهينا إلى المسجد الكريم، فوقفنا بباب السلام مسلمين، وصلينا بالروضة الكريمة بين القبر والمنبر الكريم، واستلمنا القطعة الباقية من الجذع الذى حن إلى رسول الله -ﷺ-، وهى ملصقة بعمود قائم بين القبر والمنبر عن يمين مستقبل القبلة، وأدينا حق السلام على سيد الأولين والآخرين، وشفيع العصاة والمذنبين، الرسول النبى الهاشمى الأبطحى محمد -صلى الله عليه وسلم تسليمًا وشرف وكرم- وحق السلام على ضجيعيه وصاحبيه أبى بكر الصديق وأبى حفص عمر الفاروق -رضي الله عنهما-. وانصرفنا إلى رحْلنا مسرورين بهذه النعمة العظمى، مستبشرين بنيل هذه المنة الكبرى، حامدين الله تعالى على البلوغ إلى معاهد رسوله الشريفة، ومشاهده العظيمة المنيفة، داعين أن لا يجعل ذلك آخر عهدنا بها، وأن يجعلنا ممن قُبِلت زيارته، وكُتِبت فى سبيل الله سفرته.

مسجد رسول الله -ﷺ- وروضته الشريفة

المسجد المعظم مستطيل، تحفه من جهاته الأربع بلاطات دائرة به، ووسطه صحن مفروش بالحصى والرمل، ويدور بالمسجد الشريف شارع مبلط بالحجر المنحوت. والروضة المقدسة -صلوات الله وسلامه على ساكنها- فى الجهة القبلية مما يلى الشرق من المسجد الكريم، وشكلها عجيب لا يتأتى تمثيله. وهى منورة بالرخام البديع النحت الرائق النعت، قد علاها تضميخ[1] المسك والطيب مع طول الأزمان. وفى الصفة القبلية منها مسمار فضة هو

(١) يُقال: ضمخ جسده وغيره بالطيب وغيره يضمُخ ضمخًا: دهنه به. وضَمّخه بالطيب وغيره: أكثر دهنه به. وتضمّخ بالطيب وغيره: دهن جسمه به. الوجيز ص(٣٨٢).

قبالة الوجه الكريم. وهنالك يقف الناس مستقبلين الوجه الكريم مستدبرين القبلة، فيسلمون وينصرفون يمينًا إلى وجه أبى بكر الصديق، ورأس أبى بكر -رضي الله عنه- عند قدمى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم ينصرفون إلى عمر بن الخطاب، ورأس عمر عند كتفى أبى بكر -رضي الله عنهما-. وفى الجوفى من الروضة المقدسة، زادها الله طيبًا، حوض صغير مرخم، فى قبلته شكل محراب، يقال: إنه كان بيت فاطمة بنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم تسليمًا- ويقال أيضًا: هو قبرها، والله أعلم. وفى وسط المسجد الكريم دفة[1] مطبقة على وجه الأرض، مقفلة على سرداب[2] له مدرج يفضى إلى دار أبى بكر -رضي الله عنه- خارج المسجد، وعلى ذلك السرداب كان طريق عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- إلى داره، ولا شك أنه هو الخوخة التى ورد ذكرها فى الحديث، وأمر النبى -صلى الله عليه وسلم- بإبقائها، وسدّ ما سواها[3]. وبإزاء دار أبى بكر -رضي الله عنه- دار عمر ودار ابنه عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-، وبشرقى المسجد الكريم دار إمام المدينة أبى عبد الله مالك بن أنس -رضي الله عنه-، وبمقربة من باب السلام سقاية، ينزل إليها على درج، ماؤها معين[4]، وتعرف بالعين الزرقاء.

وقت ابتداء بناء المسجد الكريم

قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم تسليمًا- المدينة الشريفة دار الهجرة يوم الإثنين ليلة الثالث عشر من شهر ربيع الأول، فنزل على بنى عمرو بن عوف، وأقام عندهم ثنتين وعشرين ليلة، وقيل أربع عشرة ليلة،

(١) الدفة: الجنب من كل شيء أو صفحته. يُقال: بات يتقلب على دفتيه، ومنه: دفتا المصحف. الوجيز ص(٢٣٠).

(٢) السرداب: بناء تحت الأرض يُلجأ إليه من حر الصيف، والجمع: سراديب. الوجيز ص(٣٠٨).

(٣) أخرج البخارى (٣٦٥٤)، ومسلم (٢٣٨٢) عن أبى سعيد الخدرى -رضي الله عنه- مرفوعًا: «**لا تبقين فى المسجد خَوْخَة إلا خَوْخَة أبى بكر**».

(٤) المعين من الماء: الظاهر الذى تراه العين يجرى على وجه الأرض، وفى القرآن الكريم: ﴿فمن يأتيكم بماء معين﴾. الوجيز ص(٤٤٤).

وقبل أربع ليال، ثم توجه إلى المدينة فنزل على بنى النجار بدار أبى أيوب الأنصارى -رضي الله عنه-، وأقام عنده سبعة أشهر حتى بنى مساكنه ومسجده. وكان موضع المسجد مربدًا(١) لسهل وسهيل ابنى راف بن أبى عمر بن عائد بن ثعلبة ابن غانم بن مالك بن النجار. وهما يتيمان فى حجر أسعد بن زرارة -رضى الله عنهم أجمعين-. وقيل: كانا فى حجر أبى أيوب -رضي الله عنه-، فابتاع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ذلك المربد، وقيل بل أرضاهما أبو أيوب عنه. وقيل: إنهما وهباه لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فبنى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المسجد، وعمل فيه مع أصحابه، وجعل عليه حائطًا، ولم يجعل له سقفًا ولا أساطين، وجعله مربعًا، طوله مائة ذراع، وعرضه مثل ذلك. وقيل: إن عرضه كان دون ذلك. وجعل ارتفاع حائطه قدر القامة. فلما اشتد الحر تكلم أصحابه فى تسقيفه. فأقام له أساطين من جذوع النخل، وجعل سقفه من جريدها. فلما أمطرت السماءُ وكف المسجد. فكلم أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فى عمله بالطين. فقال: **«كلا عريش كعريش موسى، أو ظلة كظلة موسى، والأمر أقرب من ذلك»**. قيل: وما ظلة موسى؟ قال -صلى الله عليه وسلم-: **«كان إذا قام أصاب السقف رأسه»**(٢).

وجعل للمسجد ثلاثة أبواب. ثم سد باب الجنوب منها حين حولت القبلة، وبقى المسجد على حياة رسول الله -صلى الله عليه وسلم تسليمًا- وحياة أبى بكر -رضي الله عنه-. فلما كانت أيام عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- زاد فى مسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. وقال: لولا أنى سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ينبغى أن نزيد فى المسجد مازدت فيه. فأنزل أساطين الخشب، وجعل مكانها أساطين اللبن، وجعل الأساس حجارة إلى القامة، وجعل الأبواب ستة، منها فى كل جهة ما عدا القبلة بابان، وقال: فى باب منها ينبغى أن يترك هذا للنساء فما رُئى فيه. حتى لقى الله عزّ وجلّ، وقال: زدنا فى هذا

(١) المربد: موقف الإبل ومحبسها، وبه سمى مربد البصرة، وكان الشعراء يجتمعون فيه، والمربد: ما يجفف فيه التمر، والجمع مرابد. الوجيز ص(٢٥١).

(٢) أخرج ابن أبى الدنيا عن الحسن مرسلاً أن النبى -صلى الله عليه وسلم- قال فى مسجد المدينة: «ابنوه عريش كعريش موسى»، وحسنه الألبانى فى «الصحيحة» (٦١٦) لشواهده.

المسجد حتى يبلغ الجبانة، لم يزل مسجد رسول الله -ﷺ- وأراد عمر أن يدخل فى المسجد موضعًا للعباس عم رسول الله -ﷺ- ورضى عنهما، فمنعه منه. وكان فيه ميزاب يصب فى المسجد، فنزعه عمر. وقال: إنه يؤذى الناس، فنازعه العباس، وحكّما بينهما أبى بن كعب -رضي الله عنهما-، فأتيا داره فلم يأذن لهما إلا بعد ساعة، ثم دخلا إليه، فقال: كانت جاريتى تغسل رأسى، فذهب عمر ليتكلم، فقال له أبى: دع أبا الفضل يتكلم لمكانه من رسول الله -ﷺ-، فقال العباس: خطة خطها لى رسول الله -ﷺ-، وبنيتها معه، وما وضعت الميزاب إلا ورجلاى على عاتقى رسول الله -ﷺ- فجاء عمر فطرحه وأراد إدخالها فى المسجد. فقال أبى: إن عندى من هذا علمًا. سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: أراد داود -عليه السلام- أن يبنى بيت الله المقدس. وكان فيه بيت ليتيمين فراودهما على البيع فأبيا. ثم راودهما فباعاه ثم قاما بالغين فردا البيع، واشتراه منهما. ثم رداه كذلك. فاستعظم داودُ الثمن. فأوحى الله إليه إن كنت تعطى من شىء هو لك، فأنت أعلم. وإن كنت تعطيهما من رزقنا فأعطهما حتى يرضيا. وإن أغنى البيوت عن مظلمة بيت هو لى، وقد حرمت عليك بناءه.

قال: يا رب فأعطه سليمان. فأعطاه سليمان -عليه السلام-. فقال عمر: من لى بأن رسول الله -ﷺ- قاله؟ فخرج أبى إلى قوم من الأنصار، فأثبتوا له ذلك. فقال عمر -رضي الله عنه- أما إنى لو لم أجد غيرك أخذت قولك، ولكننى أحببت أن أثبت. ثم قال للعباس -رضي الله عنه-: والله لا ترد الميزاب إلا وقدماك على عاتقى. ففعل العباس ذلك. ثم قال: أما إذا أثبتت لى، فهى صدقة لله، فهدمها عمر، وأدخلها فى المسجد. ثم زاد فيه عثمان -رضي الله عنه-، وبناه بقوة وباشره بنفسه، فكان يظل فيه نهاره، وبيضه وأتقن محله بالحجارة المنقوشة، ووسعه من جهاته إلا جهة الشرق منها، وجعل له سوارى حجارة مثبتة بأعمدة الحديد والرصاص، وسقفه بالساج، وصنع له محرابا(١).

---

(١) المحراب: مقام الإمام فى المسجد، والجمع محاريب. الوجيز ص(١٤٢).

وقيل: إن مروان هو أول من بنى المحراب. وقيل: عـمر بن عبد العزيز فى خلافة الوليد - ثم زاد فيه الوليد بـن عبد الملك. تولى ذلك عمر بن عبد العزيز فـوسعـه، وحسنه وبالغ فى إتقـانه، وعمله بالرخـام والساج المذهب. وكان الوليد بعث إلى ملك الروم: أريد أن أبنى مـسجد نبينا -ﷺ-، فأعنى فيه. فبعث إليه الفعلة، وثمـانين ألف مثقال من الذهب. وأمر الوليد بإدخال حجـر أزواج النبى -ﷺ- فيـه، فاشـترى عـمر من الدور مـا زاد فى ثلاث جهات من المسجد. فلما صار إلى القبلة، امتنع عبيد الله بن عبد الله بن عمر من بيع دار حفصة، ودار بينهما الكلام حتى ابتاعها عمر، على أنه له ما بقى منها، وعلى أن يخرجوا من باقيهـا طريقًا إلى المسجد، وهى الخوخة التى فى المسجد، وجعل عـمر المسجد أربع صوامع فى أربعة أركـانه، وكانت إحداها مطلة على دار مروان. فلما حـج سليمان بن عبد الملك نزل بهـا، فأطل عليه المؤذن حين الأذان. فأمر بهدمها، وجعل عمر للمسجد محرابًا.

ويقال: هو أول من أحدث المحـراب. ثم زاد فيه المهدى بن أبى جـعفر المنصور. وكان أمرهم بذلك. ولـم يقض له، وكتب إليه الحسن بن زيد يرغبه فى الزيادة فـيه من جـهة الشـرق، ويقول: إنه إن زيد فى شـرقيـه توسطت الروضة الكريمة المسجد الكريم. فاتهمه أبو جعفر بأنه إنما أراد هدم دار عثمان -رضي الله عنه-. فكتب إليه: إنـى قد عرفت الذى أردت، فـاكفف عن دار عثـمان وأمر أبو جـعفر أن يظلل الصـحن أيام القيظ بسـتور تنشر على حـبال ممدودة على خـشب، تكون فى الصـحن، لتكن[1] المصلين من الحـر، وكـان طول المسجد في بناء الوليـد مائتى ذراع. فبلغه المهـدى إلى ثلاثمائة ذراع، وسّوى المقصـورة بالأرض، وكانت مرتفـعة عنهـا بمقدار ذراعين. وكتب اسـمه على مواضع من المسجد. ثم أمـر الملك المنصور قلاوون ببناء دار للوضوء عند باب السلام - فتولى بناءها الأمـير الصالح علاء الدين المعروف بالأقمـر. وأقامها متسعة الفناء تستدير بها البيوت، وأجرى إليها الماء. وأراد أن يبنى بمكة شرّفها

(١) يعنى: تسترهم، يُقال: كن الشيءَ يكنه كنًّا: ستره. الوجيز ص(٥٤٣).

الله تعالى مثل ذلك، فلم يتم له، فبناه ابنه الملك الناصر بين الصفا والمروة. وسيذكر إن شاء الله. قبلة مسجد رسول الله -ﷺ-. قبلة قطع وقيل: كان يشير جبريل له إلى سمتها وهو يقيمها. وروى أن جبريل -عليه السلام- أشار إلى الجبال، فتواضعت فتنحت حتى بدت الكعبة. فكان -ﷺ- يبنى وهو ينظر إليها عيانًا. وبكل اعتبار فهى قبلة قطع وكانت القبلة أول ورود النبى -ﷺ- المدينة إلى بيت المقدس. ثم حولت إلى الكعبة بعد ستة عشر شهراً. وقيل: بعد سبعة عشر شهراً.

قصة حنين المنبر الكريم

وفى الحديث أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم تسليمًا- كان يخطب إلى جذع نخلة بالمسجد، فلما صنع له المنبر وتحول إليه حنّ الجذع حنين الناقة إلى حوارها. وروى: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم تسليمًا- نزل إليه فالتزمه فسكن. وقال: لو لم ألتزمه لَحَنَّ إلى يوم القيامة. واختلفت الروايات فيمن صنع المنبر الكريم. فروى أن تميمًا الدارى -رضي الله عنه- هو الذى صنعه. وقيل: إن غلامًا للعباس -رضي الله عنه- صنعه، وقيل: غلام لامرأة من الأنصار وورد ذلك فى الحديث الصحيح. وصنع من طُرْفاء[1] الغابة، وقيل من الأثل[2]. وكان له ثلاث درجات. فكان رسول الله -ﷺ- يقعد على علياهن، ويضع رجليه الكريمتين فى وُسطاهن. فلما ولى أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- قعد على وسطاهن، وجعل رجليه على أولاهن. فلما ولى عمر -رضي الله عنه- جلس على أولاهن وجعل رجليه على الأرض، وفعل ذلك عثمان -رضي الله عنه- صدراً من خلافته، ثم ترقى إلى الثالثة. ولما أن صار الأمر إلى معاوية -رضي الله عنه- أراد نقل المنبر إلى الشام، فضج المسلمون. وعصفت ريح شديدة، وخسفت الشمس، وبدت النجوم نهاراً، وأظلمت الأرض، فكان

---

(١) الطرفاء: جنس من النبات منه أشجار وجنبات من الفصيلة الطرفاوية. الوجيز ص(٣٨٩).

(٢) الأثل: شجر طويل مستقيم، يُعَمِّر، جيد الخشب، واحدته: أثلة. الوجيز ص(٦).

الرجل يصادم الرجل ولايتبين مسلكه، فلما رأى ذلك معاوية تركه، وزاد فيه ست درجات من أسفله، فبلغ تسع درجات.

خطيب مسجد رسول الله -ﷺ- وإمامه

وكان الإمام بالمسجد الشريف فى عهد دخولى إلى المدينة بهاء الدين بن سلامة من كبار أهل مصر، وينوب عنه العالم الصالح الزاهد بقية المشايخ، عز الدين الواسطى، نفع الله به، وكان يخطب قبله ويقضى بالمدينة الشريفة سراج الدين عمر المصرى.

ويذكر أن سراج الدين هذا أقام فى خطة القضاء بالمدينة والخطابة بها نحو أربعين سنة، ثم إنه أراد الخروج بعد ذلك إلى مصر، فرأى رسول الله -ﷺ- فى النوم ثلاث مرات، فى كل مرة ينهاه عن الخروج منها، وأخبره باقتراب أجله، فلم ينته عن ذلك وخرج، فمات بموضع يقال له: سويس، على مسيرة ثلاث من مصر، قبل أن يصل إليها، نعوذ بالله من سوء الخاتمة. وكان ينوب عنه الفقيه أبو عبد الله محمد بن فرحون رحمه الله، وأبناؤه الآن بالمدينة الشريفة: أبو محمد عبد الله مدرس المالكية، ونائب الحكم، وأبو عبد الله محمد وأصلهم من مدينة تونس، ولهم بها حسب وأصالة. وتولى الخطابة والقضاء بالمدينة الشريفة بعد ذلك جمال الدين الأسيوطى من أهل مصر، وكان قبل ذلك قاضيًا بحصن الكرك.

خدام المسجد الشريف وسدنته والمؤذنون به

وخدام هذا المسجد الشريف وسَدَنته[1] فتيان من الأحابيش وسواهم وهم على هيئات حسان، وصور نظاف، وملابس ظراف، وكبيرهم يعرف بشيخ الخدام، وهو فى هيئة الأمراء الكبار، ولهم المرتبات بديار مصر والشام، ويؤتى إليهم بها فى كل سنة، ورئيس المؤذنين بالحرم الشريف الإمام المحدث

(١) يُقال: سدن يسدُن سدنا: وسدانة، وسدانا: خدم الكعبة، والسادن: خادم الكعبة، والجمع: سدنة. الوجيز ص(٣٠٧).

الفاضل جمال الدين المطرى، من مطرية قرية بمصر، وولده الفاضل عفيف الدين عبد الله، والشيخ المجاور الصالح أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد الغرناطى المعروف بالتراس، قديم المجاورة، وهو الذى جب[1] نفسه خوفًا من الفتنة.

وكان أبو عبد الله الغرناطى خديمًا لشيخ يسمى عبد الحميد العجمى، وكان الشيخ حسن الظن به، يطمئن إليه بأهله، ويتركه متى سافر بداره، وتركه على عادته بمنزله، فعلقت به زوجة الشيخ عبد الحميد وراودته عن نفسه، فقال: إنى أخاف الله ولا أخون من ائتمننى على أهله وماله. فلم تزل تراوده وتعارضه حتى خاف على نفسه الفتنة فجبّ نفسه، وغشى عليه، ووجده الناس على تلك الحالة، فعالجوه حتى برئ، وصار من خدام المسجد الكرام، ومؤذنًا به، ورأس الطائفين به. وهو باقٍ بقيد الحياة إلى هذا العهد.

وكان من المجاورين[2] بالمدينة المنورة الشيخ الصالح الفاضل أبو العباس أحمد بن محمد مرزوق كثير العبادة والصوم والصلاة بمسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم تسليمًا- صابراً محتسبًا، وكان ربما جاور بمكة المعظمة، رأيته بها فى سنة ثمانٍ وعشرين، وهو أكثر الناس طوافًا وكنت أعجب من ملازمته الطواف مع شدة الحر بالمطاف، والمطاف مفروش بالحجارة السود: وتصير بحر الشمس كأنها الصفائح المحماة. ولقد رأيت السقائين يصبون الماء عليها فما يجاوز الموضع الذى يصبب فيه إلا ويلتهب الموضع من حينه. وأكثر الطائفين فى ذلك الوقت يلبسون الجوارب وكان أبو العباس بن مرزوق يطوف حافى القدمين، ورأيته يومًا يطوف، فأحببت أن أطوف معه فوصلت المطاف، وأردت استلام الحجر الأسود، فلحقنى لهب تلك الحجارة، وأردت الرجوع بعد تقبيل الحجر، فما وصلته إلا بعد جهد عظيم، ورجعت فلم أطف ورجعت أجعل نجادى على الأرض وأمشى عليه، حتى بلغت

---

(١) جب نفسه: قطع ذكره.

(٢) يُقال جاور المسجد: اعتكف فيه فهو مجاور، والجمع مجاورون. الوجيز ص(١٢٦).

الرواق. وكان فى ذلك العهد بمكة وزير غرناطة وكبيرها أبو القاسم محمد بن محمد ابن الفقيه أبى الحسن سهل بن مالك الأزدى. وكان يطوف كل أسبوع سبعين طوافًا، ولم يكن يطوف فى وقت القائلة لشدة الحر. وكان ابن مرزوق يطوف فى شدة القائلة زيادة عليه. ومن المجاورين بالمدينة كرمها الله الشيخ الصالح العابد سعيد المراكشى الكفيف، ومنهم أبو مهدى بمكة عيسى بن حزرون المكناسى.

وجاور الشيخ أبو مهدى بمكة سنة ثمان وعشرين، وخرج إلى جبل حراء مع جماعة من المجاورين، فلما صعدوا الجبل ووصلوا لمتعبد النبى -صلى الله عليه وسلم تسليمًا- ونزلوا عنه، تأخر أبو مهدى عن الجماعة، ورأى طريقًا فى الجبل، فظنه قصيرًا فسلك عليه، ووصل أصحابه إلى أسفل الجبل فانتظروه فلم يأت، فتطلعوا فيما حولهم فلم يروا له أثرًا فظنوا أنه سبقهم فمضوا إلى مكة شرفها الله تعالى، ومضى عيسى فى طريقه، فأفضى به إلى جبل آخر، وتاه عن الطريق، وأجهده العطش والحر، وتمزقت نعله، فكان يقطع من ثيابه ويلف على رجليه إلى أن ضعف عن المشى، واستظل بشجرة أم غيلان(١). فبعث الله أعرابيًّا على جمل، حتى وقف عليه: فأعلمه بحاله، فأركبه وأوصله إلى مكة، وكان على وسطه هميان(٢) فيه ذهب فسلمه إليه، وأقام نحو شهر لا يستطيع القيام على قدميه، وذهبت جلدتهما ونبتت لهما جلدة أخرى. وقد جرى مثل ذلك لصاحب لى أذكره إن شاء الله. ومن المجاورين بالمدينة الشريفة أبو محمد الشروى من القراء المحسنين، وجاور بمكة فى السنة المذكورة. وكان يقرأ بها كتاب الشفاء للقاضى عياض بعد الظهر، وأمَّ فى التراويح. وبها من المجاورين الفقيه أبو العباس الفاسى مدرس المالكية بها، وتزوج ببنت الشيخ الصالح شهاب الدين الزرندى.

---

(١) شجرة أم غيلان: هى شجرة السمر.
(٢) الهِمْيَانُ: كيس للنفقة يشد فى الوسط. الوجيز ص(٦٥٣).

ويذكر أن أبا العباس الفاسى تكلم يومًا مع بعض الناس فانتهى به الكلام إلى أن تكلم بعظيمة ارتكب فيها بسبب جهله بعلم النسب، وعدم حفظه للسانه مركبًا صعبًا عفا الله عنه، فقال الحسين بن على بن أبى طالب -عليهما السلام- لم يعقب. فرفع كلامه إلى أمير المدينة طفيل بن منصور بن جماز الحسنى(١)، فأنكر كلامه، وبحق إنكاره، وأراد قتله. فكلم فيه فنفاه عن المدينة. ويذكر أنه بعث من اغتاله وإلى الآن لم يظهر له أثر نعوذ بالله من عثرات اللسان وزلله.

أما أمير المدينة المنورة فكان كبيش بن منصور بن جماز. وكان قد قتل عمه مقبلاً. ويقال: إنه توضأ بدمه. ثم إن كبيشًا خرج سنة سبع وعشرين إلى الفلاة فى شدة الحر ومعه أصحابه، فأدركتهم القائلة فى بعض الأيام، فتفرقوا تحت ظلال الأشجار فما راعهم إلا وأبناء مقبل فى جماعة من عبيدهم ينادون: يا لثارات مقبل، فقتلوا كبيش بن منصور صبراً، ولعقوا دمه. وتولى بعده أخوه طفيل بن منصور، الذى ذكرنا أنه نفى أبا العباس الفاسى.

بعض المشاهد الكريمة خارج المدينة المنورة

يقع بقيع الغرقد شرقى المدينة المنورة، ويخرج إليه على باب يعرف بباب البقيع. فأول ما يلقى الخارج إليه على يساره عند خروجه من الباب قبر صفية بنت عبد المطلب -رضي الله عنها-، وهى عمة رسول الله -صلى الله عليه وسلم تسليمًا- وأم الزبير بن العوّام -رضي الله عنه-، وأمامها قبر إمام المدينة أبى عبد الله مالك بن أنس -رضي الله عنه-، وعليه قبة صغيرة مختصرة البناء، وأمامه قبر السلالة الطاهرة المقدسة النبوية الكريم إبراهيم بن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعليه قبة بيضاء، وعن يمينها تربة عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب -رضي الله عنهما- وهو المعروف بأبى شحمة، وبإزائه قبر عقيل بن أبى طالب -رضي الله عنه-، وقبر عبد الله بن ذى الجناحين جعفر بن أبى طالب -رضي الله عنه-، وبإزائهم روضة

---

(١) فى نسخة: «الحسينى».

فيها قبور أمهات المؤمنين رضى الله عنهن، ويليها روضة فيها قبر العباس ابن عبد المطلب عم رسول الله -ﷺ-، وقبر الحسن بن على بن أبى طالب -عليهما السلام-، وهى قبة ذاهبة فى الهواء بديعة الإحكام، عن يمين الخارج من باب البقيع، ورأس الحسن إلى رجلى العباس عليهما السلام، وقبرهما مرتفعان عن الأرض، متسعان مغشيان بألواح بديعة الالتصاق، مرصعة بصفائح الصفر البديعة العمل. وبالبقيع قبور المهاجرين والأنصار وسائر الصحابة -رضي الله عنهم-. إلا أنها لا يعرف أكثرها. وفى آخر البقيع قبر أمير المؤمنين أبى عمرو عثمان بن عفان -رضي الله عنه-، وعليه قبة كبيرة وعلى مقربة منه قبر فاطمة بنت أسد بن هاشم أم على بن أبى طالب -رضى الله عنها وعن ابنها- وفيها قبر حليمة السعدية مرضع رسول الله -ﷺ- و-رضي الله عنها-.

ومن المشاهد الكريمة قباء، وهو قبلى المدينة، على نحو ميلين منها والطريق بينهما فى حدائق النخل، وبه المسجد الذى أسس على التقوى والرضوان. وهو مسجد مربع فيه صومعة بيضاء طويلة تظهر على البعد وفى وسطه مبرك الناقة بالنبى -ﷺ-، يتبرك الناس بالصلاة فيه، وفى الجهة القبلية من صحنه محراب على مصطبة، وهو أولُ موضعٍ رَكَعَ فيه النبىُّ -ﷺ-. وفى قبلى المسجد دار كانت لأبى أيوب الأنصارى. ويليها دور تنسب لأبى بكر وعمر وفاطمة وعائشة -رضي الله عنهم-. وبإزائه بئر أريس، وهى التى عاد ماؤها عذبًا لما تفل فيه النبى -ﷺ-، بعد أن كان أجاجًا، وفيها وقع الخاتم الكريم من عثمان -رضي الله عنه-.

ومن المشاهد فيه حجر الزيوت بخارج المدينة المنورة. يقال: إن الزيت رشح من حجر هنالك للنبى -ﷺ-. وإلى جهة الشمال منه بئر بضاعة. وبإزائها جبل الشيطان، حيث صرخ يوم أحد وقال: قد قتلت نبيكم. وعلى شفير الخندق الذى حفره رسول الله -ﷺ- عند تحزب الأحزاب، حصن خرب يعرف بحصن العزاب. يقال: إن عمر بناه لعزاب المدينة. وأمامه إلى جهة الغرب بئر رومة التى اشترى أمير المؤمنين عثمان -رضي الله عنه- نصفها بعشرين

ألفًا. ومن المشاهد الكريمة أحُد، وهو الجبل المبارك الذى قال فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم تسليمًا-: «إن أحدًا جبل يحبنا ونحبه»[1] وهو بجوار المدينة المنورة، على نحو فرسخ منها، وبإزائه الشهداء المكرمون -رضي الله عنهم-. وهنالك قبر حمزة عم رسول الله -ﷺ- و -رضي الله عنه-، وحوله الشهداء المستشهدون فى أحد -رضي الله عنهم-، وقبورهم لقبلى أحد. وفى طريق أحد مسجد ينسب لعلى بن أبى طالب -رضي الله عنه-، ومسجد ينسب إلى سلمان الفارسى -رضي الله عنه-، ومسجد الفتح حيث أنزلت سورة الفتح على رسول الله -ﷺ-. وكانت إقامتنا بالمدينة المنورة فى هذه الوجهة أربعة أيام: وفى كل ليلة نبيت بالمسجد الكريم، والناس قد حلّقوا فى صحنه حلقًا، وأوقدوا الشمع الكبير. وبينهم ربعات القرآن الكريم يتلونه، وبعضهم يذكرون الله، وبعضهم فى مشاهدة التربة الطاهرة، زادها الله طيبًا، والحداة بكل جانب يترنمون بمدح رسول الله -ﷺ-. وهكذا دأب الناس فى تلك الليالى المباركة، ويجودون بالصدقات الكثيرة على المجاورين والمحتاجين. وكان فى صحبتى فى هذه الوجهة من الشام إلى المدينة المنورة رجل من أهلها فاضل يعرف بمنصور بن شكل، وأضافنى بها. واجتمعنا بعد ذلك بحلب وبخارى. وكان فى صحبتى أيضًا قاضى الزيدية شرف الدين قاسم بن شنان، وصحبنى أيضًا أحد الصلحاء الفقراء من أهل غرناطة، يسمى بعلى بن حجر الأموى.

ولما وصلنا إلى المدينة المنورة كرمها الله وزادها شرفًا وتعظيمًا، على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام، ذكر لى على بن حجر المذكور أنه رأى تلك الليلة فى النوم قائلاً يقول له: اسمع منى واحفظ عنى:

هنيئًا لكم يا زائرين ضريحه ... أمنتم به يومَ المعاد من الرِّجْس
وصلتمْ إلى قبرِ الحبيبِ بطيْبَةٍ ... فَطُوبَى[2] لمن يُضحى بِطيبةَ أو يُمسى

(١) الحديث أخرجه البخارى (١٤٨١)، ومسلم (١٣٩٢) من حديث أبى حميد الساعدى -رضي الله عنه-.

(٢) الطوبى: الحسنى والخير، وفى القرآن الكريم: ﴿طوبى لهم وحسن مآب﴾. الوجيز ص(٣٩٦).

وجاور هذا الرجل بعد صحبه بالمدينة. ثم رحل إلى مدينة دهلى قاعدة بلاد الهند، فى سنة ثلاث وأربعين، فنزل فى جوارى. وذكرت حكاية رؤياه بين يدى ملك الهند، فأمر بإحضاره، فحضر بين يديه، وحكى له ذلك، فأعجبه واستحسنه، وقال له كلامًا جميلاً بالفارسية، وأمر بإنزاله، وأعطاه ثلاثمائة تنكة من ذهب. ووزن التنكة من دنانير المغرب ديناران ونصف دينار، وأعطاه فرسًا محلى بالسرج واللجام، وخلعة، وعين له مرتبًا فى كل يوم. وكان هنالك فقيه طيب من أهل غرناطة، ومولوده ببجاية، يعرف هنالك بجمال الدين المغربى. فصحبه على بن حجر المذكور، وواعده على أن يزوجه بنته. وأنزله بدويرة خارج داره، واشترى جارية وغلامًا. وكان يترك الدنانير فى مفرش ثيابه ولا يطمئن بها لأحد. فاتفق الغلام والجارية على أخذ ذلك الذهب. وأخذاه وهربا. فلما أتى الدار لم يجد لهما أثرًا، ولا للذهب. فامتنع من الطعام والشراب، واشتد به المرض أسفًا على ما جرى عليه، فعرضت قضيته بين يدى الملك، فأمر أن يخلف له ذلك، وبعث إليه من يعلمه بذاك، فوجدوه قد مات -رحمه الله تعالى-. وكان رحيلنا من المدينة، نريد مكة شرفهما الله تعالى. فنزلنا بقرب مسجد ذى الحليفة الذى أحرم منه رسول الله -ﷺ-، والمدينة منه على خمسة أميال، وهو منتهى حرم المدينة. وبالقرب منه وادى العقيق. وهنالك تجردت من مخيط الثياب واغتسلت ولبست ثوب إحرامى وصليتُ ركعتين وأحرمت بالحج مفردًا. ولم أزل مُلَبِّيًا فى كل سهل وجبل وصعود وحدور[١] إلى أن أتيت شعب على -عليه السلام-، وبه نزلت تلك الليلة.

ثم رحلنا منه ونزلنا بالروحاء، وبها بئر تعرف ببئر ذات العلم. ويقال: إن عليًّا -عليه السلام- قاتل بها الجن.

ثم رحلنا ونزلنا بالصفراء. وهو واد معمور، فيه ماء ونخل وبنيان، وقصر يسكنه المؤمنون الحسنيون وسواهم، وفيها حصن كبير، وتواليه حصون كثيرة وقرى متصلة.

---

(١) يُقال حدر الشيء حدورًا: أنزله من علو إلى سفل. الوجيز ص(١٤٠).

ثم رحلنا منه، ونزلنا ببدر حيث نصر الله رسوله -ﷺ-، وأنجز وعده الكريم واستأصل صناديد المشركين. وهى قرية فيها حدائق نخل متصلة، وبها حصن منيع يُدخل من بطن وادٍ بين جبال. وببدر عين فوارة يجرى ماؤها موضع القليب الذى سبح به أعداء الله المشركون. هو اليوم بستان. وموضع الشهداء -رضي الله عنهم- خلفه. وجبل الرحمة الذى نزلت به الملائكة على يسار الداخل منه إلى الصفراء، وبإزائه جبل الطبول، وهو شبه كثيب الرمل ممتد. ويزعم أهل تلك البلدة أنهم يسمعون هنالك مثل أصوات الطبول فى كل ليلة جمعة وموضع عريش رسول الله -ﷺ- الذى كان به يوم بدر، يناشد ربه جلّ وتعالى، متصل بسفح جبل الطبول، وموضع الواقعة أمامه، وعند نخل القليب مسجد يقال له مبرك ناقة رسول الله -ﷺ-. وبين بدر والصفراء نحو بريد فى وادٍ بين جبال تطرد فيه العيون، وتتصل حدائق النخل.

ورحلنا من بدر إلى الصحراء المعروفة بقاع البزواء، وهى برية يضل بها الدليل، ويذهل عن خليله الخليل. مسيرة ثلاث وفى منتهاها وادى رابغ، يتكون فيه المطر غدرانًا[١] يبقى بها الماء زمانًا طويلاً، ومنه يحرم حجاج مصر والمغرب، وهو دون الجحفة. وسرنا من رابغ ثلاثًا إلى خليص، ومررنا بعقبة السويق، وهى على مسافة نصف يوم من خليص، كثيرة الرمل والحجاج يقصدون شرب السويق بها، ويستصحبونه من مصر والشام برسم ذلك، ويسقونه الناس مخلطًا بالسكر. والأمراء يملأون منه الأحواض، ويسقونها الناس ويذكرون أن رسول الله -ﷺ- مر بها، ولم يكن مع أصحابه طعام فأخذ من رملها فأعطاهم إياه فشربوه سويقًا. ثم نزلنا بركة خليص وهى فى بسيط من الأرض، كثيرة حدائق النخل، ولها حصن مشيد فى قنة[٢] جبل. وفى البسيط حصن خرب، وبها عين فوارة صنعت لها أخاديد فى الأرض، وسربت إلى الضياع. وصاحب خليص شريف حسنى النسب. وعرب تلك

(١) الغدران جمع غدير، والغدير: القطعة من الماء يغادرها السيل، والغدير: النهر الصغير. الوجيز ص(٤٤٦).

(٢) القُنّة: أعلى الشيء. الوجيز ص(٥١٨).

الناحية يقيمون هنالك سوقًا عظيمة يجلبون إليها الغنم والتمر والإدام. ثم رحلنا إلى عسفان، وهى فى بسيط من الأرض، بين جبال، وبها آبار ماء معين، تنسب إحداها إلى عثمان بن عفان -رضي الله عنه-. والمدرج المنسوب إلى عثمان أيضًا على مسافة نصف يوم من خليص، وهو مضيق بين جبلين. وفى موضع منه بلاط على صورة درج، وأثر عمارة قديمة. وهنالك بئر تنسب إلى على -عليه السلام-، ويقال: إنه أحدثها. وبعسفان حصن عتيق وبرج مشيد قد أوهنه الخراب، وبه من شجر المقل كثير. ثم رحلنا من عسفان، ونزلنا بطن مَرّ، يسمى أيضًا مر الظهران، وهو واد مخصب كثير النخل، ذو عين فوارة سيالة تسقى تلك الناحية. ومن هذا الوادى تجلب الفواكه والخضر إلى مكة شرفها الله تعالى. ثم أدلجنا من هذا الوادى المبارك، والنفوس مستبشرة ببلوغ آمالها مسرورة بحالها ومآلها، فوصلنا عند الصباح إلى البلد الأمين مكة شرفها الله تعالى، فوردنا منها على حرم الله تعالى، ومبوأ خليله إبراهيم، ومبعث صفيه محمد -صلى الله عليه وسلم-. ودخلنا البيتَ الحرامَ الشريفَ الذى من دخله كان آمنًا من باب بنى شيبة، وشاهدنا الكعبةَ الشريفةَ، زادها الله تعظيمًا؛ وهى كالعروس تجلى على منصة الجلال، وترفل[1] فى برود الجمال، محفوفة بوفود الرحمن، موصلة إلى جنة الرضوان. وطفنا بها طواف القدوم، واستلمنا الحجر الكريم، وصلينا ركعتين بمقام إبراهيم، وتعلقنا بأستار الكعبة عند الملتزم بين الباب والحجر الأسود، حيث يستجاب الدعاء، وشربنا من ماء زمزم، وهو لما شرب له حسبما ورد عن النبى -صلى الله عليه وسلم تسليمًا-[2] ثم سعينا بين الصفا والمروة، ونزلنا هنالك بدار، بمقربة من باب إبراهيم - والحمد لله الذى شرفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم، وجعلنا ممن بلغنا دعوة الخليل -عليه الصلاة والتسليم-، ومتع أعيننا بمشاهدة الكعبة الشريفة والمسجد العظيم والحجر الكريم وزمزم والحطيم.

---

(١) رفل يرفُل رفلاً، ورفولاً، ورفلانًا: جر ذيله وتبختر فى سيره فهو رافل. الوجيز ص(٢٧٢).

(٢) ورد ذلك فى حديث جابر بن عبد الله بلفظ: «ماء زمزم لما شُرب له»، أخرجه ابن ماجه (٣٠٦٢)، وأحمد (٣/ ٣٥٧) وصححه الألبانى فى «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٤٨٤).

ومن عجائب صنع الله تعالى أنه طبع القلوب على النزوع إلى هذه المشاهد المنيفة، والشوق إلى المثول بمعاهدها الشريفة، وجعل حبها متمكنًا فى القلوب، فلا يحلها أحد إلا أخذت بمجاميع قلبه، ولا يفارقها إلا أسفًا لفراقها، متولهًا(١) لبعاده عنها، شديد الحنين إليها، ناويًا لتكرار الوفادة عليها، فأرضها المباركة نصب الأعين، ومحبتها حشو القلوب. حكمة من الله بالغة، وتصديقًا لدعوة خليله -عليه السلام-.

والشوق يحضرها وهى نائية، ويمثلها وهى غائبة، ويهون على قاصدها ما يلقاه من المشاق ويعانيه من العناء. وكم من ضعيف يرى الموت عيانًا دونها، ويشاهد التلف فى طريقها. فإذا جمع الله بها شمله، تلقاها مسرورًا مستبشرًا، كأنه لم يذق لها مرارة ولا كابد محنة ولا نصبًا. إنه لأمر إلهى، وصنع ربانى، ودلالة لا يشوبها لبس، ولا تغشاها شبهة، ولا يطرقها تمويه. وتعز فى بصيرة المستبصرين، وتبدو فى فكرة المتفكرين - ومن رزقه الله تعالى الحلول بتلك الأرجاء، والمثول بذلك الفناء، فقد أنعم الله عليه النعمة الكبرى، وخوّله خير الدارين: الدنيا والأخرى. فحق عليه أن يكثر الشكر على ما خوّله، ويديم الحمد على ما أولاه. جعلنا الله تعالى ممن قبلت زيارته، وربحت فى قصدها تجارته، وكتبت فى سبيل الله آثاره، ومحيت بالقبول أوزاره، بمنّه وكرمه.

مدينة مكة المكرمة

وهى مدينة كبيرة متصلة البنيان مستطيلة، فى بطن واد تحف به الجبال، فلا يراها قاصدها حتى يصل إليها. وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة الشموخ. والأَخْشَبَانِ من جبالها هما جبل أبى قبيس، وهو فى جهة الجنوب والشرق منها، وجبل قعيقعان، وهو فى جهة الغرب منها. وفى الشمال منها الجبل الأحمر. ومن جهة أبى قبيس أجياد الأكبر، وأجياد الأصغر، وهما

(١) يُقال: وله فلان يلَه ولَهًا: اشتد حزنه حتى ذهب عقله، أو: تحير من شدة الوجد. الوجيز ص(٦٨١).

شعبان والخندمة، وهى جبل، وستذكر. (والمناسك كلها: منى وعرفة والمزدلفة) بشرقى مكة شرفها الله. ولمكة من الأبواب ثلاثة: باب المعلى بأعلاها، وباب الشبيكة من أسفلها، ويعرف أيضًا بباب العمرة، وهو إلى جهة المغرب، وعليه طريق المدينة الشريفة، ومصر والشام وجدة. ومنه يتوجه إلى التنعيم، وسيذكر ذلك، وباب المسفل، وهو من جهة الجنوب، ومنه دخل خالد بن الوليد -ﷺ- يوم فتح مكة شرفها الله، كما أخبر الله فى كتابه العزيز حاكيًا عن نبيه الخليل بوادٍ غير ذى زرع(١). ولكن سبقت لها الدعوة المباركة، فكل طرفة تجلب إليها، وثمرات كل شيء تجبى لها. ولقد أكلت بها من الفواكه العنب والتين والخوخ والرطب ما لا نظير له فى الدنيا، وكذلك البطيخ المجلوب إليها لا يماثله سواه طيبًا وحلاوة، واللحوم بها سمان لذيذات الطعوم. وكل ما يفترق فى البلاد من السلع، فيها اجتماعه. وتجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ووادى نخلة وبطن مر، لطفًا من الله بسكان حرمه الأمين ومجاورى بيته العتيق.

المسجد الحرام شرفه الله وكرمه

والمسجد الحرام فى وسط البلد. وهو متسع الساحة. طوله من شرق إلى غرب أزيد من أربعمائة ذراع، حكى ذلك الأزرقى، وعرضه يقرب من ذلك. والكعبة العظمى فى وسطه. ومنظره بديع. ومرآه جميل. لا يتعاطى اللسان وصف بدائعه، ولا يحيط الواصف بحسن كماله. وارتفاع حيطانه نحو عشرين ذراعا، وسقفه على أعمدة طوال مصطفة ثلاثة صفوف، بأتقن صناعة وأجملها. وقد انتظمت بلاطاته الثلاث انتظامًا عجيبًا كأنها بلاط واحد وعدد سواريه الرخامية أربعمائة وإحدى وتسعون سارية ما عدا الجصية التى فى دار الندوة المزيدة فى الحرم، وهى داخلة فى البلاط الآخذ فى الشمال. ويقابلها

---

(١) وذلك كما فى قوله تعالى: ﴿ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ [إبراهيم: ٣٧].

المقام مع الركن العـراقى. وفضاؤها متصل، يدخل من هذا البـلاط إليه، ويتصل بجدار هذا الـبلاط مساطب تحت قسى (حنايا) يجـلس بها المقرئون والنسّاخـون والخياطـون. وفى جدار البلاط الذى يقـابله مسـاطب تماثلها. وسـائر البلاطات تحت جـدرانها مـساطب بـدون حنايا. وعند باب إبراهيم مدخل من البلاط الغربى فيه سوارٍ جصية. وللخليفة المهدى ابن الخليفة أبى جعفـر المنصور -رضي الله عنه- آثار كريمةٌ فى توسيع المسـجد الحرام وإحكام بنائه. وفى أعلى جدار البـلاط الغربى مكتوب أمـر عبد الله مـحمد المهدى أمـير المؤمنين أصلحه الله بتوسـعة المسجد الحرام لحـاج بيت الله وعمارته فى سنة سبع وستين ومائة.

الكعبة المعظمة الشريفة زادها الله تعظيمًا وتشريفًا

والكعبةُ ماثلةٌ فى وسط المسجد، وهى بنية مربعة ارتفاعها فى الهواء من الجهـات الثلاث ثمـانٍ وعشرون ذراعـًا، ومن الجهـة الرابعة التى بين الحـجر الأسود والركن اليمانىّ تسع وعشرون ذراعًا، وعرض صفحتها التى من الركن العراقى إلى الحجر الأسود أربعة وخمسـون شبرًا وكذلك عرض الصفحة التى تقابلها من الركن اليمانى إلى الركن الشامى، وعرض صفحتها التى من الركن العراقى إلى الركن الشـامى من داخل الحجر ثمـانية وأربعون شبـرًا، وكذلك عرض الصفحة التى تقابلها من الركن الشامى إلى الركن العراقى، وأما خارجُ الحجرِ فإنه مائةٌ وعشرون شبرًا والطواف إنما هو خارج الحجر وبناؤها بالحجارة الصم السمر، قد ألصقت بأبدع الإلصاق وأحكمه وأشده، فلا تغيرها الأيام، ولا تؤثر فيها الأزمان وباب الكعبة المعظمة فى الصفح الذى بين الحجر الأسود والركن العراقى، وبينه وبين الحـجر الأسود عشرة أشـبار، وذلك الموضع هو المسمى بالملتزم، حيث يستجـاب الدعاء. وارتفاع الباب عن الأرض أحد عشر شبرًا ونصـف شبر، وسعتـه ثمانية أشبـار، وطوله ثلاثة عشر شـبرًا وعرض الحائط الذى ينطوى عليه خـمسة أشبار، وهو مصفح بصـفائح الفضة، بديع الصنعة، وعضادتاه وعتـبته العليا مصفحات بالفضـة، وله نقارتان كبيرتان من

فضة عليهما قفل، ويفتح الباب الكريم فى كل يوم جمعة بعد الصلاة، ويفتح فى يوم مولد النبى -ﷺ- ورسمهم فى فتحه أن يضعوا كرسيًّا شبه المنبر، له درج وقوائم خشب، لها أربع بكرات يجرى الكرسى عليها، ويلصقونه إلى جدار الكعبة الشريفة، فيكون درجه الأعلى متصلاً بالعتبة الكريمة، ثم يصعد كبير الشيبيين[1] وبيده المفتاح الكريم ومعه السدنة، فيمسكون الستر المسبل على باب الكعبة المسمى بالبرقع، بخلال ما يفتح رئيسهم الباب، فإذا فتحه قبل العتبة الشريفة، ودخل البيت وحده، وسد الباب، وأقام قدر ما يركع ركعتين، ثم يدخل سائر الشيبيين، ويسدون الباب أيضًا، ويركعون، ثم يفتح الباب، ويبادر الناس بالدخول، وفى أثناء ذلك يقفون مستقبلين الباب الكريم بأبصار خاشعة وقلوب ضارعة وأيدٍ مبسوطة إلى الله، فإذا فتح كبروا ونادوا: اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك يا أرحم الراحمين، وداخل الكعبة الشريفة مفروش بالرخام المجزع، وحيطانه كذلك وله أعمدة ثلاثة طوال مفرطة الطول من خشب الساج، بين كل عمود منها وبين الآخر أربع خُطًى وهى متوسطة فى الفضاء داخل الكعبة الشريفة، يقابل الأوسط منها نصف عرض الصفح الذى بين الركنين العراقى والشامى وستور الكعبة الشريفة من الحرير الأسود، مكتوب فيها بالأبيض، وهى تتلألأ عليها نورًا وإشراقًا، وتكسو جميعها من الأعلى إلى الأرض. ومن عجائب الآيات فى الكعبة الشريفة أن بابها يفتح، والحرم غاص بأمم لا يحصيها إلا الله الذى خلقهم ورزقهم، فيدخلونها أجمعين ولا تضيق عنهم، ومن عجائبها أنها لا تخلو عن طائف أبدًا ليلاً ولا نهارًا، ولم يذكر أحد أنه رآها قط دون طائف. ومن عجائبها أن حمام مكة وسواه من الطير، لا ينزل عليها ولا يعلوها فى الطيران وتجد الحمام يطير على أعلى الحرم كله فإذا حاذى الكعبة الشريفة عرج عنها إلى إحدى الجهات ولم يعلها ويقال لا ينزل عليها طائر إلا إذا كان به مرض

---

(١) الشيبيون: نسبةً إلى شيبة بن عثمان بن أبى طلحة الحجبى، أحد الصحابة، وكان يتولى حجابة البيت، وقد روى أن النبى -ﷺ- دفع إليه وإلى عثمان بن طلحة مفتاح البيت «تهذيب التهذيب» (٢/ ١٨٥).

فإما أن يموت لحينه أويبرأ من مرضه فسبحان الذى خصها بالتشريف والتكريم وجعل لها المهابة والتعظيم.

خبر الميزاب المبارك

والميزاب فى أعلى الصفح الذى على الحجر، وهو من الذهب، وسعته شبر واحد، وهو بارز بمقدار ذراعين. والموضع الذى تحت الميزاب مظنة استجابة الدعاء. وتحت الميزاب فى الحجر هو قبر إسماعيل -عليه السلام-، وعليه رخامة خضراء مستطيلة على شكل محراب، متصلة برخامة خضراء مستديرة، وكلتاهما سعتها مقدار شبر، وكلتاهما غريبة الشكل رائقة المنظر. وإلى جانبه مما يلى الركن العراقى قبر أمه هاجر -عليها السلام-، وعلامته رخامة خضراء مستديرة سعتها مقدار شبر ونصف وبين القبرين سبعة أشبار.

خبر الحجر الأسود

وأما الحجر الأسود فارتفاعه عن الأرض ستة أشبار فالطويل من الناس يتطامن[١] لتقبيله، والصغير يتطاول إليه وهو ملصق فى الركن الذى إلى جهة المشرق، وسعته ثلثا شبر، وطوله شبر وعقد، ولا يعلم قدر ما دخل منه فى الركن وفيه أربع قطع ملتصقة ويقال: إن القرمطى لعنه الله كسره وقيل: إن الذى كسره سواه، ضربه بدبوس فكسره، وتبادر الناس إلى قتله وقتل بسببه جماعة من المغاربة. وجوانب الحجر مشدودة بصفيحة من فضة، يلوح بياضها على سواد الحجر الكريم، فتنجلى منه العيون حسنًا باهرًا، ولتقبيله لذة يتنعم بها الفم، ويود لاثمه[٢] أن لا يفارق لثمه، خاصية مودعة فيه، وعناية ربانية به وكفى قول النبى -صلى الله عليه وسلم- إنه يمين الله فى أرضه، نفعنا الله باستلامه ومصافحته، وأوفد عليه كل شيق[٣] إليه. وفى القطعة الصحيحة من الحجر

(١) تطامن: اطمأن وسكن ولم يجد مشقة. الوجيز ص(٣٩٥).
(١) يُقال: لثَم فم المرأة لثْمًا: قَبَّلَهُ. الوجيز ص(٥٥١).
(٣) الشيق: المشتاق. الوجيز ص(٣٥٥).

الأسود، مما يلى جانبـه الموالى ليمين مستلمه، نقطـة بيضاء صغيرة مـشرقة، كأنها خال فى تلك الصحيفة البهـية وترى الناس إذا طافوا بها يتساقط بعضهم على بعض ازدحامًا على تقـبيله فقلما يتمكن أحد من ذلك إلا بـعد المزاحمة الشديدة، وكذلك يصنعون عند دخول الحـرم. ومن عند الحجر الأسود ابتداء الطواف وهو أول الأركان التى يلقاها الطائف، فإذا استلمه تقهقر[١] عنه قليلاً وجعل الكعـبة الشريفـة عن يساره، ومضى فى طوافـه، ثم يلقى بعده الركن العراقـى، وهو إلى جهة الشـمال، ثم يلقى الـركن الشامى، وهو إلى جـهة الغرب، ثم يلقى الركن اليمانى، وهو إلى جـهة الجنوب، ثم يعود إلى الحجر الأسود، وهو إلى جهة الشرق.

خبر المقام الكريم

اعلم أن بين باب الكعبـة شرفها الله وبين الركن العراقى مـوضعًا طوله اثنا عشـر شبرًا وعـرضه نحو النصف من ذلك، وارتفـاعه نحو شـبرين وهو مـوضع المقام فى مـدة إبراهيم -عليه السلام- ثم صرفـه النبى -صلى الله عليه وسلم- إلى الموضع الذى هو الآن مـصلى، وبقى ذلك الموضع شـبه الحـوض، وإليه ينصب مـاء البيت الحرام إذا غسل، وهو موضع مبارك يزدحم الناس للصلاة فيه. وموضع المقام الشريف يقـابل ما بين الركن العراقى والباب الشـريف، وهو إلى الباب أميل، وعليه قبة تحتها شبـاك حديد، متجاف عن المقام الشريف قدر ما تصل أصابع الإنسان إذا أدخل يـده من ذلك الشباك إلى الصندوق، والشبـاك مقفل ومن ورائه موضع محوز قد جعل مـصلى لركعتى الطواف. وفى الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما دخل المسجـد أتى البيت فطاف به سبعًـا، ثم أتى المقام فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[٢] وركع خلفه ركعتين[٣] وخلف المقام مصلى إمام الشافعية فى الحطيم الذى هنالك.

---

(١) تقهقر: رجع إلى خلف من غير أن يعيد وجهه إلى جهة مشيه. الوجيز ص(٥١٨).
(٢) سورة البقرة: ١٢٥.
(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢١٨)، ومسلم (١٢١٨)، والنسائى (٥/ ٢٣٦) عن جابر بن عبد الله.

خبر الحِجْر والمطاف

ودور جدار الحِجْر تسع وعشرون خطوة، وهى أربعة وتسعون شبراً من داخل الدائرة، وهو بالرخام البديع المجزع المحكم الإلصاق، وارتفاعه خمسة أشبار ونصف شبر، وسعته أربعة أشبار ونصف شبر. وداخل الحِجر بلاط واسع مفروش بالرخام المنظم المعجز الصنعة البديع الإتقان. وبين جدار الكعبة الشريفة الذى تحت الميزاب وبين ما يقابله من جدار الحِجر على خط استواء أربعون شبراً، وللحِجر مدخلان أحدهما بينه وبين الركن العراقى، وسعته ستة أذرع، وهذا الموضع هو الذى تركته قريش من البيت حين بنته، كما جاءت الآثار الصحاح، والمدخل الآخر عند الركن الشامى، وسعته أيضًا ستة أذرع وبين المدخلين ثمانية وأربعون شبراً، وموضع الطواف مفروش بالحجارة السود محكمة الإلصاق، وقد اتسعت عن البيت بمقدار تسع خُطىً إلا فى الجهة التى تقابل المقام الشريف، فإنها امتدت إليه حتى أحاطت به، وسائر الحرم مع البلاطات مفروش برمل أبيض، وطواف النساء فى آخر الحجارة المفروشة.

بئر زمزم

وقبة بئر زمزم تقابل الحجر الأسود، وبينهما أربع وعشرون خطوة، والمقام الشريف عن يمين القبة. ومن ركنها إليه عشر خُطىً. وداخل القبة مفروش بالرخام الأبيض، وتنور البئر المباركة فى وسط القبة، مائلاً إلى الجدار المقابل للكعبة الشريفة. وهو من الرخام البديع الإلصاق مفروغ بالرصاص. ودوره أربعون شبراً، وارتفاعه أربعة أشبار ونصف شبر، وعمق البئر إحدى عشرة قامة، وهم يذكرون أن ماءها يتزايد فى كل ليلة جمعة، وباب القبة إلى جهة الشرق، وقد استدارت بداخل سقاية سعتها شبر، وعمقها مثل ذلك، وارتفاعها عن الأرض نحو خمسة أشبار، تملأ ماء للوضوء، وحولها مسطبة يقعد الناس عليها للوضوء، ويلى قبة زمزم قبة الشراب المنسوبة إلى العباس - رضي الله عنه -، وبابها إلى جهة الشمال. وهى الآن يجعل بها ماء زمزم فى قلال

يسمونها الدوارق، وكل دورق له مقبض واحد وتترك بها ليبرد فيها الماء، فيشربه الناس، وبها اختزان المصاحف الشريفة، والكتب التى للحرم الشريف، وبها خزانة تحتوى على تابوت مبسوط متسع، فيه مصحف كريم بخط زيد بن ثابت -رضي الله عنه-، منتسخ سنة ثمانى عشرة من وفاة رسول الله -صلى الله عليه وسلم تسليمًا-. وأهل مكة إذا أصابهم قحط أو شدة أخرجوا هذا المصحف الشريف، وفتحوا باب الكعبة، ووضعوه على العتبة الشريفة، ووضعوه فى مقام إبراهيم -عليه السلام-، واجتمع الناس كاشفين رؤوسهم، داعين متضرعين متوسلين بالمصحف العزيز والمقام الشريف، فلا ينفصلون إلا وقد تداركهم الله برحمته، وتغمدهم(١) بلطفه. ويلى قبة العباس -رضى الله تعالى عنه- على انحراف منها القبة المعروفة بقبة اليهودية.

أبواب المسجد الحرام وما يحيط به من المشاهد الشريفة

وأبواب المسجد الحرام -شرفه الله تعالى- تسعة عشر بابًا، وأكثرها مفتحة على أبواب كثيرة، فمنها باب الصفا، وهو مفتح على خمسة أبواب، وكان قديمًا يعرف بباب بنى مخزوم، وهو أكبر أبواب المسجد، ومنه يخرج إلى المسعى، ويستحب للوافد على مكة أن يدخلَ المسجدَ الحرام شرفه الله من باب بنى شيبة، ويخرج بعد طوافه من باب الصفا جاعلاً طريقه بين الأسطوانتين اللتين أقامهما أمير المؤمنين المهدى -رحمه الله-، علمًا على طريق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى الصفا، ومنها باب أجياد الأصغر مفتح على بابين، ومنها باب الخياطين مفتح على بابين، ومنها باب العباس -رضي الله عنه- مفتح على ثلاثة أبواب، ومنها باب النبى -صلى الله عليه وسلم- مفتح على بابين، ومنها باب بنى شيبة، وهو فى ركن الجدار الشرقى من جهة الشمال، أمام باب الكعبة الشريفة متياسرًا، وهو مفتح على ثلاثة أبواب، وهو باب بنى عبد شمس، ومنه كان دخول الخلفاء، ومنها باب صغير إزاء باب بنى شيبة لا اسم

(١) يُقال: تغمّد فلانًا: ستر ما كان منه وغطاه. ويُقال: تغمد الله فلانًا برحمته: غمره بها. الوجيز ص(٤٥٤).

له، وقيل: يسمى باب الرباط، لأنه يدخل منه لرباط السدرة، ومنها: باب الندوة، ويسمى بذلك ثلاثة أبواب: اثنان منتظمان، والثالث فى الركن الغربى من دار الندوة، ودار الندوة قد جعلت مسجداً شارعًا[١] فى الحرم مضافًا إليه، وهى تقابل الميزاب، ومنها باب صغير لدار العجلة محدث، ومنها باب السدرة واحد، وباب العمرة واحد، وهو من أجمل أبواب الحرم، وباب إبراهيم واحد، والناس مختلفون فى نسبته، فبعضهم ينسبه إلى إبراهيم الخليل -عليه السلام-، والصحيح أنه منسوب إلى إبراهيم الخوزى من الأعاجم، وباب الحَزْوَرَة مفتح على بابين، وباب ثالث ينسب إليه مفتح على بابين، ويتصل بباب الصفا، ومن الناس من ينسب البابين من هذه الأربعة المنسوبة لأجياد إلى الدقاقين.

وصوامع المسجد الحرام خمس: إحداهن على ركن أبى قبيس عند باب الصفا، والأخرى على ركن باب بنى شيبة، والثالثة على باب دار الندوة، والرابعة على ركن باب السدرة، والخامسة على ركن أجياد. وبمقربة من باب العمرة مدرسة عمرها السلطان المعظم يوسف بن رسول ملك اليمن المعروف بالملك المظفر الذى تنسب إليه الدراهم المظفرية باليمن، وهو كان يكسو الكعبة، إلى أن غلبه على ذلك المنصور قلاوون - وبخارج باب إبراهيم زاوية كبيرة فيها دار إمام المالكية الصالح أبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن المدعو بخليل وعلى باب إبراهيم قبة عظيمة مفرطة السمو، قد صنع فى داخلها من غرائب صنع الجص ما يعجز عنه الوصف. وبإزاء هذا الباب عن يمين الداخل إليه كان يقعد الشيخ العابد جلال الدين محمد بن أحمد الأفشهرى، وخارج باب إبراهيم بئر تنسب كنسبته، وعنده أيضًا دار الشيخ الصالح دانيال العجمى الذى كانت صدقات العراق فى أيام السلطان أبى سعيد تأتى على يديه. وبمقربة منه رباط الموفق، وهو من أحسن الرباطات، سكنته أيام مجاورتى بمكة المعظمة. وكان به فى ذلك العهد الشيخ الصالح الطيار سعادة الجرانى،

---

(١) يعنى: داخلاً فيه.

ودخل يومًا إلى بيته بعد صلاة العصر فوُجِدَ ساجدًا مستقبلَ الكعبةِ الشريفة ميتًا من غير مرض كان به -رحمه الله-، وسكن به الشيخ الصالح شمس الدين محمد الشامى نحواً من أربعين سنة. وسكن به الشيخ الصالح شعيب المغربى من كبار الصالحين، دخلت عليه يومًا فلم يقع بصرى فى بيته على شىء سوى حصير فقلت له فى ذلك فقال لى: استر علىّ ما رأيت(١).

وحول الحرم الشريف دور كثيرة لها مناظر وسطوح يخرج منها إلى سطح الحرم، وأهلها فى مشاهدة البيت الشريف على الدوام، ودور لها أبواب تفضى إلى الحرم، منها دار زبيدة زوجة الرشيد أمير المؤمنين، ومنها دار العجلة، ودار الشرابى وسواها. ومن المشاهد المقدسة بمقربة من المسجد الحرام قبة الوحى، وهى فى دار خديجة أم المؤمنين -رضي الله عنها- بمقربة من باب الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وفى البيت قبة صغيرة حيث ولدت فاطمة عليها السلام، وبمقربة منها دار أبى بكر الصديق -رضي الله عنه-، ويقابلها جدار مبارك فيه حجر مبارك بارز، طرفه من الحائط يستلمه الناس، ويقال: إنه كان يسلم على النبى -صلى الله عليه وسلم-، ويذكر أن النبى -صلى الله عليه وسلم- سأل عن رجل فنطق ذلك الحجر، وقال: يا رسول الله إنه ليس بحاضر.

المسعى بين الصفا والمروة

ومن باب الصفا الذى هو من أبواب المسجد الحرام إلى الصفا ست وسبعون خطوة، وسعة الصفا سبع عشرة خطوة، وله أربع عشرة درجة علياهن كأنها مسطبة، وبين الصفا والمروة أربعمائة وثلاث وتسعون خطوة، منها من الصفا إلى الميل الأخضر ثلاث وتسعون خطوة، ومن الميل الأخضر إلى الميلين الأخضرين خمس وسبعون خطوة، ومن الميلين الأخضرين إلى المروة ثلاثمائة وخمس وعشرون خطوة. وللمروة خمس درجات، وهى ذات قوس واحد كبير وسعة المروة سبع عشرة خطوة. والميل الأخضر هو سارية

(١) يعنى: لا تخبر به أحدًا.

خضراء مثبتة مع ركن الصومعة التى على الركن الشرقى من الحرم عن يسار الساعى إلى المروة، والميلان الأخضران هما ساريتان خضراوان إزاء باب على من أبواب الحرم، أحدهما فى جدار الحرم عن يسار الخارج من الباب، والأخرى تقابلها، وبين الميل الأخضر والميلين الأخضرين يكون الرَّمَلُ[١] ذاهبًا وعائدًا، وبين الصفا والمروة مسيل[٢] فيه سوق عظيمة، يباع فيها الحبوب واللحم والتمر والسمن وسواها من الفواكه. والساعون بين الصفا والمروة لا يكادون يخلصون لازدحام الناس على حوانيت الباعة، وليس بمكة سوق منتظمة سوى هذه إلا البزازون والعطارون عند باب شيبة، وبين الصفا والمروة دار العباس -رضي الله عنه-، وهى الآن رباط يقطنه المجاورون عمَّره الملك الناصر رحمه الله، وبنى أيضًا دارَ وضوءٍ فيما بين الصفا والمروة سنة ثمان وعشرين، وجعل لها بابين أحدهما فى السوق المذكور والآخر فى العطارين. وعليها ربع يسكنه خدامها، وتولى بناء ذلك الأمير علاء الدين بن هلال، وعن يمين المروة دار أمير مكة سيف الدين عطيفة بن أبى نمى وسنذكره.

الجبانة المباركة

وجبانة مكة خارجة باب المعلّى، ويعرف ذلك الموضع بالحجون، وإياه عنى الحارث بن مضاض الجرهمى بقوله:

كأنْ لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيسٌ ولم يسمر بمكةَ سامرُ
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا ... صروفُ الليالى والجدودُ العواثرُ[٣]

وبهذه الجبانة مدفن الجم الغفير من الصحابة والتابعين والعلماء والصالحين والأولياء، إلا أن مشاهدهم دثرت، وذهب عن أهل مكة علمها فلا يعرف منها إلا القليل، فمن المعروف منها قبر أم المؤمنين، ووزير[٤] سيد

(١) الرمل: الهرولة فى الثلاثة الأشواط الأول.
(٢) المسيل: مجرى الماء وغيره. الوجيز ص(٣٣٢).
(٣) يُقال: عثر يعثُر عثرا وعثارا: زلَّ وكَبَا. الوجيز ص(٤٠٦).
(٤) يُقال: وازره على الأمر: أعانه وقواه. الوجيز ص(١٠٨).

المرسلين خديجـة بنت خويلد أم أولاد النبى -ﷺ-، كلهم ما عدا إبراهيم، وجدة السـبطين[١] الكريمين صلوات الله وسلامـه على النبى -ﷺ- وعليهم أجمعين. وبمقربة منه قبر الخليفة أمـير المؤمنين أبى جعفر المنصور عبد الله بن محمـد بن على بن عبد الله بن العـباس -رضى الله عنهم أجمعين-، وفـيها الموضع الذى صُلب فيه عبد الله بن الزبيـر -رضي الله عنهما-. وكان به بنية هدمها أهل الطائف غـيرة منهم لما كـان يلحق حجـاجهم المبـير[٢] من اللعن، وعن يمين مستقبل الجـبانة مسجد خراب، يقال إنه المسجـد الذى بايعت الجن فيه رسول الله -ﷺ- وعلى هذه الجبانة طريق الصـاعد إلى عرفات وطريق الذاهب إلى الطائف وإلى العراق.

المشاهد الواقعة خارج مكة

فمنهـا الحجون وقد ذكـرناه، ويقال أيضًا: إن الحجـون هو الجبل المطل على الجبانة، ومنها المحصب، وهو أيـضًا الأبطح، وهو يلى الجبانة المذكورة، وفيـه خيف بنى كنانة الـذى نزل به رسول الله -ﷺ-، ومنها ذو طوى وهو واد يهبط على قبور المهاجرين التى بالحـصحاص دون ثنية كداء، ويخرج منه إلى الأعلام الموضوعة حجزاً بين الحل والحرم. وكان عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- إذا قدم مكة شرفها الله تعـالى يبيت بذى طوى ثم يغتسل منه ويغدو إلى مكة، ويذكـر أن رسول الله -ﷺ- فعل ذلك. ومـنها ثنية كُـدى (بضم الكاف)، وهى بأعلى مكة، ومنهـا دخل رسول الله -ﷺ- فى حجة الوداع إلى مكة. ومنها ثنية كـداء (بفتح الكاف)، ويقال لها: الثنية البـيضاء، وهى

---

(١) السبط: ولد الابن والابنة. الوجيز ص(٣٠١).

(٢) يقصد بالمبير: الحجاج بن يوسف بن أبى عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عـوف بن ثقيف، وهو قسى بن منبه بن بكر بن هوازن، وأبو محمد الثـقفى. قتل ابن الزبير وقد سمـاه بالمبير النبى -ﷺ- كما رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه عن ابن عمـر قال: أنبأنا رسول الله -ﷺ- أن فى ثقيف مبـيراً وكذابًا. وقد أورد هذا الحديث ابن كثير فى البداية والنهاية وأورد أحاديث أخرى فى ترجمة الحجاج بن يوسف. انظر البداية والنهاية لابن كثير (٩/ ١٢٥-١٤٨).

بأسفل مكة، ومنهـا خرج رسول الله -ﷺ- عام الوداع، وهى بين جبلين. وفى مضـيقـها كوم حـجارة موضـوع على الطريق، وكل من يمر به يرجـمه بحجر. ويقال: إنه قبر أبى لهب وزوجه حمالة الحطب. وبين هذه الثنية وبين مكة بسيط سـهل ينزله الركب إذا صدروا عن منى، وبمقـربة من هذا الموضع على نحـو ميل من مكة شـرفـها الله مـسجـد بإزائه حجـر موضـوع على الطريق، كأنه مسطبـة يعلوه حجر آخر، كان فيه نقش فـدثر رسمه. يقال: إن النبى -ﷺ- قعد بذلك الموضع مسـتريحًا عند مجيئه من عمـرته. فيتبرك الناس بتقبـيله ويستندون إليه. ومنها التنعـيم، وهو على فرسخ من مكة ومنه يعتمرُ أهل مكة، وهو أدنى الحل إلى الحرم، ومنه اعـتمرت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- حين بعثها رسول الله -ﷺ- فى حجة الوداع مع أخيها عبد الرحمن -رضي الله عنه-، وأمره أن يعمـرها من التنعيم(١). وبنيت هنالك مسـاجد ثلاثة على الطريق تنسب كلها إلى عائشة -رضي الله عنها-. وطريق التنعيم طريق فسيح، والناس يتحـرون كنسه فى كل يوم رغبة فـى الأجر والثواب؛ لأن من المعتـمرين من يمشى فيـه حافيًا. وفى هذا الطريق الآبار العـذبة التى تسمى الشبـيكة، ومنها الزاهر، وهو على نحو ميلين من مكة، على طريق التنعيم، وهو موضع على جانبى الطريق فيه أثر دور وبساتين وأسواق.

وعلى جانب الطريـق دكان مستطـيل تصف عليه كيـزان الشرب وأوانى الوضوء، يملأها خديم ذلك الموضع من آبار الزاهر، وهى بعـيدة القعر جدًّا. والخديم من الفقراء المجاورين وأهل الخيـر يعينونه على ذلك لما فيه من المرفقة للمعتمرين من الغسل والشرب والوضوء، وذو طوى يتصل بالزاهر.

جبال مكة المكرمة

منها جبل أبى قبيس، وهو فى جهة الجنوب والشرق من مكة حرسها الله، هو أحد الأخشـبين، وأدنى الجبال من مكة شرفـها الله، ويقابل ركن

(١) الحديث أخـرجه البخـارى (١٧٨٥)، ومسلم (١٢١١)، وأبو داود (١٧٨٥)، والتـرمذى (٩٣٥)، وابن ماجه (٢٩٦٣)، وأحمد (٣/ ٣٠٥).

الحجر الأسود. وبأعلاه مسجد وأثر رباط وعمارة. وكان الملك الظاهر -رحمه الله- أراد أن يعمره. وهو مطل على الحرم الشريف، وعلى جميع البلد. ومنه يظهر حسن مكة شرفها الله وجمال الحرم واتساعه والكعبة المعظمة. ويذكر أن جبل أبى قبيس هو أول جبل خلقه الله تعالى، وفيه استودع الحجر زمان الطوفان. وكانت قريش تسميه الأمين؛ لأنه أدى الحجر الذى استودع فيه الخليل إبراهيم -عليه السلام-. ويقال: إن قبر آدم -عليه السلام- به. وفى جبل أبى قبيس موضع موقف النبى -صلى الله عليه وسلم- حين انشق له القمر. ومنها قعيقعان. وهو أحد الأخشبين، ومنها الجبل الأحمر، وهو فى جهة الشمال من مكة شرفها الله، ومنها الخندمة وهو جبل عند الشعبين المعروفين بأجياد الأكبر وأجياد الأصغر. ومنها جبل الطير وهو على أربعة عن جهتى طريق التنعيم، يقال: إنها الجبال التى وضع عليها الخليل -عليه السلام- أجزاء الطير ثم جمعها حسبما نص الله فى كتابه العزيز[١]، عليه أعلام من حجارة، ومنها جبل حراء، وهو فى الشمال من مكة شرفها الله تعالى على نحو فرسخ منها، وهو مشرف على منى، ذاهب فى الهواء عالى القنة[٢]. وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يتعبد فيه كثيراً قبل المبعث، وفيه أتاه الحق من ربه وبدأ الوحى، وهو الذى اهتز تحت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال -صلى الله عليه وسلم-: «**اثبت فما عليك إلا نبى وصديق وشهيد**»[٣]، واختلف فيمن كان معه يومئذ. وروى أن العشرة كانوا معه.

وقد روى أيضًا أن جبل ثبير اهتز تحته أيضًا، ومنها جبل ثور، وهو على قدر فرسخ من مكة شرفها الله تعالى على طريق اليمن، وفيه الغار الذى أوى إليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين خروجه مهاجراً من مكة شرفها الله، ومعه

(١) وذلك كما فى قوله تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ [البقرة: ٢٦٠].

(٢) قنة الجبل: أعلاه.

(٣) الحديث أخرجه البخارى (٣٦٨٦) عن أنس بن مالك.

الصديق -رضي الله عنه-، حسب ما ورد فى الكتاب العزيز[١]. ذكر الأزرقى فى كتابه: أن الجبل المذكور نادى رسولَ الله -ﷺ- وقال: إلىّ يا محمد إلىّ إلىّ، فقد آويتُ قبلك سبعين نبيًّا. فلما دخل رسولُ الله -ﷺ- الغارَ واطمأن به وصاحبه الصديق معه، نسجت العنكبوتُ من حينها على باب الغار، وصنعتِ الحمامةُ عشًّا، وفرخت فيه بإذن الله تعالى، فانتهى المشركون ومعهم قصاص الأثر إلى الغار، فقالوا ها هنا انقطع الأثر ورأوا العنكبوت قد نسج على فم الغار والحمام مفرخة، فقالوا: ما دخل أحد هنا، وانصرفوا. فقال الصديق: يا رسول الله لو ولجوا علينا منه، قال: كنا نخرج من هنا. وأشار بيده المباركة إلى الجانب الآخر ولم يكن فيه باب فانفتح فيه باب بقدرة الملك الوهاب[٢].

والناس يقصدون زيارة هذا الغار المبارك، فيرومون[٣] دخوله من الباب الذى دخل منه النبى -ﷺ- تبركًا بذلك. فمنهم من يتأتى له، ومنهم من لا يتأتى له وينشب فيه، حتى يتناول بالجذب العنيف، ومن الناس من يصلى أمامه ولا يدخله. وأهل تلك البلاد يقولون: إنه من كان لرشدة دخله، ومن كان لزنية لم يقدر على دخوله. ولهذا يتحاماه كثير من الناس لأنه مخجل فاضح.

---

(١) وقد ورد ذكره فى قول الله تعالى: ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم﴾ [التوبة: ٤٠].

(٢) قال ابن كثير فى البداية والنهاية (٣/ ٢٢٥): وقد ذكر بعض أهل السير أن أبا بكر لما قال ذلك قال النبى -ﷺ-: «لو جاءونا من ههنا لذهبنا من هنا». فنظر الصديق إلى الغار قد انفرج من الجانب الآخر، وإذا البحر قد اتصل به، وسفينة مشدودة إلى جانبه، وهذا ليس بمنكر من حديث القدرة العظيمة، ولكن لم يرد ذلك بإسناد قوى ولا ضعيف، ولسنا نثبت شيئًا من تلقاء أنفسنا، ولكن ما صح أو حسن سنده قلنا به، والله أعلم.

(٣) يُقال: رامه يرومُه رومًا ومَرامًا: طلبه. الوجيز ص(٢٨٢).

قال ابن جزى: أخبرنى بعض أشياخنا الحجاج الأكياس أن سبب صعوبة الدخول إليه هو أن بداخله مما يلى الشق الذى يدخل منه حجرًا كبيرًا معترضًا. فمن دخل من ذلك الشق منبطحًا على وجهه وصل رأسه إلى ذلك الحجر، فلم يمكنه التولج، ولا يمكنه أن ينطوى إلى العلو، ووجهه وصدره يليان الأرض. فذلك هو الذى ينشب[١] ولا يتخلص إلا بعد الجهد والجذب إلى خارج، ومن دخل منه مستلقيًا على ظهره أمكنه، لأنه إذا وصل رأسه إلى الحجر المعترض رفع رأسه، واستوى قاعدًا، فكان ظهره مستندًا إلى الحجر المعترض وأوسطه فى الشق ورجلاه من خارج الغار ثم يقوم قائمًا بداخل الغار.

ومما اتفق بهذا الجبل لصاحبين من أصحابى: أحدهما الفقيه المكرم أبو محمد عبد الله بن فرحان الأفريقى التوزرى، والآخر أبو العباس أحمد الأندلسى الوادى آشى، أنهما قصدا (الغار) فى حين مجاورتهما بمكة شرفها الله تعالى فى سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، وذهبا منفردين، لم يستصحبا دليلاً عارفًا بطريقه، فتاها وضلا طريق الغار وسلكا طريقًا سواها منقطعة، وذلك فى أوان اشتداد الحر وحمس[٢] القيظ، فلما نفذ ما كان عندهما من الماء، وهما لم يصلا إلى الغار، أخذا فى الرجوع إلى مكة شرفها الله تعالى، فوجدا طريقًا فاتبعاه وكان يفضى إلى جبل آخر، واشتد بهما الحر، وأجهدهما العطش، وعاينا الهلاك، وعجز الفقيه أبو محمد عبد الله بن فرحان عن المشى جملة، وألقى بنفسه إلى الأرض، ونجا الأندلسى بنفسه. وكان فيه فضل قوة، ولم يزل يسلك تلك الجبال حتى أفضى به الطريق إلى أجياد، فدخل إلى مكة شرفها الله تعالى، وقصدنى، وأعلمنى بهذه الحادثة، وبما كان من أمر عبد الله التوزرى وانقطاعه فى الجبل، وكان ذلك فى آخر النهار. ولعبد الله المذكور ابن عم اسمه حسن، وهو من سكان وادى نخلة، وكان إذ ذاك بمكة، فأعلمته بما جرى على ابن عمه، وقصدت الشيخ الصالح الإمام أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بخليل إمام المالكية نفع الله به،

(١) يُقال: نشب فى الشىء ينشَب نشوبًا: علق فيه. الوجيز ص(٦١٥).
(٢) حمس القيظ: شدة حرارته.

فأعلمته بخبره، فبعث جماعة من أهل مكة عارفين بتلك الجبال والشعاب فى طلبه، وكان من أمر عبد الله التوزرى أنه لما فارقه رفيقه. لجأ إلى حجر كبير، فاستظل بظله، وأقام على هذه الحالة من الجهد والعطش، والغربان تطير فوق رأسه، وتنتظر موته. فلما انصرم النهار، وأتى الليل، وجد فى نفسه قوة وأنعشه برد الليل، فقام عند الصباح على قدميه ونزل من الجبل إلى بطن واد حجبت الجبال عنه الشمس، فلم يزل ماشيًا إلى أن بدت له دابة فقصدها، فوجد خيمة للعرب. فلما رآها وقع إلى الأرض ولم يستطع النهوض، فرأته صاحبة الخيمة، وكان زوجها قد ذهب إلى ورد الماء فسقته ما كان عندها من الماء فلم يرو، وجاء زوجها فسقاه قربة ماء فلم يرو، وأركبه حماراً له، وقدم به مكة فوصلها عند صلاة العصر من الثانى متغيراً كأنه قام من قبر.

وكانت إمارة مكة فى عهد دخولى إليها للشريفين الأجلين الأخوين: أسد الدين رميثة وسيف الدين عطيفة ابنى الأمير أبى نمى بن أبى سعد بن على بن قتادة الحسنيين. ورميثة أكبرهما سنًّا، ولكنه كان يقدم اسم عطيفة فى الدعاء له بمكة، لعدله ولرميثة من الأولاد أحمد وعجلان -وهو أمير مكة فى هذا العهد- وتقية وسند وأم قاسم. ولعطيفة من الأولاد محمد ومبارك ومسعود. ودار عطيفة عن يمين المروة، ودار أخيه رميثة برباط الشرابى عند باب بنى شيبة، وتضرب الطبول على باب كل واحد منهما عند صلاة المغرب من كل يوم.

أخبار أهل مكة وفضائلهم

ويعرف أهل مكة بالأفعال الجميلة والمكارم التامة والأخلاق الحسنة والإيثار إلى الضعفاء والمنقطعين وحسن الجوار للغرباء. ومن مكارمهم أنهم متى صنع أحدهم وليمة يبدأ فيها بإطعام الفقراء المنقطعين المجاورين، ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خلق، ثم يطعمهم. وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالأفران، حيث يطبخ الناس أخبازهم. فإذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله إلى منزله فيتبعه المساكين فيعطى لكل واحد منهم ما قسم

له، ولا يردهم خائبين، ولو كانت له خبزة واحدة فإنه يعطى ثلثها أو نصفها طيب النفس بذلك من غير ضجر. ومن أفعالهم الحسنة أن الأيتام الصغار يقعدون بالسوق، ومع كل واحد منهم قفتان: كبرى وصغرى وهم يسمون القفة مكتلاً فيأتى الرجل من أهل مكة إلى السوق، فيشترى الحبوب واللحم والخضر، ويعطى ذلك الصبى فيجعل الحبوب فى إحدى قفتيه، واللحم والخضر فى الأخرى، ويوصل ذلك إلى دار الرجل ليهيأ له طعامه منها، ويذهب الرجل إلى طوافه وحاجته، فلا يذكر أن أحدًا من الصبيان خان الأمانة فى ذلك قط، بل يؤدى ما حمل على أتم الوجوه ولهم على ذلك أجرة معلومة من فلوس. وأهلُ مكةَ لهم ظُرْفٌ ونظافةٌ فى الملابس وأكثر لباسهم البياض فترى ثيابهم أبدًا ناصعة ساطعة. ويستعملون الطيب كثيرًا ويكتحلون ويكثرون السواك بعيدان الأراك الأخضر. ونساء مكة فائقات الحسن بارعات الجمال ذوات صلاح وعفاف. وهن يكثرن التطيب، حتى إن إحداهن لتبيت طاوية(١) وتشترى بقوتها طيبًا. وهن يقصدن الطواف بالبيت فى كل ليلة جمعة، فيأتين فى أحسن زى وتغلب على الحرم رائحة طيبهن(٢)، وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقًا(٣). ولأهل مكة عوائد حسنة وغيرة سنذكرها إن شاء الله تعالى إذا فرغنا من ذكر فضائلها ومجاوريها.

---

(١) طاوية: جائعة.

(٢) لا يجوز للمرأة أن تخرج من بيتها متعطرة لنهى النبى -ﷺ- عن ذلك، فعن أبى موسى -رضي الله عنه- عن النبى -ﷺ- قال: «أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهى زانية وكل عين رأتها زانية». رواه النسائى وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وقال: صحيح الإسناد. وهناك أحاديث أخرى كثيرة فى الباب. وانظر الترغيب والترهيب (٢/ ٧٢٠-٧٢٢) بأرقام (٢٩٩٢-٢٩٩٥).

(٣) يُقال: عبق به الطيب عَبَقًا: ظهرت ريحه بثوبه أو بدنه، وعبّق رائحة الطيب: ذكّاها. الوجيز ص(٤٠٤).

نبذة عن قاضى مكة وخطيبها وإمام الموسم وعلمائها وصلحائها

قاضى مكة العالم الصالح العابد نجم الدين محمد بن الإمام العالم محيى الدين الطبرى، وهو فاضل كثير الصدقات والمواساة للمجاورين، حسن الأخلاق كثير الطواف والمشاهدة للكعبة الشريفة، يطعم الطعام الكثير فى المواسم المعظمة، وخصوصًا فى مولد رسول الله -ﷺ-، فإنه يطعم فيه شرفاء مكة وكبراءها وفقراءها وخدام الحرم الشريف وجميع المجاورين. وكان سلطان مصر الملك الناصر -رحمه الله- يعظمه كثيرًا، وجميع صدقاته وصدقات أمرائه تُجرى على يديه. وولده شهاب الدين فاضل، وهو الآن قاضى مكة شرفها الله. وخطيب مكة الإمام بمقام إبراهيم -عليه السلام- الفصيح المصقع[1] وحيد عصره بهاء الدين الطبرى، وهو أحد الخطباء الذى ليس بالمعمورة مثلهم بلاغة وحسن بيان. وذكر لى أنه ينشىء لكل جمعة خطبة ثم لا يكررها فيما بعد. وإمام الموسم وإمام المالكية بالحرم الشريف هو الشيخ الفقيه العالم الصالح الخاشع الشهير أبو عبد الله محمد بن الفقيه الإمام الصالح الورع أبى زيد عبد الرحمن، وهو المشتهر بخليل نفع الله به وأمتع ببقائه. وأهله من بلاد الجريد من أفريقية، ويعرفون بها ببنى حيون من كبارها، ومولده ومولد أبيه بمكة شرفها الله، وهو أحد الكبار من أهل مكة، بل واحدها وقطبها بإجماع الطوائف على ذلك، مستغرق العبادة فى جميع أوقاته، حيى كريم النفس حسن الأخلاق كثير الشفقة، لا يرد من سأله خائبًا.

ولقد رأيتُ أيامَ مجاورتى بمكة شرفها الله، وأنا إذ ذاك ساكن منها بالمدرسة المظفرية: النبى -ﷺ- فى النوم، وهو قاعد بمجلس التدريس فى المدرسة المذكورة بجانب الشباك الذى تشاهد منه الكعبة الشريفة، والناس يبايعونه، فكنت أرى الشيخ أبا عبد الله المدعو بخليل قد دخل وقعد القرفصاء بين يدى رسول الله -ﷺ-، وجعل يده فى يد رسول الله -ﷺ-، وقال:

---

(١) المصقع: البليغ يتفنن فى مذاهب القول. الوجيز ص(٣٦٧).

أبايعك على كذا وكذا، وعدّد أشياء منها، وأن لا أرد من بيتى مسكينًا خائبًا، وكان ذلك آخر كلامه، فكنت أعجب من قوله، وأقول فى نفسى كيف يقول هذا ويقدر عليه، مع كثرة فقراء مكة واليمن والزيالعة والعراق والعجم ومصر والشام. وكنت أراه حين ذلك لابسًا جبة بيضاء قصيرة من ثياب القطن المدعوة بالقفطان، كان يلبسها فى بعض الأوقات، فلما صليت الصبح غدوت عليه وأعلمته برؤياى فسر بها وبكى، وقال لى: تلك الجبة أهداها بعض الصالحين لجدى، فأنا ألبسها تبركًا. وما رأيته بعد ذلك يرد سائلاً خائبًا. وكان يأمر خدامه يخبزون الخبز ويطبخون الطعام ويأتون به إلىَّ بعد صلاة العصر من كل يوم. وأهل مكة لا يأكلون فى اليوم إلا مرة واحدة بعد العصر، ويقتصرون عليها إلى مثل ذلك الوقت. ومن أراد الأكل فى سائر النهار أكل التمر. ولذلك صحت أبدانهم، وقلَّت فيهم الأمراض والعاهات. وكان الشيخ خليل متزوجًا بنت القاضى نجم الدين الطبرى، فشك فى طلاقها وفارقها. وتزوجها بعده الفقيه شهاب الدين النويرى من كبار المجاورين، وهو من صعيد مصر. وأقامت عنده أعوامًا وسافر بها إلى المدينة الشريفة ومعها أخوها شهاب الدين فحنث فى يمين بالطلاق، ففارقها على ضنانته بها، وراجعها الفقيه خليل بعد سنين عدة. ومن أعلام مكة إمام الشافعية شهاب الدين بن البرهان، ومنهم إمام الحنفية شهاب الدين أحمد بن على من كبار أئمة مكة وفضلائها، يطعم المجاورين وأبناء السبيل. وهو أكرم فقهاء مكة. ويدان فى كل سنة بأربعين ألف درهم وخمسين ألفًا، فيؤديها الله عنه. وأمراء الأتراك يعظمونه ويحسنون الظن به؛ لأنه إمامهم. ومنهم إمام الحنابلة المحدث الفاضل محمد بن عثمان البغدادى الأصل المكى المولد، وهو نائب القاضى نجم الدين، والمحتسب بعد قتل تقى الدين المصرى، والناس يهابونه لسطوته(١).

كان تقى الدين المصرى محتسبًا بمكة، وكان له دخول فيما يعنيه وفيما لا يعنيه، فاتفق بعض السنين أن أتى أمير الحاج بصبى من ذوى الدعارة بمكة،

(١) يُقال: سطا عليه، وبه يسطو سطوًا وسطوة: بطش به وقهره. الوجيز ص(٣١٠).

قد سرق بعض الحجاج. فأمر بقطع يده فقال لـه تقى الدين: إن لم تقطعها بحضرتك، وإلا غلب أهـل مكة خدامك عليه، فاستنقـذوه منهم وخلصوه، فأمر بقطع يده فى حضرته فقطعت. وحقدها لتقى الدين، ولم يزل يتربص به الدوائر، ولا قدرة له عليه لأن له حسبًا من الأميرين رميثـة وعطيفة والحسب عندهم أن يعطى أحدهم هدية من عمامة أو شاشية بمحضر الناس تكون جوارًا لمن أعطيته، ولا تزول حرمتها معه حتى يريد الرحلة والتحول عن مكة، فأقام تقى الدين بمكة أعوامًا، ثم عـزم على الرحلة، وودع الأميرين، وطاف طواف الوداع، وخرج من باب الصفا. فلقيه صـاحبه الأقطع وتشكى له ضعف حاله وطلب منه ما يستعين به على حاجـته. فانتـهره تقى الدين وزجره. فـاستل خنجرًا له يعرف عندهم بالجنبية، وضربه ضربة واحدة كان فيها حتفه.

ومنهم الفقيه الصالح زين الديـن الطبرى، شقيق نجم الدين المذكور من أهل الفضل والإحـسان للمجـاورين. ومنهم الفقـيه المبارك مـحمد بن فـهد القرشى، من فضلاء مكة، وكان ينوب عن القاضى نجم الدين بعد وفاة الفقيه محمـد بن عثمان مكة، وكـان ينوب عن القاضى نجم الدين بعد وفاة الفـقيه محمد بن عثمان الحنبلى، ومنهـم العدل الصالح محمد بن البرهان زاهد ورع مبـتلى بالوسواس. رأيتـه يومًا يتـوضأ من بركـة المدرسة المظفـرية، فيـغسل ويكرر، ولما مسح رأسه أعـاد مسحه مرات، ثم لم يقنعـه ذلك فغطس رأسه فى البـركة. وكان إذا أراد الصـلاة ربما صلى الإمام الـشافعى، وهـو يقول: نويت نويت، فيصلى مع غيره وكان كثير الطواف والاعتمار والذكر.

خبر المجاورين بمكة

فمنهم الإمامُ العالمُ الصالحُ الصوفىُّ المحققُ العابدُ عفيفُ الدينِ عبد الله ابن أسعد اليمنى الشـافعى الشهير باليافعى، كـثير الطواف آناء الليل وأطراف النهـار. وكان إذا طاف من الليل يصـعد إلى سطح المدرسـة المظفرية فـيقـعد مشاهدًا للكعبة الشريفة، إلى أن يغلبه النوم فيجعل تحت رأسه حجرًا، أو ينام يسيرًا، ثم يجدد الوضوء ويعـود لحاله من الطواف حتى يصلى الصبح. وكان

متزوجًا ببنت الفـقيه العابد شهاب الدين بن البرهان، وكـانت صغيرة السن. فلا تزال تشكو إلى أبيها حالها فيأمـرها بالصبر، فأقامت معه على ذلك سنين ثم فارقـته. ومنهم الصـالحُ العابدُ نجمُ الدينِ الأصـفونى. كان قـاضيًـا ببلاد الصعيد فانقطع إلى الله تعالى، وجـاورَ بالحرمِ الشريف. وكان يعتمر فى كل يوم من التنعيم، ويعتمر فى رمضان: مرتين فى اليوم اعتمادًا على ما فى الخبر عن النبى -ﷺ- أنه قال: «**عمرةٌ فـى رمضان تعدل حجـة معى**»[1]. ومنهم الشيخ الصالح العـابد شمس الدين محمد الحلبى، كثـير الطواف والتلاوة من قـدماء المجـاورين توفى بمكة. ومـنهم الصالـح أبو بكر الشـيرازى المعـروف بالصامت، كـثير الطواف، أقـام بمكة أعوامًا لا يتـكلم فيهـا. ومنهم الصالح خضر العجمى، كثير الصوم والتلاوة والطواف. والشيخ الصالح برهان الدين العجـمى الواعظ، كان ينصب لـه كرسى تجاه الكعـبة الشـريفة فيـعظ الناس ويذكرهم بلسانٍ فصيحٍ وقلبٍ خـاشعٍ يأخذ بمجامع القلوب. والصالح المجود برهان الدين إبراهيم المصرى مقرىء مجـيد ساكن رباط السدرة، ويقصده أهل مـصر والشـام بصدقـاتهم، ويعلمُ الأيتـامَ كتـابَ اللهِ تعالى، ويقـومُ بمؤنهم ويكسوهم. والصالح العابد عز الدين الواسطى من أصحاب الأموال الطائلة، يحمل إليه من بلده المال الكثير فى كل سنة، فيبـتاع الحبوب والتمر، ويفرقها على الضعفاء والمساكين، ويتولى حملها إلى بيوتهم بنفسه، ولم يزل ذلك دأبه إلى أن توفى. والفقيهُ الصالحُ الزاهدُ أبو الحسن على بن رزق الله الأنجرى من أهل قطر طنجة من كـبار الصالحين جاور بمكة سنين وبها وفـاته، وكانت بينه وبين والدى صحبة قديمة، ومـتى أتى إلى بلدنا طنجة نزل عندنا، كان له بيت بالمدرسة المظفرية يعلم العلم فيـها نهارًا ويأوى بالليل إلى مسكنه برباط ربيع، وهو من أحسن الرباطات بمكة، بداخله بئر عـذبة لا تماثلها بئر بمكة، وسكانه الصالحون، وأهل ديار الحجاز يعظمـون هذا الرباط تعظيمًا شديدًا وينذرون له النذور، وأهلُ الطائف يأتونه بالفواكه. ومن عـادتهم أن كلَّ من له بستانٌ من النخيل والعنب والفرسك -وهو الخوخ- والتين وهم يسمونه الخمط يخرج منه

---

(١) الحديث أخرجه البخارى (١٧٨٢)، ومسلم (١٢٥٦) كلاهما عن ابن عباس مرفوعًا.

العُشر لهذا الرباط. ويوصلون ذلك إليه على جمالهم ومسيرة ما بين مكة والطائف يومان. ومن لم يف بذلك نقصت فواكهه فى السنة الآتية وأصابتها الجوائح.

أتى يومًا غلمانُ الأميرِ أبى نمى صاحبِ مكةَ إلى هذا الرباط ودخلوا بخيل الأمير وسقوها من تلك البئر، فلما عادوا بالخيل إلى مرابطها أصابتها الأوجاع وضربت بأنفسها الأرض برؤوسها وأرجلها. واتصل الخبر بالأمير أبى نمى، فأتى باب الرباط بنفسه. واعتذر إلى المساكين الساكنين به، واستصحب واحدًا منهم فمسح على بطون الدواب بيده فأراقت ما كان فى أجوافها من ذلك الماء وبرئت مما أصابها، ولم يتعرضوا بعدها للرباط إلا بالخير. ومنهم الصالح المبارك أبو العباس الغمارى من أصحاب أبى الحس بن رزق الله. وسكن رباط ربيع، ووفاته بمكة. ومنهم الصالح أبو يعقوب يوسف من بادية سبتة، كان خديمًا للشيخين المذكورين، فلما توفيا صار شيخ الرباط بعدهما. ومنهم الصالح السايح السالك أبو الحسن على بن فرغوس التلمسانى. ومنهم الشيخ سعيد الهندى شيخ رباط كلالة.

روى أن الشيخ سعيد كان قد قصد ملك الهند محمد شاه، فأعطاه مالاً عظيمًا قدم به مكة. فسجنه الأمير عطيفة، وطلبه بأداء المال، فامتنع فَعُذِّب بعصر رجليه، فأعطى خمسة وعشرين ألف درهم نقرة، وعاد إلى بلاد الهند. ورأيته بها، ونزل بدار الأمير سيف الدين غدا بن هبة الله بن عيسى بن مهنا أمير عرب الشام. وكان غدا ساكنًا ببلاد الهند متزوجًا بأخت ملكها، وَسَيُذكر أمره. فأعطى ملك الهند للشيخ سعيد جملة مال، وتوجه صحبة حاج يعرف بوشل من ناس الأمير المذكور ليأتيه ببعض ناسه، ووجه معه أموالاً وتحفًا منها الخلعة التى خلعها عليه ملك الهند ليلة زفافه بأخته، وهى من الحرير الأزرق مزركشة بالذهب، ومرصعة بالجوهر، بحيث لا يظهر لونها لغلبة الجوهر عليها، وبعث معها خمسين ألف درهم ليشترى له الخيل العتاق. فسافر الشيخ سعيد صحبة وشل، واشتريا سلعًا بما عندهما من الأموال. فما وصلا جزيرة سقطرة المنسوب إليها الصبر السقطرى، خرج عليهما لصوص الهند فى

مراكب كثيرة فقاتلوهم قتالاً شديداً، مات فيه من الفريقين جملة. وكان وشل راميًا فقتل منهم جماعة، ثم تغلب السراق عليهم وطعنوا وشلا طعنة مات منها بعد ذلك. وأخذوا ما كان عندهم. وتركوا لهم مركبهم بآلة سفره وزاده. فذهبوا إلى عدن، ومات بها وشل. وعادة هؤلاء السراق أنهم لا يقتلون أحدًا إلا حين القتال ولا يغرقونه، وإنما يأخذون ماله ويتركونه يذهب بمركبه حيث شاء. ولا يأخذون المماليك لأنهم من جنسهم. وكان الحاج سعيد قد سمع من ملك الهند أنه يريد إظهار الدعوة العباسية[1] ببلده، كمثل ما فعله ملوك الهند ممن تقدمه، مثل السلطان شمس الدين لَلْمِش واسمه (بفتح اللام الأولى، وإسكان الثانية وكسر الميم وشين معجم)، وولده ناصر الدين. ومثل السلطان جلال الدين فيروز شاه، والسلطان غياث الدين بلبن. وكانت الخلع[2] تأتى إليهم من بغداد. فلما توفى وشل قصد الشيخ سعيد إلى الخليفة أبى العباس ابن الخليفة أبى الربيع سليمان العباسى بمصر، وأعلمه بالأمر. فكتب له كتابًا بخطه بالنيابة عنه ببلاد الهند. فاستصحب الشيخ سعيد الكتاب وذهب إلى اليمن واشترى بها ثلاثَ خلعٍ سودًا، وركب البحر إلى الهند. فلما وصل كنبايت، وهى على مسيرة أربعين يومًا من دهلى حاضرة ملك الهند، كتب صاحب الخبر إلى الملك يعلمه بقدوم الشيخ سعيد وأن معه أمر الخليفة وكتابه. فورد الأمر ببعثه إلى الحضرة مكرمًا. فلما قرب عن الحضرة بعث الأمراء والقضاء والفقهاء لتلقيه، ثم خرج هو بنفسه لتلقيه، فتلقاه وعانقه ودفع له الأر، فقبله ووضعه على رأسه، ودفع له الصندوق الذى فيه الخلع فاحتمله الملك على كاهله خطوات ولبس إحدى الخلع وكَسَا الأخرى الأمير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن يوسف بن عبد العزيز بن الخليفة المنتصر العباسى، وكان مقيمًا عنده، وسيذكر خبره. وكسا الخلعة الثالثة الأمير قبوله الملقب بالملك الكبير، وهو الذى يقوم على رأسه ويشرد عنه الذباب. وأمر السلطان فخلع على الشيخ سعيد ومن معه، وأركبه على الفيل، ودخل

(١) يعنى: الدعوة إلى الخلافة العباسية.

(٢) خلع جمع خلعة، يُقال: خلع عليه خِلْعَةً: أعطاه أو ألبسه إياها. الوجيز ص(٢٠٨).

المدينة كذلك، والسلطان أمامه على فرسه، وعن يمينه وشماله الأميران اللذان كساهما الخلعتين العباسيتين. والمدينة قد زينت بأنواع الزينة وصنع بها إحدى عشرة قبة من الخشب. كل قبة منها أربع طبقات، فى كل طبقة طائفة من المغنين رجالاً ونساء، والراقصات، وكلهم مماليك السلطان. والقبة مزينة بثياب الحرير المذهب أعلاها وأسفلها وداخلها وخارجها، وفى وسطها ثلاثة أحواض من جلود الجواميس مملوءة ماء قد حُلّ فيه الجلاب، يشربه كل وارد وصادر، لا يمنع منه أحد. وكل من يشرب منه يعطى بعد ذلك خمس عشرة ورقة من أوراق التنبول والفوفل والنورة، فيأكلها فتطيب نكهته وتزيد فى حمرة وجهه لثاته وتقمع عنه الصفراء وتهضم ما أكل من الطعام. ولما ركب الشيخ سعيد على الفيل فرشت له ثياب الحرير بين يدى الفيل يطأ عليها الفيل من باب المدينة إلى دار السلطان. وأنزل بدار تقرب من دار الملك. وبعث له أموالاً طائلة. وجميع الأثواب المعلقة والمفروشة بالقباب والموضوعة بين يدى الفيل لا تعود إلى السلطان بل يأخذها أهل الطرب وأهل الصناعات الذين يصنعون القباب، وخدام الأحواض وغيرهم. وهكذا فعلهم من قدم السلطان من سفر. وأمر الملك بكتاب الخليفة أن يقرأ على المنبر بين الخطبتين فى كل يوم جمعة، وأقام الشيخ سعيد شهراً ثم بعث معه الملك هدايا إلى الخليفة. فوصل كنبايت، وأقام بها حتى تيسرت أسباب حركته فى البحر. وكان ملك الهند قد بعث أيضًا من عنده رسولاً إلى الخليفة وهو الشيخ رجب البرقعى، أحد شيوخ الصوفية، وأصله من مدينة القرم من صحراء قفجق، وبعث معه هدايا للخليفة منها حجر ياقوت قيمته خمسون ألف دينار. وكتب له يطلب منه أن يعقد له النيابة عنه ببلاد الهند والسند، ويبعث له سواه من يظهر. هكذا نص عليه كتابه اعتقاداً منه فى الخلافة وحسن نية. وكان للشيخ رجب أخ بديار مصر يدعى بالأمير سيف الدين الكاشف. فلما وصل رجب إلى الخليفة أبى أن يقرأ الكتاب ويقبل الهدية إلا بمحضر الملك الصالح إسماعيل بن الملك الناصر. فأشار سيف الدين على أخيه رجب ببيع الحجر فباعه واشترى بثمنه -وهو ثلاثمائة ألف درهم- أربعة أحجار. وحضر بين يدى الملك الصالح،

ودفع له الكتاب، وأحـد الأحجار، ودفع سـائرها لأمرائه. واتفـقوا على أن يكتب لملك الهند بما طلب. فوجهوا الشهود إلى الخليفة وأشهد على نفسه أنه قدمه نائبًـا عنه ببلاد الهند وما يليها، وبعث الملك الصـالح رسولاً من قبله، وهو شيخ الشيوخ بمصر ركن الدين العجمى، ومعه الشيخ رجب وجماعة من الصوفـية، وركبـوا بحرَ فارسٍ من الأُبلّة إلى هرمـز، وسلطانها يومـئذ قطب الدين تمتهن طوران شـاه. فأكرم مـثواهم، وجهـز لهم مركـبًا إلى بلاد الهند فوصلوا مدينة كنبايت والشيخ سعيد بهـا وأميرها يومئذ مقبول التلتكى، أحد خواص ملك الهند. فـاجتمع الشـيخ رجب بهذا الأمير وقـال له: إن الشيخ سعيد إنما جـاءكم بالتزوير، والخلع التى ساقها إنما اشتـراها بعدن، فينبغى أن تثقفوه وتبعثوه لخوند عالم وهو السلطان. فقال له الأمير: الشيخ سعيد معظم عند السلطان فما يفعل به هذا إلا بأمره. ولكنى أبعثه معك ليرى فيه السلطان رأيه. وكتب الأمير بذلك كله إلى السلطان، وكـتب به أيضًا صاحب الأخبار فوقع فى نفس السلطان تـغير، وانقبض عن الشـيخ رجب لكونه تكلم بذلك على رؤوس الأشهاد، بعد ما صدر من السلطان للشـيخ سعيد من الإكرام ما صدر، فـمنع رجب من الدخول عليه، وزاد إكـرام الشيخ سعـيد، ولما دخل شيخ الشيوخ على السلطان قام إليه وعانقـه وأكرمه وكان متى دخل إليه يقوم إليه. وبقى الشيخ سعيد المذكور بأرض الهنـد معظمًا مكرمًا. وبها تركته سنة ثمان وأربعين.

وكان بمكة أيام مجاورتى بها حسن المغربى المجنون، وأمره غريب وشأنه عجـيب، وكان قـبل ذلك صـحيح العـقل خديمًا لولى الله تعـالى نجم الدين الأصبهانـى أيام حياته. وكان حسن المجنون كثـير الطواف بالليل، وكان يرى فى طوافه بالليل فـقيراً، يكثـر الطواف، ولا يراه بالنهار. فلقـيه ذلك الفقـير ليلة، وسأله عن حـاله، وقال يا حسن: إن أمك تبكى عليك، وهى مشـتاقة إلى رؤيتك، وكانت من إماء الله الصالحـات، أفتحب أن تراها قال له: نعم، ولكنى لا قدرة لى على ذلك. فقال له: نجتمع ها هنا فى الليلة المقبلة إن شاء الله تعالى – فلما كانت الليلة المقبلة، وهى ليلة الجمعة، وجده حيث واعده – فطافا بالبيت ما شاء الله، ثم خرج، وهو فى إثره، إلى باب المعَلّى. فأمره أن

يسد عينيه ويمسك بثوبه ففعل ذلك. ثم قال: بعد ساعة: أتعرف بلدك؟ قال نعم. قال: ها هو هذا. ففتح عينيه، فإذا به على دار أمه، فدخل عليها، ولم يعلمها بشيء مما جرى، وأقام عندها نصف شهر، وأظن أن بلده مدينة أسفى. ثم خرج إلى الجبانة، فوجد الفقير صاحبه، فقال له: كيف أنت؟ فقال: يا سيدى، إنى اشتقت إلى رؤية الشيخ نجم الدين؛ وكنت خرجت على عادتى، وغبت عنه هذه الأيام، وأحب أن تردنى إليه. فقال له: نعم، وواعده الجبانة ليلاً. فلما وافاه بها، أمره أن يفعل كفعله فى مكة شرفها الله، من تغميض عينيه والإمساك بذيله ففعل ذلك، فإذا به فى مكة شرفها الله[1]. وأوصاه أن لا يحدث نجم الدين بشيء مما جرى، ولا يحدث به غيره فلما دخل على نجم الدين، قال له: أين كنت يا حسن فى غيبتك؟ فأبى أن يخبره. فعزم عليه، فأخبره بالحكاية. فقال: أرنى الرجل، فأتى معه ليلاً، وأتى الرجل على عادته. فلما مر بهما قال له: يا سيدى هو هذا. فسمعه الرجل فضربه بيده على فمه وقال اسكت أسكتك الله. فخرس لسانه، وذهب عقله، وبقى بالحرم مولهًا يطوف بالليل والنهار من غير وضوء ولا صلاة، والناس يتبركون به ويكسونه، وإذا جاع خرج إلى السوق التى بين الصفا والمروة، فيقصد حانوتًا من الحوانيت[2]، فيأكل منها ما أحب، لا يصده أحد ولا يمنعه بل يسر كل من أكل له شيئًا، وتظهر له البركة والنماء فى بيعه وربحه. ومتى أتى السوق تطاول أهلها بأعناقهم إليه، كل منهم يحرص على أن يأكل من عنده، لما جرّبوه من بركته. كذلك فعله مع السقائين، متى أحب أن يشرب. ولم يزل دأبه كذلك إلى سنة ثمانٍ وعشرين، فحج فيها الأمير سيف الدين يلملك، فاستصحبه معه إلى ديارٍ مصر، فانقطع خبره نفع الله تعالى به.

---

(١) هذا إن كان من الكرامات لكان أولى به النبى -ﷺ- وأصحابه الكرام، ولكنه إن صح لعله من أمور الشعوذة والسحر والاستعانة بالجن، ولا يدل ذلك ألبتة على صلاح وتقوى، وإنما الذى يدل هو الاتباع لأمر الله وأمر الرسول -ﷺ- فقط لا غير.

(٢) الحانوت: الدكان.

عادة أهل مكة فى صلواتهم ومواضع أئمتهم

فمن عادتهم أن يصلى أول الأئمـة إمام الشافعيـة، وهو المقدم من قبل أولى الأمر. وصـلاته خلف المقام الكريم، مقـام إبراهيم الخليل -عليه السلام- فى حطيم له هنالك بديع، وجمهور الناس بمكة على مـذهبه، والحطيم: خشبتان موصول ما بينهـما بأذرع شبه السلم، تقابلهمـا خشبتان على صفتـهما، وقد عقدت على أرجل مجـصصة، وعرض على أعلى الخشب خشبة أخـرى فيها خطاطيف حديد[1] يعلق فيها قناديل زجاج. فـإذا صلى الإمامُ الشافعىُّ صلى بعده إمامُ المالكيةِ فى محرابِ قبالة الركن اليمانى، وصلى إمام الحنبلية معه فى وقت واحد مـقابلاً ما بين الحجـر الأسود والركن اليمانى، ثم يصلى الحنـفية قـبـال الميـزاب المكرم تحـت حطيم له هنالك، ويوضـع بين يدى الأئمـة فى محاريبـهم الشمع. وترتيبهم هكذا فى الصلوات الأربع، وأمـا صلاة المغرب فإنهم يصلونها فى وقت واحد، كل إمـام يصلى بطائفته، ويدخل على الناس من ذلك سهـو وتخليط، فربمـا ركع المالكى بركوع الشـافعى وسجـد الحنفى بسجـود الحنبلى. وتراهم مصيـخين كل واحد إلى صـوت المؤذن الذى يسمع طائفته لئلا يدخل عليه السهو.

ومن عادتهم فى يوم الجـمعة أن يلصق المنبـر المبارك إلى صفح الكعـبة الشريفة، فيـما بين الحجر الأسود والركن العراقى، ويكون الخطيب مسـتقبلاً المقام الكريم. فـإذا خرج الخطيب، أقبل لابسًـا ثوب سواد، معـتمًا بعمـامة سوداء، وعليه طيلسان أسود. كل ذلك من كسوة الملك الناصر. وعليه الوقار والسكينة، وهو يتهـادى بين رايتين سوداوين، يمسكهمـا رجلان من المؤذنين، وبين يديه أحـد القومـة، فى يده الفرقـعة، وهى عـود فى طرفه جلد رقـيق مفـتول، ينفضـه فى الهواء فيـسمع له صوت عـال يسمعـه من بداخل الحرم وخارجه، فيكون إعلامًـا بخروج الخطيب. ولا يزال كذلك إلى أن يقرب من المنبر فيقـبل الحجر الأسود ويدعو عنده، ثم يقصـد المنبر، والمؤذن الزمزمى،

(١) الخطاف: كل حديدة معقوفة تجتذب بها الأشياء. الوجيز ص(٢٠٣).

وهو رئيس المؤذنين بين يديه، لابسًا السواد وعلى عاتقه السيف ممسكًا له بيده، وتركز الرايتان عن جانبى المنبر. فإذا صعد أول درج من درج المنبر قلده المؤذن السيف، فيضرب بنصل السيف ضربة فى الدرج يسمع بها الحاضرين، ثم يضرب فى الدرج الثانى ضربة، ثم فى الثالث أخرى. فإذا استوى فى عليا الدرجات ضرب ضربة رابعة، ووقف داعيًا بدعاء خفى، مستقبل الكعبة. ثم يقبل على الناس فيسلم عن يمينه وشماله، ويرد على الناس، ثم يقعد، ويؤذن المؤذنون فى أعلى قبة زمزم فى حين واحد. فإذا فرغ الأذان، خطب الخطيب خطبة يكثر بها من الصلاة على النبى -ﷺ-، ويقول فى أثنائها: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد ما طاف بهذا البيت طائف، ويشير بأصبعه إلى البيت الكريم اللهم صل على محمد وآل محمد ما وقف بعرفة واقف. ويترضى عن الخلفاء الأربعة وعن سائر الصحابة وعن النبى -ﷺ- وسبطيه وأمهما وخديجة جدتهما، على جميعهم السلام. ثم يدعو للملك الناصر، ثم للسلطان المجاهد نور الدين على ابن الملك المؤيد ابن الملك المظفر يوسف ابن على ابن رسول، ثم للسيدين الشريفين الحسنيين أميرى مكة. سيف الدين عطيفة، وهو أصغر الأخوين، ويقدم اسمه لعدله، وأسد الدين رميثة، ابنى أبى نمى بن أبى سعيد بن على بن قتادة. وقد دعا لسلطان العراق مرة، ثم قطع ذلك. فلما فرغ من خطبته وانصرف، والرايتان عن يمينه وشماله والفرقعة أمامه إشعاراً بانقضاء الصلاة، ثم يعاد المنبر إلى مكانه الكريم.

ومن عادتهم فى ذلك أن يأتىَ أميرُ مكةَ فى أول يوم الشهر، وقواده يحفون به، وهو لابس البياض معتم متقلد سيفًا وعليه السكينة والوقار، فيصلى عند المقام الكبير ركعتين، ثم يقبل الحجر، ويشرع فى طواف أسبوع(١). ورئيس المؤذنين على أعلى قبة زمزم. فعندما يكمل الأمير شوطًا واحدًا، ويقصد الحجر لتقبيله، يندفع رئيس المؤذنين بالدعاء له، والتهنئة بدخول الشهر، رافعًا بذلك صوته، ثم يذكر شعراً فى مدحه ومدح سلفه

---

(١) يعنى: سبعًا.

الكريم. ويفعل به هكذا فى السبعة أشواط. فإذا فرغ منها ركع عند المُلْتَزَمِ ركعتين، ثم ركع خلف المقام أيضًا ركعتين، ثم انصرف. ومثل هذا سواء يفعل إذا أراد سفرًا وإذا قدم من سفر أيضًا.

وإذا هل هلال رجب أمر أمير مكة بضرب الطبول والبوقات إشعاراً بدخول الشهر، ثم يخرج فى أول يوم منه راكبًا، ومعه أهل مكة فرسانًا ورجالاً[١]، على ترتيب عجيب، وكلهم بالأسلحة، يلعبون بين يديه، والفرسان يجولون ويجرون، والرجال يتواثبون ويرمون بحرابهم إلى الهواء، ويلقفونها، والأمير رميثة والأمير عطيفة معهما أولادهما وقوادهما مثل محمد ابن إبراهيم، وعلى وأحمد ابنى صبيح، وعلى بن يوسف وشداد بن عمر وعامر الشرق ومنصور بن عمر وموسى المزرق، وغيرهم من كبار أولاد الحسن ووجوه القواد، وبين أيديهم الرايات والطبول والدبادب، وعليهم السكينة والوقار. ويسيرون حتى ينتهوا إلى الميقات، ثم يأخذون فى الرجوع على معهود ترتيبهم إلى المسجد الحرام، فيطوف الأمير بالبيت، والمؤذن الزمزمى بأعلى قبة زمزم يدعو له عند كل شوط، على ما ذكرناه من عادته، فإذا طاف صلى ركعتين عند الملتزم، وصلى عند المقام وتمسح به، وخرج إلى المسعى فسعى راكبًا والقواد يحفون به، والحرابة بين يديه، ثم يسير إلى منزله. وهذا اليوم عندهم عيد من الأعياد يلبسون فيه أحسن الثياب ويتنافسون فى ذلك.

عمرة رجب

وأهل مكة يحتفلون لعمرة رجب الاحتفال الذى لا يعهد مثله، وهى متصلة ليلاً ونهاراً. وأوقات الشهر كله معمورة بالعبادة، وخصوصًا أول يوم منه، ويوم خمسة عشر، والسابع والعشرين. فإنهم يستعدون لها قبل ذلك بأيام. شاهدتهم فى ليلة السابع والعشرين منه، وشوارع مكة قد غصت بالهوادج[٢] عليها كساء الحرير والكتان الرفيع. كل واحد يفعل بقدر

---

(١) يعنى: الراكب والراجل الذى يمشى على رجله.

(٢) الهودج: مقصورة ذات قبة توضع على ظهر الجمل لتركب فيها النساء والجمع هوادج.

استطاعته، والجمال مزينة مقلدة بقلائد الحرير، وأستار الهوادج ضافية تكاد تمس الأرض فهى كالقباب المضروبة. ويخرجون إلى ميقات التنعيم فتسيل أباطح مكة بتلك الهوادج، والنيران مشعة بجنبتى الطريق، والشمع والمشاعل أمام الهوادج، والجبال تجيب بصداها إهلال المهللين، فترق النفوس، وتنهمل الدموع. فإذا قضوا العمرة، وطافوا بالبيت، خرجوا إلى السعى بين الصفا والمروة بعد مضى شىء من الليل، والمسعى متقد السرج غاص بالناس، والساعيات على هوادجهنّ، والمسجد الحرام يتلألأ نوراً. وهم يسمون هذه العمرة بالعمرة الأكمية، لأنهم يحرمون بها من أكمة مسجد عائشة -رضي الله عنها- بمقدار غلوة، على مقربة من المسجد المنسوب إلى على -رضي الله عنه-. والأصل فى هذه العمرة أن عبد الله بن الزبير -رضي الله عنهما- لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة خرج ماشيًا حافيًا معتمراً، ومعه أهل مكة وذلك فى اليوم السابع والعشرين من رجب، وانتهى إلى الأكمة فأحرم منها، وجعل طريقه على ثنية الحجون إلى المعلى، من حيث دخل المسلمون يوم الفتح. فبقيت تلك العمرة سنة عند أهل مكة إلى هذا العهد، وكان عهد عبد الله مذكوراً أهدى فيه بدنًا كبيرة، شكراً لله على ما وهبهم من التيسير والمعونة فى بناء بيته الكريم، على الصفة التى كانت عليها فى أيام الخليل -صلوات الله عليه-. ثم لما قتل ابن الزبير نقض الحجاجُ الكعبةَ، وَرَدّهـا إلى بنائها فى عهد قريش وكانوا قد اقتصروا فى بنائها، وأبقاها رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- على ذلك، لحدثان عهدهم بالكفر. ثم أراد الخليفةُ أبو جعفر المنصورَ أن يُعيدَهَا إلى بناء ابن الزبير، فنهاه مالك رحمه الله عن ذلك، وقال: يا أمير المؤمنين، لا تجعل البيت ملعبة للملوك، متى أراد أحدهم أن يغير فعل. فتركه على حاله سداً للذريعة وأهل البلاد الموالية لمكة، مثل بجيلة وزهران وغامد، يبادرون لحضور عمرة رجب ويجلبون إلى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب والزيت واللوز، فترخص الأسعار بمكة ويرغد(١) عيش أهلها وتعمم المرافق، ولولا أهل هذه البلاد لكان أهل مكة فى

(١) يُقال: رغد العيش يرغُد رَغَدًا ورغادة: اتسع وأخصب ونعُم وطاب. فهو رغد، ورغيد. الوجيز ص(٢٦٩).

شظف[١] من العيش. ويذكر أنهم متى أقاموا ببلادهم، ولم يأتوا بهذه الميرة[٢] أجدبت بلادهم ووقع الموت فى مواشيهم. ومتى أوصلوا الميرة أخصبت بلادهم وظهرت فيها ووقع الموت فى مواشيهم. ومتى أوصلوا الميرة أخصبت بلادهم وظهرت فيها ووقع البركة ونمت أموالهم. فهم إذا حان وقت ميرتهم وأدركهم كسل عنها، اجتمعت نساؤهم فأخرجنهم. وهذا من لطائف صنع الله تعالى وعنايته ببلده الأمين. وبلاد السرو التى يسكنها بجيلة وزهران وغامد وسواهم من القبائل مخصبة كثيرة الأعناب وافرة الغلات، وأهلها فصحاء الألسن، لهم صدق نية وحسن اعتقاد. وهم إذا طافوا بالكعبة يتطارحون عليها، لائذين بجوارها، متعلقين بأستارها، داعين بأدعية تتصدع لرقتها القلوب، وتدمع العيون الجامدة، فترى الناس حولها باسطى أيديهم مؤمّنين على أدعيتهم. ولا يتمكن لغيرهم الطواف معهم، ولا استلام الحجر، لتزاحمهم على ذلك. وهم شجعان أنجاد، ولباسهم الجلود. وإذا وردوا مكة هابت أعراب الطريق مقدمتهم، وتجنبوا اعتراضهم، ومن صحبهم من الزوار حمد صحبتهم. وذكر أن النبى -ﷺ- ذكرهم، وأثنى عليهم خيراً وقال: «**علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء**». وكفاهم شرفًا دخولهم فى عموم قوله -ﷺ-: «**الإيمان يمان والحكمة يمانية**»[٣]. وذكر أن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- كان يتحرى وقت طوافهم ويدخل فى جملتهم تبركًا بدعائهم. وشأنهم عجيب كله، وقد جاء فى أثر: «**زاحموهم فى الطواف، فإن الرحمة تنصبّ عليهم صبًّا**».

وليلة النصف من شعبان هى من الليالى المعظمة عند أهل مكة، يبادرون فيها إلى أعمال البر من الطواف والصلاة جماعات وأفذاذًا[٤] والاعتمار. ويجتمعون فى المسجد الحرام جماعة، لكل جماعة إمام. ويوقدون السرج والمصابيح والمشاعل. ويقابل ذلك ضوء القمر فتتلألأ الأرض والسماء نورًا ويصلون مائة ركعة، يقرأون فى كل ركعة بأم القرآن وسورة الأخلاص،

(١) يُقال: شظُف العيش ، يشظُف شظفًا: ضاق واشتد. الوجيز ص(٣٤٣).
(٢) الميرة: الطعام يجمع للسفر ونحوه. الوجيز ص(٥٩٦).
(٣) الحديث أخرجه البخارى (٤٣٨٨)، ومسلم (٥٢)، والترمذى (٤٩٦١)، وأحمد (٢/ ٥٤١)، وابن حبان (٥٧٧٤).
(٤) الفذ: الفرد. الوجيز ص(٤٦٥).

يكررونهما عشراً وبعض الناس يصلون فى الحِجْر منفردين، وبعضهم يطوفون بالبيت الشريف، وبعضهم قد خرجوا للاعتمار(١).

ومن عادتهم فى شهر رمضان المعظم أنه إذا أهلَّ هلال رمضان تضرب الطبول والدبادب عند أمير مكة. ويقع الاحتفال بالمسجد الحرام، من تجديد الحصر، وتكثير الشمع والمشاعل، حتى يتلألأ الحرم نوراً، ويسطع بهجة وإشراقًا. وتتفرق الأئمة فرقًا. وهم الشافعية والحنبلية والحنفية والزيدية، وأما المالكية فيجتمعون على أربعة من القراء، يتناوبون القراءة ويوقدون الشمع ولا تبقى فى الحرم زاوية ولا ناحية إلا وفيها قارىء يصلى بجماعة، فيرتج المسجد لأصوات القراء، وترق النفوس وتحضر القلوب وتهمل الأعين(٢). ومن الناس من يقتصر على الطواف والصلاة فى الحجر منفرداً. والشافعية أكثر الأئمة اجتهاداً، وعاداتهم أنهم إذا أكملوا التراويح المعتادة، وهى عشرون ركعة، يطوف إمامهم وجماعته. فإذا فرغ من الأسبوع ضربت الفرقعة التى ذكرنا أنها تكون بين يدى الخطيب يوم الجمعة، كان ذلك إعلامًا بالعودة إلى الصلاة. ثم يصلى ركعتين، ثم يطوف أسبوعًا هكذا إلى أن يتم عشرين ركعة أخرى. ثم يصلون الشفع والوتر، وينصرفون. وسائر الأئمة لا يزيدون على العادة شيئًا. وإذا كان وقت السحور يتولى المؤذن الزمزمى التسحير فى الصومعة التى بالركن الشرقى من الحرم، فيقوم داعيًا مذكراً ومحرضًا على السحور، وهكذا يفعلون فى سائر الصوامع. فإذا تكلم أحد منهم أجابه صاحبه، وقد نصبت فى أعلى كل صومعة خشبة على رأسها عود معترض، قد علق فيه قنديلان من الزجاج كبيران يوقدان، فإذا قرب الفجر وقع الإيذان بالقطع مرة بعد مرة، وحط القنديلان، وابتدأ المؤذنون بالأذان. وأجاب بعضهم بعضًا. ولديار مكة شرفها الله سطوح. فمن بعدت داره بحيث لا يسمع الأذان يبصر القنديلين المذكورين فيتسحر. حتى إذا لم يبصرهما أقلع عن الأكل. وفى ليلة

(١) الاحتفال بليلة النصف من شعبان من البدع التى لم يفعلها السلف ولم يرد فيها حديث صحيح.

(٢) يُقال: هملت العينُ تهمُل هملاً وهملانًا: فاضت وسالت. الوجيز ص(٦٥٢).

وتر من ليـالى العشر الأواخـر من رمضـان يختـمون القـرآن ويحضـر الختم القاضى والفقهاء والكبراء. ويكون الذى يـختم بها أحد أبناء كبراء أهل مكة. فإذا ختم، نصب له منبر مزين بالحـرير، وأوقد الشمع، وخطب فإذا فرغ من خطبته استـدعى أبوه الناس إلى منزله فأطعـمهم الأطعمة الكثـيرة والحلاوات وكذلك يصنعون فى جمـيع ليالى الوتر. وأعظم من تلك الليالى عندهم ليلة سبع وعشرين. واحـتفالهم لها أعظم من احتفالهم لسـائر الليالى. ويختم بها القرآن العظيم خلف المقـام الكريم. وتقام إزاء حطيم الشافعـية خشب عظام، توصل بالحطيم، وتعرض بينهـا ألواح طوال، وتجعل ثلاث طبقات، وعـليها الشمع وقنديل الزجاج، فيكاد يغشى الأبصـار شعاع الأنوار، ويتقدم الإمام، فيصلى فـريضة العشاء الآخرة، ثم يـبتدىء قراءة سورة القـدر. وإليها يكون انتهاء قراءة الأئمـة فى الليلة التى قبلها وفى تلك الساعة يمسـك جميع الأئمة عن التراويح تعظيـمًا لختمة المقـام، ويحضرونها مـتبركين، فيـختم الإمام فى تسليمتين، ثم يقوم خطيـبًا مستقبلَ المقامِ، فـإذا فرغ من ذلك عاد الأئمة إلى صلاتهم، وانفض الجميع. ثم يكون الختم ليلة تسع وعشرين فى المقام المالكى فى منظر مختصر وعن المباهاة منزه موقر فيختم ويخطب.

ومن عادتهم فى شوال، وهو مفتتح أشهر الحج المعلومات، أن يوقدوا المشاعل ليلة استهلاله، ويسرجـون المصابيح والشمع، على نحو فعلهم فى ليلة سـبع وعشـرين من رمضان. وتـوقد السرج فى الـصوامع من جـميع جهـاتها، ويوقد سطح الحـرم كله وسطح المسجد الذى بأعلى أبى قـبيس، ويقيـم المؤذنون ليلتهم فى تهليل وتكـبير وتسـبيح، والناسُ مـا بين طواف وصلاة وذكـر ودعاء فـإذا صلوا صلاة الصـبح أخذوا فى أهـبة[1] العـيد، ولبسوا أحسن ثيابهم. وبادروا لأخذ مـجالسهم بالحرم الشريف، به يصلون صلاة العيـد، لأنه لا موضع أفضل منه. ويكون أول من يبكر إلى المـسجد

---

(١) يعنى فى الاستعداد له.

الشيبيون فيفتحون باب الكعبة المقدسة، ويقعد كبيرهم فى عتبتها، وسائرهم بين يديه، إلى أن يأتىَ أميرُ مكةَ فيتلقونه، ويطوف بالبيت أسبوعًا، والمؤذن الزمزمى فوق سطح قبة زمزم على العادة، رافعًا صوته بالثناء عليه والدعاء له ولأخيه كما ذكر، ثم يأتى الخطيب بين الرايتين السوداوين، والفرقعة أمامه، وهو لابس السواد، فيصلى خلف المقام الكريم، ثم يصعد المنبر ويخطب خطبة بليغة. ثم إذا فرغ منها أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام والمصافحة والاستغفار، ويقصدون الكعبة الشريفة فيدخلونها أفواجًا، ثم يخرجون إلى مقبرة باب المعلّى، تبركًا بمن فيها من الصحابة وصدور السلف ثم ينصرفون.

خبر إحرام الكعبة

وفى اليوم السابع والعشرين من شهر ذى القعدة تشمر أستار الكعبة، زادها الله تعظيمًا، إلى نحو ارتفاع قامة ونصف من جهاتها الأربع صونًا لها من الأيدى أن تنتهبها. ويسمون ذلك إحرام الكعبة وهو يوم مشهود بالحرم الشريف. ولا تفتح الكعبة المقدسة من ذلك اليوم حتى تنقضى الوقفة بعرفة.

شعائر الحج وأعماله

وإذا كان فى أول يوم شهر ذى الحجة، تضرب الطبول والدبادب فى أوقات الصلوات بكرة وعشية، إشعارها بالموسم المبارك. ولا تزال كذلك إلى يوم الصعود إلى عرفات. فإذا كان اليوم السابع من ذى الحجة خطب الخطيب إثر صلاة الظهر خطبة بليغة، يعلم الناس فيها مناسكهم، ويعلمهم بيوم الوقفة، فإذا كان اليوم الثانى بكر الناسُ بالصعودِ إلى مِنًى. وأمراء مصر والشام والعراق وأهل العلم يبيتون تلك الليلة بمنى وتقع المباهاة والمفاخرة بين أهل مصر والشام والعراق فى إيقاد الشمع. ولكن الفضل فى ذلك لأهل الشام دائمًا. فإذا كان اليوم التاسع رحلوا من منى بعد صلاة الصبح إلى

عرفة. فيمرون فى طريقهم بوادى محسر، ويهرولون(١)، وذلك سنة. ووادى محسر هو الحد ما بين مزدلفة ومنى، ومزدلفة بسيط من الأرض فسيح بين جبلين، وحولها مصانع وصهاريج للماء، مما بنته زبيدة ابنة جعفر بن أبى جعفر المنصور زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد. وبين منى وعرفة خمسة أميال، وكذلك بين منى ومكة أيضًا خمسة أميال. ولعرفة ثلاثة أسماء وهى، عرفة وجمع والمشعر الحرام، وعرفات بسيط من الأرض فسيح أفيح، تحدق(٢) به جبال كثيرة. وفى آخر بسيط عرفات جبل الرحمة، وفيه الموقف، وفيما حوله، والعلمان قبله بنحو ميل، وهما الحد ما بين الحل والحرم. وبمقربة منهما مما يلى عرفة بطن عرنة الذى أمر النبى -ﷺ- بالارتفاع عنه، ويجب التحفظ منه، ويجب أيضًا الإمساك عن النفور حتى يتمكن سقوط الشمس. فإن الجمّالين ربما استحثوا كثيرًا من الناس، وحذروهم الزحام فى النفر، واستدرجوهم إلى أن يصلوا بهم بطن عرنة، فيبطل حجهم. وجبل الرحمة الذى ذكرناه قائم وسط بسيط جمع منقطع عن الجبال، وهو من حجارة منقطع بعضها عن بعض، وفى أعلاه قبة تنسب إلى أم سلمة -رضي الله عنها-، وفى وسطها مسجد يتزاحم الناس للصلاة فيه، وحوله سطح فسيح يشرف على بسيط عرفات، وفى قبليه جدار فيه محاريب منصوبة يصلى فيه الناس، وفى أسفل هذا الجبل عن يسار المستقبل للكعبة دار عتيقة البناء تنسب إلى آدم -عليه السلام-، وعن يسارها الصخرات التى كان موقف النبى -ﷺ- عندها، وحول ذلك صهاريج وجبات للماء، وبمقربة منه الموضع الذى يقف فيه الإمام ويخطب ويجمع بين الظهر والعصر، وعن يسار العلمين للمستقبل أيضًا وادى الأراك وبه أراك(٣) أخضر يمتد فى الأرض امتدادًا طويلاً، وإذا حان وقت النفر أشار الإمام المالكى بيده، ونزل عن موقفه، فدفع الناس بالنفر دفعة ترتج لها

---

(١) يُقال هرول: أسرع، بين العَدْو والمشى. والهرولة: سير حثيث بين الصفا والمروة. الوجيز ص(٦٤٩).

(٢) أى: تحيط به، انظر الوجيز ص(١٤٠).

(٣) وهو الشجر الذى يؤخذ منه السواك.

الأرض، وترجف الجبال. فياله موقفًا كريمًا ومشهدًا عظيمًا ترجو النفوس حسن عقباه، وتطمح الآمال إلى نفحات رحماه، جعلنا الله ممن خصه فيه برضاه. وكانت وقفتى الأولى يوم الخميس سنة ست وعشرين، وأمير الركب المصرى يومئذ أرغون الدوادار نائب الملك الناصر. وحجت فى تلك السنة ابنة الملك الناصر وهى زوجة أبى بكر بن أرغون المذكور. وحجت فيها زوجة الملك الناصر والمسماة بالخوندة، وهى بنت السلطان المعظم محمد أوزبك ملك السرا وخوارزم، وأمير الركب الشامى سيف الدين الجوبان. ولما وقع النفر بعد غروب الشمس، وصلنا مزدلفة عند العشاء الآخرة، فصلينا بها المغرب والعشاء جمعًا بينهما حسبما جرت سنة رسول الله -ﷺ-، ولما صلينا الصبح بمزدلفة غدونا منها إلى منى بعد الوقوف والدعاء بالمشعر الحرام. ومزدلفة كلها موقف إلا وادى مُحسِّر، ففيه تقع الهرولة حتى يخرج عنه. ومن مزدلفة يستصحب أكثر الناس حصيات الجمار، وذلك مستحب. ومنهم من يلقطها حول مسجد الخيف. والأمر فى ذلك واسع. ولما انتهى الناس إلى منى بادروا لرمى جمرة العقبة، ثم نحروا وذبحوا، ثم حلقوا وحلُّوا من كل شىء إلا النساء والطيب حتى يطوفوا طواف الإفاضة ورمى هذه الجمرة عند طلوع الشمس من يوم النحر. لما رموها توجه أكثر الناس بعد أن ذبحوا وحلقوا إلى طواف الإفاضة. ومنهم من أقام إلى اليوم الثانى. وفى اليوم الثانى رمى الناس عند زوال الشمس بالجمرة الأولى سبع حصيات، وبالوسطى كذلك، ووقفوا للدعاء بهاتين الجمرتين اقتداء بفعل رسول الله -ﷺ-. ولما كان اليوم الثالث تعجل الناس الانحدار إلى مكة شرفها الله، بعد أن كمل لهم رمى تسع وأربعين حصاة . وكثير منهم أقام اليوم الثالث بعد يوم النحر حتى رمى سبعين حصاة.

خبر كسوة الكعبة

وفى يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصرى إلى البيت الكريم، فوضعت فى سطحه، فلما كان اليومُ الثالثُ بعد يومِ النحرِ

أخذ الشيبيـون فى إسبالها على الكعبة الشريفة. وهـى كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطنة بالكتان وفى أعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا﴾ الآية(١). وفى سائر جـهاتهـا طراز مكتوب بالبياض فـيها آيات من القرآن، وعليها نور لائح مـشرق من سوادها. ولما كـسيت شـمرت أذيالـها صـونًا من أيدى الناس. والملك الناصـر هو الذى يتولى كـسوة الكعـبة الكريمة، ويبعث مـرتبات القاضـى والخطيب والأئمة والمؤذنين والفـراشين والقومـة، وما يحـتاج له الحـرم الشريف من الشـمع والزيت فى كل سنـة. وفى هذه الأيام تفـتح الكعـبـة كل يوم للعـراقـيين والخراسانيين وسواهم ممن يصل مع الركب العـراقى، وهم يقيمون بمكة بعد سفـر الركبين الشامى والمصـرى أربعة أيام، فيكثـرون فيها الصـدقات على المجاورين وغـيرهم. ولقـد شاهدتهم يطوفون بالحـرم ليلاً. فـمن لقوه فى الحـرم من المجاورين أو المكيـين أعطوه الفضـة والثـياب، وكـذلك يعطون للمشـاهدين الكعبـة الشريفـة، وربما وجدوا إنسـانًا نائمًا فـجعلوا فى فـيه الذهب والفضة حتى يفيق. ولما قدمتُ معهم من العراق سنة ثمان وعشرين فعلوا من ذلـك كثيـرًا، وأكثروا الصـدقة حتى رخص سـومُ الذهب بمكة، وانتهى صرف المثقـال إلى ثمانية عشر درهمًا نقرة لكثـرة ما تصدقوا به من الذهب. وفى هذه السنة ذُكر اسـم السلطان أبى السعيـد ملك العراق على المنبر وقبة زمزم.

الخروج من مكة شرفها الله تعالى

وفى العشرين من ذى الحجة خرجتُ من مكةَ صـحبة أمير ركب العراق البهلوان محمد الحـويح (بحاءين مهملين)، وهو من أهل الموصل. وكان يلى إمارة الحاج بعد موت الشيخ شـهاب الدين قلندر، وكان شهاب الدين سخيًّا فاضلاً عظيم الحرمة عند سلطانه، يحلق لحيته وحاجبيه على طريقة القلندرية. ولما خرجت من مـكة شرفهـا الله تعالى فى صـحبة الأمـير البـهلوان المذكور

(١) سورة المائدة: ٩٧.

اكترى لى شقة محارة(١) إلى بغداد، ودفع إجارتها من ماله، وأنزلنى فى جواره. وخرجنا بعد طواف الوداع إلى بطن مَرّ، فى جمع من العراقيين والخراسانيين والفارسيين والأعاجم، لا يحصى عديدهم تموج بهم الأرض موجًا، ويسيرون سير السحاب المتراكم. فمن خرج عن الركب لحاجة، ولم تكن له علامة يستدل بها على موضعه، ضل عنه لكثرة الناس. وفى هذا الركب نواضح(٢) كثيرة لأبناء السبيل يستقون منها الماء، وجمال لرفع الراد للصدقة ورفع الأدوية والأشربة والسكر لمن يصيبه مرض وإذا نزل الركب طبخ الطعام فى قدور نحاس عظيمة تسمى الدسوت، وأطعم منها أبناء السبيل ومن لا زاد معه. وفى الركب جملة من الجمال يحمل عليها من لا قدرة له على المشى. كل ذلك من صدقات السلطان أبى سعيد ومكارمه.

قال ابنُ جُزَىٍّ: كرم الله هذه الكنية الشريفة، فما أعجب أمرها فى الكرم، وحسبك بمولانا بحر المكارم ورافع رايات الجود الذى هو آية الندى والفضل أمير المسلمين أبى سعيد ابن مولانا قامع الكفار والآخذ للإسلام بالثار أمير المسلمين يوسف قدس الله أرواحهم الكريمة وأبقى الملك فى عقبهم الطاهر إلى يوم الدين.

وفى هذا الركب الأسواق الحافلة والمرافق العظيمة وأنواع الأطعمة والفواكه وهم يسيرون بالليل ويوقدون المشاعل أمام القطار والمحارات، فترى الأرض تتلألأ نوراً والليل قد عاد نهاراً ساطعًا ثم رحلنا من بطن مر إلى عسفان ثم إلى خليص، ثم رحلنا أربع مراحل، ونزلنا وادى السمك، ثم رحلنا خمسًا، ونزلنا فى بدر وهذه المراحل ثنتان فى اليوم: أحدهما بعد الصبح والأخرى بالعشى،ثم رحلنا من بدر فنزلنا الصفراء، وأقمنا بها يومًا مستريحين، ومنها إلى المدينة الشريفة مسيرة ثلاث. ثم رحلنا فوصلنا إلى

---

(١) المحارة: تشبه الهودج.

(٢) الناضح: البعير يُستقى عليه، والأنثى ناضحة، وسانية. مختار الصحاح ص(٦٦٤).

طيبة مدينة رسول الله -ﷺ-، وحصلت لنا زيارة رسول الله -ﷺ- ثانيًا، وأقمنا بالمدينة كرمها الله تعالى ستة أيام، واستصحبنا منها الماء لمسيرة ثلاث، ورحلنا عنها فنزلنا فى الثالثة بوادى العروس، فتزودنا منه الماء من حسيات يحفرون عليها فى الأرض، فينبطون ماء عذبًا معينًا، ثم رحلنا من وادى العروس ودخلنا أرض نجد، وهو بسيط من الأرض على مد البصر، فتنسمنا نسيمه الطيب الأرج، ونزلنا بعد أربع مراحل على ماء يعرف بالعسيلة ثم رحلنا عنه ونزلنا ماء يعرف بالنقرة، فيه آثار مصانع كالصهاريج العظيمة، ثم رحلنا إلى ماء يعرف بالقارورة، وهى مصانع مملوءة بماء المطر مما صنعته زبيدة ابنة جعفر -رحمها الله ونفعها- وهذا الموضع هو وسط أرض نجد فسيح طيب النسيم صحيح الهواء نقى التربة معتدل فى كل فصل، ثم رحلنا من القارورة ونزلنا بالحاجز، وفيه مصانع للماء، وربما جفت فحفر عن الماء فى الجفار(١). ثم رحلنا ونزلنا سميرة، وهى أرض غائرة فى بسيط فيه شبه حصن مسكون وماؤها كثير فى الآبار، إلا أنه زعاق(٢) ويأتى عرب تلك الأرض بالغنم والسمن واللبن فيبيعون ذلك من الحجاج بالثياب الخام، ولا يبيعون بسوى ذلك ثم رحلنا ونزلنا بالجبل المخروق، وهو فى بيداء من الأرض، وفى أعلاه ثقب نافذة تخرقه الريح، ثم رحلنا منه إلى وادى الكروش ولا ماء به، ثم أسرينا ليلاً وصبحنا حصن فيد وهو حصن كبير فى بسيط من الأرض يدور به سور وعليه ربض(٣)، وساكنوه عرب يتعيشون مع الحاج فى البيع والتجارة. وهنالك يترك الحجاج بعض أزوادهم حين وصولهم من العراق إلى مكة شرفها الله تعالى، فإذا عادوا وجدوه وهو نصف الطريق من مكة إلى بغداد، ومنه إلى الكوفة مسيرة اثنى عشر يومًا فى طريق سهل به المياه فى المصانع، ومن عادة الركب أن يدخلوا هذا الموضع على تعبئة وأهبة للحرب، إرهابًا للعرب

---

(١) الجفار جمع جُفْرة، والجفرة: الحفرة الواسعة المستديرة. الوجيز ص(١٠٨).
(٢) الزُّعَاقُ من الماء: المرُّ الغليظ لا يطاق شربه. الوجيز ص(٢٨٨).
(٣) الربض: ما حول المدينة. الوجيز ص(٢٥١، ٢٥٢).

المجتمعين هنالك، وقطعًا لأطماعهم عن الركب وهنالك لقينا أميرى العرب، وهما فياض وحيارى واسمه (بكسر الحاء وإهماله وياء آخر الحروف)، وهما ابنا الأمير مهنا بن عيسى، ومعهما من خيل العرب ورجالهم من لا يحصون كثرة فظهر منهما المحافظة على الحاج والرحال والحوطة لهم، وأتى العرب بالجمال والغنم فاشترى منهم الناس ما قدروا عليه، ثم رحلنا ونزلنا الموضع الأجفر، ويشتهر باسم العاشِقَيْن: جميل وبثينة ثم رحلنا ونزلنا بالبيداء، ثم نزلنا زرود، وهى بسيط من الأرض فيه رمال منهالة وبه دور صغار، قد أداروها شبه الحصن، وهنالك آبار ماء ليست بالعذبة ثم رحلنا ونزلنا الثعلبية، ولها حصن خرب بإزائه مصنع هائل ينزل إليه فى درج، وبه من ماء المطر ما يعم الركب. ويجتمع من العرب بهذا الموضع جمع عظيم فيبيعون الجمال والغنم والسمن واللبن. ومن هذا الموضع إلى الكوفة ثلاث مراحل، ثم رحلنا فنزلنا ببركة المرجوم، وهو مشهد على الطريق عليه كوم عظيم من حجارة، وكل من مر به رجمه ويذكر أن هذا المرجوم كان رافضيًّا، فسافر مع الركب يريد الحج، فوقعت بينه وبين أهل السنة من الأتراك مشاجرة، فسب بعض الصحابة، فقتلوه بالحجارة. وبهذا الموضع بيوت كثيرة للعرب، ويقصدون الركب بالسمن واللبن وسوى ذلك، وبه مصنع كبير يعم جميع الركب مما بنته زبيدة -رحمة الله عليها-، وكل مصنع أو بركة أو بئر بهذا الطريق التى بين مكة وبغداد، فهى من كريم آثارها جزاها الله خيرًا، ووفى لها أجرها. ولولا عنايتها بهذا الطريق ما سلكها أحدٌ، ثم رحلنا ونزلنا موضعًا يعرف بالمشقوق، فيه مصنعان بهما الماء العذب الصافى، وأراق الناس ما كان عندهم من الماء وتزودوا منهما. ثم رحلنا ونزلنا موضعًا يعرف بالتنانير، وفيه مصانع تمتلىء بالماء، ثم أسرينا منه واجتزنا ضحوة بزمالة، وهى قرية معمورة بها قصر للعرب ومصنعان للماء وآبار كثيرة، وهى من مناهل هذا الطريق ثم رحلنا فنزلنا الهيثمين، وفيه مصنعان للماء ثم رحلنا فنزلنا دون

العقبة المعروفة بعقبة الشيطان، وصعدنا العقبة فى اليوم الثانى وليس بهذا الطريق وعر(١) سواها، على أنها ليست بصعبة ولا طائلة، ثم نزلنا موضعًا يسمى واقصة فيه قصر كبير ومصانع للماء، معمور بالعرب، وهو آخر مناهل هذا الطريق، وليس فيما بعده إلى الكوفة منهل مشهور إلا مشارع ماء الفرات، وبه يتلقى كثير من أهل الكوفة الحاج، ويأتون بالدقيق والخبز والتمر والفواكه، ويهنىء الناس بعضهم بعضًا بالسلامة، ثم نزلنا موضعًا يعرف بلورة، فيه مصنع كبير للماء، ثم نزلنا موضعًا يعرف بالمساجد، فيه ثلاثة مصانع، ثم نزلنا موضعًا يعرف بمنارة القرون، وهى منارة فى بيداءَ مِنَ الأَرْض بائنةُ الارتفاع مجللة(٢) بقرون الغزلان ولا عمارة حولها، ثم نزلنا موضعًا يعرف بالعذيب، وهو واد مخصب عليه عمارة وحوله فلاة خصبة فيها مسرح للبصر. ثم نزلنا القادسية حيث كانت الوقعة الشهيرة على الفرس التى أظهر الله فيها دين الإسلام وأذل المجوس عبدة النار فلم تقم لهم بعدها قائمة واستأصل الله شأفتهم(٣)، وكان أمير المسلمين يومئذ سعد بن أبى وقاص -رضي الله عنه-. وكانت القادسية مدينة عظيمة افتتحها سعد -رضي الله عنه-، وخربت فلم يبق منها الآن إلا مقدار قرية كبيرة، وفيها حدائق النخل وبها مشارع من ماء الفرات، ثم رحلنا منها فنزلنا مدينة مشهد على ابن أبى طالب -رضي الله عنه- بالنجف، وهى مدينة حسنة فى أرض فسيحة صلبة من أحسن مدن العراق وأكثرها ناسًا وأتقنها بناء ولها أسواق حسنة نظيفة دخلناها من باب الحضرة، فاستقبلنا سوق البقالين والطباخين والخبازين، ثم سوق الفاكهة ثم سوق الخياطين والقيسارية ثم سوق العطارين ثم الحضرة حيث القبر الذى يزعمون أنه قبر على -عليه السلام-، وبإزائه المدارس والزوايا والخوانق معمورة أحسن عمارة، وحيطانها بالقاشانى وهو شبه الزليج عندنا لكن لونه أشرق ونقشه أحسن.

---

(١) يُقال وعر المكان يوعر وعورة: صلب. الوجيز ص(٦٧٥).

(٢) يُقال: جلل الشىء: عمه، وغطاه. الوجيز ص(١١٢).

(٣) يُقال استأصل الله شأفته: أزاله من أصله. الوجيز ص(٣٣٣).

خبر الروضة والقبور التى فيها

ويدخل من باب الحضرة إلى مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة ولكل وارد عليها ضيافة ثلاثة أيام من الخبز واللحم والتمر مرتين فى اليوم، ومن تلك المدرسة يدخل إلى باب القبة، وعلى بابها الحجاب والنقباء والطواشية[1]، فعندما يصل الزائر يقوم إليه أحدهم أو جميعهم وذلك على قدر الزائر، فيقفون معه على العتبة ويستأذنون له، ويقولون عن أمركم يا أمير المؤمنين هذا العبد الضعيف يستأذن على دخوله الروضةَ العليةَ، فإن أذنتم له وإلا رجع، وإن لم يكن أهلاً لذلك فأنتم أهلُ المكارمِ والسترِ، ثم يأمرونه بتقبيل العتبة وهى من الفضة، وكذلك العضادتان، ثم يدخل القبة وهى مفروش بأنواع البسط من الحرير وسواه، وبها قناديل الذهب والفضة، منها الكبار والصغار، وفى وسط القبة مسطبة مربعة مكسوة بالخشب، عليه صفائح الذهب المنقوشة المحكمة العمل، مسمرة بمسامير الفضة، قد غلبت على الخشب بحيث لا يظهر منه شىء، وارتفاعها دون القامة، وفوقها ثلاثة من القبور، يزعمون أن أحدهم قبر آدم -عليه الصلاة والسلام-، والثانى قبر نوح -عليه الصلاة والسلام-، والثالث قبر على -رضى الله تعالى عنه-، وبين القبور طسوت ذهب وفضة فيها ماء الورد والمسك وأنواع الطيب يغمس الزائر يده فى ذلك ويدهن به وجهه تبركًا. وللقبة بابٌ آخرُ عتبته أيضًا من الفضة وعليه ستور الحرير الملون يفضى إلى مسجد مفروش بالبسط الحسان، مستورة حيطانه وسقفه بستور الحرير، وله أربعة أبواب، عتباتها فضة وعليها ستور الحرير، وأهلُ هذه المدينة كلهم رافضية. وهذه الروضة ظهرت لها كرامات ثبت بها عندهم أن بها قبر على -ﷺ-، فمنها: أن فى ليلة السابع والعشرين من رجب وتسمى عندهم ليلة المحيا، يؤتى إلى تلك الروضة بكل مقعد من العراقين وخراسان وبلاد فارس والروم، فيجتمع منهم الثلاثون والأربعون ونحو ذلك، فإذا كان بعد العشاء الآخرة جعلوا فوق الضريح

---

(١) الطواشى: الخَصِىُّ. وهم الطَّواشيّة. الوجيز ص(٣٩٧).

المقدس، والناس ينتظرون قيامهم، وهم ما بين مصلٍّ وذاكرٍ وتالٍ ومشاهد للروضة فإذا مضى من الليل نصفه، أو ثلثاه أو نحو ذلك، قام الجميع أصحاء من غير سوء، وهم يقولون: لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله على ولى الله وهذا أمر مستفيض عندهم سمعته من الثقات، ولم أحضرْ تلك الليلة، لكنى رأيت بمدرسة الضياف ثلاثة من الرجال: أحدهم من أرض الروم والثانى من أصبهان والثالث من خراسان، وهم مقعدون، فاستخبرتهم عن شأنهم، فأخبرونى أنهم لم يدركوا ليلة المحيا، وأنهم منتظرون أوانها من عام آخر. وهذه الليلة يجتمعُ لها الناسُ من البلاد، ويقيمون سوقًا عظيمةً مدةَ عشرةِ أيامٍ، وليس بهذه المدينة مغرم ولا مكاس[١] ولا والٍ وإنما يحكم عليهم نقيب الأشراف وأهلها تجار يسافرون فى الأقطار، وهم أهل شجاعة وكرم ولا يضام جارهم[٢]. صَحِبتُهم فى الأسفار فحمدت صحبتهم، لكنهم غلوا فى على -رضي الله عنه-، ومن الناس فى بلاد العراق وغيرها من يصيبه المرض فينذر للروضة نذرًا إذا برىء، ومنهم من يمرض رأسه فيصنع رأسًا من ذهب أو فضة ويأتى به إلى الروضة، فيجعله النقيب فى الخزانة، وكذلك اليد والرجل وغيرهما من الأعضاء وخزانة الروضة عظيمةفيها من الأموال ما لا يضبط لكثرته.

خبر نقيب الأشراف

ونقيب الأشراف مقدم من ملك العراق، ومكانه عنده مكين، ومنزلته رفيعة، وله ترتيب الأمراء الكبار فى سفره، وله الأعلام والأطبال، وتضرب الطبلخانة عند بابه مساء وصباحًا، وإليه حكم هذه المدينة، ولا والى بها سواه، ولا مغرم فيها للسلطان ولا لغيره. وكان النقيب فى عهد دخولى إليها نظام الدين حسين بن تاج الدين الآوى، نسبة إلى بلدة آوة من عراق العجم، أهلها رافضة، وكان قبله جماعة، يلى كل واحد منهم بعد صاحبه، منهم جلال الدين

(١) مكّاس جمع ماكس، وهو الذى يأخذ الضريبة ممن يدخلون البلد من التجار. الوجيز ص(٥٨٧).

(٢) يعنى: لا يظلم. الوجيز ص(٣٨٤).

ابن الفقيه، ومنهم قوام الدين بن طاوس، ومنهم ناصر الدين مطهر ابن الشريف الصالح شمس الدين محمد الأوهرى من عراق العجم، وهو الآن بأرض الهند من ندماء ملكها، ومنهم أبو غرة بن سالم بن مهنا بن جماز ابن شيحة الحسينى المدنى.

كان الشريف أبو غرة قد غلب عليه فى أول أمره العبادة وتعلم العلم واشتهر بذلك، وكان بالمدينة الشريفة كرمها الله فى جوار ابن عمه منصور بن جماز أمير المدينة، ثم إنه خرج عن المدينة واستوطن العراق وسكن منها بالحلة، فمات النقيب قوام بن طاوس فاتفق أهلُ العراقِ على تولية أبى غرة نقابة الأشراف، وكتبوا بذلك إلى السلطان أبى سعيد فأمضاه ونفذ له اليرليغ، وهو الظهير بذلك، وبعث له الخلعة والأعلام والطبول على عادة النقباء ببلاد العراق، فغلبت عليه الدنيا، وترك العبادة والزهد، وتصرف فى الأموال تصرفًا قبيحًا فرفع أمره إلى السلطان، فلما علم بذلك أعمل السفر، مظهرًا أنه يريد خراسان، قاصدًا زيارة قبر على بن موسى الرضا بطوس، وكان قصده الفرار. فلما زار على بن موسى قدم هراة، وهى آخر بلاد خراسان، وأعلم أصحابه أنه يريد بلاد الهند، فرجع أكثرهم عنه، وتجاوز هو أرض خراسان إلى السند، فلما جاوز وادى السند المعروف ببنج آب ضرب طبوله وأنفاره فراع ذلك أهل القرى وظنوا أن التتر أتوا للإغارة عليهم، وأجفلوا(١) إلى المدينة المسماة بأوجا، وأعلموا أميرها بما سمعوه، فركب فى عساكره واستعد للحرب وبعث الطلايع، فرأوا نحو عشرة من الفرسان وجماعة من التجار والرجال ممن صحب الشريف فى طريقه، معهم الأطبال والأعلام، فسألوهم عن شأنهم، فأخبروهم أن الشريف نقيب العراق أتى وافدًا على ملك الهند، فرجع الطلايع إلى الأمير وأخبروه بكيفية الحال فاستضعف عقل الشريف لرفعه العلامات وضربه الطبول فى غير بلاده. ودخل الشريف مدينة أوجا وأقام بها مدة، تضرب الأطبال على باب داره غدوة وعشية، وكان مولعًا بذلك. ويذكر أنه كان فى أيام نقابته بالعراق تضرب الأطبال على

(١) أجفل: مضى وأسرع. الوجيز ص(١٠٩).

رأسه، فـإذا أمسـك النقار عن الضـرب يقول له زد نقـرة يا نقار حـتى لقب بذلك: وكـتب صاحب مـدينة أوجا إلى ملـك الهند بخبـر الشريف وضـربه الأطبال بالطريـق وعلى باب داره غدوة وعشـيًّا ورفعه الأعـلام وعادة أهل الهند أن لا يرفع علمًا ولا يضرب طبـلاً إلا من أعطاه الملك ذلك، ولا يفعله إلا فى السفـر، وأما فى حال الإقـامة فلا يضـرب الطبل إلا على باب الملك خاصة، بخلاف مصر والشام والعراق فإن الطبول تضرب على أبواب الأمراء، فلما بلغ خبـره ملك الهند كره فعله وأنكره وفعل فى نفســه، ثم خرج الأمير إلى حضرة الملك، وكـان الأمير كشلى خان، والخـان عندهم أعظم الأمراء، وهو الساكن بملتـان، كرسى بلاد السند، وهو عظيم القـدر عند ملك الهند، يدعو بالعم؛ لأنه كان ممن أعان أباه السلطان غياث الدين تغلق شاه على قتال السلطان ناصر الدين خـسرو شاه، قد قـدم على حضرة ملك الهند، فـخرج الملك إلى لقائه فاتفق أن كان وصول الـشريف فى ذلك اليوم، وكان الشريف قد سـبق الأميـر بأميـال وهو على حاله من ضـرب الأطبال، فلـم يرعه إلا السلطان فى موكبـه، فتقدم الشريف إلى السلطان فـسلم عليه وسأله السلطان عن حاله وما الذى جـاء به فأخبره، ومضى السلطان حتى لقى الأمـير كشلى خان وعاد إلى حضرته، ولم يلتفت إلى الشريف ولا أمر له بإنزال ولا غيره.

وكان الملك عازمًا على السفر إلى مدينة دولة أباد، وتسمى أيضًا بالكتكة (بفتح الكافين والتاء المعلوة التى بينهما) وتسمى أيضًا بالدونجر (دوكير)، وهى على مسيرة أربعين يومًا من مدينة دهلى حاضرة الملك.

فلما شرعَ الملكُ فى السـفرِ بعث إلى الشريف بخمـسمائة دينار دراهم، وصرفُها من ذهب المغـرب مائة وخمسة وعشرون ديـنارًا، وقال لرسوله إليه: قل له إن أراد الرجوع إلى بلاده فهذا زاده، وإن أراد السفر معنا فهى نفقته فى الطريق، وإن أراد الإقامـة بالحضرة فـهى نفقتـه حتى نرجع، فاغـتم الشريف لذلك، وكان قـصده أن يجزل له العـطاء، كما هى عـادته مع أمثاله واخـتار السفر صحـبة السلطان، وتعلق بالوزير أحمد بن أياس المدعو بخـواجة جهان وبذلك سماه الملك، وبه يدعوه هو، وبه يدعـوه سائر الناس، فإن عادتهم أنه

متى سمى الملك أحدًا باسم مضاف إلى الملك من عماد أو ثقة أو قطب، أو باسم مضاف إلى الجهان من صدر وغيره، فبذلك يخاطبه الملك وجميع الناس، ومن خاطبه، بسوى ذلك لزمته العقوبة فتأكدت المودة بين الوزير والشريف، فأحسن إليه ورفع قدره ولاطف الملك حتى حسن فيه رأيه، وأمر له بقريتين من قرى دور أباد، وأمره أن تكون إقامته بها، وكان هذا الوزير من أهل الفضل والمروءة ومكارم الأخلاق والمحبة فى الغرباء، والإحسان إليهم وفعل الخير وإطعام الطعام وعمارة الزوايا، فأقام الشريف يستغل القريتين ثمانية أعوام وحصل من ذلك مالاً عظيمًا، ثم أراد الخروج، فلم يمكنه، فإنه من خَدَمَ السلطانَ لا يُمكنه الخروج إلا بإذنه وهو محب فى الغرباء، فقليلاً ما يأذن لأحدهم فى السراح، فأراد الفرار من طريق الساحل فردّ منه، وقدم الحضرة، ورغب من الوزير أن يحاول قضية انصرافه، فتلطف الوزير فى ذلك حتى أذن له السلطان فى الخروج عن بلاد الهند، وأعطاه عشرة آلاف دينار من دراهمهم، وصرفُها من ذهب المغرب ألفان وخمسمائة دينار، فأتى بها فى بدرة، فجعلها تحت فراشه ونام عليها، لمحبته فى الدنانير وفرحه بها وخوفه أن يتصل لأحد من أصحابه شيء منها، فإنه كان بخيلاً، فأصابه وجع فى جنبه بسبب رقاده عليها ولم يزل يتزايد به وهو آخذ فى حركة سفره إلى أن توفى بعد عشرين يومًا من وصول البدرة إليه. أوصى بذلك المال للشريف حسن الجرانى، فتصدق بجملته على جماعة من الشيعة المقيمين بدهلى من أهل الحجاز والعراق وأهل الهند، لا يورثون بيت المال ولا يتعرضون لمال الغرباء ولا يسألون عنه، ولو بلغ ما عسى أن يبلغ. وكذلك السودان لا يتعرضون لمال الأبيض ولا يأخذونه، إنما يكون عند الكبار من أصحابه حتى يأتى مستحقه. وهذا الشريف أبو غرة له أخ اسمه قاسم، سكن غرناطة مدة، وبها تزوج بنت الشريف أبى عبد الله بن إبراهيم الشهير بالمكى، ثم انتقل إلى جبل طارق فسكنه إلى أن استشهد بوادى كرة من نظر الجزيرة الخضراء، وكان بهمة[1] من البهم لا يصطلى بناره، خرق المعتاد فى الشجاعة وله فيها أخبار

(١) البُهْمَةُ: المعضل من الأمور. جمعها بُهَم. الوجيز ص(٦٥).

شهيرة عند الناس، وترك ولدين هما فى كفالة ربيبهما الشريف الفاضل أبى عبد الله محمد بن أبى القاسم بن نفيس الحسينى الكربلائى الشهير ببلاد المغرب وبالعراق، وكان تزوج أمهما بعد موت أبيهما، وهو محسن لها جزاه الله خيرًا.

ولما تحصلت لنا زيارةُ أميرِ المؤمنين على -عليه السلام- سافر الركب إلى بغداد، وسافرت إلى البصرة صحبة رفقة كبيرة من عرب خفاجة، وهم أهل تلك البلاد، ولهم شوكةٌ عظيمةٌ وبأسٌ شديدٌ، ولا سبيلَ للسفر فى تلك الأقطار إلا فى صحبتهم فاكتريتُ جملاً على يد أمير تلك القافلة شامر بن دراج الخفاجى وخرجنا من مشهد على -عليه السلام-، فنزلنا الخورنق، موضع سكنى النعمان بن المنذر وآبائه من ملوك بنى ماء السماء، وبه عمارة وبقايا قباب ضخمة فى فضاء فسيح على نهر يخرج من الفرات، ثم رحلنا عنه فنزلنا موضعًا يعرف بقائم الواثق، وبه أثر قرية خربة ومسجد خرب لم يبق منه إلا صومعته، ثم رحلنا عنه آخذين مع جانب الفرات بالموضع المعروف بالعذار، وهو غابة قصب فى وسط الماء يسكنها أعراب يعرفون بالمعادى، وهم قطاع الطريق رافضية المذهب، خرجوا على جماعة من الفقراء تأخروا عن رفقتنا، فسلبوهم حتى النعال والكشاكل. وهم يتحصنون بتلك الغابة ويمتنعون بها ممن يريدهم، والسباع بها كثيرة. ورحلنا مع هذا الغدار ثلاث مراحل، ثم وصلنا مدينة واسط.

وهى حسنة الأقطار كثيرة البساتين والأشجار، بها أعلام يُهدَى الخير شاهدهم، وتُهدى الاعتبار مشاهدهم، وأهلها من خيار أهل العراق، بل هم خيرهم على الإطلاق. أكثرهم يحفظون القرآن الكريم ويجيدون تجويده بالقراءة الصحيحة، وإليهم يأتى أهل بلاد العراق برسم تعلم ذلك. وكان فى القافلة التى وصلنا فيها جماعة من الناس أتوا برسم تجويد القرآن على من بها من الشيوخ، وبها مدرسة عظيمة حافلة وفيها نحو ثلاثمائة خلوة[1] ينزلها

(١) الخلوة: مكان الانفراد بالنفس أو بغيرها، الوجيز ص(٢١٠).

الغرباء القادمون لتعلم القرآن. عمرها الشيخ تقى الدين عبد المحسن الواسطى، وهو من كبار أهلها وفقهائها. ويعطى لكل متعلم بها كسوة فى السنة، ويجرى له نفقته كل يوم، ويقعد هو وإخوانه وأصحابه لتعلم القرآن بالمدرسة، وقد لقيته وأضافنى وزودنى تمرًا ودراهم. ولما نزلنا مدينة واسط أقامت القافلة ثلاثًا بخارجها للتجارة. فسنح لى زيارة قبر الولى أبى العباس أحمد الرفاعى، وهو بقرية تعرف بأم عبيدة، على مسيرة يوم من واسط. فطلبت من الشيخ تقى الدين أن يبعث معى من يوصلنى إليها. فبعث معى ثلاثة من عرب بنى أسد، وهم قطان تلك الجهة. وأركبنى فرسًا له، وخرجت ظهرًا، فبت تلك الليلة بحوش بنى أسد، ووصلنا فى ظهر اليوم الثانى إلى الرواق، وهو رباط عظيم فيه آلاف من الفقراء. وصادفنا به قدوم الشيخ أحمد كوجك حفيد ولى الله أبى العباس الرفاعى الذى قصدنا زيارته. وقد قدم من موضع سكناه من بلاد الروم برسم زيارته قبر جده، وإليه انتهت الشياخة بالرواق. ولما انقضت صلاة العصر ضربت الطبول والدفوف، وأخذ الفقراء فى الرقص، ثم صلوا المغرب وقدموا السماط، وهو خبز الأرز والسمك واللبن والتمر، فأكل الناس، ثم صلوا العشاء الآخرة، وأخذوا فى الذكر، والشيخ أحمد قاعد على سجادة جده المذكور، ثم أخذوا فى السماع، وقد أعدوا أحمالاً من الحطب فأججوها نارًا، ودخلوا فى وسطها يرقصون ومنهم من يتمرغ فيها ومنهم من يأكلها بفمه حتى أطفأها جميعًا وهذا دأبهم. وهذه الطائفة الأحمدية مخصصون بهذا، وفيهم من يأخذ الحية العظيمة فيعض بأسنانه على رأسها حتى يقطعه.

كنت مررت بموضع يقال له: أفقانبور، من عمالة هزار أمروها، وبينها وبين دهلى حضرة الهند مسيرة خمس. وقد نزلنا بها على نهر يعرف بنهر السرور، وذلك فى أوان الشكال، والشكال عندهم هو المطر، وينزل فى إبان القيظ. وكان السيل ينحدر فى هذا النهر من جبال قراجيل. فكل من يشرب منه من إنسان أو بهيمة يموت لنزول المطر على الحشائش المسمومة. فأقمنا على النهر أربعة أيام لا يقربه أحد، ووصل إلى هنالك

جماعة من الفقراء فى أعناقهم أطواق الحديد وفى أيديهم، وكبيرهم رجل أسود حالك اللون. وهم من الطائفة المعروفة بالحيدرية. فباتوا عندنا ليلة، وطلب منى كبيرهم أن آتيه بالحطب ليوقدوه عند رقصهم، فكلفت والى تلك الجهة وهو عزيز المعروف بالخمار، (وسيأتى ذكره)، أن يأتى بالحطب فوجه منه نحو عشرة أحمال، فأضرموا فيه النار بعد صلاة العشاء الآخرة حتى صارت جمرًا، وأخذوا فى السماع، ثم دخلوا فى تلك النار، فما زالوا يرقصون ويتمرغون فيها، وطلب منى كبيرهم قميصًا، فأعطيته قميصًا فى النهاية من الرقة، فلبسه وجعل يتمرغ به فى النار ويضربها بأكمامه حتى طفئت تلك النار، وخمدت. وجاء إلىَّ بالقميص، والنار لم تؤثر فيه شيئًا ألبتة. فطال عجبى منه. ولما حصلت لى زيارة الشيخ أبى العباس الرفاعى -نفع الله به-، عدت إلى مدينة واسط، فوجدت الرفقة التى كنت فيها قد رحلت، فلحقتها فى الطريق ونزلنا ماء يعرف بالهضيب، ثم رحلنا بوادى الكراع وليس به ماء، ثم رحلنا ونزلنا موضعًا يعرف بالمشيرب. ثم رحلنا منه ونزلنا بالقرب من البصرة، ثم رحلنا فدخلنا ضحوة النهار إلى مدينة البصرة.

فنزلنا بها رباط مالك بن دينار، وكنت رأيت عند قدومى عليها على نحو ميلين منها بناء عاليًا مثل الحصن، فسألت عنه، فقيل لى: هو مسجد على بن أبى طالب -رضي الله عنه-. وكانت البصرة من اتساع الخطة وانفساح الساحة بحيث كان هذا المسجد فى وسطها. وبينه الآن وبينها ميلان، وكذلك بينه وبين السور الأول المحيط بها نحو ذلك، فهو متوسط بينهما. ومدينة البصرة إحدى أمهات العراق الشهيرة الذكر فى الآفاق الفسيحة الأرجاء المونقة(١) الأفناء، ذات البساتين الكثيرة والفواكه الأثيرة، توفر قسمها من النضارة والخصب، لما كانت مجمع البحرين: الأجاج والعذب، وليس فى الدنيا أكثر نخلاً منها، فيباع التمر فى سوقها بحساب أربعة عشر رطلاً عراقية بدرهم،

(١) يُقال: أنق يأنَق أنقًا وأناقة: راع حسنة وأعجب. فهو أنيق، وآنقه الشيءُ يؤنقه إيناقا: أعجبه، فهو مؤنق. الوجيز ص(٢٨).

ودرهمهم ثلث النقرة. ولقد بعث إلى قاضيها حجة الدين بقوصرة[١] تمر، يحملها الرجل على تكلف، فأردت بيعها، فبيعت بتسعة دراهم، أخذ الحمال منها ثلثها عن أجرة حملها من المنزل إلى السوق. ويصنع بها من التمر عسل يسمى السيلان، وهو طيب كأنه الجلاب.

والبصرة ثلاث محلات: إحداها محلة هذيل، وكبيرها الشيخ الفاضل علاء الدين بن الأثير، من الكرماء الفضلاء، أضافنى وبعث إلى بثياب ودراهم، والمحلة الثانية محلة بنى حرام، كبيرها السيد الشريف مجد الدين موسى الحسنى، ذو مكارم وفواضل، أضافنى وبعث إلى التمر والسيلان والدراهم، والمحلة الثالثة محلة العجم، كبيرها جمال الدين ابن اللوكى. وأهل البصرة لهم مكارم أخلاق وإيناس للغريب وقيام بحقه، فلا يستوحش[٢] فيما بينهم غريب. وهم يصلون الجمعة فى مسجد أمير المؤمنين على -رضي الله عنه- الذى ذكرته، ثم يسد فلا يأتونه إلا فى الجمعة. وهذا المسجد من أحسن المساجد، وصحنه متناهى الانفساح مفروش بالحصباء الحمراء التى يؤتى بها من وادى السباع، وفيه المصحف الكريم الذى كان عثمان -رضي الله عنه- يقرأ فيه لما قتل، وأثر تغييره الدم فى الورقة التى فيها قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٣].

حكاية اعتبار

شهدتُ مرةً بهذا المسجد صلاة الجمعة، فلما قام الخطيب إلى الخطبة وسردها، لحن فيها لحنًا كثيراً جليًّا، فعجبت من أمره، وذكرت ذلك للقاضى حجة الدين. فقال لى: إن هذا البلد لم يبق به من يعرف شيئًا

(١) القَوْصَرَّة: (بالتشديد) ما يكنز فيه التمر. من البوارى وقد تخفف انظر مختار الصحاح ص(٥٣٧).

(٢) استوحش فلان: وجد الوحشة. واستوحش منه: لم يأنس به. الوجيز ص(٦٦٢).

(٣) سورة البقرة: ١٣٧.

من علم النحو. وهذه عبرة لمن تفكر فيها. سبحان مغير الأشياء ومقلب الأمور. هذه البصرة التى إلى أهلها انتهت رياسة النحو، وفيها أصله وفرعه، ومن أهلها إمامه(١) الذى لا ينكر سبقه، لا يقيم خطيبها خطبة الجمعة على دؤوبه عليها. ولهذا الجامع سبع صوامع، إحداها الصومعة التى تتحرك بزعمهم، عند ذكر على بن أبى طالب -رضي الله عنه-. صعدت إليها من أعلى سطح الجامع، ومعى بعض أهل البصرة، فوجدت فى ركن من أركانها مقبض خشب مسمراً فيها، كأنه مقبض مملسة البناء. فجعل الرجل الذى كان معى يده فى ذلك المقبض، وقال: بحق رأس أمير المؤمنين على -رضي الله عنه-، تحركى، وهز المقبض، فتحركت الصومعة، فجعلت أنا يدى فى المقبض وقلت له، وأنا أقول: بحق رأس أبى بكر خليفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تحركى، وهززت المقبض فتحركت الصومعة، فعجبوا من ذلك. وأهل البصرة على مذهب السنة والجماعة، ولا يخاف من يفعل مثل فعلى عندهم، ولو جرى مثل هذا بمشهد الحسين، أو بالحلة، أو بالبحرين، أو قم، أو قاشان، أو ساوة، أو آوة، أو طوس، لهلك فاعله؛ لأنهم رافضة غالية.

قال ابن جزى: قد عاينت بمدينة برشانة من وادى المنصورة من بلاد الأندلس حاطها الله صومعة تهتز من غير أن يذكرها أحد من الخلفاء أو سواهم، وفى صومعة الجامع الأعظم بها، وبناؤها ليس بالقديم. وهى كأحسن ما أنت راء من الصوامع، حسن منظر واعتدالاً وارتفاعًا، لا ميل فيها ولا زيغ. صعدت إليها مرة، ومعى جماعة من الناس، فأخذ بعض من كان معى بجوانب جامورها وهزوها فاهتزت، حتى أشرت إليهم أن يكفوا فكفوا عن هزها.

(١) يقصد: سيبويه، إمام النحاة واسمه عمرو بن قنبر، أبو بشر، مولى بنى الحارث بن كعب. البداية والنهاية (١٠/ ١٩٠، ١٩١).

خبر المشاهد المباركة بالبصرة

فمنها مشهد طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة -رضي الله عنهم-، وهو بداخل المدينة وعليه قبة وجامع وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر. وأهلُ البصرةِ يعظمونه تعظيمًا شديدًا وحق له، ومنها مشهد الزبير بن العوام حوارى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وابن عمته -رضي الله عنهما-، وهو بخارج البصرة، ولا قبة عليه، وله مسجد وزاوية فيها الطعام لأبناء السبيل. وعلى ستة أميال منها بقرب وادى السباع قبر أنس بن مالك خادم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولا سبيل لزيارته إلا فى جمع كثيف لكثرة السباع وعدم العمران، ومنها قبر الحسن بن أبى الحسن البصرى سيد التابعين -رضي الله عنه-، وقبر عتبة الغلام -رضي الله عنه-، وقبر مالك بن دينار -رضي الله عنه-، وقبر حبيب العجمى -رضي الله عنه-، وقبر سهل بن عبد الله التسترى -رضي الله عنه-. وعلى كل قبر منها قبة مكتوب فيها اسم صاحب القبر ووفاته. وذلك كله داخل السور القديم. وهى اليوم بينها وبين البلد نحو ثلاثة أميال. وبها سوى ذلك قبور الجمّ الغفير من الصحابة والتابعين والمستشهدين يوم الجمل. وكان أمير البصرة حتى ورودى عليها يسمى بركن الدين العجمى التوريزى، أضافنى فأحسن إلى. والبصرة على ساحل الفرات والدجلة، وبها المد والجزر(١)، كمثل ما هو بوادى سلا، من بلاد المغرب، وسواه، والخليج المالح الخارج من بحر فارس على عشرة أميال منها. فإذا كان المد غلب الماء الملح على العذب، وإذا كان الجزر غلب الماء الحلو على الماء الملح، فيستسقى أهل البصرة ماءً غير جيد لدورهم. ولذلك يقال: إن ماءهم زعاق.

قال ابن جزى: وبسبب ذلك كان هواء البصرة غير جيد، وألوان أهلها مصفرة كاسفة، حتى ضرب بهم المثل. وقال بعضُ الشعراءِ وقد أحضرت بين يدى الصاحب أترجة:

لله أترج غدا بيننا ... معبراً عن حال ذى عبرهْ
لما كسا الله ثياب الضنا ... أهل الهوى وساكنى البصرهْ

---

(١) المد: ارتفاع ماء البحر على الشاطئ، وهو ضد الجزر، الوجيز (٥٧٥).

والجزر: انحسار ماء البحر من الشاطئ بفعل جاذبية القمر. الوجيز ص(١٠٣).

ثم ركبت مـن ساحل البصـرة فى صنبوق، وهو القـارب الصغـير إلى الأُبُلّة. وبينها وبين البصرة عشرة أمـيال، فى بساتين متصلة ونخيل مظللة عن اليمين واليـسار. والبياعـة فى ظلالِ الأشجارِ يبيـعون الخبزَ والسمـكَ والتمرَ واللبنَ والفواكه. وفيما بين البصرة والأبلة متـعبد سهل بن عبد الله التسترى. فإذا حـاذاه الناس بالسفن تراهم يشربون الماء مما يحـاذيه من الوادى، ويدعون عند ذلك تبركـًا بهذا الولى -رضي الله عنه-. والنواتية يحـرفون فى هذا البلد، وهم قيام. وكانت الأبلة مـدينة عظيمة يقصدها تجار الهـند وفارس فخربت. وهى الآن قرية بهـا آثار قصـور وغيرها، دالة علـى عظمها: ثم ركـبنا فى الخليج الخارج من بحر فارس فى مركب صغير لرجل من أهل الأبلة يسمى بمغامس، وذلك فيمـا بعد المغرب، فصـبحنا عبادان، وهى قـرية كبيرة فى سـبخة، لا عمارةَ بها، وفيـها مساجدُ كثيرةٌ ومتعـبدات ورباطات للصالحين. وبينها وبين الساحل ثلاثة أميال.

قال ابن جزى: عبادان كانت بلدًا فيما تقدم، وهى مجدبة لا زرع بها، وإنما يجلب إليها، والماء أيضًا بها قليل. وقد قال فيها بعض الشعراء:

مـن مبلـــغ أنـدلـسـًا أننـــى ... حللت عـبـادان أَقْصـى الثَّرى
أوحـشَ مـا أبصـرتُ لكـنـنـى ... قصدتُ فيها ذكرَها في الوَرَى
الخـبـزُ فـيـهـا يـتـهـادَونَـه ... وشـربـةُ الـمـاءِ بهـا تُشْتَـرَى

وعلى ساحل البحـر منها رابطة، تعرف بالنسبة إلى الخـضر وإلياس -عليهما السلام-. وبإزائها زاوية يسكنهـا أربعة من الفقراء بأولادهم يخدمون الرابطة والزاوية، ويتـعيشـون من فتـوحات الناس وكل من يمر بهم يتـصدق عليهم. وذكر لى أهل هذه الزاوية، أن بعبادان عابدًا كبير القدر ولا أنيس له، يأتى هذا البحر مرة فى الـشهر، فيصطاد فيه مـا يقوته شهرًا، ثم لا يرى إلا بعد تمام شـهر. وهو على ذلك منذ أعـوام. فلما وصلنا عـبادان لم يكن لى شأن إلا طلـبه، فاشـتغل من كـان معى بالصـلاة فى المساجـد والمتعـبدات، وانطلقتُ طالبًا له. فـجئت مسـجدًا خربًا فـوجدته يصلى فيـه، فجلست فى جانبه، فـأوجز فى صلاته. ولما سلم أخذ بيـدى وقال لى: بلغك الله مرادك

فى الدنيا والآخرة، فقد بلغت بحمد الله مرادى فى الدنيا، وهو السياحة فى الأرض، وبلغت من ذلك ما لم يبلغه غيرى فيما أعلمه، وبقيت الأخرى. والرجاء قوى فى رحمة الله وتجاوزه وبلوغ المراد من دخول الجنة. ولما أتيت أصحابى أخبرتهم خبر الرجل وأعلمتهم بموضعه، فذهبوا إليه فلم يجدوه، ولا وقعوا له على خبر. فعجبوا من شأنه، وعدنا بالعشى إلى الزاوية فبتنا بها، ودخل علينا أحد الفقراء الأربعة بعد صلاة العشاء الآخرة. ومن عادة ذلك الفقير أن يأتى عبادان كل ليلة فيسرج السرج بمساجدها، ثم يعودُ إلى زاويته. فلما وصل إلى عبادان وجد الرجل العابد فأعطاه سمكة طرية وقال له: أوصل هذه إلى الضيف الذى قدم اليوم. فقال لنا الفقير عند دخوله علينا: من رأى منكم الشيخ اليوم؟ فقلت له: أنا رأيته. فقال: يقول لك هذه ضيافتك. فشكرت الله على ذلك، وطبخ لنا الفقير تلك السمكة، فأكلنا منها أجمعون، وما أكلت قط سمكًا أطيب منها. وهجس فى خاطرى الإقامة بقية العمر فى خدمة ذلك الشيخ، ثم صرفتنى النفسُ اللجوج عن ذلك، ثم ركبنا البحر عند الصبح بقصد بلدة ماجول. ومن عادتى فى سفرى أن لا أعود على طريق سلكتها ما أمكننى ذلك. وكنت أحب قصد بغداد العراق، فأشار على بعض أهل البصرة بالسفر إلى أرض اللور، ثم إلى عراق العجم، ثم إلى عراق العرب. فعملت بمقتضى إشارته، ووصلنا بعد أربعة أيام إلى بلدة ماجول، على وزن فاعول وجيمُها معقودة، وهى صغيرة على ساحل الخليج الذى ذكرنا أنه يخرج من بحر فارس، وأرضها سبخة لا شجر فيها ولا نبات، ولها سوق عظيمة من أكبر الأسواق. وأقمت بها يومًا واحدًا، ثم اكتريت دابة لركوبى من الذين يجلبون الحبوب من رامز إلى ماجول، وسرنا ثلاثًا فى صحراء يسكنها الأكراد فى بيوت الشعر. ويقال: إن أصلهم من العرب، ثم وصلنا إلى مدينة رامز، وأول حروفها (راء وآخرها زاى وميمها مكسورة)، وهى مدينة حسنة ذات فواكه وأنهار نزلنا بها عند القاضى حسام الدين محمود، ولقيت عنده رجلاً من أهلِ العلمِ والدينِ والورعِ، هندى الأصل، يدعى بهاء الدين، ويسمى إسماعيل، وهو من أولاد الشيخ بهاء

الدين أبى زكريا الملتانى، وقرأ على مشايخ توريز وغيرها. وأقمتُ بمدينةِ رامز ليلةً واحدةً، ثم رحلنا منها ثلاثًا فى بسيط فيه قرى يسكنها الأكراد. وفى كلٍّ مرحلة منها زاوية فيها للوارد الخبز واللحم والحلواء، وحلواؤهم من رب العنب مخلوط بالدقيق والسمن. وفى كل زاوية الشيخ والإمام والمؤذنون والخادم للفقراء والعبيد يطبخون الطعام.

ثم وصلت مدينة تستر، وهى آخر البسيط من بلاد أتابك، وأول الجبال مدينة كبيرة رائقة نضرة، وبها البساتين الشريفة والرياض المنيفة، ولها المحاسن البارعة والأسواق الجامعة، وهى قديمة البناء افتتحها خالد بن الوليد. ووالى هذه المدينة ينسب إلى سهل بن عبد الله ويحيط بها النهر المعروف بالأزرق، وهو عجيب فى نهاية من الصفاء شديد البرودة فى أيام الحر، ولم أر كزرقته إلا نهر بلخشان. ولها باب واحد للمسافرين يسمى دروازة دسبول، والدروازة عندهم الباب. ولها أبواب غير شارعة إلى النهر. وعلى جانبى النهر البساتين والدواليب. والنهر عميق، وعلى باب المسافرين منه جسر على القوارب كجسر بغداد واحلة.

قال ابن جزى: وفى هذا النهر يقول بعضهم:

انظر لشاذروان تستر وَاعجب مِن جمعِه ماءً لِرِى بِلاده
ككمىٍّ قومٍ جُمِّعَتْ أمْوالُهُ فغدا يفرِّقه على أجنادِه

والفواكه بتستر كثيرةٌ، والخيراتُ متيسرةٌ، ولا مثل لأسواقها فى الحسن وبخارجها تربة معظمة يقصدها أهل تلك الأقطار للزيارة، وينذرون لها النذور. ولها زاوية بها جماعة من الفقراء. وهم يزعمون أنها تربة زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب، وكان نزولى من مدينة تستر فى مدرسة الشيخ الإمام الصالح المتفنن شرف الدين موسى ابن الشيخ الصالح الإمام العالم صدر الدين سليمان، وهو من ذرية سهل بن عبد الله. وهذا الشيخ ذو مكارم وفضائل، جامع بين العلم والدين والصلاح والإيثار، وله مدرسة وزاوية، وخدامها فتيان، له أربعة أولاد: سنبل وكافور وجوهر

وسرور أحدهم موكل بأوقاف الزاوية، والثانى متصرف فيما يحتاج إليه من النفقات فى كل يوم، والثالث خديم السماط بين أيدى الواردين ومرتب الطعام لهم، والرابع موكل بالطباخين والسقائين والفراشين. فأقمت عنده ستة عشر يومًا، فلم أر أعجب من ترتيبه، ولا أرغد من طعامه. يقدم بين يدى الرجل ما يكفى الأربعة من الأرز المفلفل المطبوخ فى السمن والدجاج المقلى والخبز واللحم والحلواء. وهذا الشيخ من أحسن الناس صورة وأقومهم سيرة، وهو يعظ الناس بعد صلاة الجمعة بالمسجد الجامع. ولما شاهدت مجالسه فى الوعظ صغر لدى كل واعظ رأيته قبله بالحجاز والشام ومصر، ولم ألق فيمن لقيته مثله.

حضرت يومًا عنده ببستان له على شاطىء النهر، وقد اجتمع فقهاء المدينة وكبراؤها، وأتى الفقهاء من كل ناحية، فأطعم الجميع، ثم صلى بهم صلاة الظهر، وقام خطيبًا وواعظًا، بعد أن قرأ القراء أمامه بالتلاحين المبكية والنغمات المحركة المهيجة، وخطب خطبة بسكينة ووقار، وتصرف فى فنون العلم من تفسير كتاب الله وإيراد حديث رسول الله -ﷺ- والتكلم على معانيه، ثم ترامت عليه الرقاع من كل ناحية. ومن عادة الأعاجم أن يكتبوا المسائل فى رقاع، ويرموا بها إلى الواعظ، فيجيب عنها. فلما رمى إليه بتلك الرقاع جمعها فى يده، وأخذ يجيب عنها واحدة بعد واحدة بأبدع جواب وأحسنه. وحان وقت صلاة العصر فصلى بالقوم وانصرفوا. وكان مجلسه مجلس علم ووعظ وبركة وتبادر التائبون فأخذ عليهم العهد وجز نواصيهم، وكانوا خمسة عشر رجلاً من الطلبة قدموا من البصرة برسم ذلك، وعشرة رجال من عوام تستر.

ولَّما دخلت هذه المدينة أصابنى مرض الحمى، وهذه البلاد يحمّ داخلها فى زمان الحر، كما يعرض فى دمشق وسواها من البلاد الكثيرة المياه والفواكه. وأصابت الحمى أصحابى أيضًا. فمات منهم شيخ اسمه يحيى الخراسانى، وقام الشيخ بتجهيزه من كل ما يحتاج إليه الميت، وصلى عليه. وتركت بها صاحبًا يدعى بهاء الدين الخشنى، فمات بعد سفرى. وكنت حين

مرضى لا أشتهى الأطعمة التى تصنع لى بمدرسته. فذكر لى الفقيه شمس الدين السندى من طلبتها طعامًا فاشتهيته، ودفعت له دراهم وطبخ لى ذلك الطعام بالسوق وأتى به إلى فأكلت منه. وبلغ ذلك الشيخ فشق عليه، وأتى إلى وقال لى: كيف تفعل هذا وتطبخ الطعام فى السوق؟ وهلاّ أمرت الخدم أن يصنعوا لك ما تشتهيه. ثم أحضرهم جميعًا وقال لهم: جميع ما يطلب منكم من أنواع الطعام والسكر وغيره فأتوه به، واطبخوا له ما يشاء. وأكد عليهم فى ذلك أشد التأكيد، جزاه الله خيراً.

ثم سافرنا من مدينة تستر ثلاثًا فى جبال شامخة. وبكل منزل زاوية، كما تقدم ذكر ذلك. ووصلنا إلى مدينة إيذَجْ (وضبط اسمها بكسر الهمزة وياء مد وذال معجم مفتوح وجيم)، وتسمى أيضًا مال الأمير، وهى حضرة السلطان أتابك. وعند وصولى إليها اجتمعت بشيخ شيوخها العالم الورع نور الدين الكرمانى، وله النظر فى كل الزوايا، وهم يسمونها المدرسة. والسلطان يعظمه ويقصد زيارته، وكذلك أرباب الدولة وكبراء الحضرة، يزورونه غدوًّا وعشيًّا، فأكرمنى وأضافنى وأنزلنى زاوية تعرف باسم الدينورى، وأقمتُ بها أيامًا، وكان وصولى فى أيام القيظ[١]، وكنا نصلى صلاة الليل، ثم ننام بأعلى سطحها، ثم ننزل إلى الزاوية ضحوة. وكان فى صحبتى اثنا عشر فقيراً، منهم إمام وقارئان مجيدان وخادم، ونحن على أحسن ترتيب.

خبر ملك إيذج وتستر

وملك إيذج فى عهد دخولى إليها السلطان أتابك افراسياب بن السلطان أتابك أحمد وأتابك عندهم سمة لجميع من يلى تلك البلاد من ملك. وهى تسمى بلاد اللور. وولى هذا السلطان بعد أخيه أتابك يوسف، وولى يوسف بعد أبيه أحمد، وكان أحمد المذكور ملكًا صالحًا، سمعت من الثقات ببلاده أنه عمر أربعمائة وستين زاوية ببلاده، منها بحضرة إيذج أربع وأربعون،

(١) يُقال: قاظ اليوم يقيظ قيظا: اشتد حره فهو قائظ. والقيظ: شدة الحر. الوجيز ص(٥٢٣).

وقسم الخراج أثلاثًا: ثلث لنفقة الزوايا والمدارس، وثلث لمرتب العساكر، وثلثه لنفقته ونفقة عياله وعبيده وخدامه، ويبعث منه هدية لملك العراق فى كل سنة، وربما وفد عليه بنفسه، وشاهدت من آثاره الصالحة ببلاده أن أكثرها فى جبال شامخة، وقد نحتت الطرق فى الصخور، وسويت ووسعت، بحيث تصعدها الدواب بأحمالها. وطول هذه الجبال مسيرة سبعة عشر فى عرض عشرة، وهى شاهقة متصل بعضها ببعض، تشقها الأنهار، وشجرها البلوط، وهم يصنعون من دقيقه الخبز، وفى كل منزل من منازلها زاوية يسمونها المدرسة، فإذا وصل المسافر إلى مدرسة منها أتى بما يكفيه من الطعام والعلف لدابته سواء طلب ذلك أو لم يطلب فإن عادتهم أن يأتى خادم المدرسة فيعد من نزل بها من الناس، ويعطى كل واحد منهم قرصين من الخبز ولحمًا وحلواء، وجميعه من أوقاف السلطان عليها. وكان السلطان أتابك أحمد زاهدًا صالحًا كما ذكرناه، يلبسُ تحت ثيابه مما يلى جسده ثوب شعر.

وحين قدم السلطان أتابك أحمد مرة على ملك العراق أبى سعيد، قال له بعض خواصه: إن أتابك أحمد يدخل عليك وعليه الدرع، وظن ثوب الشعر الذى تحت ثيابه درعًا، فأمره باختبار ذلك على جهة من الانبساط ليعرف حقيقته، فدخل عليه يومًا فقام إليه الأمير الجوبان عظيم أمراء العراق، والأمير سويته أمير ديار بكر، والشيخ حسن الذى هو الآن سلطان العراق، وأمسكوا بثيابه كأنهم يمازحونه، فوجدوا تحت ثيابه ثوب الشعر، ورآه السلطان أبو سعيد وقام إليه وعانقه وأجلسه إلى جواره وقال له: «سن أطا» بالتركية، ومعناه أنت أبى، وعوّضه عن هديته بأضعافها، وكتب له اليرليغ، وهو الظهير، أن لا يطالبه بهدية بعدها هو ولا أولاده وفى تلك السنة توفى وولى ابنه أتابك يوسف عشرة أعوام، ثم ولى أخوه افراسياب. ولما دخلت مدينة إيذج أردت رؤية افراسياب المذكور فلم يتأتَّ لى ذلك، بسبب أنه لا يخرج إلا يوم الجمعة لإدمانه على الخمر وكان له ابن هو ولى عهده، وليس له سواه فمرض فى تلك الأيام، وفى إحدى الليالى أتانى أحد خدامه، وسألنى عن حالى فعرفته، وذهب، ثم جاء بعد صلاة المغرب، ومعه طيفوران كبيران:

أحدهما بالطعام والآخر بالفاكهة، وخريطة[١] فيها دراهم، ومعه أهل السماع بآلاتهم، وقال: اعملوا السماع حتى يهزج[٢] الفقراء، ويدعون لابن السلطان فـقلت له: إن أصحـابى لا يدرون بالسمـاع ولا بالرقص، ودعـونا للسلطان ولولده وقسمت الدراهم على الفقراء. ولمـا كان نصف الليل سمعنا الصراخ، وقـد مـات المريض المذكـور، وفى الغد دخـل على شيـخ الزاوية وأهل البلد وقالوا: إن كبراء المدينة من القضاة والفـقهاء والأشراف والأمراء قد ذهبوا إلى دار السلطان للعزاء، فينبغى لك أن تذهب فى جملتهم فَأَبَيْتُ، فعزموا على، فلم يكن لى بد من المسـير، وسرتُ معـهم، فوجدت مـشور[٣] دار السلطان ممتلئًا رجـالاً وصبيانًـا من المماليك، وأبناء الملوك والوزراء والأجناد قد لبـسوا التلابيس، وجلال الـدواب، وجعلوا فوق رؤوسهم التراب والتـبن، وبعضهم قد جز ناصيته وانقسموا فرقتين فرقة بأعلى المشور، وفرقة بأسفله وتزحف كل فرقة إلى الأخرى، وهم ضاربون بأيديهم على صدورهم قائلين خوند كارما، ومعناه مولاى أنا، فرأيت من ذلك أمرًا هائلاً ومنظرًا فظيعًا لم أعهد مثله.

ومن غـريب ما اتفق لى يومـئذ أنـى دخلت فرأيت القـضاة والخطبـاء والشـرفاء، قـد استندوا إلى حـيطان المشور، وهو غـاص[٤] بهم من جـميع جهاته، وهم بين باكٍ ومتـباكٍ ومطرق، وقد لبسوا فوق ثيـابهم ثيابًا خامة من غليظ القطن غـيـر مـحكمةً الخيـاطة بطائنهـا إلى أعلى ووجـوههـا مما يلى أجسادهم، وعلـى رأس كل واحد منهم خرقة أو مئـزر أسود، وهكذا يكون فعلهم إلى تمام أربعين يومًا وهى نهاية الحـزن عندهم، وبعدها يبعث السلطان لكل من فعل ذلك كسوة كاملة.

فلمـا رأيتُ جهـاتَ المشورِ غـاصة بالـناس نظرت يمينًا وشمـالاً، أرتاد موضعًا لجلوسى فـرأيتُ هنالك سقيفة مرتفعـة عن الأرض بمقدار شبر، وفى

(١) الخريطة: وعاء من جلد ونحوه يشد على ما فيه. الوجيز ص(١٩٢).
(٢) يُقال: هزج يهزَج هزَجًا: تغنى فهو هزِج. الوجيز ص(٦٤٩).
(٣) المشور: مكان اجتماع السلطان بمن يستشيره.
(٤) أى: ممتلئ.

إحدى زواياها رجلٌ منفردٌ عن الناس قاعدٌ، عليه ثوب صوف مثل اللبد يلبسه بتلك البلاد ضعفاء الناس أيام المطر والثلج وفى الأسفار، فتقدمت منه، وانقطع عنى أصحابى لما رأوا إقدامى نحوه، وعجبوا منى وأنا لا علم لى بشىء من حاله فصعدت السقيفة وسلمت على الرجل، فرد على السلام، وارتفع عن الأرض كأنه يريد القيام، وهم يسمون ذلك نصف القيام وقعدت فى الركن المقابل له، ثم نظرت إلى الناس، وقد رمونى بأبصارهم جميعًا فعجبت منهم، ورأيت الفقهاء والمشايخ والأشراف مستندين إلى الحائط تحت السقيفة، وأشار إلىّ أحد القضاة أن أنحط إلى جانبه فلم أفعل، وحينئذ استشعرت أنه السلطان فلما كان بعد ساعة أتى شيخ المشايخ نور الدين الكرمانى الذى ذكرناه قبل، فصعد إلى السقيفة وسلم على الرجل فقام إليه وجلس فيما بينى وبينه، فحينئذ علمت أنه السلطان.

ثم جىء بالجنازة، وهى بين أشجار الأترج والليمون وقد ملأوا أغصانها بثمارها، وهى بأيدى الرجال فكأن الجنازة تمشى فى بستان، والمشاعل فى رماح طوال بين يديها، والشمع كذلك، فصلى عليها، وذهب الناس معها إلى مدفن الملوك، وهو بموضع يقال له: هلا فيجان، على أربعة أميال من المدينة، وهنالك مدرسة عظيمة يشقها نهر، وبداخلها مسجد تقام فيه الجمعة وبخارجها حمام، ويحف بها بستان عظيم وبها الطعام للوارد والصادر، ولم أستطع أن أذهبَ معهم إلى المدفن لبعد الموضع فعدت إلى المدرسة.

فلما كان بعد أيام بعث إلى السلطان رسولَهُ الذى أتانى بالضيافة أولاً يدعونى إليه، فذهبت معه إلى باب يعرف بباب السر، وصعدنا فى درج كثيرة إلى أن انتهينا إلى موضع لا فرش به، لأجل ما هو فيه من الحزن، والسلطان جالس فوق مخدة، وبين يديه آنيتان قد غطيتا، إحداهما من الذهب والأخرى من الفضة، وكانت بالمجلس سجادة خضراء، ففرشت لى بالقرب منه، وقعدت عليها وليس بالمجلس إلا حاجبه الفقيه محمود، ونديم له لا أعرف اسمه فسألنى عن حالى وبلادى، وسألنى عن الملك الناصر، وبلاد الحجاز،

فأجبته عن ذلك، ثم جاء فقيه كـبير، وهو رئيس فقهاء تلك البلاد، فقال لى السلطان: هذا مولانا فضيل، والفقيـه ببلاد الأعاجم كلها إنما يخاطب بمولانا وبذلك يدعوه السلطان وسواه، ثم أخذ فى الثناء على الفـقيه المذكور، وظهر لى أن السكرَ غالبٌ عـليه، وكنت قد عـرفت إدمانه على الخمـر، ثم قال لى باللسان العـربى، وكان يحسنه: تكلم، فقلت له: إن كنت تسـمع منى أقول لك: أنت من أولاد السلطان أتابك أحـمد المشهـور بالزهد والصلاح، وليس فيك ما يقدح فى سلطنتك غيـر هذا، وأشرت إلى الآنيتين فخجل من كلامى وسكت، وأردت الانصـراف، فأمـرنى بالجلوس، وقال لى: الاجـتمـاع مع أمثـالك رحمة، ثم رأيته يتـمايل ويريد النوم، فانصـرفت وكنت تركت نعلى بالباب فلم أجده، فنزل الفقيه محمود فى طلبه، وصعد الفقيه فضل يطلبه فى داخل المجلس، فوجده فـى طاق هنالك فأتى به فأخجلنى بره واعـتذرت إليه فـقبل نعلـى ووضعـه على رأسـه وقال لى: بارك الله فـيك هذا الذى قلتـه لسلطاننا لا يقدر أحدٌ أن يقولَهُ له غيرك، والله إنى لأرجو أن يؤثر ذلك فيه.

ثم كان رحيلى من حضرة إيذج بعد أيام، فنزلتُ بمدرسةِ السلاطين التى بها قـبورهم، وأَقَـمْتُ بها أيامًـا، وبعث إلى السلطان بجملة دنانـير، وبعث بمثلها لأصحابى وسافرنا فى بلاد هذا السلطان عـشرة أيام فى جبال شامخة، وفى كل ليلة ننزل بمدرسة فيها الطعام، فمنها ما هو فى العمارة، ومنها ما لا عمارة حوله ولكن يجلب إليـها جميع ما تحتاج إليـه. وفى اليوم العاشر نزلنا بمدرسة تـعرف بمدرسة كـريو الرخ، وهى آخر بلاد الملـك وسافرنا منـها فى بسيط من الأرض كثير المياه من عمالة مدينة أصفهان.

ثم وصلنا إلى بلدة أُشْتُركان (وضبط اسمها بضم الهمزة وإسكان الشين المعجم وضم التـاء المعلوة وإسكان الراء وآخره نون) وهى بلـدة حسنة كثـيرة المياه والبـساتين، ولهـا مسجـد بديع يشقـه النهر. ثم رحلنا منهـا إلى مدينة فيروزان، واسـمها كأنه تثنية فيـروز، وهى مدينة صغيرة ذات أنهـار وأشجار وبساتين، وصلناها بعد صلاة العصر، فرأينا أهلهـا قد خرجوا لتشييع جنازة، وقد أوقدوا خلفها وأمامها المـشاعل، وأتبعوها بالمزامير والمغنين بأنواع الأغانى المطربة، فعـجبنا من شـأنهم، وبتنا بها ليلة. ومررنا بـالغد بقرية يقـال لها:

نبلان، وهى كبيرة على نهر عظيم، وإلى جانبه مسجد على النهاية من الحسن، تصعد إليه فى درج، وتحفه البساتين. وسرنا يومنا فيما بين البساتين والمياه والقرى الحسان وأبراج الحمام، ووصلنا بعد العصر إلى مدينة أصفهان من عراق العجم (واسمها يقال بالفاء الخالصة ويقال بالفاء المعقودة المفخمة)، ومدينة أصفهان من كبار المدن وحسانها إلا أنها الآن قد خرب أكثرها بسبب الفتنة التى بين أهل السنة والروافض، وهى متصلة بينهم حتى الآن، فلا يزالون فى قتال، وبها الفواكه الكثيرة، ومنها المشمش الذى لا نظير له، يسمونه بقمر الدين، وهم ييبسونه ويدخرونه، ونواه ينكسر عن لوز حلو، ومنها السفرجل الذى لا مثيل له فى طيب المطعم وعظم الجرم، والأعناب الطيبة، والبطيخ العجيب الشأن الذى لا مثيل له فى الدنيا إلا ما كان من بطيخ بخارى وخوارزم، وقشره أخضر، وداخله أحمر ويدخر كما تدخر الشريحة بالمغرب، وله حلاوة شديدة، ومن لم يكن ألف أكله فإنه فى أول أمره يُسهله، وكذلك اتفق لى لما أكلته بأصفهان، وأهل أصفهان حسان الصور وألوانهم بيض زاهرة، مشوبة بالحمرة والغالب عليهم الشجاعة والنجدة، وفيهم كرم وتنافس عظيم فيما بينهم فى الأطعمة، تؤثر عنهم فيه أخبار غريبة، وربما دعا أحدهم صاحبه فيقول له: اذهب معى لنأكل نان وماس، والنان بلسانهم الخبز والماس اللبن، فإذا ذهب معه أطعمه أنواع الطعام العجيب، مباهيًا له بذلك، وأهل كل صناعة يقدمون على أنفسهم كبيرًا منهم يسمونه الكلو، وكذلك كبار المدينة من غير أهل الصناعات، وتكون الجماعة من الشبان الأعزاب، وتفاخر تلك الجماعات، ويضيف بعضهم بعضًا مظهرين لما قدروا عليه من الإمكان، محتفلين فى الأطعمة وسواها الاحتفال العظيم، ولقد ذكر لى أن طائفة منهم أضافت أخرى، فطبخوا طعامهم بنار الشمع، ثم أضافتها الأخرى فطبخوا طعامهم بالحرير. وكان نزولى بأصفهان فى زاوية تنسب للشيخ على بن سهل تلميذ الجنيد، وهى معظمة يقصدها أهل تلك الآفاق، ويتبركون بزيارتها، وفيها الطعام للوارد والصادر، وبها حمّام عجيب

مفروش بالرخام، وحيطانه بالقاشانى، وهو موقوف فى السبيل لا يلزم أحدًا فى دخوله شىء، وشيخ هذه الزاوية الصالح العابد الورع قطب الدين حسين ابن الشيخ الصالح ولى الله شمس الدين محمد بن محمود بن على المعروف بالرجاء، وأخوه العالم المفتى شهاب الدين أحمد، أقمت عند الشيخ قطب الدين بهذه الزاوية أربعة عشر يومًا، فرأيتُ من اجتهاده فى العبادة وحبه فى الفقراء والمساكين وتواضعه لهم ما قضيت منه العجب، وبالغ فى إكرامى وأحسن ضيافتى، وكسانى كسوة حسنة، وساعة وصولى الزاوية بعث إلىَّ بالطعام وبثلاث بطيخات من البطيخ الذى وصفناه آنفًا، ولم أكن رأيته قبل ولا أكلته.

كرامات الشيخ قطب الدين

إنه دخل علىّ يومًا بموضع نزولى من الزاوية، وكان ذلك الموضع يشرف على بستان للشيخ، وكانت ثيابه قد غسلت فى ذلك اليوم، ونشرت فى البستان، ورأيت فى جملتها جبة بيضاء مبطنة، تدعى عندهم هزرميخى، فأعجبتنى، وقلت فى نفسى: مثل هذه كنت أريد، فلما دخل على الشيخ نظر فى ناحية البستان، وقال لبعض خدامه: ائتنى بذلك الثوب الهزرميخى، فأتوا به فكسانى إياه فأهويت إلى قدميه أقبلهما وطلبت منه أن يلبسنى طاقية من رأسه ويجيزنى فى ذلك بما أجازه والده عن شيوخه، فألبسنى إياها فى الرابع عشر لجمادى الأخيرة سنة سبع وعشرين وسبعمائة، بزاويته المذكورة، كما لبس من والده شمس الدين، ولبس والده من أبيه تاج الدين محمود، ولبس محمود من أبيه شهاب الدين على الرجاء، ولبس على من الإمام شهاب الدين أبى حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهرودى، ولبس عمر من الشيخ الكبير ضياء الدين أبى النجيب السهرودى، ولبس أبو النجيب من عمه الإمام وحيد الدين عمر، ولبس عمر من والده محمد بن عبد الله المعروف بعمويه، ولبس محمد من الشيخ أخى فرج الزنجانى، ولبس أخو فرج من الشيخ أحمد الدينورى، ولبس أحمد من الإمام ممشاد الدينورى،

ولبس ممشاد من الشيخ المحقق على بن سهل الصوفى، ولبس على بن أبى القاسم من الجنيد، ولبس الجنيد من سرى السقطى، ولبس سرى السقطى من داود الطائى، ولبس داود من الحسن بن أبى الحسن البصرى، ولبس الحسن ابن أبى الحسن البصرى من أمير المؤمنين على بن أبى طالب.

قال ابن جزى: هكذا أورد الشيخ أبو عبد الله هذا السند، والمعروف فيه أن سريًّا السقطى صحب معروفًا الكرخى، وصحب معروفٌ داودَ الطائىَّ، وكذلك داود الطائى بينه وبين الحسن حبيب العجمى، وأخوه فرج الزنجانى إنما المعروف أنه صحب أبا العباس النهاوندى، وصحب النهاوندىُّ أبا عبد الله ابن خفيف، وصحب ابن خفيف أبا محمد وربما صحب رويم أبا القاسم الجنيد وأما محمد بن عبد الله عمويه فهو الذى صحب الشيخ أحمد الدينورى الأسود، وليس بينهما أحد، والله أعلم، والذى صحب أخا فرج الزنجانى هو عبد الله بن محمد بن عبد الله والد أبى النجيب.

ثم سافرنا من أصفهان بقصد زيارة الشيخ مجد الدين بشيراز وبينهما مسيرة عشرة أيام فوصلنا إلى بلدة كليل، (وضبطها بفتح الكاف وكسر اللام وياء مد) وبينها وبين أصفهان مسيرة ثلاثة، وهى بلدة صغيرة ذاتُ أنهار وبساتين وفواكه، رأيت التفاح يباع فى سوقها خمسة عشر رطلاً عراقيًّا بدرهم، ودرهمهم ثلث النقرة، ونزلنا منها بزاوية عمرها كبير هذه البلدة المعروف بخواجه كافى، وله مال عريض، قد أعانه الله على إنفاقه فى سبيل الخيرات من الصدقة وعمارة الزوايا وإطعام الطعام لأبناء السبيل. ثم سرنا من كليل يومين ووصلنا إلى قرية كبيرة تعرف بصوماء، وبها زاوية فيها الطعام للوارد والصادر عمَّرها خواجه كافى المذكور. ثم سرنا منها إلى يزْدخاص (وضبط اسمها بفتح الياء آخر الحروف وإسكان الزاى وضم الدال المهمل وخاء معجم وألف وصاد مهمل)، بلدة صغيرة متقنة العمارة حسنة السوق، والمسجد الجامع بها عجيب، مبنى بالحجارة مسقف بها، والبلدة على صفة

خندق[1] فيه بساتينها ومياههـا، وبخارجها رباط ينزل به المسافرون، عليه باب حديد، وهو فى النهاية من الحصانة والمنعة، وبداخله حوانيت يباع فيها كل ما يحتاجه المسافرون. وهذا الرباط عمره الأمـير محمد شاه ينجو، والد السلطان أبى إسحاق ملك شيراز، وفى يزدخـاص يصنع الجبن اليزدخاصى، ولا نظير فى طيـبه، وزن الجبنـة منه من أوقيـتين إلى أربع. ثم سرنا منهـا على طريق دشت الروم، وهى صحـراء يسكنها الأتراك. ثم سافـرنا إلى مايين (واسمـها بياءين مسفـولتين أولاهما مكسورة) وهى بلدة صغيرة كثيـرة الأنهار والبساتين حسنة الأسواق، وأكـثر أشجارها الجـوز. ثم سافرنا منها إلى مـدينة شيراز، وهى مدينة أصيلة البناء فسيحة الأرجاء شهيرة الذكر منيفة القدر، لها البساتين المونقة والأنهـار المتدفقـة والأسواق البديعـة والشوارع الرفيـعة، وهى كثـيرة العمارة متقنة المبانى عجيبة الترتيب، وأهل كل صناعة فى سوقها لا يخالطهم غيـرهم، حسان الصـور نظاف الملابس، وليس فى المشرق بلـدة تدانى مدينة دمشق فى حسن أسواقها وبساتينها وأنهـارها وحسن صور ساكنيها إلا شيراز، وهى فى بسيط من الأرض تحـف بها البسـاتين من جميع الجـهات، وتشقـها خمسة أنهار، أحدها النهـر المعروف بركن آباد، وهو عذب الماء شديد البرودة فى الصيف، سخن فى الشـتاء فينبعث من عين فى سـفح جبل هنالك يسمى القليعة، ومسجـدها الأعظم يسمى بالمسجد العتيق، وهو أكبـر المساجد ساحة وأحسنها بـناء، وصحنه متسع مـفروش بالمرمر[2]، ويغسل فى أوان الحر كل ليلة ويجـتمع فـيه كبـار أهل المدينة كل عـشية ويصلـون به المغرب والعـشاء وبشمـاله باب يعرف ببـاب حسن، يفضى إلى سـوق الفاكـهة وهى من أبدع الأسواق، وأنا أقول بتفضيلهـا على باب البريد من دمشق. وأهل شيراز أهل صلاح ودين وعـفاف، وخصـوصًا نساؤها وهن يـلبسن الخفـاف، ويخرجن

(١) الخندق: حفير حول المكان، أو: أخـدود عميق مستطيل يحفر فى ميـدان القتال ليتقى به الجنود. والجمع خنادق. الوجيز ص(٢١٣).

(٢) المرمر: صخر رخـامي جيرى متحول، يتركب من بلورات الكلسـيت، يستعمل للزينة فى البناء، ولصنع التماثيل ونحوها، الوجيز ص(٥٧٩).

ملتحـفات متبـرقعات فـلا يظهر منهن شىء ولهن الصدقـات والإيثار، ومن غريب حالهن أنهن يجتمعن لسماع الواعظ فى كل يوم اثنين وخميس وجمعة بالجامع الأعظم، فربما اجـتمع منهم الألف والألفان بأيديهن المراوح، يروحن بها على أنفـسهن من شدة الحر. ولم أر اجـتماع النساء فى مـثل عددهن فى بلدة من البـلاد. وعند دخـولى إلى مدينة شـيـراز لم يكن لى هم إلا قصـد الشيخ القاضـى الإمام قطب الأولياء فريد الدهر ذى الكرامـات الظاهرة مجد الدين إسمـاعيل بن محـمد بن خداد، ومـعنى خداد عطيـة الله فوصلت إلى المدرسة المجدية المنسوبة إليه وبها سكناه، وهى من عمارته، فدخلت إليه رابع أربعة من أصـحابى، ووجدتُ الفقـهاءَ وكبارَ أهلِ المدينة فى انتظـاره، فخرج إلى صلاة العصر ومعه مـحب الدين وعلاء الدين ابنا أخى شقيقه روح الدين أحدهمـا عن يمينه والآخر عن شمـاله وهما نائبـاه فى القضاء لضـعف بصره وكبـر سنه فـسلمت عليه وعـانقنى وأخذ بيـدى إلى أن وصل إلى مـصلاه، فأرسل يدى وأومأ إلى أن أصلى إلـى جانبه ففعلت وصلى العـصر ثم قرىء بين يديه من كتاب المصابيح وشوارق الأنوار للصاغانى، وطالعه نائباه بما جرى لديهمـا من القضايا، وتقـدم كبار المدينة للسلام عـليه، وكذلك عادتهم مـعه صبـاحًا ومساء، ثم سـألنى عن حالى وكيـفية قدومى، وسـألنى عن المغرب ومصر والشـام والحجاز فأخبـرته بذلك وأمر خدامه فأنزلونى بدويرة صـغيرة بالمدرسـة، وفى غد ذلك اليـوم وصل إليـه رسول ملك العـراق السلطان أبى سعيـد، وهو ناصر الدين الدرقندى من كبار الأمراء، خـراسانى الأصل فعند وصـوله إليه نزع شـاشيـتـه عن رأسه، وهم يسـمـونها الكلا، وقـبّل رجل القاضى، وقعد بين يديه، ممسكًا أذن نفسـه بيده، وهكذا فعل أمراء التتر عند ملوكـهم. وكان هذا الأمـير قد قـدم فى نحو خـمسـمائة فـارس من مماليكه وخدامـه وأصحابه ونزل خارج المدينة، ودخـل إلى القاضى فى خمسـة نفر، ودخل مجلسه وحده منفردًا تأدبًا.

كان ملك العراق السلطان محمد خدابنده قد صـحبه فى حال كفره فقيه من الروافض الإمـامية يسـمى جمـال الدين بن مطهر. فلمـا أسلم السلطان

المذكور وأسلمت بإسلامـه التتر، زاد فى تعظيم هذا الفقيـه. فزين له مذهب الروافض وفضله على غيره، وشرح له حال الصحابة والخلافة، وقرر لديه أن أبا بكر وعمر كـانا وزيرين لرسول الله، وأن عليـًّا ابن عمـه وصهره، فـهو وارث الخلافة، ومثل له ذلـك بما هو مألوف عنده من أن الملك الذى بيده إنما هو إرث عن أجداده وأقاربه مع حـداثة عهد السلطان بالكفر، وعدم مـعرفته بقواعـد الدين. فأمـر السلطان بحمل الناس على الرفض، وكـتب بذلك إلى العراقين وفارس وأذربيـجان وأصفهان وكرمـان وخراسان، وبعث الرسل إلى البلاد، فكان أول بلاد وصل إليهـا بغداد وشيراز وأصفهـان. فأما أهل بغداد فـامتنع أهل باب الأزج منهم وهم أهـل السنة وأكثـرهم على مذهب الإمـام أحمـد بن حنبل، وقالوا: لا سمع ولا طـاعة. وأتوا المسجـد الجامع فى يوم الجمعـة ومعهم السلاح وبه رسـول السلطان، فلما صعد الخطيب المنبـر قاموا إليه وهم اثنا عشـر ألفًا من سلاحهم، وهم حـماة بغداد والمشار إليهم فـيها. فحلفوا له أنه إنْ غيرَّ الخطبة المعتـادة، إن زاد فيها أو نقص منها، فإنهم قاتلوه وقاتلو رسول الملك ومستسلمون بعد ذلك لما شاءه الله. وكان السلطان أمر بأن تسقط أسماء الخلفاء وسائر الصحابة من الخطبة، ولا يذكر إلا اسم على ومن تبعه كعمار -ﷺ-. فخـاف الخطيب من القتل، وخطب المعتادة. وفعل أهل شيـراز وأصفهان كـفعل أهل بغداد. فـرجعت الرسل إلى الملك فأخـبروه بما جـرى فى ذلك، فأمـر أن يؤتى بقضـاة المدن الثـلاث. فكان أول من أتى به منهم القاضى مـجد الدين قاضى شيراز، والسلطـان إذ ذاك فى موضع يعرف بقراباغ، وهو موضع مصيفه. فلما وصل القاضى أمر أن يرمى به إلى الكلاب التى عنده، وهى كلاب ضخام فى أعناقها السلاسل معدة لأكل بنى آدم. فإذا أوتى بمن يسلط عليه الكلاب جعل فى رحبة كبيرة مطلقًا غير مقيد، ثم بعثت تلك الكلاب عليه فيفر أمامها ولا مفر له، فتدركه فتمزقه، وتأكل لحمه. فلما أرسلت الكلاب على القـاضى مجـد الدين ووصلت إليه، بصـبصت(١) إليه وحركت أذنابها بين يديه، ولم تهجم عليه بشىء، فبلغ ذلك السلطان، فخرج

---

(١) يُقال: بصبص الكلب: حرك ذنبه، طمعًا أو ملقًا. الوجيز ص(٥٣).

من داره حافى القدمين فأكب على رجلى القاضى يقبلهما، وأخذ بيده وخلع عليه جميع ما كان عليه من الثياب، وهى أعظم كرامات السلطان عندهم، وإذا خلع ثيابه كذلك على أحد، كانت شرفًا له ولبنيه وأعقابه يتوارثونه، ما دامت تلك الثياب أو شىء منها، وأعظمها فى ذلك السراويل. ولما خلع السلطان ثيابه على القاضى مجد الدين أخذ بيده وأدخله إلى داره وأمر نساءه بتعظيمه والتبرك به. ورجع السلطان عن مذهب الرفض، وكتب إلى بلاده أن يقر الناس على مذهب أهل السنة والجماعة، وأجزلَ العطاءَ للقاضى وصرفه إلى بلاده مكرمًا معظمًا، وأعطاه فى جملة عطاياه مائة قرية من قرى جمكان: هو خندق بين جبلين طوله أربعة وعشرون فرسخًا، يشقه نهر عظيم. القرى منتظمة بجانبيه، وهو أحسن موضع بشيراز. ومن قراه العظيمة التى تضاهى المدن قرية ميمن[1]، وهى للقاضى المذكور. ومن عجائب هذا الموضع المعروف بجمكان أن نصفه مما يلى شيراز وذلك مسافة اثنى عشر فرسخًا شديد البرد وينزل فيه الثلج وأكثر شجره الجوز، والجزء الآخر مما يلى هنج وبال وبلاد اللار فى طريق هرمز شديد الحر وفيه شجر النخيل.

وقد تكرر لى لقاء القاضى مجد الدين ثانية حين خروجى من الهند. قصدته من هرمز متبركًا بلقائه، وذلك سنة ثمان وأربعين. وبين هرمز وشيراز مسيرة خمسة وثلاثين يومًا. فدخلت عليه وهو قد ضعف عن الحركة، فسلمت عليه فعرفنى وقام إلى فعانقنى ووقعت يدى على مرفقه، وجلده لاصق بالعظم لا لحم بينهما. وأنزلنى بالمدرسة حيث أنزلنى أول مرة. وزرته يومًا فوجدت ملك شيراز السلطان أبا إسحاق، وسيقع ذكره، قاعدًا بين يديه، ممسكًا بأذن نفسه، وذلك هو غاية الأدب عندهم، ويفعله الناس إذا قعدوا بين يدى الملك. وأتيت مرة أخرى إلى المدرسة، فوجدت بابها مسدودًا. فسألت عن سبب ذلك فأخبرت أن أم السلطان وأخته نشأت بينهما خصومة فى ميراث، فصرفهما إلى القاضى مجد الدين. فوصلتا إليه إلى المدرسة، وتحاكمتا عنده. وفصل بينهما بواجب الشرع. وأهلُ شيراز لا

(١) وفى نسخة: «هيمن».

يدعـونه بالقـاضى، وإنما يقـولون له: مولانا أعـظم. وكذلك يكـتبـون فى التسجيلات والعـقود التى تفتقر إلى ذكر اسمه فيهـا. وكان آخر عهدى به فى شهـر ربيع الثانى من عام ثمـانية وأربعين وسبعـمائة. ولاحت(١) على أنواره وظهرت لى بركاته نفع الله به وبأمثاله.

خبر سلطان شيراز

وسلطان شيـراز فى عهد قدومى علـيها الملك الفاضل أبو إسـحاق ابن محمد شاه ينجو، سـماه أبوه باسم الشيخ أبى إسحاق الكازرونى نفع الله به. وهو من خيار السلاطين، حسن الصورة والسيـرة والهيئة، كريم النفس جميل الأخلاق متواضع، صاحب قـوة وملك كبير. وعسكره ينوف(٢) على خمسين ألفًا من الترك والأعاجم، وبطانته(٣) الأدنون إليه أهل أصفهان. وهو لا يأتمن أهل شيراز على نفسه، ولا يستخدمهم ولا يقربهم ولا يبيح لأحد منهم حمل السلاح؛ لأنهـم أهل نجدة وبأس شديد وجـرأة على الملوك. ومن وجـد بيده السلاح منهم عـوقب. ولقد شاهدتُ رجلاً مرة تجـره الجنادرة -وهم الشرط- إلى الحاكم، وقد ربطوه فى عنقه. فسألت عن شأنه، فأخبرت أنه وجدت فى يده قـوس بالليل. فذهب الـسلطان المذكور إلى قـهـر أهل شيـراز وتفضـيل الأصفـهانيين عليهم؛ لأنه يخافـهم على نفسه. وكـان أبوه محمد شـاه ينجو واليًا على شيراز من قبل ملك العراق، وكان حـسن السيرة محببًا إلى أهلها. فلما توفى ولّى السلطان أبو سعيد مكانه الشيخ حسينًا، وهو ابن الجويان أمير الأمراء، وسـيأتي ذكره، وبعث مـعه العسـاكر الكثـيرة، فوصل إلى شـيراز وملكها وضبط مجابيها. وهى من أعظم بلاد الله مجبى.

ذكر لى الحاج قوام الدين الطمغجى، وهو والى المجبى بها، أنه ضمنها

(١) يُقال: لاح الشىء يلوح لوحًا: ظهر. الوجيز ص(٥٦٧).
(٢) يعنى: يزيد. الوجيز ص(٦٤٠).
(٣) البطانة: صفى الرجل يكشف له عن أسراره. قال تعـالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا...﴾. انظر الوجيز ص(٥٥).

بعشرة آلاف دينار دراهم فى كل يوم. وصرفها من ذهب المغرب ألفان وخمسمائة دينار ذهبًا. وأقام بها الأمير حسين مدة، ثم أراد القدوم على ملك العراق، فقبض على أبى إسحاق بن محمد شاه ينجو، وعلى أخويه ركن الدين ومسعود بك وعلى والدته طاش خاتون، وأراد حملهم إلى العراق ليطالبوا بأموال أبيهم، فلما توسطوا السوق بشيراز كشفت طاش خاتون، وجهها وكانت متبرقعة حياء أن ترى فى تلك الحال. فإن عادة نساء الأتراك أن لا يغطين وجوههن، واستغاثت بأهل شيراز، وقالت: أهكذا يا أهل شيراز أخرج من بينكم وأنا فلانة زوجة فلان؟ فقام رجل من النجارين يسمى بهلوان محمود، قد رأيته بالسوق حين قدومى على شيراز فقال: لا نتركها تخرج من بلدنا، ولا نرضى بذلك. فتابعه الناس على قوله، وثارت عامتهم ودخلوا فى السلاح وقتلوا كثيراً من العسكر وأخذوا الأموال وخلصوا المرأة وأولادها. وفر الأمير حسين ومن معه وقدم على السلطان أبى سعيد مهزومًا، فأعطاه العساكر الكثيفة وأمره بالعودة إلى شيراز والتحكم فى أهلها بما شاء، فلما بلغ أهلها ذلك، علموا أنهم لا طاقة لهم به فقصدوا القاضى مجد الدين، وطلبوا منه أن يحقن دماء الفريقين ويوقع الصلح، فخرج إلى الأمير حسين. فترجل[1] له الأمير عن فرسه وسلم عليه ووقع الصلح. ونزل الأمير حسين ذلك اليوم خارج المدينة. فلما كان من الغد برز أهلها للقائه فى أجمل ترتيب وزينوا البلد وأوقدوا الشمع الكثير، ودخل الأمير حسين فى أبهة وحفل عظيم وسار فيهم بأحسن سيرة. فلما مات السلطان أبو سعيد وانقرض عقبه[2]، وتغلب كل أمير على ما بيده، خافهم الأمير حسين على نفسه وخرج عنهم، وتغلب السلطان أبو إسحاق عليها وعلى أصفهان وبلاد فارس، وذلك مسيرة شهر ونصف شهر. واشتدت شوكته وطمحت همته إلى تملك ما يليه من البلاد،

(١) يعنى: نزل عنه ومشى على رجليه.
(٢) أى: نسله.

فبدأ بالأقرب منهـا وهى مدينة بزد، مدينة حسنة نظيفة عجـيبة الأسواق ذات أنهار مطردة وأشجار نضـيرة وأهلها تجار شافعيـة المذهب، فحاصرها وتغلب عليها وتحصن الأمير مظفر شاه ابن الأمير محمد شاه بن مظفر بقلعة على ستة أميال منها منيـعة، تحدق بها الرمال فحاصره بها. فظهـر من الأمير مظفر من الشجاعة ما خرق المعتاد، ولم يسمع بمثله. فكان يضرب على عسكر السلطان أبى إسحاق ليـلاً، ويقتل ما شاء، ويخرق المضارب والفـساطيط، ويعود إلى قلعته فلا يقـدر على النيل منه. وضرب ليلة على دوار السلطان وقتل هنالك جماعة وأخذ من عتاق خيله عـشرة وعاد إلى قلعته. فأمر السلطان أن تركب فى كل ليلة خمـسة آلاف فارس ويصنعـون له الكمائن. وتلاحقت العسـاكر فقـاتلهم، وخلص إلى قلعـته ولم يصب من أصـحابه إلا واحـد أتى به إلى السلطان أبى إسحاق فخلع عليه وأطلقه وبعث معه أمانًا لمظفر لينزل إليه فأبى ذلك. ثم وقـعت بينهمـا المراسلة ووقـعت له محبـة فى قلب السلطان أبى إسحاق لما رأى من شـجاعته. فقال: أريد أن أراه، فـإذا رأيته انصرفت عنه. فوقف السلطان فى خارج القلعة ووقف هو ببابها، وسلم عليه فقال السلطان: انزل على الأمان. فقال له مظفـر: إنى عاهدت الله لا أنزل إليك حتى تدخل أنت قلعتى وحينئذ أنزل إليك، فقال له: أفعل ذلك. فدخل إليه السلطان فى عشرة من أصحابه الخواص.

فلمـا وصل باب القلـعة تـرجل مظفـر وقـبّل ركـابه ومـشى بين يديه مترجـلاً، فأدخله داره وأكل من طعامه ونـزل معه إلى المحلة راكبًا، فـأجلسه السلطان إلى جـانبه، وخلع عليـه ثيابه وأعطاه مـالاً عظيمًـا، ووقع الاتفاق بينهما أن تكون الخطبة باسم السلطان أبى إسحاق، وتكون البلاد لمظفر وأبيه. وعاد السلطان إلى بلاده.

وكـان السلطان أبو إسـحـاق طمح[1] ذات مـرة إلى بناء إيوان كـإيوان كسرى وأمر أهل شيراز أن يتولوا حـفر أساسه. فأخذوا فى ذلك. وكان أهل

(١) طمح إلى الأمر: تطلع واستشرف. الوجيز ص(٣٩٤).

كل صناعة يباهون من عداهم، فانتهـوا في المباهاة إلى أن صنعوا القفاف لنقل التراب من الجلد، وكسوها ثياب الحرير المزركش، وفعلوا نحو ذلك في برازع الدواب، وإخراجـها، وصنع بعـضهم الفؤوس من الفـضة، وأوقـدوا الشمع الكثير. وكانوا حين الحفر يلبسون أجمل ملابسهم، ويربطون فوط الحرير على أوساطهم. والسلطان يشـاهد أفعالهم من منظرة له. وقـد شاهدت هذا المبنى وقد ارتفع عن الأرض نـحو ثلاثة أذرع. ولما بنى أساسـه رفع عن أهل المدينة التخدم فيـه، وصارت الفعلة تخدم فيه بالأجـرة، ويحشر لذلك آلاف منهم. وسمعت والى المدينة يقول: إن معظم مـجباها ينفق في ذلك البناء. وقد كان الموكل به الأمير جلال الدين بن الفلـكى التوريزى، وهو من الكبار. كان أبوه نائبًا عن وزير السلطان أبى سعيد المسمى على شاه جيلان. ولهذا الأمير جلال الدين الفلكى أخ فاضل اسـمه هبة الله، ويلقب بهـاء الملك، وفد على ملك الهند حين وفودى عليه، ووفد معنا شرف الملك أمير بخت، فخلع ملك الهند علينا جميعًا، وقدم كل واحد في شغل يليق به، وعين لنا المرتب والإحسان، وسنذكر ذلك. وهذا السلطان أبو إسحاق يريد التـشبه بملك الهند المذكور في الإيثـار وإجزال العطايا. ولكن أين الثـريا من الثـرى. وأعظم ما تعـارفنا من أعطيات أبى إسـحاق أنه أعطى الشـيخ زاده الخراسانـى الذى أتاه رسولاً عن ملك هراة سبـعين ألف دينار. وأما ملك الهند فلم يزل يعطى أضـعاف ذلك لمن لا يحصى كثرة من أهل خراسان وغيرهم.

ومن عـجيب فعـل ملك الهند مع الخراسـانيين أنه قدم عليـه رجل من فقـهاء خراسان هروى المولد، من سكان خـوارزم، يسمى بالأمير عـبد الله، بعثته الخاتون ترابك زوج الأميـر قطلود مور صاحب خوارزم بهدية إلى ملك الهند المذكور، فقبلها وكافأ عنها بأضعـافها وبعث ذلك إليها، واختار رسولها المذكور الإقـامة عنده فصيـره في ندمائه(١) فلما كـان ذات يوم قال له: ادخل إلى الخزانة فارفع منـها قدر ما تستطيع أن تحـمله من الذهب. فرجع إلى داره

---

(١) النديم: المصاحب على الشـراب والمسامر. يُقال: نادمه: رافـقه وشاربه وسامـره. الوجيز ص(٦٠٨، ٦٠٩).

فأتى بثـلاث عشرة خريطة، وجعل فـى كل خريطة قدر ما وسعـته وربط كل خريطة بعضو من أعضائه، وكان صاحب قوة وقام بها، فلما خرج من الخزانة وقعٍ ولم يستطع النهوض. فأمر السلـطان بوزن ما خرج به فكان جملته ثلاثة عشر منًا بمنان دهلى، والمن الواحد منها خمسة وعشرون رطلاً مصريًّا. فأمره أن يأخذ جميع ذلك فأخذه.

وقد اشتكى مرة أميـر يخت الملقب بشرف الدين الخراسانى، وهو الذى تقدم ذكـره آنفًا بحـضرة ملك الهند، فـأتاه الملك عائدًا. ولما دخل عـليه أراد القيام، فحلف له الملك أن لا ينزل عن كته والكت: السرير. ووضع للسلطان متكأة يسمونهـا المورة، فقعد عليها. ثم دعا بالذهب والميـزان فأحضرا. وأمر المريض أن يقعـد فى إحدى كفتى الميـزان، فقال يا خـوند -عالم- لو علمت أنك تفعل هذا للبست على ثيابًا كثيـرة. فقال له: البس الآن جميع ما عندك من الثياب. فلبس ثيـابه المعدة للبرد المحشوة بالقطن، وقعـد فى كفة الميزان، ووضع الذهب فى الكفـة الأخرى حتى رجـحه الذهب، وقـال له: خذ هذا فتصدق به على رأسك وخرج عنه.

ولما وفد علـيه الفقـير عـبد العـزيز الأردويلى، وكان قد قـرأ علم الحديث بـدمشق فتـفقـه فيـه، جعل مرتبـه مائة دينار دراهم فـى اليوم، وصرف ذلك خمســة وعشرين دينارًا ذهبًا. وحضر مجلســه يومًا، فسأله السلطان عن حديث، فـسرد له أحاديث كثـيرة فى ذلك المعنى، فأعــجبه حفظه، وحلف له برأسه أنه لا يزول من مجلسه حتى يفعل معه ما يراه، ثم نزل الملك عن مجلسه، فـقبل قدميه وأمر بإحضـار صينية من ذهب، وهى مثل الطيفـور الصغير، وأمر أن يؤتى فـيها ألف دينار من الذهب، وأخذها السلطان بيده، فصبهـا عليه، وقال: هى لك مع الصينية. ووفد عليه مـرة رجل خراسانى يعرف بابن الشـيخ عبد الرحمن الأسـفرايينى، وكان أبوه نزل بغـداد، فأعطاه خمسـين ألف دينار دراهم وخيلاً وعبـيدًا وخلعًا، وسنذكـرُ كثيـرًا من أخبار هذا الملك عنـد ذكر بلاد الهْند. وإنما ذكـرنا هذا لما قـدمناه من أن السلطان أبـا إسحـاق يريد التـشبـه به فى

العطايا. وهو وإن كان كريمًا فاضلاً فلا يلحق بطبقة[١] ملك الهند فى الكرم والسخاء.

بعض المشاهد بشيراز

منها مشهد أحمد بن موسى أخى على الرضا بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب -رضى الله تعالى عنهم-، وهو مشهد معظم عند أهل شيراز يتبركون به، ويتوسلون إلى الله تعالى بفضله. وبنت عليه طاش خاتون أم السلطان أبى إسحاق مدرسة كبيرة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر. والقراء يقرأون القرآن على التربة دائمًا. ومن عادة الخاتون أنها تأتى إلى هذا المشهد فى كل ليلة إثنين، ويجتمع فى تلك الليلة القضاة والفقهاء والشرفاء. وشيراز من أكثر بلاد الله شرفاء. سمعت من الثقات أن الذين لهم بها المرتبات من الشرفاء ألف وأربعمائة ونيف بين صغير وكبير، ونقيبهم عضد الدين الحسينى. فإذا حضر القومُ بالمشهدِ المذكور ختموا القرآن قراءة فى المصاحف، وقرأ القراء بالأصوات الحسنة، وأتى بالطعام والفواكه والحلواء. فإذا أكل القومُ، وعظَ الواعظُ. ويكون ذلك كله بعد صلاة الظهر إلى العشى والخاتون فى غرفة مطلة على المسجد لها شباك. ثم تضرب الطبول والأنفار والبوقات على باب التربة، كما يفعل عند أبواب الملوك. ومن المشاهد بها مشهد الإمام القطب الولى أبى عبد الله بن خفيف المعروف عندهم بالشيخ. وهو قدوة بلاد فارس كلها، ومشهده معظم عندهم، يأتون إليه بكرة وعشيًّا، فيتمسحون به. وقد رأيت القاضى مجد الدين أتاه زائرًا واستلمه. وتأتى الخاتون إلى هذا المسجد فى كل ليلة جمعة، وعليه زاوية ومدرسة ويجتمع به القضاة والفقهاء ويفعلون به كفعلهم فى مشهد أحمد بن موسى وقد حضرت الموضعين جميعًا. وتربة الأمير محمد شاه ينجو والد السلطان أبى إسحاق متصلة بهذه التربة. والشيخ أبو عبد الله بن خفيف كبير

(١) الطبقة: الجيل بعد الجيل. أو القوم المتشابهون فى سن أو عهد أو درجة معينة. الوجيز ص(٣٨٦).

القدر فى الأولياء شهير الذكـر، وهو الذى أظهر طريق جبل سرنديب بجزيرة سيلان من أرض الهند.

ولهذا الشيخُ كرامـةٌ عظيمةٌ: يحكى أنه قصد مرة جـبل سرنديب ومعه نحو ثلاثين من الفقراء، فـأصابتهم مجاعة فى طريق الجـبل حيث لا عمارة، وتاهوا عن الطريق وطـلبوا من الـشيخ أن يـأذن لهم فى القـبض على بعض الفيلة الصغار، وهى فى ذلك المحل كثيرة جداً، ومنه تحمل إلى حضرة ملك الهند. فنهـاهم الشيخ عن ذلك. فغلب علـيهم الجوع، فـتعدوا قـول الشيخ وقبضوا على فيـل صغير منه وذكّوه[1] وأكلوا لحمه، وامتنع الشيخ عن أكله، فلمـا ناموا الليلة اجـتمـعت الفيلة من كل ناحـية وأتت إليـهم. فكانت تشم الرجل منهم وتقتله، حتى أتـت على جميعهم. وشمت الشـيخ ولم تتعرض له. وأخذه فـيل منها، ولف عليـه خرطومه، ورمى به عـلى ظهره، وأتى به الموضع الذى فيـه العمـارة فلما رآه أهل تلك الناحيـة عجبـوا منه واستـقبلوه ليتعرفوا أمره. فلما قرب منهم أمـسكه الفيل بخرطومه ووضعه عن ظهره إلى الأرض بحيث يرونه. فجاءوا إليه وتمسكوا به إلى ملكـهم، فعرفوه خبره وهم كفـار، وأقام عندهم أياماً. وذلك الموضع على خـور يسمى خور الخـيزران، والخور هو النهر. وبذلك الموضع مغـاص الجوهر. ويذكر أن الشيخ غاص فى بعض الأيام بمحضر ملكـهم وخرج وقد ضم يديه معاً، وقـال للملك: اختر مالك فى إحـداهما فاختـار ما فى اليمنى فـرمى إليه بما فيهـا، وكانت ثلاثة أحجار من الياقوت لا مثيل لها، وهى عند ملوكهم فى التاج يتوارثونها. وقد دخلت جزيرة سيلان هذه، وهم مقيمون على الكفر، إلا أنهم يعظمون فقراء المسلمين، ويؤونهم إلى دورهم، ويطـعمونـهم الطعام، ويكونون فى بيـوتهم وبين أهليهم وأولادهم، خـلافاً لسائر كفار الهند فـإنهم لا يقربون المسلمين، ولا يطعـمونهم فى آنيتـهم، ولا يسقـونهم فـيهـا مع أنهم لا يؤذونهم ولا يهجونهم[2]. ولقد كنا نضطر إلى أن يطبخ لنا بعضـهم اللحم، فيأتون به فى

(١) يعنى: ذبحوه.

(٢) يُقال: هجا فلاناً يهجُو هجواً وهجاء: ذمه وعدد معايبه. الوجيز ص(٦٤٥).

قدورهم، ويقعدون على بعد منا، ويأتون بأوراق الموز فيجعلون عليها الأرز وهو طعامهم، ويصبون عليه الكوشال وهو الإدام، ويذهبون فنأكل منه. وما فضل علينا تأكله الكلاب والطير. وإن أكل منه الولد الصغير الذى لا يعقل ضربوه وأطعموه روث البقر، وهو الذى يطهّر ذلك فى زعمهم.

ومن المشاهد بها مشهد الشيخ الصالح القطب روزجهان القبلى من كبار الأولياء، وقبره فى مسجد جامع يخطب فيه، وبذلك الجامع يصلى القاضى مجد الدين الذى تقدم ذكره -رضي الله عنه-. وبهذا الجامع سمعت عليه كتاب مسند الأمام أبى عبد الله محمد بن إدريس الشافعى. قال: أخبرتنا به وزيرة بنت عمر بن المنجا، قالت: أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن أبى بكر بن المبارك الزبيدى، قال: أخبرنا أبو زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسى، قال: أخبرنا أبو الحسن المكى بن محمد بن منصور بن علان العرضى، قال: أخبرنا القاضى أبو بكر أحمد بن الحسن الحرشى عن أبى عباس بن يعقوب الأصم عن الربيع بن سليمان المرادى عن الإمام أبى عبد الله الشافعى. وسمعت أيضًا عن القاضى مجد الدين بهذا الجامع المذكور كتاب مشارق الأنوار للإمام رضى الله أبى الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن الصاغانى بحق سماعه له من الشيخ جلال الدين أبى هاشم محمد بن محمد بن أحمد الهاشمى الكوفى بروايته عن الإمام نظام الدين محمود بن عمر الهراوى عن المصنف. ومن المشاهد بها مشهد الشيخ الصالح زركوب، وعليه زاوية لإطعام الطعام.

وهذه المشاهد كلها بداخل المدينة، وكذلك معظم قبور أهلها، فإن الرجل منهم يموت ولده أو زوجته، فيتخذ له تربة من بعض بيوت داره، ويدفنه هناك، ويفرش البيت بالحصر والبسط، ويجعل الشمع الكثير عند رأس الميت ورجليه، ويصنع للبيت بابًا إلى ناحية الزقاق وشباك حديد، فيدخل منه القراء يقرأون بالأصوات الحسان. وليس فى معمور الأرض أحسن أصواتًا بالقرآن من أهل شيراز ويقوم أهل الدار بالتربة ويفرشونها ويوقدون السرج بها. فكأن الميت لم يبرح. وذكر لى أنهم يطبخون فى كل يوم نصيب الميت من الطعام ويتصدقون به عنه.

وقد مـررت يومًا ببعض أسـواق مدينة شيراز، فـرأيت بها مسـجدًا متـقن البناء جميل الفرش، وفـيه مصـاحف موضوعة فى خـرائط حرير موضوعة فوق كـرسى، وفى الجهة الشمالية من المسجد زاوية فـيها شباك مفتح إلى جـهة السوق وهنالك شيخ جـميل الهيئـة واللباس، وبين يديه مصحف يقرأ فيه فسلمت عليه وجلست إليه فسألنى عن مقدمى فأخبرته، وسألتـه عن شأن هذا المسجـد فأخبـرنى أنه هو الذى عمّـره ووقف عليه أوقافًا كثيرة للقراء وسـواهم، وأن تلك الزاوية التى جلست إليه فيها هى موضع قـبره إن قـضى الله موته بتلك المدينـة، ثم رفع بسطًا كان تحـته، والقبر مغطى عليه ألواح خـشب، وأرانى صندوقًا كان بإزائه، فقال: فى هذا الصندوق كفنى وحنوطى ودراهم كنت استأجـرت بها نفسى فى حفر بئر لرجل صالح فدفع لى هذه الدراهم، فتركتها لتكون نفقة مواراتى وما فضل منها يتـصدق بها فعجبت من شـأنه وأردت الانصراف فحلف على وأضافنى بذلك الموضع.

ومن المشاهد بخارج شـيراز قبر الشيخ الصالح المعـروف بالسعدى وكان أشعر أهل زمانه باللسان الفارسى، وربما ألمع فى كلامه بالعربى وله زاوية كان قد عمرها بذلك الموضع حسنة، بداخلهـا بستان مليح وهى بقرب رأس النهر الكبير المعـروف بركن أباد وقد صنع الشيخ هنالك أحواضًا صـغارًا من المرمر لغسل الثيـاب فيخرج الناس من المدينة لزيارته ويأكلون من سـماطه ويغسلون ثيابهم بذلك النهر، وينصرفون. وكـذلك فعلت عنده رحمه الله. وبمقربة من هذه الزاوية أخرى تتـصل بها مدرسة مبنـية على قبر شمس الديـن السمانى، وكان من الأمراء الفقهاء، ودفن هنالك بوصية منه بذلك.

وبمدينة شيراز من الفقهاء الشريف مجد الدين وأمره فى الكرم عجيب، وربما جاد بكل ما عنده وبالثياب التى كانت عليه، ويلبس مرقعة فيدخل عليه كبـراء المدينة فيـجدونه على تلك الحـال فيكسـونه. ومرتبـه فى كل يوم من السلطان خمسـون دينارًا دراهم. ثم كان خروجى من شيـراز برسم زيارة قبر الشيخ الصالح أبى إسحـاق الكازرونى بكازرون، وهى على مسيرة يومين من

شيراز، فنزلـنا أول يوم ببلاد الشول، وهم طائفة من الأعـاجم يسكنون البرية وفيهم الصالحون.

وحين قعدت ببعض المساجد بشيراز، أتلو كتاب الله عز وجل إثر صلاة الظهر، خطر بخاطرى أنه لو كان لى مصـحف كريم لتلوت فيه، فدخل على فى أثناء ذلك شاب وقـال لى بكلام قوى خذ: فرفعت رأسى إلـيه فألقى فى حجرى مصـحفًا كريمًا وذهب عنى. فختمـته ذلك اليوم قراءة وانتظرته لأرده له، فلم يعد إلى، فسألت عنه فقيل لى: ذلك بهلول الشولى، ولم أره بعد. ووصلنا عشى اليوم الثانى إلى كازرون، فقصدنا زاوية الشيخ أبى إسحاق نفع الله به، وبتنا بها تلك الليلة ومن عادتهم أن يطعـموا الوارد كائنًا من كان من الهريسة المصنوعة من اللحم والسمن وتؤكل بالرقاق ولا يتركون الوارد عليهم للسـفر حـتى يقيم فـى الضيـافة ثلاثة، ويعـرض على الشـيخ الذى بالزاوية حوائجه، ويذكرها الشيـخ للفقراء الملازمين للزاوية، وهـم يزيدون على مائة، منهم المتزوجون ومنهم الأعزاب المتجردون، فيـختمون القرآن ويذكرون الذكر ويدعون له عـند ضريح الشيـخ أبى إسحاق فـتقـضى حاجـته بإذن الله وهذا الشيخ أبو إسـحاق معظم عند أهل الهند والصين ومن عادة الركـاب فى بحر الصين أنهم إذا تغيـر عليهم الهواء، وخـافوا اللصوص، نذروا لأبى إسـحاق نذرًا، وكتب كل منهم على نفسه ما نذره، فإذا وصلوا بر السلامة صعد خدام الزاوية إلى المركب، وأخذوا الزمام، وقبضوا من كل ناذر نذره وما من مركب يأتى من الصين أو الهند إلا وفـيه آلاف من الدنانير فـيأتى الوكلاء من جـهة خادم الزاوية فيـقبضون ذلك. ومن الفـقراء، من يأتى طالبًا صدقـة الشيوخ، فيُكتب له أمرٌ بها، وفيه علامة الشيخ منقـوشة فى قالب من الفضة، فيضعون القالب فى صبغ أحمر ويلصقونه بالأمر، فـيبقى أثر الطابع فيه ويكون مضمنه أن من عنده نذر للشيخ أبى إسحاق فليعط منه لفلان كذا فيكون الأمر بالألف والمائة وما بين ذلك ودونه على قدر الفقير، فإذا وجد من عنده شىء من النذر قبض منه وكتب له رسمًا فى ظهر الأمـر بما قبضه. ولقد نذر ملك الهند مرة للشيخ أبى إسحـاق بعشرة آلاف دينار، فبلغ خبرها إلى فـقراء الزاوية، فأتى

أحدهم إلى الهند وقبـضها وانصرف بها إلى الزاوية، ثم سـافرنا من كازرون إلى مدينة الزيدينْ، وسـميت بذلك لأن فيـها قبر زيد بن ثابت وقـبر زيد بن أرقم الأنصاريين صاحبى رسول الله -صلى الله عليه وسلم تسليمًا-، ورضى الله عنهما وهى مدينة حسنة كثـيرة البساتين والمياه، مليحة(١) الأسواق عجيبة المسـاجد، ولأهـلها صـلاح وأمـانة وديانة، ومن أهلهـا القـاضى نور الدين الزيدانى، وكـان ورد على أهل الهند فولـى القضـاء منها بذيبـة المهل، وهى جزائر كثـيرة ملكها جلال الدين بن صـلاح الدين صالح، وتزوج بأخت هذا الملك وسيـأتى ذكره وذكر بنته خـديجة التى تولت الملك بعده بهـذه الجزائر، وبها توفى القـاضى نور الدين المذكور. ثم سافرنا منهـا إلى الحويزاء بالزاى، وهى مدينة صغيرة يسكنها العجم، بينها وبين البصرة مسيرة أربع، وبينها وبين الكوفة مسيرة خمس، ومن أهلها الشيخ الصالح العابد جمال الدين الحويزانى شيخ خانقاه سعيد السعداء بـالقاهرة. ثم سافرنا منها قاصدين الكوفة فى برية لا ماء بها إلا فى موضع واحد يسـمى الطرفاوى، وردناه فى اليوم الثالث من سفرنا، ثم وصلنا بعد اليوم الثانى من ورودنا عليه إلى مدينة الكوفة.

مدينة الكوفة

وهى إحدى أمهـات البلاد العراقيـة المتميزة فـيها بفضل المزيـة مثوى الصحابة، والتابعين ومنزل العلماء والصالحين، وحضرة على بن أبى طالب أميـر المؤمنين، إلا أن الخراب قد استـولى عليها بسـبب أيدى العدوان التى امتـدت إليها، وفسـادها من عرب خفاجـة المجاورين لها، فـإنهم يقطعون طريقها ولا سـور عليها، وبناؤها بالآجرّ، وأسواقـها حسان وأكثـر ما يباع فيهـا التمر والسمك، وجامعـها الأعظم جامع كبيـر شريف، بلاطاته سبع قائمـة على سوارى حـجارة ضـخمة منحـوتة، قد صنعت قـطعًا، ووضع بعضها على بعض، وأفرغت بالرصـاص وهى مفرطة الطول، وبهذا المسجد

(١) يُقال: مَلُح الشـىء من باب ظَرُف وسهُل أى: حسن فـهو مليح ومُـلاح بالضم مخفـفًا. مختار الصحاح ص(٦٣٢).

آثار كريمة، فمنها بيت إزاء المحراب عن يمين مستقبل القبلة يقال إن الخليل -صلوات الله عليه- كان له مصلى بذلك الموضع وعلى مقربة منه محراب محلق عليه بأعواد الساج[1] مرتفع، وهو محراب على بن أبى طالب -رضي الله عنه-، وهنالك ضربه الشقى ابن ملجم والناس يقصدون الصلاة به. وفى الزاوية من هذا البلاط مسجد صغير محلق عليه أيضًا بأعواد الساج، يذكر أنه الموضع الذى فار منه التنور حين طوفان نوح -عليه السلام-، وفى ظهره خارج المسجد بيت يزعمون أنه بيت نوح -عليه السلام-، وإزاءه بيت يزعمون أنه متعبد إدريس -عليه السلام-، ويتصل بذلك فضاء، ويتصل بالجدار القبلى للمسجد، يقال: إنه موضع إنشاء سفينة نوح -عليه السلام-. وفى آخر هذا الفضاء دار على بن أبى طالب -رضي الله عنه-، والبيت الذى غسل فيه ويتصل به بيت يقال أيضًا: إنه بيت نوح -عليه السلام-، والله أعلم بصحة ذلك كله. وفى الجهة الشرقية من الجامع بيت مرتفع، يصعد إليه، قبر مسلم بن عقيل بن أبى طالب -رضي الله عنه- وبمقربة منه خارج المسجد قبر عاتكة وسكينة بنتى الحسين -عليه السلام-. وأما قصر الإمارة بالكوفة الذى بناه سعد بن أبى وقاص -رضي الله عنه- فلم يبق إلا أساسه، والفرات من الكوفة على مسافة نصف فرسخ فى الجانب الشرقى منها، وهو منتظمٌ بحدائق النخل الملتفة المتصل بعضها ببعض، ورأيت بغربى جبانة الكوفة موضعًا مسودًا شديد السواد فى بسيط أبيض، فأخبرت أنه قبر الشقى ابن ملجم، وأنَّ أهلَ الكوفة يأتونَ فى كلِّ سنة بالحطب الكثير فيوقدون النار على موضع قبره سبعة أيام وعلى قرب منه قبة أخبرت أنها على قبر المختار بن أبى عبيد.

ثم رحلنا ونزلنا بئر ملاحة، وهى بلدة حسنة بين حدائق نخل، ونزلت بخارجها وكرهت دخولى لها؛ لأن أهلها روافض ورحلنا منها الصبح فنزلنا مدينة الحلة، وهى مدينة كبيرة مستطيلة مع الفرات وهو بشرقيها، ولها أسواق حسنة جامعة للمرافق والصناعات وهى كثيرة

---

(١) الساج: ضرب من الشجر يعظم جدًا ويذهب طولاً وعرضًا وله ورق كبير. وجمعه سيجان. الوجيز ص(٣٢٧).

العمارة، وحدائق النخل منتظمة بهـا داخلاً وخارجًا، ودورها بين الحدائق، ولها جسر عظيم معقود على مراكب متصلة منتظمة فيما بين الشطين، تحف بها من جانبيها سلاسل من حديد مربوطة فى كلا الشطين إلى خشبة عظيمة مثـبتة بالساحل. وأهل هـذه المدينة كلها إماميـة اثنا عشرية وهم طائفـتان: إحداهـما تعـرف بالأكراد، والأخـرى تعرف بأهل الجـامعين والفـتنة بينهم متصلة، والقـتال قائم بمقربة من السوق الأعظم. بهذه المدينة مـسجد على بابه ستر حرير مسدول، وهم يسمـونه مشهد صاحب الزمان، ومن عاداتهم أن يخرج فى كل ليلـة مائة رجل من أهل المدينة عليهـم السلاح، وبأيديهم سيوف مـشهورة، فيـأتون أمير المدينة بعد صـلاة العصر يأخذون مـنه فرسًا مسرجًـا ملجمًا أو بغلة كذلك، ويـضربون الطبول والأنفار والبـوقات أمام تلك الدابة، ويتقدمها خمسون منهم ويتبعها مثلهم ويمشى آخرون عن يمينها وشمالها، ويأتون مشهد صاحب الزمـان، فيقفون بالباب، ويقولون: باسم الله يا صاحب الزمان باسم الله اخرج قد ظهـر الفساد، وكثر الظلم، وهذا أوان خروجك فـيفـرق الله بك بين الحق والباطل، ولا يزالون كـذلك وهم يضربـون الأبواق والأطبال والأنفار إلـى صلاة المغرب، وهم يـقولون: إن محمد بن الحـسن العسكرى دخل ذلك المسجد وغاب فيـه، وإنه سيخرج، وهو الإمـام المنتظر عندهم، وقـد كان غـلب على مدينـة الحلة بعد مـوت السلطان أبى سعيد الأمير محمـد بن رميثة بن أبى نمى أمير مكة، وحكمها أعوامًا، وكان حسن السيـرة يحمده أهل العراق، إلى أن غلب عليه الشيخ حسن سلطان العراق فـعذبه وقتله وأخذ الأموال والـذخائر التى كانت عنده.

ثم سافـرنا منها إلى مدينة كـربلاء مشهد الحـسين بن على -عليهمـا السلام- وهى مدينة صغيرة تحفها حدائق النخل ويسـقيها ماء الفرات والروضة المقدسة داخلها، وعليـها مدرسـة عظيمة، وزاوية كريمة فـيها الطعـام للوارد والصادر وعلى باب الروضة الحـجاب والقومـة، لا يدخل أحد إلا عن إذنهم، فيـقبل العتبة الـشريفة وهى من الفضة وعلى الضريح المقـدس قناديل الذهب والفضة وعلى الأبواب أستـار الحرير وأهل هذه المدينة طائفتـان، أولاد رخيك وأولاد

فائز، وبينهما القتال أبدًا وهم جميعًا إمامية يرجعون إلى أب واحد، ولأجل فتنهم تخربت هذه المدينة. ثم سافرنا منها إلى بغداد.

مدينة بغداد

مدينة دار السلام، وحضرة السلام، ذات القدر الشريف، والفضل المنيف، مثوى الخلفاء، ومقر العلماء، وقال أبو الحسن بن جبير -رضي الله عنه-: وهذه المدينة العتيقة وإن لَم تزل حضرة الخرفة العباسية، ومثابة الدعوة الإمامية القرشية، فقد ذهب رسمها. ولم يبق إلا اسمها. وهى بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث عليها والتفات أعين النوائب إليها كالطلل[1] الدارس، أو تمثال الخيال الشاخص، فلا حسن فيها يستوقف البصر، ويستدعى من المستوفز[2] الغفلة والنظر، إلا دجلتها[3] التى هى بين شرقيها وغربيها كالمرآة المجلوة بين صفحتين، أو العقد المنتظم بين لبتين، فهى تردها ولا تظمأ وتتطلع منها فى مرآة صقيلة لا تصدأ، والحسن الحريمى بين هوائها ومائها ينشأ.

قال ابن جزى: وكأن أبا تمام حبيب بن أوس اطلع على ما آل إليه أمرها حين قال فيها:

لقد أقامَ على بغداد ناعيها ... فليبْكِها لخرابِ الدهر باكيها
كانت على مائها والحربُ موقدةٌ ... والنارُ تطفأ حسنًا فى نواحيها
تُرجى لها عودة فى الدهر صالحةٌ ... فالآن أضمر منها اليأسَ راجيها
مثل العجوز التى ولّت شبيبتُها ... وبان عنها جمالُ كان يُخطيها

وقد نظم الناسُ فى مدحها وذكر محاسنها فأطنبوا ووجدوا إمكان

(١) الطلل: ما بقى شاخصًا من آثار الديار ونحوها، والجمع أطلال، وطلول. الوجيز ص(٣٩٤).

(٢) استوفز: جلس على هيئة كأنه يريد القيام. الوجيز ص(٦٧٦).

(٣) يعنى: نهر دجلة.

القول ذا سعة فأطالوا وأطابوا، وفيها قال الإمام القاضى أبو محمد عبد الوهاب بن على بن نصر المالكى البغدادى، وأنشدنيه والدى رحمه الله مرات:

طيبُ الهواءِ ببغداد يشوقنى قربًا إليها وإن عاقت مقاديرُ
وكيف أرحل عنها اليوم إذ جمعت طيبَ الهواءين ممدودٌ ومقصورُ

وفيها يقول أيضًا رحمه الله تعالى ورضى عنه:

سلام على بغداد فى كل موطنٍ وحُقّ لها منى السلامُ المضاعفُ
فواللهِ ما فارقتها عن قِلًى لها وإنى بشطى جانبيها لعارفُ
ولكنها ضاقت علىَّ برحبها ولم تكن الأقدار فيها تساعفُ
وكانتْ كَخِلٍ كُنْتُ أهوى دنوه وأخلاقُهُ تنأى به وتخالفُ

وفيها يقول أيضًا مغاضبًا لها وأنشدنيه والدى رحمه الله غير ما مره:

بغدادُ دارٌ لأهلِ المال واسعةٌ وللصعاليك دارُ الضنكِ والضيقِ
ظللتُ أمشى مضافًا فى أزقّتها كأننى مصحف فى بيتِ زنديق

وفيها يقول القاضى أبو الحسن على بن النبيه من قصيدة:

آنستْ بالعراق بدراً منيراً فطوتْ غيبها وخاضتْ هجيرا
واستطابتْ ريّا نسائم بغدا د فكادت لولا البرى أن تطيرا
ذكرتُ من مسارح الكرخِ روْضًا لم يزل ناضراً وماء نميرا
واجتنت من رُبى المحول نورا واجتلتْ من مطالعِ التاجِ نورا

ولبعض نساء بغداد فى ذكرها:

آهًا على بغدادها وعراقها وظبائها والسحر فى أحداقها
ومجالها عند الفرات بأوجه تبدو أهلتها على أطواقها
متبخترات فى النعيم كأنما خُلقَ الهوى العذرى من أخلاقها
نفسى الفداءُ لها فأى محاسنٍ فى الدهر تشرق من سنا إشراقها

ولبغداد جسـران اثنان معقودان على نحو الصفـة التى ذكرناها فى جسر مدينة الحلة، والناس يعبـرونهما ليلاً ونهارًا، رجـالاً ونساء فهم فى ذلك فى نزهة متصلة ببغداد من المساجد التى يخطب فيهـا، وتقام فيها الجمعة فى أحد عشر مسجدًا، منها بالجانب الغـربى ثمانية، وبالجانب الشرقى ثلاثة والمساجد سواها كثيرة جدًّا، وكذلك المدارس إلا أنها خربت. وحمـامات بغداد كثيرة وهى من أبدع الحمامات، وأكثرها مطلية بالقـار مسطحة به، فيخيل لرائيه أنه رخـام أسود، وهذا القـار يجلب من عين بين الكوفـة والبصـرة تنبع أبدًا به، ويصير فى جوانبها كالصلصـال، فيجرف منها، ويجلب إلى بغداد. وفى كل حمام منها خلوات كـثيرة كل خلوة منها مفروشة بالقـار مطلى نصف حائطها مما يلى الأرض به، والنصف الأعلى مطلى بالجص الأبيض الناصع، فالضدان بها مجـتمعان، متقـابل حسنهما وفى داخل كل خلوة حوض من الرخـام فيه أنبوبان أحدهمـا يجرى بالماء الحار والآخر بالماء البارد فـيدخل الإنسان الخلوة منهـا منفـردًا لا يشاركـه أحـد إلا إن أراد ذلك، وفى زاوية كل خلوة أيضًـا حوض آخر للاغتسال فيه أيضًا أنبوبان يجريان بالحار والبارد وكل داخل يعطى ثلاثًا من الفوط إحداها يتزر بها عند دخـوله والأخرى يتزر بها عند خروجه، والأخرى ينشف بهـا الماء عن جسده ولم أر هذا الإتقان كله فى مـدينة سوى بغداد، وبعض البلاد تقاربها فى ذلك.

أما الجـانب الغربى من بغـداد فهـو الذى عمّـر أولاً، وهو الآن خراب أكثره وعلى ذلك فقد بقى منه ثلاث عشرة مـحلة، كل محلة كأنها مدينة بها الحمامـان والثلاث وفى ثمان منها المسـاجد الجامعة ومـن هذه المحلات محلة باب البصرة وبها جامع الخليفة أبى جعفر المنصور رحمه الله، والمارستان، فيما بين مـحلة باب البصـرة ومحلة الـشارع على الدجلة، وهو قـصر كـبيـر خرب، بقيت منه الآثار وفى هذا الجانب الغربى من المـشاهد قبر معروف الكرخى -رضي الله عنه-، وهو فى محلة باب البصرة، وبطريق باب البصرة مشهد حافل البناء فـى داخله قبر مـتسع السنام، عليه مـكتوب: هذا قبـر عون من أولاد على بن أبى طالب، وفى هذا الجـانب قبـر موسى الكاظـم بن جعـفر

الصادق والد علي بن موسى الرضا وإلى جانبه قبر الجواد والقبران داخل الروضة عليهما دكانة ملبسة بالخشب عليه ألواح الفضة.

وأما هذه الجهة الشرقية من بغداد فهي حافلة بالأسواق عظيمة الترتيب، وأعظم أسواقها سوق يعرف بسوق الثلاثاء، كل صناعة فيها على حدة، وفي وسط هذا السوق المدرسة النظامية العجيبة التي صارت الأمثال تضرب بحسنها وفي آخره المدرسة المستنصرية ونسبتها إلى أمير المؤمنين المستنصر بالله أبي جعفر ابن أمير المؤمنين الظاهر ابن أمير المؤمنين الناصر وبها المذاهب الأربعة، لكل مذهب إيوان فيه المسجد، وموضع التدريس، وجلوس المدرس في قبة من خشب صغيرة على كرسي، عليه البسط ويقعد المدرس، وعليه السكينة والوقار، لابسًا ثياب السواد معتمًا، وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه، هكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة وفي داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة ودار الوضوء وبهذه الجهة الشرقية من المساجد التي تقام فيها الجمعة ثلاثة: أحدها جامع الخليفة، وهو المتصل بقصور الخلفاء ودورهم، وهو جامع كبير فيه سقايات ومطاهر كثيرة للوضوء وللغسل، لقيت بهذا المسجد الشيخ الإمام العالم الصالح مسند العراق سراج الدين أبا حفص عمر بن علي القزويني، وسمعت عليه فيه جميع مسند أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي، وذلك في شهر رجب الفرد عام سبعة وعشرين وسبعمائة قال: أخبرتنا به الشيخة الصالحة المسندة بنت الملوك فاطمة بنت العدل تاج الدين أبي الحسن علي بن علي بن أبي البدر قالت: أخبرنا الشيخ أبو بكر محمد بن مسعود بن بهروز، الطبيب المارستاني، قال: أخبرنا أبو الوقت عبد الأول بن شعيب السنجري الصوفي، قال: أخبرنا الإمام أبو الحسن عبد الرحمن بن المظفر الداودي، قال: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي، عن أبي عمران عيسى بن عمر بن العباس السمرقندي، عن أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي. والجامع الثاني جامع السلطان، وهو خارج البلد وتتصل به قصور

تنسب للسلطان، والجامع الثالث جامع الرصافة وبينه وبين جامع السلطان نحو الميل.

خبر قبور الخلفاء ببغداد وقبور بعض العلماء والصالحين فيها

وقبورُ الخلفـاءِ العباسيين -ﷺ- بالرصافة. وعلى كل قـبر منها اسم صاحبـه: قبر المهدى وقـبر الهادى وقبر المعـتصم وقبر الواثق وقـبر المتوكل وقبر المنتصر وقبر المستعين وقبر المعتز وقبر المهتدى وقبر المعتمد وقبر المعتضد وقبـر المكتفى وقـبر المقتـدر وقبـر القاهر وقـبر الراضى وقبـر المتقى وقـبر المستكفى وقبر المطيع لله وقبر الطائع وقبر القـائم وقبر القادر وقبر المستظهر وقبر المسترشد وقبر الراشد وقبر المقتـفى وقبر المستنجد وقبر المستضىء وقبر الناصر وقبر الظاهر وقبر المستنصر وقبر المستعصم وهو آخرهم، وعليه دخل التتر ببغداد بالسـيف وذبحوه بعد أيام من دخولهم، وانقطع من بغداد اسم الخلافة العباسية، وذلك فى سنة أربع وخـمسين وستمائة. وبقرب الرصافة قبر الإمام أبى حنيفة -ﷺ-، وعليه قبـة عظيمة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر. وليس بمـدينة بغداد اليوم زاوية يـطعم الطعام فيـها مـا عدا هذه الزاوية. فسبحان مبيد الأشياء ومـغيرها. وبالقرب منها قبر الإمام أبى عبد الله أحمد بن حنبل -ﷺ- ولا قبة عليه. ويذكر أنها بنيت على قبره مرارًا فتـهدمت بقدرة الله تعـالى. وقبره عند أهـل بغداد معظم، وأكـثرهم على مذهبه. وبالقرب منه قبر أبى بكر الشـبلى من أئمة المتصوفة- رحمه الله-، وقبر سرى السـقطى وقبر بشر الحافى وقبر داود الـطائى وقبر أبى القاسم الجنيد، -رضى الله عنهم أجمعين-. وأهل بغـداد لهم يوم فى كل جمعة لزيارة شـيخ من هؤلاء المشايخ، ويوم لـشيخ آخـر يليه، هكذا إلى آخـر الأسبوع. وببغداد كثير من قبور الصالحين والعلماء -ﷺ-. وهذه الجهة الشرقيـة من بغداد ليس بها فواكـه، وإنما تجلب إليها من الجهـة الغربية؛ لأن فيـها بسـاتين والحدائق ووافق وصـولى إلى بغداد كون مـلك العراق بها. فلنذكره ها هنا.

خبر سلطان العراقين وخراسان

وهو السلطان الجليل أبو سعيد بَهَادُرْخان، وخان عندهم الملك وبهادر (بفتـح الباء الموحـدة وضم الدال المهمل وآخـره راء)، ابن السلطان الجليل محمد خـذابنده، وهو الذى أسلم من ملوك التتر – وضبط اسمـه مختلف فيـه، فمنهم قال إن اسمـه خذابنده (بخاء مـعجمة مـضمومة وذال مـعجم مفتوح) وبنده لم يختلف فيه (وهو ببـاء موحدة مفتوحة ونون مسكنة ودال مهمل مفتوح وهاء استراحـة)، وتفسيره على هذا القول عبد الله؛ لأن خذا بالفارسية اسم الله عز وجل وبنده غلام أو عـبد أو ما فى معناهما. وقيل: إنما هو خـربنده (بفـتح الخاء المـعجم وضم الراء المهـمل)، وتفـسـير خـر بالفارسية الحـمار، فمعناه على هذا غلام الحمار. فـشد ما بين القولين من الخـلاف على أن هذا الأخـير هو المـشهـور، وكـأن الأول غيّـره إليـه من تعصب. وقيل: إن سـبب تسميته بـهذا الأخير هو أن التتـر يسمون المولود باسم أول داخل على البـيت عند ولادته. فلما ولد هذا السلـطان كان أول داخل الزمال، وهم يسـمونه خربنده فـسمى به. وأخو خربنده هو قـازغان الذى يقول فيه للناس: قازان، وقازغان هو القدر. وقيل: سمى بذلك لأنه ولد لما دخلت الجـارية ومعـها القـدر. وخذابنده هو الذى أسلم، وقـدمنا قصـته وكيف أراد أن يحـمل الناس لما أسلم على الرفض، وقصـة القاضى مجد الدين معه، ولما مات ولى الملك ولده أبو سعيد بهادرخان، وكان ملكًا فاضلاً كريمًا ملك وهو صغير السن، ورأيته ببغداد، وهو شاملٌ أجملَ خلقِ الله صورةً، لا نبات بعارضه[1] ووزيره إذ ذاك الأمير غياث الدين محمد بن خواجـة رشيد، وكان أبوه من مـهاجرة اليهـود واستوزره السلطان محـمد خذابنده والد أبى سـعيد. رأيتـه يومًا بحراقة فى الـدجلة، وتسمى عندهم الشبـارة، وهى شبـه سلورة، وبين يديه دمشق خواجـة ابن الأمـير جوبان المتغلب على أبى سـعيد، وعن يمينه وشـماله شبـارتان فيهـما أهل الطرب

(١) يعنى: ليس له لحية.

والغناء. ورأيت من مكارمه فى ذلك اليوم أنه تعرض له جماعة من العميان فكشوا ضعف حالهم، فأمر لكل واحد منهم بكسوة وغلام يقوده ونفقة تجرى عليه. ولما ولى السلطان أبو سعيد وهو صغير كما ذكرناه، استولى على أمره أمير الأمراء الجوبان، وحجر عليه التصرفات، حتى لم يكن بيده من الملك إلا الاسم. ويذكر أنه احتاج فى بعض الأعياد إلى نفقة ينفقها، فلم يكن له سبيل إليها، فبعث إلى أحد التجار فأعطاه من المال ما أحب، ولم يزل كذلك إلى أن دخلت عليه يومًا زوجة أبيه دنيا خاتون فقالت له: لو كنا نحن الرجال ما تركنا الجوبان وولده على ما هما عليه فاستفهمها عن مرادها بهذا الكلام فقالت له: لقد انتهى أمر دمشق خواجة بن الجوبان أن يفتك بحرم أبيك، وأنه بات البارحة عند طغى خاتون. وقد بعث إلى وقال لى: الليلة أبيت عندك. وما الرأي إلا أن تجمع الأمراء والعساكر، فإذا صعد إلى القلعة مختفيًا برسم المبيت، أمكنك القبض عليه، وأبوه يكفى الله أمره. وكان الجوبان إذ ذاك غائبًا بخراسان، فغلبته الغيرة وبات يدبر أمره، فلما علم أن دمشق خواجة بالقلعة أمر الأمراء والعساكر أن يطيفوا بها من كل ناحية، فلما كان بالغد، خرج دمشق ومعه جندى يعرف بالحاج المصرى، فوجد سلسلة معرضة على باب القلعة وعليها قفل لم يمكنه الخروج راكبًا، فضرب الحاج المصرى السلسلة بسيفه فقطعها وخرجا معًا، فأحاطت بهما العساكر، ولحق أمير من الأمراء الخاصكية يعرف بمصر خواجة، وفتى يعرف بلؤلؤ دمشق خواجة فقتلاه، وأتيا الملك أبا سعيد برأسه فرموا به بين يدى فرسه. وتلك عادتهم أن يفعلوا برأس كبار أعدائهم. وأمر السلطان بنهب داره وقتل من قاتل من خدامه ومماليكه. واتصل الخبر بأبيه الجوبان وهو بخراسان، ومعه أولاده مير حسن وهو الأكبر وطالش وجلوخان وهو أصغرهم وهو ابن أخت السلطان أبى سعيد من أمه ساطى بك بنت السلطان خذابنده، ومعه عساكر التتر وحاميها. فاتفقوا على قتال السلطان أبى سعيد وزحفوا إليه، فلما التقى الجمعان

هرب التـتر إلى سلطانهم، وأفـردوا الجوبان. فلمـا رأى ذلك نكص(١) على عقبيه، وفر إلى صحراء سجـستان، وأوغل فيها، وأجمع على اللحاق، بملك هراة غياث الدين مستجيراً به ومتحصنًا بمدينته. وكانت له عليه أياد سابقة فلم يوافقـه ولداه حسن وطالش على ذلك، وقـالا له: إنه لا يفى بالعهـد، وقد غدر بفيروز شـاه بعد أن لجأ إليه وقتله. فأبى الجـوبان إلا أن يلحق به ففارقه ولداه وتوجه ومـعه ابنه الصـغير جلـوخان، فخـرج غياث الدين لاسـتقـباله وترجل له وأدخله المدينة على الأمان، ثم غدر به بعد أيام، وقتله وقتل ولده، وبعث برأسيهـما إلى السلطان أبى سعيـد. وأما الحسن وطالش فإنهمـا قصدا خوارزم وتوجها إلى السلطان محمد أوزبك، فأكرم مثواهما وأنزلهما، إلى أن صدر منـهما مـا أوجب قتلهـما فـقتلهـما. وكان لـلجوبان ولد رابع اسـمه الدمرطاش فهرب إلى ديار مصـر، فأكرمه الملك الناصر وأعطاه الإسكندرية، فأبى من قبولها وقال: إنما أريد العساكر لأقاتل أبا سعيد. وكان متى بعث إليه الملك الناصر بكسوة أعطى هو للذى يوصلها إليه أحسن منها إزراء على الملك الناصر، وأظهـر أموراً أوجبت قتله فقـتله، وبعث برأسه إلى أبى سعـيد وقد ذكرنا قـصته وقـصة قراسنقـور فيمـا تقدم. ولما قتـل الجوبان جىء به وبولده ميـتين، فوقف بهمـا على عرفات، وحـملا إلى المدينة ليدفنـا فى التربة التى اتخذها الجوبان بالقرب من مـسجد رسول الله -ﷺ-، فمنع من ذلك ودفن بالبقيع. والجوبان هو الذى جلب الماء إلى مكة شرفها الله تعالى.

ولما اسـتقل السلطـان أبو سعـيد بالمـلك أراد أن يتزوج بنت الجـوبان، وكانت تـسمى بغداد خـاتون، وهى من أجمل الـنساء، وكانت تحت الـشيخ حسن الذى تغلب بعد موت أبى سعيد على الملك، هو ابن عمته، فأمره فنزل عنها وتزوجـها أبو سعـيد، وكانت أحظى النسـاء لديه. والنساء لدى الأتراك والتـتر لهن حظ عظيم. وهم إذا كـتـبوا أمـراً يقولون فـيه عن أمـر السلطان

(١) نكص: رجع إلى خلف. الوجيز ص(٦٣٤).

والخواتين ولكل خاتون كثير من البلاد والولايات والمجابى العظيمة، وإذا سافرت مع السلطان تكون فى محلة على حدة. وغلبت هذه الخاتون على أبى سعيد، وفضلها على سواها، وأقامت على هذه الحال مدة أيام. ثم تزوج امرأة تسمى بدلشاد فأحبها حبًّا شديدًا، وهجر بغداد خاتون، فغارت لذلك، وسمته فى منديل مسحته به بعد الجماع فمات وانقرض عقبه وغلبت أمراؤه على الجهات كما سنذكره.

ولما عرف الأمراء أن بغداد خاتون هى التى سمته أجمعوا على قتلها وبدَر لذلك الفتى الرومى خواجة لؤلؤ، وهو من كبار الأمراء. وقدمائهم، فأتاها وهى فى الحمام فضربها بدبوسه وقتلها. وطرحت هنالك أيامًا مستورة العورة بقطعة تليس، واستقل الشيخ حسن بملك عراق العرب، وتزوج دلشاد امرأة السلطان أبى سعيد، كمثل ما كان أبو سعيد فعله من تزوج امرأته.

خبر المتغلبين على الملك بعد موت السلطان أبى سعيد

منهم الشيخ حسن ابن عمته الذى ذكرناه آنفا، تغلب على عراق العرب جميعًا، ومنهم إبراهيم شاه ابن الأمير سنيته، تغلب على الموصل وديار بكر، ومنهم الأمير أرتنا، تغلب على بلاد التركمان المعروفة أيضًا ببلاد الروم، ومنهم حسن خواجة بن الدمرطاش بن الجوبان، تغلب على تبريز والسلطانية وهمذان وقم وقاشك والرى ورامين وفرغان والكرج، ومنهم الأمير طغيتمور تغلب على بعض بلاد خراسان، ومنهم الأمير حسن ابن الأمير حسن غياث الدين تغلب على هراة ومعظم بلاد خراسان، ومنهم ملك دينار تغلب على بلاد مكران وبلاد كبج، ومنهم محمد شاه ابن مظفر تغلب على يزد وكرمان وورقو، ومنهم الملك قطب الدين تمهتن تغلب على هرمز وكيش والقطيف والبحرين وقلهات، ومنهم السلطان أبو إسحاق الذى تقدم ذكره تغلب على شيراز وأصفهان وملك فارس، وذلك مسيرة خمس وأربعين، ومنهم السلطان أفراسياب أتابك تغلب على إيذج وغيرها من البلاد وقد تقدم ذكره.

(ولنعد إلى ما كنا بسبيله). ثم خرجت من بغداد فى محلة السلطان أبى سعيد، وغرضى أن أشاهد ترتيب ملك العراق فى رحيله ونزوله وكيفية تنقله وسفره. وعادتهم أنهم يرحلون عند طلوع الفجر، وينزلون عند الضحى وترتيبهم أنه يأتى كل أمير من الأمراء بعسكره وطبوله وأعلامه فيقف فى موضع لا يتعداه قد عين له، إما فى الميمنة أو الميسرة فإذا توافوا جميعًا وتكاملت صفوفهم، ركب الملك وضربت طبول الرحيل وبوقاته وأنفاره، وأتى كل أمير منهم فسلم على الملك وعاد إلى موقفه، ثم يتقدم أمام الملك الحجاب والنقباء، ثم يليهم أهل الطرب، وهم نحو مائة رجل عليهم الثياب الحسنة وتحتهم مراكب السلطان، وأمام أهل الطرب عشرة من الفرسان قد تقلدوا عشرة من الطبول، وخمسة من الفرسان لديهم خمس صرنايات، وهى تسمى عندنا بالغيطات، فيضربون تلك الأطبال والصرنايات. ثم أمسكوا وغنى عشرة آخرون نوبتهم هكذا، إلى أن تتم عشر نوبات، فعند ذلك يكون النزول، ويكون عن يمين السلطان وشماله حين سيره كبار الأمراء، وهم نحو خمسين، ومن ورائه أصحاب الأعلام والأطبال والأنفار والبوقات، ثم مماليك السلطان ثم الأمراء على مراتبهم، وكل أمير له أعلام وطبول وبوقات.

ويتولى ترتيب ذلك كله أمير جند وله جماعة كبيرة وعقوبة من تخلف عن فوجه وجماعته أن يؤخذ تماقه[1] فيملأ رملاً، ويعلق فى عنقه، ويمشى على قدميه حتى يبلغ المنزل، فيؤتى به إلى الأمير، فيبطح على الأرض ويضرب خمسًا وعشرين مقرعة[2] على ظهره، سواء كان رفيعًا أو وضيعًا، لا يحاشون من ذلك أحدا. وإذا نزلوا ينزل السلطان ومماليكه فى محلة على حدة، وتنزل كل خاتون من خواتينه فى محلة على حدة، ولكل واحدة منهن الإمام والمؤذن والقراء والسوّاق، وينزل الوزراء والكتاب وأهل الأشغال على

---

(١) لعله يقصد الموق: وهو خف غليظ يلبس فوق الخف. والجمع أمواق. الوجيز ص(٥٩٥).

(٢) المقرعة: كل ما يضرب به. الوجيز ص(٤٩٩). وهى هنا ليست اسم آلة ولكنها اسم مرة.

حدة، وينزل كل أمير على حدة ويأتون جميعًا إلى الخدمة بعد العصر، ويكون انصرافهم بعد العشاء الأخيرة، والمشاعل بين أيديهم. فإذا كان الرحيل ضرب الطبل الكبير، ثم يضرب طبل الخاتون الكبرى التى هى الملكة، ثم أطبال سائر الخواتين، ثم طبل الوزير، ثم أطبال الوزراء دفعة واحدة، ثم يركب أمير المقدمة فى عسكره، ثم يتبعه الخواتين، ثم أثقال السلطان وزاملته[1]، وأثقال الخواتين ثم أميرتان فى عسكر له، يمنع الناس من الدخول فيما بين الأثقال والخواتين، ثم سائر الناس.

وسافرت فى هذه المحلة عشرة أيام صحبة الأمير علاء الدين محمد إلى بلدة تبريز، وكان من الأمراء الكبار الفضلاء، فوصلنا بعد عشرة أيام إلى مدينة تبريز، ونزلنا بخارجها فى موضع يعرف بالشام. وهنالك قبر قازان ملك العراق، وعليه مدرسة حسنة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر من الخبز واللحم والأرز المطبوخ بالسمن والحلواء. وأنزلنى الأمير بتلك الزاوية وهى ما بين أنهار متدفقة وأشجار مورقة.

وفى غد ذلك اليوم دخلت المدينة على باب يعرف بباب بغداد، ووصلنا إلى سوق عظيمة تعرف بسوق قازان، من أحسن أسواق بلاد الدنيا كل صناعة فيها على حدة لا تخالفها أخرى واجتزت بسوق الجوهريين، فحار بصرى مما رأيته من أنواع الجواهر، وهى بأيدى مماليك حسان الصور، عليهم الثياب الفاخرة وأوساطهم مشدودة بمناديل الحرير، وهم بين أيدى التجار يعرضون الجواهر على نساء الأتراك، وهن يشترينه كثيرًا، ويتنافسن فيه. فرأيت من ذلك كله فتنة يستعاذ بالله منها. ودخلنا سوق العنبر والمسك فرأينا مثل ذلك وأعظم، ثم وصلنا إلى المسجد الجامع الذى عمره الوزير على شاه المعروف بجيلان، وبخارجه عن يمين مستقبل القبلة مدرسة، وعن يساره زاوية. وصحنه مفروش بالمرمر وحيطانه بالقاشانى، وهو شبه الزليج، ويشقه نهر ماء، وبه أنواع الأشجار ودوالى العنب وشجر ياسمين. ومن عاداتهم أنهم

---

(١) الزاملة: ما يحمل عليه من الإبل وغيرها. والجمع زوامل. الوجيز ص(٢٩٢).

يقرأون به كل يوم سورة يس وسـورة الفتح وسورة عمّ بعد صـلاة العصر فى صحن الجامع، ويجتمع لذلك أهل المـدينة. وبتنا ليلة بتبريز، ثم وَصَلَنَا بالغد أمرُ السلطانِ أبى سعيد إلى الأمير عـلاء الدين بأن يصل إليه فعدت معه، ولم ألق بتبريز أحدًا من العلماء.

ثم سافرنا إلى أن وصلنا محلة السلطان، فـأعلمه الأمير المذكور بمكانى وأدخلنى عليه، فسألنى عن بلادى وكسـانى وأركبنى، وأعلمه الأمير أنى أريد السفر إلى الحـجاز الشريف فأمر لى بالزاد والركوب فى السـبيل مع المحمل، وكـتب لى بذلك إلى أمـير بغـداد خـواجه مـعـروف، فـعدت إلى بغـداد، واستوفـيت ما أمر لى به السلطان، وكان قد بـقى لأوان سفر الركب أزيد من شهرين، فـظهر لى أن أسافرَ إلى المَوْصِلِ وديار بكر، لأشـاهد تلك البلاد، وأعـود إلى بغداد فى حين سـفـر الركب، فأتوجـه إلى الحـجاز الشـريف. فخرجتُ من بغدادَ إلى منزل على نهر دجيل، وهو مـتفرع عن دجلة، فيسقى قرى كثيرة. ثم نزلنا بعد يومين بقرية كبيرة تعرف بحربة، مخصبة فسيحة. ثم رحلنا فنزلنا موضعًا على شط دجلة بالقـرب من حصن يسمى المعشوق، وهو مبنى على الدجلة. وفى الجـهة الشرقية. من هذا الحـصن مدينة سُرَّ منْ رأَى وتسمى أيضًا سامرّا. ويقال لها سام راه، ومعناه بالفارسية طريق سام، وراه: هو الطريق وقـد استـولى الخـراب على هذه المدينة، فلم يبق منهـا إلا القليل وهى معـتدلة الهواء رائعة الحـسن على بلائها ودروس معـالمها، وفيهـا أيضًا مشهـد صاحب الزمان كمـا بالحلة، ثم سرنا منها مـرحلة ووصلنا إلى مدينة تكريت، وهى مدينةٌ كبـيرةٌ فسيحـة الأرجاءِ مليحة الأسواق كثـيرة الجوامع، وأهلها موصوفون بحسن الأخلاق والدجلة من الجـهة الشمالية منها ولها قلعة حصينة على شط الدجلة والمدينة عتيقة البناء عليها سور يطيف بها. ثم رحلنا منها مرحلتين ووصلنا قرية تعرف بـالعقر على شط الدجلة وبأعلاها ربوة كان بها حصن وبأسفلها الخان المعـروف بخان الحديد له أبراج وبناؤه حافل والقرى والعمـارة متـصلة من هنالك إلى الموصل. ثم رحلنا ونزلنا موضـعًا بالقـيارة بمقربة من دجلة وهنالك أرض سوداء فيها عيون تنبع بالقار ويصنع له أحواض

ويجتمع فيه فتراه شبه الصلصال على وجه الأرض حالك اللون صقيلاً رطبًا وله رائحة طيبة وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق فتقذفه إلى جوانبها فيصير أيضًا قارًا. وبمقربة من هذا الموضع عين كبيرة فإذا أرادوا نقل القار منها أوقدوا عليها النار فتنشف النار ما هنالك من رطوبة مائية ثم يقطعونه قطعًا وينقلونه. وقد تقدم لنا ذكر العين التى بين الكوفة والبصرة على هذا النحو. ثم سافرنا من هذه العيون مرحلتين ووصلنا بعدهما إلى الموصل.

مدينة الموصل

وهى مدينة عتيقة الخصب، وقلعتها المعروفة بالحدباء عظيمة الشأن شهيرة الامتناع عليها سور محكم البناء مشيد البروج[1] وتتصل بها دور السلطان وقد فصل بينها وبين البلد شارع متسع مستطيل من أعلى البلد إلى أسفله وعلى البلد سوران اثنان وثيقان أبراجهما كثيرة متقاربة وفى باطن السور بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره قد تمكن فتحها فيه لسعته، ولم أر فى أسوار البلاد مثله إلا السور الذى على مدينة دهلى حضرة ملك الهند. وللموصل ربض كبير فيه الجوامع والحمامات والفنادق والأسواق، وبه مسجد جامع على شط الدجلة تدور به شبابيك حديد وتتصل به مساطب تشرف على دجلة فى النهاية من الحسن والإتقان وأمامه مارستان، وبداخل المدينة جامعان أحدهما قديم والآخر حديث، وفى صحن الحديث منهما قبة فى داخلها خصة رخام مثمنة مرتفعة على سارية رخام يخرج منها الماء بقوة وانزعاج فيرتفع مقدار القامة، ثم ينعكس فيكون له مرأى حسن. وقيسارية الموصل مليحة لها أبواب حديد ويدور بها دكاكين وبيوت بعضها فوق بعض متقنة البناء. وبهذه المدينة مشهد جرجيس النبى -عليه السلام- وعليه مسجد، والقبر فى زاوية منه عن يمين الداخل إليه وهو فيما بين الجامع الجديد، وباب الجسر وقد حصلت لنا زيارته والصلاة بمسجده والحمد لله تعالى، وهنالك تل

---

(١) البروج جمع برج، وهو الحصن. الوجيز ص(٤٣).

يونس -عليه السلام-، وعلى نحو مـيل منه العين المنسوبة إليـه يقال إنه أمر قـومه بالتطهر فيها ثم صعدوا التل ودعا ودعوا فكشفَ اللهُ عنهمُ العذابَ وبقربة منه قرية كـبيرة يقـرب منها خراب يقال إنـه موضع المدينة المعروفـة بنينوى مدينة يونس -عليه السلام- وأثر السـور المحـيط بهـا ظاهـر ومـواضع الأبواب التى هى متيينة، وفى التلِّ بناءٌ عظيمٌ ورباطٌ فيه بيوت كثيرة ومقاصر ومطاهر وسقايات يضم الجـميع باب واحـد، وفى وسط الرباط بيت عليه سـتر حـرير وله باب موضع يقال إنه الموضع الذى به موقف يونس -عليه السلام- ومحراب المسجد الذى بهذا الرباط يقال إنه كان بيت مـتعبده -عليه السلام-. وأهل الموصل يخرجون فى كل ليلة جمعة إلى هذا الرباط يتعبدون فيه، وأهلُ الموصل لهم مكارم أخلاق ولين كلام وفضيلة ومـحبة فى الغريب وإقبال عليه وكـان أميرها حين قدومى عليها السيد الشريف الفـاضل علاء الدين على بن شمس الدين محمد الملقب بحيدر وهو من الكرماء الفضلاء أنزلنى بداره وأجرى علىَّ الإنفاق مدة مقامى عنده وله الصدقات والإيثار المعروف.

وكان السلطان أبو سعيد يعظمه وفـوض إليه أمر هذه المدينة وما يليها ويركب فى موكب عظيم من مماليكه وأجناده ووجـوه أهل المدينة، وكبراؤها يأتون للسلام عليه غدوًا وعشـيًا وله شجاعة ومـهابة وولده فى حين كتب هذا فى حضرة فاس مستقـر الغرباء ومأوى الفرق، ومحط رحال(١) الوفود زادها الله بسعـادة أيام مولانا أمير المؤمنين بهـجة وإشراقًا وحـرس أرجاءها ونواحيها.

ثم رحلنا من الموصل ونزلنا قرية تعرف بعين الرصد وهى على نهر عليه جسر مبنى وبـها خان كبير. ثم رحلنا ونزلنا قـرية تعرف بالمويلحة. ثم رحلنا منها ونزلنا جزيرة ابن عمر وهى مدينة كـبيرة حسنة محيط بها الوادى ولذلك سميت جزيرة وأكثـرها خراب ولها سوق حسنة ومسجد عـتيق مبنى بالحجارة محكم العمل وسورها مبنى أيضًا وأهلهـا فضلاء لهم محبة فى الغرباء، ويوم

(١) الرحال جمع رحل، والرحل: ما يوضع على ظهر البـعير للركوب، وألقى رحله: أقام. الوجيز ص(٢٥٩).

نزلنا بها رأينا جبل الجودى المذكور فى كتاب الله عز وجل(١) الذى استوت عليه سفينة نوح -عليه السلام- وهو جبل عال مستطيل.

ثم رحلنا مرحلتين ووصلنا إلى مدينة نصيبين وهى مدينة عظيمة عتيقة متوسطة قد خرب أكثرها وهى فى بسيط أفيح فسيح فيه المياه الجارية والبساتين الملتفة والأشجار المنتظمة والفواكه الكثيرة وبها يصنع ماء الورد الذى لا نظير له فى العطارة والطيب ويدور بها نهر ينعطف عليها انعطاف السوار منبعه من عيون فى جبل قريب منها وينقسم انقساماً فيتخلل بساتينها ويدخل منه نهر إلى المدينة فيجرى فى شوارعها ودورها ويخترق صحن مسجدها الأعظم وينصب فى صهريجين أحدهما فى وسط الصحن والآخر عند الباب الشرقى وبهذه المدينة مارستان ومدرستان وأهلها أهلُ صلاحٍ ودينٍ وصدقٍ وأمانة ولقد صدق أبو نواس فى قوله:

طابت نصيبين لى يوماً وطبت لها　　　يا ليت حظى من الدنيا نصيبين

قال ابنُ جزى: والناس يصفون مدينة نصيبين بفساد الماء والوخامة(٢)، وفيها يقول بعض الشعراء:

لنصيبين قد عجبت وما فى　　　دارها لى داع إلى العلاّت
يعدم الورد أحمراً فى ذُرَاها　　　لسقام حتى من الوجنات

ثم رحلنا إلى مدينة سنجار، وهى مدينة كبيرة كثيرة الفواكه والأشجار والعيون المطردة والأنهار، مبنية فى سفح جبل، تشبه بدمشق فى كثرة أنهارها وبساتينها، ومسجدها الجامع مشهور البركة، يذكر أن الدعاء به مستجاب، ويدور به نهر ماء ويشقه. وأهل سنجار أكراد، ولهم شجاعة وكرم، وممن لقيته بها الشيخ الصالح العابد الزاهد عبد الله الكردى أحد المشايخ الكبار صاحب كرامات يذكر عنه أنه لا يفطر إلا بعد أربعين يوماً ويكون إفطاره على

---

(١) وقد ورد ذكره فى قول الله تعالى: ﴿وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ [هود: ٤٤].

(٢) وخم المكان: كان غير موافق لأن يسكن. الوجيز ص(٦٦٣).

نصف قرص من الشعـير، لقيته برابطة بأعلى جـبل سنجار ودعا لى وزودنى بدراهم، لم تزل عندى إلى أن سلبنى كفار الهنود. ثم سافرنا إلى مدينة دارا، وهى عتيقة كبيرة بيضـاء المنظر، لها قلعة مشرفة، وهى الآن خراب لا عمارة بها وفى خارجهـا قرية معمورة، بها كـان نزولنا، ثم رحلنا منها فوصلنا إلى مدينة ماردين، وهى عظيـمة فى سفح جبل من أحسن مدن الإسـلام وأبدعها وأتقنها وأحسنها أسواقًا وبها تصنع الثـياب المنسوبة إليها من الصوف المعروف بالمرعز ولها قلعة شماء[١] من مشاهير القلاع فى قنة جبلها.

قال ابن جـزى: قلعة مـاردين هذه تسمـى الشهبـاء وإياها عنى شـاعر العراق صفى الدين عبد العزيز بن سراى الحلىّ بقوله فى مسمطته:

فَـدَعْ ربـوع الحِلَّة الـفيـحـاءِ وازورَّ بالعِـيس[٢] عـن الـزَّوراءِ
ولا تقـف بـالـمـوصــل الحدباء إن شهاب القلْعة الشهباء
محرق شيطـان صـروف الـدهـر

وقلعة حلب الشهـباء أيضًا وهذه المسمطة بديعة مـدح بها الملك المنصور سلطان ماردين، وكان كـريمًا شهيرَ الصيتِ ولى الملك بها نحـو خمسين سنة، وأدركَ أيامَ قازان ملك التتر، وصاهر السلطان خدابنده بابنته دنيا خاتون.

خبر سلطان ماردين فى عهد دخولى إليها

وهو الملكُ الصالحُ ابنُ الملكِ المنصورِ الذى ذكرناه آنفًا، ورث الملك عن أبيه وله المكارم الشهيرة. وليس بأرض العراق والشام ومصر أكرم منه، يقصده الشعراء والفـقراء فيجزل لهم العطايـا، جريًا على سنن أبيه، قصده أبو عـبيد الله محـمد بن جابر الأندلسى المروى الكفـيف مادحًا، فأعطاه عـشرين ألف درهم وله الصدقات والمدارس والزوايا لإطعام الطعـام، وله وزير كبير القدر، وهو الإمام العـالم وحيد الدهر وفريد العـصر جمال الدين السنـجاوى، وقرأ

(١) الأشم: المرتفع. وهى شماء. الوجيز ص(٣٥١).
(٢) العيس: كرام الإبل. الوجيز ص(٤٤٣).

بمدينة تبريز، وأدرك العلماء الكبار، وقاضي قضاته الإمام الكامل برهان الدين الموصلى، وهو ينتسب إلى الشيخ الولى فتح الموصلى، وهذا القاضى من أهل الدين والورع والفضل، يلبس الخشن من ثياب الصوف الذى لا تبلغ قيمته عشرة دراهم، ويعتم بنحو ذلك، وكثيراً ما يجلس للأحكام بصحن مسجد خارج المدرسة، كان يتعبد فيه فإذا رآه مَنْ لا يعرفه ظنه بَعْضَ خدامِ القاضى وأعوانه.

وقد ذكر لى: أن امرأة أتت هذا القاضى، وهو خارج من المسجد، ولم تكن تعرفه، فقالت له: يا شيخ، أين يجلس القاضى؟ فقال لها: وما تريدين منه؟ فقالت: إن زوجى ضربنى، وله زوجة ثانية، وهو لا يعدل بيننا فى القسم وقد دعوته إلى القاضى فأبى وأنا فقيرة ليس عندى ما أعطيه لرجال القاضى حتى يحضروه بمجلسه، فقال لها: وأين منزل زوجك؟ فقالت: بقرية الملاحين خارج المدينة فقال لها: أنا أذهب معك إليه فقالت: والله ما عندى شيء أعطيك إياه فقال لها: لا آخذ منك شيئًا، ثم قال لها: اذهبى إلى القرية وانتظرينى خارجها، فإنى على إثرك. فذهبت كما أمرها وانتظرته، فوصل إليها وليس معه أحد، وكانت عادته أن لا يدع أحداً يتبعه فجاءت به إلى منزل زوجها فلما رآه قال: ما هذا الشيخ النحس الذى معك؟ فقال له: نعم والله أنا كذلك، ولكن أرضِ زوجتك. فلما طال الكلام، جاء الناس فعرفوا القاضى وسلموا عليه وخاف ذلك الرجل وخجل فقال له القاضى: لا عليك أصلح ما بينك وبين زوجتك فأرضاها الرجل من نفسه وأعطاها القاضى نفقة ذلك اليوم وانصرف.

لقيت هذا القاضى وأضافنى بداره ثم رحلت عائداً إلى بغداد فوصلت إلى مدينة الموصل التى ذكرناها، فوجدت ركبها بخارجها متوجهين إلى بغداد، وفيهم امرأة صالحة عابدة تسمى بالست زاهدة، وهى من ذرية الخلفاء، حجت مراراً، وهى ملازمة الصوم، سلمت عليها، وكنت فى جوارها، ومعها جملة من الفقراء يخدمونها، وفى هذه الوجهة توفيت رحمة الله عليها، وكانت وفاتها بزرود، ودفنت هنالك، ثم وصلنا إلى مدينة بغداد،

فوجدت الحاج فى أهبة الرحيل، فقصدت أميرها معروف خواجة فطلبت منه ما أمر لى به السلطان. فعين لى شقة محارة وزاد أربعة من الرجال وماءهم، وكتب لى بذلك ووجه إلى أمير الركب البهلوان محمد الحويح فأوصاه بى. وكانت المعرفة بينى وبينه متقدمة، فزادها تأكيدًا. ولم أَزَلْ فى جواره وهويحسن إلى ويزيدنى على ما أمر به، وأصابنى عند خروجنا من الكوفة إسهال فكانوا ينزلوننى من أعلى المحمل مرات كثيرة فى اليوم، والأمير يتفقد حالى ويوصى بى، ولم أزل مريضًا حتى وصلت مكة حرم الله تعالى، زَادَهَا اللهُ شرفًا وتعظيمًا، وَطُفْتُ بالبيت الحرام كرمه الله تعالى طواف القدوم، وكنت ضعيفًا بحيث أؤدى المكتوبة قاعدًا فطفت وسعيت بين الصفا والمروة راكبًا على فرس الأمير الحويح المذكور، ووقفنا تلك السنة يوم الإثنين، فلما نزلنا منًى أخذتُ فى الراحة والاستقلال من مرضى، ولما انقضى الحاج أقمت مجاوراً بمكة تلك السنة. وكان بها الأمير علاء الدين بن هلال مشيد الدواوين مقيمًا لعمارة دار الوضوء بظاهر العطارين من باب ابن شيبة وجاور فى تلك السنة من المصريين جماعة من كبرائهم منهم تاج الدين بن الكويك ونور الدين القاضى وزين الدين بن الأصيل وابن الخليلى وناصر الدين الأسيوطى. وسكنتُ تلك السنة بالمدرسة المظفرية، وعافانى الله من مرضى، فكنت فى أنعم عيشٍ، وتفرغت للطواف والعبادة والاعتمار، وأتى فى أثناء تلك السنة حجاج الصعيد، وقدم معهم الشيخ الصالح نجم الدين الأصفهونى(١)، وهى أولُ حجة حَجَّهَا، والأخوان علاء الدين علىّ وسراج الدين عمر ابنا القاضى الصالح نجم الدين البالسى قاضى مصر، وجماعة غيرهم، فى منتصف ذى القعدة وصل الأمير سيف الدين يلملك، وهو من الفضلاء، ووصل فى صحبته جماعة من أهل طنجة بلدى حرسها الله، منهم الفقيه أبو عبد الله بن عطاء الله والفقيه أبو محمد عبيد الله الحضرى والفقيه أبو عبد الله المرسى، وأبو العباس ابن الفقيه أبى على البلسنى وأبو محمد ابن القابلة وأبو الحسن

---

(١) كذا بالأصل، ولعلها الأصفونى نسبة إلى أصفون، إحدى قرى صعيد مصر، وهى تعرف اليوم بأصفون المطاعنة.

البيارى وأبو العباس بن نافوت وأبو الصبر أيوب الفخار وأحمد بن حكامه، ومن أهل القصر المجاز الفقيه أبو زيد عبد الرحمن ابن القاضى أبى العباس ابن خلوف، ومن أهل القصر الكبير الفقيه أبو محمد بن مسلم وأبو إسحاق إبراهيم بن يحيى وولده. ووصل فى تلك السنة الأمير سيف الدين تقزدمور من الخاصكية والأمير موسى بن قرمان والقاضى فخر الدين ناظر الجيش وكاتب المماليك والتاج أبو إسحاق والست حدق مربية الملك الناصر. وكانت لهم صدقات عميمة بالحرم الشريف، وأكثرهم صدقة القاضى فخر الدين، وكانت وقفتنا فى تلك السنة فى يوم الجمعة من سنة ثمان وعشرين، ولما انقضى الحج أقمتُ مجاوراً بمكة حرسها الله سنة تسع وعشرين، وفى هذه السنة وصل أحمد بن الأمير رميثة ومبارك ابن الأمير عطيفة من العراق صحبة الأمير محمد الحويح والشيخ زاده الحرباوى والشيخ دانيال، وأتوا بصدقات عظيمة للمجاورين وأهل مكة من قبل السلطان أبى سعيد ملك العراق، وفى تلك السنة ذكر اسمه فى الخطبة بعد ذكر الملك الناصر، ودعوا له بأعلى قبة زمزم، وذكروا بعده سلطان اليمن الملك المجاهد نور الدين، ولم يوافق الأمير عطيفة على ذلك، وبعث شقيقه، منصوراً ليعلم الملك الناصر بذلك فأمر رميثة برده فردّ، فبعثه ثانية على طريق جدة حتى أعلم الملك الناصر بذلك ووقفنا تلك السنة، وهى سنة تسع وعشرين يوم الثلاثاء، ولما انقضى الحجُّ أقمت مجاوراً بمكة حرسها الله سنة ثلاثين. وفى موسمها وقعت الفتنة بين أمير مكة عظيمة وبين أيدمور أمير جندار الناصرى، وسبب ذلك أن تجاراً من أهل اليمن سرقوا، فتشكوا إلى أيدمور بذلك، فقال أيدمور لمبارك ابن الأمير عطيفة: ائت بهؤلاء السراق، فقال: لا أعرفهم فكيف نأتى بهم، وبعد فأهل اليمن تحت حكمنا ولا حكم لك عليهم، إن سرق لأهل مصر والشام شىء فاطلبنى به فشتمه أيدمور وقال له: يا قواد تقول لى هكذا، وضربه على صدره فسقط، ووقعت عمامته عن رأسه وغضب له عبيده وركب أيدمور يريد عسكره، فلحقه مبارك وعبيده فقتلوه وقتلوا ولده. ووقعت الفتنة بالحرم، وكان به الأمير أحمد ابن عم الملك الناصر، ورمى

الترك بالنشاب(١)، فقتلوا امرأة قيل: إنها كانت تحرض أهل مكة على القتال، وركب من ركب من الأتراك، وأميرهم خاص ترك، فخرج إليهم القاضى والأئمة والمجاورون وفوق رؤوسهم المصاحف، وحاولوا الصلح، ودخل الحجاج مكة فأخذوا ما لهم بها وانصرفوا إلى مصر، وَبَلَغَ الخبرُ إلى الملك الناصر فشق(٢) عليه، وبعث العساكر إلى مكة ففرّ الأمير عطيفة وابنه مبارك، وخرج أخوه رميثة وأولاده إلى وادى نخلة، فلما وصل العسكر إلى مكة بعث الأمير رميثة أحد أولاده يطلب له الأمان، ولولده، فأمنوا وأتى رميثة وكفنه فى يده إلى الأمير، فخلع عليه، وسلمت إليه مكة، وعاد العسكر إلى مصر وكان الملك الناصر -رحمه الله- حليمًا فاضلاً، فخرجت تلك الأيام من مكة قاصداً بلاد اليمن فوصلت إلى حَده (بالحاء المهمل المفتوح) وهى نصف الطريق بين مكة وجُدة (بالجيم المضموم) ثم وصلت إلى جدة، وهى بلدة قديمة على ساحل البحر يقال: إنها من عمارة الفرس، وبخارجها مصانع قديمة، وبها جباب للماء منقورة فى الحجر الصلد، يتصل بعضها ببعض، تفوت الإحصاء كثرة، وكانت هذه السنة قليلة المطر، وكان الماء يجلب إلى جدة على مسيرة يوم، وكان الحجاج يسألون الماء من أصحاب البيوت.

ومن غريب ما اتفق لى بجدة أنه وقف على بابى سائلٌ أعمى يطلب الماء يقوده غلام، فسلم على وسمانى باسمى وأخذ بيدى، ولم أكن عرفته قط، ولا عرفنى فعجبت من شأنه، ثم أمسك أصبعى بيده وقال: أين الفتخة؟ وهى الخاتم وكنت حين خروجى من مكة لقينى بعض الفقراء وسألنى، ولم يكن عندى فى ذلك الحين شىء فدفعت له خاتمى. فلما سألنى عنه هذا الأعمى قلت له: أعطيته لفقير. فقال: ارجع فى طلبه فإن فيه أسماء مكتوبة فيها سر من الأسرار فطال تعجبى منه ومن معرفته بذلك، والله أعلم بحاله، وبجدة جامع يعرف بجامع الآبنوس، معروف البركة يستجاب به

(١) النُّشاب: النبل، واحدته: نشابة. الوجيز ص(٦١٥).
(٢) يُقال: شَقَّ الأمر يشق شقا: صعب. الوجيز ص(٣٤٧).

الدعاء، وكان الأمير بها أبا يعقوب بن عبد الرزاق، وقاضيها وخطيبها الفقيه عبد الله من أهل مكة شافعى المذهب، وإذا كان يوم الجمعة واجتمع الناس للصلاة أتى المؤذن، وعد أهل جدة المقيمين بها فإن أكملوا أربعين خطب وصلى بهم الجمعة، وإن لم يبلغ عددهم أربعين صلى ظهراً أربعًا، ولا يعتبر من ليس من أهلها وإن كانوا عدداً كثيراً. ثم ركبنا البحر من جدة فى مركب يسمونه الجلبة، وكان لرشيد الدين الألفى اليمنى الحبشى الأصل، وركب الشريف منصور ابن أبى نمى فى جلبة أخرى، ورغب منى أن أكونَ مَعَهُ فلم أفعل، لكونه كان معه فى جلبته الجمال فخفت من ذلك، ولم أكن ركبت البحر قبلها وكان هنالك جملة من أهل اليمن قد جعلوا زوادهم وأمتعتهم فى الجلب وهم متأهبون للسفر.

ولما ركبنا البحرَ أمر الشريف منصور أحد غلمانه أن يأتيه بعديلة دقيق، وهى نصف حمل وبطة سمن، يأخذهما من جلب أهل اليمن. فأخذهما وأتى بهما إليه، فأتانى التجار باكين، وذكروا إلى أن فى جوف تلك العديلة عشرة آلاف درهم نقرة، ورغبوا منى أن أكلمه فى ردها، وأن يأخذ سواها، فأتيته وكلمته فى ذلك وقلت له: إن للتجار فى جوف هذه العديلة شيئًا، فقال: إن كان سكَرًا فلا أرده إليهم، وإن كان سوى ذلك فهو لهم، ففتحوها ووجدوا الدراهم فردها عليهم وقال لى: لو كان عجلان ما ردّها وعجلان هو ابن أخيه رميثة، وكان قد دخل فى تلك الأيام دار تاجر من أهل دمشق قاصداً لليمن، فذهب بمعظم ما كان فيها، وعجلان هو أمير مكة على هذا العهد، وقد صلح حاله، وأظهر العدل والفضل. ثم سافرنا فى هذا البحر بالريح الطيبة يومين، وتغيرت الريح بعد ذلك وصدتنا عن السبيل التى قصدناها، ودخلت أمواج البحر معنا فى المركب، واشتد الميد[1] بالناس، ولم نزل فى أهوال حتى خرجنا فى مرسى يعرف برأس دوائر، فيما بين عيذاب وسواكن

---

(١) يُقال: ماد الشيء يميد ميدًا، وميدانًا: تحرك واضطرب. وماد الغصن: تمايل فهو مائد، ويُقال: مادت به الأرض: دارت كأنها اضطربت به. الوجيز ص(٥٩٦).

فنزلنا به، ووجدنا بساحله عريش قصب على هيئة مسجد، وبه كثير من قشور بيض النعام مملوءة ماء فشربنا منه، وطبخنا ورأيت فى ذلك المرسى عجبًا، وهو خور مثل الوادى يخرج من البحر، فكان الناس يأخذون الثوب ويمسكون بأطرافه ويخرجون به، وقد امتلأ سمكًا، كل سمكة منها قدر الذراع، ويعرفونه بالبورى فطبخ منه الناس كثيرًا واشتروا وقصدت إلينا طائفة من البجاة، وهم سكان تلك الأرض سود الألوان، لباسهم الملاحف الصفر، ويشدون على رءوسهم عصائب حمرًا، عرض الأصبع وهم أهل نجدة وشجاعة، وسلاحهم الرماح والسيوف، ولهم جمال يسمونها الصهب، يركبونها بالسروج فاكترينا منهم الجمال، وسافرنا معهم فى برية كثيرة الغزلان، والبجاة لا يأكلونها وهى تأنس بالآدمى ولا تنفر منه. وبعد يومين من مسيرنا وصلنا إلى حى من العرب يعرفون بأولاد كاهل، مختلطين بالبجاة، عارفين بلسانهم، وفى ذلك اليوم وصلنا إلى جزيرة سواكن، وهى على نحو ستة أميال من البر، ولاماء بها ولا زرع ولا شجر، والماء يجلب إليها فى القوارب، وفيها صهاريج يجتمع بها ماء المطر، وهى جزيرة كبيرة، وبها لحوم النعام والغزلان وحمر الوحش، والمعزى عندهم كثير والألبان والسمن ومنها يجلب إلى مكة وحبوبهم الجرجور، وهو نوع من الذرة كبير الحب يجلب منها أيضًا إلى مكة.

وكان سلطان جزيرة سواكن حين وصولى إليها الشريف زيد بن أبى نمى، وأبوه أمير مكة، وأخواه أميراها بعده، وهما عطيفة ورميثة اللذان تقدم ذكرهما وصارت إليه من قبل البجاة، فإنهم أخواله ومعه عسكر من البجاة، وأولاده كاهل وعرب جهينة وركبنا البحر من جزيرة سواكن نريد أرض اليمن، وهذا البحر لا يسافر فيه بالليل لكثرة أحجاره، وإنما يسافرون فيه من طلوع الشمس إلى غروبها ويرسون وينزلون إلى البر فإذا كان الصباح صعدوا إلى المركب وهم يسمون رئيس المركب الربّان ولا يزال أبدًا فى مقام المركب، ينبه صاحب السكان على الأحجار[1]، وهم يسمونها النبات. وبعد ستة أيام

---

(١) يعنى: الثمين منها، ولعله يقصد المرجان الذى يستخرج من أعماق البحار.

من خروجنا عن جزيرة سواكن وصلنا إلى مدينة حَلِي (وضبط اسمها بفتح الحاء المهمل وكسر اللام وتخفيفها)، وتعرف باسم ابن يعقوب وكان من سلاطين اليمن ساكنًا بها قديمًا وهى كبيرة حسنة العمارة، يسكنها طائفتان من العرب، وهم بنو حرام وبنو كنانة وجامع هذه المدينة من أحسن الجوامع، وفيه جماعة من الفقراء المنقطعين إلى العبادة منهم الشيخ الصالح العابد الزاهد قبولة الهندى، من كبار الصالحين لباسه مرقعة وقلنسوة لبد، وله خلوة متصلة بالمسجد، فرشها الرمل، لا حصير بها ولا بساط، ولم أر بها حين لقائى له شيئًا إلا إبريق الوضوء، وسفرة من خوص النخيل فيها كسر شعير يابسة، وصحيفة فيها ملح وسعتر، فإذا جاءه أحد قدم بين يديه ذلك، ويسمع به أصحابه، فيأتى كل واحد منهم بما حضر من غير تكلف شىء وإذا صلوا العصر اجتمعوا للذكر بين يدى الشيخ إلى صلاة المغرب وإذا صلوا المغرب أخذ كل واحد منهم موقفه للتنفُّل، فلا يزالون كذلك إلى صلاة العشاء الآخرة، فإذا صلوا العشاء الآخرة أقاموا على الذكر إلى ثلث الليل ثم انصرفوا ويعودون فى أول الثلث الثالث إلى المسجد فيجتهدون إلى الصبح، ثم يذكرون إلى أن تحين صلاة الضحى بالمسجد وهذا دأبهم أبدًا، ولقد كنت أردت الإقامة معهم باقى عمرى، ولم أوفق لذلك والله تعالى يتداركنا بلطفه وتوفيقه.

أمَّا سلطان حَلِي فكان عامر بن ذؤيب من بنى كنانة، وهو من الفضلاء الأدباء الشعراء. صحبته من مكة إلى جدة، وكان حج فى سنة ثلاثين. ولما قدمت مدينته أنزلنى وأكرمنى، وأقمت فى ضيافته أيامًا. وركبت البحر فى مركب له فوصلت إلى بلدة السَّرْجة (وضبط اسمها بفتح السين المهمل وإسكان الراء وفتح الجيم)، بلدة صغيرة يسكنها جماعة من أولاد الهلبى[١]، وهم طائفة من تجار اليمن، أكثرهم ساكنون بصنعاء[٢] ولهم فضل وكرم

(١) وفى نسخة: «الهبى».
(٢) وفى نسخة: «بصعداء».

وإطعام لأبناء السبيل، ويعينون الحجاج، ويركبونهم فى مراكبهم، ويزودونهم من أموالهم. وقد عرفوا بذلك واشتهروا به. وكثر الله أموالهم، وزادهم من فضله، وأعانهم على فعل الخير. وليس بالأرض من يماثلهم فى ذلك إلا الشيخ بدر الدين النقاش الساكن ببلدة القحمة، فله مثل ذلك من المآثر والإيثار. وأقمنا بالسرجة ليلة واحدة فى ضيافة المذكورين، ثم رحلنا إلى مرسى الحادث ولم ننزل به، ثم إلى مرسى الأبواب، ثم إلى مدينة زبيد، مدينة عظيمة باليمن بينها وبين صنعاء أربعون فرسخًا، وليس باليمن بعد صنعاء أكبر منها، ولا أغنى من أهلها، واسعة البساتين كثيرة المياه والفواكه من الموز وغيره. وهى برية لا شطية إحدى قواعد اليمن (وهى بفتح الزاى وكسر الباء الموحدة) مدينة كبيرة كثيرة العمارة، بها النخل والبساتين والمياه، أملح[1] بلاد اليمن وأجملها، ولأهلها لطافة الشمائل وحسن الأخلاق وجمال الصور، ولنسائها الحسن الفائق الفائت، وهى وادى الخصيب الذى يذكر فى بعض الآثار أن رسول الله -ﷺ- قال لمعاذ فى وصيته: «**يا معاذ إذا جئت وادى الخصيب فهرول**» ولأهل هذه المدينة سبوت[2] النخل المشهورة، وذلك أنهم يخرجون فى أيام البسر والرطب فى كل سبت إلى حدائق النخل، ولا يبقى بالمدينة أحدٌ من أهلها ولا من الغرباء، ويخرج أهل الطرب وأهل الأسواق لبيع الفواكه والحلاوات، وتخرج النساء ممتطيات[3] الجمال فى المحامل[4]، ولهن مع ما ذكرناه من الجمال الفائق، الأخلاق الحسنة والمكارم. وللغرب عندهن مزية، ولا يمتنعن من تزوجه كما يفعله نساء بلادنا. فإذا أراد السفر خرجت معه وودعته، وإن كان بينهما ولد فهى تكفله وتقوم بما يجب له إلى أن يرجع أبوه، ولا تطالبه فى أيام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها. وإذا كان مقيمًا فهى تقنع منه بقليل النفقة والكسوة. لكنهن لا يخرجن عن

---

(١) أملح: أجمل وأحسن.
(٢) سبوت: جمع سبت، وسيأتى تفسير كلامه.
(٣) امتطى الدابة: ركبها. الوجيز ص(٥٨٥).
(٤) المحمل: الهودج. وقد تقدم وصفه. وانظر الوجيز ص(١٧٣).

بلدهن أبدًا، ولو أعطيت إحداهن ما عسى أن تعطاه على أن تخرج من بلدها لم تفعل. وعلماء تلك البلاد وفقهاؤها أهل صلاح ودين وأمانة ومكارم وحسن خلق. لقيت بمدينة زبيد الشيخ العالم الصالح أبا محمد الصنعانى، والفقيه الصوفى المحقق أبا العباس الإبيانى، والفقيه المحدث أبا على الزبيدى. ونزلت فى جوارهم فأكرمونى وأضافونى ودخلت حدائقهم، واجتمعت عند بعضهم بالفقيه القاضى العالم أبى زيد عبد الرحمن الصوفى أحد فضلاء اليمن. ووقع عنده ذكر العابد الزاهد الخاشع أحمد بن العجيل اليمنى، وكان من كبار الرجال وأهل الكرامات.

وذكروا أن الفقهاء الزيدية[١] وكبراءهم أتوا مرة إلى زيارة الشيخ أحمد ابن العجيل، فجلس لهم خارج الزاوية، واستقبلهم أصحابه. ولم يبرحِ الشيخُ عن موضعه، فسلموا عليه، وصافحهم ورَحّبَ بهم. ووقع بينهم الكلام فى مسألة القدر. وكانوا يقولون أن لا قدر، وأن المكلف يخلق أفعاله. فقال لهم الشيخ فإن كان الأمر على ما تقولون فقوموا عن مكانكم هذا. فأرادوا القيام فلم يستطيعوا. وتركهم الشيخ على حالهم ودخل الزاوية. وأقاموا كذلك، واشتد بهم الحر، ولحقهم وهج الشمس، وضجوا مما نزل بهم. فدخل أصحاب الشيخ إليه وقالوا له: إن هؤلاء القوم قد تابوا إلى الله، ورجعوا عن مذهبهم الفاسد، فخرج عليهم الشيخ، فأخذ بأيديهم وعاهدهم على الرجوع إلى الحق وترك مذهبهم السيئ وأدخلهم زاويته، فأقاموا فى ضيافته ثلاثًا وانصرفوا إلى بلادهم. وخرجت لزيارة قبر هذا الرجل الصالح، وهو بقرية يقال لها: غسانة خارج زبيد. ولقيت ولده الصالح أبا الوليد إسماعيل، فأضافنى وبت عنده، وزرت ضريح الشيخ، وأقمت معه ثلاثًا. وسافرت فى صحبته إلى زيارة الفقيه أبى الحسن الزيلعى، وهو من كبار الصالحين، ويقدم عليه حجاج اليمن إذا توجهوا للحج. وأهل تلك البلاد وأعرابها يعظمونه ويحترمونه. فوصلنا إلى جبلة، وهى بلدة صغيرة حسنة

---

(١) الزيدية: فرقة من الشيعة تنسب إلى زيد بن على بن الحسين -ﷺ-، ومذهبهم هو السائد فى اليمن، وهو حصر الإمامة فى أولاد على من فاطمة. الوجيز ص(٢٩٧).

ذات نخل وفواكه وأنهـار. فلما سمع الفقيه أبو الحـسن الزيلعى بقدوم الشيخ أبى الوليد استقبله وأنزله بزاويته وسلمت عليه معه. وأقمنا عنده ثلاثة أيامٍ فى خيرِ مـقامٍ، ثم انصرفنا. وبعث مـعنا أحدَ الفقراء، فـتوجهنا إلى مدنيـةِ تَعِز حضـرة ملك اليمن (وضـبط اسمـها بفـتح التاء المعلوة وكـسر العين المهـملة وراء)، وهى من أحـسن مدن اليـمن وأعظمـها، وأهلـها ذوو تجـبر وتكبـر وفظاظة(١). وكـذلك الغـالب على البـلاد التى يسكنهـا الملوك. وهى ثلاث محـلات إحداها: يسكنها السلطان ومماليكه وحـاشيته وأرباب دولتـه وتسمى باسم لا أذكره، والثانيـة: يسكنها الأمراء والأجناد وتسمى عـدينة، والثالثة: يسكنها عامة الناس وبها السوق العظمى وتسمى المحالب.

خبر سلطان اليمن

فـهو السلطان المجـاهد نور الدين على ابن السـلطان المؤيد هزبر الدين داود ابن السلطان المظفر يوسـف بن على بن رسول، شهر جـده برسول لأن أحد خلفاء بنى العـباس أرسله إلى اليمن ليكون بها أميـرًا، ثم استقل أولاده بالملك وله ترتيب عجيب فى قعوده وركوبه. وكنتُ لما وصلتُ هذه المدينةَ مع الفقيـرِ الذى بعثه الشيخ الفقـيه أبو الحسن الزيلعى فى صحبـتى قصد بى إلى قاضى القضاة الإمام المحدث صـفى الدين الطبرى المكى، فسلمنا عليه ورحب بنا، وأقمنا بداره فى ضـيافته ثلاثًا. فـلما كان اليوم الرابع وهو يوم الخـميس وفيـه يجلس السلطان لعامـة الناس، دخل بى عليه فـسلمت عليه، وكـيفـية السلام عليه أن يمس الإنسـان الأرض بسبابته، ثم يرفعهـا إلى رأسه، ويقول: أدام الله عزك. فـفعـلت كمـثل ما فـعله القاضى عن يمين الملك، وأمـرنى، فقعدت بين يديه. فسألنى عن بلادى وعن مولانا أمير المسلمين جودا الأجواد أبى سعيد -رضي الله عنه-، وعن ملك مصر وملك العراق وملك اللور، فأجبته عما سأل من أحـوالهم، وكان وزيره بين يديه، فـأمره بإكـرامى وإنزالى. وترتيب

(١) الفظ: الجافى المسيء، قال تعالى: ﴿ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾. الوجيز ص(٤٧٦).

قعود هذا الملك أنه يجلس فوق دكانة مفروشة مزينة بثياب الحرير، وعن يمينه ويساره أهل السلاح، ويليه منهم أصحاب السيوف والدرق[١]، ويليهم أصحاب القسىّ، وبين أيديهم فى الميمنة والميسرة الحاجب وأرباب الدولة وكاتب السر وأمير جندار على رأسه، والشاويشية، وهم من الجنادرة وقوف على بعد. فإذا قعد السلطان صاحوا صيحة واحدة: بسم الله. فإذا قام فعلوا مثل ذلك، فيعلم جميع من بالمشور وقت قيامه ووقت قعوده. فإذا استوى قاعدًا دخل كل من عادته أن يسلم عليه فسلم ووقف حيث رسم له فى الميمنة أو الميسرة، لا يتعدى أحد موضعه، ولا يقعد إلا من أمر بالقعود. يقول السلطان للأمير جندار مُرْ فلانًا يقعد، فيتقدم ذلك المأمور بالقعود عن موقفه قليلاً، ويقعد على بساط هناك بين أيدى القائمين فى الميمنة والميسرة، ثم يؤتى بالطعام، وهو طعامان طعام العامة وطعام الخاصة. فأما الطعام الخاص فيأكل منه السلطان وقاضى القضاة والكبار من الشرفاء ومن الفقهاء والضيوف، وأما الطعام العام فيأكل منه سائر الشرفاء والفقهاء والقضاة والمشايخ والأمراء ووجوه الأجناد. ومجلس كل إنسان للطعام معين لا يتعداه ولا يزاحم أحدٌ منهم أحدًا. وعلى مثل هذا الترتيب سواء هو ترتيب ملك الهند فى طعامه. فلا أعلم أن سلاطين الهند أخذوا ذلك عن سلاطين اليمن أم سلاطين اليمن أخذوه عن سلاطين الهند. وأقمت فى ضيافة سلطان اليمن أيامًا، وأحسن إلى وأركبنى، وانصرفت مسافرًا إلى مدينة صنعاء، وهى قاعدة بلاد اليمن الأولى. مدينة كبيرة حسنة العمارة، بناؤها بالآجر والجص، كثيرة الأشجار والفواكه والزرع، معتدلة الهواء طيبة الماء ومن الغريب أن المطرَ ببلادِ الهندِ واليمنِ والحبشةِ إنما ينزل فى أيام القيظ، وأكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم فى ذلك الأوان. فالمسافرون عند الزوال لئلا يصيبهم المطر وأهل المدينة ينصرفون إلى منازلهم لأن أمطارها وابلة[٢] متدفقة، والمدينة مفروشة كلها. فإذا نزل المطر غسل جميع أزقتها وأنفاقها. وجامع صنعاء من أحسن

---

(١) الدرق: جمع درقة، وهى الترس المصنوع من الجلد. الوجيز ص(٢٢٦).

(٢) الوابل: المطر الشديد، الضخم القطر. الوجيز ص(٦٥٩).

الجوامع، وفيه قبر نبى من الأنبياء -عليهم السلام-. ثم سافرت منها إلى مدينة عدن، مرسى بلاد اليمن، على ساحل البحر الأعظم. والجبال تحف بها ولا مدخل إليها إلا من جانب واحد، وهى مدينةٌ كبيرةٌ، ولا زرع بها ولا شجر ولا ماء، وبها صهاريج يجتمع فيها الماء أيام المطر. والماء على بعد منها، فربما منعته العرب وحالوا بين أهل المدينة وبينه حتى يصانعوهم بالمال والثياب. وهى شديدة الحر. وهى مرسى أهل الهند. تأتى إليها المراكب العظيمة من كنبايت وتانه وكولم وقالقوط وفندراينه والشاليات ومنجرور وفاكنور وهنور وسندابور وغيرها، وتجار الهند ساكنون بها، وتجار مصر أيضًا. وأهل عدن ما بين تجار وحمالين وصيادين للسمك. وللتجار منهم أموال عريضة، وربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره لسعة ما بين يديه من الأموال، ولهم فى ذلك تفاخر ومباهاة.

وذكر لى أن بَعْضَهُمْ بَعَثَ غلامًا له ليشترى له كبشًا، وبعث آخر منهم غلامًا له برسم ذلك أيضًا، فاتفق أنه لم يكن بالسوق فى ذلك اليوم إلا كبش واحد. فوقعت المزايدة فيه بين الغلامين، فأنهى ثمنه إلى أربعمائة دينار. فأخذه أحدهما وقال: إن رأس مالى أربعمائة دينار، فإن أعطانى مولاى ثمنه فحسن، وإلا دفعت فيه رأس مالى ونصرت نفسى وغلبت صاحبى، وذهب بالكبش إلى سيده فلما عرف سيده بالقضية أعتقه وأعطاه ألف دينار، وعاد الآخر إلى سيده خائبًا فضربه وأخذ ماله ونفاه عنه. ونزلت فى عدن عند تاجر يعرف بناصر الدين الفأرى. فكان يحضر طعامه كل ليلة نحو عشرين من التجار. وله غلمان وخدام أكثر من ذلك. مع هذا كله فهم أهل دين وتواضع وصلاح ومكارم أخلاق، يحسنون إلى الغريب ويؤثرون الفقير ويعطون حق الله من الزكاة على ما يجب، ولقيتُ بهذه المدينة قاضيها الصالح سالم بن عبد الله الهندى، وكان والده من العبيد الحمالين. واشتغلَ ابنُهُ بالعلم، فرأس وساد. وهو من خيار القضاة وفضلائهم. أقمت فى ضيافته أيامًا، وسافرت من مدينة عدن فى البحر أربعة أيام، ووصلت إلى مدينة زيلع وهى مدينة البرابرة، وهم طائفة من السودان شافعية المذهب، وبلادهم

صحراء مسيرة شهرين. أولها زيلع، وآخرها مقدشو. ومواشيهم الجمال، وهى أغنام مشهورة السمن. وأهل زيلع سود الألوان، وأكثرهم رافضة. وهى مدينة كبيرة لها سوق عظيمة، إلا أنها أقذر مدينة فى المعمور وأوحشها وأكثرها نتنًا. وسبب نتنها كثرة سمكها ودماء الإبل التى ينحرونها فى الأزقة. ولما وصلنا إليها اخترنا المبيت بالبحر على شدة هوله، ولم نبت بها لقذرها. ثم سافرنا منها فى البحر خمس عشرة ليلة ووصلنا مَقْدَشُو (وضبط اسمها بفتح الميم وإسكان القاف وفتح الدال المهمل والشين المعجم وإسكان الواو)، وهى مدينة متناهية فى الكبر، وأهلها لهم جمال كثيرة ينحرون منها المئين فى كل يوم. ولهم أغنام كثيرة، وأهلها تجار أقوياء، وبها تصنع الثياب المنسوبة إليها التى لا نظير لها. ومنها تحمل إلى ديار مصر وغيرها. ومن عادة أهل هذه المدينة أنه متى وصل مركب إلى المرسى تصعد الصنابق، وهى القوارب الصغار إليه، ويكون فى كل صنبوق جماعة من شبان أهلها، فيأتى كل واحد منهم بطبق مغطى فيه الطعام، فيقدمه لتاجر من تجار المركب، ويقول: هذا نزيلى. وكذلك يفعل كل واحد منهم. ولا ينزل التاجر من المركب إلا إلى دار نزيله من هؤلاء الشبان إلا من كان كثير التردد إلى البلد، وحصلت له معرفة أهله، فإنه ينزل حيث شاء. فإذا نزل عند نزيله باع له ما عنده واشترى له، ومن اشترى منه ببخس أو باع منه بغير حضور نزيله، فذلك البيع مردود عندهم. ولهم منفعة فى ذلك. ولما صعد الشبان إلى المركب الذى كنت فيه جاء إلى بعضهم فقال له أصحابى: ليس هذا بتاجر، وإنما هو فقيه. فصاح بأصحابه وقال لهم: هذا نزيل القاضى، وكان فيهم أحد أصحاب القاضى فعرفه بذلك، فأتى إلى ساحل البحر فى جملة من الطلبة، وبعث إلى أحدهم. فنزلت أنا وأصحابى وسلمت على القاضى وأصحابه، وقال لى: بسم الله نتوجه للسلام على الشيخ. فقلت: ومن الشيخ؟ فقال: السلطان. وعادتهم أن يقولوا للسلطان الشيخ. فقلت له: إذا نزلت توجهت إليه. فقال لى: إن العادة إذا جاء الفقيه أو الشريف أو الرجل الصالح لا ينزل حتى يرى السلطان فذهبت معهم إليه كما طلبوا.

وكان سلطان مقدشو كما ذكرناه، إنما يقولون له الشيخ، واسمه أبو بكر ابن الشيخ عـمر. وهو فى الأصل من البـرابرة، وكلامه بالمقـدشى، ويعرف اللسـان العربى. ومن عـوائده أنه مـتى وصل مركب، يـصعـد إليه صنبـوق السلطان، فيسأل عن المركب من أين قدم ومن صاحبه ومن ربانه ومن الرئيس وما وسقه(١) ومن قدم فيه من التجار وغـيرهم، فيعرف بذلك كله، ويعرض على السلطان. فـمن اسـتحـق أن ينزل عنده أنزله. ولما وصلت مع القـاضى المذكور، وهو يعرف بابن البـرهان، المصرى الأصل، إلى دار السلطان، خرج بعض الفتيان فسلم على القاضى، فقال له: بلّغ الأمانة. وعرف مولانا الشيخ أن هذا الرجل قـد وصل من أرض الحجـاز، فبلّغ، ثم عـاد وأتى بطبق فـيه أوراق التنبول والفـوفل، فأعطانى عشـر أوراق مع قليل من الفوفل، وأعطى للقاضى كذلك، وأعطى لأصحابى ولطلـبة القاضى ما بقى فى الطبق، وجاء بقمم من ماء الورد الدمشقى، فـسكب على وعلى القاضى، وقال: إن مولانا أمر أن ينزل بدار الطلبة، وهى دار معدة لضيافة الطلبة. فأخذ القاضى بيدى، وجئنا إلى تلك الدار، وهى بمقـربة من دار الشيخ، مفـروشة مرتبة بما تحـتاج إليـه. ثم أتى بـالطعـام من دار الشـيخ، ومـعـه أحـد وزرائه، وهو الموكل بالضيوف، فـقال: مولانا يسلم عليكم، ويقـول لكم قدمتم خيـر مقدم. ثم وضع الطعام، فأكلنا. وطعامهم الأرز المطبـوخ بالسمن، يجعلونه فى صحفة خشب كـبيرة، ويجـعلون فوقه صـحاف الكوشـان، وهو الإدام من الدجاج واللحم والحـوت والبقـول. ويطبخـون الموز قـبل نضجـه فى اللبن الحليب، ويجعـلونه فى صحفـة ويجعلون الـلبن المروّب فى صحـفة، ويجعلون عـليه الليـمون المصبـر وعناقيـد الفلفل المصـبر المخلل المملوح والزنجـبيل الأخـضر والعنب، وهى مثل التفاح ولكن لهـا نواة، وهى إذا نضجت شديدة الحلاوة، وتؤكل كالفاكهة، وقـبل نضجها حامضة كالليـمون يصبرونها فى الخل. وهم إذا أكلوا لقمة من الأرز أكلوا بعدها من هذه الموالح والمخللات.

والواحد من أهل مقدشو يأكل قدر ما تأكله الجماعة منا عادة لهم. وفى

(١) الوسق: حمل البعير أو الغربة أو السفينة. الوجيز ص(٦٦٩).

نهاية من ضخامة الأجسام وسمنها. ثم لما طعمنا انصرف عنا القاضى. وأقمنا ثلاثة أيام، يؤتى إلينا بالطعام ثلاث مرات فى اليوم، وتلك عادتهم.

فلما كان اليوم الرابع، وهو يوم الجمعة، جاءنى القاضى والطلبة وأحد وزراء الشيخ، وأتونى بكسوة. وكسوتهم فوطة خز يشدها الإنسان فى وسطه عوض السراويل، فإنهم لا يعرفونها، ودراعة من المقطع المصرى معلمة، وفرجية من القدسى مبطنة، وعمامة مصرية معلمة، وأتوا لأصحابى بكُسى تناسبهم. وأتينا الجامع، فصلينا خلف المقصورة. فلما خرج الشيخ من باب المقصورة سلمت عليه مع القاضى فرحب وتكلم بلسانهم مع القاضى، ثم قال باللسان العربى: قدمت خير مقدم وشرفت بلادنا وآنستنا. وخرج إلى صحن المسجد فوقف على قبر والده، وهو مدفون هناك، فقرأ ودعا. ثم جاء الأمراء والوزراء ووجوه الأجناد فسلموا. وعادتهم فى السلام كعادة أهل اليمن، يضع سبابته فى الأرض ثم يجعلها على رأسه، ويقول: أدام الله عزك. ثم خرج الشيخ من باب المسجد، فلبس نعليه، وأمر القاضى أن ينتعل، وأمرنى أن أنتعل، وتوجه إلى منزله ماشيًا، وهو بالقرب من المسجد، ومشى الناس كلهم حفاة. ورفعت فوق رأسه أربع قباب من الحرير الملون، وعلى أعلى كل قبة صورة طائر من ذهب. وكان لباسه فى اليوم فرجية قدسى أخضر، وتحتها من ثياب مصر وطروحاتها الحسان. وهو متقلد بفوطة حرير. وهو معتم بعمامة كبيرة. وضربت بين يديه الطبول والأبواق والأنفار. وأمراء الأجناد أمامه وخلفه، والقاضى والفقهاء والشرفاء معه. ودخل إلى مشوره على تلك الهيئة. وقعد الوزراء والأمراء ووجوه الأجناد فى سقيفة هنالك. وفرش للقاضى بساط لا يجلس معه غيره عليه، والفقهاء والشرفاء معه. ولم يزالوا كذلك إلى صلاة العصر. فلما صلوا العصر مع الشيخ، أتى جميع الأجناد، ووقفوا صفوفًا على قدر مراتبهم. ثم ضربت الأطبال والأنفار والأبواق والصرنايات، وعند ضربها لا يتحرك أحد، ولا يتزحزح من مقامه، ومن كان ماشيًا وقف، فلم يتحرك إلى خلف ولا إلى أمام، فإذا فرغ من ضرب الطبلخانة سلموا بأصابعهم كما ذكرناه، وانصرفوا وتلك عادة لهم فى كل يوم

جمعة. وإذا كان يوم السبت يأتى الناس إلى باب الشيخ فيقعدون فى سقائف خارج الدار، ويدخل القاضى والفقهاء والشرفاء والصالحون والمشايخ والحجاج إلى المشور الثانى، فيقعـدون على دكاكين خشب معدة لذلك، ويمون القاضى على دكـانة وحده، وكل صـنف على دكانة تخـصـهم، لا يشاركـهم فـيهـا سواهم. ثم يجلس الشيخ بمجلسه، ويبـعث إلى القاضى فيجلس عن يساره، ثم يدخل الفقهاء فيقعد كبراؤهم بين يديه، وسائرهم يسلمون وينصرفون. ثم يدخل الشرفاء، فـيقعد كبراؤهم بين يديه، ويسلم سـائرهم وينصرفون. وإن كانوا ضيوفًا جلسوا عن يمينه، ثم يدخل المشـايخ والحجاج، فيجلس كبراؤهم ويسلم سائرهم وينـصرفون. ثم يدخل الوزراء ثم الأمـراء ثم وجوه الأجناد، طائفة بعـد طائفة أخرى، فيسلمـون وينصرفون. ويؤتى بالطعـام، فيأكل بين يدى الشيخ القاضى والشرفاء ومن كان قاعدًا بالمجلس، ويأكل الشيخ معهم. وإن أراد تشريف أحـد من كبـار أمرائه بعث إليه فـأكل معهـم. ويأكل سائر الناس بدار الطعام، وأكلهم على ترتيب مثل ترتيبهم فى الدخول على الشيخ. ثم يدخل الشيخ إلى داره، ويقصد القـاضى والوزراء وكاتب السر وأربعة من كبـار الأمراء للفصل بين الناس وأهل الشكايات، فـما كان متـعلقًا بالأحكام الشرعية حكم فيه القاضى، ومـا كان من سوى ذلك حكم فيه أهل الشورى، وهم الوزراء والأمراء. ومـا كان مـفتقـرًا إلى مشاورة السلطـان كتبـوا إليه، فـيخـرج لهم الجواب من حـينه على ظهـر البطاقة بمـا يقتـضيـه نظره وتلك عادتهم.

ثم ركبت من مـدينة مقدشـو متوجهًـا إلى بلاد السواحل قاصـدًا مدينة كُلْوَا من بلاد الزنوج. فوصلنا إلى جزيرة مَـنْبَسَى (وضبط اسمها مـيم مفتوح ونون مسكن وباء موحـدة مفتوحة وسين مـهمل مفتوح وياء)، وهى كـبيرة، بينها وبين أرض السواحل مـسيرة يومين فى البحر. ولا برّ لهـا، وأشجارها: الموز والليمون والأتـرج. ولهم فاكهة يسمـونها الجمون، وهى شـبه الزيتون، ولهـا نوى كنواه، إلا أنها شـديدة الحلاوة. ولا زرع عند أهل هذه الجـزيرة، وإنما يجلب إليهم من السواحل. وأكثر طعامـهم الموز والسمك. وهم شافعية المذهب أهل دين وعفاف وصلاح، ومساجـدهم من الخشب محكمة الإتقان،

وعلى كل باب من أبواب المساجد البئر والثنتان. وعمق آبارهم ذراع أو ذراعان، فيسقون منها الماء بقدح خشب، قد غرز فيه عود رقيق فى طول الذراع. والأرض حول البئر والمسجد مسطحة، فمن أراد دخول المسجد غسل رجليه ودخل. ويكون على بابه قطعة حصير غليظ يمسح بها رجليه. ومن أرادَ الوضوءَ أمسكَ القدح بين فخذيه وصب على يديه. ويتوضأ. وجميع الناس يمشون حفاة الأقدام. وبتنا بهذه الجزيرة ليلة، وركبنا البحر إلى مدينة كُلْوَا (وضبط اسمها بضم الكاف وإسكان اللام وفتح الواو)، وهى مدينة عظيمة ساحلية، أكثر أهلها الزنوج المستحكمو السواد. ولهم شرطات فى وجوههم، كما فى وجوه الليميين من جنادة. وذكر لى بعض التجار أن مدينة سفالة على مسيرة نصف شهر من مدينة كلوا، وأن بين سفالة ويوفى من بلاد الليميين مسيرة شهر، ومن يوفى يؤتى بالتبر إلى سفالة. ومدينة كلوا من أحسن المدن وأتقنها عمارة، وكلها بالخشب. وسقف بيوتها الديس. والأمطار بها كثيرة. وهم أهل جهاد لأنهم فى بر واحد مع كفار الزنوج. والغالب عليهم الدين والصلاح، وهم شافعية المذهب.

وكان سلطان كلوا فى عهد دخولى إليها أبو المظفر حسن ويكنى أيضًا أبا المواهب، لكثرة مواهبه ومكارمه. وكان كثير الغزو إلى أرض الزنوج، يغير عليهم ويأخذ الغنائم، فيخرج خمسها ويصرفه فى مصارفه المعينة فى كتاب الله تعالى، ويجعل نصيب ذوى القربى فى خزانة على حدة. فإذا جاءه الشرفاء دفعه إليهم. وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها. ورأيت عنده من شرفاء الحجاز جماعة منهم محمد بن جماز ومنصور بن لبيدة ابن أبى نمى ومحمد بن شميلة ابن أبى نمى. ولقيت بمقدشو أتيل بن كيش بن جماز، وهو يريد القدوم عليه. وهذا السلطان له تواضع شديد، ويجلس مع الفقراء ويأكل معهم، ويعظم أهل الدين والشرف.

ومن مكارمه أنه حضرته يوم جمعة وقد خرج من الصلاة قاصدًا إلى داره، فتعرض له أحد الفقراء اليمنيين فقال له: أبا المواهب، فقال: لبيك يا فقير ما حاجتك؟ قال: أعطنى هذه الثياب التى عليك. فقال له: نعم،

أعطكيها. قال: الساعة، قال: نعم، الساعة. فرجع إلى المسجد ودخل بيت الخطيب فلبس ثيابًا سواها، وخلع تلك الثياب، وقال للفقير: ادخل فخذها، فدخل الفقير وأخذها وربطها فى منديل وجعلها فوق رأسه وانصرف. فعظم شكر الناس للسلطان على ما ظهر من تواضعه وكرمه، وأخذ ابنه ولى عهده تلك الكسوة من الفقير وعوضه عنها بعشرة من العبيد. وبلغ السلطان ما كان من شكر الناس له على ذلك فأمر للفقير أيضًا بعشرة رؤوس من الرقيق وحملين من العاج. ومعظم عطاياهم من العاج[١]، وقلما يعطون الذهب.

ولما توفى هذا السلطان الفاضل الكريم -رحمة الله عليه-، ولى أخوه داودُ. فكان على الضد، إذا أتاه سائل يقول له: مات الذى كان يعطى، ولم يترك من بعده ما يعطى. ويقيم الوفود عنده الشهور الكثيرة، وحينئذ يعطيهم القليل، حتى انقطع الوافدون عن بابه.

وركبنا البحر من كلوا إلى مدينة ظَفَارِ الحموض[٢] (وضبط اسمها بفتح الظاء المعجم والفاء وآخره راء مبنية على الكسر)، وهى آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندى، ومنها تحمل الخيل العتاق إلى الهند. ويقطع البحر فيما بينها وبين بلاد الهند مع مساعدة الريح فى شهر كامل، قد قطعته مرة فى قالقوط من بلاد الهند إلى ظفار فى ثمانية وعشرين يومًا بالريح، ولم ينقطع لنا جرى بالليل ولا بالنهار. وبين ظفار وعدن فى البر مسيرة شهر فى صحراء، وبينها وبين حضرموت ستة عشر يومًا، وبينه وبين عمان عشرون يومًا.

ومدينة ظفار فى صحراء لا قرية بها ولاعمالة لها، والسوق خارج المدينة بربض يعرف بالحرجاء، وهى من أقذر الأسواق وأشدها نتنًا وأكثرها ذبابًا، لكثرة ما يباع بها من الثمرات والسمك. وأكثر سمكها النوع المعروف بالسردين، وهو بها فى النهاية من السمن. ومن العجائب أن دوابهم إنما

---

(١) العاج: ناب الفيل، ولا يسمى غير نابه عاجًا. الوجيز ص(٤٣٩).
(٢) وفى نسخة: «الحبوضى».

علفها من هذا السردين وكذلك غنمهم. ولم أر ذلك فى سواها. وأكثر باعتها الخدم، وهن يلبسن السواد. وزرع أهلها الذرة، وهم يسقونها من آبار بعيدة الماء. وكيفية سقيهم أنهم يصنعون دلوًا كبيرة، ويجعلون لها حبالاً كثيرة، ويتحزم بكل حبل عبد أو خادم، ويجرون الدلو على عود كبير مرتفع عن البئر، ويصبونه فى صهريج يسقون منه. ولهم قمح يسمونه العلس وهو فى الحقيقة نوع من السلت، والأرز يجلب إليهم من بلاد الهند، وهو أكثر طعامهم. ودراهم هذه المدينة من النحاس والقصدير، ولا تنفق فى سواها. وهم أهل تجارة لا عيش لهم إلا منها، ومن عاداتهم أنه إذا وصل مركب من الهند أو غيرها خرج عبيد السلطان إلى الساحل، وصعدوا فى صنبوق إلى المركب، ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب أو وكيله، وللربان وهو الرئيس، وللكرانى وهو كاتب المركب، ويؤتى إليهم بثلاثة أفراس فيركبونها، وتضرب أمامهم الأطبال والأبواق من ساحل البحر إلى دار السلطان فيسلمون على الوزير وأمير الجند، وتبعث الضيافة لكل من بالمركب ثلاثًا، وبعد الثلاث يأكلون بدار السلطان.

وهم يفعلون ذلك استجلابًا لأصحاب المراكب. وهم أهل تواضع وحسن أخلاق وفضيلة ومحبة للغرباء، ولباسهم القطن، وهو يجلب إليهم من بلاد الهند. ويشدون الفوط فى أوساطهم عوضًا عن السروال، وأكثرهم يشد فوطة فى وسطه، ويجعل فوق ظهره أخرى من شدة الحر، ويغتسلون مرات فى اليوم.

وهى كثيرة المساجد. ولهم فى كل مسجد مطاهر كثيرة معدة للاغتسال. ويصنع بها ثياب من الحرير والقطن والكتان حسان جدًّا.

والغالب على أهلها رجالاً ونساء المرض المعروف بداء الفيل، وهو انتفاخ القدمين. وأكثر رجالهم مبتلون بالأدر(١) والعياذ بالله، ومن عوايدهم

(١) يُقال: أدر يأدَر أدَرًا: انتفخت خصيتاه لتسرب مائع بين طبقتى الغلاف الذى يحيط بهما، فهو آدر، وأدرت الخُصية فهى أدراء، والجمع أُدْر. والأدرة: انتفاخ الخصية لتسرب مائع بين طبقتى غلافيها، والأدرة: الخصية المنتفخة، والجمع أُدَر، الوجيز ص(٩).

الحسنة التصافح فى المسجد إثر صلاة الصبح والعصر، يستند أهل الصف الأول إلى القبلة، ويصافحهم الذين يلونهم. وكذلك يفعلون بعد صلاة الجمعة، يتصافحون أجمعون. ومن خواص هذه المدينة وعجائبها أنه لا يقصدها أحد بسوء إلا عاد عليه مكروه، وحيل بينه وبينها.

وذكر لى أن السلطان قطب الدين تمتهن بن طوران شاه صاحب هرمز نازلها مرة من البر والبحر، فأرسل الله سبحانه عليه ريحًا عاصفًا كسرت مراكبه ورجع عن حصارها وصالح ملكها. وكذلك ذكر أن الملك المجاهد سلطان اليمن عيّن ابن عم له بعسكر كبير، برسم انتزاعها من يد ملكها، وهو أيضًا ابن عمه، فلما خرج ذلك الأمير من داره سقط عليه حائط وعلى جماعة من أصحابه فهلكوا جميعًا. ورجع الملك عن رأيه وترك حصارها وطلبها. ومن الغرائب أن أهل هذه المدينة أشبه الناس بأهل المغرب فى شئونهم. نزلت بدار الخطيب بمسجدها الأعظم، وهو عيسى بن على، كبير القدر كريم النفس. فكان له جوارٍ مسميات بأسماء خدام المغرب، إحداهن اسمها بخيتة والأخرى زاد المال. ولم أسمع هذه الأسماء فى بلد سواها. وأكثر أهلها رؤوسهم مكشوفة، لا يجعلون عليها العمائم. وفى كل دار من دورهم سجادة الخوص، معلقة فى البيت، يصلى عليها صاحب البيت، كما يفعل أهل المغرب. وأكلهم الذرة. وهذا التشابه كله مما يقوى القول بأن صنهاجة وسواهم من قبائل المغرب أصلهم من حِمْيَر. ويقرب من هذه المدينة بين بساتينها زاوية الشيخ الصالح العابد أبى محمد بن أبى بكر بن عيسى، من أهل ظفار. وهذه الزاوية معظمة عندهم، يأتون إليها غدوًّا وعشيًّا، ويستجيرون بها. فإذا دخلها المستجير لم يقدر السلطان عليه. رأيت بها شخصًا ذكر لى أن له بها مدة سنين مستجيراً لم يتعرض له السلطان.

وفى الأيام التى كنت بها استجار بها كاتب السلطان، وأقام فيها حتى وقع بينهما الصلح. أتيت هذه الزاوية، فبت فى ضيافة الشيخين أبى العباس أحمد وأبى عبد الله محمد ابنى الشيخ أبى بكر المذكور، وشاهدت لهما فضلاً عظيمًا، ولما غسلنا أيدينا من الطعام أخذ أبو العباس منهما ذلك الماء الذى

غسلنا به فشرب منه، وبعث الخادم بباقيه إلى أهله وأولاده فشربوه. وكذلك يفعلون بمن يتوسمون فيه الخير من الواردين عليهم. وكذلك أضافنى قاضيها الصالح أبو هاشم عبد الله الزبيدى، وكان يتولى خدمتى وغسل يدى بنفسه، ولا يكل ذلك إلى غيره. وبمقربة من هذه الزاوية تربة سلف السلطان الملك المغيث، وهى معظمة عندهم، ويستجير بها من طلب حاجة، فتقضى له. ومن عادة الجند أنه إذا تم الشهر ولم يأخذوا أرزاقهم، استجاروا بهذه التربة، وأقاموا فى جوارها إلى أن يعطوا أرزاقهم.

وعلى مسيرة نصف يوم من هذه المدينة الأحقاف، وهى منازل عاد. وهنالك زاوية ومسجد على ساحل البحر، وحوله قرية لصيادى السمك. وفى الزاوية قبر مكتوب عليه: هذا قبر هود بن عابر -عليه أفضل الصلاة والسلام-. والأشبه أن يكون قبره بالأحقاف لأنها بلاده، والله أعلم. ولهذه المدينة بساتين فيها موز كثير كبير الجرم. وزنت بمحضرى حبة منه فكان وزنها اثنتى عشرة أوقية. وهو طيب المطعم شديد الحلاوة. وبها أيضًا التنبول والنارجيل المعروف بجوز الهند، ولا يكونان إلا ببلاد الهند، وبمدينة ظفار هذه، لشبهها بالهند وقربها منه، اللهم إلا أن فى مدينة زبيد، فى بستان السلطان شجيرات من النارجيل. وإذ قد وقع ذكر التنبول والنارجيل، فلنذكرهما، ولنذكر خصائصهما.

خبر شجر التنبول

والتنبول شجر يغرس كما تغرس دوالى العنب، ويصنع له معرشات من القصب، كما تصنع لدوالى العنب، أو يغرس فى مجاورة النارجيل، فيصعد فيها كما تصعد الدوالى، وكما يصعد الفلفل. ولا ثمر للتنبول. وإنما المقصود منه ورقه، وهو يشبه ورق العليق. وأطيبه الأصفر. وتجنى أوراقه فى كل يوم. وأهل الهند يعظمون التنبول تعظيمًا شديدًا، وإذا أتى الرجل دار صاحبه فأعطاه خمس ورقات منه، فكأنما أعطاه الدنيا وما فيها، لا سيما إن كان أميرًا أو كبيرًا. وإعطاؤه عندهم أعظم شأنًا وأدل على الكرامة من إعطاء الفضة والذهب. وكيفية استعماله أن يؤخذ قبله الفوفل، وهو شبه جوز الطيب،

فيكسر حتى يصير أطرافًا صغارًا، ويجعله الإنسان فى فمه ويعلكه[1]، ثم يأخذ ورق التنبول، فيجعل عليها شيئًا من النورة ويمضغها مع الفوفل. وخاصيته أنه طيب النكهة، ويذهب بروائح الفم، ويهضم الطعام، ويقطع ضرر شرب الماء على الريق، ويفرح آكله، ويعين على الجماع. ويجعله الإنسان عند رأسه ليلاً فإذا استيقظ من نومه، أو أيقظته زوجته أو جاريته أخذ منه، فيذهب بما فى فمه من رائحة كريهة. ولقد ذكر لى أن جوارى السلطان والأمراء ببلاد الهند لا يأكلن غيره، وسنذكره عند ذكر بلاد الهند.

خبر شجر النارجيل

وهو جوز الهند، وهذا الشجر من أغرب الأشجار شأنًا وأعجبها أمرًا، وشجره شبه شجر النخل لا فرق بينهما، إلا أن هذه تثمر جوزًا، وتلك تثمر تمرًا. وجوزها يشبه رأس ابن آدم، لأن فيها شبه العينين والفم، وداخلها شبه الدماغ إذا كانت خضراء، وعليها ليف شبه الشعر، وهم يصنعون به حبالاً يخيطون به المراكب عوضًا عن مسامير الحديد، ويصنعون منه الحبال للمراكب. والجوزة منها وخصوصًا التى بجزائر ذيبة المهل، تكون بمقدار رأس الآدمى. ويزعمون أن حكيمًا من حكماء الهند فى غابر الزمان كان متصلاً بملك من الملوك ومعظمًا لديه، وكان للملك وزير بينه وبين هذا الحكيم معاداة. فقال الحكيم للملك: إن رأس هذا الوزير إذا قطع ودفن تخرج منه نخلة تثمر بثمر عظيم، يعود نفعه على أهل الهند وسواهم من أهل الدنيا. فقال له الملك: فإن لم يظهر من رأس الوزير ما ذكرته، قال: إن لم يظهر، فاصنع برأسى كما صنعت برأسه. فأمر الملك برأس الوزير فقطع، وأخذه الحكيم، وغرس نواة تمر فى دماغه، وعالجها حتى صارت شجرة، وأثمرت بهذا الجوز. وهذه الحكاية من الأكاذيب، ولكن ذكرناها لشهرتها عندهم. ومن خواصٍ هذا الجوز تقوية البدن وإسراع السمن والزيادة فى حمرة الوجه.

---

(١) يُقال: علك العِلْك وغيره يعلُك عَلْكًا: مضغه وأداره فى فيه. الوجيز ص(٤٣١).

وأما الإعانة على الباءة فـفعله فيها عجيب. ومن عـجائبه أنه يكون فى ابتداء أمره أخضر. فمن قطع بالسكين قطعة من قشره وفتح رأس الجوزة شرب منها ماء فى النهاية من الحلاوة والبرودة. ومزاجه حار معين على الباءة. فإذا شربَ ذلك الماء أخذ قطعة القشرة وجعلها شبه الملعقة وجرد بها ما فى داخل الجوزة من الطعم، فـيكون طعمـه كطعم البـيضـة إذا شربت ولم يتم نضـجهـا كل التمام، ويتغـذى به. ومنه كان غذائى أيام إقامتى بجزائـر ذيبة المهل مدة عام ونصف عام. وعـجائبه أن يصنع مـنه الزيت والحليب والعسل. فأمـا كيفـية صناعة العـسل منه فإن خـدام النخل منه، ويسمون الـفازانية، يصـعدون إلى النخلة غدواً وعـشـيـًّا إذا أرادوا أخذ مـائها الذى يصنعون مـنه العسل، وهم يسمونه الأطواق، فيـقطعون العذق[1] الذى يخرج منه الثمـر، ويتركون منه مقدار إصـبعين، ويربطون عليه قـدرًا صغير فـيقطر فيهـا الماء الذى يسيل من العذق. فإذا ربـطها غدوة، صعد إلـيها عشـيًّا ومعه قدحـان من قشر الجوز المذكور، أحدهما مملوء ماء فيصب مـا اجتمع من ماء العذق فى أحد القدحين ويغسـله بالماء الذى فى القدح الآخـر، وينجر من العـذق قليلاً ويربط علـيه القدر ثانية، ثم يفعل غدوة كفعله عشيًّا، فإذا اجتمع له الكثير من ذلك الماء طبخه كمـا يطبخ ماء العنب إذا صنع منه الرُّبُّ[2]، فيصيـر عسلاً عظيم النفع طيبًا، يشـتريه تجار الهند واليمن والصين، ويحـملونه إلى بلادهم، ويصنعون منه الحلواء. وأما كيـفية صنع الحليب منه فإن بكل دار شـبه الكرسى، تجلس فوقه المرأة، ويكون بيدها عصا، فى أحد طرفيها حديدة مشرفة، فيفتحون فى الجوزة مقـدار ما تدخل تلك الحديد ويجرشون مـا فى باطن الجوزة، وكل ما ينزل منهـا يجتـمع فى صـحفـة، حتى لا يـبقى فى داخل الجـوزة شىء ثم يمرس[3] ذلك الجريش بالماء، فيصير كلون الحليب بياضًا، ويكون طعمه كطعم الحليب، ويأتدم به الناس. وأما كـيفية صنع الزيت فإنهم يأخـذون الجوز بعد

---

(١) العذق: كل غصن له شعب، وجمعه أعذاق وعذوق. الوجيز ص(٤١١).

(٢) الرُّبُّ: خثارة التمر المطبوخة، وجمعه رُبوب ورِباب. الوجيز ص(٢٥٠).

(٣) يُقال: مرس التمر فى الماء يمرُس مَرْسًا: دلكه حتى تنحلّ أجزاؤه. الوجيز ص(٥٧٨).

نضجه وسقوطه عن شجره، فيزيلون قشره ويقطعونه قطعًا ويجعل في الشمس، فإذا ذبل طبخوه في القدور واستخرجوا زيته، وبه يستصبحون. ويضعه الناس في شعورهم، وهو عظيم النفع.

خبر سلطان ظفار

هو السلطان الملك المغيث بن الملك الفائز ابن عم ملك اليمن. وكان أبوه أميرًا على ظفار من قبل صاحب اليمن. وله عليه هدية، يبعثها له في كل سنة. ثم استبد الملك المغيث بملكها، وامتنع من إرسال الهدية. وكان من عزم ملك اليمن على محاربته، وتعيين ابن عمه ووقوع الحائط عليه ما ذكرناه آنفًا. وللسلطان قصر بداخل المدينة يسمى الحصن، عظيم فسيح، والجامع بإزائه. ومن عادته أن تضرب الطبول والبوقات والأنفار والصرنايات على بابه كل يوم بعد صلاة العصر، وفي كل يوم إثنين وخميس تأتي العساكر إلى بابه فيقفون خارج المشور ساعة وينصرفون، والسلطانُ لا يَخْرُجُ ولا يراه أحدٌ إلا في يوم الجمعة، فيخرج للصلاة ثم يعود إلى داره. ولا يُمْنَعُ أحدٌ من دخول المشور، وأمير جندار قاعد على بابه، وإليه ينتهي كلُّ صاحب حاجة أو شكاية، وهو يطالع السلطان، ويأتيه الجواب للحين. وإذا أرادَ السلطانُ الركوبَ خرجت مراكبه من القصر وسلاحه ومماليكه إلى خارج المدينة، وأتي بجمل عليه محمل مستور بستر أبيض منقوش بالذهب، فيركب السلطان ونديمه(1) في المحمل بحيث لا يرى. وإذا خرج إلى بستانه وأحب ركوب الفرس ركبه ونزل عن الجمل. وعادته أن لا يعارضه أحد في طريقه ولا يقف لرؤيته ولا لشكاية ولا غيرها، ومن تعرض لذلك ضرب أشد الضرب. فتجد الناس إذا سمعوا بخروج السلطان فروا عن الطريق وتحاموها(2). ووزير هذا السلطان الفقيه محمد العدني، وكان معلم صبيان، فعلّم هذا السلطان القراءة والكتابة،

(1) النديم: المصاحب والمسامر. الوجيز ص(٦٠٩).
(2) تحاماه: تجنبه. الوجيز ص(١٧٣).

وعاهده على أن يستوزره إن ملك. فلما ملك استوزره، فلم يكن يحسنها، فكان الاسم له والحكم لغيره.

ومن هذه المدينة ركبنا البحر نريد عمان فى مركب صغير لرجل يعرف بعلى بن إدريس المصيرى من أهل جزيرة مصيرة. وفى الثانى لركوبنا نزلنا بمرسى حاسك وبه ناس من العرب، صيادون للسمك، ساكنون هنالك، وعندهم شجر الكندر، وهو رقيق الورق. وإذا شرطت الورقة منه قطر منها ماء شبه اللبن، ثم عاد صمغًا. وذلك الصمغ هو الليان وهو كثير جداً هنالك. ولامعيشة لأهل ذلك المرسى إلا من صيد السمك، وسمكهم يعرف باللُّخَم (بخاء معجم مفتوح)، وهو شبيه كلب البحر. يُشرّح ويقدّد ويقتات به. وبيوتهم من عظام السمك، وسقفها من جلود الجمال. وسرنا من مرسى حاسك أربعة أيام ووصلنا إلى جبل لُمعان (بضم اللام)، وهو فى وسط البحر، وبأعلاه رابطة مبنية بالحجارة وسقفها من عظام السمك، وبخارجها غدير ماء يجتمع من المطر.

خبر الولى الذى لقيناه فى الجبل

ولما أرسينا تحت هذا الجبل صعدناه إلى هذه الرابطة، فوجدنا بها شيخًا نائمًا، فسلمنا عليه فاستيقظ، وأشار برد السلام فكلمناه فلم يكلمنا، وكان يحرك رأسه. فأتاه أهل المركب بطعام، فأبى أن يقبله. فطلبنا منه الدعاء فكان يحرك شفتيه ولا نعلم ما يقول، وعليه مرقعة وقلنسوة لبد، وليس معه ركوة ولا إبريق ولاعكاز ولا نعل. وقال أهل المركب: إنهم ما رأوه قط بهذا الجبل. وأقمنا تلك الليلة بساحل الجبل، وصلينا معه العصر والمغرب، وجئناه بطعام فرده، وأقام يصلى إلى العشاء الآخرة. ثم أذن وصلينا معه. وكان حسن الصوت بالقراءة مجيداً لها، ولما فرغ من صلاة العشاء الآخرة أومأ إلينا بالانصراف، فودعناه وانصرفنا ونحن نعجب من أمره. ثم إنى أردت الرجوع إليه لما انصرفنا، فلما دنوت منه غلب على الخوف، ورجعت إلى أصحابى وانصرفت معهم، وركبنا البحر، ووصلنا بعد يومين إلى جزيرة الطير،

وليست بهـا عمارة. فـأرسينا وصعدنا إلـيها، فوجـدناها ملآنة بطيور تشـبه الشقاشق، إلا أنهـا أعظم منها. وجاءت الناس ببيض تلك الطيـور فطبخوها وأكلوها، واصطادوا جـملة من تلك الطيـور فطبـخوها دون ذكـاة وأكلوها. وكان يجالسنى تاجر من أهل جزيرة مصيـرة ساكن بظفار اسمه مسلم، ورأيته يأكلُ معهم تلك الطيور، فأنكرت ذلك عليـه، فاشتد خجله وقال لى: ظننت أنهم ذبحوها. وانقطع عنى بعد ذلك من الخـجل، فكان لا يقربنى حتى أدعو به. وكـان طعـامى فى تلك الأيـام بذلك المركب التـمـر والسـمك. وكـانوا يصطادون بالغدوِّ والعشىِّ سمكًا يسمى بالفارسـية "شير ماهى"، ومعناه أسد السمك؛ لأن شـير هو الأسـد، وماهى السمك. وهو يشـبه الحـوت المسمى عندنا بتـازرزت، وهم يقطعـونه قطـعًا ويشـوونه ويعـطون كل من فى المركب قطعة، لا يفـضلون أحدًا على أحد ولا صـاحب المركب ولا سواه، ويأكلونه بالتمر. وكـان عندى خبز وكعك استصـحبتهما من ظفـار، فلما نفدا، كنت أقتات من ذلك السمك فى جملتهم. وعيّدنا عيد الأضحى على ظهر البحر، وهبت علينا فـى يومه ريح عـاصف بعـد طلوع الفـجـر، ودامت إلى طلوع الشمس، وكادت تغرقنا.

وكـان معنا فـى المركب حاج من أهل الـهند يسمى بـخضـر، ويدعى بمولانا؛ لأنه يحفظ القـرآن ويحسن الكتابة، فلما رأى هول البـحر لف رأسه بعباءة كانت له وتناوم، فلما فرج الله ما نزل بنا قلت له: يا مولانا خضركيف رأيت؟ قـال: كنت عنـد الهـول أفـتح عـينى أنظر، هل أرى المـلائكة الذين يقبـضون الأرواح جاءوا، فـلا أراهم، فأقـول الحمد لله لو كـان الغرق لأتوا لقبض الأرواح. ثم أغلق عينىّ ثم أفتحـهما، فأنظر كذلك، إلى أن فرج الله عنا. وكان قـد تقدمنا مـركب لبعض التـجار فغـرق، ولم ينْجُ منه إلا رجل واحد خرج عومًا بعد جـهد شديد. وأكلت فى ذلك المركب نوعًا من الطعام لم أذقه قبل ولا بعد، صنعه بعض تجار عـمان وهو من الذرة طبخها من غير طحن، وصب عليـه السـيلان، وهو عـسل التـمر، وأكـلناه. ثم وصلنا إلى جزيرة مصيرة التى منها صـاحب المركب الذى كنا فيه، وهى على لفظ مصير

وزيادة تاء التأنيث، جزيرة كبيـرة، لا عيش لأهلها إلا من السمك. ولم ننزل إليها لبعد مرساها عن الساحل. وكنت قد كرهتهم لما رأيتهم يأكلون الطير من غير ذكـاة. وأقمنا بها يومًا، وتوجه صـاحب المركب إلى داره وعاد إلينا، ثم سرنا يومًـا وليلة، ووصلنا إلى مرسى قـرية كبيـرة على ساحل البحـر تعرف بصور، ورأينا منها مـدينة قلهات، فى سفح[1] جبل، فخيل لنـا أنها قريبة. وكان وصولنا إلى المرسى وقت الزوال أو قبله. فلمـا ظهرت لنا المدينة أحببت المشى إليها والمبـيت بها، وكنت قد كرهت صحبـة أهل المركب، فسألت عن طريقها، فأخبرت أنى أصل إليها العصر. فاكتريت أحد البحريين ليدلنى على طريقها، وصـحبنى خضر الهندى الذى تقدم ذكره، وتركتُ أصـحابى مع ما كان لى بالمركب لـيلحقوا بى فى غـد ذلك اليوم، وأخـذت أثوابًا كانت لى، فدفعـتها للدليل ليكفينى مـؤونة حملها، وحملت فى يدى رمـحًا. فإذا ذلك الدليل يحب أن يستـولى على أثوابى، فأتى إلى خليج يخـرج من البحر فـيه المد والجزر، فأراد عـبوره بالثياب، فـقلت له: إنما تعبر وحدك وتتـرك الثياب عندنا، فـإن قدرنا الجواز جـزنا، وإلا صعـدنا نطلب المجاز فـرجع. ثم رأينا رجالاً جازوه عومًا فتحققنا أنه كـان قصده أن يغرقنا ويذهب بالثياب. فحينئذ أظهرت النشـاط وأخذت بالحـزم وشددت وسطى وكنت أهز الرمح، فـهابنى ذلك الدليل وصعدنا حتى وجدنا مجـازًا، ثم خرجنا إلى صحراء لا ماء بها، واشتد الأمر، فبعث الله لنا فارسًا فى جـماعة من أصحابه وبيد أحدهم ركوة ماء فـسقانى وسـقى صاحبى. وذهبنا نحـسب المدينة قريبة منا، وبـيننا وبينها خنادق نمشى فيها الأميال الكثـيرة. فلماجاء العشى أراد الدليل أن يميل بنا إلى ناحيـة البحر، وهو لا طريق لـه، لأن ساحله حجـارة. فأراد أن ننشب فيـها ويذهب بالثـياب. فقلت لـه: إنما نمشى على هذه الطريق التى نحن عليـها، وبينهـا وبين البحـر نحو مـيل. فلما أظلم الليل قـال لنا: إن المدينة قريـبة، فتعالوا نمشى حتى نبيت بخارجها إلى الصباح. فخفت أن يتعرض لنا أحد فى

---

(١) سفح الجبل: عرضه وامتداده إلى أسفل، حيث يغلظ فيسفح - ينصب - فيه الماء. الوجيز ص(٣١٢).

الطريق، ولم أحقق مقدار ما بقى إليها فقلت له: إنما الحق أن نخرج عن الطريق فننام، فإذا أصبحنا أتينا المدينة إن شاء الله. وكنت قد رأيت جملة من الرجال فى سفح جبل هنالك، فخفت أن يكونوا لصوصًا، وقلت التستر أولى. وغلب العطش على صاحبى فلم يوافق على ذلك. فخرجت عن الطريق، وقصدت شجرة من شجر أم غيلان، وقد أعييت وأدركنى الجهد، لكنى أظهرت قوة وتجلدًا، خوف الدليل. وأما صاحبى فمريض لا قوة له. فجعلت الدليل بينى وبين صاحبى، وجعلت الثياب بين ثوبى وجسدى، وأمسكت الرمح بيدى ورقد صاحبى ورقد الدليل، وبقيت ساهرًا. فكلما تحرك الدليل كلمته وأريته أنى مستيقظ، ولم نزل كذلك حتى الصبح.

ثم خرجنا إلى الطريق فوجدنا الناسَ ذاهبين بالموافق إلى المدينة، فبعث الدليل ليأتينا بماء، وأخذ صاحبى الثياب. وكان بيننا وبين المدينة مهاو وخنادق. فأتانا بالماء فشربنا، وذلك أوان الحر، ثم وصلنا إلى مدينة قَلْهاتً (وضبط اسمها بفتح القاف وإسكان اللام وآخره تاء مثناة)، فأتيناها ونحن فى جهد عظيم. وكنت قد ضاقت نعلى على رجلى حتى كاد الدم يخرج من تحت أظفارها، فلما وصلنا باب المدينة كان ختام المشقة، أن قال لنا الموكل بالباب: لا بد لك أن تذهب معى إلى أمير المدينة ليعرف قضيتك، ومن أين قدمت. فذهبت معه إليه فرأيته فاضلاً حسن الأخلاق، وسألنى عن حالى وأنزلنى، وأقمت عنده ستة أيام، لا قدرة لى فيها على النهوض على قدمى لما لحقها من الآلام.

ومدينة قلهات على الساحل، وهى حسنة الأسواق، ولها مسجد من أحسن المساجد. حيطانه بالقاشانى، وهو شبه الزليج. وهو مرتفع، ينظر منه إلى البحر، والمرسى، وهو من عمارة الصالحة بيبى مريم، ومعنى بيبى عندهم: الحرة. وأكلت بهذه المدينة سمكًا لم آكل مثله فى إقليم من الأقاليم، وكنت أفضله على جميع اللحوم، فلا آكل سواه. وهم يشوونه على ورق الشجر، ويجعلونه على الأرز، ويأكلونه. والأرز يجلب إليهم من أرض الهند. وهم أهل تجارة، ومعيشتهم مما يأتى إليهم فى البحر

الهندى. وإذا وصل مركب فرحوا به أشد الفرح. وكلامهم ليس بالفصيح مع أنهم عرب. وكل كلمة يتكلمون بها يصلونها بلا. فيقولون مثلا: تأكل لا، تمشى لا، تفعل كذا لا. وأكثرهم خوارج. لكنهم لا يقدرون على إظهار مذهبهم، لأنهم تحت طاعة السلطان قطب الدين تمهتن ملك هرمز، وهو من أهل السنة. وبمقربة من قلهات قرية طيبى، واسمها على نحو اسم الطيب إذا أضافه المتكلم لنفسه. وهى من أجمل القرى وأبدعها حسنًا، ذات أنهار جارية وأشجار ناضرة وبساتين كثيرة. ومنها تجلب الفواكه إلى قلهات. وبها الموز المعروف بالمروارى والمروارى بالفارسية هو الجوهرى (المروار: الجوهر)، وهو كثير بها، وجلب منها إلى هرمز وسواها. وبها أيضًا التنبول، لكن ورقته صغيرة. والتمرُ يُجْلَبُ إلى هذه الجهات من عمان. ثم قصدنا بلاد عمان، فسرنا ستةَ أيامٍ فى صحراء، ثم وصلنا بلاد عمان فى اليوم السابع. وهى خصبة ذات أنهار وأشجار وبساتين و حدائق ونخل وفاكهة كثيرة مختلفة الأجناس. ووصلنا إلى قاعدة هذه البلاد وهى مدينة نَزْوَا (وضبط اسمها بنون مفتوح وزاى مسكن وواو مفتوح)، مدينة فى سفح جبل، تحف بها البساتين والأنهار، يأتى كل إنسان بما عنده، ويجتمعون للأكل فى صحن المسجد، ويأكلُ معهم الواردُ والصادرُ. ولهم نجدة وشجاعة. والحرب قائمة فيما بينهم أبدًا. وهم إباضية(١) المذهب. ويصلون الجمعة ظهرًا أربعًا، فإذا فرغوا منها قرأ الإمام آيات من القرآن، ونثر كلامًا شبه الخطبة يُرضّى فيه عن أبى بكر وعمر، ويسكت عن عثمان وعلى. وهم إذا أرادوا ذكر على -رضي الله عنه- كنوا عنه، فقالوا: ذكر عن الرجل أو قال الرجل. ويرضون عن الشقى اللعين ابن ملجم، ويقولون فيه: العبد الصالح قامع الفتنة. ونساؤهم يكثرون الفساد، ولا غيرة عندهم، ولا إنكار لذلك. وسنذكر حكاية إثر هذا مما يشهد بذلك.

---

(١) الإباضية: فرقة من الخوارج شاع أمرها فى أواخر الدولة الأموية، تنسب إلى عبد الله بن إباض التميمى، ولا يزال منهم بقايا فى الجزائر وعمان. الوجيز ص(٣).

خبر سلطان عمان

إنه عربى من قـبيلة الأزد بن الغوث، ويعـرف بأبى محمد بن نبـهان. وأبو محمــد عندهم سمة لكل سلطان يلى عمان، كـما هى أتابك عند ملوك اللور. وعادته أن يجلس خارج باب داره فـى مجلس هنالك، ولا حاجب له ولا وزير، ولا يمنع أحدًا من الدخول إليه من غريب أو غيره، ويكرم الضيف على عادة العرب، ويعين له الضيافة، ويعطيه على قدره. وله أخلاق حسنة. ويؤكل على مـائدته لحـم الحمـار الإنسـى، ويبـاع بالسـوق، لأنهم قـائلون بتحليله، ولكنهم يخفون ذلك عن الوارد عليهم، ولا يظهرونه بمحضره. ومن مدن عمان مدينة زكى لم أدخلها، وهى على مـا ذكر لى، مدينة عظيمة منها القريات وشبا وكـلبا وخورفكان وصحار، وكلها ذات أنهـار وحدائق وأشجار ونخل، وأكثر هذه البلاد فى عمالة هرمز.

كنت يومًا عند السلطان أبى مـحمد بن نبهـان فأتته امرأة صـغيرة السن حسنة الصـورة بادية الوجه، فوقـفت بين يديه وقالت له: يا أبا محـمد طغى الشـيطان فى رأسى. فقـال لهـا: اذهبى واطردى الشـيطان. فقـالت له: لا أستطيع وأنا فى جـوارك يا أبا محمـد. فقال لهـا: اذهبى فافعلى مـا شئت. فـذكر لى لما انصـرفت عنه أن هذه ومن فـعل مـثل فعلـها تكون فى جـوار السلطان، وتذهب للفساد، ولا يقدر أبوها ولا ذوو قرابتـها أن يغيروا عليها، وإن قتلوها قتلوا بها، لأنها فى جوار السلطان. ثم سافرت من بلاد عمان إلى بلاد هرمز، وهـرمز مدينة علـى ساحل البحـر، وتسمى أيضًـا موغ أسـتان، وتقابلهـا فى البحر هرمز الجـديدة، وبينهما فى البحـر ثلاثة فراسخ. ووصلنا إلى هرمـز الجديدة، وهى جـزيرة مدينتـها تسمى جَـرَوَن (بفتح الجـيم والراء وآخرها نون)، وهى مدينة حسنة كبيـرة لها أسواق حافلة، وهى مرسى الهند والسند، ومنها تحمل سلع الهند إلى العـراقين وفارس وخراسان. وهذه المدينة سكنى السلطان، والجـزيرة التى فيـها المدينة مـسيرة يوم، وأكـثرها سـباخ[1]

---

(١) سبخت الأرض تسبَخ سَبَخًا: كانت ذات نز وملح، فهى سَبِخة. الوجيز ص(٣٠٠).

وجبال ملح، وهو الملح الـدارانى، ومنه يصنعون الأوانى المزينة والمنارات التى يضعون السـرج عليها. وطعامـهم السمك والتمر المجلوب إليـهم من البصرة وعمـان. ويقولون بلسـانهم: «خرما ومـا هى لوت بادشاهى» معـناه بالعربى التـمر والسـمك طعام الملوك. وللمـاء فى الجزيرة قـيمـة، وبهـا عيـون ماء وصهاريج مصنوعة، يجتمع فيها ماء المطر. وهى على بعد من المدينة، ويأتون إليها بالقـرب فيملأونها ويرفعـونها على ظهورهم إلى البحر، يوسـقونها فى القوارب ويأتون بهـا إلى المدينة. ورأيت من العجـائب عند باب الجامع فيـما بينه وبين السـوق رأس سمكة كأنه رابيـة وعيناه كأنهـما بابان، فـترى الناس يدخلون فى إحداهمـا، ويخرجون من الأخـرى. ولقيت بهـذه المدينة الشيخ الصـالح السـائح أبا الحسن الأقطارانى، وأصله من بلاد الروم، فـأضـافنى وزارنى وألبـسنى ثوبًا، وأعطانى كـمر الصـحـبة، وهو يحـتـبى به، فيـعين الجالس، فيكون كأنه مستند. وأكثر فـقراء العجم يتقلدونه. وعلى ستة أميال من هذه المدينة مزار ينسب إلى الخـضر وإلياس عليهـما السلام. يذكر أنـهما يصليان فيه، وظهرت له بركـات وبراهين. وهنالك زاوية يسكنها أحدُ المشايخِ يخدم بها الوارد والصادر، وأقـمنا عنده يومًا، وقصدنا من هنالك زيارةَ رجلٍ صالحٍ منقطعٍ فى آخر هذه الجزيرة، قد نحت غارًا لسكناه. فيه زاوية ومجلس ودار صغيرة له. فيها جارية وله عبيد خارج الغار يرعون بقرًا له وغنمًا. وكان هذا الرجل من كبار التجار فحج البيت وقطع العلائق وانقطع هنالك للعبادة، ودفع ماله لرجل من إخـوانه يتجر له به. وبتنا عنده ليلة، فـأحسن القِرَى(١) وأجمل -رضى الله تعالى عنه- وسمة الخير والعبادة لائحة عليه.

خبر سلطان هرمز

هو السلطان قطب الدين تَمَهْتَنِ طوران شاه (وضـبط اسمه بفتح التاءين المعلوتين وبينهـما مـيم مـفتـوح وهاء مسكنة وآخـره نون)، وهو من كرمـاء السلاطين، كثير التواضع حسن الأخلاق، وعادته أن يأتى لزيارة كل من تقدم

(١) القرى: ما يقدم إلى الضيف. الوجيز ص(٥٠٠).

عليه من فـقيه أو صالح أو شـريف ويقوم بحقه، ولما دخلنا جـزيرته وجدناه مهيئًا للحرب مشغـولاً بها مع ابنى أخيه نظام الدين. فكان فى كلٍّ ليلةٍ يتسير للقتال. والغلاء مستولٍ على الجزيرة، فأتى إلينا وزيره شمس الدين محمد بن على وقاضيه عماد الدين الشونكارى وجـماعة من الفضلاء، فاعتذروا بما هم عليه من مباشرة الحرب. وأقمنا عندهم سـتة عشر يومًا. فلما أردنا الانصراف قلت لبعض الأصـحاب: كـيف ننصرف ولا نرى هذا السلطان؟ فـجئنا على الوزير وكـانت داره فى جـوار الزاوية التى نـزلت بهـا، فـقلت له: إنى أريد السلام على الملك. فقال: بسـم الله، وأخذ بيدى فذهب بى إلى داره، وهى على ساحل البـحر، والأجفان مجـلسة عندها. فإذا شيخ عليـه أقبية ضـيقة دنسة، وعلى رأسـه عمامـة، وهو مشدود الوسط بمنديل، فـسلم عليه الوزير وسلمت عليه ولـم أعرف أنه الملك. كان إلى جـانبه ابن أخته، وهو على شاه ابن جلال الدين الكيجى، وكانت بينى وبينه معـرفة، فأنشأت أحادثه، وأنا لا أعرف الملك، فعرفنى الوزير بذلك. فخـجلت منه لإقبالى بالحديث على ابن أختـه دونه واعتـذرت، ثم قام فـدخل داره، وتبعه الأمـراء والوزراء وأرباب الدولة. ودخلت مع الوزير، فوجـدناه قاعدًا على سرير ملكه وثيـابه عليه لم يبدلها وفى يده سبحة جوهر، لم تر العيون مثلها؛ لأن مغاصات الجوهر تحت حكمه. فـجلس أحد الأمراء إلى جـانبه، وجلست إلى جانب ذلك الأمـير، وسألنى عن حالـى ومقدمى وعمن لقيـته من الملوك فأخبـرته بذلك. وحضرُ الطعام فأكل الحـاضرون ولم يأكل معهم، ثم قام فودعتـه وانصرفت. وسببُ الحربِ التى بينه وبين ابنى أخيه أنه ركب البحـر مرة من مدينته الجديدة برسم النزهة فى هرمز القديمة وبساتينها، وبينهما فى البحر ثلاثة فراسخ كما قدمناه. فخـالف عليـه أخوه نظام الدين، ودعـا لنفسـه وبايعه أهلُ الجـزيرةِ وبايعـته العساكر، فخاف قطب الدين على نفـسه وركب البحر إلى مدينة قلهات التى تقدم ذكـرها، وهى من جملة بلاده، فـأقام بها شـهوراً وجـهز المراكب وأتى الجزيرة، فقاتله أهلها مع أخيـه وهزموه. وعاد إلى قلهات، وفعل ذلك مراراً. فلم تكن له حيلة إلا أن يراسل بعض نساء أخيه فـسمّته ومات. وأتى هو إلى

الجزيرة فدخلها، وفر ابنا أخيه بالخزائن والأوال والعساكر إلى جزيرة قيس، حيث مغاص الجوهر، وصاروا يقطعون الطريق على من يقصد الجزيرة من أهل الهند والسند، ويغيرون على بلاده البحرية، حتى تخرب معظمها. ثم سافرنا من مدينة جرون برسم لقاء رجل صالح ببلد خنج بال. فلما عدينا البحر اكترينا دوابَّ من التركمان، وهم سكان تلك البلاد، ولا يسافر فيها إلا معهم لشجاعتهم ومعرفتهم بالطرق. وفيها صحراء مسيرة أربع، يقطع بها الطرقَ لصوصُ الأعرابِ، وتهب فيها ريح السموم فى شهرى حزيران وتموز، فمن صادفته فيها قتلته. ولقد ذكر لى أن الرجلَ إذا قتلته تلك الريح وأراد أصحابه غسله ينفصل كل عضو منه عن سائر الأعضاء. وبها قبورٌ كثيرةٌ للذين ماتوا فيها بهذه الريح، وكنا نسافر فيها بالليل، فإذا طلعت الشمس نزلنا تحت ظلال الأشجار من أم غيلان، ونرحل بعد العصر إلى طلوع الشمس. وفى هذه الصحراء وما والاها كان يقطع الطريق بها جمال اللُّك الشهير الاسم هنالك.

وجمال اللُّك هذا من أهل سجستان أعجمى الأصل (واللُّك بضم اللام) معناه الأقطع. وكانت يده قطعت فى بعض حروبه. وكانت له جماعة كثيرة من فرسان الأعراب والأعاجم يقطع بهم الطرق. وكان يبنى الزوايا، ويطعم الوارد والصادر من الأموال التى يسلبها من الناس. ويقال: إنه كان يدعو أن لا يسلط إلا على من لا يزكى ماله، وأقام على ذلك دهراً. وكان يغير هو وفرسانه ويسلكون برارى لا يعرفها سواهم، ويدفنون بها قرب الماء وروايا‌ه. فإذا تبعهم عسكر السلطان دخلوا الصحراء واستخرجوا المياه، ويرجع العسكر عنهم خوفًا من الهلاك. وأقام على هذه الحالة مدة لا يقدر عليه ملك العراق ولا غيره، ثم تاب وتعبد حتى مات، وقبره يزار ببلده. وسلكنا هذه الصحراء إلى أن وصلنا إلى كَوْراستان (وضبط اسمه بفتح الكاف وإسكان الواو وراء)، وهو بلد صغير فيه الأنهار والبساتين وهو شديد الحر. ثم سرنا ثلاثة أيام فى صحراء مثل التى تقدمت ووصلنا إلى مدينة لار (وآخر اسمها راء)، مدينة كبيرة كثيرة العيون والمياه المطردة والبساتين. ولها أسواق حسان، ونزلنا منها

بزاوية الشـيخ العابد أبى دلف مـحمـد وهو الذى قصـدنا زيارته بخنج بال. وبهذه الزاوية ولده أبو زيـد عبد الرحـمن، ومعه جـماعة من الفـقراء. ومن عادتهم أنهم يجـتمعون بالزاوية بـعد صلاة العصـر من كل يوم، ثم يطوفون على دور المدينة فـيعطاهم من كل دار الرغـيف والرغيـفان، فـيطعمون مـنها الوارد والصادر. وأهل الدور قـد ألفوا ذلك فهم يجعلونه فى جـملة قوتهم، ويعدونـه لهم إعانة على إطعـام الطعام. وفى كل ليلة جـمعـة يجتمـع بهذه الزاوية فـقراء المدينة وصلحـاؤها، ويأتى كل منهم بما تيسـر له من الدراهم، فيجمعونها وينفقونهـا تلك الليلة، ويبيتون فى عبادة الصلاة والذكر والتلاوة، وينصرفون بعد صلاة الصبح.

خبر سلطان لار

وفى هذه المدينة سلطان يسـمى بجلال الدين، تركـماني الأصل، بعث إلينا بضيافة. ولم نجتمع به ولا رأيناه، ثم سافرنا إلى مدينة خُنْجُ بال (وضبط اسمها بضم الخاء المعـجم وقد يعوض منه هاء وإسكان النون وضم الجيم وباء مـعقـودة وألف ولام)، وبهـا سكنى الشيخ أبى دلـف الذى قصـدنا زيارته، وبزاويته نـزلنا. ولما دخلت الزاوية، رأيته قـاعداً بناحـية منها عـلى التراب، وعليه جبة صوف خضراء بالية(١)، وعلى رأسه عمامة صوف سوداء، فسلمت عليه، فأحسن الرد، وسألنى عن مـقدمى وبلادى، وأنزلنى. وكان يبعث إلىّ الطعام والفاكهة مع ولد له من الصالحين، كثير الخشوع والتواضع صائم الدهر كثير الصلاة. ولهذا الشيخ أبى دلف شأن عـجيب وأمر غريب، فإن نفقته فى هذه الزاوية عظيـمة. وهو يعطى الـعطاء الجزيل، ويكسـو الناس، ويركبـهم الخيل، ويحسن لكل وارد وصـادر. ولم أر فى تلك البلاد مثله، ولا يعلم له جهـة إلا ما يصله من الإخـوان والأصحاب، حـتى زعم كثيـرٌ من الناس أنه ينفق من الكون. وفى زاويته المذكورة قبر الشيخ الولى الصالح القطب دانيال،

---

(١) يُقال: بلى الثـوب يبلَى بلًى: رث. وبلت الدار ونحوها: فنيت. وأبلى الثـوب: أخلقه. الوجيز ص(٦٢).

وله اسم بتلك البلاد شهير، وشأن فى الولاية كبير. وعلى قبره قبة عظيمة بناها السلطان قطب الدين تمهتن بن طوران شاه. وأقمت عند الشيخ أبى دلف يومًا واحدًا، لاستعجال الرفقة التى كنت فى صحبتها. وسمعت أن بالمدينة خنج بال المذكورة زاوية فيها جملة من الصالحين المتعبدين، فرحت إليها بالعشى، وسلمت على شيخهم وعليهم، ورأيت جماعة مباركة قد أثرت فيهم العبادة، فهم صفر الألوان نحاف الجسوم كثيرو البكاء غزيرو الدموع. وعند وصولى إليهم أتوا بالطعام. فقال كبيرهم: ادعوا إلى ولدى محمدًا وكان معتزلاً فى بعض نواحى الزاوية. فجاء إلينا الولد، وهو كأنما خرج من قبر مما نهكته العبادة، فسلّم وقعد. فقال له أبوه: يا بنى، شارك هؤلاء الواردين فى الأكل تَنَلْ من بركاتهم. وكان صائمًا فأفطر معنا، وهم شافعية المذهب. فلما فرغنا من أكل الطعام دعوا لنا وانصرفنا. ثم سافرنا منها إلى مدينة قيس، وتسمى أيضًا بسيراف، وهى على ساحل بحر الهند المتصل ببحر اليمن وفارس، وعدادها فى كور فارس مدينة لها انفساح وسعة، طيبة البقعة، فى دورها بساتين عجيبة، فيها الرياحين والأشجار الناضرة. وشرب أهلها من عيون منبعثة من جبالها، وهم عجم من الفرس أشراف، وفيهم طائفة من عرب بنى سفاف، وهم الذين يغوصون على الجوهر.

مغاص الجوهر

يقع مغاص الجوهر فيما بين سيراف والبحرين فى خور راكد مثل الوادى العظيم، فإذا كان شهر أبريل،وشهر مايو تأتى إليه القوارب الكثيرة فيها الغواصون وتجار فارس والبحرين والقطيف ويجعل الغواص على وجهه مهما أراد أن يغوص شيئًا يكسوه من عظم الغليم، وهى السلحفاة ويصنع من هذا العظم أيضًا شكلاً شبه المقراض، يشده على أنفه، ثم يربط حبلاً فى وسطه، ويغوص، ويتفاوتون فى الصبر فى الماء، فمنهم من يصبر الساعة والساعتين فما دون ذلك فإذا وصل إلى قعر البحر يجد الصدف هنالك فيما بين

الأحجار الصغار، مثبتًا فى الرمل، فيقتلعه بيده، أو يقطعه بحديدة عنده، معدة لذلك، ويجعلها فى مخلاة جلد منوطة(١) بعنقه، فإذا ضاق نَفَسه، حرك الحبل فيحس به الرجل الممسك للحبل على الساحل، فيرفعه إلى القارب، فتؤخذ منه المخلاة، ويفتح الصدف فيوجد فى أجوافها قطع لحم تقطع بحديدة، فإذا باشرت الهواء جمدت فصارت جواهر، فيجمع جميعها من صغير وكبير، فيأخذ السلطان خمسه والباقى يشتريه التجار الحاضرون بتلك القوارب وأكثرهم يكون له الدين على الغواصين، فيأخذ الجوهر فى دينه أو ما وجب له منه.

ثم سافرنا من سيراف إلى مدينة البحرين، وهى مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأشجار وأنهار، ومــاؤها قريب المؤونة يحفر عليه بالأيدى فيوجد، وبها حدائق النخل والرمان والأترج، يزرع بها القطن وهى شديدة الحر كثيرة الرمال وربما غلب الرمل على بعض منازلها وكان فيما بينها وبين عُمان طريق استولت عليه الرمال وانقطع، فلا يوصل من عمان إليها إلا فى البحر، وبالقرب منها جبلان عظيمان يسمى أحدهما بكسير، وهو فى غربيها، ويسمى الآخر بعوير وهو فى شرقيها وبهما ضرب المثل فقيل: كسير وعوير وكل غير خير. ثم سافرنا إلى مدينة القطيف، (وضبط اسمها بضم القاف)، كأنه تصغير قطف، وهى مدينة كبيرة حسنة ذات نخل كثير يسكنها طوائف العرب، وهم رافضية غلاة، يظهرون الرفض جهاراً لا يتقون أحداً، ويقول مؤذنهم فى أذانه بعد الشهادتين: أشهد أن علياً ولى الله ويزيد بعد الحيعلتين: حى على خير العمل، ويزيد بعد التكبير الأخير محمد وعلى خير البشر، من خالفهما فقد كفر. ثم سافرنا منها إلى مدينة هجر وتسمى الآن بالحسا (بفتح الحاء والسين وإهمالها) وهى التى تضرب المثل بها، فيقال: كجالب التمر إلى هجر، وبها من النخيل ما ليس ببلد سواها ومنه يعلفون دوابهم، وأهلها عرب، وأكثرهم من قبيلة عبد القيس بن أفصى. ثم سافرنا

(١) معلقة.

منها إلى مدينة اليمامة وتسمى أيضًا بحجْر (بفتح الحاء المهمل وإسكان الجيم) مدينة حسنة خصبة ذات أنهار وأشجار، يسكنها طوائف من العرب، أكثرهم من بنى حنيفة، وهى بلدهم قديمًا، وأميرهم طفيل بن غانم. ثم سافرت منها فى صحبة هذا الأمير برسم الحج وذلك فى سنة اثنتين وثلاثين فوصلت إلى مكة شرفها الله تعالى، وحج فى تلك السنة الملك الناصر سلطان مصر -رحمه الله- وجملة من أمرائه، وهى آخر حجة حَجَّهَا، وأجزل الإحسان لأهل الحرمين الشريفين وللمجاورين وفيها قتل الملك الناصر أمير أحمد الذى يذكر أنه ولده، وقتل أيضًا كبير أمرائه بكتمور الساقى.

ذكر أن الملك الناصر وهب لبتكمور الساقى جارية، فلما أراد الدنو منها قالت له: إنى حاملٌ من الملك الناصر فاعتزلها وولدت ولدًا سماه بأمير أحمد، ونشأ فى حجره، فظهرت نجابته واشتهر بابن الملك الناصر، فلما كان فى هذه الحجة تعاهد على الفتك بالملك الناصر، وأن يتولى أمير أحمد الملك، وحمل بكتمور معه العلامات والطبول والكسوات والأموال، فنمى الخبر إلى الملك الناصر، فبعث إلى أمير أحمد فى يوم شديد الحر، فدخل عليه، وبين يديه أقداح الشرب، فشرب الملك الناصر قدحًا، وناول أمير أحمد قدحًا ثانيًا فيه السم فشربه، وأمر بالرحيل فى تلك الساعة ليشغل الوقت فرحل الناس، ولم يبلغوا المنزل حتى مات أمير أحمد، فاكترث بكتمور لموته، وقطع أثوابه، وامتنع من الطعام والشراب وبلغ خبره إلى الملك الناصر فأتاه بنفسه ولاطفه وسلاه،وأخذ قدحًا فيه سم فناوله إياه وقال له: بحياتى عليك إلا شربت فبردت نار قلبك، فشربه ومات من حينه، ووجد عنده خلع السلطنة والأموال فتحقق مانسب من الفتك بالملك الناصر. ولما انقضى الحج توجهت إلى جدة برسم ركوب البحر إلى اليمن والهند فلم يقض لى ذلك، ولا تأتى لى رفيق، وأقمت بجدة نحو أربعين يومًا وكان بها مركب لرجل يعرف بعبد الله التونسى يروم السفر إلى القصير، من عمالة قوص فصعدت إليه ونظر حاله فلم يرضنى، ولا طلبت نفسى بالسفر فيه وكان ذلك لطفًا من الله تعالى، فإنه سافر، فلما توسط البحر بموضع يقال

له: رأس أبى محمد، فـخرج صاحبه وبعض التجار فى العشـاوى بعد جهد عظيم، وأشرفوا على الهـلاك، وهلك بعضهم، وغرق سائر الناس وكـان فيه نحـو سبـعين من الحـجاج. ثم ركـبت البـحر بعـد ذلك فى صنبـوق برسم عيـذاب، فردتنا الريح إلى جبل يعـرف برأس دواير وسافرنـا منه فى البر مع البجاة، فسلكنا صحراء كثيرة النعام والغزلان، فيها عرب جهينة وبنى كاهل، وطاعتهم للبجاة. ووردنا ماء يعـرف بمفرور، وماء يعرف بالجديد. ونفد زادنا فاشترينا من قوم من البجاة -وجـدناهم بالفلاة- أغنامًا وتزودنا لحومها ورأيت بهذه الـفلاة صبـيًّا من العـرب كلمنى باللسان العـربى وأخبـرنى أن البـجاة أسروه، وزعم أنه منذ عام لم يأكل طعامًا، إنما يقتات بلبن الإبل ونفد منا بعد ذلك اللحم الذى اشتريناه، ولم يبق لنا زاد وكان عندى نـحو حمل من التمر الصيحانى والبرنى برسم الهدية لأصحـابى ففرقته على الرفقة، وتزودناه ثلاثًا وبعد مسيرة تسعة أيام من رأس دواير، وصلنا إلى عيذاب وكان قد تقدم إليها بعض الرفقة، فتلقانا أهلها بالخبز والتـمر والماء وأقمنا بها أيامًا واكترينا الجمال وخرجنا صـحبة طائفة من عـرب دغيم ووردنا ماء الجنيب ولعله (الخـبيب)، وحللنا بحميثرا، حيث قـبر ولى الله تعالى أبى الحسن الشاذلى، وحصلت لنا زيارته ثانية، وبتنا فى جواره، ثم وصلنا إلى قرية العطوانى، وهى على ضفة النيل، مقابلة لمدينة إدفو من الصعيـد الأعلى. وأجزنا النيل إلى مدينة أسنا ثم إلى ميادة أرمنت ثم إلى الأقصر، وزرنا الشـيخ أبا الحجاج الأقصرى ثانية ثم إلى مدينة قوص ثم إلى مدينة قنا وزرنا الشـيخ عبد الرحيم القناوى ثانية، ثم إلى مدينة هو ثم إلى مدينة أخميم ثم إلى مدينة أسيوط، ثم إلى منفلوط، ثم إلى مدينة منلوى، ثم إلى مـدينة الأشمونين، ثم إلى مدينة منيـة بن الخصيب ثم إلى مدينة البهسنة ثم إلى مدينة بوش ثم إلى مـدينة منية القائد، وقد تقدم لنا ذكر هذه البلاد، ثم إلى مصر وأقمت بها أيامًا وسافرت على طريق بلبيس إلى الشام ورافقنى الحاج عـبد الله بن أبى بكر بن الفرجان النوزرى، ولـم يزل فى صحبتى سنين، إلى أن خـرجنا من بلاد الهند، فتوفى بسندابور، وسنذكر

ذلك، فوصلنا إلى مدينة غزة ثم إلى مدينة الخليل -عليه السلام-، وتكررت لنا زيارته، ثم إلى بيت المقدس ثم إلى مدينة الرملة ثم إلى مدينة عكا ثم إلى مدينة طرابلس ثم إلى مدينة جبلة، وزرنا إبراهيم بن أدهم-رضي الله عنه- ثانية، ثم إلى مدينة اللاذقية، وقد تقدم لنا ذكر هذه البلاد كلها ومن اللاذقية ركبنا البحر فى قرقورة كبيرة للجنويين يسمى صاحبها بِمَرْتَلْمين، وقصدنا بر التركية المعروف ببلاد الروم، وإنما نسبت إلى الروم لأنها كانت بلادهم فى القديم، ومنها الروم الأقدمون واليونانية ثم استفتحها المسلمون وبها الآن كثير من النصارى تحت ذمة المسلمين من التركمان وسرنا فى البحر عشراً بريح طيبة، وأكرمنا النصرانى ولم يأخذ منا نولاً(١). وفى العاشر وصلنا إلى مدينة العلايا، وهى أول بلاد الروم وهذا الإقليم المعروف ببلاد الروم من أحسن أقاليم الدنيا وقد جمع الله فيه ما تفرق من المحاسن فى البلاد فأهله أجمل الناس صوراً وأنظفهم ملابس وأطيبهم مطاعم وأكثر خلق الله شفقة ولذلك يقال البركة فى الشام، والشفقة فى الروم وإنما عنى به أهل هذه البلاد. وكنا متى نزلنا بهذه البلاد زاوية أو داراً، يتفقد أحوالنا جيراننا من الرجال والنساء، وهن لا يحتجبن فإذا سافرنا عنهم ودعونا كأنهم أقاربنا وأهلنا وترى النساء باكيات لفراقنا متأسفات، ومن عادتهم بتلك البلاد أن يخبزوا الخبز فى يوم واحد من الجمعة، يعدون فيه ما يفوتهم سائرها فكان رجالهم يأتون إلينا بالخبز الحار فى يوم خبزه، ومعه الإدام الطيب إطرافًا(٢)، لنا بذلك، ويقولون لنا: إن النساء بعثن هذا إليكم وهن يطلبن منكم الدعاء، وجميع أهل هذه البلاد على مذهب الإمام أبى حنيفة -رضي الله عنه-، مقيمين على السنة لا قدرى فيهم ولا رافضى ولا معتزلى ولا خارجى ولا مبتدع وتلك فضيلة خصهم الله تعالى بها. إلا أنهم يأكلون الحشيش ولا يعيبون ذلك. ومدينة العلايا التى ذكرناها كبيرة على ساحل البحر، يسكنها التركمان، وينزلها تجار مصر والإسكندرية والشام وهى كثيرة الخشب، ومنها يحمل إلى الإسكندرية

(١) أى: عطاء.
(٢) يعنى: ترويحًا وتطييبًا لنفوسنا.

ودمياط، ويحمل منها إلى سائر بلاد مصر، ولهـا قلعة بأعلاها عجيبة منيعة، بناها السلطان المعظم وعلاء الدين الرومى، ولقيت بهذه المدينة قـاضيها جلال الدين، أرزنجانى وصـعد معى إلى القلعة يوم الجـمعة فصلينا بهـا. وأضافنى وأكرمنى، وأضـافنى أيضًا بها شـمس الدين ابن الرجيـحانى الذى توفى أبوه علاء الدين بمالى من بلاد السودان.

خبر سلطان العلايا

وفى يوم السـبت ركب معى القاضـى جلال الدين، وتوجهنـا إلى لقاء ملك العـلايا، وهو يوسف بك ومعنى بك الملك ابن قـرمان، (بفـتح القاف والراء) ومسـكنه على عشـرة أميال من المـدينة فوجدنـاه قاعدًا على الـساحل وحده فوق رابية[١] هنالك، والأمراء والوزراء، أسفل منه، والأجناد عن يمينه ويساره، وهو مخضوب الشعر بالسواد، فسلمت عليه، وسألنى عن مقدمى، فأخبرتـه عما سأل، وانصرفت عنه وبعث إلى إحسـانًا، وسافرت من هنالك إلى مدينة أنطاليا (وضبط اسمها بفتح الهمزة وإسكان النون وفتح الطاء المهمل وألف ولام مكسـور وياء آخر الحروف) وأمـا التى بالشام فـهى أنطاكيـة على وزنهـا، إلا أن الكاف عوض عن اللام، وهى من أحـسن المدن، متناهيـة فى اتساع السـاحة والضخامـة، أجمل ما يرى من البـلاد وأكثره عمـارة وأحسنه ترتيبًـا، وكل فرقـة من سكانها منفـردة بأنفسهـا عن الفرقـة الأخرى فتـجار النصارى ماكثون منها بالموضع المعروف بالميناء، وعليهم سور تسد أبوابه عليهم ليلاً وعند صلاة الجمعة. والروم الذين كـانوا أهلها قديمًا ساكنون بموضع آخر منفردين به، وعليـهم أيضًا سور. واليـهود فى موضع آخر، وعليـهم سور، والملك وأهل دولته ومماليكه يسكنون ببلدة عليها أيضًا سور يحيط بها، ويفرق بينهـا وبين مـا ذكرناه من الـفرق وسـائر الناس من المسلمـين يسكنون المدينة العظمى، وبها مسجد جامع ومدرسة وحمامـات كثيرة وأسواق ضخمة مرتبة

(١) الرابية: ما ارتفع من الأرض، وجمعه رواب. الوجيز ص(٢٥٣).

بأبدع ترتيب، وعليها سور عظيم يحيط بها وبجميع المواضع التى ذكرناها، وفيها البساتين الكثيرة والفواكه الطيبة والمشمش العجيب المسمى عندهم بقمر الدين وفى نواته لوز حلو وهو ييبس ويحمل إلى ديار مصر وهو بها مستظرف وفيها عيون الماء الطيب العذب الشديد البرودة فى أيام الصيف. نزلنا من هذه المدينة بمدرستها وشيخها شهاب الدين الحموى، ومن عادتهم أن يقرأ جماعة من الصبيان بالأصوت الحسان بعد العصر من كل يوم فى المسجد الجامع، وفى المدرسة أيضًا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عمّ.

خبر الأخية الفتيان

واحد الأخية أخى على لفظ الأخ إذا أضافه المتكلم إلى نفسه، وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية فى كل بلد ومدينة وقرية ولا يوجد فى الدنيا مثلهم أشد احتفالاً بالغرباء من الناس، وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحوائج، والأخذ على أيدى الظلمة وقتل الشرط، ومن ألحق بهم من أهل الشر. والأخى عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجردين، ويقدمونه على أنفسهم، وتلك هى الفتوة أيضًا. ويبنى زاوية ويجعل فيها الفرش والسرج وما يحتاج إليه من الآلات ويخدم أصحابه بالنهار فى طلب معايشهم ويأتون إليه بعد العصر بما يجتمع لهم، فيشترون به الفواكه والطعام إلى غير ذلك مما ينفق فى الزاوية، فإن ورد ذلك اليوم مسافر على البلد أنزلوه عندهم، وكان ذلك ضيافته لديهم، ولا يزال عندهم حتى ينصرف وإن لم يرد وارد، اجتمعوا على طعامهم فأكلوا وغنوا ورقصوا، وانصرفوا إلى صناعتهم بالغدو، وأتوا بعد العصر إلى مقدمهم بما اجتمع لهم، ويسمون بالفتيان، ويسمى مقدمهم كما ذكرنا الأخى ولم أر فى الدنيا أجمل أفعالاً منهم، ويشبههم فى أفعالهم أهل شيراز وأصفهان إلا أن هؤلاد أحب فى الوارد والصادر، وأعظم إكرامًا له وشفقة عليه. وفى الثانى من يوم وصولنا إلى هذه المدينة أتى أحد هؤلاء الفتيان إلى الشيخ شهاب الدين الحموى وتكلم معه باللسان التركى، ولم أكن يومئذ أفهمه، وكان عليه أثواب خلقة، وعلى

رأسه قلنسوة لبد، فقال لى الشيخ :أتعلم ما يقول هذا الرجل؟ فقلت: لا أعلم ما قال، فقال لى: إنه يدعوك إلى ضيافته أنت وأصحابك فعجبت منه، وقلت له: نعم. فلما انصرف قلت للشيخ: هذا رجل ضعيف ولا قدرة له على تضييفنا، ولانريد أن نكلفه. فضحك الشيخ وقال لى: هذا أحد شيوخ الفتيان الأخية هو من الخرازين[1]، وفيه كرم نفس وأصحابه نحو مائتين من أهل الصناعات قد قدموه على أنفسهم، وبنوا زاوية للضيافة، وما يجتمع لهم بالنهار أنفقوه بالليل. فلما صليت المغرب عاد إلينا ذلك الرجل وذهبنا معه إلى زاويته فوجدناها زاوية حسنة مفروشة بالبسط الرومية الحسان، وبها الكثير من ثريات الزجاج العراقى، وفى المجلس خمسة من البياسيس، والبيسوس شبه المنارة من النحاس له أرجل ثلاث، وعلى رأسه شبه جلاس من النحاس، وفي وسطه أنبوب للفتيلة ويملأ من الشحم المذاب، وإلى جانبه آنية نحاس ملآنة بالشحم،وفيها مقراض لإصلاح الفتيل، وأحدهم موكل بها، ويسمى عندهم الجراجى (الجراغجى) وقد اصطف فى المجلس جماعة من الشبان ولباسهم الأقبية وفى أرجلهم الأخفاف وكل واحد منهم متحزم، على وسطه سكين فى طول ذراعين، وعلى رؤوسهم قلانس بيض من الصوف، بأعلى كل قلنسوة قطعة موصلة بها فى طول ذراع، وعرض أصيعين فإذا استقر بهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوة، ووضعها بين يديه. وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزردخاني وسواه حسنة المنظر، وفى وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين. ولما استقر بنا المجلس عندهم أتوا بالطعام الكثيرِ والفاكهةِ والحلواءِ، ثم أخذوا فى الغناء والرقص فراقنا حالهم، وطال عجبنا من سماحهم، وكرم أنفسهم وانصرفنا عنهم آخر الليل، وتركناهم بزاويتهم.

---

(١) الخراز: صانع الخرز، أو: من حرفته خياطة الجلد. والخرز: واحدته خرزة، وهى تنظم فى سلك ليتزين بها. الوجيز ص(١٩٠).

خبر سلطان أنطالية

كان سلطانها خضر بك ابن يونس بك، وجدناه عند وصولنا إليها عليلاً، فدخلنا عليه بداره، وهو فى فراش المرض، فكلمنا بألطف كلام وأحسنه وودعناه، وبعث إلينا بإحسان. وسافرنا إلى بلدة بُردوُر (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة وإسكان الراء وضم الدال المهمل وواو وراء)، وهى بلدة صغيرة كثيرة البساتين والأنهار، ولها قلعة فى رأس جبل شاهق نزلنا بدار خطيبها واجتمعت الأخية، وأرادوا نزولنا عندهم فأبى عليهم الخطيب، فصنعوا لنا ضيافة فى بستان لأحدهم وذهبوا بنا إليها فكان من العجائب إظهارهم السرور بنا، والاستبشار والفرح، وهم لا يعرفون لساننا، ونحن لا نعرفُ لسانهم، ولا ترجمان فيما بيننا. وأقمنا عندهم يومًا وانصرفنا ثم سافرنا من هذه البلدة إلى بلدة سَبَرْتا (وضبط اسمها بفتح السين المهمل والباء الموحدة وإسكان الراء وفتح التاء المعلوة وألف) وهى بلدة حسنة العمارة والأسواق كثيرة البساتين والأنهار، لها قلعة فى جبل شامخ وصلنا إليها بالعشى، ونزلنا عند قاضيها وسافرنا منها إلى مدينة أكْريدُور (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون الكاف وكسر الراء وياء مد ودال مهمل مضموم وواو مد وراء) مدينة عظيمة كثيرة العمارة حسنة الأسواق ذات أنهار وبساتين، ولها بحيرة عذبة الماء يسافر المركب فيها يومين إلى أقشهر وبقشهر وغيرهما من البلاد والقرى، ونزلنا منها بمدرسة تقابل الجامع الأعظم بها المدرس العالم الحاج المجاور الفاضل مصلح الدين قرأ بالديار المصرية والشام وسكن بالعراق. وهو فصيح اللسان حسن البيان، أطروفة[1] من طرف الزمان، أكرمنا غاية الإكرام وقام بحقنا أحسن قيام.

خبر سلطان أكريدور

كان سلطانها أبو إسحاق بك ابن الدندار بك، من كبار سلاطين تلك البلاد، سكن ديار مصر أيام أبيه وحج، وله سيرة حسنة، ومن عاداته أنه يأتى

(١) الأطروفة: الملحة والتحفة. الوجيز ص(٣٨٩).

كل يوم إلى صلاة العصر بالمسجد الجامع، فإذا قضيت صلاة العصر استند إلى جدار القبلة، وقعد القراء بين يديه على مصطبه خشب عالية، فقرأوا سورة الفتح والملك وعمَّ بأصوت حسان فعّالة فى النفوس تخشع لها القلوب وتقشعر الجلود وتدمع العيون، ثم ينصرف إلى داره. وأظلنا عنده شهر رمضان فكان يقعد فى كلٍّ ليلةٍ منه على فراش لاصق بالأرض من غير سرير، ويستند إلى مخدة كبيرة، ويجلس الفقيه مصلح الدين إلى جانبه، وأجلس إلى جانب الفقيه ويلينا أرباب دولته وأمراء حضرته ثم يؤتى بالطعام، فيكون أول ما يفطر عليه ثريد فى قحفة صغيرة، عليه العدس مسقى بالسمن والسكر، ويقدمون الثريد تبركًا، ويقولون إن النبى -ﷺ- فضله على سائر الطعام فنحن نبدأ به لتفضيل النبى له ثم يؤتى بسائر الأطعمة وهكذا فعلهم فى جميع ليالى رمضان.

وتوفى فى بعض تلك الأيام ولد السلطان، فلم يزيدوا على بكاء الرحمة، كما يفعله أهل مصر والشام، خلافًا لما قدمناه من فعل أهل اللور حين مات ولد سلطانهم فلما دفن أقام السلطان والطلبة ثلاثة أيام يخرجون إلى قبره بعد صلاة الصبح. وثانى يوم من دفنه خرجت مع الناس فرآنى السلطان ماشيًا برجلى، فبعث لى بفرس واعتذر، فلما وصلت المدرسة بعثت الفرس فرده وقال: إنما أعطيته عطية لا عارية، وبعث إلىَّ بكسوة ودراهم فانصرفنا إلى مدينة قُلْ حصار (وضبط اسمها بضم القاف وإسكان اللام ثم حاء مهمل مكسور وصاد مهمل وآخره راء) مدينة صغيرة بها المياه من كل جانب، قد نبت فيها القصب، فلا طريق لها إلا طريق كالجسر مهيأ بين القصب والمياه، لا يسع إلا فارسًا واحدًا، والمدينة على تل فى وسط المياه منيعة لا يقدر عليها ونزلنا بزاوية أحد الفتيان الأخية بها.

خبر سلطان قُلْ حِصَار

كان سلطانها محمد جَلَبى، وجلبى (بجيم معقود ولام مفتوحين وباء موحدة وياء)، وتفسيره بلسان الروم سيدى، وهو أخو السلطان أبى إسحاق

ملك أكريدور، ولما وصلنا إلى مدينته كان غائبًا عنها فأقمنا بها أيامًا ثم قدم فأكرمنا وأركبنا وزودنا، وانصرفنا على طريق قَرَا (بفتح القاف) وتفسيره أسود (وأغاج بفتح الهمزة والغين المعجم وآخره جيم) تفسيره الخشب وهى صحراء خضراء يسكنها التركمان. وبعث معنا السلطان فرسانًا يبلغوننا إلى مدينة لاذق. بسبب أن هذه الصحراء يقطع الطريق فيها طائفة يقال لها الجرميان يذكر أنهم من ذرية يزيد بن معاوية، ولهم مدينة يقال لها: كوتاهية فعصمنا الله منهم، ووصلنا إلى مدينة لاذق، (وهى بكسر الذال المعجم وبعده قاف) وتسمى أيضًا "دون غزله" وتفسيره بلد الخنازير، وهى من أبدع المدن وأضخمها وفيها سبعة من المساجد لإقامة الجمعة، ولها البساتين الرائقة والأنهار المطردة والعيون المنبعة، وأسواقها حسان، وتصنع بها ثياب قطن معلمة بالذهب لا مثل لها تطول أعمارها لصحة قطنها وقوة غزلها وهذه الثياب معروفة بالنسبة إليها، وأكثر الصناع بها نساء الروم، وبها من الروم كثير تحت الذمة، وعليهم وظائف للسلطان من الجزية وسواها وعلامة الروم بها القلانس الطوال، منها الحمر والبيض. ونساء الروم لهن عمائم كبار وأهل هذه المدينة لا يغيرون المنكر، بل كذلك أهل هذا الإقليم كلهم وهم يشترون الجوارى الروميات الحسان ويتركونهن للفساد، وكل واحدة عليها وظيف لمالكها تؤديه له.

وسمعت هنالك أن الجوارى يدخلن الحمام مع الرجال، فمن أراد الفساد فعل ذلك بالحمام من غير مُنْكِرٍ عليه. وذكر لى أن القاضى بها له جوار على هذه الصورة. وعند دخولنا لهذه المدينة تقدم إلينا رجال من حوانيتهم حتى سلّ بعضهم السكاكين وأخذوا بأعنة الخيل ونازعهم آخرون على بعض، ونحن لا نعلم ما يقولون، فخفنا منهم وظننا أنهم الجرميان الذين يقطعون الطرق، وأن تلك مدينتهم، وحسبنا أنهم يريدون نهبنا. ثم بعث الله لنا رجلاً حاجًا يعرف اللسان العربى فسألته عن مرادهم منا فقال: إنهم من الفتيان وإن الذين سبقوا إلينا أولاً هم أصحاب الفتى أخى سنان والآخرون أصحاب الفتى أخى طومان، وكلٌّ طائفةٍ ترغب أن يكون نزولكم عندهم. فعجبنا من كرم

نفوسهم. ثم وقع بينهم الصلح على المقارعة، فمن كانت قرعته نزلنا عنده أولاً، فوقعت قرعة أخى سنان وبلغه ذلك، فأتى إلينا فى جماعة من أصحابه فسلموا علينا ونزلنا بزاوية له. وأتى بأنواع الطعام، ثم ذهب بنا إلى الحمام ودخل معنا، وتولى خدمتى بنفسه، وتولى أصحابه خدمة أصحابى يخدم الثلاثة والأربعة الواحدُ منهم. ثم خرجنا من الحمام فأتوا بطعام عظيم وحلواء وفاكهة كثيرة. وبعد الفراغ من الأكل قرأ القراء آيات من القرآن العزيز، ثم أخذوا فى السماع والرقص. وأعلموا السلطان بخبرنا. فلما كان من الغد بعث فى طلبنا بالعشى فتوجهنا إليه وإلى ولده كما نذكره، ثم عدنا إلى الزاوية فألفينا الأخى طومان وأصحابه فى انتظارنا، فذهبوا بنا إلى زاويتهم، ففعلوا فى الطعام والحمام مثل أصحابهم، وزادوا عليه أن صبوا علينا ماء الورد صبًّا بعد خروجنا من الحمام، ثم مضوا بنا إلى الزاوية، ففعلوا أيضًا من الاحتفال فى الأطعمة والحلواء والفاكهة وقراءة القرآن بعد الفراغ من الأكل ثم السماع والرقص كمثل ما فعله أصحابهم أو أحسن. وأقمنا عندهم بالزاوية أيامًا.

خبر سلطان لاذق

هو السلطان يَنَنْج بك (واسمه بياء آخر الحروف مفتوحة ثم نونين أولاهما مفتوحة والثانية مسكنة وجيم)، وهو من كبار سلاطين بلاد الروم. ولما نزلنا بزاوية أخى سنان كما قدمناه، بعث إلينا الواعظ المذكور العالم علاء الدين القسطمونى، واصطحب معه خيلاً بعددنا، وذلك فى شهر رمضان، فتوجهنا إليه وسلمنا عليه.

ومن عادة ملوك هذه البلاد التواضع للواردين ولين الكلام وقلة العطاء. فصلينا معه المغرب وحضر طعامه فأفطرنا عنده وانصرفنا. وبعث إلينا بدراهم، ثم بعث إلينا ولده مراد بك، وكان ساكنًا فى بستان خارج المدينة، وذلك فى إبان الفاكهة، وبعث أيضًا خيلاً على عددنا، كما فعله أبوه فأتينا بستانه وأقمنا عنده تلك الليلة، فخرجنا إلى المصلّى، وخرج السلطان فى

عساكره، والفتيان الأخية كلهم بالأسلحة. ولأهلِ كلٍّ صناعةِ الأعلامُ والبوقاتُ والطبولُ والأنفارُ، وبعضهم يفاخر بعضًا ويباهيه فى حسنِ الهيئة وكمال الشكل، ويخرج أهل كل صناعة معهم البقر والغنم وأحمال الخبز، فيذبحون البهائم بالمقابر ويتصدقون بها وبالخبز. ويكون خروجهم أولاً إلى المقابر ومنها إلى المصلى.

ولما صلينا صلاة العيد، دخلنا مع السلطان إلى منزله، وحضر الطعام. فجُعل للفقهاء والمشايخ والفتيان سماط[1] على حدة، وجُعل للفقراء والمساكين سماط على حدة. ولا يرد على بابه فى ذلك اليوم فقير ولا غنى، وأقمنا بهذه البلدة مدة بسبب مخاوف الطريق. ثم تهيأت رفقة فسافرنا معهم يومًا وبعض ليلة، ووصلنا إلى حصن طَوَاس واسمه (بفتح الطاء وتخفيف الواو وآخره سين مهمل)، وهو حصن كبير. ويذكر أن صهيبًا صاحب رسول الله -ﷺ-، و -رضي الله عنه-، من أهل هذا الحصن. وكان مبيتنا بخارجه. ووصلنا بالغد إلى بابه، فسألنا أهله من أعلى السور عن مقدمنا فأخبرناهم. وحينئذ خرج أمير الحصن ميناس[2] بك فى عسكره ليختبر نواحى الحصن والطريق، خوفًا من إغارة السّراق على الماشية. فلما طافوا بجهاته خرجت مواشيهم، وهكذا فعلهم أبدًا. ونزلنا من هذا الحصن بربضة فى زاوية رجل فقير وبعث إلينا أمير الحصن بضيافة وزاد، وسافرنا منه إلى مُغْلَة (وضبط اسمها بضم الميم وإسكان الغين المعجم وفتح اللام)، ونزلنا بزاوية أحد المشايخ بها، وكان من الكرماء الفضلاء، يكثر الدخول علينا بزاويته، ولا يدخل إلا بطعام أو فاكهة أو حلواء. ولقينا بهذه البلدة إبراهيم بك ولد سلطان مدينة ميلاس، وسنذكره، فأكرمنا وكسانا. ثم سافرنا إلى مدينة مِيلاَس (وضبط اسمها بكسر الميم وياء مد وآخره سين مهمل) وهى من أحسن بلاد الروم وأضخمها، كثيرة الفواكه والبساتين والمياه. نزلنا بزاوية أحد الفتيان الأخية، ففعل أضعاف ما

---

(١) السماط: ما يمد ليوضع عليه الطعام فى المآدب ونحوها، وجمعه: سُمُط، وأَسْمِطة. الوجيز ص(٣٢١).

(٢) وفى نسخة: «إلياس».

فعله من قبله الكرماء والضـيافة ودخول الحمام وغير ذلك من حـميد الأفعال وجمـيل الأعمـال. ولقينـا بمدينة ميـلاس رجلاً صالحًـا معـمرًا يسـمى بأبى الششـترى، ذكروا أن عـمره يزيد على مائة وخـمسين سنة، وله قوة وحـركة وعقله ثابت وذهنه جيد. دعا لنا وحصلت لنا بركته.

خبر سلطان ميلاَس

هو السلطان المكرم شجاع الدين أُرْخَان بك ابن المنتـشا (وضبط اسمه بضم الهمـزة وإسكان الراء وخاء مـعجم وآخره نون)، وهو من خـيالى[1] الملوك، حسن الصورة والسيرة، جلساؤه الفقهاء وهم معظمون لديه، وببابه منهم جماعة منهم الفقيه الخوارزمى، عارف بالفنون فاضل. وكان السلطان فى أيام لقائى له واجدًا[2] عليه، بسبب رحلته إلى مدينة أيا سلوق ووصوله إلى سلطانها وقبـول ما أهداه. فسألنى هذا الفقـيه أن أتكلم عند الملك فى شـأنه بما يذهب ما فى خـاطره، فـأثنيت عليـه عند السلطان، وذكرت مـا علمـته من علمـه وفـضله، ولم أزل به حتى ذهـب ما كـان يجده عليـه. وأحسن إلينا هذا السلطان وأركـبنا وزودنا. وسُكناه فى مدينة بَرْجِين، وهى قريبة من ميلاس، بينهما ميـلان (وضبط اسمها بفتح الموحدة وإسكان الراء وجيم وياء مـد وآخره نون)، وهى جديدة على تل هنالك، بها الـعمارات الحسـان والمساجد. وكان قـد بنى بها مسـجدًا جامعًـا، لم يتم بناؤه بعد. وبهذه البلد لقـيناه. ونزلنا منها بزاوية الفتى أخى على، ثم انصـرفنا بعدما أحسن إلينا كما إلى مدينة قُونِيَـة (وضبط اسمها بضم القاف وواو مد ونون مسكن مكسور وياء آخـر الحروف) مدينة عظيمـة حسنة العمارة كثـيرة المياه والأنهار والبساتين والـفواكه، وبها المشمش المسمى بقـمر الدين. وقد تقدم ذكره، ويحمل منه أيـضًا إلى ديار مصر والشام. وشـوارعها متسـعة جدًا، وأسواقها بديعة الترتيب، وأهل كل صناعة على حدة ويقال: إن هذه المدينة

---

(١) الخيال: صاحب الخيول أو فارسها. الوجيز ص(٢١٧).

(٢) أى: غاضبًا. يُقال: وجد عليه مَوْجِدَة: غضب. الوجيز ص(٦٦٠).

من بناء الإسكندر. وهى من بلاد السلطان بدر الدين بن قرمان، وسنذكره. وقد تغلب عليها صاحب العراق فى بعض الأوقات لقربها من بلاده التى بهذا الإقليم. نزلنا منها بزاوية قاضيها، ويعرف بابن قلم شاه وهو من الفتيان، وزاويته من أعظم الزوايا. وله طائفة كبيرة من التلاميذ، ولهم فى الفتوة سند يتصل إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب -عليه السلام-. ولباسها عندهم السراويل كما تلبس الصوفية الخرقة. وكان صنيع هذا القاضى فى إكرامنا وضيافتنا أعظم من صنيع من قبله وأجمل. وبعث ولده عوضًا عنه لدخول الحمام معنا، وبهذه المدينة تربة الشيخ الإمام الصالح القطب جلال الدين المعروف بمولانا، وكان كبير القدر. وبأرض الروم طائفة ينتمون ويعرفون باسمه، فيقال لهم الجلالية، كما تعرف الأحمدية بالعراق، والحيدرية بخراسان. وعلى تربته زاوية عظيمة فيها الطعام للوارد.

وقيل إنه كان فى ابتداء أمره فقيهًا مدرسًا، يجتمع إليه الطلبة بمدرسته بقونية. فدخل يومًا إلى المدرسة رجل يبيع الحلواء، وعلى رأسه طبق منها، وهى مقطعة قطعًا، يبيع القطعة منها بفلس. فلما أتى مجلس التدريس قال له الشيخ: هات طبقك. فأخذ الحلوانى قطعة منه وأعطاها للشيخ. فأخذها الشيخ بيده وأكلها. فخرج الحلوانى، ولم يطعم أحدًا سوى الشيخ. فخرج الشيخ فى اتباعه، وترك التدريس، فأبطأ على الطلبة، وطال انتظارهم إياه، فخرجوا فى طلبه فلم يعرفوا له مستقرًا. ثم إنه عاد إليهم بعد أعوام، وصار لا ينطق إلا بالشعر الفارسى المتعلق الذى لا يفهم. فكان الطلبة يتبعونه ويكتبون ما يصدر عنه من ذلك الشعر، وألفوا منه كتابًا سموه المثنوى. وأهل تلك البلاد يعظمون ذلك الكتاب ويعتبرون كلامه، ويعلمونه ويقرأونه بزواياهم فى ليالى الجمعات. وفى هذه المدينة أيضًا قبر الفقيه أحمد، الذى يذكر أنه كان معلم جلال الدين المذكور. ثم سافرنا إلى مدينة اللارَنْدَة، وهى (بفتح الراء التى بعد الألف واللام وإسكان النون وفتح الدال المهمل) مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين.

خبر سلطان اللأَرَنْدَة

هو الملك بدر الدين بن قَـرَمان (بـفتح القـاف والراء)، وكانت قـبله لشقيقـه موسى، فنزل عنها للملك الناصر، وعوّضـه عنها بعوض، وبعث إليهـا أميـرًا وعسكرًا، ثم تغلب عليـها السلطان بدر الدين، وبـنى بها دار مملكته، واستـقام أمره بها. ولقيت هذا السلـطان خارج المدينة. وهو عائد من تصيـده، فنزلت له عن دابتى، فـنزل هو عن دابتـه، وسلمت عليـه. وأقـبل على. ومن عادة ملوك هذه الـبلاد أنه إذا نزل لهم الوارد عن دابتـه نزلوا له، وأعجبهم فعله وزادوا فى إكـرامه. وإن سلم عليهم راكبًا ساءهم ذلك ولم يرضـهم، ويكون سبـبًا لحرمـان الوارد. وقد جـرى لى ذلك مع بعضهم وسأذكره. ولما سلمت عليه وركب وركبت، سألنى عن حالى وعن مقدمى، ودخلت معه المدينة. فأمر بإنزالى أحسن نزل. وكان يبعث الطعام الكثير والفاكهة والحلواء فى طيافير الفضة والشمع، وكسا وأركب وأحسن، ولم يطل مقـامنا عنده، وانصرفنا إلى مدينة أَقْصَـرَا (وضبطها بفتـح الهمزة وسكون القـاف وفتـح الصاد المهـمل والراء)، وهى من أحـسن بلاد الروم وأتقنها. تحـف بها العيـون الجارية والبـساتين من كل ناحيـة، ويشق المدينة ثلاثة أنهار، ويجرى الماء بدورها، وفيـها الأشجار ودوالى العنب، وداخلها بساتين كثيرة. وتصنع بها البسط المنسوبة إليها من صوف الغنم لامثل لها فى بلد من البلاد، ومنها تحمل إلى الشـام ومصر والعراق والهند والصين وبلاد الأتراك. وهذه المدينة فى طاعـة ملك العـراق. ونزلنا منها بزاوية الشـريف حسين النائب بها عن الأمير أرتنا، وأرتنا هو النائب عن ملك العراق، فيما تغلب عليـه من بلاد الروم. وهذا الشريف مـن الفتيـان وله طائفـة كثـيرة وأكرمنا إكرامًا متناهيًا وفعل أفعال من تقدمه.

ثم رحلنا إلى مـدينة نَكْدَة (وضبط اسـمها بفـتح النون وإسكان الكاف ودال مهمل مفتوح)، وهى من بلاد ملك العراق. مدينة كبيرة كثيرة العمارة، قد تخـرب بعضهـا. ويشقهـا النهر المعـروف بالنهر الأسود، وهو من كـبار

الأنهار، عليــه ثلاث قناطر: إحداها بداخل المدينة واثنتـان بخارجهـا، وعليه النواعير[١] بالداخل والخارج، منها تسـقى البساتين، والفواكه كـثيرة. ونزلنا منها بزاوية الفتى أخى جـاروق، وهو الأمير بها، فأكرمنا على عـادة الفتيان، وأقمنا بها ثلاثًا.

وسـرنا منها بـعد ذلك إلى مـدينة قـيسـارية، وهى من بلاد صـاحب العـراق، وهى إحـدى المدن العظام بهـذا الإقليم. بهـا عـسكر أهل العـراق وإحـدى خواتين الأمـير عـلاء الدين أرتنا المذكـور، وهى من أكرم الخـواتين وأفـضلهن ولها نسـبـة من ملك العراق، وتدعى أغـا (بفـتح الهمـزة والغين المعجم). ومعنى أغا الكبـير، وكل من بينه وبين السلطان نسبة يدعى بذلك. واسمها طغى خاتون، ودخلنا إليها فقامت وأحسنت السلام والكلام، وأمرت بإحضـار الطعام فأكلنا، ولما انصرفنا بـعثت إلينا بفرس مسـرج ملجم وخلعة ودراهم مع أحد غلمانها واعتذرت. ونزلنا من هذه المدينة بزاوية الفتى الأخى أمير على [illegible]و أمير كبيـر من كبار الأخيـة بهذه البلاد، وله طائفة تتـبعه من وجوه المدينة وكبرائها، وزاويته من أحسن الزوايا فـرشًا وقناديل وطعامًا كثيرًا وإتقانًا. والكبراء من أصحابه وغيـرهم يجتمعون كل ليلة عنده، ويفعلون فى إكرام الوارد أضعاف ما يفعله سواهم. ومن عوائد هذه البلاد أنه ما كان منها ليس به سلطان، فـالأخى هو الحاكم به، وهو يُرْكِبُ الواردَ ويكسـوه ويحسن إليه على قدره، وترتيبه فى أمره ونهيه وركوبه ترتيب الملوك.

ثم سافرنا إلى مدينة سِيوَاس (وضبط اسمها بكسر السين المهمل وياء مد وآخـره سين مهـمل) وهى من بلاد العـراق، وأعظم مـا له بهـذا الإقليم من البلاد، وبها منزل أمرائه وعماله. مدينة حسنة العمارة واسعة الشوارع أسواقها غـاصة بالـناس، وبها دار مـثل المدرسـة تسـمى دار السيـادة، لا ينزلهـا إلا الشرفاء، ونقـيبهم ساكن بها. وتجرى لهم فـيها مدة مقامـهم الفرش والطعام والشمع وغيره فيزودون إذا انصرفوا.

---

(١) النواعيـر: جمع ناعـورة، والناعورة: دولاب ذو دلاء أو نحوها، يـدور بدفع الماء أو جر الماشية فيخرج الماء من البئر أو النهر إلى الحقل. الوجيز ص(٦٢٤).

ولما قدمنا هذه المدينة خـرج إلى لقائنا أصحاب الفتـى بَجَقْجى، وبجق بالتركيـة السكين، وهذا منسوب إليه، (والجيـمان منه معقودان بينهـما قاف، وباؤه مكسـورة) وكانوا جـمـاعة، منهم الـركبـان والمشاة. ثم لـقينا بعـدهم أصحاب الفـتى أخى جلبى، وهو من كبار الأخـية. وطبقته أعلـى من طبقة أخى بِجَـقْجِى، فطلبـوا أن ننزل عندهم، فلم يمكن لنا ذلك لسـبق الأولين. ودخلنا المدينة معهم جـميعًا، وهم يتفـاخرون. والذين سبقوا إلينا قـد فرحوا أشد الفرح بنزولنا عندهـم. ثم كان من صنيعهم فى الطعام والحـمام والمبيت مثل صنيع من تقدم. وأقمنا عندهم ثلاثة فى أحـسن ضيافة. ثم أتانا القاضى وجماعة من الـطلبة، ومعهم خيل الأميـر علاء الدين أرتنا نائب ملك العراق ببلاد الروم، فـركبنا معـه، واستقـبلنا الأميـر إلى دهليز(١) داره، فسلم علينا ورحب، وكان فصيح اللسان بالعربية. وسألنى عن العراقين وأصبهان وشيراز وكرمـان، وعن السلطان أتابك، وبلاد الشـام ومصر، وسـلاطين التركـمان. وكان مراده أن أشكر الكريم منهم وأذم البـخيل، فلم أفعل ذلك، بل شكرتُ الجميعَ. فسـر بذلك منى وشكرنى عليه. ثم أحـضر الطعـام وأكلنا، وقال: تكونون فى ضيافتى. فقال له الفتى أخى جلبى: إنهم لم ينزلوا بعد بزاويتى، فليكونوا عندى، وضيافتك تصلهم. فقال: أفعل. فانتقلنا إلى زاويته، وأقمنا بها ستًّا فى ضيافته وفى ضيافة الأمير. ثم بعث الأمير بفرس وكسوة دراهم، وكتـب لنوابه بالبلاد أن يضـيفـونا ويكرمونا ويزودونا. وسـافرنا إلى مـدينة أمَاصيَةَ (وضبط اسمها بفتح الهمزة والميم وألف وصاد مهمل مكسور وياء آخر الحروف مفـتوحة)، مدينة كبيـرة حسنة ذات أنهار وبساتين وأشجـار وفواكه، وعلى أنهـارها النواعـيـر وتسقى جنـاتها ودورها. وهى فـسـيـحة الشـوارع والأسواق. وملكها صاحب العراق. ويقرب منها بلدة سُونُسَى (وضبط اسمها بضم السين المهـمل وواو مد ونون مـضـموم وسين مـهمل مـفتـوح)، وهى لصاحب العراق أيضًـا. وبها سكنى أولاد ولى الله تعالى أبى العبـاس أحمد الرفـاعى. منهم الشيخ عـز الدين وهو الآن شيخ الـرواق وصاحب سـجادة

(١) الدهليز: المدخل بين الباب والدار، وجمعها دهاليز. الوجيز ص(٢٣٦).

الرفاعى، وإخوته الشيخ على والشيخ إبراهيم والشيخ يحيى أولاد الشيخ أحمد كوجك ومعناه الصغير ابن تاج الدين الرفاعى. ونزلنا بزاويتهم ورأينا لهم الفضل على من سواهم.

ثم سافرنا إلى مدينة كُمِش (وضبط اسمها بضم الكاف وكسر الميم وشين معجم)، وهى من بلاد ملك العراق، مدينة كبيرة عامرة يأتيها التجار من العراق والشام، وبها من معادن الفضة. وعلى مسيرة يومين منها جبال شامخة وعرة لم أصل إليها، ونزلنا منها بزاوية الأخى مجد الدين، وأقمنا بها ثلاثًا فى ضيافته وفعل أفعال من قبله. وجاء إلينا نائب الأمير أرتنا، وبعث بضيافة وزاد. وانصرفنا من تلك البلاد، فوصلنا إلى أَرْزَنْجان (وضبط اسمها بفتح الهمزة وإسكان الراء وفتح الزاى وسكون النون وجيم وألف ونون)، وهى من بلاد صاحب العراق. مدينة كبيرة عامرة، وأكثر سكانها الأرمن. والمسلمون يتكلمون بها التركية. ولها أسواق حسنة الترتيب. ويصنع بها ثياب حسان تنسب إليها. وفيها معدن النحاس، ويصنعون منه الأوانى والبياسيس التى ذكرناها، وهى شبه المنار عندنا. ونزلنا منها بزاوية الفتى أخى نظام الدين، وهى من أحسن الزوايا، وهو أيضًا من خيار الفتيان وكبارهم، أضافنا أحسن ضيافة. وانصرفنا إلى مدينة أرز الروم، وهى من بلاد ملك العراق، كبيرة الساحة، خرب أكثرها بسبب فتنة وقعت بين طائفتين من التركمان بها. ويشقها ثلاثةُ أنهار. وفى أكثر دورها بساتين فيها الأشجار والدوالى. ونزلنا منها بزاوية الفتى أخى طومان، وهو كبير السن، يقال: إنه أناف على مائة وثلاثين سنة، ورأيته يتصرف على قدميه متوكئًا على عصا، ثابت الذهن، مواظبًا للصلاة فى أوقاتها، لم ينكر من نفسه شيئًا، إلا أنه لا يستطيع الصوم. وخدمنا بنفسه فى الطعام وخدمنا أولاده فى الحمام، وأردنا الانصراف عنه يوم نزولنا، فشق عليه ذلك، وأبى منه وقال: إن فعلتم نقصتم حرمتى، وإن أقل الضيافة ثلاث. فأقمنا لديه ثلاثًا.

ثم انصرفنا إلى مدينة بِرْكِى (وضبط اسمها بباء موحدة مكسورة وكاف معقود مسكور بينهما راء مسكن)، ووصلنا إليها بعد العصر، فلقينا رجلاً من

أهلها، فسألناه عن زاوية الأخى بها فقال: أنا أدلكم عليها، فاتبعناه فذهب بنا إلى منزله فى بستـان له، فأنزلنا بأعلى سطح بيته، والأشـجار مظللة، وذلك أوان الحر الشـديد، وأتى إلينا بأنواع الفاكـهة، وأحسن فـى ضيافـته. وعلف دوابنا، وبتنا عنده تلك الليلة. وكنا قـد تعرفنا أن بهذه المدينة مدرسًـا فاضلاً يسمى بمحـيى الدين، فأتى بنا ذلك الرجل الذى بتنا عنده، وكـان من الطلبة إلى المدرسة وإذا بالمدرس قد أقبل راكبًا على بغلة فارهة(١)، ومماليكه وخدامه عن جانبـيه، والطلبة بين يديه، وعليه ثيـاب مفرجة حـسان مطرزة بالذهب. فسلمنا عـليه، فرحب بنا وأحـسن السلام والكلام، وأمسك بـيدى وأجلسنى إلى جانبه. ثم جـاء القاضى عز الدين فرشتى، ومـعنى فرشتى الملك. لقب بذلك لدينه وعفافه وفضله. فـقعد عن يمين المدرس، وأخذ فى تدريس العلوم الأصلية والفـرعية. ثم لما فـرغ من ذلك أتى دويرة بالمدرسة فـأمر بفرشـها، وأنزلنى فيها. وبعث ضيافة حافلة، ثـم وجه إلينا بعد المغرب، فمضيت إليه، فوجدته فى مجلس ببستان له، وهنالك صهريج ماء ينحدر إليه الماء من خصة رخام أبيض يدور بها القاشانى، وبين يديه جملة من الطلبة، ومماليكه وخدامه وقوف من جانبيـه، وهو قاعد على مرتبة عليها أقطاع منقوشـة حسنة، فخلته لما شاهدته ملكًا مـن الملوك. فقام إلى واسـتقبلنى وأخـذ بيدى وأجلسنى إلى جانبه على مرتبته، وأتى بالطعام فأكلنا وانصرفنا إلى المدرسة. وذكر لى بعض الطلبـة أن جمـيع من حـضر تلك اللـيلة من الطلبة عـند المدرس، فعـادتهم الحضور لطعـامه كل ليلة. وكتب هذا المدرس إلى السلطان بخـبرنا وأثنى فى كتابه، والسلطان فى جـبل هنالك يصيف فيه لأجل شـدة الحر، وذلك الجبل بارد. وعادته أن يصيف فيه.

خبر سلطان بِرْكى

كان السلطان محمد بن آيدين من خيار السلاطين وكرمائهم وفضلائهم، ولما بعث إليه المدرس يعلمه بخبرى، وجه نائبه إلى لآتيه، فأشار على المدرس

(١) يُقال فرُه يفرُه فراهة وفروهة: جمل وحسن فهو فاره وهى فارهة. الوجيز ص(٤٧٠).

أن أقيمَ حتى يبعث إلىّ ثانيةً. وكان المدرس إذ ذاك قد خرجت برجله قرحة[١]، لا يستطيع الركوب بسببها، وانقطع عن المدرسة، ثم إن السلطان بعث فى طلبى ثانية، فشق ذلك على المدرس فقال: أنا لا أستطيع الركوب، ومن غرضى التوجه معك، لأقرر لدى السلطان ما يجب لك. ثم إنه تحامل ولف على رجله خرقًا، وركب ولم يضع رجله فى الركاب. وركبت أنا وأصحابى وصعدنا إلى الجبل، فى طريق قد نحتت وسويت، فوصلنا إلى موضع السلطان عند الزوال، فنزلنا على نهر ماء تحت ظلال شجر الجوز، وصادفنا السلطان فى قلق وشغل بال، بسبب فرار ابنه الأصغر سليمان عنه إلى صهره السلطان أرخان بك، فلما بلغه خبر وصولنا بعث إلينا ولديه: خضر بك وعمر بك، فسلما على الفقيه، وأمرهما بالسلام على ففعلا ذلك، وسألانى عن حالى ومقدمى وانصرفا. وبعث إلى ببيت يسمى عندهم الخرقة (خركاه)، وهو عصى من الخشب تجمع شبه القبة، وتجعل عليها اللبود، ويفتح أعلاه لدخول الضوء والريح، مثل البادهنج. ويسد متى احتيج إلى سده. وأتوا بالفرش ففرشوه، وقعد الفقيه، وقعدت معه أصحابه وأصحابى خارج البيت تحت ظلال شجر الجوز، وذلك الموضع شديد البرد، ومات لى تلك الليلة فرس من شدة البرد. ولما كان من الغد ركب المدرس إلى السلطان وتكلم فى شأنى بما اقتضته فضائله، ثم عاد إلىّ وأعلمنى بذلك. وبعد ساعة وجّه السلطان فى طلبنا معًا، فجئنا إلى منزله ووجدناه قائمًا، فسلمنا عليه، وقعد الفقيه عن يمينه وأنا مما يلى الفقيه. فسألنى عن حالى ومقدمى، وسألنى عن الحجاز ومصر والشام واليمن والعراقين وبلاد الأعاجم. ثم حضر الطعام فأكلنا وانصرفنا، وبعث الأرز والدقيق والسمن فى كروش الأغنام، وكذلك فعل الترك. وأقمنا على تلك الحال أيامًا، يبعث إلينا كل يوم، فنحضر طعامه. وأتى يومًا إلينا بعد الظهر، وقعد الفقيه فى صدر المجلس، وأنا عن يساره، وقعد السلطان عن يمين الفقيه، وذلك لعزة الفقهاء عند الترك، وطلب

---

(١) يُقال: قرح قرحًا: بدت به جروح من سلاح أو بثور، فهو قرح، والقرحة: البثرة إذا دب فيها الفساد. الوجيز ص(٤٩٥، ٤٩٦).

منى أن أكتب له أحاديث من حديث رسول الله -ﷺ- فكتبتها له، وعرضها الفقيه عليه فى تلك الساعة. فأمره أن يكتب له شرحها باللسان التركى. ثم قام فخرج، ورأى الخدام يطبخون لنا الطعام تحت ظلال الجوز بغير إدام ولا خضر. فأمر بعقاب صاحب خزانته، وبعث بالأبزار والسمن. وطالت إقامتنا بذلك الجبل، فأدركنى الملل وأردت الانصراف. وكان الفقيه أيضًا قد مل من المقام هنالك، فبعث إلى السلطان يخبره أنى أريد السفر. فلما كان من الغد بعث السلطان نائبه، فتكلم مع المدرس بالتركية، ولم أكن إذ ذاك أفهمها، فأجابه عن كلامه وانصرف. فقال لى المدرس: أتدرى ماذا قال؟ قلت: لا أعرف ما قال. قال: إن السلطان بعث إلى ليسألنى ماذا يعطيك. فقلت له: عنده الذهب والفضة والخيل والعبيد فليعطه ما أحب من ذلك. فذهب إلى السلطان ثم عاد إلينا، فقال: إن السلطان يأمر أن تقيما هنا اليوم، وتنزلا معه غدًا إلى داره بالمدينة. ولما كان من الغد بعث فرسًا جيدًا من مراكبه، ونزل ونحن معه إلى المدينة. فخرج الناس لاستقباله، وفيهم القاضى المذكور آنفًا وسواه، ودخل السلطان ونحن معه، فلما نزل بباب داره ذهبت مع المدرس إلى ناحية المدرسة، فدعا بنا وأمرنا بالدخول معه إلى داره. ولما وصلنا إلى دهليز الدار وجدنا من خدامه نحو عشرين، وصورهم فائقة الحسن وعليهم ثياب الحرير وشعورهم مفروقة وألوانهم ساطعة البياض مشربة بحمرة. فقلت للفقيه: ما هذه الصور الحسان؟ قال: هؤلاء فتيان روميون. وصعدنا مع السلطان درجًا كثيرة إلى أن انتهينا إلى مجلس حسن فى وسطه صهريج ماء، وعلى كل ركن من أركانه صورة سبع نحاس يمج ماء من فيه. وتدور بهذا المجلس مصاطب متصلة مفروشة، وفوق إحداها مرتبة السلطان. فلما انتهينا إليها نحى السلطان مرتبته بيده، وقعد معنا على الأقطاع، وقعد الفقيه عن يمينه، والقاضى مما يلى الفقيه، وأنا مما يلى القاضى، وقعد القراء أسفل المصطبة، والقراء لا يفارقونه حيث كان من مجالسه.

ثم جاءوا بصحاف من الذهب والفضة مملوءة بالجلاب المحلول، قد عصر فيه ماء الليمون، وجعل فيه كعكات صغار مقسومة، وفيها ملاعق ذهب

وفضة، وجاءوا معها بصحاف صينى فيها مثل ذلك، وفيها ملاعق خشب، فمن تورع استعمل صحاف الصينى وملاعق الخشب. وتكلمت بشكر السلطان وأثنيت على الفقيه، وبالغت فى ذلك فأعجب ذلك السلطان وسره.

وفى أثناء قعودنا مع السلطان أتى شيخ على رأسه عمامة لها ذؤابة[١] فسلم عليه، وقام له القاضى والفقيه، وقعد أمام السلطان فوق المصطبة، والقراء أسفل منه. فقلت للفقيه: من هذا الشيخ؟ فضحك وسكت. ثم أعدت السؤال، فقال لى: هذا يهودى طبيب. وكلنا محتاج إليه. فلأجل هذا فعلنا ما رأيت من القيام له. فأخذنى ما حدث وأبديت الامتعاض[٢]. فقلت لليهودى: يا ملعون ابن ملعون، كيف تجلس فوق قراء القرآن، وأنت يهودى؟ وشتمته ورفعت صوتى، فعجب السلطان وسأل عن معنى كلامى فأخبره الفقيه به. وغضب اليهودى فخرج عن المجلس فى أسوأ حال. ولما انصرفنا قال لى الفقيه: أحسنت بارك الله فيك. إن أحداً سواك لا يتجاسر على مخاطبته بذلك. ولقد عرفته بنفسه.

وسألنى السلطان فى هذا المجلس، فقال لى هل رأيت حجراً نزل من السماء؟ فقلت: ما رأيت ذلك ولا سمعت به. فقال لى: إنه قد نزل بخارج بلدنا هذا حجر من السماء. ثم دعا رجالاً وأمرهم أن يأتوا بالحجر، فأتوا بحجر أسود أصم شديد الصلابة، له بريق. قدرت أن زنته تبلغ قنطاراً[٣]. وأمر السلطان بإحضار القطاعين، فحضر أربعة منهم فأمرهم أن يضربوه، فضربوا عليه ضربة رجل واحد أربع مرات بمطارق الحديد، فلم يؤثروا فيه شيئًا. فعجبت من أمره.

---

(١) الذؤابة من كل شىء: أعلاه، والذؤابة: الطرف، والذؤابة: شعر مقدم الرأس. الوجيز ص(٢٤٢).

(٢) امتعض من الأمر: تألم وغضب. الوجيز ص(٥٨٦).

(٣) القنطار: معيار مختلف المقدار عند الناس، وهو بمصر فى زماننا مائة رطل، وهو ٤٤,٩٢٨ من الكيلو جرامات. الوجيز ص(٥١٧).

وأمر بردّه إلى حيث كان. وفى ثالث يوم من دخولنا إلى المدينة مع السلطان، صنع صنيعًا عظيمًا، ودعا الفقراء والمشايخ وأعيان العسكر ووجوه أهل المدينة، فطعموا وقرأ القراء القرآن بالأصوات الحسان، وعدنا إلى منزلنا بالمدرسة. وكان يوجه الطعام والفاكهة والحلواء والشمع فى كل ليلة. ثم بعث إلىّ مائة مثقال ذهبًا وألف درهم وكسوة كاملة وفرسًا ومملوكًا روميًّا يسمى ميخائيل، وبعث لكل من أصحابى كسوة ودراهم. كل هذا بمشاركة المدرس محيى الدين، -جزاه الله تعالى خيرًا-، وودعنا، وانصرفنا. وكانت مدة مقامنا عنده بالجبل والمدينة أربعة عشر يومًا.

ثم قصدنا مدينة تِيرَة وهى من بلاد هذا السلطان، (وضبط اسمها بكسر التاء المعلوة وياء مد وراء)، مدينة حسنة ذات أنهار وبساتين وفواكه نزلنا منها بزاوية الفتى محمد، وهو من كبار الصالحين، صائم الدهر، وله أصحاب على طريقته. فأضافنا ودعا لنا. وسرنا إلى مدينة أياسُلُوق (وضبط اسمها بفتح الهمزة والياء آخر الحروف وسين مهمل مضموم ولام مضموم وآخره قاف) مدينة كبيرة قديمة معظمة عند الروم، وفيها كنيسة مبنية بالحجارة الضخمة، ويكون طول الحجر منها عشرة أذرع فما دونها، منحوتة أبدع نحت. والمسجد الجامع بهذه المدينة من أبدع مساجد الدنيا، لا نظير له فى الحسن، وكان كنيسة للروم معظمة عندهم يقصدونها من البلاد، فلما فتحت هذه المدينة جعلها المسلمون مسجدًا جامعًا، وحيطانه من الرخام الملون، وفرشه الرخام الأبيض، وهو مسقف بالرصاص، وفيه إحدى عشرة قبة منوعة، فى وسط كل قبة صهريج ماء. والنهر يشقه، وعن جانبى النهر الأشجار المختلفة الأجناس ودوالى العنب ومعرشات الياسمين. وله خمسة عشر بابًا. وأمير هذه المدينة خضر بك ابن السلطان محمد بن آيدين، وقد كنت رأيته عند أبيه ببركى، ثم لقيته بهذه المدينة خارجها. فسلمت عليه، وأنا راكب، فكره ذلك منى، وكان سبب حرمانى لديه. فإن عادتهم إذا نزل لهم الوارد نزلوا وأعجبهم ذلك. ولم يبعث إلى إلا ثوبًا واحدًا من الحرير المذهب يسمونه النخ (بفتح النون وخاء معجم). واشتريت بهذه المدينة جارية رومية

بكراً بأربعين ديناراً ذهبًا، ثم سرنـا إلى المدينة يَزْمِير (وضبط اسمهـا بياء آخر الحروف مفتـوحة وزاى مسكن وميم مكسورة وياء مد وراء) مـدينة كبيرة على ساحل البحر، مـعظمها خراب. ولها قلعة متـصلة بأعلاها. نزلنا منها بزاوية الشيخ يعقوب، وهو من الأحمدية، صالح فاضل. ولقينا بخارجها الشيخ عز الدين بن أحمد الرفـاعى، ومعه زاده الأخلاطى من كبار المشـايخ، ومعه مائة فقيـر من المولهين. وقد ضرب لهم الأمير الأخـبية(١)، وصنع الشيخ يعقوب ضيافة، وحضرتها، واجتـمعت بهم. وأمير هذه المدينة عمر بك ابن السلطان محمد بن آيدين المذكور آنفًا، وسكناه بقلعـتها، وكان حين قدومنا عليها عند أبيه، ثم قدم بعد خـمس من نزولنا به. فكان من مكارمه أن أتى إلى بالزاوية فسلم على واعتـذر، وبعث ضيافة عظيمـة، وأعطانى بعد ذلك مملوكًا روميـًّا خـماسيـًّا اسمه نقـوله، وثوبين من الكمخا، وهى ثياب حـرير تصنع ببغداد وتبريز ونيسـابور وبالصين، وذكر لى الفقيه الـذى يؤم به أن الأمير لم يبق له مملوك سوى ذلك المملوك الذى أعطـانى بسبب كرمه -رحـمه الله-، وأعطى أيضًا للشيخ عز الدين ثلاثة أفـراس مجهزة، وآنية فضية كـبيرة تسمى عندهـم المشـربة مملوءة دراهم، وثيابًا من الملف والمرعـز والقسى والـكمخـا وجوارى وغلمانًا. وكان هذا الأمير كريمًا صالحًا كـثير الجهاد، له أجفان غزوية يضرب بها على نواحى القسطنطينية العظمى فيسبى ويغنم، ويفنى ذلك كرمًا وجودًا، ثم يعود إلى الجهاد، إلى أن اشتدت على الروم وطأته فرفعوا أمرهم إلى البابا فأمر نصارى جنوة وإفـرانسة بغزوه. وجهز جيشًا من روميـة، وطرقوا مدينته ليلاً فى عدد كـثير من الأجفان، وملكوا المرسى والمدينة. ونزل إليـهم الأمير عمر من القلعـة فقاتلهم واستشهـد هو وجماعة من ناسه، واستـقر النصارى بالبلد، ولم يقدروا على القلعة لمنعتها.

ثم سافرنا من هذه المدينة إلى مدينة مَغْنِيسِيّة (وضبط اسمها بميم مفتوحة

---

(١) فى الأصل: «الأخية».

والأخبية: جمع خباء، والخـباء: بيت من وبر أو شعر أو صوف، يكون على عمودين أو ثلاثة. الوجيز ص(١٨٣).

وغين معجمة مسكنة ونون مكسورة وياء مد وسين مهملة مكسورة وياء آخر الحروف مشددة) نزلنا بها عشي يوم عرفة بزاوية رجل من الفتيان، وهي مدينة كبيرة حسنة، في سفح جبل، وبسيطها كثير الأنهار والعيون والبساتين والفواكه.

خبر سلطان مغنيسية

وكان سلطانها يسمى صاروخان، ولما وصلنا إلى هذه البلدة، وجدناه بتربة ولده، وكان قد توفى منذ أشهر، فكان هو وأم الولد ليلة العيد وصبيحتها بتربته، والولد قد صُبِّر، وجعل في تابوت خشب مغشى بالحديد المقزدر، وعلق في قبة لا سقف لها لتذهب رائحته، وحينئذ تسقف القبة، ويجعل تابوته ظاهرًا على وجه الأرض، وتجعل ثيابه عليه. وهكذا رأيت غيره أيضًا من الملوك فعل، وسلمنا عليه بذلك الموضع، وصلينا معه صلاة العيد، وعدنا إلى الزاوية. فأخذ الغلام الذي كان لي أفراسنا، وتوجه مع غلام لبعض الأصحاب برسم سقيها، فأبطأ. ثم لما كان العشى لم يظهر لهما أثر. وكان بهذه المدينة الفقيه المدرس الفاضل مصلح الدين، فركب معي إلى السلطان وأعلمناه بذلك. فبعث في طلبهما، فلم يوجدا، واشتغل الناس في عيدهم وقصدا مدينة للكفار على ساحل البحر تسمى فوجة على مسيرة يوم من مغنيسية. وهؤلاء الكفار في بلد حصين. وهم يبعثون هدية في كل سنة إلى سلطان مغنيسية فيقنع منهم بها، لحصانة بلدهم. فلما كان بعد الظهر أتى بهما بعض الأتراك وبالأفراس. وذكروا أنهما اجتازا بهم عشية النهار، فأنكروا أمرهما واشتدوا عليهما حتى أقرّا بما عزما عليه من الفرار. ثم سافرنا من مغنيسية، وبتنا عند قوم من التركمان قد نزلوا في مرعى لهم، ولم نجد عندهم ما نعلف به دوابنا تلك الليلة، وبات أصحابنا يحترسون مداولة[1] بينهم خوف السرقة. فأتت نوبة الفقيه عفيف الدين التوزري، فسمعته يقرأ سورة البقرة فقلت له: إذا أردت النوم فأعلمني لأنظر من يحرس. ثم نمت،

---

(١) أي يقومون بالحراسة واحدًا بعد واحد.

فما أيقظنى إلا الصباح، وقد ذهب السراق بفرس لى كان يركبه عفيف الدين بسرجه ولجامه، وكان من جياد الخيل اشتريته بأياسلوق.

ثم رحلنا من الغد فوصلنا إلى مدينة، بَرْغَمَة (وضبط اسمها بباء موحدة مفتوحة وراء مسكنة وغين معجمة مفتوحة وميم مفتوحة) مدينة خربة، لها قلعة عظيمة منيعة بأعلى جبل. ويقال: إن أفلاطون الحكيم من أهل هذه المدينة، وداره تشتهر باسمه إلى الآن. ونزلنا منها بزاوية فقير من الأحمدية. ثم جاء أحد كبراء المدينة فنقلنا إلى داره وأكرمنا إكرامًا كثيراً.

خبر سلطان برغمة

وكان سلطانها يسمى يخشى خان بكسر الشين، وخان عندهم هو السلطان ويخشى (بياء آخر الحروف وخاء معجم وشين مكسور) ومعناه جيد، صادفناه فى مصيف له، فأعلم بقدومنا فبعث بضيافة وثوب قدسى، ثم اكترينا من يدلنا على الطريق، وسرنا فى جبال شامخة وعرة، إلى أن وصلنا إلى مدينة بَلِى كَسْرِى (وضبط اسمها بباء موحدة مفتوحة ولام مكسورة وياء مد وكاف مفتوح وسين مهمل مسكن وراء مكسور وياء) مدينة حسنة كثيرة العمارات مليحة الأسواق، ولا جامع لها يجمع فيه. وأرادوا بناء جامع خارجها متصل بها، فبنوا حيطانه ولم يجعلوا له سقفًا. وصاروا يصلون به ويجتمعون تحت ظلال الأشجار، ونزلنا من هذه المدينة بزاوية الفتى أخى سنان وهو من أفاضلهم، وأتى إلينا قاضيها وخطيبها الفقيه موسى.

خبر سلطان بلى كسرى

ويسمى دمورخان، ولا خير فيه. وأبوه هو الذى بنى هذه المدينة، وكثرت عمارتها بمن لا خير فيه، فى مدة ابنه هذا، والناس على دين الملك، ورأيته. وبعث إلى ثوب حرير. واشتريت بهذه المدينة جارية رومية تسمى مر غليظة. ثم سرنا إلى مدينة بُرْصَا (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة وإسكان الراء وفتح الصاد المهمل) مدينة كبيرة عظيمة حسنة الأسواق فسيحة الشوارع،

تحفها البساتين من جميع جهاتها والعيون الجارية. وبخارجها نهر شديد الحرارة يصب فى بركـة عظيمـة، وقد بنى عليـها بيـتان: أحـدهما للرجـال والآخر للنساء. والمرضى يستـشفون بهذه الحمـة، ويأتون من أقاصى البلاد. وهنالك زاوية للواردين ينزلون بها ويطعـمون مدة مقامـهم وهى ثلاثة أيام. عمَّر هذه الزاوية أحد ملوك التـركمان. ونزلنا فى هذه المدينة بزاوية الفـتى أخى شمس الدين من كبار الفتيان. ووافقنا عنده يوم عاشوراء. فصنع طعامًا كثيرًا، ودعا وجـوه العسكـر وأهل المدينة ليـلاً، وأفطروا عنده، وقـرأ القراء بالأصـوات الحسنة، وحضر الفقيه الواعظ مجد الدين القونوى، ووعظ وذكر وأحسن، ثم أخذوا فـى السمـاع والرقص. وكانت ليلة عظيـمة الشـأن. وهذا الواعظ من الصالحـين يصوم الدهر ولا يفطر إلا فى كل ثلاثة أيام، ولا يأكـل إلا من كدّ يمينه، ويقال: إنه لم يأكل طعام أحد قط، ولا منزل له ولا مـتاع إلا ما يستتر به، ولا ينام إلا فى المقبـرة. ويعظ فى المجالس ويذكر فيـتوب على يديه فى كل مجلـس الجماعـة من الناس. وطلبتـه بعد هذه الليلة فلـم أجده، وأتيت الجبانة فلم أجده. ويقال: إنه يأتيها بعد هجوع(١) الناس.

ولما حضـرنا ليلة عاشوراء بزاوية شـمس الدين، وعظ بها مـجد الدين آخر الليل. فصاح أحد الفقراء صيحة غشى عليه منها. فصبوا عليه ماء الورد فلم يفق، فأعادوا عـليه ذلك فلم يفق، واختلفت الناس فيـه، فمن قائل إنه ميت، ومن قـائل إنه مغـشى عليه. وأتم الواعظ كـلامه وقرأ القـراء وصلينا الصبح وطلعت الشـمس، فاختبروا حـال الرجل فوجدوه فارق الدنيـا رحمه الله. فاشتغلوا بغسله وتكفينه. وكنت فـيمن حضر الصلاة عليه ودفنه. وكان هذا الفقير يسمى الصيّاح. وذكروا أنه كـان يتعبد بغار هنالك فى جبل. فمتى علم أن الواعظ مـجد الديـن يعظ قصـده. وحضـر وعظه، ولم يأكل طعـام أحد. فإذا وعظ مـجد الدين يصيح ويغشى عـليه ثم يفيق، فيتـوضأ ويصلى ركعتين. ثم إذا سمع الواعظ صاح يفـعل ذلك مراراً فى الليلة وسمى الصياح

(١) يُقال: جمع يهجَع هجوعًا: نام ليلاً. الوجيز ص(٦٤٥).

لأجل ذلك. وكان أعـذر اليد والرِّجل، لا قدرة له على الخدمـة، وكانت له والدة تقوته من غـزلها. فلما توفـيت اقتات من نبات الأرض. ولقـيت بهذه المدينة الشـيخ الصـالح عبـد الله المصـرى السائح وهـو من الصالحين، جـال الأرض، إلا أنه لم يـدخل الصين ولا جـزيرة سـرنديب ولا المغـرب ولا الأندلس ولا بلاد السودان، وقد زدت عليه بدخول هذه الأقاليم.

خبر سلطان برصا

وكان سلطانهـا اختيار الديـن أُرْخان بك، وأُرْخان (بضم الهمـزة وخاء معجم) ابن السلطان عثمان جوق (وجوق بجيـم معقود مضموم وآخره قاف) وتفسيره بالتركية الصغير. وهذا السلطان أكبر ملوك التركمان وأكثر مالاً وبلاداً وعسكراً، له من الحصون ما يقارب مـائة حصن. وهو فى أكثر أوقاته لا يزال يطوف عليهـا، ويقيم بكل حـصن منها أياماً لإصـلاح شؤونه وتفقـد حاله. ويقال: إنه لم يقم قط شهراً كامـلاً ببلد، ويقاتل الكفار ويحاصرهم. ووالده هو الذى اسـتفـتح مـدينة برصـا من أيدى الروم، وقبـره بمسـجدها. وكـان مسجدها كنيـسة للنصارى. ويذكر أنه حاصر مدينة بـرتيك نحو عشرين سنة ومـات قبل فـتـحهـا، فحـاصـرها ولده هذا الذى ذكرناه اثـنتى عشـرة سنة وافتتحها. وبها كان لقـائى له وبعث إلى بدراهم كثيرة. ثم سافرنا إلى مدينة يَزْنِيك (وضبط اسمها بفتح الـياء آخر الحروف وإسكان الزاى وكسر النون وياء مد وكـاف) وبتنا قبل الوصـول إليها ليـلة بقرية تدعى كَرْله، بـزاوية فتى من الأخية. ثم سرنا من هذه القرية يوماً كاملاً فى أنهار ماء على جوانبها أشجار الرمان الحلو والحامض، ثم وصلنا إلى بحيرة ماء تنبت القصب، على ثمانية أميـال من يزنيك. لا يستطاع دخولهـا إلا على طريق واحد مثل الجـسر، لا يسلك عليها إلا فـارس واحد. وبذلك امتنعت هذه المدينة، والبحيـرة محيطة بها من جـميع الجهات، وهى خـاوية على عروشهـا. لا يسكن بها إلا أناس قليلون من خدام السلطان، وبها زوجـته بيون[1] خاتون وهى الحاكـمة عليهم

(١) وفى نسخة: «بيلون».

امرأة صالحـة فاضلة، وعلى المدينة أسوار أربعة. بين كل سـورين خندق وفيه الماء، ويدخل إليها على جسور خشب، متى أرادوا رفعهـا رفعوها. وبداخل المدينة البسـاتين والدور والأرض والمزارع، فلكلٍّ إنسان داره ومزرعتـه وبستانه مجموعة. وشربها من آبار بها قريبة، وبها من جميع أصنافٍ الفواكه والجوز. والقسطل عندهم كثير جدًّا رخيص الثمن. ويسمـون القسطل قسطنة بالنون، والجوز القـوز بالقاف. وبهـا العنب العذارى لم أر مـثله فى سواها، مـتناهى الحلاوة وعظيم الجرم، صافى اللون رقيق القشر، للحبة منه نواة واحدة. أنزلنا بهذه المدينة الفقـيه الإمام الحاج المجاور علاء الديـن السلطانيوكى، وهو شيخ الفضـلاء الكرماء، مـا جئت قط لزيارته إلا أحضـر الطعام. وصـورته حسنة وسـيرته أحـسن. وتوجه مـعى إلى الخـاتون المذكورة، فـأكرمت وأضـافت وأحسنت. وبعد قـدومنا بأيام وصل إلى هذه المدينة السلطان أرخان بك الذى ذكرناه. وأقـمت بهذه المدينة نحو أربعين يومًـا بسبب مرض فـرس لى. فلما طال على المكث تـركـته وانـصـرفت، ومـعى ثلاثة من أصـحـابى وجـارية وغـلامان. وليس مـعنا من يحـسن اللسـان التركى ويتـرجم عنا. وكـان لنا ترجمان فارقنا بهـذه المدينة. ثم خرجنا منها فبتنا بقرية يقـال لها مكَجَا (بفتح الميم والكاف والجيم) بتنا عند فقيه أكرمنا وأضافنا. وسافرنا من عنده وتقدمتنا امرأة من الترك على فرس ومعها خـديم لها، وهى قاصدة مدينة ينجا، ونحن فى اتباع أثرها، فوصلت إلى واد كبير يقال له سقرى كأنه نسب إلى سقر، -أعاذنا الله منها-، فذهبت تجوز الوادى فلما توسطته، كادت الدابة تغرق بها ورمتها عن ظهرها، وأراد الخديم الذى كان معها استخلاصها، فذهب الوادى بهمـا معًـا. وكان فى عـدوة الوادى قوم رمـوا بأنفسـهم فى أثرها سبـاحة، فأخرجـوا المرأة بها من الحياة رمق، ووجـدوا الرجل قد قضى نحبـه -رحمه الله-. وأخبرنا أولئك الناس أن المعدّية أسفل من ذلك الموضع. توجهنا إليها، وهى أربع خشـبات مربوطة بالحبـال. يجعلون عليها سـروج الدواب والمتاع، ويجذبهـا الرجال من العدوة الأخـرى، ويركـب عليهـا الناس. وتجاز الدواب سباحة وكذلك فعلنا. ووصلنا تلك الليلة إلى كـاوية واسمها على مثال فاعلة

من الكى نزلنا منها بزاوية أحد الأخيـة فكلمناه بالعربية فلم يفهم عنا، وكلمنا بالتركية فلم نفهم عنه، فـقال: اطلبوا الفقيه فإنه يعرف العربيـة. فأتى الفقيه فكلمنا بالفارسية وكلمناه بـالعربية فلم يفهمها منا فقـال للفتى: «ايشان عربى كهنا مـيقوان مـيكو يندو من عربى نومـيدانم». وايشان مـعناه هؤلاء، وكهنا قديم، ومـيقـوان يقولون، ومن أنا، ونو جـديد، وميـدانم تعرف. وإنما أراد الفقيه بهذا الكلام ستر نفســه عن الفضيحة حين ظنوا أنه يعرف اللسان العربى وهو لا يعرفه. فقال لهم: هؤلاء يتـكلمون العربى القديم، وأنا لا أعرف إلا العربى الجديد فظن الفتى أن الأمر على ما قاله الفقيه.

ونفعنا ذلك عنده وبالغ فى إكرامنا وقـال: هؤلاء تجب كرامتهم، لأنهم يتكلمـون باللســان العربى القـديم وهو لسـان النبى -صلى الله عليـه وسلم تسليمًا- وأصـحابه، ولـم نفهمْ كلامَ الفقيـهِ إذ ذاك لكننى حفظت لفظه. فلما تعلمت اللسان الفارسى فهـمت مراده. وبتنا تلك الليلة بالزاوية، وبعث معنا دليلاً إلى يَنجا وضبط اسمها (بفتح الياء آخر الحروف وكسر النون وجيم) بلدة كبيـرة حسنة. بحثنا بها عن زاويـة الأخى فوجدنا بها أحد الفـقراء المولهين، فقلت له: هذه زاوية الأخى، فقال لى: نعم فسررت عند ذلك إذ وجدت من يفهم اللسان العربى. فلما اختبرته أبرز الغيب أنه لا يعرف من اللسان العربى إلا كلمة نعم خاصة. ونزلنا بالزاوية وجـاء إلينا أحد الطلبة بطعام. ولم يكن الأخى حـاضـرًا، وحـصل الأنس بهـذا الطالب، ولم يكن يعـرف اللســان العربى، ولكنه تـفضل وتكلم مع نائب البلدة فـأعطانى فارسًا من أصـحابه، وتوجه معنا إلى كَبْنوك (وضبط اسمها بفتح الكاف وسكون الباء وضم النون) وهى بلدة صغيرة يسكنها كفـار الروم تحت ذمة المسلمين، وليس بها غير بيت واحد من المسلمين، وهم الحكام عليـهم. وهى من بلاد السلطان أرخان بك، فنزلنا بدار عجوز كافرة، وذلك إبان الثلج والشـتاء، فأحسنا إليها وبتنا عندها تلك الليلـة، وهذه البلدة لا شـجـر بهـا ولا داولى العنب ولا يزرع بهـا إلا الزعفران، وأتتنا هذه العجوز بزعفران كثير، وظنت أننا تجار نشتريه منها. ولما كان الصباح ركبنا وأتانا الفارس الذى بعثـه الفتى معنا من كاوية، فبعث معنا

فارسًا غيره ليوصلنا إلى مدينة مطرنى. وقد وقع فى تلك الليلة ثلج كثير عفا عنا الطريق(١)، فتقدمنا ذلك الفارس فاتبعنا أثره إلى أن وصلنا فى نصف النهار إلى قرية للتركمان، فأتوا بطعام فأكلنا منه، وكلمهم ذلك الفارس فركب معنا أحدهم، وسلك بنا أوعارًا وجبالاً ومجرى ماء تكرر لنا جوازه أزيد من الثلاثين مرة. فلما خلصنا من ذلك قال لنا ذلك الفارس: أعطونى شيئًا من الدراهم. فقلنا له: إذا وصلنا إلى المدينة نعطينك ونرضيك فلم يرض ذلك منا، أو لم يفهم عنا. فأخذ قوسًا لبعض أصحابى ومضى غير بعيد ثم رجع فرد إلينا القوس فأعطيته شيئًا من الدراهم، فأخذها وهرب عنا وتركنا لا نعرف أين نقصد ولا طريق لنا، فكنا نتلمح أثر الطريق تحت الثلج ونسلكه، إلى أن بلغنا عند غروب الشمس إلى جبل يظهر الطريق به لكثرة الحجارة فخفت الهلاك على ومن معى وتوقعت نزول الثلج ليلاً ولا عمارة هنالك. فإن نزلنا عن الدواب هلكنا، وإن سرينا ليلتنا لا نعرف أين نتوجه. وكان لى فرس من الجياد فعملت على الخلاص، وقلت فى نفسى: إذا سلمت لعلّى أحتال فى سلامة أصحابى، فكان كذلك. واستودعتهم الله تعالى وسرت. وأهل تلك البلاد يبنون على القبور بيوتًا من الخشب يظن رائيها أنها عمارة، فيجدها قبورًا. فظهر لى منها كثير. فلما كان بعد العشاء وصلت إلى البيوت فقلت: اللهم اجعلها عامرة، فوجدتها عامرة، ووفقنى الله تعالى إلى باب دار، فرأيت عليها شيخًا فكلمته بالعربى فكلمنى بالتركى، وأشار إلى بالدخول. فأخبرته بشأن أصحابى فلم يفهم عنى، وكان من لطف الله أن تلك الدار زاوية للفقراء، والواقف بالباب شيخها. فلما سمع الفقراء الذين بداخل الزاوية كلامى مع الشيخ خرج بعضهم. وكانت بينى وبينه معرفة فسلم على، وأخبرته خبر أصحابى وأشرت إليه بأن يمضى مع الفقراء لاستخلاص الأصحاب، ففعلوا ذلك وتوجهوا معى إلى أصحابى، وجئنا جميعًا إلى الزاوية وحمدنا الله تعالى على السلامة، وكانت ليلة جمعة، فاجتمع أهل

---

(١) فى الأصل: «عفى عن الطريق». وهو خطأ. فإنه يُقال: عفا الأثر يعفو عفوًا وعفاء: زال وامحى، وعفا الريح الأثر: محته ودرسته. الوجيز ص(٤٢٥).

القرية وقطعوا ليلتهم بذكر الله تعالى. وأتى كل منهم ما تيسر له من الطعام وارتفعت المشقة. ورحلنا عند الصباح فوصلنا إلى مدينة مُطرْنى عند صلاة الجمعة (وضبط اسمها بضم الميم والطاء المهملة وإسكان الراء وكسر النون وياء مد)، فنزلنا بزاوية أحد الفتيان الأخية، وبها جماعة من المسافرين، ولم نجد مربطًا للدواب. فصلينا الجمعة ونحن فى قلق لكثرة الثلج والبرد وعدم المربط، فلقينا أحد الحجاج من أهلها فسلم علينا، وكان يعرف اللسان العربى فسررت برؤيته، وطلبت منه أن يدلنا على مرابط للدواب بالكراء. فقال: أما ربطها فى منزل فلا يتأتى، لأن أبواب دور هذه البلدة صغار، لا تدخل منها الدواب، ولكننى أدلكم على سقيفة بالسوق يربط فيها المسافرون دوابهم، والذين يأتون لحضور السوق، فدلنا عليها، وربطنا بها دوابنا، ونزل أحد الأصحاب بحانوت خال إزاءها ليحرس الدواب.

وكان من غريب ما اتفق لنا أنى بعثت أحد الخدام ليشترى التبن للدواب، وبعثت أحدهم يشترى السمن. فأتى أحدهما بالتبن، والآخر دون شىء، وهو يضحك. فسألناه عن سبب ضحكه فقال: إنا وقفنا على دكان بالسوق فطلبنا منه السمن، فأشار إلينا بالوقوف. وكلم والده فدفعنا له الدراهم، فأبطأ ساعة وأتى بالتبن فأخذناه منه، وقلنا له: إنا نريد السمن، فقال: هذا السمن، وأبرز الغيب أنهم يقولون للتبن سمن بلسان الترك. أما السمن فيسمى عندهم رياغ، ولما اجتمعنا بهذا الحاج الذى يعرف اللسان العربى رغبنا منه أن يسافر معنا إلى قصطمونية، وبينهما وبين هذه البلدة عشرة، وكسوته ثوبًا مصريًّا من ثيابى، وأعطيته نفقة تركها لعياله، وعينت له دابة لركوبه، ووعدته الخير. وسافر معنا، فظهر لنا من حاله أنه صاحب مال كثير، وله ديون على الناس، غير أنه ساقط الهمة خسيس الطبع سيىء الأفعال وكنا نعطيه الدراهم لنفقتنا فيأخذ ما يفضل من الخبز ويشترى به الأبزار والخضر والملح ويمسك ثمن ذلك لنفسه. وذكر لى أنه كان يسرق من دراهم النفقة دون ذلك، وكنا نحتمله لما كنا نكابده من عدم المعرفة بلسان الترك، وانتهت حاله إلى أن فضحناه، وكنا نقول له في آخر النهار: يا حاج،

كم سرقت اليوم من النفقة؟ فيقول: كذا فنضحك منه ونرضى بذلك. ومن أفعاله الخسيسة أنه مات لنا فرس فى بعض المنازل، فتولى سلخ جلده بيده وباعه. ومنها أنا نزلنا ليلة عند أخت له فى بعض القرى فجاءت بطعام وفاكهة من الإجاص والتفاح والمشمش والخوخ، كلها ميبسة وتجعل فى الماء حتى ترطب فتؤكل ويشرب ماؤها. فأردنا أن نحسن إليها فعلم بذلك فقال: لا تعطوها شيئًا، وأعطوا ذلك لى فأعطيناه إرضاء له، وأعطيناها إحسانًا فى خفية بحيث لم يعلم بذلك. ثم وصلنا إلى مدينة بُولى (وضبط اسمها بباء موحدة مضمومة وكسر اللام)، ولما انتهينا إلى قريب منها وجدنا واديًا يظهر فى رأى العين صغيرًا، فلما دخله بعض أصحابنا وجدوه شديد الجرية والانزعاج، فجازوه جميعًا. وبقيت جارية صغيرة خافوا فى تجويزها، وكان فرسى خيرًا من أفراسهم فأردفتها، وأخذت فى جواز الوادى فلما توسطته وقع بى الفرس ووقعت الجارية، فأخرجها أصحابى وبها رمق وخلصت أنا. ودخلنا المدينة فقصدنا زاوية أحد الفتيان الأخية، ومن عوائدهم أنه لا تزال النار موقودة فى زواياهم أيام الشتاء أبدًا. يجعلون فى كل ركن من أركان الزاوية موقد النار، ويصنعون لها منافس يصعد منها الدخان، ولا يؤذى الزاوية. ويسمونها البخارى واحدها بخيرى.

قال ابن جزى: وقد أحسن صفى الدين عبد العزيز بن سرايا الحلّى فى قوله فى التورية، وتذكرته بذكر البخيرى:

إن البخيرىّ مذ فارقتموه غدا ... يَحْثو الرَّماد على كانونه التُّربِ
لو شِئْتُم أنَّه يُمسى أبا لَهَبٍ ... جاءَتْ بغالُكُم حَمَّالَةَ الحَطَبِ

قال: فلما دخلنا للزاوية وجدنا النار موقودة، فنزعت ثيابى ولبست ثيابًا سواها، واصطليت بالنار. وأتى الأخى بالطعام والفاكهة وأكثر من ذلك. فلله درهم[١] من طائفة! ما أكرم نفوسهم وأشد إيثارهم وأعظم شفقتهم على

---

(١) يُقال فى المدح والتعجب: لله دره. ويُقال: دَرّ دَرُّهُ: كثر خيرُه. الوجيز ص(٢٢٥).

الغريب وألطفهم بالوارد وأحبهم فيه وأجملهم احتفالاً بأمره. فليس قدوم الإنسان الغريب عليهم إلا كقدومه على أحب أهله إليه وبتنا تلك الليلة بحال مرضية، ثم رحلنا بالغداة فوصلنا إلى مدينة كَرَدَىْ بُولى (وضبط اسمها بكاف معقودة وفتح الراء والدال المهمل وسكون الياء وباء موحدة مضمومة وواو مد ولام مكسورة وياء)، وهى مدينة كبيرة فى بسيط من الأرض حسنة، متسعة الشوارع والأسواق، من أشد البلاد برداً. وهى محلات مفترقة، كل محلة تسكنها طائفة لا يخالطهم غيرهم.

وكان سلطانها شاه بك من متوسطى سلاطين هذه البلاد، حسن الصورة، والسيرة جميل الخلق قليل العطاء. صلينا بهذه المدينة صلاة الجمعة ونزلنا منها، ولقيت بها الخطيب الفقيه شمس الدين الدمشقى الحنبلى، وهو من مستوطنيها من سنين، وله بها أولاد. وهو فقيه هذا السلطان وخطيبه، ومسموع الكلام عنده. ودخل علينا هذا الفقيه بالزاوية، فأعلمنا أن السلطان قد جاء لزيارتنا. فشكرته على فعله، واستقبلت السلطان فسلمت عليه وجلس. فسألنى عن حالى وعن مقدمى وعمن لقيته من السلاطين، فأخبرته بذلك كله. وأقام ساعة ثم انصرف، وبعث بدابة مسرجة وكسوة وانصرفنا إلى مدينة بُرْلُو (وضبط اسمها بضم الباء الموحد وإسكان الراء وضم اللام)، وهى مدينة صغيرة على تل، تحتها خندق، ولها قلعة بأعلى شاهق. نزلنا منها بمدرسة. وكان الحاج الذى سافر معنا يعرف مدرسها وطلبتها، ويحضر معهم الدرس. وهو على علاته من الطلبة حنفى المذهب. ودعانا أمير هذه البلدة وهو على بك ابن السلطان المكرم سليمان باد شاه ملك قصطمونية وسنذكره، فصعدنا إليه إلى القلعة، فسلمنا عليه، فرحب بنا وأكرمنا، وسألنى عن أسفارى وحالى، فأجبته عن ذلك، وأجلسنى إلى جانبه. وحضر قاضيه وكاتبه الحاج علاء الدين محمد وهو من كبار الكتاب، وحضر الطعام فأكلنا ثم قرأ القراء بأصوات مبكية وألحان عجيبة وانصرفنا. وسافرنا بالغد إلى مدينة قَصْطَمُونِيَةَ (وضبط اسمها بقاف مفتوح وصاد مهمل مسكن وطاء مهمل مفتوح وميم مضمومة وواو ونون مكسورة وياء آخر الحروف)، وهى من

أعظم المدن وأحسنهـا، كثيـرة الخيرات، رخيـصة الأسعـار. نزلنا منها بزاوية شيخ يعرف بالأطروش لثـقل سمعه. ورأيت منه عجبًـا، وهو أن أحدَ الطلبةِ كان يكتب له في الـهواء، وتارة في الأرض بإصبـعه، فيـفهم عنه ويجيـبه، ويحكي له بذلك، الحكايات فيـفهمهـا. وأقمنا بهذه المدينة نحـو أربعين يومًا فكنا نشتـري طابق اللحم الغنمي السمين بدرهـمين، ونشتري خـبزًا بدرهمين فيكفـينا ليومنـا، ونحن عشرة. ونشـتري حلواء العـسل بدرهمين، فتكـفينا أجمعين. ونشتري جوزًا بدرهم وقـسطلاً بمثله، فنأكل منها أجمعون، ويفضل باقيهـا. ونشتري حمل الحطب بدرهم واحـد، وذلك أوان البرد الشديد، ولم أر في البلاد مدينة أرخص أسعارًا منها. ولقيت بها الشيخ الإمام العالم المفتي المدرس تاج الدين السلطـانيوكي من كـبـار العلمـاء، قرأ بالعـراقين وتبـريز واستـوطنها مـدة، وقرأ بدمـشق، وجاور بالحرمين قـديمًا. ولقيت بهـا العلم المدرس صدر الدين سليمـان الفنيكي من أهل فنيكة من بلاد الروم، وأضافني بمدرسته التي بسـوق الخيل، ولقيت بها الشيخ المعمر الـصالح دادا أمير علي، دخلت عليـه بزاويتـه بمقربة من سـوق الخـيل، فوجـدته ملقى على ظهـره، فأجلســه بعض خدامه، ورفع بعضـهم حاجبيه عن عـينيه ففتـحهم، وكلمني بالعربي الفصيح، وقال: قدمت خير مقدم، وسألته عن عمره فقال: كنت من أصحاب الخليفة المستنصر بالله، وتوفي وأنا ابن ثلاثين سنة. وعمره الآن مائة وثلاث وستون سنة، فطلبت منه الدعاء فدعا لي وانصرف.

خبر سلطان قصطمونية

وهو السلطان المكرم سليـمان بادشاه (واسمـه بباء معـقود وألف و دال مسكن)، وهو كبير السن ينيف على سـبعين سنة، حسن الوجه طويل اللحية صـاحب وقار وهيـبة، يجـالسه الفـقهـاء والصلحـاء. دخلت عليه بمجلسـه فأجلسني إلى جانبه وسألني عن حالي ومقدمي وعن الحرمين الشريفين ومصر والشام فأجبته، وأمر بإنزالي على قرب مـنه، وأعطاني ذلك اليوم فرسًا عتيقًا قرطاسـي اللون وكسوة، وعـيّن لي نفقـة وعلفًا، وأمـر لي بعد ذلك بـقمح

وشعير نفذ لى فى قرية من قرى المدينة، على مسيرة نصف يوم منها، فلم أجد من يشتريه، لرخص الأسعار، فأعطيته للحاج الذى كان فى صحبتنا.
ومن عادة هذا السلطان أن يجلس كل يوم بمجلسه، بعد صلاة العصر، ويؤتى بالطعام فتفتح الأبواب، ولا يمنع أحد من حضرى أو بدوى أو غريب أو مسافر من الأكل. ويجلس فى أول النهار جلوسًا خاصًّا، ويأتى ابنه فيقبل يديه، وينصرف إلى مجلس له ويأتى أرباب الدولة فيأكلون عنده وينصرفون.
ومن عادته فى يوم الجمعة أن يركب إلى المسجد، وهو بعيد عن داره. والمسجد المذكور هو ثلاث طبقات من الخشب. فيصلى السلطان وأرباب دولته والقاضى والفقهاء، ووجوه الأجناد فى الطبقة السفلى، ويصلى الأفندى، وهو أخو السلطان وأصحابه وخدامه وبعض أهل المدينة فى الطبقة الوسطى، ويصلى ابن السلطان ولى عهده وهو أصغر أولاده، ويسمى الجواد، وأصحابه ومماليكه وخدامه وسائر الناس فى الطبقة العليا، ويجتمعُ القراءُ فيقعدون حلقةً أمامَ المحرابِ، ويقعد معهم الخطيب والقاضى. ويكون السلطان بإزاء المحراب. ويقرأون سورة الكهف بأصوات حسان، ويكررون الآيات بترتيب عجيب. فإذا فرغوا من قراءتها صعد الخطيب المنبر فخطب ثم صلى، فإذاً فرغواً من الصلاة تنفّلوا(١) وقرأ القارىء بين يدى السلطان عشرًا، وانصرف السلطان ومن معه. ثم يقرأ القارىء بين يدى أخى السلطان، فإذا أتم قراءته انصرف هو ومن معه، ثم يقرأ القارىء بين يدى ابن السلطان، إذا فرغ من قراءته قام المعرف، وهو المذكر، فيمدح السلطان بشعر تركى ويمدح ابنه ويدعو لهما وينصرف. ويأتى ابن الملك إلى دار أبيه بعد أن يقبل يد عمه فى طريقه واقفًا فى انتظاره، ثم يدخلان إلى السلطان فيتقدم أخوه ويقبل يده ويجلس بين يديه، ثم يأتى ابنه فيقبل يده وينصرف إلى مجلسه فيقعد به مع ناسه، فإذا حانتْ صلاةُ العصرِ صَلَّوْهَا جميعًا. وقبل أخو السلطان يده، وانصرف عنه فلا يعود إليه إلا فى الجمعة الأخرى. وأما الولد فإنه يأتى كل يوم غدوة كما ذكرناه. ثم سافرنا من هذه المدينة ونزلنا فى زاوية عظيمة

---

(١) تنفلوا: صلوا النافلة. والنافلة: ما زاد على الفريضة والواجب. الوجيز ص(٦٢٨).

بإحدى القرى من أحسن زاوية رأيتها فى تلك البلاد، بناها أمير كبير تاب إلى الله تعالى يسـمى فخر الدين، وجعـل النظر فيها لولده. والإشـراف لمن أقام بالزاوية من الفـقراء. وفوائد القـرية وقف عليهـا. وبنى بإزاء الزاوية حمـامًا للسبيل يدخله الوارد والصادر من غير شىء يلزمـه، وبنى سوقًا بالقرية ووقفه على المسجد الجامع. وعيّن من أوقـاف هذه الزاوية لكل فقير يرد من الحرمين الشريفين أو من الشام ومصر والعراقين وخراسـان وسواهما كسوة كاملة ومائة درهم يوم قدومه، وثلاثمـائة درهم يوم سفره. والنفقة أيام مقـامه وهى الخبز واللحم والأرز المطبـوخ بالسمن والحلواء. ولكل فقـير من بلاد الروم عـشرة دراهم وضيافة ثلاثة أيام، ثم انصرفنا وبتنا ليلة ثانية بزاوية فى جبل شامخ لا عـمارة فـيه عـمـرها بعض الفتـيـان الأخيـة، ويعـرف بنظام الدين من أهل قصـطمونيـة، ووقف عليهـا قرية ينفق خـراجهـا على الوارد والصادر بـهذه الزاوية. وسافرنا من هذه الزاوية إلى مدينة صَنُوب (وضبط اسمها بفتح الصاد وضم النون وآخره باء)، وهى مدينة حافلة جمـعت بين التحصين والتحسين، يحيط بها البحر من جميع جهـاتها إلا واحدة وهى جهة الشرق، ولها هنالك باب واحـد لا يدخل إليهـا أحد إلا بإذن أمـيـرها، وأميـرها إبراهيم بك ابن السلطان سليمان بادشاه الذى ذكـرناه. ولما استؤذن لنا عليه دخلنا البلد ونزلنا بزاوية عز الدين أخى جلبي، وهى خارج باب البحر، ومن هنالك يصعد إلى جبل داخل فى البحر، كميناء سبتة فـيه البساتين والمزارع والمياه، وأكثر فواكهه التين والعنب. وهو جبل مـانع لا يُسْتطاع الصعـود إليه. وفيه إحـدى عشرة قرية يسـكنها كفـار الروم تحت ذمة المسلمين. وبـأعلاه رابطة تنسب للخـضر وإلياس -عليهـما السلام-، لا تخلو عن متعبّـد، وعندها عين ماء. والدعاء فيها مستجاب. وبسفح هذا الجـبل قبر الولى الصالح الصحابى بلال الحبشى، وعليه زاوية فيـها الطعام للوارد والصادر. والمسجـد بمدينة صنوب من أحسن المساجد. وفى وسطه بركـة ماء عليها قبـة تقلها أربع أرجل، ومع كل رجل ساريتان من الرخـام، وفوقها مجلس يصـعد له على درج خشب، وذلك من عمارة السلـطان بروانه ابن السلطان علاءالدين الرومى، وكان يصلى الجـمعة

بأعلى تلك القبة. وملك بعد ابنه غازى جلبى، فلما مات تغلب عليها السلطان سليمان المذكور. وكان غازى جلبى المذكور شجاعًا مقدامًا، ووهبه الله خاصية فى الصبر تحت الماء وفى قوة السباحة، وكان يسافر فى الأجفان الحربية لحرب الروم، فإذا كانت الملاقاة واشتغل الناس بالقتال غاص تحت الماء وبيده آله حديد يخرق بها أجفان العدو، فلا يشعرون بما حل بهم حتى يدهمهم الغرق. وطرقت مرسى بلده أجفان العدو فخرقها وغرق من كان فيها. وكانت قيه كفاية لا كفاء لها إلا أنهم يذكرون أنه كان يكثر أكل الحشيش وبسببه مات. فإنه خرج يومًا للتصيد وكان مولعًا به، فاتبع غزالة ودخلت له بين أشجار، وزاد فى ركض فرسه فعارضته شجرة فضربت رأسه فشدخته فمات. وتغلب السلطان سليمان على البلد وجعل به ابنه إبراهيم. ويقال: إنه أيضًا يأكل ما كان يأكله صاحبه. على أن أهل بلاد الروم كلها لا ينكرون أكلها. ولقد مررت يومًا على باب الجامع بصنوب، وبخارجه دكاكين يقعد الناس عليها، فرأيت نفراً من كبار الأجناد وبين أيديهم خديم لهم بيده شكارة مملوءة بشىء يشبه الحناء، وأحدهم يأخذُ منها بملعقة ويأكلُ، وأنا أنظر إليه ولا أعلم بما فى الشكارة. فسألت من كان معى فأخبرنى أنه الحشيش. وأضافنا بهذه المدينة قاضيها ونائب الأمير بها ومعلمه ويعرف بابن عبد الرزاق.

ولما دخلنا هذه المدينة رآنا أهلها ونحن نصلى مسبلى أيدينا وهم حنفية لا يعرفون مذهب مالك ولا كيفية صلاته، والمختار من مذهبه هو إسبال اليدين(١). وكان بعضهم يرى الروافض بالحجاز والعراق يصلون مسبلى

(١) إنما المشروع فى الصلاة وضع اليمنى على اليسرى لحديث وائل بن حجر أنه -ﷺ- وضع اليمنى على اليسرى، أخرجه مسلم (٤٠١)، وإنما إرسال اليد هو مذهب مالك، قال الشوكانى فى نيل الأوطار (١/ ٢٦٦): الحديث يدل على مشروعية وضع الكف على الكف وإليه ذهب الجمهور. وروى ابن المنذر عن ابن الزبير والحسن البصرى والنخعى أنه يرسلهما ولا يضع اليمنى على اليسرى، ونقله النووى عن الليث بن سعد ونقله المهدى فى البحر عن القاسمية والناصرية والباقر، ونقله ابن القاسم عن مالك، وخالفه ابن الحكم فنقل عن مالك الوضع، والرواية الأولى عنه هى رواية جمهور أصحابه وهى المشهورة عندهم، ونقل ابن سيد الناس عن الأوزاعى التخيير بين الوضع والإرسال.

أيديهم، فاتهمونا بمذهبهم، وسألونا عن ذلك فأخبرناهم أننا على مذهب مالك، فلم يقنعوا بذلك منا واستقرت التهمة في نفوسهم حتى بعث إلينا نائب السلطان بأرنب، وأوصى بعض خدامه أن يلازمنا حتى يرى ما نفعل به، فذبحناه وطبخناه وأكلناه وانصرف الخديم إليه وأعلمه بذلك. فحينئذ زالت عنا التهمة، وبعثوا لنا بالضيافة. والروافض لا يأكلون الأرانب. وبعد أربعة أيام من وصولنا إلى صنوب توفيت أم الأمير إبراهيم بها، فخرجت في جنازتها وخرج ابنها على قدميه، كاشفًا شعره، وكذلك الأمراء والمماليك وثيابهم مقلوبة. وأما القاضي والخطيب والفقهاء. فإنهم قلبوا ثيابهم ولم يكشفوا رؤوسهم بل جعلوا عليها مناديل من الصوف الأسود عوضًا عن العمائم وأقاموا يطعمون الطعام أربعين يومًا وهي مدة العزاء عندهم. وكانت إقامتنا بهذه المدينة نحو أربعين يومًا ننتظر تيسير السفر في البحر إلى مدينة القرم فاكترينا مركبًا للروم، وأقمنا أحد عشر يومًا ننتظر مساعدة الريح، ثم ركبنا البحر، فلما توسطناه بعد ثلاث، هال علينا واشتد بنا الأمر ورأينا الهلاك عيانًا، وكنت بالطارمة[1] ومعي رجل من أهل المغرب، يسمى أبا بكر، فأمرته أن يصعد إلى أعلى المركب لينظر كيف البحر، ففعل ذلك وأتاني بالطارمة فقال لي: أستودعكم الله، ودهمنا من الهول ما لم يعهد مثله، ثم تغيرت الريح وردتنا إلى مقربة من مدينة صنوب التي خرجنا منها. وأراد بعض التجار النزول إلى مرساها. فمنعت صاحب المركب من إنزاله ثم استقامت الريح وسافرنا، فلما توسطنا البحر هال علينا، وجرى لنا مثل المرة الأولى. ثم ساعدت الريح، وأرينا جبال البر، وقصدنا مرسى يسمى الكرش، فأردنا دخوله، فأشار إلينا أناس كانوا بالجبل أن لا تدخلوا، فخفنا على أنفسنا وظننا أن هنالك أجفانًا للعدو، فرجعنا مع البر، فلما قربناه قلت لصاحب المركب، أريد أن أنزل ها هنا. فأنزلني بالساحل. ورأيت كنيسة فقصدتها، فوجدت بها راهبًا، ورأيت في أحد حيطان الكنيسة صورة رجل عربي عليه عمامة متقلد سيفًا وبيده رمح، وبين يديه سراج يوقد، فقلت للراهب ما هذه

(١) الطارمة: بيت من خشب. وهو لفظ فارسي معرب. مختار الصحاح ص(٣٩١).

الصورة؟ فقال: هذه صورة النبى على فعجبت من قوله. وبتنا تلك الليلة بالكنيسة وطبخنا دجاجًا فلم نستطع أكلها إذ كانت مما استصحبناه فى المركب ورائحة البحر قد غلبت على كل ما كان فيه.

وهذا الموضع الذى نزلنا به هو من الصحراء المعروفة بدشت قفجق (والدشت بالشين المعجم والتاء المثناة) بلسان الترك هو الصحرا. وهذه الصحراء خضرة نضرة لا شجر بها ولا جبل ولا تل ولا أبنية ولا حطب، وإنما يوقدون الأرواث ويسمونها التَّزَك، فترى كبراءهم يلقطونها ويجعلونها فى أطراف ثيابهم، ولا يسافر فى هذه الصحراء إلا فى العجل، وهى مسيرة ستة أشهر، ثلاثة منها فى بلاد السلطان محمد أوزبك وثلاثة فى بلد غيره.

ولما كان الغد من وصولنا إلى هذا المرسى، توجه بعض التجار من أصحابنا إلى من بهذه الصحراء من الطائفة المعروفة بقفجق، وهم على دين النصرانية فاكترى منهم عجلة يجرها الفرس فركبناها ووصلنا إلى مدينة الكَفَا (واسمها بكاف وفاء مفتوحين)، وهى مدينة عظيمة مستطيلة على ضفة البحر، يسكنها النصارى، وأكثرهم الجنويون ولهم أمير يعرف بالدنْدير، ونزلنا منها بمسجد المسلمين.

ولما نزلنا بهذا الجامع أقمنا به ساعة ثم سمعنا أصوات النواقيس من كل ناحية، ولم أكن سمعتها قط فهالنى ذلك، وأمرت أصحابى أن يصعدوا الصومعة ويقرأوا القرآن ويذكروا الله ويؤذنوا ففعلوا ذلك. فإذا برجل قد دخل علينا وعليه الدرع والسلاح فسلم علينا واستفهمناه عن شأنه فأخبرنا أنه قاضى المسلمين هنالك وقال: لما سمعت القراءة والأذان خفت عليكم فجئت كما ترون. ثم انصرف عنا وما رأينا إلا خيرًا. ولما كان الغد جاء إلينا الأمير وصنع طعامًا فأكلنا عنده، وطفنا بالمدينة حسنة الأسواق. وكلهم كفار ونزلنا إلى المرسى، فرأينا مرسى عجيبًا به نحو مائتى مركب ما بين حربى وسفرى، صغيرًا وكبيرًا، وهو من مراسىء الدنيا الشهيرة، ثم اكترينا عجلة وسافرنا إلى مدينة القِرَم وهى (بكسر القاف وفتح الراء) مدينة كبيرة حسنة من بلاد

السلطان المعظم محمد أوزبك خان، وعليها أمير من قبله اسمه تُلُكْتُمُورُ (وضبط اسمه بتاء مثناة مضمومة ولام مضموم وكاف مسكن وتاء كالأولى مضمومة وميم مضمومة وواو وراء)، وكان أحد خدام هذا الأمير قد صحبنا فى طريقنا فعرفه بقدومنا فبعث إلى مع إمامه سعد الدين بفرس، ونزلنا بزاوية شيخها زاده الخراسانى، فأكرمنا هذا الشيخ ورحب بنا وأحسن إلينا، وهو معظم عندهم. ورأيت الناس يأتون للسلام عليه من قاض وخطيب وفقيه وسواهم. وأخبرنى هذا الشيخ زاده أن بخارج هذه المدينة راهبًا من النصارى فى دير يتعبد به، ويكثر الصوم. وأنه انتهى إلى أن يواصل أربعين يومًا ثم يفطر على حبة فول. وأنه يكاشف بالأمور. ورغب منى أن أصحبه فى التوجه إليه. فأبيت ثم ندمت بعد ذلك على أن لم أكن رأيته وعرفت حقيقة أمره. ولقيت بهذه المدينة قاضيها الأعظم شمس الدين السائل[1] قاضى الحنفية، ولقيت بها قاضى الشافعية، وهو يسمى بخضر، والفقيه المدرس علاء الدين الأصى، وخطيب الشافعية أبا بكر، وهو الذى يخطب بالمسجد الجامع الذى عمره الملك الناصر -رحمه الله- بهذه المدينة، والشيخ الحكيم الصالح مظفر الدين وكان من الروم فأسلم وحسن إسلامه، والشيخ الصالح العابد مظهر الدين وهو من الفقهاء المعظمين. وكان الأمير تلكتمور مريضًا، فدخلنا عليه، فأكرمنا وأحسن إلينا. وكان على التوجه إلى مدينة السرا حضرة السلطان محمد أوزبك، فعملت فى السير فى صحبته، واشتريت العجلات برسم ذلك.

وكانوا يسمون العجلة عَرَبَة (بعين مهملة وراء موحدة مفتوحات)، وهى عجلات تكون للواحدة منهم أربع بكرات كبار، ومنها ما يجره فرسان، ومنها ما يجره أكثر من ذلك، وتجرها أيضًا البقر والجمال على حال العربة فى ثقلها أو خفتها. والذى يخدم العربة يركب إحدى الأفراس التى تجرها. ويكون عليه سرج، وفى يده سوط يحركها للمشى، وعود كبير يصوبها به إذا عاجت عن القصد، ويجعل على العربة شبه قبة من قضبان خشب مربوط بعضها إلى بعض بسيور جلد رقيق، وهى خفيفة الحمل، وتكسى باللبد أو بالملف،

---

(١) وفى نسخة: «السائلى».

ويكون فيها طيقان مشبكة، ويرى الذى بداخلها الناس ولا يرونه. ويتقلب فيها كما يحب وينام ويأكل ويقرأ ويكتب وهو فى حال سيره. والتى تحمل الأثقال والأزواد وخزائن الأطعمة من هذه العربات يكون عليها شبه البيت كما ذكرنا. وعليها قفل. وجهزت لما أردت السفر عربة لركوبى مغشاة باللبد ومعى بها جارية لى، وعربة صغيرة لرفيقى عفيف الدين التوزرى، وعجلة كبيرة لسائر الأصحاب: يجرها ثلاثة من الجمال، يركب أحدها خادم العربة، وسرنا فى صحبة الأمير تلكتمور وأخيه عيسى وولديه قطلود مور وصارر بك، وسار أيضًا معه فى هذه الوجهة إمامه سعد الدين والخطيب أبو بكر والقاضى شمس الدين والفقيه شرف الدين موسى، والمعرف علاء الدين. وخطة هذا المعرف أن يكون بين يدى الأمير فى مجلسه. فإذا أتى القاضى يقف له هذا المعرف ويقول بصوت عال: بسم الله سيدنا ومولانا قاضى القضاة والحكام مبين الفتاوى والأحكام، بسم الله. وإذا أتى فقيه معظم أو رجلٍ أشار إليه وقال: بسم الله سيدنا ومولانا فلان الدين بسم الله، فيتهيأ من كان حاضراً لدخول الداخل ويقوم إليه ويفسح له فى المجلس. وعادة الأتراك أن يسيروا فى هذه الصحراء سيراً كسير الحجاج فى درب الحجاز. يرحلون بعد صلاة الصبح وينزلون ضحى ويرحلون بعد الظهر وينزلون عشيًّا. وإذا حلّوا الخيل والإبل والبقر عن العربات، سرّحوها للرعى ليلاً ونهارًا. ولا يعلف أحد دابة السلطان ولا غيره. وخاصية هذه الصحراء أن نباتها يقوم مقام الشعيرللدواب، وليس لغيرها من البلاد هذه الخاصية. ولذلك كثرت الدواب بها. ودوابهم لا رعاة لها ولا حراس، وذلك لشدة أحكامهم فى السرقة، وحكمهم فيها أنه من وجد عنده فرس مسروق كلف أن يرده إلى صاحبه ويعطيه معه تسعة مثله، فإن لم يقدر على ذلك أخذ أولاده فى ذلك، فإن لم يكن له أولاد ذبح كما تذبح الشاة.

وهؤلاء الأتراك لا يأكلون الخبز ولا الطعام الغليظ، وإنما يصنعون طعامًا من شىء شبه الآتلى يسمونه الدُوقى (بدال مهمل مضموم وواو وقاف مكسور معقود)، يجعلون على النار الماء، فإذا غلى صبوا عليه شيئًا من الدوقى، وإن

كان عندهم لحم قطعوه قطعًا صغارًا وطبخوه. ثم يجعل لكل رجل نصيبه فى صحفة، ويصبون عليـه اللبن الرائب ويشربونه، ويشربون عليه لبن الخل، وهم يسمونه القِمِزّ (بكسر القاف والميم والزاى المشددة) وهم أهل قوة وشدة وحسن مزاج. ويستعملون فى بعض الأوقات طعـامًا يسمونه البورخانى، وهو عجين يقطعونه قطيعات صغارًا، ويثقبون أوساطها ويجعلونها فى قدرة، فإذا طبخت صبوا عليها اللبن الرائب وشربوها. ولهم نبيذ يصنعونه من حب الدوقى الذى تقدم ذكره. وهم يرون أكل الحلواء عيبًا.

ولقد حضـرت يومًا عند السلطان أوزبك فى رمضان، فأحـضرت لحوم الخـيل وهى أكثـر مـا يأكلون من اللحم ولحـوم الأغنام والرشـتـا وهو شبـه الأطرية، يطبخ ويشرب باللـبن، وأتيته تلك الليلة بطبق حلواء صنعـها بعض أصحابى فـقدمتها بين يديه، فجـعل إصبعه عليها وجـعله على فيه، ولم يزد على ذلك، وأخبرنى الأمـير تلكتمور أن أحـد الكبار من مماليك هذا السلطان وله من أولاده، وأولاد أولاده نحـو أربعين ولدًا، قال له السلطان يومًـا: كل الحلواء وأعتقكم جـميعًا، فـأبى وقال: لو قتلتنى ما أكلتـها. ولما خرجنا من مدينة القـرم نزلنا بزاوية الأمير تلكتمـور، فى موضع يعرف بسجـاف. فبعث إلى أن أحضر عنده. فـركبت إليه. وكان لى فرس معد لـركوبى يقوده خديم العربة، فإذا أردت ركوبـه ركبته وأتيت الزاوية، فوجدت الأمـير قد وضع بها طعامًا كثيرًا فيه الخبز، ثم أتوا بماء أبيض فى صحاف صغار فشرب القوم منه. وكان الشيخ مظفر الدين يلى الأميـر فى مجلسه، وأنا أليه فقلت له: ما هذا؟ فقال: هذا مـاء الدهن. فلم أفهم ما قال. فـذقته فوجدت له حـموضة فتركته. فلما خرجت سألت عنه فقال هو نبيذ يصنعونه من حب الدوقى وهم حنفية المذهب، والنبيذ عندهم حـلال ويسمون هذا النبيذ المصنوع من الدوقى البُوزة (بضم الباء الموحدة وواو مد وزاى مفـتوح). وإنما قال لى الشيخ مظفر الدين: ماء الدخن ولسانه فيه اللكنة الأعجمية فظننت أنه يقول ماء الدهن.

وبعد مـسيرة ثمانيـة عشر منزلاً من مـدينة القرم، وصلنا إلى ماء كثـير نخوضـه يومًا كامـلاً، وإذا كثر خـوض الدواب والعربات فى هذا الماء اشـتد

وحله، وزاد صعوبة. فذهب الأمير إلى راحلتى وقدمنى أمامه مع بعض خدامه، وكتب لى كتابًا إلى أمير أزاق يعلمه أنى أريد القدوم على الملك، ويحضه على إكرامى. وسرنا حتى انتهينا إلى ماء آخر نخوضه نصف يوم.

ثم سرنا بعده ثلاثًا ووصلنا إلى مدينة أَزَاق (وضبط اسمها بفتح الهمزة والزاى وآخره قاف)، وهى على ساحل البحر حسنة العمارة، يقصدها الجنويون وغيرهم بالتجارات. بها من الفتيان أخى بجقجى، وهو من العظماء، يطعم الوارد والصادر. ولما وصل كتاب القاضى تلكتمور إلى أمير أزاق وهو محمد خواجه الخوارزمى، خرج إلى استقبالى، معه القاضى والطلبة، وأخرج الطعام، فلما سلمنا عليه. نزلنا بموضع أكلنا فيه، ووصلنا إلى المدينة ونزلنا بخارجها بمقربة من رابطة هنالك، تنسب للخضر وإلياس عليهما السلام. وخرج شيخ من أهل أزاق يسمى برجب النهر ملكى نسبة إلى قرية بالعراق، فأضافنا بزاوية له ضيافة حسنة. وبعد يومين من قدومنا قدم الأمير تلكتمور، وخرج الأمير محمد للقائه، ومعه القاضى والطلبة وأعدوا له الضيافة، وضربوا ثلاث قباب متصلاً بعضها ببعض، إحداها من الحرير الملون عجيبة والثنتان من الكتان. وأداروا عليها سراجة وهى المسماة عندنا أفراج، وخارجها الدهليز وهو على هيئة البرج عندنا. ولما نزل الأمير بسطت بين يديه شقاق الحرير يمشى عليها، فكان من مكارمه وفضله أن قدمنى أمامه ليرى ذلك الأمير منزلتى عنده، ثم وصلنا إلى الخباء الأولى، وهى المعدة لجلوسه، وفى صدرها كرسى من الخشب لجلوسه كبير، مرصع، وعليه مرتبة حسنة، فقدمنى الأمير أمامه، وقدم الشيخ مظفر الدين، وصعد هو فجلس فيما بيننا، ونحن جميعًا على المرتبة، وجلس قاضيه وخطيبه وقاضى هذه المدينة وطلبتها عن يسار الكرسى على فرش فاخرة، ووقف ولدا الأمير تلكتمور وأخوه الأمير محمد وأولاده فى الخدمة، ثم أتوا بالأطعمة من لحوم الخيل وسواها، وأتوا بألبان الخيل، ثم أتوا بالبوزة، وبعد الفراغ من الطعام قرأ القراء بالأصوات الحسان. ثم نصب منبر وصعده الواعظ وجلس القراء بين يديه وخطب خطبة بليغة ودعا للسلطان وللأمير وللحاضرين، يقول ذلك

بالعربى، ثم يفسره لهم بالتركى وفى أثناء ذلك يكرر القـراء آيات من القرآن بتـرجيع عـجيب، ثم أخـذوا فى الغناء يغنون بالعـربى ويسـمونه القـول ثم بالفارسى والتـركى يسمونه الملمع، ثم أتوا بطعـام آخر، ولم يزالوا على ذلك إلى العـشى. وكلما أردت الخـروج منعنى الأميـر ثم جاءوا بكسـوة للأمـير وكساوى لولديه وأخيه وللشيخ مظفـر الدين ولى، وأتوا بعشرة أفراس للأمير ولأخيـه ولولديه بستة أفـراس. ولكل كبيـر من أصحابه بفـرس ولى بفرس. والخيل بهذه البلاد كثيرة جداً، وثمنها نزر[1]، قيمة الجيد منها خمسون درهماً أو ستون من دراهمهم. وذلك صـرف دينار من دينارنا أو نحوه. وهذه الخيل هى التى تعرف بمصر بالأكاديش ومنها معـاشهم. وهى ببلادهم كالغنم ببلادنا بل أكثر، فيكون للتركى منهم آلاف منها.

ومن عادة الترك المستوطنين تلك البـلاد أصحاب الخيل أنهم يضعون فى العربات التى تركب فيها نساؤهم قطعـة لبد فى طول الشبر، مربوطة إلى عود رقـيق فى طول الذراع، فى ركن العـربة، ويجـعل لكل ألف فـرس قطعـة. ورأيت منهم من يكون له عـشرة قطع ومن له دون ذلك. وتحـمل هذه الخيل إلى بلاد الهند، فيكون فى الرفقة ستة آلاف ومـا فوقها وما دونها، لكل تاجر المائة والمائتان فـما دون ذلك وما فوقـه، ويستأجـر التاجر لكل خمـسين منها راعيًا يقوم عليها ويرعاها كالغنم ويسمى عندهم القشى، ويركب أحدها وبيده عصـا طويلة فيهـا حبل، فإذا أراد أن يقـبض على فرس منها حـاذاه بالفرس الذى هو راكبـه ورمى الحبل فى عنقه وجذبه، فـيركبه ويتـرك الآخر للرعى. وإذا وصلوا بها إلى أرض الـسند أطعموها العلف؛ لأن نـبات أرض السند لا يقوم مقـام الشعير، ويموت لهم منها الـكثير ويسرق، ويغرمـون عليها بأرض السند سبعة دنانير فضة على الفرس بمـوضع يقال له ششنقار، ويغرمون عليها بملتان قـاعدة بلاد السند، وكانوا فـيما تقدم يغـرمون ربع ما يجلبـونه، فرفع ملك الهند إلى السلطان محمد ذلك، وأمر أن يؤخذ من تجار المسلمين الزكاة، ومن تجار الكفار العشر ومع ذلك يبقى للتجار فيـها فضل كبير؛ لأنهم يبيعون

(١) النزر: القليل. الوجيز ص(٦١٠).

الرخيص منها ببلاد الهند بمائة دينار دراهم، وصرفها من الذهب المغربى خمسة وعشرون ديناراً، وربما باعوها بضعف ذلك وضعفه وضعيفه والجياد منها تساوى خمسمائة دينار، وأكثر من ذلك، وأهل الهند لا يبتاعونها للجرى والسبق؛ لأنهم يلبسون فى الحرب الدروع ويدرعون الخيل، وإنما يبتغون قوة الخيل واتساع خطاها والخيل التى يبتغونها للسبق تجلب إليهم من اليمن وعمان وفارس يباع الفرس منها بألف دينار إلى أربعة آلاف، ولما سافر الأمير تلكتمور عن هذه المدينة أقمت بعده ثلاثة أيام حتى جهز لى الأمير محمد خواجه آلات سفرى.

وسافرت إلى مدينة الماجَر، وهى (بفتح الميم وألف وجيم مفتوح معقود وراء) مدينة كبرى من أحسن مدن الترك، على نهر كبير، وبها البساتين والفواكه الكثيرة، نزلنا منها بزاويةِ الشيخِ الصالحِ العابدِ المعمرِ محمد البطائحى من بطائح العراق، وكان خليفة الشيخ أحمد الرفاعى -رضي الله عنه-، وفى زاويته نحو سبعين من فقراء العرب والفرس والترك والروم، منهم المتزوج والعزب، وعيشهم من الفتوح. ولأهل تلك البلاد اعتقاد حسن فى الفقراء، وفى كل ليلة يأتون إلى الزاوية بالخيل والبقر والغنم، ويأتى السلطان والخواتين لزيارة الشيخ والتبرك به، ويجزلون الإحسان، ويعطون العطاء الكثير، وخصوصاً النساء فإنهن يكثرن الصدقة ويتحرين أفعال الخير. وصلينا بمدينة الماجر صلاة الجمعة، فلما قضيت الصلاة صعد الواعظ عز الدين المنبر، وهو من فقهاء بخارى وفضلائها، وله جماعة من الطلبة والقراء يقرأون بين يديه، ووعظ وذكر، وأمير المدينة حاضر وكبراؤها فقام الشيخ محمد البطائحى فقال: إن الفقيه الواعظ يريد السفر ونريد له زوادة ثم خلع فرجية[١] مرعز كانت عليه وقال: هذه منى إليه فكان الحاضرون بين من خلع ثوبه ومن أعطى فرسًا ومن أعطى دراهم واجتمع له كثير من ذلك كله، ورأيت بقيسارية هذه المدينة يهوديًّا سلم على وكلمنى بالعربى، فسألته عن بلاده، فذكر أنه

---

(١) الفرجية: ثوب واسع طويل الكمين، يتزيا به علماء الدين. الوجيز ص(٤٦٥).

من بلاد الأندلس، وأنه قدم منها فى البـر ولم يسلك بحرًا، وأتى على طريق القسطنطينيـة العظمى وبلاد الروم وبلاد الجرجس، وذكر أن عـهده بالأندلس منذ أربعة أشهر، وأخـبرنى التجار المسافرون الذين لهم المعـرفة بذلك بصحة مقاله، ورأيت بهـذه البلاد عجبًا من تعظيم النســاء عندهم، وهن أعلى شأنًا من الرجال. فأما نسـاء الأمراء فكانت أول رؤيتى لهن عند خروجى من القرم رؤية الخاتون زوجة الأمـير سلطية فى عربة لها، وكلـها مجللة بالملف الأزرق الطيب، وطيقـان البيت مـفتوحـة، وأبوابه، وبين يديها أربع جـوار، فاتنات الحسن بديعات اللبـاس، وخلفها جملة من العـربات فيها جوار يتـبعنها، ولما قربت من منزل الأمـير نزلت عن العربة إلى الأرض، ونزل معـها نحو ثلاثين من الجـوارى يرفـعن الأذيال عن الأرض مـن كل جـانب، ومـشت كـذلك متبخترة، فلما وصلت إلى الأمير قـام إليها وسلم عليها وأجلسها إلى جانبه، ودار بها جـواريها وجاءوا بروايا القـمزِّ، فصبَّت مـنه فى قدح وجلست على ركبتيهـا قدام الأمير، وناولته القدح فشرب، ثم سقت أخـاه وسقاها الأمير، وحضر الطعام فأكلت معه وأعطاها كسوة وانصرفت. وعلى هذا الترتيب نساء الأمراء، وسنذكر نســاء الملك فيما بعد. وأمـا نساء الباعة والسوقـة فرأيتهن، وإحـداهن تكون فى العـربة والخيل تجـرها، وبين يديهـا الثـلاث والأربع من الجـوارى، يرفـعن أذيالهـا. وعلى رأسـها البـغطاق، وهو أقـروف مـرصع بالجوهر، وفى أعلاه ريش الطواويس وتكون طيقان البيت مفتحة، وهى بادية الوجة؛ لأن نساء الأتراك لا يحتجبن وتأتى إحـداهن على هذا الترتيب ومعها عبـيدها بالغنم واللبن فتـبيعه من الناس بالسـلع العطرية، وربما كان مع المرأة منهن زوجهـا فيظنه من يراها بعض خدامـها، ولا يكون عليه من الثـياب إلا فروة من جلد الغنم، وفى رأسه قلنسوة تناسب ذلك يسـمونها الكلا. وتجهزنا من مدينة المـاجر نقصـد معسكـر السلطان، وكان على أربعـة أيام من الماجر بموضع يقـال له بَشْ دَغْ ومعنى بش عندهم خـمسـة وهو (بكسر البـاء وشين معـجم) ومعنى دغ الجـبل، وهو (بفتح الدال المهـمل وغين معـجم) وبهذه الجبال الخمسة عين ماء يغتـسل منها الأتراك، ويزعمون أنه من اغتسل منها لم

تصبه عاهة[١] مرض، وارتحلنا إلى موضع المحلة فوصلناه أول يوم من رمضان، فوجدنا المحلة قد خلت فعدنا إلى الموضع الذى رحلنا منه، لأن المحلة تنزل بالقرب منه فضربت بيتى على تلة هنالك، وركزت العلم أمام البيت، وجعلت الخيل والعربات وراء ذلك، وأقبلت المحلة، وهم يسمونها الأُرْد بضم الهمزة، فرأينا مدينة عظيمة تسير بأهلها فيها المساجد والأسواق، ودخان المطبخ صاعد فى الهواء وهم يطبخون فى حال رحيلهم، والعربات تجرها الخيل بهم، فإذا بلغوا المنزل أنزلوا البيوت عن العربات، وجعلوها على الأرض، وهى خفيفة المحمل، وكذلك يصنعون بالمساجد والحوانيت. واجتاز بنا خواتين السلطان، كل واحدة بناسها على حدة ولما اجتازت الرابعة منهن وهى بنت الأمير عيسى بك وسنذكرها، رأت البيت بأعلى التل والعلم أمامه، وهو علامة الوارد فبعثت الفتيان والجوارى فسلموا على، وبلغوا سلامها إلى، وهى واقفة تنتظرهم فبعثت إليها هدية مع بعض أصحابى، ومع معرف الأمير تلكتمور فقبلتها تبركًا وأمرت أن أنزل فى جوارها وانصرفت، وأقبل السلطان فنزل فى محلته على حدة.

خبر السلطان المعظم محمد أوزْبَك خان

واسمه محمد أوزْبَك (بضم الهمز وواو وزاى مسكن وباء موحدة مفتوحة)، ومعنى خان عندهم السلطان. وهذا السلطان عظيم المملكة شديد القوة كبير الشأن رفيع المكان، قاهر لأعداء الله أهل قسطنطينية العظمى، مجتهد فى جهادهم، وبلاده متسعة ومدنه عظيمة منها التكفار والقِرَم والماجر وأزاق وسرداق (سوادق) وخوارزم وحضرته السرا وهو أحد الملوك السبعة الذين هم كبراء الدنيا وعظماؤها وهم: مولانا أمير المؤمنين ظل الله فى أرضه، إمام الطائفة المنصورة الذين لا يزالون ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة، أيد الله أمره وأعز نصره[٢]، وسلطان مصر والشام، وسلطان

---

(١) العاهة: عرض مفسد لما أصابه من الإنسان والزرع والماشية. الوجيز ص(٤٤٤).

(٢) يُقصد به السلطان أبا عنان المرينى.

العراق، والسلطان أوزبك هذا، وسلطان بلاد تركستان وما وراء النهر، وسلطان الهند، وسلطان الصين. ويكون هذا السلطان إذا سافر فى محلة على حدة، معه مماليكه وأرباب دولته، وتكون كل خاتون من خواتينه على حدة فى محلتها، وإذا أراد أن يكون عند واحدة منهن، بعث إليها يعلمها بذلك، فتتهيأ له. وله فى محل قعوده وسفره وأموره ترتيب عجيب بديع. ومن عادته أن يجلس يوم الجمعة بعد الصلاة فى قبة تسمى قبة الذهب مزينة بديعة، وهى من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب، وسطها سرير من خشب، مكسوة بصفائح الفضة المذهبة، وقوائمه فضة خالصة، وؤوسها مرصعة بالجواهر، ويقعد السلطان على السرير، وعلى يمينه الخاتون طيطغلى، وتليها الخاتون كبك، وعلى يساره الخاتون بَيَلُون، وتليها الخاتون أُردوجا، ويقف أسفل السرير على اليمين ولد السلطان تين بك، وعن الشمال ولده الثانى جان بك وتجلس بين يديه ابنته إيت كجك. وإذا أتت إحداهن، قام لها السلطان، وأخذ بيدها حتى تصعد على السرير، وأما طيطغلى، وهى الملكة وأحظاهن عنده، فإنه يستقبلها إلى باب القبة، فيسلم عليها ويأخذ بيدها فإذا صعدت على السرير وجلست، حينئذ يجلس السلطان وهذا كله على أعين الناس دون احتجاب.

ويأتى بعد ذلك كبار الأمراء، فتنصب لهم كراسيهم عن اليمين والشمال وكل إنسان منهم إذا أتى مجلس السلطان، يأتى معه غلام بكرسيه، ويقف بين يدى السلطان أبناء الملوك من بنى عمه وإخوته وأقاربه، ويقف مقابلتهم عند باب القبة أولاد الأمراء الكبار، ويقف خلفهم وجوه العساكر عن يمين وعن شمال، ثم يدخل الناس للسلام بالأمثل فالأمثل ثلاثة ثلاثة، فيسلمون وينصرفون، فيجلسون على بعد، فإذا كان بعد صلاة العصر انصرفت الملكة من الخواتين، ثم ينصرف سائرهن، فيتبعها إلى محلتها فإذا دخلت إليها انصرفت كل واحدة إلى محلتها راكبة عربتها، ومع كل واحدة فيتبعها نحو خمسين جارية، راكبات على الخيل وأمام العربات نحو عشرين من قواعد النساء، راكبات على الخيل، فيما بين الفتيان والعربة، وخلف الجميع نحو

مائة مملوك من الصبيان، وأمام الفتيان نحو مائة من المماليك الكبار، ركبانًا ومثلهم مشاة، بأيديهم القضبان، والسيوف مشدودة على أوساطهم وهم بين الفرسان والفتيان، وهكذا ترتيب كل خاتون منهن فى انصرافها ومجيئها. وكان نزولى من المحلة فى جوار ولد السلطان جان بك، الذى يقع ذكره فيما بعد وفى الغد من يوم وصولى دخلت إلى السلطان بعد صلاة العصر، وقد جمع المشايخ والقضاة والفقهاء والشرفاء والفقراء، وقد صنع طعامًا كثيرًا، وأفطرنا بمحضره وتكلم السيد الشريف نقيب الشرفاء ابن عبد الحميد، والقاضى حمزة فى شأنى بالخير، وأشاروا على السلطان بإكرامى، وهؤلاء الأتراك لا يعرفون إنزال الوارد ولا إجراء النفقة، وإنما يبعثون له الغنم والخيل للذبح وروايا القمز، وتلك كرامتهم وبعد هذا بأيام صليت صلاة العصر مع السلطان، فلما أردت الانصراف أمرنى بالقعود، وجاءوا بالطعام، من المشروبات كما يصنع من الدوقى، ثم باللحوم المسلوقة من الغنم والخيل، وفى تلك الليلة أتيت السلطان بطبق حلواء، فجعل إصبعه عليه وجعله على فيه، ولم يزد على ذلك.

أخبار الخواتين وترتيبهن

وكل خاتون منهن تركبُ فى عربة للبيت، وللبيت الذى تكون فيه قبة من الفضة المموهة بالذهب أو من الخشب المرصع[١]، تكون الخيل التى تجر عربتها مجللة بأثواب الحرير المذهب، وخديم العربة الذى يركب أحد الخيل فتى يدعى القشى، والخاتون قاعدة فى عربتها، وعن يمينها امرأة من القواعد تسمى أولُو خاتون (بضم الهمزة واللام) ومعنى ذلك الوزير وعن شمالها امرأة من القواعد أيضًا تسمى كجُك خاتون (بضم الكاف والجيم) ومعنى ذلك الحاجية، وبين يديها ست من الجوارى الصغار، يقال لهن البنات، فائقات الجمال متناهيات الكمال، ومن ورائها اثنتان منهن، تستند إليهن، وعلى رأس الخاتون البغطاق، وهو مثل التاج الصغير مكلل بالجواهر، وبأعلاها ريش

(١) المرصع: المزين بالحلى. الوجيز ص(٢٦٦).

الطواويس، وعليها ثياب حرير مرصعة بالجواهر شبه المنوت «الملوطة» التى يلبسها الروم، وعلى رأس الوزيرة والحاجبة مقنعة حرير مزركشة الحواشى بالذهب والجوهر وعلى رأس كل واحدة من البنات الكلا، وهو شبه الأقروف، وفى أعلاها دائرة ذهب مرصعة بالجوهر، وريس الطواويس من فوقها وعلى كل واحدة ثوب من الحرير مذهب يسمى النخ، ويكون بين يدى الخاتون عشرة أو خمسة عشر من الفتيان الروميين والهنديين، وقد لبسوا ثيابَ الحريرِ المذهب، المرصعة بالجواهر، وبيد كلٍّ واحدٍ منهم عمود ذهب أو فضة، أو يكون من عود ملبس بهما وخلف عربة الخاتون نحو مائة عربة فى كل عربة الثلاث والأربع من الجوارى الكبار والصغار، وثيابهن الحرير، وعلى رؤوسهن الكلا وخلف هذه العربات نحو ثلاثمائة عربة تجرها الجمال والبقر، وتحمل خزائن الخاتون وأموالها وثيابها وأثاثها وطعامها ومع كل عربة غلام موكل بها متزوج بجارية من الجوارى التى ذكرناها فإن العادة عندهن أن لا يدخل بين الجوارى من الغلمان إلا من كان له بينهن زوجة وكل خاتون فهى على هذا الترتيب، ولنذكرهن على الانفراد.

وكانت الخاتون الكبرى هى الملكة أم ولدى السلطان جان بك وتين بك، وسنذكرهما وليست أم ابنته إيت كجك وأمها كانت الملكة قبل هذه، واسم هذه الخاتون طَيْطُغْلى (بفتح الطاء المهملة الأولى وإسكان الياء آخر الحروف وضم الطاء الثانية وإسكان الغين المعجمة وكسر اللام وياء مد)، وهى أحظى نساء هذا السلطان عنده وعندها يبيت أكثر لياليه ويعظمها الناس بسبب تعظيمه لها، وإلا فهى أبخل الخواتين. وحدثنى من أعتمده من العارفين بأخبار هذه الملكة، أن السلطان يحبها للخاصية التى فيها، وهى أنه يجدها كل ليلة كأنها بكر. وذكر لى غيره أنها من سلالة المرأة التى يذكر أن الملك زال عن سليمان -عليه السلام- بسببها ولما عاد إليه ملكه أمر أن توضع بصحراء لا عمارة فيها فوضعت بصحراء قفجق. وأن رحم هذه الخاتون شبه الحلقة خلقة وكذلك كل من هو من نسل المرأة المذكورة. ولم أر بصحراء قفجق ولا غيرها من أخبر أنه رأى امرأة على هذه الصورة ولا سمع بها إلا هذه الخاتون اللهم إلا أن بعض

أهل الصين أخبرنى أن بالصين صنفًا من نسائها على هذه الصورة ولا يقع بيدى ذلك، ولا عرفت له حقيقة. وفى غد اجتماعى بالسلطان دخلت إلى هذه الخاتون، وهى قاعدة فيما بين عشر من النساء القواعد كأنهن خديمات لها، وبين يديها نحو خمسين جارية صغارًا يسمون البنات، وبين أيديهن طيافير الذهب والفضة مملوءة بحب الملوك وهن ينقينه، وبين يدى الخاتون صينية ذهب مملوءة منه، وهى تنقيه، فسلمنا عليها. وكان فى جملة أصحابى قارىء يقرأ القرآن على طبقة المصريين بطريقة حسنة وصوت طيب، فقرأ، ثم أمرت أن يؤتى بالقمز، فأُتِيَ به فى أقداح خشب لطاف خفاف فأخذت القدح بيدها وناولتنى إياه وتلك نهاية الكرامة عندهم، ولم أكن شربت القمز قبلها ولكن لم يمكنى إلا قبوله وذقته ولا خير فيه، ودفعته لأحد أصحابى وسألتنى عن كثير من حال سفرنا، فأجبناها ثم انصرفنا عنها وكان ابتداؤنا بها لأجل عظمتها عند الملك.

أما الخاتون التى تلى الملكة فكان اسمها كبك خاتون (بفتح الكاف الأولى وكسر الباء الموحدة) ومعناها بالتركية النخالة، وهى بنت الأمير نَغَطَيْ (واسمه بنون وغين معجمة وطاء مهملة مفتوحات وياء مسكنة)، وأبوها حى مبتلى بعلة النقرس(١)، وقد رأيته فى غد دخولنا على الملكة. دخلنا على هذه الخاتون فوجدناها على مرتبة تقرأ فى المصحف الكريم، وبين يديها نحو عشرين من النساء القواعد، ونحو عشرين من البنات يطرزن ثيابًا، فسلمنا عليها، وأحسنت فى السلام والكلام وقرأ قارئنا فاستحسنته، وأمرت بالقمز فأحضر وناولتنى القدح بيدها كمثل ما فعلته الملكة، وانصرفنا عنها.

وأما الخاتون الثالثة فكان اسمها بَيَلُون (بباء موحدة وآخر الحروف كلاهما مفتوح ولام مضموم وواو مد ونون) وهى بنت ملك القسطنطينية العظمى السلطان تكفور ودخلنا على هذه الخاتون، وهى قاعدة على سرير

(١) النقرس: مرض مؤلم يحدث فى مفاصل القدم وفى إبهامها أكثر، وهو ما كان يسمى: داء الملوك. الوجيز ص(٦٣٠).

مرصع، قوائمه فضة وبين يديها نحو مائة جارية روميات وتركيات ونوبيات، منهن قائمات وقاعدات، والفتيان على رأسها، والحجاب بين يديها من رجال الروم فسألت عن حالنا ومقدمنا وبُعد أوطاننا، وبكت ومسحت وجهها بمنديل كان بين يديها، رقة منها وشفقة وأمرت بالطعام فأحضر وأكلنا بين يديها، وهى تنظر إلينا. ولما أردنا الانصراف قالت: لا تنقطعوا عنا، وترددوا إلينا وطالبونا بحوائجكم وأظهرت مكارم الأخلاق وبعثت فى أثرنا بطعام وخبز كثير وسمن وغنم ودراهم وكسوة جيدة وثلاثة من جياد الخيل وعشرة من سائرها ومع هذه الخاتون كان سفرى إلى القسطنطينية العظمى، كما نذكره بعد.

وكانت الخاتون الرابعة أُرْدُوجا (بضم الهمزة وإسكان الراء وضم الدال المهمل وجيم وألف) "وأردو" بلسانهم المحلة وسميت بذلك لولادتها فى المحلة، وهى بنت الأمير الكبير عيسى بك أمير الأُلُوس (بضم الهمزة واللام) ومعناه أمير الأمراء وأدركته حيًّا، وهو متزوج ببنت السلطان إيت كجك وهذه الخاتون من أفضل الخواتين وألطفهن شمائل وأشفقهن وهى التى بعثت إلى لما رأت بيتى على التل عند جواز المحلة كما قدمناه، ودخلنا عليها، فرأينا من حسن خلقها وكرم نفسها ما لا مزيد عليه، وأمرت بالطعام فأكلنا بين يديها، ودعت بالقمز فشرب أصحابنا وسألت عن حالنا فأجبناها ودخلنا إلى أختها زوجة الأمير على بن أرزق.

وكانت للسلطان المعظم أوزبك ابنة اسمها إيت كجُك وإيت (بكسر الهمزة وياء مد وتاء مثناة) وكجك (بضم الكاف وضم الجيم) ومعنى اسمها الكلب الصغير، فإن إيت هو الكلب وكجك هو الصغير، وقد قدمنا أن الترك يسمون بالفأل، كما تفعل العرب. وتوجهنا إلى هذه الخاتون بنت الملك، وهى فى محلة منفردة على نحو ستة أميال من محلة والدها فأمرت بإحضار الفقهاء والقضاة والسيد الشريف ابن عبد الحميد وجماعة الطلبة المشايخ والفقهاء[1] وحضر زوجها الأمير عيسى الذى بنته زوجة السلطان فقعد معها

(١) كذا فى الأصل بتكرار كلمة الفقهاء التى ذكرت فى بداية الجملة.

على فراش واحد وهو معتل بالنقرس، فلا يستطيع التصرف على قدميه، ولا ركوب الفرس، وإنما يركب العربة، وإذا أراد الدخول على السلطان أنزله خدامه وأدخلوه إلى المجلس محمولاً. وعلى هذه الصورة رأيت أيضًا الأمير نغطى، وهو أبو الخاتون الثانية وهذه العلة فاشية فى هؤلاء الأتراك، ورأينا من هذه الخاتون بنت السلطان من المكارم وحسن الأخلاق ما لم تره من سواها وأجزلت الإحسان وأفضلت جزاها الله خيراً.

وكان للسلطان ولدان شقيقان، وأمهما جميعًا الملكة طَيْطُغْلى التى قدمنا ذكرها، والأكبر منهما اسمه تينَ بك (بتاء معلوة مكسورة وياء مد ونون مفتوح)، وبك معناه الأمير، وتين معناه الجسد. فكأن اسمه أمير الجسد. واسم أخيه جَانِ بك (بفتح الجيم وكسر النون)، ومعنى جَان الروح، فكأنه يسمى أمير الروح. وكل واحد منهما له محلة على حدة. وكان تين بك من أجمل خلق الله صورة. وعهد له أبوه بالملك. وكانت له الحظوة والتشريف عنده. ولم يرد الله ذلك، فإنه لما مات أبوه ولى يسيراً، ثم قتل لأمور قبيحة جرت له. وولى أخوه جَان بك، وهو خير منه وأفضل. وكان السيد الشريف ابن عبد الحميد هو الذى تولى تربية جَانِ بك وأشار علىَّ هو والقاضى حمزة والإمام بدر الدين القوامى والإمام المقرى حسام الدين البخارى وسواهم حين قدومى أن يكون نزولى بمحلة جانِ بك المذكور لفضله، ففعلت ذلك.

ذكر سفرى إلى مدينة بلغار

وكنت سمعت بمدينة بلغار فأردت التوجه إليها لأرى ما ذكر عنها من انتهاء قصر الليل بها وقصر النهار أيضاً، فى عكس ذلك الفصل. وكان بينها وبين محلة السلطان مسيرة عشر. فطلبت منه من يوصلنى إليها فبعث معى من أوصلنى إليها وردنى إليه. ووصلتها فى رمضان، فلما صلينا المغرب، أفطرنا. وأذّن بالعشاء فى أثناء إفطارنا، فصليناها وصلينا التراويح والشفع والوتر. وطلع الفجر إثر ذلك وكذلك يقصر النهار بها فى فصل قصره أيضًا. وأقمت بها ثلاثًا.

ذِكْرُ أرضِ الظلمةِ

وكنت أردت الدخول إلى أرض الظلمة، والدخول إليها من بلغار، وبينهما أربعون يومًا. ثم أضربت عن ذلك لعظم المؤونة فيه وقلة الجدوى. والسفر إليها لا يكون إلا فى عجلات صغار تجرها كلاب كبار. فإن تلك المفازة فيها الجليد، فلا يثبت قدم الآدمى ولا حافر الدابة فيها. والكلاب لها الأظفار، فتثبت أقدامها فى الجليد. ولا يدخلها إلا الأقوياء من التجار الذين يكون لأحدهم مائة عجلة أو نحوها مُوقرة بطعامه وشرابه وحطبه. فإنها لا شجر فيها ولا حجر ولا مدر. والدليل بتلك الأرض هو الكلب الذى قد سار فيها مرارًا كثيرة، وتنتهى قيمته إلى ألف دينار ونحوها، وتربط العربة إلى عنقه، ويقرن معه ثلاثة من الكلاب. ويكون هو المقدم، تتبعه سائر الكلاب بالعربات. فإذا وقف وقفت. وهذا الكلب لا يضربه صاحبه ولا ينهره، وإذا حضر الطعام أطعم الكلاب أولاً قبل بنى آدم، وإلا غضب الكلب وفر وترك صاحبه للتلف. فإذا كملت للمسافرين بهذه الفلاة أربعون مرحلة، نزلوا عند الظلمة، وترك كل واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك، وعادوا إلى منزلهم المعتاد. فإذا كان من الغد عادوا لتفقد متاعهم، فيجدون بإزائه من السمور والسنجاب والقاقم، فإن أرضى صاحب المتاع ما وجده إزاء متاعه أخذه وإن لم يرضه تركه. فيزيدونه، وربما رفعوا متاعهم، أعنى أهل الظلمة، وتركوا متاع التجار. وهكذا بيعهم وشراؤهم. ولا يعلم الذين يتوجهون إلى هنالك من يبايعهم ويشاريهم، أمن الجن هو أم الإنس. ولا يرون أحدًا. والقاقم هو أحسن أنواع الفراء. وتساوى الفروة منه ببلاد الهند ألف دينار، وصرفها من ذهبنا مائتان وخمسون. وهى شديدة البياض، من جلد حيوان صغير فى طول الشبر، وذنبه طويل يتركونه فى الفروة على حاله. والسمور دون ذلك. تساوى الفروة منه أربعمائة دينار فما دونها. ومن خاصية هذه الجلود أنه لا يدخلها القمل. وأمراء الصين وكبارها يجعلون منه الجلد الواحد متصلاً بفرواتهم عند العنق. وكذلك تجار فارس والعراقين. وعدت من مدينة بلغار مع الأمير الذى بعثه السلطان فى صحبتى، فوجدت محلة السلطان على

الموضع المعروف ببش دغ، وذلك فى الثامن والعشرين من رمضان. وحضرت معه صلاة العيد، وصادف يوم العيد يوم الجمعة.

ولما كان صباح يوم العيد ركب السلطان فى عساكره العظيمة، وركبت كل خاتون عربتها ومعها عساكرها، وركبت بنت السلطان والتاج على رأسها، إذ هى الملكة على الحقيقة، ورثت الملك من أمها، وركب أولاد السلطان، كل واحد فى عسكره. وكان قد قدم لحضور العيد قاضى القضاة شهاب الدين السايلى، ومعه جماعة من الفقهاء والمشايخ، فركبوا وركب القاضى حمزة والإمام بدر الدين القوامى والشريف ابن عبد الحميد. وكان ركوب هؤلاء الفقهاء مع تين بك ولى عهد السلطان، ومعهم الأطبال والأعلام. فصلى بهم القاضى شهاب الدين وخطب أحسن خطبة. وركب السلطان، وانتهى إلى برج خشب يسمى عندهم الكشك، فجلس فيه ومعه خواتينه، ونصب برج ثانٍ دونه، فجلس فيه ولى عهده وابنته صاحبة التاج. ونصب برجان دونهما عن يمينه وشماله، فيهما أبناء السلطان وأقاربه. ونصبت الكراسى للأمراء وأبناء الملوك، وتسمى الصندليات، عن يمين البرج وشماله، فجلس كلٌّ واحدٍ على كرسيه. ثم نصبت طبلات للرمى، لكل أمير طومان طبلة مختصة به، وأمير طومان عندهم هو الذى يركب له عشرة آلاف. فكان الحاضرون من أمراء طومان سبعة عشر، يقودون مائة وسبعين ألفًا، وعسكره أكثر من ذلك. ونصب لكل أمير شبه منبر فقعد عليه، وأصحابه يلعبون بين يديه. فكانوا على ذلك ساعة. ثم أتى بالخلع، فخلعت على كل أمير خلعة(١)، وعندما يلبسها يأتى إلى أسفل برج السلطان فيخدم، وخدمته أن يمس الأرض بركبته اليمنى، ويمد رجله تحتها، والأخرى قائمة ثم يؤتى بفرس مسرج ملجم، فيرفع حافره، ويقبل فيه الأمير، يقوده بنفسه إلى كرسيه. وهنالك يرتبه ويقف مع عسكره. ويفعل هذا الفعل مع كل أمير منهم.

ثم ينزل السلطان عن البرج ويركب الفرس، وعن يمينه ابنه ولى

---

(١) يُقال: خلع عليه خلعة: أعطاه أو ألبسه إياها. الوجيز ص(٢٠٨).

العهـد، وتليه بـنته الملكة إيت كـجك، وعن يساره ابنه الثـانى، وبين يديه الخـواتين الأربع فى عربات مـكسوة بأثواب الحـرير المذهب، والخـيل التى تجرها مجللة(١) بالحرير المذهب. وينزل جميع الأمراء الكبار والصغار وأبناء الملوك والوزراء والحجـاب وأرباب الدولة، فيمـشون بين يدى السلطان على أقـدامهم، إلى أن يصل إلى الوطـاق، والوِطاق (بكسر الواو) هو إفـراج. وقد نصبت هنالـك باركة (باركاه) عظيمة، والبـاركة عندهم بيت عظيم له أربعة أعـمدة من الخشـب مكسوة بصفـائح الفضة الممـوهة بالذهب، وفى أعلى كل عمـود جامـور من الفضة المذهبـة له بريق وشعـاع، وتظهر هذه الباركـة على البعد كأنهـا ثنية(٢). ويوضع عن يمينها ويسـارها سقائف من القطن والكتان، ويفرش ذلك كله بفـرش الحرير، وينصب فى وسط الباركة السرير الأعظـم، وهم يسمونه التـخت، وهو من خشب مـرصع، وأعواده مكسوة بصفائح فـضة مذهبة، وقوائمه من الفضة الخالـصة المموهة، وفوقه فرش عظيم وفى وسط هذا السرير الأعظم مـرتبة يجلس السلطان والخاتون الكبرى عليها، وعن يمينه مرتبة جلست بهـا ابنته إيت كجك ومعها الخاتون أردوجا، وعن يساره مرتبة جلست بها الخـاتون بيلون ومعها الخاتون كبك، ونصب عن يمين السرير كرسى قعد عليه تين بك ولد السلطان، ونصب عن شماله كرسـى قعد عليه جان بك ولده الثانى، ونصـبت كراسى عن اليمين والشمـال جلس فوقها أبناء الملوك الكبـار، ثم الأمراء الصغار، مـثل أمراء هزارة، وهم الذين يـقـودون ألفًـا. ثم أتى بالطعـام علـى مـوائد الذهب والفضة، وكلُّ مائـدة يحملها أربعة رجال وأكثر من ذلـك. وطعامهم لحوم الخيل والغنم مـسلوقة، وتوضع بين يدى كل أمير مـائدة، ويأتى الباروجى، وهو مقطع اللحم، وعـليه ثياب حـرير، وقد ربط عليه فـوطة حرير، وفى حزامه جملة سكاكين فى أغمـادها. ويكون لكل أمير باروجى. فإذا قدمت المائدة قعد بين يدى أميره. ويؤتى بصحفة صغيرة من الذهب أو الفضة فيها

(١) جلل الشىء: عمه وغطاه. الوجيز ص(١١٢).

(٢) الثنية: الطريق فى الجبل. الوجيز ص(٨٩).

ملح محلول بالماء، فيقطع الباروجى اللحم قطعًا صغارًا ولهم فى ذلك صنعة فى قطع اللحم مختلطًا بالعظم، فإنهم لا يأكون منه إلا ما اختلط بالعظم. ثم يؤتى بأوانى الذهب والفضة للشرب، وأكثر شربهم نبيذ العسل. وهم حنفية المذهب، يحللون شرب النبيذ. فإذا أراد السلطان أن يشرب، أخذت ابنته القدح بيدها، وخدمت برجلها، ثم ناولته القدح فشرب. ثم تأخذ قدحًا فتناوله للخاتون الكبرى، فتشرب منه. ثم تناول لسائر الخواتين على ترتيبهن، ثم يأخذ ولى العهد القدح، ويخدم ويناوله إياه فيشرب. ثم الخواتين ثم أخته، ويخدم جميعهن. ثم يقوم الولد الثانى فيأخذ القدح ويسقى أخاه ويخدم له. ثم يقوم الأمراء الكبار، فيسقى كل واحد منهم ولى العهد ويخدم له، ثم يقوم أبناء الملوك، ويغنون أثناء ذلك بالموالية. وكانت قد نصبت قبة كبيرة أيضًا إزاء المسجد للقاضى والخطيب والشريف وسائر الفقهاء والمشايخ وأنا معهم، فأوتينا بموائد الذهب والفضة يحمل كل واحدة أربعة من كبار الأتراك. ولا يتصرف فى ذلك اليوم بين يدى السلطان إلا الكبار، فيأمرهم برفع ما أراد من الموائد إلى من أراد. فكان من الفقهاء من أكل، ومنهم من تورع عن الأكل فى موائد الفضة والذهب. ورأيت مد البصر عن اليمين والشمال من العربات عليها روايا القمزّ. فأمر السلطان بتفريقها على الناس. فأتوا إلى بعربة منها، فأعطيتها لجِيرانى من الأتراك. ثم أتينا المسجدَ ننتظر صلاة الجمعة، فأبطأ السلطان. فمن قائل: إنه لا يأتى. لأن السكر قد غلب عليه، ومن قائل: إنه لا يترك الجمعة. فلما كان بعد تمكن الوقت أتى وهو يتمايل، فسلم على السيد الشريف، وتبسم له، وكان يخاطبه بآطا، وهو الأب بلسان التركية. ثم صلينا الجمعة، وانصرف الناس إلى منازلهم. وانصرف السلطانُ إلى الباركة، فبقى على حاله إلى صلاة العصر. ثم انصرف الناس أجمعون وبقى مع الملك تلك الليلة خواتينه وبنته.

ثم كان رحيلنا مع السلطان والمحلة لما انقضى العيد، فوصلنا إلى مدينة الحاج تَرْخَانَ، ومعنى ترخان عندهم الموضع المحرر من المغارم، (وهو بفتح

المثناة وسكون الراء وبفتح الخاء المعجم وآخره نون)، والمنسوب إليه هذه المدينة هو حاج من الصالحين تركى نزل بموضعـها، وحرر له السلطان ذلك الموضع. فصار قرية عظمت وتمدنت. وهى من أحسن المدن عظيمة الأسواق مبنية على نهر أتل، وهو من أنهار الدنيا الكبار. وهنالك يقـيم السلطان حتى يشتد البرد ويجمـد هذا النهر وتجمـد المياه المتصلة بـه، ثم يأمر أهل تلك البلاد فـيأتون بالآلاف من أحمـال التبن، فيجعلونهـا على الجليد المنعقد فـوق النهر. والتبن هنالك لا تأكله الدواب لأنه يضرها، وكذلك ببلاد الهند، وإنما أكلها الحشيش الأخضر لخصب الـبلاد. ويسافرون بالعربات فوق هذا النهـر والمياه المتصلة به ثلاث مراحل، وربما جـازت القوافل فوقـه مع آخر فصل الشـتاء، فيغـرقون ويهلكون. ولما وصلنا مدينة الحاج ترخان رغبت الخاتون بيلون ابنة ملك الروم من السلطان أن يأذن لها فى زيارة أبيـها لتضع حملها عنده وتعـود إليه، فأذن لها. ورغبت منه أن يأذن لى فى التوجه صحبتها لمشاهدة القسطنطينية العظمى فمنعنى خوفًا علىَّ فلاطفتـه وقلت له: إنما أدخلها فى حرمتك وجوارك، فلا أخاف من أحد. فـأذن لى وودعناه. ووصلنى بألف وخمسمـائة دينار وخلعة وأفراس كـثيرة. وأعـطتنى كل خاتون منهن سـبائك الفضـة، وهم يسمـونها بصَوم (بفـتح الصاد المهـمل)، واحدتهـا صومـة. وأعطت ابنته أكثـر منهن، وكستنى وأركبـتنى واجتمع لى من الخيل والثياب. وفـروات السنجاب والسمور جملة.

التوجه إلى القسطنطينية

وسافرنا فى العاشر من شوال فى صحـبةِ الخاتون بيلون وتحت حرمتها، ورحل السلطان فى تشييـعها مرحلة، ورجع هو والملكة وولى عهـده، وسافر سائر الخواتين فى صـحبتها مرحلة ثانية ثم رجعن، وسافـر صحبتهـا الأمير بيدره فى خـمسة آلاف مـن عسكره. وكان عـسكر الخاتون نحـو خمسـمائة فارس، منهم خدامـها من المماليك والروم نحو مائتين، والبـاقون من الترك. وكان معها من الجوارى نحو مائتين، وأكثرهن روميات. وكان لها من العربات

نحو أربعمائة عربة، ونحو ألفى فرس لجرها وللركوب، ونحو ثلاثمائة من البقر، ومائتين من الجمال لجرها. وكان معها من الفتيان الروميين عشرة، ومن الهنديين مثلهم. وقائدهم الأكبر يسمى بسنبل الهندى، وقائد الروميين ويسمى بميخائيل، ويقول له الأتراك لؤلؤ، وهو من الشجعان الكبار. وتركت أكثر جواريها وأثقالها بمحلة السلطان إذ كانت قد توجهت برسم الزيارة ووضع الحمل.

وتوجهنا إلى مدينة أُكَك، وهى (بضم الهمزة وفتح الكاف الأولى) مدينة متوسطة حسنة العمارة كثيرة الخيرات شديدة البرد. وبينها وبين السرا حضرة السلطان مسيرة عشر، وعلى مسيرة يوم من هذه المدينة جبال الروس، وهم نصارى شقر الشعور زرق العيون قباح الصور أهل غدر، وعندهم معادن الفضة. ومن بلادهم يؤتى بالصوم، وهى سبائك الفضة التى تباع وتشترى فى هذه البلاد، ووزن الصومة منها خمس أواق.

ثم وصلنا بعد عشر من هذه المدينة إلى مدينة سُرْدَق (وضبط اسمها بضم السين المهمل وسكون الراء وفتح الدال المهمل وآخره قاف). وهى من مدن دشت قفجق على ساحل البحر، ومرساها من أعظم المراسى وأحسنها، وبخارجها البساتين والمياه. وينزلها الترك. وطائفة من الروم تحت ذمتهم، وهم أهل الصنائع، وأكثر بيوتها خشب، وكانت هذه المدينة كبيرة، فخرب معظمها بسبب فتنة وقعت بين الروم والترك. وكانت الغلبة للروم. فانتصر للترك أصحابهم، وقتلوا الروم شر قتلة، ونفوا أكثرهم، وبقى بعضهم تحت الذمة إلى الآن. وكانت الضيافة تحمل إلى الخاتون فى كل منزل من تلك البلاد من الخيل والغنم والبقر والدوقى والقمز وألبان البقر والغنم. والسفر فى هذه البلاد مضحىً ومعشىً(١). وكل أمير بتلك البلاد يصحب الخاتون بعساكره إلى آخر حد بلاده، تعظيمًا لها، لا خوفًا عليها، لأن تلك البلاد آمنة. ثم وصلنا إلى البلدة المعروفة باسم بابا سلطوق، وبابا

(١) يعنى: فى وقت الضحى ووقت العشى.

عندهم بمعناه عند البـربر سواء، إلا أنهم يفـخمـون الباء وسَلْطُوق (بـفتح السين المهمل وإسكـان اللام وضم الطاء المهمل وآخره قـاف)، ويذكرون أن سلطوق هذا كان مكاشفًا، لكن يذكر عنه أشياء ينكرها الشرع. وهذه البلاد آخر بلاد الأتراك، بينها وبين أول عمالة الروم ثمانية عشر يومًا فى برية غير معـمورة، منها ثمـانية أيام لا ماء بهـا يتزود لها المـاء، ويحمل فى الروايا والقرب على العـربات، وكان دخولنا إليـها فى أيام البـرد، فلم نحتج إلى كثـير من الماء. والأتراك يرفعـون الألبان فى القرب، ويخلـطونها بالدوقى المطبـوخ ويشربونهـا فلا يعطشـون. وأخذنا من هذه البلـدة فى الاستـعداد للبـرية، واحتجـت إلى زيادة أفراس، فأتـيت الخاتون، فأعـلمتهـا بذلك. وكنت أسلم عليهـا صباحًا ومـساء ومتى أتتهـا ضيافة تبـعث إلى بالفرسين والثلاثة وبالغنم. فكنت أترك الخيل لأذبحهـا. وكان من معى من الغلمان، والخدم يأكلـون مع أصحابنا الأتـراك، فاجتـمع لى نحو خـمسين فـرسًا. وأمرت لى الخاتون بخمسة عشر فـرسًا، وأمرت وكيلها ساروجة الرومى أن يختارها سمانًا من خيل المطبخ. وقالت: لا تخف، فإن احتجت إلى غيرها زدناك. ودخلنا البرية فى منتـصف ذى القعدة. فكان سيـرنا من يوم فارقنا السلطان إلى أول البرية تسعة عشر(١) يومًا وإقامتنا خمسة. ورحلنا من هذه البرية ثمانية عشر يومًا مضحى ومعشى، وما رأينا إلا خيرًا والحمد لله.

ثم وصلنا بعد ذلك إلى حصن مَهْتُولِى، وهو أول عمالة الروم (وضبط اسمه بفتح الميم وسكون الهـاء وضم التاء المعلوة وواو مد ولام مكسورة وياء) وكانت الروم قـد سمعـت بقدوم هذه الخاتون على بلادها، فـوصلنا إلى هذا الحصن فاستقـبلنا كفالى نقوله الرومى، فى عسكر وضيافـة عظيمة. وجاءت الخواتين والدايات من دارأبيها ملك القسطنطينيـة. وبين مهتولى والقسطنطينية مسيـرة اثنين وعشرين يومًا، منها سـتة عشر يومًا إلى الخـليج، وستة منه إلى القسطنطينية. ولا يسـافر من هذا الحصن إلا بالخيل والبغـال، وتترك العربات

---

(١) وفى نسخة: «تسعة وعشرين».

به، لأجل الوعر والجبال. وجاء كفالى المذكور ببغال كثيرة، وبعثت إلى الخاتون بستة منها، وأوصت أمير ذلك الحصن بمن تركته من أصحابى وغلمانى مع العربات والأثقال، فأمر لهم بدار. ورجع الأمير بيدرة بعساكره، لم يسافر مع الخاتون إلا ناسها، وتركت مسجدها بهذا الحصن، وارتفع حكم الأذان. وكان يؤتى إليها بالخمور فى الضيافة فتشربها وبالخنازير، وأخبرنى بعض خواصها أنها أكلتها. ولم يبق معها من يصلى إلا بعض الأتراك كان يصلى معنا. وتغيرت البواطن لدخلونا فى بلاد الكفر، ولكن الخاتون أوْصَت الأمير كفالى بإكرامى. ولقد ضرب مرة بعض مماليكه لما ضحك من صلاتنا. ثم وصلنا حصن مسلمة بن عبد الملك، وهو بسفح جبل على نهر زخار، يقال له: اصطقيلى، ولم يبق من هذا الحصن إلا آثاره، وبخارجه قرية كبيرة، ثم سرنا يومين، ووصلنا إلى الخليج الثانى، وعلى ساحله قرية كبيرة فوجدنا فيه المد، فأقمنا حتى كان الجزر، وخضناه، وعرضه نحو ميلين. ومشينا أربعة أميال فى رمال، ووصلنا الخليج الثالث، وقد ابتدأ المد، فتبعنا فيه، وعرضه ميل واحد. فعرض الخليج كله مائيه ويابسه اثنا عشر ميلاً، وتصير ماءً كُلُّهَا فى أيام المطر، فلا تخاض إلا فى القوارب.

وعلى ساحل هذا الخليج الثالث مدينة الفَنِيكة (واسمها بفاء مفتوحة ونون وياء مد وكاف مفتوح)، وهى صغيرة، لكنها حسنة مانعة، وكنائسها وديارها حسان، والأنهار تخرقها والبساتين تحفها، ويدخر بها العنب والإجاص والتفاح والسفرجل من السنة إلى الأخرى. وأقمنا بهذه المدينة ثلاثًا. والخاتون فى قصر لأبيها هنالك، ثم قدم أخوها شقيقها اسمه كفالى قراس فى خمسة آلاف فارس شاكى السلاح(١)، ولما أرادو القاء الخاتون ركب أخوها المذكور فرسًا أشهب(٢)، ولبس ثيابًا بيضًا، وجعل على رأسه مظللاً مكللاً بالجواهر، وجعل عن يمينه خمسة من أبناء الملوك، وعن يساره مثلهم، لابسين البياض أيضًا، وعليهم مظلات مزركشة بالذهب، وجعل

---

(١) شاكى السلاح: تام السلاح كامل الاستعداد، مثل: شائك السلاح. الوجيز ص(٣٤٩).
(٢) الأشهب: الأبيض الذى خالطه سواد. الوجيز ص(٣٥٢).

بين يديه مائة من المشائين ومائة فارس، قد أسبغوا الدروع على أنفسهم وخيلهم، وكل واحد منهم يقود مسرجًا مدرعًا عليه شكة فارس من البيضة المجوهرة والدروع والتركش والقوس والسيف، وبيده رمح فى طرف رأسه راية. وأكثر تلك الرماح مكسوة بصفائح الذهب والفضة. وتلك الخيل المقودة هى مراكب ابن السلطان. وقسم فرسانه على أفواج. كل فوج مائتا فارس، لهم أمير قد قدم أمامه عشرة من الفرسان شاكى السلاح، وكل واحد منهم يقود فرسًا، وخلفه عشر من العلامات ملونة بأيدى عشرة من الفرسان، وعشرة أطبال يتقلدها عشرة من الفرسان، ومعهم ستة يضربون الأبواق والأنفار والصرنايات، وهى الغيطات. وركبت الخاتون فى مماليكها وجواريها وفتيانها وخدامها، وهم نحو خمسمائة، عليهم ثياب الحرير المزركشة بالذهب المرصعة، وعلى الخاتون حلة يقال لها: النخ، ويقال لها أيضًا: النسيج، مرصعة بالجوهر، وعلى رأسها تاج مرصع، وفرسها مجلل بحرير مزركش بالذهب، وفى يده ورجليه خلاخل الذهب، وفى عنقه قلائد مرصعة ومعظم السرج مكسو ذهبًا، مكلل جوهرًا. وكان التقاؤهما فى بسيط من الأرض على نحو ميل من البلد. وترجل لها أخوها لأنه أصغر سنًّا منها، وقبّل ركابها، وقبلت رأسه. وترجل الأمراء وأولاد الملوك، وقبلوا جميعًا ركابها، وانصرفت مع أخيها. وفى غد ذلك اليوم وصلنا إلى مدينة كبيرة على ساحل البحر، لا نثبت الآن اسمها، ذات أنهار وأشجار، نزلنا بخارجها. ووصل أخو الخاتون ولى العهد فى ترتيب عظيم وعسكر ضخم من عشرة آلاف مدرع، وعلى رأسه تاج، وعن يمينه نحو عشرين من أبناء الملوك، وعن يساره مثلهم، وقد رتب فرسانه على ترتيب أخيه سواء، إلا أن الحفل أعظم، والجمع أكثر. وتلاقت معه أخته فى مثل زيها الأول، وترجلا جميعًا. وأتى بخباء حرير فدخلا فيه. فلا أعلم كيفية سلامهما، ونزلنا على عشرة أميال من القسطنطينية. فلما كان بالغد خرج أهلها من رجال ونساء وصبيان، ركبانًا ومشاة فى أحسن زى وأجمل لباس، وضربت عند الصبح الأطبال والأبواق والأنفار، وركبت العساكر،

وخرج السلطان وزوجته أم هذه الخاتون وأرباب الدولة والخواص، وعلى رأس الملك رواق يحمله جملة من الفرسان، ورجال بأيديهم عصى طوال، فى أعلى كل عصا شبه كرة من جلد يرفعون بها الرواق، وفى وسط الرواق مثل القبة يرفعها الفرسان بالعصى. ولما أقبل السلطان اختلطت العساكر وكثر العجاج[1]، ولم أقدر على الدخول فيما بينهم، فلزمت أثقال الخاتون وأصحابها، خوفًا على نفسى. وذكر لى أنها لما قربت من أبوابها ترجلت وقبّلت الأرض بين أيديهم، ثم قبلت حافرى فرسيهما وفعل كبار أصحابها مثل فعلها فى ذلك. وكان دخولنا عند الزوال أو بعده إلى القسطنطينية العظمى، وقد ضربوا نواقيسهم[2] حتى ارتجت الآفاق لاختلاط أصواتها ولما وصلنا الباب الأول من أبواب قصر الملك وجدنا به مائة رجل، معهم قائدهم فوق دكانة. وسمعتهم يقولون: سراكنوا سراكنوا، ومعناه المسلمون. ومنعونا من الدخول. فقال لهم أصحاب الخاتون: إنهم من جهتنا. فقالوا: لا يدخلون إلا بإذن. فأقمنا بالباب، وذهب بعض أصحاب الخاتون، فبعث من أعلمها بذلك، وهى بين يدى والدها، فذكرت له شأننا فأمر بدخولنا. وعيّن لنا دارًا بمقربة من دار الخاتون، وكتب لنا أمرًا بأن لا نعترض حيث نذهب من المدينة، ونودى بذلك فى الأسواق، وأقمنا بالدار ثلاثًا، فبعث إلينا الضيافة من الدقيق والخبز والغنم والدجاج والسمن والفاكهة والحوت والدراهم والفرش. وفى اليوم الرابع دخلنا على السلطان.

واسمه تَكْفُور (بفتح المثناة وسكون الكاف وضم الفاء وواو وراء) ابن السلطان جرجيس. وأبوه السلطان جرجيس بقيد الحياة، لكنه تزهد وترهب وانقطع للعبادة فى الكنائس، وترك الملك لولده وسنذكره. وفى اليوم الرابع من وصولنا إلى القسطنطينية بعثت إلىّ الخاتون الفتى سنبل الهندى، فأخذ

---

(١) العجاج: الغبار. الوجيز ص(٤٠٦).

(٢) النواقيس جمع ناقوس، والناقوس: آلة من نحاس ونحوه تضرب للتنبيه، ويضرب به النصارى لأوقات الصلوات. مختار الصحاح ص(٦٧٥)، والوجيز ص(٦٣٠).

بيدى وأدخلنى إلى القصر، فجزنا أربعة أبواب، فى كل باب سقائف بها رجال وأسلحتهم وقائدهم على دكانة مفروشة. فلما وصلنا إلى الباب الخامس تركنى الفتى سنبل ودخل، ثم أتى ومعه أربعة من الفتيان الروميين، ففتشونى لئلا يكون معى سكين، وقال لى القائد: تلك عادة لهم، لا بد من تفتيش كل من يدخل على الملك من خاص أو عام، غريب أو بلدى، وكذلك الفعل بأرض الهند. ثم لما فتشونى قام الموكل بالباب، فأخذ بيدى وفتح الباب، وأحاط بى أربعة من الرجال أمسك اثنان بكمى، واثنان من ورائى فدخلوا بى إلى مشور كبير، حيطانه بالفسيفساء قد نقش فيها صور المخلوقات من الحيوانات والجماد، وفى وسطه ساقية ماء، ومن جهتها الأشجار والناس واقفون يمينًا ويسارًا سكوتًا لا يتكلم أحد منهم، وفى وسط المشور ثلاثة رجال وقوف. أسلمنى أولئك الأربعة إليهم فأمسكوا بثيابى كما فعل الآخرون، وأشار إليهم رجل فتقدموا بى، وكان أحدهم يهوديًّا فقال لى بالعربى: لا تخف، فهكذا عادتهم أن يفعلوا بالوارد، وأنا الترجمانى، وأصلى من بلاد الشام. فسألته كيف أسَلم. فقال: قل السلام عليكم. ثم وصلت إلى قبة عظيمة، والسلطان على سريره، وزوجته أم هذه الخاتون بين يديه، وأسفل السرير الخاتون وإخوتها، وعن يمينه ستة رجال، وعن يساره أربعة، وكلهم بالسلاح. فأشار إلىّ قبل السلام والوصول إليه بالجلوس هنيهة، ليسكن روعى، ففعلت ذلك، ثم وصلت إليه فسلمت عليه، وأشار إلى أن أجلس فلم أفعل. وسألنى عن بيت المقدس، وعن الصخرة المقدسة، وعن القمامة، وعن مهد عيسى، وعن بيت لحم، وعن مدينة الخليل -عليه السلام-، ثم عن دمشق ومصر والعراق وبلاد الروم، فأجبته عن ذلك كله، واليهودى يترجم بينى وبينه. فأعجبه كلامى وقال لأولاده: أكرموا هذا الرجل وأمنوه. ثم خلع علىَّ خلعة، وأمر لى بفرس مسرج ملجم، ومظلة من التى يجعلها الملك فوق رأسه، وهى علامة الأمان. وطلبت منه أن يعين من يركب معى بالمدينة فى كل يوم، حتى أشاهد عجائبها وغرائبها، وأذكرها فى بلادى. فعين لى ذلك. ومن العوائد عندهم أن الذى يلبس خلعة الملك ويركب فرسه يطاف به فى

أسواق المدينة بالأبواق والأنفار والأطبال ليراه الناس وأكثر ما يفعل ذلك بالأتراك الذين يأتون من بلاد السلطان أوزبك لئلا يؤذوا فطافوا بى فى الأسواق.

كانت المدينة متناهية فى الكبر، منقسمة بقسمين بينهما نهر عظيم المد والجزر، على شكل وادى سلا من بلاد المغرب. وكانت عليه فيما تقدم قنطرة مبنية فخربت. وهو الآن يعبر فى القوارب. واسم هذا النهر أَبْسُمِى (بفتح الهمزة وإسكان الباء الموحدة وضم السين المهمل وكسر الميم وياء مد). وأحد القسمين من المدينة يسمى أصْطَنْبول (بفتح الهمزة وإسكان الصاد وفتح الطاء المهملتين وسكون النون وضم الباء الموحدة وواو مد ولام)، وهو بالعدوة الشرقية من النهر، وفيه سكنى السلطان وأرباب دولته وسائر الناس. وأسواقه وشوارعه مفروشه بالصفاح متسعة. وأهلُ كلٍّ صناعةٍ على حدة لا يشاركهم سواهم، وعلى كل سوق أبواب تسد عليه بالليل وأكثر الصناعة والباعة به النساء. والمدينة فى سفح جبل داخل فى البحر نحو تسعة أميال، وعرضه مثل ذلك أو أكثر، وفى أعلاه قلعة صغيرة وقصر السلطان. والسور يحيط بهذا الجبل، وهو مانع لا سبيل لأحد من جهة البحر. وفيه نحو ثلاث عشرة قرية عامرة والكنيسة العظمى هى فى وسط هذا القسم من المدينة. وأما القسم الثانى منها فيسمى الغَلَطَة (بغين معجمة ولام وطاء مهمل مفتوحات) وهو بالعدوة الغربية من النهر، شبيه برباط الفتح فى قربه من النهر. وهذا القسمُ خاصٌّ بنصارى الإفرنج يسكنونه. وهم أصناف، فمنهم الجنويون والبنادقة وأهل رومية وأهل إفرانسة. وحكمهم إلى ملك القسطنطينية، يقدم عليهم منهم من يرتضونه ويسمونه القمص، وعليهم وظيفة فى كل عام لملك القسطنطينية. وربما اسْتَعْصَوْا عليه، فيحاربهم حتى يصلح بينهم البابا. وجميعهم أهل تجارة. ومرساهم من أعظم المراسى، رأيت به نحو مائة جفن من القراقر وسواها من الكبار، وأما الصغار فلا تحصى كثرة. وأسواق هذا القسم حسنة، إلا أن الأقذار غالبة عليها، ويشقها نهر صغير قذر نجس، وكنائسهم لا خير فيها.

إلا أن الكنيسة العظمى -إنما نذكر خارجـها، وأما داخلها فلم أشاهده- كانت تسمى عندهم أَيَاصُـوفِيَا (بفتح الهمزة واليـاء آخر الحروف وألف وصاد مضـموم وواو مـد وفاء مكسورة ويـاء كالأولى وألف)، ويذكر أنهـا من بناء آصف بن برخيـاء، وهو ابن خالة سليـمان -عليه السلام-. وهى من أعظم كنائس الروم، وعليها سـور يطيف به فكأنها مدينة. وأبوابها ثلاثة عـشرة بابًا، ولها حرم هو نحو ميل، عليه باب كبير، ولا يمنع أحد من دخوله. وقد دخلته مع والد الملك الذى يقع ذكره، وهـو شبه مشـور مسطح بالرخام وتشـقه ساقـية تخرج من الكنيسة، لها حائطان مرتفعان نحو ذراع، مصنوعان بالرخام المجزع المنقوش بأحـسن صنعة، والأشجـار منتظمة عن جـهتى الساقـية. ومن باب الكنيسة إلى باب هذا المشور معـرش من الخشب مرتفع، عليه دوالى العنب، وفى أسفله اليـاسمين والرياحين، وخارج باب هذا المشور قـبة خشب كـبيرة وفيـها طـبلات خـشب، يجلس عليهـا خدام ذلك البـاب، وعن يمين القـبة مساطب وحوانيت أكثرها من الخشب، يجلس بها قضاتهم وكتاب دواوينهم. وفى وسط تلك الحوانيت قـبة خشب يصـعد إليهـا على درج خشب، وفيـها كرسى كبيـر مطبق بالملف، يجلس فوقه قاضيهم وسنذكـره، وعن يسار القبة التى على باب هذا المشـور سـوق العطارين. والساقـية الـتى ذكرناها تنقـسم قـسمين أحـدهما يمر بسـوق العطارين، والآخـر يمر بالسوق حـيث القضـاة والكتّاب، وعلى باب الكنيسة سقائف يجلس بها خدامها الذين يقمّون طرقها ويوقدون سـرجها ويغلقـون أبوابها، ولا يدعون أحـدًا بداخلها حتى يسـجد للصليب الأعظم عندهم الذى يزعمـون أنه بقية من الخشبـة التى صلب عليها شبيـه عيسى -عليه السلام-، وهو على باب الكنيـسة، مجـعول فى جعـبة ذهب طولها نحو عشرة أذرع، وقد عرضوا عليها جـعبة مثلها، حتى صات صليبًا. وهذا الباب مصـفح بصفائح الفضة والذهب، وحلقـتاه من الذهب الخالص. وذكر لى أن عدد من بهـذه الكنيسة من الرهبان والقسـيسين ينتهى إلى آلاف، وأن بعضهم من ذرية الحواريين. وأن بداخلها كنيسة مـختصة بالنساء فيها من الأبكار المنقطعات للعـبادة أزيد من ألف. وأما القـواعد من النساء فأكـثر من

ذلك كله. ومن عـادة الملك وأرباب دولتـه وسـائر النـاس أن يأتوا كل يوم صباحًا إلى زيارة هذه الكنيسة، ويأتى إليها البابا مرة فى السنة، وإذا كان على مسيرة أربع من البلد، يخـرج الملك إلى لقائه ويترجل له. وعند دخول المدينة يمشى بين يديه على قـدميه، ويأتيـه صبـاحًا ومسـاء للسلام طوال مـقامـه بالقسطنطينية حتى ينصرف.

نبذة من المانستارات بقسطنطينية

والمانستـار على مثل لفظ المارستان إلا أن نونه مـتقدمة وراءه مـتأخرة، وهو عندهم شبـه الزاوية عند المسلمين، وهذه االمانسـتارات بها كـثيرة فـمنها مانستار عـمره الملك جرجيس والد ملك القسطنطينيـة وسنذكره، وهو بخارج اصطنبول مـقابل الفلطة. ومنهـا مانستـاران خارج الكنيسـة العظمى عن يمين الداخل إليـها وهما فى داخل بسـتان يشـقهمـا نهر مـاء. وأحدهمـا للرجال والآخر للنساء. وفى كلٍّ واحدٍ منهما كنيسة، ويدور بهـما البيوت للمتعبدين والمتـعبدات، وقـد حبس علـىً كل واحد منهـما أحبـاس لكسـوة المتعبـدين ونفقتهم، بناهما أحد الملوك. ومنها مـانستاران عن يسار الداخل إلى الكنيسة العظمى على مـثل هذين الآخـرين، ويطيف بهـا بيوت. وأحـدهمـا يسكنه العميان، والثـانى يسكنه الشيوخ الذين لا يستطيعون الخـدمة، ممن بلغ الستين أو نحوها. ولكل واحـد منهم كسوته ونفـقته من أوقاف مـعينة لذلك. وفى داخل كل مانستـار منها دويرة لتعبد الملـك الذى بناه. وأكثر هؤلاء الملوك إذا بلغ الستين أو السبعين بنى مانستارًا أو لبس المسوح، وهى ثياب الشعر، وقلد الملك، واشتغل بالعبادة حـتى يموت. وهـم يحتفلون فى بناء هذه المانستارات، ويعملونها بالرخام والفسيفـساء، وهى كثيرة بهذه المدينة. ودخلت مع الرومى الذى عينه الملك للركوب معى إلى مـانستار يشقه نهر، وفيه كنيسـة فيها نحو خمسمـائة بكر، عليهن المسوح ورؤوسهن محلوقة فيـها قلانيس اللبد، ولهن جمال فائق، وعليهن أثر العبادة. وقـد قعد صبى على منبر يقرأ لهن الإنجيل بصـوت لم أسمع قط أحسـن منه، وحوله ثمـانية من الصـبيـان على منابر،

ومعهم قسيسهم، فلما قرأ هذا الصبى قرأ صبى آخر. وقال لى الرومى: إن هؤلاء البنات من بنات الملوك، وهبن أنفسهن لخدمة هذه الكنيسة، وكذلك الصبيان القراء، ولهم كنيسة أخرى خارج تلك الكنيسة ودخلت أيضًا إلى كنيسة فى بستان فوجدنا بها نحو خمسمائة بكر أو أزيد وصبيًّا يقرأ لهن على منبر، وجماعة صبيان معه على منابر مثل الأولين، فقال لى الرومى: هؤلاء بنات الوزراء والأمراء يتعبدن بهذه الكنيسة. ودخلت إلى كنائس فيها أبكار من وجوه أهل البلد، وإلى كنائس فيها العجائز والقواعد من النساء، وإلى كنائس فيها الرهبان، يكون فى الكنيسة منها مائة رجل أو أكثر أو أقل، وأكثر هذه المدينة رهبان ومتعبدون وقسيسون. وكنائسها لا تحصى كثرة. وأهل المدينة من جندى وغيره صغير وكبير يجعلون على رؤوسهم المظلات الكبار شتاء وصيفًا، والنساء لهن عمائم كبار.

وقد ولّى الملك المترهب جرجيس الملك لابنه، وانقطع للعبادة، وبنى مانستارًا كما ذكرناه خارج المدينة على ساحلها. وكنت يوما مع الرومى المعين للركوب معى فإذا بهذا الملك ماش على قدميه، وعليه المسوح وعلى رأسه قلنسوة لبد، وله لحية بيضاء طويلة ووجهه حسن عليه أثر العبادة، وخلفه وأمامه من الرهبان،وبيده عكاز، وفى عنقه سبحة. فلما رآه الرومى نزل وقال لى: انزل فهذا والد الملك. فلما سلم عليه الرومى سأله عنى، ثم وقف وبعث لى فجئت إليه فأخذ بيدى وقال لذلك الرومى، وكان يعرف اللسان العربى: قل لهذا السراكانوا، يعنى المسلم أنا أصافح اليد التى دخلت بيت المقدس، والرِّجل التى مشت داخل الصخرة والكنيسة العظمى التى تسمى قمامة وبيت لحم، وجعل يده على قدمى ومسح بها وجهه، فعجبت من اعتقادهم فيمن دخل تلك المواضع من غير ملتهم، ثم أخذ بيدى ومشيت معه فسألنى عن بيت المقدس ومن فيه من النصارى، وأطال السؤال، ودخلت معه إلى حرم الكنيسة الذى وصفناه آنفًا. ولما قارب الباب الأعظم خرجت جماعة من القسيسين والرهبان للسلام عليه، وهو من كبارهم فى الرهبانية. ولما رآهم أرسل يدى فقلت له: أريد الدخول معك إلى الكنيسة. فقال للترجمان: قل

له: لا بد لداخلها من السجـود للصليب الأعظم، فإن هذا مما سنته الأوائل، ولا يمكن خلافه، فتركته، ودخل وحده، ولم أره بعدها.

ولما فارقت الملك المترهب المذكور دخلت سـوق الكتاب، فرآنى القاضى فبـعث إلى أحدَ أعوانـه، فسأل الرومى الذى مـعى، فقال له: إنـه من طلبة المسلمين. فلما عـاد إليه وأخبـره بذلك بعث إلى أحد أعوانه، وهم يسـمون القاضى النجشى كفـالى، فقال لى: النجشى كفالى يدعوك، فـصعدت إليه، إلى القبة التى تقدم ذكرها، فرأيت شـيخًا حسن الوجه واللمّة[1]، عليه لباس الرهبان وهو الملف الأسود، وبين يديه نـحو عشرة من الكتاب يكتبـون. فقام إلى وقام أصحابه، وقال: أنـت ضيف الملك، ويجب علينا إكرامك. وسألنى عن بيت المقدس والشام ومصر وأطال الكلام وكثر عليه الازدحام، وقال لى: لا بد لك أن تأتى إلى دارى فأضيفك. فانصرفت عنه، ولم ألقه بعد.

ولما ظهر لمـن كان فى صحـبة الخـاتون من الأتراك أنها على دين أبيـها وراغبة فى المقام معه، طـلبوا منها الإذن فى العودة إلى بلادهم، فأذنت لهم، وأعطتهم عطاء جـزيلاً، وبعثت معـهم من يوصلهم إلى بلادهم أميـراً يسمى ساروجة الصغـير فى خمسمائة فارس، وبحـثت عنى فأعطتنى ثلاثمائة دينار من ذهبهم يسمونه البربرة وليس بالطيب، وألفى درهم بندقية وشقة ملف من عمل البـنات، وهو أجود أنواعه، وعـشرة أثواب من حـرير وكتـان وصوف، وفرسين، وذلك من عطاء أبيـها، وأوصت بى ساروجة وودعتـها وانصرفت. وكانت مدة مقـامى عندهم شهراً وستة أيام. وسافرنا صحـبة ساروجة، فكان يكرمنى، حتى وصلنا إلى آخر بلادهم، حيث تركنا أصحابنا وعرباتنا، فركبنا العربات ودخلنا البـرية، ووصل ساروجة معنا إلى مـدينة بابا سلطوق، وأقام بها ثلاثًا فى الضـيافة، وانصـرف إلى بلاده، وذلك فى اشتـداد البرد، وكنت ألبس ثلاث فروات وسروالين أحدهمـا مبطن، وفى رجلى خف من صوف، وفوقه خـف مبطن بثوب كتـان، وفوقه خف من البرغـالى وهو جلد الفرس

---

(١) اللِّمَّةُ: شعر الرأس المجاوز شحمة الأذن. الوجيز ص(٥٦٥).

مبطن بجلد ذئب، وكنت أتوضأ بالماء الحار بمقربة من النار، فما تقطر من الماء قطرة إلا جمدت لحينها. وإذا غسلت وجهى بالماء إلى لحيـتى فيجمد فأحركها فيـسقط منهـا شبه الثلج، والمـاء الذى ينزل من الأنف يجمـد على الشارب، وكنت لا أستطيع الركوب لكثرة ما على من الثياب حتى يركبنى أصحابى.

ثم وصلت إلى مـدينة الحـاج ترخـان حـيث فارقـنا السلطان أوزبك، فوجدناه قد رحل واسـتقر بحضرة ملكه؛ فسافـرنا على نهر أتل وما يليه من المياه ثلاثًا وهى جامـدة. وكنا إذا احتجنا الماء قطعنا قطعًا مـن الجليد وجعلناه فى القدرة حتى يصـير ماء، فنشرب منه ونطبخ به. ووصلنـا إلى مدينة السَرَا (وضبط اسمهـا بسين مهمل وراء مفتوحة وألـف)، وتعرف بسرا بركة، وهى حضرة السلطان أوزبك. ودخلنا على السلطان فسألنا عن كـيفية سفرنا، وعن ملك الروم ومدينته فأعلمناه. وأمر بإجراء النفقة علينا، وأنزلنا.

ومدينة السرا، من أحسن المدن، مـتناهية الكبر، فى بسيط من الأرض، تغص بأهلها كثرة، حسنة الأسواق، متسعة الشوارع.

وركبنا يومًا مع بعض كبرائها، وغرضنا التطوف عليها ومعرفة مقدارها، وكان منزلنا فى طرف منـها، فركبنا منه غـدوة. فما وصلنا لآخـرها إلا بعد الزوال، فصلينا الظهر، وأكلنا طعامـنا. فما وصلنا إلى المنزل إلا عند المغرب ومشـينا يومًا فى عـرضها ذاهـبين راجعين فى نصف يوم، وذلك فى عـمارة متصلة الـدور لا خراب فيها ولا بسـاتين. وفيها ثلاثة عـشرة مسجـدًا لإقامة الجمعة أحدها للشافعية، وأما المساجد سوى ذلك فكثيرة جدًّا. وفيها طوائف من الناس. منهم المغل، وهم أهل البـلاد والسلاطين، وبعـضهم مـسلمون، ومنهم الآص، وهم مـسلمون، ومنهم القـفجق والجـركس والروس والروم، وهم نصارى، وكل طائفـة تسكن محلة على حـدة، فيها أسـواقها والتـجار والغرباء من أهل العراقين ومصر والشام وغـيرها، ساكنون بمحلة عليها سور، احتياطًا على أموال التجارة.

وقصر السلطان بها يسـمى أَلطُون طَاشْ، وألطون (بفتح الهمزة وسكون

اللام وضم الطاء المهمل وواو مد ونون) ومعناه الذهب، وطاش (بفتح الطاء المهمل وشين معجم) ومعناه حجر وقاضى هذه الحضرة بدر الدين الأعرج من خيار القضاة.

وبها من مدرسى الشافعية الفقيه الإمام الفاضل صدر الدين سليمان اللكزى، أحد الفضلاء، وبها من المالكية شمس الدين المصرى، وهو ممن يطعن فى ديانته وبها زاوية الصالح الحاج نظام الدين، أضافنا بها وأكرمنا، وبها زاوية الفقيه الإمام العالم نعمان الدين الخوارزمى، رأيته بها، وهو من فضلاء المشايخ، حسن الأخلاق كريم النفع شديد التواضع شديد السطوة على أهل الدنيا، يأتى إليه السلطان أوزبك زائراً فى كل جمعة فلا يستقبله ولا يقوم إليه، ويقعد السلطان بين يديه ويكلمه ألطف كلام ويتواضع له، والشيخ بضد ذلك، وفعله مع الفقراء والمساكين والواردين خلاف فعله مع السلطان، فإنه يتواضع لهم ويكلمهم بألطف كلام ويكرمهم، وأكرمنى جزاه الله خيراً، وبعث إلى بغلام تركى، وشاهدت له بركة.

كنت أردت السفر من السرا إلى خوارزم، فنهانى عن ذلك، وقال لى: أقم أياماً وحينئذ نسافر فنازعتنى النفس، ووجدت رفقة كبيرة آخذة فى السفر. فيهم تجار أعرفهم، فاتفقتُ معهم على السفر فى صحبتهم، وذكرت له ذلك فقال لى: لا بد لك من الإقامة. فعزمت على السفر فأبق(١) لى الغلام، وأقمت بسببه. وهذه الكرامات الظاهرة.

ولما كان بعد ثلاث وجد بعض أصحابى ذلك الغلام الآبق بمدينة الحاج ترخان، فجاء به إلى فحينئذ سافرت إلى خوارزم وبينها وبين حضرة السرا صحراء مسيرة أربعين يوماً، لا تسافر فيها الخيل لقلة الكلأ، وإنما تجر العربات بها الجمال، فسرنا من السرا عشرة أيام فوصلنا إلى مدينة سَرَاجُوق وجوق (بضم الجيم المعقود وواو وقاف)، ومعنى جوق صغير. فكأنهم قالوا: سرا الصغيرة، وهى على شاطىء نهر كبير زخار، يقال له: أُلُوصُو

---

(١) أبق الغلام: هرب وفر فهو أبوق وآبق. الوجيز ص(٣).

(بضم الهمزة واللام وواو وضم الصاد المهمل وواو)، ومعناه الماء الكبير، وعليه جسر من قوارب كجسربغداد. وإلى هذه المدينة انتهى سفرنا بالخيل التى تجر العربات، وبعناها بحساب أربعة دنانير دراهم للفرس وأقل من ذلك لأجل ضعفها ورخصها بهذه المدينة، واكترينا الجمال لجر العربات. وبهذه المدينة زاوية لرجل صالح معمر من الترك يقال له أَطَا (بفتح الهمز والطاء المهمل)، ومعناه الوالد، أضافنا بها ودعا لنا. وأضافنا أيضًا قاضيها، ولا أعرف اسمه. ثم سرنا منها ثلاثين يومًا سيرًا جادًا لا ننزل إلا ساعتين: إحداهما عند الضحى، والأخرى عند المغرب، وتكون الإقامة قدر ما يطبخون الدوقى ويشربونه، وهو يطبخ من غلية واحدة، ويكون معهم الخليع من اللحم، يجعلونه عليه، ويصبون عليه اللبن. وكل إنسان إنما ينام أو يأكل فى عربته حال السير. وكان لى فى عربتى ثلاث من الجوارى. من عادة المسافرين فى هذه البرية الإسراع لقلة أعشابها. والجمال التى تقطعها يهلك معظمها، وما يبقى لا ينتفع به إلا فى سنة أخرى، بعد أن يسمن. والماء فى هذه البرية فى مناهل معلومة بعد اليومين والثلاثة، وهو ماء المطر والحسيان(١). ثم لما سلكنا هذه البرية وقطعناها كما ذكرناه، وصلنا إلى خوارزم، وهى أكبر مدن الأتراك وأعظمها وأجملها وأضخمها، لها الأسواق المليحة والشوارع الفسيحة والعمارة الكثيرة والمحاسن الأثيرة. وهى ترتج بسكانها لكثرتهم، وتموج بهم موج البحر. ولقد ركبت بها يومًا ودخلت السوق، فلما توسطته وبلغت منتهى الزحام فى موضع يقال له الشَّهَوْر (بفتح الشين المعجم وإسكان الواو)، لم أستطع أن أجوز ذلك الموضع لكثرة الازدحام، وأردت الرجوع فما أمكننى لكثرة الناس فبقيت متحيرًا، وبعد جهد شديد رجعت. وذكر لى بعض الناس أن تلك السوق

---

(١) الحسَى، والحِسْيُ: السهل من الأرض يستنقع فيه الماء، أو: الرمل المتراكم تحته صلابة، فإذا نزل المطر منع الرملُ حرَّ الشمس أن ينشفه ومنعته الصلابة أن يغور فإذا حفر نبع الماء باردًا عذبًا، كما يحدث فى إقليم الأحساء فى شرقى جزيرة العرب. الوجيز ص(١٥٢).

يخف زحامها يوم الجمعة. وتوجهت إلى المسجد الجامع والمدرسة. وهذه المدينة تحت إمرة السلطان أوزبك. وله فيها أمير كبير يدعى قطلودمور، وهو الذى عمر هذه المدرسة وما معها من المواضع المضافة. وأما الجامع فعمرته زوجته الخاتون الصالحة تُرَابَك (بضم التاء المعلوة بفتح الراء وألف) وبك (بفتح الموحدة والكاف)، وبخوارزم مارستان له طبيب شامى يعرف بالصهيونى، نسبة إلى صهيون من بلاد الشام. ولم أر فى بلاد الدنيا أحسن أخلاقًا من أهل خوارزم، ولا أكرم نفوسًا، ولا أحب فى الغرباء. ولهم عادة جميلة فى الصلاة لم أرها لغيرهم. وهى أن المؤذنين بمساجدها يطوف كل واحد منهم على دور جيران مسجده معلمًا لهم بحضور الصلاة، فمن لم يحضر الصلاة مع الجماعة ضربه الإمام بمحضر الجماعة، وفى كل جامع درة معلقة برسم ذلك، ويغرم خمسة دنانير تنفق فى مصالح الجامع، وأن تطعم للفقراء والمساكين. ويذكرون أن هذه العادة عندهم مستمرة على قديم الزمان. وبخارج خوارزم نهر جيحون أحد الأنهار الأربعة التى من الجنة وهو يجمد فى أوان البرد كما يجمد نهر أتل، ويسلك الناس عليه، وتبقى مدة جموده خمسة أشهر، وربما سلكوا عليه عند أخذه فى الذوبان فهلكوا. ويسافر فيه أيام الصيف بالمراكب إلى ترمذ، ويجلبون منها القمح والشعير، وهى مسيرة عشر للمنحدر. وبخارج خوارزم زاوية مبنية على تربة الشيخ نجم الدين الكبرى، وكان من كبار الصالحين. وفيها الطعام للوارد والصادر، وشيخهم المدرس سيف الدين بن عضبة، من كبار أهل خوارزم، وبها أيضًا زاوية شيخها الصالح المجاور جلال الدين السمرقندى، من كبار الصالحين، أضافنا بها، وبخارجها قبر الإمام العلامة أبى القاسم محمود بن عمر الزمخشرى، وعليه قبة. وزمخشر قرية على مسافة أربعة أميال من خوارزم.

ولما أتيت بهذه المدينة نزلت بخارجها، وتوجه بعض أصحابى إلى القاضى الصدر أبى حفص عمر البكرى، فبعث إلى نائبه نور الإسلام فسلم على، ثم عاد إليه. ثم أتى القاضى فى جماعة من أصحابه فسلم على، وهو

فتىّ السن، كبير الفعال، وله نائبان: أحدهما نور الإسلام المذكور، والآخر نور الدين الكرمانى من كبار الفقهاء، وهو الشديد فى أحكامه، القوى فى ذات الله تعالى.

ولما حصل الاجتماع بالقاضى قال لى: إن هذه المدينة كثيرة الزحام، ودخولكم نهاراً لا يتأتى، وسيأتى إليكم نور الإسلام لتدخلوا معه فى آخر الليل، ففعلنا ذلك. ونزلنا بمدرسة جديدة ليس بها أحد. ولما كان بعد صلاة الصبح أتى إلينا القاضى المذكور، ومعه من كبار المدينة جماعة منهم، مولانا همام الدين، ومولانا زين الدين المقدسى، ومولانا رضى الدين يحيى، ومولانا فضل الله الرضوى، ومولانا جلال الدين العمادى، ومولانا شمس الدين السنجرى إمام أميرها. وهم أهل مكارم وفضائل، والغالب على مذهبهم الاعتزال[1]، لكنهم لا يظهرونه، لأن السلطان أوزبك وأميره على هذه المدينة قطلودمور من أهل السنة. وكنت أيام إقامتى بها أصلى الجمعة مع القاضى أبى حفص عمر المذكور بمسجده، فإذا فرغت الصلاة ذهبت معه إلى داره، وهى قريبة من المسجد، فأدخل معه إلى مجلسه، وهو من أبدع المجالس فيه الفرش الحافلة، وحيطانه مكسوة بالملف، وفيه طيقان كثيرة، وفى كلِّ طاق منها أوانى الفضة المموهة بالذهب، والأوانى العراقية. وكذلك عادة أهل تلك البلاد أن يصنعوا فى بيوتهم، ثم يأتى بالطعام الكثير. وهو من أهل الرفاهية والمال الكثير والرباع. وهو سلف[2] الأمير قطلودمور، متزوج بأخت امرأته، واسمها جيجا أغا. وبهذه المدينة جماعة من الوعاظ والمذكرين، أكبرهم مولانا زين الدين المقدسى، والخطيب مولانا حسام الدين المشاطى الخطيب المصقع أحد الخطباء الأربعة الذين لم أسمع فى الدنيا أحسن منهم.

---

(١) المعتزلة: أولى المدارس الكلامية الكبرى، تؤمن بالعقل، وتحاول التوفيق بينه وبين النقل، وتلجأ إلى التأويل ما وسعها، وفى هذا ما باعد بينها وبين السلف وأهل السنة، أسّسها واصل بن عطاء، ومن أكبر رجالها أبو هذيل وإبراهيم النظام. الوجيز ص(٤١٧).

(٢) السِّلْفُ للرَّجُلِ: زوج أخت امرأته، وجمعه أسلاف. الوجيز ص(٣١٨).

أمير خوارزم

هو الأمير الكبير قُطْلُودُمُور، وقطلو (بضم القاف وسكون الطاء المهمل وضم اللام)، ودمور (بضم الدال المهمل والميم وواو مد وراء)، ومعنى اسمه الحديد المبارك. لأن قطلو هو المبارك ودمور هو الحديد وهذا الأمير ابن خالة السلطان المعظم محمد أوزبك، وأكبر أمرائه، وهو واليه على خراسان. وولده هارون بك متزوج بابنة السلطان المذكور التى أمها الملكة طيطغلى المتقدم ذكرها، وامرأته الخاتون ترابك صاحبة المكارم الشهيرة.

ولما أتانى القاضى مسلمًا علىّ كما ذكرته، قال لى: إن الأمير قد علم بقدومك وبه بقية مرض يمنعه من الإتيان إليك. فركبت مع القاضى إلى زيارته وأتينا داره، فدخلنا مشوراً كبيراً أكثر بيوته خشب، ثم دخلنا مشوراً صغيراً فيه قبة خشب مزخرفة، قد كسيت حيطانها بالملف الملون، وسقفها بالحرير المذهب،والأمير على فرش له من الحرير، وقد غطى رجليه لما بهما من النقرس، وهى علة فاشية فى الترك، فسلمت عليه، وأجلسنى إلى جانبه، وقعد القاضى والفقهاء. وسألنى عن سلطانه الملك محمد أوزبك، وعن الخاتون بيَلون، وعن أبيها، وعن مدينة القسطنطينية، فأعلمته بذلك كله. ثم أتى بالموائد فيها الطعام من الدجاج المشوى والكراكى وأفراخ الحمام وخبز معجون بالسمن يسمونه الكيلجا والكعك والحلوى، ثم أتى بموائد أخرى فيها الفواكه من الرمان المحبب فى أوانى الذهب والفضة، ومعه ملاعق الذهب. وبعضه فى أوانى الزجاج العراقى ومعه ملاعق الخشب، ومن العنب والبطيخ العجيب. ومن عوائد هذا الأمير أن يأتى القاضى فى كل يوم إلى مشوره، فيجلس بمجلس مُعدّ له ومعه الفقهاء وكتابه، ويجلس فى مقابلة أحد الأمراء الكبراء ومعه ثمانية من كبراء أمراء الترك وشيوخهم يسمون الأرغجية (بارغوجى)، ويتحاكم الناس إليهم. فما كان من القضايا الشرعية حكم فيها القاضى، وما كان من سواها حكم فيها أولئك الأمراء وأحكامهم مضبوطة عادلة؛ لأنهم لا يتهمون بميل ولا يقبلون رشوة. ولما عدنا إلى المدرسة بعد الجلوس مع الأمير بعث إلينا الأرز والدقيق والسمن والأبزار وأحمال الحطب.

وتلك البلاد كلها لا يعرف بها الفحم، وكذلك الهند وخراسان وبلاد العجم. وأما الصين فيوقدون فيها حجارة تشتعل فيها النار كما تشتعل فى الفحم، ثم إذا صارت رماداً عجنوه بالماء وجففوه بالشمس وطبخوا بها ثانية كذلك حتى يتلاشى.

وفى بعض أيام الجمع صليت على عادتى بمسجد أبى حفص، فقال لى: إن الأمير أمر لك بخمسمائة درهم، وأمر أن يصنع لك دعوة ينفق فيها خمسمائة درهم أخرى، يحضرها المشايخ والفقهاء والوجوه. فلما أمر بذلك قلت له: أيها الأمير تصنع دعوة يأكل من حضرها لقمة أو لقمتين، لو جعلت له جميع المال كان أحسن له للنفع. فقال: أفعل ذلك. وقد أمر لك بالألف كاملة، ثم بعثها الأمير صحبة إمامه شمس الدين السنجرى فى خريطة يحملها غلامه، وصرفها من الذهب المغربى ثلاثمائة دينار. وكنت قد اشتريت ذلك اليوم فرساً أدهم[1] اللون بخمسة وثلاثين ديناراً دراهم. وركبته فى ذهابى إلى المسجد، فما أعطيت ثمنه إلا من تلك الألف. وتكاثرت عندى الخيل بعد ذلك، حتى انتهيت إلى عدد لا أذكره خيفة مكذب يكذب به، ولم تزل حالى فى الزيادة حتى دخلت أرض الهند. وكانت عندى خيل كثيرة، لكنى كنت أفضل هذا الفرس وأوثره وأربطه أمام الخيل. وبقى عندى إلى انقضاء ثلاث سنين. ولما هلك تغيرت حالى، وبعثت إلى الخاتون جيجا أغا امرأة القاضى مائة دينار دراهم، وصنعت لى أختها ترابك زوجة الأمير دعوة جمعت لها الفقهاء ووجوه المدينة بزاويتها التى بنتها، وفيها الطعام للوارد والصادر، وبعثت إلى بفروة سمور وفرس جيد، وهى من أفضل النساء وأصلحهن وأكرمهن جزاها الله خيراً.

ولما انفصلت من الدعوة التى صنعت لى هذه الخاتون وخرجت عن الزاوية، تعرضت لى بالباب امرأة عليها ثياب دنسة، وعلى رأسها مقنعة، ومعها نسوة لا أذكر عددهن. فسلمت علىّ، فرددت عليها السلام، ولم أقف

---

(١) يُقال: دهم يدهَم دُهمة: أسود، فهو أدهم، وهى دهماء، وجمعه دُهم. الوجيز ص(٢٣٦).

معها ولا التفت إليـها. فلما خرجت أدركنى بعض الناس وقال لى: إن المرأة التى سلمت عليك هى الخـاتون. فخـجلت عند ذلك، وأردت الرجوع إليـها فوجدتها قد انصـرفت فأبلغت إليها السلام مع بعض خدامهـا واعتذرت عما كان منى لعدم معرفتى بها.

وبطيخ خوارزم لانظير له فى بلاد الدنيا شرقًا ولا غربًا، إلا ما كان من بطيخ بخارى، ويلـيه بطيخ أصفـهان. وقشـره أخضر، وباطنه أحـمر. وهو صادق الحـلاوة، وفيه صلابة. ومن العـجائب أنه يقدد وييـبس فى الشمس، ويجعل فى القواصر، كمـا يصنع عندنا بالشريحة وبالتين المالقى. ويحمل من خوارزم إلى أقصى بلاد الهند والصين. وليس فى جميع الفواكه اليابسة أطيب منه. وكنت أيام إقـامتى بدهلى من بلاد الهند متـى قدم المسافـرون بعثت من يشتـرى لى منهم قديد البطيخ. وكان ملك الهنـد إذا أتى إليه بشىء منه بعث إلى به لما يعلم من محبتى فيـه. ومن عادته أنه يطوف الغرباء بفواكه بلادهم، ويتفقدهم بذلك.

وكان قد صحبتى من مدينة السرا إلى خوارزم شريف من أهل كربلاء يسـمى على بن منصور، وكـان من التـجار، فكنت أكلفـه أن يشتـرى لى الثيـاب وسواها، فكان يشتـرى لى الثوب بعشرة دنـانير، ويقول: اشتـريته بثمـانية، ويحاسبنى بـالثمانية، ويدفع الديـنارين من ماله. وأنا لا علم لى بفعله، إلى أن تعـرفت ذلك على ألسنة الناس، وكان مع ذلـك قد أسلفنى دنانير. فلما وصل إلىّ إحسان أمـير خوارزم رددت إليه ما أسلفنيه، وأردت أن أحسن بعده إليه مكافأة لأفـعاله الحسنة فأبى ذلك، وحلف أن لا أفعل. وأردت أن أحسن إلى فتى كان له اسمه كافور، فحلف أن لا أفعل، وكان أكرم من لقيته من العراقـيين. وعزم على السفر معى إلى بلاد الهند. ثم إن جماعةً من أهل بلده وصلوا إلى خوارزم برسم السفر إلى الصين، فأخذ فى السفـر معهم. فـقلتُ له فى ذلك، فقال: هـؤلاء آهل بلدى، يعودون إلى أهلى وأقاربى، ويـذكرون أنى سافـرت إلى الهند برسم الكدية(١)، فيكون

(١) الكدية: حرفة السائل الملح. الوجيز ص(٥٢٩).

سبّة على. لا أفعل ذلك، وسافر معهم إلى الصين فبلغنى بعد، وأنا بأرض الهند أنه لما بلغ إلى مدينة المالق، وهى آخر البلاد التى من عمالة ما وراء النهر وأول بلاد الصين، أقام بها، وبعث فتى له بما كان عنده من المتاع، فأبطأ الفتى عليه. وفى أثناء ذلك وصل من بلده بعض التجار، ونزل معه فى فندق واحد. فطلب منه الشريف أن يسلفه شيئًا بخلال ما يصل فتاه، فلم يفعل، ثم أكد قبح ما صنع فى عدم التوسعة على الشريف بأن أراد الزيادة عليه فى المسكن الذى كان له فى الفندق. فبلغ ذلك الشريف، فاغتمّ منه، ودخل إلى بيته فذبح نفسه، فأدرك وبه رمق، واتهموا غلامًا كان له بقتله، فقال: لا تظلموه، فإنى أنا فعلت ذلك. ومات من يومه غفر الله له.

وكان قد حكى لى عن نفسه أنه أخذ مرة من بعض تجار دمشق ستة آلاف درهم قراضًا(١)، فلقيه ذلك التاجر بمدينة حماة من أرض الشام، فطلبه بالمال، وكان قد باع ما اشترى به من المتاع بالدين، فاستحيا من صاحب المال، ودخل إلى بيته، وربط عمامته بسقف البيت، وأراد أن يخنق نفسه. وكان فى أجله تأخير، فتذكر صاحبًا له من الصيارفة فقصده، وذكر له القضية، فسلفه مالاً دفعه للتاجر. ولما أردت السفر من خوارزم اكتريت جمالاً واشتريت محارة، وكان عديلى بها عفيف الدين التوزرى، وركب بعض الخيل، وجلّلنا باقيها لأجل البرد، ودخلنا البرية التى بين خوارزم وبخارى، وهى مسيرة ثمانية عشر يومًا فى رمال لا عمارة بها إلا بلدة واحدة. فودعت الأمير قطلودمور، وخلع على خلعة، وخلع على القاضى أخرى، وخرج مع الفقهاء لوداعى. وسرنا أربعة أيام ووصلنا إلى مدنة ألْكَات، وليس بهذه الطريق عمارة سواها، (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون اللام وفتح الكاف وآخره تاء مثناة)، وهى صغيرة حسنة. نزلنا خارجها على بركة ماء قد جمدت من البرد. فكان

---

(١) يُقال: قارضه مقارضة وقراضًا: دفع إليه مالاً ليتجر فيه ويكون الربح بينهما على ما يشترطان. الوجيز ص(٤٩٧).

الصبيان يلعبون فوقها، ويزلقون عليها. وسمع بقدومى قاضى ألكات، ويسمى صدر الشريعة، وكنت قد لقيته بدار قاضى خوارزم. فجاء إلىّ مسلمًا مع الطلبة وشيخ المدينة الصالح العابد محمود الخيوفى. ثم عرض على القاضى الوصول إلى أمير تلك المدينة. فقال له الشيخ محمود: القادم ينبغى له أن يزار، وإن كانت لنا همة نذهب إلى أمير المدينة ونأتى به، ففعلوا ذلك. وأتى الأمير بعد ساعة فى أصحابه، وخدامه فسلمنا عليه. وكان غرضنا تعجيل السفر، فطلب منا الإقامة وصنع دعوة، جمع لها الفقهاء ووجوه العساكر وسواهم، ووقف الشعراء يمدحونه. وأعطانى كسوة وفرسًا جيدًا. وسرنا على الطريق المعروفة بسيبابة. وفى تلك الصحراء مسيرة ست دون ماء.

ووصلنا بعد ذلك إلى بلدة وَبْكَنَة (وضبط اسمها بفتح الواو وإسكان الباء الموحدة وكاف ونون)، وهى على مسيرة يوم واحد من بخارى بلدة حسنة ذات أنهار وبساتين. وهم يدخرون العنب من سنة إلى سنة، وعندهم فاكهة يسمونها الْعَلَّو (الآلّو) بالعين المهملة وتشديد اللام فييبسونه، ويجلبه الناس إلى الهند والصين، ويجعل عليه الماء، ويشرب ماؤه. وهو أيام كونه أخضر حلو، فإذا يبس صار فيه يسير حموضة، ولحميّته كثيرة. ولم أر مثله بالأندلس ولا بالمغرب ولا بالشام.

ثم سرنا فى بساتين متصلة وأنهار وأشجار وعمارة يومًا كاملاً، ووصلنا إلى مدينة بخارى التى ينسب إليها إمام المحدّثين أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى. وهذه المدينة كانت قاعدة ما وراء نهر جيحون من البلاد، وخربها اللعين تنكيز التترى، جد ملوك العراق. فمساجدها الآن ومدارسها وأسواقها خربة إلا القليل، وأهلها أذلاء، وشهادتهم لا تقبل بخوارزم وغيرها، لاشتهارهم بالتعصب ودعوى الباطل وإنكار الحق. وليس بها اليوم من الناس من يعلم شيئًا من العلم ولا من له عناية به.

غزو التتر لبخارى وتخريبهم لها ولِسواها

كان تنكيز خان(١) حداداً بأرض الخطا، وكان له كرم نفس وقوة وبسطة في الجسم، وكان يجمع الناس ويطعمهم. ثم صارت له جماعة فقدموه على أنفسهم وغلب على بلده وقوى واشتدت شوكته واستفحل أمره، فغلب على ملك الخطا، ثم على ملك الصين. وعظمت جيوشه، وتغلب على بلاد الختن وكاشغر والمالق. وكان جلال الدين سنجر بن خوارزم شاه ملك خوارزم وخراسان وما وراء النهر، له قوة عظيمة وشوكة، فهابه تنكيز وأحجم عنه ولم يتعرض له. فاتفق أن بعث تنكيز تجاراً بأمتعة الصين والخطا من الثياب الحريرية وسواها إلى بلدة أُطرار (بضم الهمزة)، وهى آخر عمالة جلال الدين. فبعث إليها عامله عليها، معلماً بذلك، واستأذنه ما يفعل فى أمرهم، فكتب إليه يأمره أن يأخذَ أَمْوَالَهُم ويمثل(٢) بهم ويقطع أعضاءهم ويردهم إلى بلادهم، لما أراد الله تعالى من شقاء أهل بلاد المشرق ومحنتهم رأيًا فائلاً وتدبيراً سيئًا مشئومًا. فلما فعل ذلك، تجهز تنكيز بنفسه فى عساكر لا تحصى كثرة برسم غزو بلاد الإسلام. فلما سمع عامل أطرار بحركته بعث الجواسيس ليأتوه بخبره، فذكر أن أحدهم دخل محلة بعض أمراء تنكيز فى صورة سائل، فلم يجد من يطعمه. ونزل إلى جانب رجل منهم فلم ير عنده زاداً، ولا أطعمه شيئًا. فلما أمسى أخرج مطرانًا يابسة عنده، فبلّها بالماء. وفصد فرسه وملأها بدمه وعقدها وشواها بالنار، فكانت طعامه فعاد إلى أطرار، فأخبر عاملها بأمرهم، وأعلمه أن لا طاقة لأحد بقتالهم. فاستمد مليكه جلال الدين، فأمده بستين ألفًا زيادة على من كان عنده من العساكر. فلما وقع القتال هزمهم تنكيز، ودخل مدينة أطرار بالسيف، فقتل الرجال وسبى الذرارى، وأتى جلال الدين بنفسه لمحاربته، فكانت بينهم وقائع لا يعلم فى الإسلام مثلها. وآل الأمر إلى أن تملك تنكيز ما وراء النهر، وخرب بخارى وسمرقند وترمذ، وعبر النهر، وهو نهر جيحون، إلى مدينة بلخ فتملكها، ثم

(١) فى البداية والنهاية (١٣/ ١٣٧): جنكيزخان. ووفاته سنة (٦٢٤) هـ.

(٢) يُقال: مثّل بفلان: نكّل به، بتشويه خلقته. الوجيز ص(٥٧٢).

إلى اليامیان (البامیان) فتملكها، وأوغل فى بلاد خراسان وعراق العجم. فثار عليه المسلمون فى بلخ، وفى ما وراء النهر فكر[١] عليهم، ودخل بلخ بالسيف، وتركها خاوية على عروشها.

ثم فعل مثل ذلك فى ترمذ، فخربت، ولم تعمر بعد، لكن بنيت مدينة على ميلين منها هى التى تسمى اليوم ترمذ. وقتل أهل اليامیان (البامیان) وهدمها بأسرها إلا صومعة جامعها، وعفا عن أهل بخارى وسمرقند، ثم عاد بعد ذلك إلى العراق. وانتهى أمر التتر حتى دخلوا حضرة الإسلام ودار الخلافة بغداد بالسيف، وذبحوا الخليفة المستعصم بالله العباسى -رحمه الله-.

قال ابن جزى: أخبرنا شيخنا قاضى القضاة أبو البركات ابن الحاج -أعزه الله- قال: سمعت الخطيب أبا عبد الله بن رشيد يقول: لقيتُ بمكةَ نورَ الدين بن الزجاج من علماء العراق، ومعه ابن أخ له، فتفاوضنا الحديث، فقال لى: هلك فى فتنة التتر بالعراق أربعة وعشرون ألف رجل من أهل العلم، ولم يبق منهم غيرى وغير ذلك، وأشار إلى ابن أخيه.

قال: ونزلنا من بخارى بربضها المعروف بفتح أباد حيث قبر الشيخ العالم العابد الزاهد سيف الدين الباخرزى، وكان من كبار الأولياء. وهذه الزاوية المنسوبة لهذا الشيخ حيث نزلنا عظيمة، لها أوقاف ضخمة يطعم منها الوارد والصادر، وشيخها من ذريته، وهو الحاج السياح يحيى الباخرزى. وأضافنى هذا الشيخ بداره، وجمع وجوه أهل المدينة وقرأ القراء بالأصوات الحسان، ووعظ الواعظ، وغنوا بالتركى والفارسى على طريقة حسنة. ومرت لنا هنالك ليلة بديعة من أعجب الليالى، ولقيت بها الفقيه العالم الفاضل صدر الشريعة، وكان قد قدم من هراة، وهو من الصلحاء الفضلاء. وزرت ببخارى قبر الإمام العالم أبى عبد الله البخارى مصنف الجامع الصحيح، شيخ المسلمين -رضي الله عنه-، وعليه مكتوب: هذا قبر محمد بن إسماعيل البخارى، وقد صنف من الكتب كذا وكذا. وأيضًا على قبور علماء

---

(١) يُقال: كر على العدو: حمل عليه. الوجيز ص(٥٣١).

بخارى أسماؤهم وأسماء تصانيفهم. وكنت قيدت من ذلك كثيراً، وضاع منى فى جملة ما ضاع لى، لما سلبنى كفار الهند فى البحر.

ثم سافـرنا من بخارى قاصـدين معسكر السلطان الصـالح المعظم علاء الدين طرمشيـرين، وسنذكره. فمررنا على نخشب، البـلدة التى ينسب إليها الشيخ أبو تراب الـنخشبى. وهى صـغيرة، تحف بهـا البساتين والمـياه. فنزلنا بخارجـها، بدار لأمـيرها، وعندى جـارية قد قـاربت الولادة، وكنت أردت حملهـا إلى سمرقند لتلد بها. فـاتفق أنها كانت فى المحمل، فـوضع المحمل على الجمل، وسافر أصحابنا من الليل، وهى معهم والزاد وغيره من أسبابى. وأقمت أنا حـتى أرتحل نهاراً مع بعض من مـعى. فسلكوا طريقًـا، وسلكت طريقًا سـواها، فوصلنا عشيـة النهار إلى محلة السلطان المذكور وقـد جعنا، فنزلنا على بعد من السوق، واشترى بعض أصحـابنا ما سد جوعتنا. وأعارنا بعض التجار خباء بتنا به تلك الليلة ومـضى أصحابنا من الغد فى البحث عن الجمال وباقى الأصـحاب، فوجدوهم عـشيًّا. وجاءوا بهم. وكان السلطان غائبًـا عن المحلة فى الصيد، فـاجتمعت بـنائبه الأمير تقـبغا، فـأنزلنى بقرب مسجده، وأعطانى خـرقة (خركاه) وهى شبه الخـباء، وقد ذكرنا صفتهـا فيما تقدم، فجعلت الجارية فى تلك الخرقة، فولدت تلك الليلة مولوداً، وأخبرونى أنه ولد ذكـر. ولم يكن كذلك، فـلما كـان بعد العـقـيقـة، أخبـرنى بعض أصحابى أن المولود بنت. فاسـتحضرت الجوارى فسألتـهن فأخبرونى بذلك. وكانت هذه البنت مـولودة فى طالع سعد، فرأيت كل ما يسـرنى، ويرضينى منذ ولدت. وتوفـيت بعـد وصولى إلى الهـند بشهـرين، وسـيذكـر ذلك. واجتمعت بهـذه المحلة بالشيخ الفقيه العابد مولانا حـسام الدين الياغى (بالياء آخر الحروف والغين المعـجمة)، ومعناه بالتركـية الثائر. وهو من أهل أطرار، وبالشيخ صهر السلطان.

وكان سلطان مـا وراء النهر هو السلطان المعظم عـلاءالدين طَرْمَشِيرين (وضبط اسمه بفتح الطاء المهـمل وسكون الراء وفتح الميم وكسر الشين المعجم وياء مد وراء مكسـور وياء مد ثانية ونون)، وهو عظيم المقـدار كثير الجـيوش

والعساكر ضخم المملكة شديد القوة عادل الحكم، وبلاده متوسطة بين أربعة من ملوك الدنيا الكبار، وهم ملك الصين وملك الهند وملك العراق والملك أوزبك. وكلهم يهابونه، ويعظمونه ويكرمونه. وولى الملك بعد أخيه الجكطى (وضبط اسمه بفتح الجيم المعقودة والكاف والطاء المهمل وسكون الياء). وكان الجكطى هذا كافرًا، وولى بعد أخيه الأكبر كبك، وكان كبك هذا كافرًا أيضًا، لكنه كان عادل الحكم منصفًا للمظلومين، يكرم المسلمين ويعظمهم.

وروى أن هذا الملك كبك كان تكلم يومًا مع الفقيه الواعظ المذكر بدر الدين الميدانى فقال له: أنت تقول: إن الله ذكر كل شيء فى كتابه العزيز. قال: نعم. فقال: أين اسمى فيه؟ فقال: هو فى قوله تعالى ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾(١) فأعجبه ذلك. وقال: يخشى، ومعناه بالتركية جيد. فأكرمه إكرامًا كثيرًا، وزاد فى تعظيم المسلمين.

ومن أحكام كبك ما ذكر أن امرأة شكت له بأحد الأمراء، وذكرت أنها فقيرة ذات أولاد. وكان لها لبن تقوتهم بثمنه. فاغتصبه ذلك الأمير وشربه. فقال لها: أنا أوسطه(٢). فإن خرج اللبن من جوفه مضى لسبيله، وإلا وسطتك بعده فقالت المرأة: قد حللته ولا أطلبه بشيء. فأمر به فوسط فخرج اللبن من بطنه. ولنعد لذكر السلطان طرمشيرين، ولما أقمت بالمحلة، وهم يسمونها الأردو أيامًا، ذهبت يومًا لصلاة الصبح بالمسجد على عادتى فلما صليت ذكر لى بعض الناس أن السلطان بالمسجد. فلما قام عن الصلاة تقدمت للسلام عليه، وقام الشيخ حسن، والفقيه حسام الدين الياغى، وأعلمه بحالى وقدومى منذ أيام. فقال لى بالتركية: «خش ميسن يخشى ميسن قطلو يوسن». ومعنى «خش ميسن»: فى عافية أنت، ومعنى «يخشى ميسن»: جيد أنت، ومعنى «قطلو يوسن»: مبارك قدومك. وكان عليه فى ذلك الحين قباء قدسى أخضر، وعلى رأسه شاشية مثله. ثم انصرف إلى

---

(١) سورة الانفطار: ٨.

(٢) يعنى: يقطعه نصفين.

مجلسـه راجلاً، والناس يتعرضـون له بالشكايات، فيقف لكل مـشتك منهم صغيـرًا أو كبيرًا ذكـرًا أو أنثى. ثم بحث عنى فوصلت إليه وهو فـى خرقة، والناس خارجـها ميمنة ومـيسرة، والأمراء منهم على الكراسى، وأصـحابهم وقوف على رؤوسهم وبين أيديهم، وسائر الجند قد جلسوا صفوفًا، وأمام كل واحـد منهم سلاحـه. وهم أهل النوبة يقـعدون هنـالك إلى العصـر، ويأتى آخرون فيقعدون إلى آخـر الليل. وقد صنعت هنالك سقائف من ثياب القطن يكونون بها. ولما دخلت إلى الملك بداخل الخرقة، وجـدته جالسًا على كرسى شبـه المنبـر، مكسو بالحـرير المزركش بالذهب، وداخل الخرقـة ملبس بثـياب الحرير المذهب، والتاج المرصع بالجوهر واليـواقيت معلق فوق رأس السلطان، بينه وبين رأسـه قدر ذراع. والأمـراء الكبار على الكراسى عن يمينه ويـساره، وأولاد الملوك بأيديهم المذاب[1] بين يديه، وعند باب الخـرقـة النائب والوزير والحاجب وصاحب العلامة. وهم يسمون آل طَمْغَى وآل (بفتح الهمزة) معناه الأحـمر وطمـغى (بفتح الطاء المهـمل وسكون الميم والغين المعـجم المفتـوح) ومعناه العـلامة. قـام إلى أربعتهـم حين دخولى ودخلوا معى، فـسلمت عليـه وسألنى، وصـاحب العلامـة يترجم بينـى وبينه، عن مكة والمدينة والقدس -شـرفها الله-، وعن مـدينة الخليل -عليه السلام-، وعن دمشق ومـصر والملك الناصـر، وعن العـراقين وملكهـمـا، وبلاد الأعـاجم. ثم أذن المؤذن بالظهـر فانصـرفنا. وكنا نحـضر مـعه الصـلوات، وذلك أيام البرد الشـديد المهلك. فكان لا يتـرك صلاة الصـبح والعشاء فى الجـماعـة، ويقعـد للذكر بالتركية بعد صلاة الصـبح إلى طلوع الشمس. ويأتى إليه كل من فى المسجد فيصافـحه ويشد بيده على يده. وكذلك يفعلون فى صـلاة العصر. وكان إذا أوتى بهدية من زبيب أو تمر، والتـمر عزيز عندهم، وهم يتبـركون به، يعطى منها بيده لكل من فى المسجد.

ومن فضـائل هذا الملك أن حضـرت صلاة العصـر يومًا، ولم يحـضر السلطان. فجاء أحد فتيانه بسجادة ووضـعها قبالة المحراب حيث جرت عادته

---

(١) التى يهش بها الذباب.

أن يصلى، وقال للإمام حسام الدين الياغى: إن مولانا يريد أن تنتظره بالصلاة قليلاً ريثما يتوضأ. فقام الإمام المذكور وقال: نماز، ومعناه الصلاة، براى حد أو براى طرمشيرين، أى الصلاة لله أو لطرمشيرين. ثم أمر المؤذن بإقامة الصلاة. وقد جاء السلطان، وقد صُلى منها ركعتان، فصلى الركعتين الأخريين حيث انتهى به القيام، وذلك فى الموضع الذى تكون فيه أنعلة الناس عند باب المسجد، وقضى ما فاته. وقام إلى الإمام ليصافحه وهو يضحك، وجلس قبالة المحراب، والشيخ الإمام إلى جانبه، وأنا إلى جانب الإمام. فقال لى: إذا مشيت إلى بلادك، فحدّث أن فقيراً من فقراء الأعاجم يفعل هكذا مع سلطان الترك. وكان هذا الشيخ يعظ الناس فى كل جمعة، ويأمر السلطان بالمعروف، وينهاه عن المنكر وعن الظلم، ويغلظ عليه القول، والسلطان ينصت لكلامه ويبكى. وكان لا يقبل من عطاء السلطان شيئًا، ولم يأكل قط من طعامه، ولا لبس من ثيابه. وكان هذا الشيخ من عباد الله الصالحين. وكنت كثيراً ما أرى عليه قباء قطن مبطن بالقطن محشواً به، وقد بلى وتمزق، وعلى رأسه قلنسوة لبد يساوى مثلها قيراطًا، ولا عمامة عليه. قلت له فى بعض الأيام: يا سيدى، ما هذا القباء، الذى أنت لابسه؟ إنه ليس بجيد. فقال لى: يا ولدى ليس هذا القباء لى، وإنما هو لابنتى فرغبت منه أن يأخذ بعض ثيابى، فقال لى: عاهدت الله منذ خمسين سنة أن لا أقبل من أحد شيئًا، ولو كنت أقبل من أحد لقبلت منك. ولما عزمت على السفر بعد مقامى عند هذا السلطان أربعة وخمسين يومًا، أعطانى السلطان سبعمائة دينار دراهم، وفروة سمور تساوى مائة دينار، طلبتها منه لأجل البرد. ولما ذكرتها له أخذ أكمامى وجعل يقبلها بيده تواضعًا منه وفضلاً وحسن خلق، وأعطانى فرسين وجملين. ولما أردت وداعه أدركته فى أثناء طريقه إلى متصيده. وكان اليوم شديد البرد جدًا. فوالله ما قدرت على أن أنطق بكلمة من شدة البرد، ففهم ذلك وضحك، وأعطانى يده وانصرفت. وبعد سنتين من وصولى إلى أرض الهند بلغنا الخبر بأن الملأ من قومه وأمرائه اجتمعوا بأقصى بلاده المجاورة للصين، وهنالك معظم عساكره، وبايعوا ابن عم له

اسمه بُوزُن أُغْلِى وكل من كان من أبناءالملوك فهم يسمونه أُغلى (بضم الهمزة وسكون الغين المعجمة وكسر اللام) وبُوزُن (بضم الباء الموحدة وضم الزاى)، وكان مسلمًا إلا أنه فاسد الدين سيىء السيرة. وسبب بيعتهم له وخلعهم لطرمشيرين أن طرمشيرين خالف أحكام جدهم تنكيز اللعين الذى خرب بلاد الإسلام، وقد تقدم ذكره. وكان تنكيز ألف كتابًا فى أحكامه يسمى عندهم اليساق (بفتح الياء آخر الحروف والسين المهمل وآخره قاف)، وعندهم أنه من خالف أحكام هذا الكتاب فخلعه واجب. ومن جملة أحكامه أنهم يجتمعون يومًا فى السنة يسمونه الطوى ومعناه يوم الضيافة ويأتى أولاد تنكيز والأمراء من أطراف البلاد، ويحضر الخواتين وكبار الأجناد، وإن كان سلطانهم قد غيّر شيئًا من تلك الأحكام يقوم إليه كبراؤهم فيقولون له: غيرت كذا وغيرت كذا وفعلت كذا، وقد وجب خلعك. ويأخذون بيده ويقيمونه عن سرير الملك، ويقعدون غيره من أبناء تنكيز، وإن كان أحد الأمراء الكبار أذنب ذنبًا فى بلاده حكموا عليه بما يستحقه. وكان السلطان طرمشيرين قد أبطل حكم هذا اليوم، ومحا رسمه، فأنكروه عليه أشد الإنكار، وأنكروا عليه أيضًا كونه أقام أربع سنين فيما يلى خراسان من بلاده، ولم يصل إلى الجهة التى توالى الصين. والعادة أن الملك يقصد تلك الجهة فى كل سنة. فيختبر أحوالها وحال الجند بها، لأن أصل ملكهم منها. ودار الملك هى مدينة المالق. فلما بايعوا بُوزُن أتى فى عسكر عظيم، وخاف طرمشيرين على نفسه من أمرائه، ولم يأمنهم، فركب فى خمسة عشر فارسًا، يريد بلاد غزنة، وهى من عمالته، وواليها كبير أمرائه، وصاحب سره برنطيه؛ وهذا الأمير محب فى الإسلام والمسلمين، قد عمّر فى عمالته نحو أربعين زاوية، فيها الطعام للوارد والصادر. وتحت يده العساكر العظيمة، ولم أر قط فيمن رأيته من الآدميين بجميع بلاد الدنيا أعظم خلقة منه. فلما عبر نهر جيحون وقصد طريق بلخ، رآه بعض الأتراك من أصحاب ينقى ابن أخيه كبك. وكان السلطان طرمشيرين المذكور قتل أخاه كبك المذكور، وبقى ابنه ينقى ببلخ. فلما أعلمه التركى بخبره قال: ما فر إلا لأمر حدث عليه. فركب فى أصحابه وقبض عليه

وسـجنه. ووصل بوزن إلى سمـرقند وبخـارى فبـايعه الناس، وجـاءه ينقى بطرمشـيرين، فيـذكر أنه لما وصل إلى نسف، بخـارج سمرقنـد، قتل هنالك ودفن بها، وخدم تربته الشيخ شمس الدين كُرْدَن بريدا -وقيل: إنه لم يقتل، كما سنذكره- وكُـرْدَن (بكاف معقودة وراء مسكن ودال مهـمل مفتوح ونون) ومعناه العنق، وبُـريدا (بضم الباء الموحدة وكـسر الراء وياء مد ودال مـهمل) معناه المقطوع. ويسمى بذلك لضربة كانت فى عنقه، وقد رأيته بأرضِ الهند، ويقع ذكره فـيمـا بعد. ولماملك بوزن هرب ابن السـلطان طرمشيـرين، وهو بشاى أغل (أغلى)، وأخته وزوجهـا فيروز إلى ملك الهند، فعظمهم وأنزلهم منزلة عليـة بسبب ما كـان بينه وبين طرمشـيرين من الود والمكاتبـة والمهاداة، وكان يخاطبـه بالأخ. ثم بعد ذلك أتى رجل من أرض السند، وادعى أنه هو طرمشيرين، واختلف الناس فيه. فـسمع بذلك عماد الملك سرتيز غلام ملك الهند، ووالى بلاد السند، ويسـمى ملك عرض. وهو الذى تعـرض بين يديه عسـاكر الهند، وإليـه أمرها، ومقـره بملتان قاعـدة السند. فبـعث إليه بعض الأتراك العارفين به، فعـادوا إليه وأخبروه أنه هو طرمـشيرين حقـًا. فأمر له بالسراجة، وهى أفراج فضرب خارج المدينة، ورتب له ما يرتب لمثله، وخرج لاستقـباله، وترجل له وسلم عليه، وأتى فى خـدمته إلى السراجـة، فدخلها راكبًـا كعادة الملوك. ولم يـشك أحد أنه هو. وبعث إلى ملك الهند يخـبره، فبعث إليـه الأمراء يستقبـلونه بالضيافات. وكان فى خـدمة ملك الهند حكيم ممن خدم طرمشيرين فيما تقـدم، وهو كبير الحكماء بالهند. فقال للملك: أنا أتوجه إليه، وأعرف حقيقة أمره، فإنى كنت عالجت له دملاً تحت ركبته وبقى أثره، وبه أعرفه. فـأتى إليه ذلك الحكيم، واستقبـله مع الأمراء، ودخل عليه ولازمه لسابقـته عنده، وأخذ يغمز رجـليه، وكشف عن الأثر فشتـمه. وقال له: تريد أن تنظر إلى الدمل الذى عـالجته؟ ها هو ذا وأراه أثره. فتـحقق أنه هو. وعاد إلى ملك الهند فأعلمه بذلك. ثم إن الوزير خواجه جهان بن إياس وكبـير الأمراء قـطلوخان معلم السـلطان أيام صغره دخـلا على ملك الهند، وقالا له: يا خوند عالم، هذا السلطان طرمـشيرين قد وصل. وصح أنه هو. وها هنا من قومه نحو أربعين ألفًا وولده وصهـره. أرأيت إن اجتمعوا عليه ما

يكون من العمل؟ فوقع هذا الكلام بموقع منه عظيم. وأمر أن يؤتى بطرمشيرين معجلاً. فلما دخل عليه أمر بالخدمة كسائر الواردين، ولم يعظم. وقال له السلطان: يامادر كانى، وهى شتمة قبيحة، كيف تكذب وتقول: إنك طرمشيرين؟ وطرمشيرين قد قتل. وهذا خادم تربته عندنا. والله لولا المعرة لقتلتك. ولكن أعطوه خمسة آلاف دينار، واذهبوا به إلى دار بشاى أغلى وأخته ولدى طرمشيرين، وقولوا لهم: إن هذا الكاذب يزعم أنه والدكم. فدخل عليهم فعرفوه. وبات عندهم والحراس يحرسونه وأخرج بالغد، وخافوا أن يهلكوا بسببه فأنكروه.

ونفى عن بلاد الهند والسند، فسلك طريق كيج ومكران، وأهل البلاد يكرمونه ويضيفونه ويهادونه، ووصل إلى شيراز، فأكرمه سلطانها أبو إسحاق، وأجرى له كفايته. ولما دخلت عند وصولى من الهند إلى مدينة شيراز، ذكر لى أنه باق بها. وأردت لقاءه، ولم أفعل، لأنه كان فى دار لا يدخل إليه أحد إلا بإذن من السلطان أبى إسحاق. فخفت مما يتوقع بسبب ذلك، ثم ندمت على عدم لقائه.

رجع الحديث إلى بوزن: وذلك أنه لما ملك، ضيق على المسلمين، وظلم الرعية، وأباح للنصارى واليهود عمارة كنائسهم. فضج المسلمون من ذلك وتربصوا به الدوائر. واتصل خبره بخليل ابن السلطان اليسور المهزوم على خراسان، فقصد ملك هراة، وهو السلطان حسين ابن السلطان غياث الدين الغورى، فأعلمه بما كان فى نفسه، وسأل منه الإعانة بالعساكر والمال على أن يشاطره الملك إذا استقام. فبعث معه الملك حسين عسكراً عظيمًا. وبين هراة وترمذ تسعة أيام. فلما سمع أمراء السلطان بقدوم خليل تلقوه بالسمع والطاعة والرغبة فى جهاد العدو. وكان أول قادم عليه علاء الملك خداوند زاده صاحب ترمذ، وهو أمير كبير شريف حسينى النسب. فأتاه فى أربعة آلاف من المسلمين، فسرّ به وولاه وزارته، وفوض إليه أمره، وكان من الأبطال. وجاء الأمراء من كل ناحية واجتمعوا على خليل والتقى مع بوزن. فمالت العساكر إلى خليل، وأسلموا بوزن وأتوا به أسيراً. فقتله خنقًا بأوتار

القسى. وتلك عادة لهم أنهم لا يقتلون من كان من أبناء الملوك إلا خنقًا. واستقام الملك لخليل، وعرض عساكره بسمرقند، فكانوا ثمانين ألفًا، عليهم وعلى خيلهم الدروع. فصرف العسكر الذى جاء به من هراة، وقصد بلاد المالق. فقدم التتر على أنفسهم واحدًا منهم، ولَقُوهُ على مسيرة ثلاث من المالق، بمقربة من أطرار (طرار)، وحمى القتال، وصبر الفريقان. فحمل الأمير خداوند زاده وزيره فى عشرين ألفًا من المسلمين حملة لم يثبت لها التتر، فانهزموا واشتد فيهم القتل. وأقام خليل بالمالق ثلاثًا، وخرج إلى استئصال من بقى من التتر، فأذعنوا له بالطاعة. وجاز إلى تخوم الخطا والصين، وفتح مدينة قراقرم ومدينة بش بالغ. وبعث إليه سلطان الخطا بالعساكر، ثم وقع بينهما الصلح. وعظم أمر خليل، وهابته الملوك، وأظهر العدل، ورتب العساكر بالمالق، وترك بها وزيره خداونده زاده. وانصرف إلى سمرقند وبخارى. ثم إن الترك أرادوا الفتنة، فسعوا إلى خليل بوزيره المذكور، وزعموا أنه يريد الثورة، ويقول: إنه أحق بالملك، لقرابته من النبى -ﷺ- وكرمه وشجاعته. فبعث واليًا إلى المالق عوضًا عنه، وأمره أن يقدم عليه نفر يسير من أصحابه. فلما قدم عليه قتله عند وصوله من غير تثبت. فكان الملك[1] سبب خراب ملكه. وكان خليل، لما عظم أمره، بغى على صاحب هراة الذى أورثه الملك وجهزه بالعساكر والمال. فكتب إليه أن يخطب فى بلاده باسمه، ويضرب الدنانير والدراهم على سكته، فغاظ ذلك الملك حسينًا، وأنف منه وأجابه بأقبح جواب. فتجهز خليل لقتاله، فلم توافقه عساكر الإسلام ورأوه باغيًا عليه وبلغ خبره إلى الملك حسين فجهز العساكر مع ابن عمه ملك ورنا، والتقى الجمعان. فانهزم خليل وأتى به إلى الملك حسين أسيرًا، فمنّ عليه بالبقاء، وجعله فى دار، وأعطاه جارية، وأجرى عليه النفقة. وعلى هذا الحال تركته عنده، فى أواخ سبع وأربعين عند خروجى من الهند.

---

(١) يعنى: السلطان حسين ابن السلطان غياث الدين الغورى.

ولنعد إلى ما كنا بسبيله: ولما ودعت السلطان طرمشيرين، سافرت إلى مدينة سمرقند. وهى من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالاً مبنية على شاطئ وادٍ يعرف بوادى القصارين، عليه النواعير تسقى البساتين. وعنده يجتمع أهل البلد بعد صلاة العصر للنزهة والتفرج. ولهم عليه مساطب ومجالس يقعدون عليها، ودكاكين تباع بها الفاكهة وسائر المأكولات وكانت على شاطئه قصور عظيمة، وعمارة تنبئ عن علو همم أهلها. فدثر(١) أكثر ذلك. وكذلك المدينة خرب كثير منها، ولا سور لها ولا أبواب عليها. وفى داخلها البساتين. وأهل سمرقند لهم مكارم أخلاق ومحبة فى الغريب. وهم خير من أهل بخارى. وبخارج سمرقند قبر قُثَم بن العباس بن عبد المطلب، -رضى الله عن العباس وعن ابنه-، وهو المستشهد حين فتحها. ويخرج أهل سمرقند كل ليلة إثنين وجمعة إلى زيارته، والتتر يأتون لزيارته، وينذرون له النذور العظيمة، ويأتون إليه بالبقر والغنم والدراهم والدنانير، فيصرف ذلك فى النفقة على الوارد والصادر، ولخدام الزاوية والقبر المبارك. وعليه قبة قائمة على أربعة أرجل، ومع كل رجل ساريتان من الرخام، منه الخضر والسود والبيض والحمر. وحيطان القبة بالرخام المجزع المنقوش بالذهب، وسقفها مصنوع بالرصاص. وعلى القبر خشب الأبنوس المرصع، مكسوّ الأركان بالفضة، وفوقه ثلاثة من قناديل الفضة. وفرش القبة بالصوف والقطن. وخارجها نهر كبير يشق الزاوية التي هنالك، على حافتيه الأشجار ودوالى العنب والياسمين. وبالزاوية مساكن يسكنها الوارد والصادر. ولم يغيرِ التتر أيام كفرهم شيئًا من حال هذا الموضع المبارك. كانوا يتبركون به، لما يرون له من الآيات. وكان الناظر فى كل حال من هذا الضريح المبارك وما يليه حين نزولنا به الأمير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن عبد العزيز بن يوسف ابن الخليفة المستنصر بالله العباسى، قدمه لذلك السلطان طرمشيرين لما قدم من العراق، وهو الآن عند ملك الهند، وسيأتى ذكره. ولقيت بسمرقند قاضيها المسمى عندهم صدر

(١) يُقال: دثر الشيء يدثُر دثورًا: قدم ودرس. الوجيز ص(٢٢٠، ٢٢١).

الجهان، وهو من الفضلاء ذوى المكارم. وسافر إلى بلاد الهند بعد سفرى إليها فأدركته منيّتة(١) بمدينة ملتان قاعدة بلاد السند.

وحين مات هذا القاضى بملتان كتب صاحب الخبر بأمره إلى ملك الهند، وأنه قدم برسم بابه، فاخترم دون ذلك فلما بلغ الخبر إلى الملك، أمر أن يُبعث إلى أولاده عدد من آلاف الدنانير، لا أذكره الآن. وأمر أن يعطى لأصحابه ما كان يعطى لهم لو وصلوا معه وهو بقيد الحياة. ولملك الهند فى كل بلد من بلاده، صاحب الخبر يكتب له بكل ما يجرى فى ذلك البلد من الأمور، وممن يرد عليه من الواردين. وإذا أتى الوارد كتبوا من أي البلاد ورد، وكتبوا اسمه ونعته وثيابه وأصحابه وخيله وخدامه وهيئته من الجلوس والمأكل، وجميع شؤونه وتصرفاته وما يظهر منه من فضيلة أو ضدها، فلا يصل الوارد إلى الملك إلا وهو عارف بجميع حاله، فتكون كرامته على مقدار ما يستحقه. وسافرنا من سمرقند فاجتزنا ببلدة نسف. وإليها ينسب أبو حفص عمر النسفى، مؤلف كتاب المنظومة فى المسائل الخلافية بين الفقهاءالأربعة -ﷺ-. ثم وصلنا إلى مدينة ترمذ التى ينسب إليها الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى مؤلف الجامع الكبير فى السنن. وهى مدينة كبيرة حسنة العمارة والأسواق تخترقها الأنهار. وبها البساتين الكثيرة والعنب، والسفرجل بها متناهى الطيب، واللحوم بها كثيرة، وكذلك الألبان. وأهلها يغسلون رؤوسهم فى الحمام باللبن عوضًا عن الطفل. ويكون عند كل صاحب حمام أوعية كبار مملوءة لبنًا. فإذا دخل الرجل الحمام أخذ منها فى إناء صغير فغسل رأسه، وهو يرطب الشعر ويصقله. وأهل الهند يجعلون فى رؤوسهم زيت السمسم، ويسمونه الشيرج، ويغسلون الشعر بعده بالطفل، فينعم الجسم، ويصقل الشعر ويطيله. وبذلك طالت لحى أهل الهند ومن سكن معهم. وكانت مدينة ترمذ القديمة مبنية على شاطئ جيحون، فلما خربها تنكيز، بنيت هذه الحديثة على ميلين من النهر. وكان نزولنا بها بزاوية

---

(١) المنية: الموت، وجمعه منايا. الوجيز ص(٥٩٣).

الشيخ الصالح عزيزان، من كبار المشايخ وكرمائهم، كثيرة المال والرباع والبساتين، ينفق على الوارد والصادر من ماله. واجتمعت قبل وصولى إلى هذه المدينة بصاحبها علاء الملك خدواند زاده. وكتب لى إليها بالضيافة، فكانت تحمل إلينا أيام مقامنا بها فى كل يوم. ولقيت أيضًا قاضيها قوام الدين. وهو متوجه لرؤية السلطان طرمشيرين، وطالب للإذن له فى السفر إلى بلاد الهند، وسيأتى ذكر لقائى له بعد ذلك. ولأخويه ضياء الدين وبرهان الدين، ولقائى لهما بحضرة ملك الهند، وذكر أخويه الآخرين عماد الدين وسيف الدين، ولقائى لهما بحضرة ملك الهند، وذكر ولديه وقدومهما على ملك الهند بعد قتل أبيهما، وتزويجهما ابنتى الوزير خواجه جهان، وما جرى فى ذلك كله إن شاء الله تعالى. ثم جزنا نهر جيحون إلى بلاد خراسان. وسرنا بعد انصرافنا من ترمذ وإجازة الوادى يومًا ونصف يوم فى صحراء ورمال لا عمارة بها إلى مدينة بلخ، وهى خاوية(١) على عروشها غير عامرة. ومن رآها ظنها عامرة لإتقان بنائها. وكانت ضخمة فسيحة ومساجدها ومدارسها باقية الرسوم حتى الآن، ونقوش مبانيها مدخلة بأصبغة اللازورد(٢). والناس ينسبون اللازورد إلى خراسان، وإنما يجلب من جبال بدخشان التى ينسب إليها الياقوت البدخشى، والعامة يقولون: البلخش، وسيأتى ذكرها إن شاء الله تعالى. وخرب هذه المدينة تنكيز اللعين، وهدم من مسجدها نحو الثلث، بسبب كنز ذكر له أنه تحت سارية من سواريه. وهو من أحسن مساجد الدنيا وأفسحها. ومسجد رباط الفتح بالمغرب يشبهه فى عظم سواريه. ومسجد بلخ أجمل منه فى سوى ذلك.

وذكر لى بعض أهل التاريخ، أن مسجد بلخ بنته امرأة كان زوجها أميرًا ببلخ لبنى العباس، يسمى داود بن على. فاتفق أن الخليفة غضب مرة على

---

(١) يُقال خوى المكان والبيت وغيرهما يخوَى خُوِيًّا، وخواية: خلا مما كان فيه. الوجيز ص(٢١٥).

(٢) اللاَّزَوَرْدُ: من الأحجار الكريمة، لونه أزرق سماوى أو بنفسجى، يكثر فى أفغانستان وأمريكا ويستعمل للزينة. الوجيز ص(٥٤٨).

أهل بلخ لحادث أحدثوه. فبعث إليهم من يغرّمهم مغرمًا فادحًا. فلما بلغ إلى بلخ أتى نساؤها وصبيانها إلى تلك المرأة التى بنت المسجد، وهى زوج أميرهم، وشكوا حالهم وما لحقهم من هذا المغرم. فبعث إلى الأمير الذى قدم برسم تغريمهم بثوب لها مرصع بالجوهر قيمته أكثر مما أمر بتغريمه، فقالت له: اذهب بهذا الثوب إلى الخليفة، فقد أعطيته صدقة عن أهل بلخ لضعف حالهم. فذهب به إلى الخليفة وألقى الثوب بين يديه وقص عليه القصة، فخجل الخليفة وقال: أتكون المرأة أكرم منا؟ وأمره برفع المغرم عن أهل بلخ، وبالعودة إليها ليرد للمرأة ثوبها، وأسقط عن أهل بلخ خراج سنة. فعاد الأمير إلى بلخ، وأتى منزل المرأة وقص عليها مقالة الخليفة ورد عليها الثوب. فقالت له: أوقع بصر الخليفة على هذا الثوب؟ قال: نعم. قالت: لا ألبس ثوبًا وقع عليه بصر غير ذى محرم منى، وأمرت ببيعه. فبنى منه المسجد والزاوية ورباط فى مقابلته مبنى بالكذان[1]، وهو عامر حتى الآن. وفضل من ثمن الثوب مقدار ثلثه. فذكر أنها أمرت بدفنه تحت بعض سوارى المسجد، ليكون هنالك متيسرًا إن احتيج إليه. خرج فأخبر تنكيز بهذه الحكاية، فأمر بهدم سوارى المسجد، فهدم منها نحو الثلث، ولم يجد شيئًا، فترك الباقى على حاله. وبخارج بلخ قبر يذكر أنه قبر عكاشة بن محصن الأسدى صاحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم تسليمًا-، الذى يدخل الجنة بلا حساب[2]. وعليه زاوية معظمة بها كان نزولنا، وبخارجها بركة ماء عجيبة، عليها شجرة جوز عظيمة. ينزل الواردون فى الصيف تحت ظلالها وشيخ هذه الزاوية يعرف بالحاج خرد، وهو الصغير من الفضلاء، وركب معنا وأرانا مزارات هذه المدينة. منها قبر حزوقيل النبى -عليه السلام-، وعليه قبة حسنة. وزرنا بها أيضًا قبوراً كثيرة من قبور الصالحين، لا أذكرها الآن. ووقعنا على دار إبراهيم بن أدهم -رضي الله عنه-، وهى دار ضخمة مبنية بالصخر الأبيض الذى يشبه الكذان. وكان زرع الزاوية مقترنًا بها، وقد سدت عليه فلم ندخلها،

---

(١) الكذان: حجارة رخوة نخرة.

(٢) واسمه: عكاشة بن محصن بن حرثان بن قيس بن مرة بن كثير بن غنم بن دودان بن أسد ابن خزيمة الأسدى.
وانظر البداية والنهاية (٦/ ٣٣٢) فقد ترجم له ابن كثير هنالك.

وهى بمقربة من المسجد الجامع. ثم سافرنا من مدينة بلخ، فسرنا فى جبال قوة استان (قهستان) سبعة أيام. وهى قرى كـثيرة عامرة بها المياه الجارية والأشجار المورقة وأكثرها شجر التين، وبها زوايا كثيرة فيها الصالحون المنقطعون إلى الله تعـالى. وبعد ذلك كـان وصولنا إلى مـدينة هراة، وهى أكبـر المدن العـامرة بخراسان. ومدن خراسان العظيمة أربع: اثنتان عامرتان وهما هراة ونيسابور، واثنتان خـربتان وهما بلخ ومرو. ومـدينة هراة كبيرة عظيـمة كثيـرة العمارة، ولأهلها صلاح وعفاف وديانة، وهم على مذهب الإمام أبى حنيفة -رضي الله عنه-، وبلدهم طاهرة من الفساد.

وكـان سلطان هراة السلطان المعظم حـسين ابن السلطـان غيـاث الدين الغورى، صاحـب الشجاعة المأثورة والتـأييد والشجاعة ظهـر له من إنجاد الله تعالى وتأييـده فى موطنين اثنين ما يقـضى منه العجب، أحدهما عند مـلاقاة جيشـه للسلطان خليل الذى بغى عليه، وكان منـتهى أمره حصولـه أسيرًا فى يديه، والموطن الثـانى عند ملاقـاته بنفسـه لمسعـود، سلطان الرافضـة. وكان منتهى أمره تبديده وفراره وذهاب ملكه. وولى السلطان حسين الملك بعد أخيه المعروف بالحافظ، وولى أخوه بعد أبيه غياث الدين.

وكان بخراسان رجلان: أحدهما يسـمى بمسعود والآخر يسمى بمحمد. وكـان لهمـا خمـسة من الأصـحاب، وهم من الفُـتّاك، ويعـرفون بالعـراق بالشطَّار، ويعـرفون بـخراسـان بسرابداران (سـربداران)، ويعـرفون بالعـراق بالصقـور. فاتفق سبعـتهم على الفساد وقطع الطرق وسلـب الأموال، وشاع خبرهم، وسكنوا جبلاً منيعًا بمقربة من مدينة بيهق، وتسمى أيضًا مدينة سيزار (سبزوار). فكانوا يكمنون بالنهار. ويخرجون بالليل والعشى، فيضربون على القرى، ويقطعون الطرق، ويأخـذون الأموال. وانثال[1] عليهم أشـباههم من أهل الشر والفسـاد، فكثر عددهم واشتدت شوكـتهم وهابهم الناس، وضربوا

---

(١) انثال: انصب وانهال، ويُقـال: انثالت عليه الأفكار: تتابعت فلم يدر بأيها يبـدأ. الوجيز ص(٨٩).

على مدينة بيهق فملكوها، ثم ملكوا سواها من المدن، واكتسبوا الأموال وجندوا الجنود وركبوا الخيل، وتسمى مسعود بالسلطان وصار العبيد يفرون عن مواليهم إليه. فكل عبد فر منهم يعطيه الفرس والمال. وإن ظهرت له شجاعة أمره على جماعة، فعظم جيشه واستفحل أمره وتمذهب جميعهم بمذهب الرفض، وطمحوا إلى استئصال أهل السنة بخراسان، وأن يجعلوها كلمة واحدة رافضية. وكان بمشهد طوس شيخ من الرافضة يسمى بحسن، وهو عندهم من الصلحاء، فوافقهم على ذلك، وسموه بالخليفة وأمرهم بالعدل فأظهروه. حتى كانت الدراهم والدنانير تسقط فى معسكرهم فلا يلتقطها أحد حتى يأتى ربها فيأخذها. وغلبوا على نيسابور، وبعث إليهم السلطان طغيتمور بالعساكر فهزموه، ثم بعث إليهم نائبه أرغون شاه فهزموه وأسروه ومنوا عليه، ثم غزاهم طغيتمور بنفسه فى خمسين ألفًا من التتر فهزموه، وملكوا البلاد، وتغلبوا على سرخس والزاوه وطوس، وهى من أعظم بلاد خراسان. وجعلوا خليفتهم بمشهد على بن موسى الرضا، وتغلبوا على مدينة الجام، ونزلوا بخارجها وهم قاصدون مدينة هراة، وبينها وبينهم مسيرة ست. فلما بلغ ذلك الملك حسينًا جمع الأمراء والعساكر وأهل المدينة واستشارهم، هل يقيمون حتى يأتى القوم أو يمضوا إليهم فيناجزوهم(١). فوقع إجماعهم على الخروج إليهم، وهم قبيلة واحدة يسمون الغورية. ويقال: إنهم ينسبون إلى غور الشام، وإن أصلهم منه. فتجهزوا أجمعون، واجتمعوا من أطراف البلاد، وهم ساكنون بالقرى، وبصحراء مرغيس (بدغيس)، وهى مسيرة أربع، لا يزال عشبها أخضر. ترعى منه ماشيتهم وخيلهم. وأكثر شجرها الفستق، ومنها يحمل إلى أرض العزاق. وعضدهم أهل مدينة سمنان، ونفروا جميعًا إلى الرافضة، وهم مائة وعشرون ألفًا ما بين رجالة وفرسان، يقودهم الملك حسين. واجتمعت الرافضة فى مائة وخمسين ألفًا من الفرسان. وكانت الملاقاة بصحراء بوشنج. وصبر الفريقان معًا. ثم كانت الدائرة على الرافضة، وفر سلطانهم مسعود، وثبت خليفتهم

---

(١) ناجزه الحرب ونحوها: نازله وقاتله. الوجيز ص(٦٠٣).

حسن فى عشرين ألفًا حتى قتل، وقتل أكثرهم، وأسرمنهم نحو أربعة آلاف. وذكر لى بعض من حضر هذه الوقعة أن ابتداء القتال كان فى وقت الضحى، وكانت الهزيمة عند الزوال. ونزل الملك حسين بعد الظهر فصلى، وأتى بالطعام، فكان هو وكبراء أصحابه يأكلون، وسائرهم يضربون أعناق الأسرى. وعاد إلى حضرته بعد هذا الفتح العظيم، وقد نصر الله السنة على يديه، وأطفأ نار الفتنة. وكانت هذه الوقعة بعد خروجى من الهند عام ثمانية وأربعين. ونشأ بهراة رجل من الزهاد والصلحاء الفضلاء واسمه نظام الدين مولانا، وكان أهل هراة يحبونه، ويرجعون إلى قوله. وكان يعظهم ويذكرهم، وتوافقوا معه على تغيير المنكر، وتعاقد معهم على ذلك خطيب المدينة المعروف بملك ورنا، وهو ابن عم الملك حسين، ومتزوج بزوجة والده، وهى من أحسن الناس صورة وسيرة. والملك يخافه على نفسه، وسنذكر خبره. وكانوا متى علموا بمنكر، ولو كان عند الملك غيّروه.

وعلمت أنهم تعرفوا يومًا أن بدار الملك حسين منكرًا، فاجتمعوا لتغييره، وتحصن منهم بداخل داره. فاجتمعوا على الباب فى ستة آلاف رجل. فخاف منهم. فاستحضر الفقيه وكبار البلد، وكان قد شرب الخمر فأقاموا عليه الحد بداخل قصره، وانصرفوا عنه.

وكان الأتراك المجاورون لمدينة هراة الساكنون بالصحراء، وملكهم غيتمور الذى مر ذكره يعدون نحو خمسين ألفًا، يخافهم الملك حسين، ويهدى لهم الهدايا فى كل سنة، ويداريهم. وذلك قبل هزيمته للرافضة. وأما بعد هزيمته للرافضة تغلب عليهم. ومن عادة هؤلاء الأتراك التردد إلى مدينة هراة، وربما شربوا بها الخمر، وأتاها بعضهم وهو سكران. فكان نظام الدين يحد من وجد منهم سكران. وهؤلاء الأتراك أهل نجدة وبأس، ولا يزالون يضربون على بلاد الهند، فيسبون ويقتلون، وربما سبوا بعض المسلمات اللاتى يكن بأرض الهند ما بين الكفار، فإذا خرجوا بهن إلى خراسان يطلق نظام الدين المسلمات من أيدى الترك. وعلامة النسوة المسلمات بأرض الهند ترك ثقب الأذن. والكافرات آذانهن مثقوبات. فاتفق

مرة أن أميراً من أمراء الترك يسمى تمور ألطى سبى امرأة وكلف بها شديداً، فذكرت أنها مسلمــة، فانتزعها الفقيه من يده. فـبلغ ذلك من التركى مبلغًا عظيمًـا، وركب فى آلاف من أصحـابه، وأغار على خـيل هراة، وهى فى مرعاها بصحراء مرغيس (بدغـيس)، واحتملوها. فلم يتركوا لأهل هراة ما يركبون ولا ما يحلـبون، وصعدوا بها إلى جبل هنالك لا يقـدر عليهم فيه. ولم يجد السلطان ولا جنده خيلاً يتبعـونهم بها، فبعث إليهم رسولاً يطلب منهم ردّ ما أخذوه من الماشية والخيل، ويذكرهم العهد الذى بينهم. فأجابوا بأنهم لا يردون ذلك حتى يمكنوا من الفقـيه نظام الدين. فقال السلطان: لا سبيل إلى هذا. وكان الشيخ أبو أحمد الجسـتى حفيد الشيخ مودود الجستى له بخراسان شأن عظيم، وقـوله معتبر لديهم، فركب فى جـماعة خيل من أصـحابه ومماليكه. فـقال: أنا أحـمل الفـقيـه نظام الدين معى إلى التـرك ليـرضوا بذلك ثم أرده. فكأن الناس مـالوا إلى قوله. ورأى الفـقيـه نظام الدين اتفاقـهم على ذلك. فركب مع الشيخ أبى أحمـد ووصل إلى الترك. فقـام إليـه الأميـر تمور ألطى وقال له: أنت أخـذت امرأتى منى، وضـربه بدبوسه[١] فكسر دماغـه، فخر ميتًا. فسقط فى أيدى الشـيخ أبى أحمد، وانصـرف من هنالك إلـى بلده، ورد التـرك مـا كـانوا أخـذوه من الخـيل والماشيـة. وبعد مدة قدم ذلك التـركى الذى قتل الفقيـه على مدينة هراة، فلقيه جماعة من أصحاب الفقيه، فتقدموا إليه كأنهم مسلمون عليه، وتحت ثيابهم السيوف فقتلوه. وفر أصحابه. ولما كان بعد هذا، بعث الملك حسين ابن عمه ملك ورنا الذى كان رفيق الفقيه نظام الدين فى تغيير المنكر رسولاً إلى ملك سجـستان. فـلما حصل بهـا بعث إليه أن يقيـم هنالك ولا يعود إليه. فقصـد بلاد الهند ولقيته وأنا خارج منها بمدينة سـيوستان من السند، وهو أحـد الفضـلاء. وفى طبـعه حب لـلرياسة والصيـد والبراز والخـيل والمماليك والأصحاب واللباس الملوكى الفاخر، ومن كان على هذا الترتيب

(١) الدبوس: عمود على شكل هـراوة مدملكة الرأس، أو: هو قضيب من معـدن على هيئة المسمار الصغير. الوجيز ص(٢٢٠).

فإنه لا يصلح حاله بأرض الهند. فكان من أمره أن ملك الهند ولاّه بلدًا صغيرًا. وقتله به بعض أهل هراة المقيمين بالهند بسبب جارية. وقيل: إن ملك الهند دس عليه من قتله بسعى الملك حسين فى ذلك، ولأجله خدم الملك حسين ملك الهند بعد موت ملك ورنا المذكور، وهاداه ملك الهند، وأعطاه مدينة بكار من بلاد السند. ومجباها خمسون ألفًا من دنانير الذهب فى كل سنة.

(ولنعد إلى ما كنا بسبيله فنقول): سافرنا من هراة إلى مدينة الجام، وهى متوسطة حسنة، ذات بساتين وأشجار وعيون كثيرة وأنهار، وأكثرها التوت. والحرير بها كثير. وهى تنسب إلى الولي العابد الزاهد شهاب الدين أحمد الجامى، وسنذكر حكايته، وحفيده الشيخ أحمد المعروف بزاده الذى قتله ملك الهند. والمدينة الآن لأولاده، وهى محررة من قبل السلطان. ولهم بها نعمة وثروة. وذكر لى من أثق به أن السلطان أبا سعيد ملك العراق قدم خراسان مرة ونزل على هذه المدينة وبها زاوية الشيخ، فأضافه ضيافة عظيمة، وأعطى لكل خباء بمحلته رأس غنم، ولكل أربعة رجال رأس غنم، ولكل دابة بالمحلة من فرس وبغل وحمار علف ليلة، فلم يبق فى المحلة حيوان إلا وصلته ضيافته.

ويذكر أنه كان صاحب راحة مكثرًا من الشراب، وكان له من الندماء نحو ستين، وكانت لهم عادة أن يجتمعوا يومًا فى منزل كل واحد منهم، فتدور النوبة على أحدهم بعد شهرين، وبقوا على ذلك مدة. ثم إن النوبة وصلت يومًا إلى الشيخ شهاب الدين، فعقد التوبة ليلة النوبة. وعزم على إصلاح حاله مع ربه، وقال فى نفسه: إن قلت لأصحابى إنى قد تبت قبل اجتماعهم عندى، ظنوا ذلك عجزًا عن مؤونتهم. فأحضر ما كان يحضر مثله قبلاً من مأكولات ومشرب، وجعل الخمر فى الزقاق، وحضر أصحابه. فلما أرادوا الشرب فتحوا زقًا، فذاقه أحدهم فوجده حلوًا ثم فتح ثانيًا فوجده كذلك ثم ثالثًا فوجده كذلك. فكلموا الشيخ فى ذلك، فخرج لهم عن حقيقة أمره وصدقهم سرّ فكره، وعرفهم بتوبته، وقال لهم: والله ما هذا إلا الشراب

الذى كنتم تشربونه فيما تقدم. فتابوا جميعًا إلى الله تعالى، وبنوا الزاوية، وانقطعوا بها لعبادة الله تعالى. وظهر لهذا الشيخ كثير من الكرامات والمكاشفات.

ثم سافرنا من الجام إلى مدينة طوس، وهى أكبر بلاد خراسان. وأعظمها، بلد الإمام الشهير بأبى حامد الغزالى -رضي الله عنه- وبها قبره. ورحلنا منها إلى مدينة مشهد الرضا، وهو على بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق ابن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين الشهيد ابن أمير المؤمنين على بن أبى طالب -رضي الله عنهم-. وهى أيضًا مدينة كبيرة ضخمة كثيرة الفواكه والمياه والأرجاء الطاحنة. وكان بها الطاهر محمد شاه، والطاهر عندهم بمعنى النقيب عند أهل مصر والشام والعراق، وأهل الهند والسند وتركستان يقول السيد الأجل: وكان أيضًا بهذا المشهد القاضى الشريف جلال الدين، لقيته بأرض الهند والشريف على وولداه أمير هندو ودولة شاه، وصحبونى من ترمذ إلى بلاد الهند. وكانوا من الفضلاء، والمشهد المكرم عليه قبة عظيمة فى داخل زاوية، تجاورها مدرسة ومسجد. وجميعها مليح البناء مصنوع الحيطان بالقاشانى. وعلى القبر دكانة خشب ملبسة بصفائح الفضة، وعليه قناديل فضة معلقة، وعتبة باب القبة فضة. وعلى بابها ستر حرير مذهب. وهى مبسوطة بأنواع البسط. وإزاء هذا القبر قبر هارون الرشيد أمير المؤمنين -رضي الله عنه-، وعليه دكانة يضعون عليها الشمعدانات(١) التى يعرفها أهل المغرب بالحسك والمنائر. وإذا دخل الرافضى للزيارة ضرب قبر الرشيد برجله، وسلم على الرضا. ثم سافرنا إلى مدينة سرخس، وإليها ينسب الشيخ الصالح لقمان السرخسى -رضي الله عنه-. ثم سافرنا منها إلى مدينة زاوة، وهى مدينة الشيخ الصالح قطب الدين حيدر، وإليه تنسب طائفة الحيدرية من الفقراء، وهم الذين يجعلون حلق الحديد فى أيديهم وأعناقهم وآذانهم، ويجعلونها أيضًا فى ذكورهم حتى لا يتأتى لهم النكاح. ثم رحلنا منها فوصلنا إلى مدينة

(١) الشمعدان: منارة تزين ويركز عليها الشمع حين الاستضاءة به. الوجيز ص(٣٥١).

نيسابور، وهى إحدى المدن الأربع التى هى قواعد خراسان. ويقال لها: دمشق الصغيرة، لكثرة فواكهها وبساتينها ومياهها وحسنها. وتخترقها أربعة من الأنهار. وأسواقها حسنة متسعة، ومسجدها بديع، وهو فى وسط السوق، ويليه أربع من المدارس يجرى بها الماء الغزير، وفيها من الطلبة خلق كثير، يقرأون القرآن والفقه. وهى من حسان مدارس تلك البلاد، ومدارس خراسان والعراقين ودمشق وبغداد ومصر. وإن بلغت الغاية من الإتقان والحسن، فكلها تقصر عن المدرسة التى عمرها مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله المجاهد فى سبيل الله عالم الملوك واسطة عقد الخلفاء العادلين أبو عنان، وصل الله سعده ونصر جنده، وهى التى عند القصبة من حضرة فاس حرسها الله تعالى، فإنها لا نظير لها سعة وارتفاعًا ونقش الجص بها لا قدرة لأهل المشرق عليه. ويصنع بنيسابور ثياب الحرير من النخ والكمخاء وغيرها. وتحمل منها إلى الهند. وفى هذه المدينة زاوية الشيخ الإمام العالم القطب العابد قطب الدين النيسابورى أحد الوعاظ العلماء الصالحين. نزلت عنده فأحسن القرى وأكرم، ورأيت له البراهين والكرامات العجيبة.

وكنت قد اشتريت بنيسابور غلامًا تركيًّا، فرآه معى فقال لى: هذا الغلام لا يصلح لك، فبعه. فقلت له: نعم، وبعت الغلام فى غد ذلك اليوم. واشتراه بعض التجار. وودعت الشيخ وانصرفت. فلما حللت بمدينة بسطام كتب إلى بعض أصحابى من نيسابور، وذكر أن الغلام المذكور قتل بعض أولاد الأتراك وقتل به. وهذه كرامة واضحة لهذا الشيخ -رضي الله عنه-. وسافرت من نيسابور إلى مدينة بسطام التى ينسب إليها الشيخ العارف أبو يزيد البسطامى الشهير، -رضي الله عنه-. وبهذه المدينة قبره، ومعه فى قبة واحدة أحد أولاده جعفر الصادق -رضي الله عنه-. وببسطام أيضًا قبر الشيخ الصالح الولى أبى الحسن الخرقانى. وكان نزولى من هذه المدينة بزاوية الشيخ أبى يزيد البسطانى -رضي الله عنه-. ثم سافرت من هذه المدينة على طريق هند خير إلى قندوس وبغلان. وهى قرى فيها مشايخ وصالحون، وبها البساتين والأنهار. فنزلنا بقندوس على نهر ماء به زاوية

لأحد شيوخ الفقراء من أهل مصر، يسمى بشير سياه، ومعنى ذلك الأسد الأسود وأضافنا بها وإلى تلك الأرض وهو من أهل الموصل ببستان عظيم هنالك.

وأقمنا بخارج هذه القرية نحو أربعين يومًا لرعى الجمال والخيل، وبها مراع طيبة وأعشاب كثيرة، والأمن بها شامل بسبب شدة أحكام الأمير برنطية. وقد قدمنا أن أحكام الترك فى من سرق فرسًا أن يعطى معه تسعة مثله، فإن لم يجد ذلك أخذ فيها أولاده، فإن لم يكن له أولاد ذبح الشاة.

والناس يتركون دوابهم مهملة دون راع، بعد أن يسم كل واحد دوابه فى أفخاذها. وكذلك فعلنا فى هذه البلاد. واتفق أن تفقدنا خيلنا بعد عشر من نزولنا بها ففقدنا منها ثلاثة أفراس.

ولما كان بعد نصف شهر جاءنا التتر بها إلى منزلنا، خوفًا على أنفسهم من الأحكام. وكنا نربط فى كل ليلة إزاء أخبيتنا فرسين، لما عسى أن يقع بالليل. ففقدنا الفرسين ذات ليلة، سافرنا من هنالك. وبعد اثنتين وعشرين ليلة جاءوا بهما إلينا فى أثناء طريقنا. وكان أيضًا من أسباب إقامتنا خوف الثلج. فإن بأثناء الطريق جبلاً يقال له: هندوكوش، ومعناه: قاتل الهنود؛ لأن العبيد والجوارى الذين يؤتى بهم من بلاد الهند يموت هنالك الكثير منهم لشدة البرد وكثرة الثلوج، وهو مسيرة يوم كامل. وأقمنا حتى تمكنا من دخول الحر، وقطعنا ذلك الجبل من آخر الليل، وسلكنا به جميع نهارنا إلى الغروب. وكنا نضع اللبود بين أيدى الجمال تطأ عليها، لئلا تغرق فى الثلج. ثم سافرنا إلى موضع يُعرف بأندر. وكانت هنالك فيما تقدم مدينة عفا[1] رسمها. ونزلنا بقرية عظيمة فيها زاوية لأحد الفضلاء ويسمى بمحمد المهروى، ونزلنا عنده وأكرمنا. وكان متى غسلنا

(١) يُقال: عفا الأثر يعفُو عَفْوًا، وعفاء: زال وامّحى. وعفا الريح الأثر: محته ودرسته. الوجيز ص(٤٢٥).

أيدينا من الطعام يشرب الماء الذى غسلناها به لحسن اعتقاده وفضله. وسافر معنا إلى أن صعدنا جبل هندوكوش المذكور.

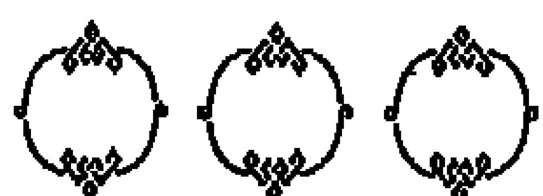
ووجدنا بهذا الجبل عين ماء حارة فغسلنا منها وجوهنا فتقشرت وتألمنا لذلك، ثم نزلنا بموضع يعرف ببنج هير، ومعنى بنج خمسة وهير هو الجبل، فمعناه خمسة جبال. وكانت هنالك مدينة حسنة كثيرة العمارة على نهر عظيم أزرق، كأنه بحر ينزل من جبال بدخشان. وبهذه الجبال يوجد الياقوت الذى يعرفه الناس بالبلخش. وخرب هذه البلاد تنكيز ملك التتر، فلم تعمر بعده. وبهذه المدينة مزار الشيخ سعيد المكى، وهو معظم عندهم، ووصلنا إلى جبل بَشَاى (وضبطه بفتح الباء المعقودة والشين المعجم وألف ياء ساكنة)، وبه زاوية الشيخ الصالح أَطَا أوليـاء وأطا (بفتح الهمزة)، معناه بالتركية الأب، وأولياء باللسان العربى، فمعناه أبو الأولياء، ويسمى أيضًا سِيصَدْ صَالَه، وسيصد (بسين مهمل مكسور وياء مد وصاد مهمل مفتوح ودال مهمل)، ومعناه بالفارسية ثلاثمائة، وصاله (بفتح الصاد المهمل واللام) معناه عام. وهم يذكرون أن عمره ثلاثمائه وخمسون عامًا. ولهم فيه اعتقاد حسن ويأتون لزيارته من البلاد والقرى، ويقصده السلاطين والخواتين. وأكرمنا وأضافنا، ونزلنا على نهر عند زاويته، ودخلنا إليه فسلمت عليه، وعانقنى، وجسمه رطب لم أر ألين منه، ويظن رائيه أن عمره خمسون سنة. وذكر لى أن فى كل مائة سنة ينبت له الشعر والأسنان، وأنه رأى أباهم الذى قبره بملتان من السند. وسألته عن رواية حديث فأخبرنى بحكايات، وشككت فى حاله، والله أعلم بصدقه. ثم سافرنا إلى بَرْوَن (وضبطها بفتح الباء المعقودة وسكون الراء وفتح الواو وآخرها نون)، وفيها لقيت الأمير بُرُنْطيه (وضبط اسمها بضم الباء وضم الراء وسكون النون وفتح الطاء المهمل وياء آخر الحروف مسكن وهاء)، وأحسن إلى وأكرمنى، وكتب إلى نوابه بمدينة غزنة فى إكرامى، وقد تقدم ذكره، وذكر ما أعطى من البسطة فى الجسم، وكان عنده جماعة من المشايخ والفقراء أهل الزوايا. ثم سافرنا إلى قرية الْجَرْخ (وضبط اسمها بفتح الجيم المعقودة وإسكان الراء وخاء معجم)، وهى كبيرة، لها بساتين كثيرة،

وفواكهها طيبة. قدمناها فى أيام الصيف ووجدنا بها جماعة من الفقراء والطلبة، وصلينا بها الجمعة. وأضافنا أميرها محمد الجرخى، ولقيته بعد ذلك بالهند. ثم سافرنا إلى مدينة غزنة، وهى بلد السلطان المجاهد محمود بن سبكتكين الشهير الاسم، وكان من كبار السلاطين يلقب بيمين الدولة وكان كثير الغزو إلى بلاد الهند، وفتح بها المدائن والحصون. وقبره بهذه المدينة عليه زاوية وقد خرب معظم هذه البلدة، ولم يبق منها إلا يسير، وكانت كبيرة. وهى شديدة البرد، والساكنون بها يخرجون عنها أيام البرد إلى مدينة القندهار، وهى كبيرة مخصبة، ولم أدخلها. وبينهما مسيرة ثلاث. ونزلنا بخارج غزنة فى قرية هنالك على نهر ماء تحت قلعتها، وأكرمنا أميرها مَرْذَكْ أَغَا، ومرذك (بفتح الميم وسكون الراء وفتح الذال المعجم)، ومعناه الصغير، وأغا (بفتح الهمزة والغين المعجم) ومعناه الكبير الأصل. ثم سافرنا إلى كابل، وكانت فيما سلف مدينة عظيمة، وبها الآن قرية يسكنها طائفة من الأعاجم يقال لهم الأفغان. ولهم جبال وشعاب وشوكة قوية، وأكثرهم قطاع الطريق. وجبلهم الكبير يسمى كوه سليمان. يذكر أن نبى الله سليمان -عليه السلام- صعد ذلك الجبل، فنظر إلى أرض الهند وهى مظلمة فرجع ولم يدخلها، فسمى الجبل به. وفيه يسكن ملك الأفغان. وبكابل زاوية الشيخ إسماعيل الأفغانى تلميذ الشيخ عباس من كبار الأولياء. ومنها رحلنا إلى كرماش. وهى حصن بين جبلين تقطع به الأفغان. وكنا حين جوازنا عليه نقاتلهم وهم بسفح الجبل ونرميهم بالنشاب فيفرون. وكانت رفقتنا مخفة ومعهم نحو أربعة آلاف فرس، وكانت لى جمال انقطعت عن القافلة لأجلها، ومعى جماعة بعضهم من الأفغان، وطرحنا بعض الزاد، وتركنا أحمال الجمال التى أعيت[1] بالطريق، وعادت إليها خيلنا بالغد فاحتملتها، ووصلنا إلى القافلة، بعد العشاء الآخرة، فبتنا بمنزل ششنغار، وهى آخر العمارة مما يلى بلاد الترك. ومن هنا دخلنا البرية الكبرى، وهى مسيرة خمس

(١) يُقال: أعيا الرجل أو البعير فى سيره: تعب تعبًا شديدًا. ويُقال: أعياه السير: أتعبه فأصبح لا يقدر على السير إلا بالجهد والمشقة. الوجيز ص(٤٤٤).

عـشـرة، لا تدخل إلا فى فـصل واحـد وهو بعـد نزول المـطر بأرض السند والهند، وذلك فى أوائل شهر يولية. وتهب فى هذه البرية ريح السموم القاتلة التى تعفن الجسـوم. حتى أن الرجل إذا مات تتفسخ أعضـاؤه. وقد ذكرنا أن هذه الريح تهب أيضًا فى البرية بين هرمز وشيراز. وكانت تقدمت أمامنا رفقة كبيرة فيها خداوند زاده قاضى ترمذ، فمات لهم جمال وخيل كثيرة. ووصلت رفقتنا سـالمة بحمد الله تعالى إلى بَنْج آب وهو ماء السـند، وبنج (بفتح الباء الموحدة وسكون النون والجيم) ومعناه خمسة وآب (بهمزة مفتوحة ممدودة وباء موحـدة) ومعناه الماء، فـمعنى ذلك الأودية الخـمسة، وهى تصب فـى النهر الأعظم، وتسقى تلك النواحى، وسنذكرها إن شـاء الله تعالى. وكان وصولنا لهذا النهر سلخ[1] ذى الحجة. واستهل علينا تلك الليلة هلال المحرم من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة. ومن هنالـك كتب المخبرون بخبرنا إلى أرض الهند، وعرفوا ملكها بكيفية أحوالنا.

وها هنا ينتهى بنا الكلام فى هذا السفر[2]. والحمد لله رب العالمين.



(١) يُقال: سَلَخْتُ الشَّـهر: إذا أمضـيتَه وصرتَ فى آخـره. ويُقال: انسلخ الشهـر من سنته. مختار الصحاح ص (٣٠٩).

(٢) السفر: الكتاب، أو: الكتاب الكبير. الوجيز ص(٣١٢).

الجزء الثانى

رحلة ابن بطوطة

(٧٠٣ - ٧٧٩هـ)

المسماة

تحفة النظار في غرائب الأمصار
وعجائب الأسفار

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى الطنجى المعروف بابن بطوطة رحمه الله تعالى:

ولما كان تاريخ الغرة[1] من شهر المحرم مفتتح عام أربعة وثلاثين وسبعمائة وصلنا إلى وادى السند المعروف ببنج آب، ومعنى ذلك المياه الخمس. وهذا الوادى من أعظم أودية الدنيا، وهو يفيض فى أوان الحر، فيزرع أهل تلك البلاد على فيضه، كما يفعل أهل الديار المصرية فى فيض[2] النيل. وهذا الوادى هو أول عمالة السلطان المعظم محمد شاه ملك الهند والسند. ولما وصلنا إلى هذا النهر جاء إلينا أصحاب الأخبار الموكلون بذلك، وكتبوا بخبرنا إلى قطب الملك أمير مدينة ملتان، وكان أمير أمراء السند على هذا العهد مملوك للسلطان يسمى سَرْتيز، وهو من عُرض المماليك، وبين يديه تعرض عساكر السلطان، ومعنى اسمه الحاد الرأس؛ لأن سَرْ (بفتح السين المهملة وسكون الراء) هو الرأس، وتيز (بتاء معلوة وياء مد وزاى) معناه الحاد. وكان فى حين قدومنا بمدينة سيوستان من السند. مدينة دهلى على مسيرة خمسين يومًا، وإذا كتب المخبرون إلى السلطان من بلاد السند يصل الكتاب إليه فى خمسة أيام بسبب البريد.

والبريد ببلاد الهند صنفان، فأما بريد الخيل فيسمونه الوُلاق (أوُلاق) (بضم الواو وآخره قاف)، وهو خيل تكون للسلطان، فى كل مسافة أربعة

---

(١) الغرة من الشهر: ليلة استهلال القمر. الوجيز ص(٤٤٨).

(٢) الفيض: الفيضان، وهو: طغيان النهر واندفاعه حين ترفده الأمطار والسيول. الوجيز ص(٤٨٦).

أميـال، وأما بريد الرجالة، فـيكون فى مسافـة الميل الواحد منه ثلاث رتب، ويسمونها الداوة (بالدال المهمل والواو)، والداوة هى ثلث ميل، والميل عندهم يسمى الكُرُوة (بضم الكاف والراء)، وترتيب ذلك أن يكون فى كل ثلث ميل قرية معـمورة، ويكون بخارجها ثـلاث قباب يقعد فـيها الرجال، مستعلين للحركة، قد شـدوا أوساطهم. وعند كل واحد منهم مقرعـة مقدار ذراعين، بأعلاها جلاجل نحـاس، فإذا خرج البريد من المدينة أخـذ الكتاب بأعلى يده والمقرعة ذات الجلاجل باليد الأخرى يشتد بمنتهى جهده.

فإذا سمع الرجال الذين بالقبـاب صوت الجلاجل تأهبوا. فإذا وصلهم. أخذ أحدهم الكتاب من يده ومر بأقصى جهده، وهو يحرك المقرع حتى يصل إلى الدواة الأخـرى. ولا يزالون كـذلك حتى يصل الكـتاب إلى حـيث يراد منه.

وهذا البريد أسـرع من بريد الخيل وربما حملوا على هذا البريـد الفواكه المستطرفة بالهند من فواكه خراسان يجعلونها فى الأطباق، ويشتدون بها حتى تصل إلى السلطان. وكذلك يحملون الكبار من ذوى الرتب، يجعلون الرجل على سرير، ويرفعونه فـوق رؤوسهم ويسيرون به شداًّ. وكذلك يحملون الماء لشـرب السلطان، إذا كـان بدولة أباد، يحـملونـه من نهـر الكنك الذى تحج الهنود إليه، وهو على مسيرة أربعين يومًا منها.

وإذا كتب المخبـرون إلى السلطان بخبر من يصل إلى بلاده، استـوعبوا الكتاب وأمـعنوا فى ذلك، وعرفـوه أنه ورد رجل صورته كـذا ولباسـه كذا، وكتـبوا عـدد أصحـابه وغلمانه وخـدامه ودوابه، وترتيب حـاله فى حركـته وسكونه، وجميع تصرفاته لا يغادرون من ذلك شيئًا.

فإذا وصل الوارد مدينـة ملتان، وهى قاعدة بلاد السند، أقـام بها حتى ينفذ أمـر السلطان بقدومـه، وما يُجرى له من الضـيافـة، وإنما يكرم الإنسان هنالك بقدر ما يظهر من أفعاله وتصرفاته وهمته، إذ لا يعرف هنالك ما حسبه ولا آباؤه.

من عـادة ملك الهند السلطان أبى المجـاهد محـمد شـاه إكرام الغـرباء ومحبتهم وتخـصيصهم بالولايات والمراتب الرفيعة. ومعـظم خواصه وحجابه ووزرائه وقـضاته وأصـهاره غـرباء. ونفـذ أمره بأن يسـمى الغـرباء فى بلده الأعزة. فصـار لهم ذلك اسمًا وعلمًـا. ولا بد لكل قادم على هذا الملك من هدية يهديها إليه، ويقدمها وسيلة بين يـديه. فيكافئه السلطان عليها بأضعاف مضاعفة، وسيمر من ذكـر هدايا الغرباء إليه كثير. ولما تعود الناس ذلك منه، صار التجار الذين ببـلاد السند والهند يعطون لكل قادم على السلطان الآلاف من الدنانير دينًا ويـجهزونه بما يريد أن يهـديه إليه أو يتصـرف فيه لنفـسه من الدواب للركوب والجمـال والأمتعة ويخـدمونهم بأموالهم وأنفسـهم، ويقفون بين يديه كـالحـشم، فإذا وصل إلى السلـطان أعطاه العطاء الجـزيل، فقـضى ديونهم ووفاهم حقوقهم، فنفقـت تجارتهم وكثرت أرباحهم. وصار لهم ذلك عادة مسـتمرة. ولما وصلت إلى بلاد السند، سلكتُ ذلك المنهـج، واشتريتُ من التجـار الخيلَ والجـمال والمماليـك وغير ذلك. ولقـد اشتـريت من تاجر عراقى من أهل تكريت يـعرف بمحمد الـدورى بمدينة غزنة نحو ثلاثين فـرسًا وجملاً عليـه حمل من النشاب، فإنه مما يهدى إلـى السلطان، وذهب التاجر المذكور إلى خراسـان ثم عاد إلى الهند، وهنالك تقاضى منى مائة، واسـتفاد بسبـبى فائدة عظيمة، وعـاد من كبار التجـار. ولقيتـه بمدينة حلب بعد سنين كثيرة، وقد سلبنى الكفار ما كان بيدى فلم ألق منه خيراً.

ولما أَجَـزْنا نهر السند المـعروف ببنج آب دخلنا غـيـضة قـصب لسلوك الطريق لأنه فى وسطهـا، فخرج علينا الكركـدن، وصورته أنه حيـوان أسود اللون عظيم الجرم، ورأسـه كبير متـفاوت الضخامـة، ولذلك يضرب به المثل فيـقال: الكركدن رأس بلابدن، وهو دون الفـيل ورأسه أكبـر من رأس الفيل بأضعاف. وله قـرن واحد بين عينيه، طوله نحو ثلاثين أذرع، وعـرضه نحو شبر. ولما خـرج علينا عارضه بعض الفرسان فى طريقه فـضرب الفرس الذى كان تحته بقرنه فـأنفذ فخذه وصرعه، وعاد إلى الغيضـة فلم نقدر عليه. وقد رأيت الكركدن مرة ثانية فى هذا الطريق بعـد صلاة العصر، وهو يرعى نبات

الأرض. فلما قصدناه هرب منا. ورأيته مرة أخرى ونحن مع ملك الهند، دخلنا غيضة قصب وركب السلطان على الفيل وركبنا معه الفيلة، ودخلت الرجالة والفرسان فأثاروه وقتلوه واستاقوا رأسه إلى المحلة.

وسرنا من نهر السند يومين ووصلنا إلى مدينة جَنّانى (وضبط اسمها بفتح الجيم والنون الأولى وكسر الثانية) مدينة كبيرة على ساحل نهر السند لها أسواق مليحة، وسكانها طائفة يقال لهم: السامرة، استوطنوها قديمًا واستقر بها أسلافهم حين فتحها على أيام الحجاج بن يوسف، حسبما أثبت المؤرخون فى فتح السند. وأخبرنى الشيخ الإمام العالم العامل العابد الزاهد ركن الدين أبو الشيخ الفقيه الصالح شمس الدين ابن الشيخ الإمام العابد الزاهد بهاء الدين زكريا القرشى، وهو أحد الثلاثة الذين أخبرنى الشيخ الولى الصالح برهان الدين الأعرج بمدينة الإسكندرية أنى سألقاهم فى رحلتى فلقيتهم والحمد لله، أن جده الأعلى كان يسمى بمحمد بن قاسم القرشى، وشهد فتح السند فى العسكر الذى بعثه لذلك الحجاج بن يوسف أيام إمارته على العراق، وأقام بها وتكاثرت ذريته. وهؤلاء الطائفة المعروفون بالسامرة لا يأكلون مع أحد ولا ينظر إليهم أحد حين يأكلون، ولا يصاهرون أحدًا من غيرهم، ولا يصاهر إليهم أحد. وكان لهم فى هذا العهد أمير يسمى وُنَار (بضم الواو وفتح النون)، وسنذكر خبره. ثم سافرنا من مدينة جنانى إلى أن وصلنا إلى مدينة سِيوُستان (وضبط اسمها بكسر السين الأول المهمل وياء مد وواو مفتوح وسين مكسور وتاء معلوة وآخره نون) وهى مدينة كبيرة، وخارجها صحراء ورمال، لا شجر بها إلا شجر أم غيلان. ولا يزرع على نهرها شىء ما عدا البطيخ. وطعامهم الذرة والجلبان ويسمونه المُشُنْك (بميم وشين معجم مضمومين ونون مسكن)، ومنه يصنعون الخبز، وهى كثيرة السمك والألبان الجاموسية، وأهلها يأكلون السقنقور، وهى دويبة شبيهة بأم حُبين التى يسميها المغاربة حنيشة الجنة إلا أنها لا ذنب لها. ورأيتهم يحتفرون الرمل ويستخرجونها منه ويشقون بطنها ويرمون بما فيه ويحشونه بالكركم، وهم يسمونه زردشوبة، ومعناه العود الأصفر، وهو عندهم عوض الزعفران،

ولما رأيت تلك الدويبة وهم يأكلونها استقذرتها فلم آكلها. ودخلنا هذه المدينة فى احتدام القيظ وحرها شديد. فكان أصحابى يقعدون عريانين، يجعل أحدهم فوطة على وسطه وفوطة على كتفيه مبلولة بالماء، فما يمضى اليسير من الزمان حتى تيبس تلك الفوطة، فيبلها مرة أخرى، وهكذا أبدًا. ولقيت بهذه المدينة خطيبها المعروف بالشيبانى، وأرانى كتاب أمير المؤمنين الخليفة عمر ابن عبد العزيز -رضي الله عنه- لجده الأعلى بخطابة هذه المدينة. وهم يتوارثونها من ذلك العهد حتى الآن. ونص الكتاب: هذا ما أمر به عبد الله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لفلان وتاريخه سنة تسع وتسعين، وعليه مكتوب بخط أمير المؤمنين لفلان عمر بن عبد العزيز الحمد الله وحده على ما أخبرنى الخطيب المذكور.

ولقيت بها الشيخ المعمر محمد البغدادى وهو بالزاوية التى على قبر الشيخ الصالح عثمان المرتدى. وذكر أن عمره يزيد على مائة وأربعين سنة، وأنه حضر مقتل المستعصم بالله آخر خلفاء بنى العباس -رضي الله عنهم- قتله الكافر هلاون بن تنكيز التترى. وهذا الشيخ على كبر سنه قوى الجثة يتصرف على قدميه.

وكان يسكن بهذه المدينة الأمير ونار السامرى الذى تقدم ذكره، والأمير قيصر الرومى، وهما فى خدمة السلطان، ومعهما نحو ألف وثمانمائة فارس. وكان يسكن بها كافر من الهنود اسمه رتَن (بفتح الراء وبفتح التاء المعلوة والنون)، وهو من الحذاق[١] بالحساب والكتابة. فوفد على ملك الهند مع بعض الأمراء، فاستحسنه السلطان وسماه عظيم السند، وولاه بتلك البلاد، وأقطعه سيوستان وأعمالها، وأعطاه المراتب، وهى الأطبال والعلامات كما يعطى كبار الأمراء. فلما وصل إلى تلك البلاد عظم على ونار وقيصر وغيرهم تقديم الكافر عليهم، فأجمعوا على قتله. فلما كان بعد أيام من

(١) الحذاق جمع حاذق، يُقال: حَذَقَ فلان العمل، وفيه حِذقًا: أوغَلَ فى ممارسته حتى مهر فيه، فهو حاذق. الوجيز ص(١٤١).

قدومه أشاروا عليه بالخروج إلى أحواز المدينة ليطلع على أمورها فخرج معهم. فلما جَنَّ الليل(١) أقاموا ضجة بالمحلة، وزعموا أن السبع ضرب عليها. وقصدوا ضرب الكافر فقتلوه، وعادوا إلى المدينة فأخذوا ما كان بها من مال السلطان، وذلك اثنا عشر لكًّا واللَّك مائة ألف دينار، وصرف اللَّك عشرة آلاف دينار من ذهب الهند، وصرف الدينار الهندى ديناران ونصف دينار من ذهب المغرب. وقدموا على أنفسهم ونار المذكور، وسموه ملك فيروز، وقسم الأموال على العسكر. ثم خاف على نفسه لبعده عن قبيلته، فخرج فيمن معه من أقاربه، وقصد قبيلته، وقدم الباقون من العسكر على أنفسهم قيصر الرومى، واتصل خبرهم بعماد الملك سرتيز مملوك السلطان، وهو يومئذ أمير أمراء السند وسكناه بملتان. فجمع العساكر وتجهز فى البر وفى نهر السند. وبين ملتان وسيوستان عشرة أيام، وخرج إليه قيصر، فوقع اللقاء وانهزم قيصر ومن معه أشنع هزيمة، وتحصنوا بالمدينة، فحاصرهم ونصب المجانيق عليهم، واشتد عليهم الحصار، فطلبوا الأمان بعد أربعين يومًا من نزوله عليهم فأعطاهم الأمان. فلما نزلوا إليه غدرهم وأخذ أموالهم وأمر بقتلهم. فكان كل يوم يضرب أعناق بعضهم ويوسط بعضهم ويسلخ آخرين منهم ويملأ جلودهم تبنًا ويعلقها على السور. فكانت تلك الجلود مصلوبة، ترعب من ينظر إليها. وجمع رؤوسهم فى وسط المدينة، فكانت مثل التل هنالك. ونزلت بتلك المدينة إثر هذه الوقعة بمدرسة فيها كبيرة، وكنت أنام على سطحها فإذا استيقظت من الليل أرى تلك الجلود المصلوبة فتشمئز النفس منها، ولم تطب نفسى بالسكنى بالمدرسة فانتقلت عنها. وكان الفقيه الفاضل العادل علاء الملك الخراسانى المعروف بفصيح الدين قاضى هراة فى متقدم التاريخ، قد وفد على ملك الهند فولاه مدينة لاهرى وأعمالها من بلاد السند، وحضر هذه الحركة مع عماد الملك سرتيز بمن معه من العساكر. فعزمت على السفر معه إلى مدينة لاهرى. وكان له خمسة عشر مركبًا قدم بها فى نهر السند تحمل أثقاله فسافرت.

---

(١) جن الليل يُجن جنًّا: أظلم، ويُقال: جن الظلام: اشتد. الوجيز ص(١٢١).

وكان للفقيه علاء الملك في جملة سفنه سفينة تعرف بالأَهْوَرَة (بفتح الهمزة والهاء وسكون الواو وفتح الراء)، وهي نوع من الطريدة عندنا إلا أنها أوسع منها وأقصر، وعلى نصفها مرعش من خشب يصعد له على درج، وفوقه مجلس مهيأ لجلوس الأمير، ويجلس أصحابه بين يديه. ويقف المماليك يمنة ويسرة، والرجال يقذفون وهم نحو أربعين. ويكون مع هذه الأهورة أربع من السفن عن يمينها ويسارها، اثنتان فيهما مراتب الأمير، وهي العلامات والطبول والأبواق والأنفار والصرنايات وهي الغيطات، والأخريان فيهما أهل الطرب فتضرب الطبول والأبواق نوبة، ويغني المغنون نوبة. ولا يزالون كذلك من أول النهار إلى وقت الظهر. فإذا كان وقت الغداء اجتمعت المراكب، ووصل بعضها ببعض، ووضعت بينهما الإصقالات، وأتى أهل الطرب إلى أهورة الأمير، فيغنون إلى أن يفرغ من أكله، ثم يأكلون وإذا فرغوا من الأكل عادوا إلى سفنهم وشرعوا في المسير على ترتيبهم إلى الليل. فإذا كان الليل ضربت المحلة على شاطئ النهر ونزل الأمير إلى خيامه ومد السماط[1] وحضر الطعام معظم العسكر فإذا صلوا العشاء الأخيرة سمر السمار بالليل نوبًا، فإذا أتم أهل النوبة منهم نوبتهم نادى مناد منهم بصوت عال يا خوند ملك، قد مضى من الليل كذا من الساعات ثم يسمر أهل النوبة الأخرى، فإذا أتموها نادى مناديهم أيضًا معلمًا بما مر من الساعات. فإذا كان الصبح ضربت الأبواق والطبول وصُليت صلاة الصبح وأتى بالطعام. فإذا فرغ الأكل، أخذوا في المسير. فإن أراد الأمير ركوب النهر ركب على ما ذكرناه من الترتيب، وإن أراد المسير في البر ضربت الأطبال والأبواق، وتقدم حجابه، ثم تلاهم المشاؤون بين يديه، ويكون بين أيدي الحجاب ستة من الفرسان، عند ثلاثة منهم أطبال قد تقلدوها وعند ثلاثة صرنايات. فإذا أقبلوا على قرية أو ما هو من الأرض مرتفع ضربوا تلك الأطبال والصرنايات. ثم تدق أطبال العسكر

---

(١) السِّماط: ما يمد ليوضع عليه الطعام في المآدب ونحوها، وجمعه سُمُط، وأسمطة. الوجيز ص(٣٢١).

وأبواقه، ويكون عن يمين الحجاب ويسارهم المغنون يغنون نوبًا، فإذا كان وقت الغذاء نزلوا.

وسافرت مع علاء الملك خمسة أيام، ووصلنا إلى موضع ولايته، وهو مدينة لاهَرِى (وضبط اسمها بفتح الهاء وكسر الراء) مدينة حسنة على ساحل البحر الكبير، وبها يصب نهر السند فى البحر، فيلتقى بها بحران، ولها مرسى عظيم، يأتى إليه أهلُ اليمن وأهلُ فارس وغيره. بذلك عظمت جباياتها وكثرت أموالها. أخبرنى الأمير علاء الملك المذكور أن مجبى هذه المدينة ستون لكًّا فى السنة، وقد ذكرنا مقدار اللَّك[1]، وللأمير من ذلك نم (نيم) ده يك، ومعناه نصف العشر. وعلى ذلك يعطى السلطان البلاد لعماله يأخذون منها لأنفسهم نصف العشر.

وركبت يومًا مع علاء الملك فانتهينا إلى بسيطٍ من الأرض على مسافة سبعة أميال منها يعرف بتارنا، فرأيت هنالك ما لا يحصره العد من الحجارة على مثل صور الآدميين والبهائم، وقد تغير كثير منها ودثرت أشكاله، فيبقى منه صورة رأس أو رجل أو سواهما. ومن الحجارة أيضًا على صورة الحبوب من البُرِّ والحمص والفول والعدس، وهنالك آثار سور وجدران دور، ثم رأينا رسم دار فيها بيت من حجارة منحوتة وفى وسطه دكانة حجارة منحوتة كأنها حجر واحد عليها صورة آدمى، إلا أن رأسه طويل وفمه فى جانب من وجهه، ويداه خلف ظهره كالمكتوف. وهنالك مياه شديدة النتن، وكتابة على بعض الجدران بالهندى. وأخبرنى علاءالملك أن أهلَ التاريخِ يزعمون أن هذا الموضع كانت فيه مدينة عظيمة أكثر أهلها الفساد فمسخوا حجارة، وأن ملكهم هو الذى على الدكانة فى الدار التى ذكرناها، وهى الآن تسمى دار الملك، وأن الكتابة التى فى بعض الحيطان بالهندى هى تاريخ هلاك أهل تلك المدينة وكان ذلك منذ ألف سنة أو نحوها. وأقمت بهذه المدينة مع علاء الملك

(١) اللَّك: مائة ألف دينار، وصرف اللك عشرة آلاف دينار من ذهب الهند، وصرف الدينار الهندى ديناران ونصف دينار من ذهب المغرب.

خمسة أيام، ثم أحسن الزاد وانصرفت عنه إلى مدينة بكار (بفتح الباء الموحدة)، وهى مدينة حسنة يشقها خليج من نهر السند. وفى وسط ذلك الخليج زاوية حسنة فيها الطعام للوارد والصادر. عمّرها كشلوخان أيام ولايته على بلاد السند، وسيقع ذكره. ولقيت بهذه المدينة الفقيه الإمام صدر الدين الحنفى، ولقيت بها قاضيها المسمى بأبى حنيفة، ولقيت بها الشيخ العابد الزاهد شمس الدين محمد الشيرازى، وهو من المعمرين، ذكر لى أن سنه يزيد على مائة وعشرين عامًا. ثم سافرت من مدينة بكار فوصلت إلى مدينة أُوجَه (وضبط اسمها بضم الهمزة وفتح الجيم) وهى مدينة كبيرة على نهر السند، لها أسواق حسنة وعمارة جيدة. وكان الأمير بها إذ ذاك الملك الفاضل الشريف جلال الدين الكيجى أحد الشجعان الكرماء، وبهذه المدينة توفى بعد سقطة سقطها عن فرسه.

ونشأت بينى وبين هذا الملك الشريف جلال الدين مودة، وتأكدت بيننا الصحبة والمحبة، واجتمعنا بحضرة دهلى. فلما سافر السلطان إلى دولة أباد، كما سنذكره، وأمرنى بالإقامة بالحضرة، قال لى جلال الدين: إنك تحتاج إلى نفقة كبيرة، والسلطان تطول غيبته، فخذ قريتى واستغلها حتى أعود، ففعلت ذلك. واستغللت منها نحو خمسة آلاف دينار، جزاه الله أحسن الجزاء.

ولقيت بمدينة أوجه الشيخ العابد الزاهد الشريف قطب الدين حيدر العلوى، وألبسنى الخرقة، وهو من كبار الصالحين. ولم يزلِ الثوبُ الذى ألبسنيه معى، إلى أن سلبنى كفار الهنود فى البحر. ثم سافرت من أوجه إلى مدينة مُلتان (وضبط اسمها بضم الميم وتاء معلوة)، وهى قاعدة بلاد السند، ومسكن أمير أمرائه. وفى الطريق إليها على مسافة عشرة أميال الوادى المعروف بخسرو أباد، وهو من الأودية الكبار، لا يجاز إلا بالمراكب. وبه يبحث عن أمتعة المجتازين أشد البحث وتفتش رحالهم. وكانت عادتهم حين وصلنا إليها أن يأخذوا الربع من كل ما يجلبه التجار، ويأخذوا على كل فرس سبعة دنانير مغرمًا.

ثم بعد وصولنا للهند بسنتين رفع السلطان تلك المغارم، وأمر أن لا يؤخذ من الناس إلا الزكاة والعشر، لما بايع للخليفة أبى العباس العباسى. ولما أخذنا فى إجازة هذا الوادى وفتشت الرحال، عظم على تفتيش رحلى، لأنه لم يكن فيه طائل، وكان يظهر فى أعين الناس كبيراً، فكنت أكره أن يطلع عليه. ومن لطف الله تعالى أن وصل أحد كبار الأجناد من جهة قطب الملك صاحب ملتان، فأمر أن لا يعرض لى ببحث ولا تفتيش، فكان كذلك. فحمدت الله على ما هيأه لى من لطائفه. وبتنا تلك الليلة على شاطئ الوادى، وقدم علينا فى صبيحتها ملك البريد واسمه دهقان، وهو سمرقندى الأصل، وهو الذى يكتب للسلطان بأخبار تلك المدينة وعمالتها وما يحدث بها ومن يصل، فتعرفت به ودخلت بصحبته إلى أمير ملتان.

وهو قطب الملك من كبار أمرائهم وفضلائهم. ولما دخلت عليه قام إلى وصافحنى وأجلسنى إلى جانبه. وأهديت له مملوكًا وفرسًا وشيئًا من الزبيب واللوز، وهو من أعظم ما يهدى إليهم، لأنه ليس ببلادهم، وإنما يجلب من خراسان. وكان جلوس هذا الأمير على دكانة كبيرة عليها البسط، وعلى مقربة منه القاضى، ويسمى سالارو، والخطيب ولا أذكر اسمه، وعن يمينه ويساره أمراء الأجناد، وأهل السلاح وقوف على رأسه، والعساكر تعرض بين يديه. وهناك قسى كثيرة. فإذا أتى من يريد أن يثبت فى العسكر راميًا أعطى قوسًا من تلك القسى ينزع فيها، وهى متفاوتة فى الشدة. فعلى قدر نزعه[1] يكون مرتبه. ومن أراد أن يثبت فارسًا، فهنالك طبلة منصوبة، فيجرى فرسه ويرميها برمحه. وهناك أيضًا خاتم معلق فى حائط صغير، فيجرى فرسه حتى يحاذيه. فإن رفعه برمحه فهو الجيد عندهم، ومن أراد أن يثبت راميًا فارسًا فهنالك كرة موضوعة فى الأرض، فيجرى فرسه ويرميها، وعلى قدر ما يظهر من الإنسان فى ذلك من الإصابة يكون مرتبه. ولما دخلنا على هذا الأمير وسلمنا عليه، كما ذكرناه، أمر بإنزالنا فى دار خارج المدينة، هى لأصحاب

---

(١) يعنى: على قدر قوة رميه بالقوس.

الشيخ العابد ركن الدين الذى تقدم ذكره، وعـادتهم أن لا يضيفوا أحدًا حتى يأتى أمر السلطان.

وقد اجتمعت به فى هذه المدينة وبعـدد من الغرباء الوافدين على حضرة ملك الهند منهم خداوند زاده قوام الدين قـاضى ترمذ، قدم بأهله وولده، ثم ورد عليه بهـا إخوته عماد الدين وبرهان الدين ومنـهم مبارك شاه أحـد كبار سـمرقند، ومنهم أرن بـغا أحـد كبـار بخـارى، ومنهم ملك زاده ابن أخت خداوند زاده، ومنهم بدر الدين الفصال، وكل واحـد من هؤلاء معه أصحابه وخـدامه وأتبـاعه، ولما مـضى من وصولـنا إلى ملتان شـهران، وصل أحـد حـجاب السلطان، وهو شـمس الدين البـوشنجى، والملك محـمد الهـروى الكتوال، بعثهما السلطان لاستقبال خداوند زاده. وقدم معهم ثلاثة من الفتيان بعثتهم المخدومة جهان أم السلطان لاستقبال زوجة خداوند زاده المذكور. وأتوا بالخلع لهمـا ولأولادهما، ولتجهيـز من قدم من الوفود، وأتوا جمـيعًا إلى، وسألونى لماذا قدمت، فـأخبرتهم أنى قدمت للإقامة فى خـدمة خوند عالم، وهو السلطان، وبهذا يدعى فى بلاده. وكان أمر أن لا يترك أحد ممن يأتى من خـراسان يدخل بلاد الهند، إلا إن كـان برسم الإقـامة. فلمـا أعلمتـهم أنى قدمت للإقامة، استدعوا القـاضى والعدول، وكتبوا عقدًا على وعلى من أراد الإقامة من أصحابى. وأبى بعضهم ذلك. وتجهزنا للسفر إلى الحضرة.

وبين ملتان وبينهمـا مسيرة أربعين يومًا فى عمـارة متصلة. وأخرج الحاجب وصاحبـه الذى بعث معه ما يحتاج إليه فى ضـيافة قوام الدين، واستصحبوا من ملتان نحو عشـرين طباخًا. وكان الحاجب يتقدم ليلاً إلى كل منزل، فيـجهـز الطعام وسواه، فـما يصل خداونـد زاده حتى يكون الطعام مـتيـسرًا. وينزل كل واحـد ممن ذكرناهم من الوفـود على حدة، بمضاربه، وأصحابه. وربما حضروا الطعام الذى يصنع لخداوند زاده. ولم أحضـره أنا إلا مرة واحـدة. وترتيب ذلك الطعام أنـهم يجعلون الخـبز، وخبزهم الرقاق وهو شبه الجراديق، ويقطعون اللحم المشوى قطعًا كبيرة، بحيث تكون الـشاة أربع قطع أو ستًا، ويجعلون أمـام كل رجل قطعة. ويجعلون أقراصًا مصنوعة بالسمن تشـبه الخبز المشترك ببلادنا، ويجعلون

فى وسطها الحلواء الصابونية، ويغطون كل قرص منها برغيف حلواء يسمونه الخشتى، ومعناه الآجرى، مصنوع من الدقيق والسكر والسمن. ثم يجعلون اللحم المطبوخ بالسمن والبصل والزنجبيل الأخضر فى صحاف صينية ثم يجعلون شيئًا يسمونه سموسك، وهو لحم مهروس مطبوخ باللوز والجوز والفستق والبصل والأبازير، موضوعة فى جوف رقاقة مقلوة بالسمن. يضعون أمام كل إنسان خمس قطع من ذلك أو أربعًا، ثم يجعلون المطبوخ بالسمن عليه الدجاج، ثم يجعلون لقيمات القاضى ويسمونه الهاشمى، ثم يجعلون القاهرية. ويقف الحاجب على السماط قبل الأكل، ويخدم إلى الجهة التى فيها السلطان، ويخدم جميع من حضر لخدمته، والخدمة عندهم حط الرأس نحو الركوع، فإذا فعلوا ذلك، جلسوا للأكل. ويؤتى بأقداح الذهب والفضة والزجاج مملوءة بماء النبات وهو الجلاب محلولاً فى الماء، ويسمون ذلك الشربة، ويشربونه قبل الطعام. ثم يقول الحاجب: بسم الله: فعند ذلك يشرعون فى الأكل. فإذا أكلوا أتوا بأكواز الفقاع فإذا شربوه، أتوا بالتنبول والفوفل: وقد تقدم ذكرهما، فإذا أخذوا التنبول والفوفل قال الحاجب: بسم الله. فيقومون ويخدمون مثل خدمتهم أولاً، وينصرفون.

ثم سافرنا من مدينة ملتان، وهم يجرون هذا الترتيب على ما سطرناه، إلى أن وصلنا إلى بلاد الهند. وكان أول بلد، دخلناه مدينة أبوهَر (بفتح الهاء)، وهى أول تلك البلاد الهندية، صغيرة حسنة كثيرة العمارة، ذات أنهار وأشجار. وليس هنالك من أشجار بلادنا شىء. ما عدا النبق، لكنه عندهم عظيم الجرم، تكون الحبة منه بمقدار حبة العفص[1]، شديد الحلاوة. ولهم أشجار كثيرة، ليس يوجد منها شىء ببلادنا ولا بسواها.

---

(١) العفص: شجرة البلوط، وثمرها، وهو دواء قابض مجفف، وربما اتخذوا منه حبرًا أو صبغًا. الوجيز ص(٤٢٥).

أشجار بلاد الهند وفواكهها

منها العَنْبَةُ (بفتح العين وسكون النون وفتح الباء الموحدة)، وهى شجرة تشبه أشجار النارنج، إلا أنها أعظم أجرامًا[١] وأكثر أوراقًا وظلها أكثر الظلال، غير أنه ثقيل فمن نام تحته وعك. وثمرها على قدر الإجاص الكبير. فإذا كان أخضر قبل تمام نضجه أخذوا ما سقط منه، وجعلوا عليه الملح، وصيروه كما يصير الليم والليمون ببلادنا. وكذلك يصيرون أيضًا الزنجبيل الأخضر وعناقيد الفلفل. ويأكلون ذلك مع الطعام، يأخذون بأثر كل لقمة يسيرًا من هذه المملوحات[٢] فإذا نضجت العنبة فى أوان الخريف، اصفرت حباتها فأكلوها كالتفاح. فبعضهم يقطعها بالسكين، والآخر يمصها مصًّا. وهى حلوة يمازج حلاوتها يسير حموضة. ولها نواة كبيرة يزرعونها فتنبت منها الأشجار، كما تزرع نوى النارنج وغيرها. والشَّكِي والبَرْكى (بفتح الشين المعجم وكسر الكاف، وفتح الباء الموحدة وكسر الكاف). وهى أشجار عادية، أوراقها كأوراق الجوز، وثمرها يخرج من أصل الشجر، فما اتصل منه بالأرض فهو البركى، وحلاوته أشد وطعمه أطيب، وما كان فوق ذلك فهو الشكى وثمره يشبه القرع الكبار، وجلوده تشبه جلود البقر، فإذا اصفر فى أوان الخريف قطعوه وشقوه. فيكون فى داخل كل حبة المائة والمائتان. فما بين ذلك من حبات تشبه الخيار، بين كل حبة وحبة صفاق أصفر اللون، ولكل حبة نواة تشبه الفول الكبير، وإذا شويت هذه النواة أو طبخت يكون طعمها كطعم الفول، إذ ليس يوجد هنالك. ويدخرون هذه النوى فى التراب الأحمر فتبقى إلى سنة أخرى. وهذا الشكى والبركى هو خير فاكهة ببلاد الهند. والتَنْدو (بفتح التاء المثناة وسكون النون وضم الدال) وهو ثمر شجر الأبنوس، وحباته قدر حبات المشمش، ولونها، وهو شديد الحلاوة، والجُوز (بضم الجيم

---

(١) أعظم أجرامًا: أى أكبر حجمًا، والجِرْمُ: الجسد، ويجمع على جروم أيضًا. الوجيز ص(١٠٢).

(٢) يُقصد به المُخَلّلات، والمُخَلَّلُ: الخيار والزيتون ونحوهما، يملح ثم يوضع عليه الخل ويؤكل. الوجيز ص(٢١٠).

المعقـودة) وأشجـاره عادية، ويشـبه ثمـره الزيتون، وهو أسـود اللون، ونواه واحدة كـالزيتون، والنارنج الحلو، وهو عندهم كـثير. وأمـا النارنج الحامض فعزيز الوجود. ومنه صنف ثالث يكون بين الحلو والحامض، وثمره على قدر الليم وهو طيب جدًّا، وكنت يعجبنى أكله، ومنهـا المهْوَا (بفتح الميم والواو) وأشجاره عادية وأوراقه كأوراق الجوز، إلا أن فيها حمرة وصفرة، وثمره مثل الإجاص الصغيـر شديد الحلاوة. وفى أعلى كل حبة منه حبة صـغيرة بمقدار حبة العنب مجوفة وطعمها كالعنب.

إلا أن الإكثار من أكلها يحدث فى الرأس صداعًا، ومن العجب أن هذه الحبوب إذا يبست فى الـشمس كان طعمها كطعم التين، وكـنت آكلها عوضًا عن التـين إذ لا يوجد ببـلاد الهند، وهم يسـمون هذه الحـبة الأَنْكُور (بفـتح الهمزة وسكون النـون وضم الكاف المعقودة والواو والراء)، وتفسيـره بلسانهم العنب. والعنب بأرض الهند عزيز جدًّا، ولا يكون بها إلا فى موضع بحضرة دهلى، وببلاد أخرى، ويثمر مـرتين فى السنة. ونوى هذا الثمر يصنعون منه الزيت، ويستصبحـون به. ومن فواكههم فاكهة يسمونهـا كَسِيرا (بفتح الكاف وكسـر السين المهـمل وياء مد وراء) يـحفرون علـيها الأرض، وهى شـديدة الحلاوة تشبه القسطل. وببلاد الهند من فـواكه بلادنا الرمان، ويثمر مرتين فى السنة. ورأيته ببلاد جزائر ذيبة المهل لا ينقطع له ثمر، وهم يسمونه أنَار (بفتح الهمزة والنون)، وأظن ذلك هو الأصل فى تسمية الجلنار، فإن جُل بالفارسية الزهر، ونار الرمان.

أما عن الحبوب التى يزرعها أهل الهند ويقتاتون بها فأهل الهند يزرعون مرتين فى السنة. فإذا نزل المطر عندهم فى أوان القـيظ زرعوا الزرع الخريفى، وحصدوه بعد ستين يومًا من زراعته. ومن هذه الحبوب الخريفية عندهم الكُذْرُو (بضم الكاف وسكون الذال المعـجم وضم الراء وبعـدها واو)، وهو نوع من الدخن. وهذا الكذرو هو أكـثر الحبـوب عندهم. ومنها القـال (بالقاف) وهو شبه أنلى، ومنها الشَـاماخ (بالشين والخاء المعجمـتين)، وهو أصغر حبًّا من القال. وربما نبت الشامـاخ من غير زراعة، وهو طعـام الصالحين وأهل الورع

والفقراء والمساكين. يخرجون لجمع ما نبت منه من غير زراعة، فيمسك أحدهم قفة كبيرة بيساره، وتكون بيمناه مقرعة يضرب بها الزرع فيسقط فى القفة، فيجمعون منه ما يقتاتون به جميع السنة. وحب هذا الشاماخ صغير جدًّا، وإذا جمع جعل فى الشمس، ثم يدق فى مهارس الخشب، فيطير قشره ويبقى لبه أبيض. ويصنعون منه عصيدة[1] يطبخونها بحليب الجواميس، وهى أطيب من خبزه، وكنت آكلها كثيراً ببلاد الهند وتعجبنى. ومنها الماش، وهو نوع من الجلبان، ومنها الُمنج (بميم مضموم ونون وجيم). وهو نوع من الماش إلا أن حبوبه مستطيلة ولونه صافى الخضرة، ويطبخون المنج مع الأرز ويأكلونه بالسمن ويسمونه كُشْرى (بالكاف والشين المعجم والراء)، وعليه يفطرون فى كل يوم. وهو عندهم كالحريرة ببلاد المغرب. ومنها اللوبيا وهى نوع من الفول، ومنها الموث (بضم الميم) وهو مثل الكذرو، إلا أن حبوبه أصغر، وهو من علف الدواب عندهم، وتسمن الدواب بأكله، والشعير عندهم لا قوة له، وإنما علف الدواب من هذا الموث، أو الحمص ويجرشونه[2] ويبلونه بالماء ويطعمونه الدواب، ويطعمونها عوضًا من القصيل أوراق الماش، بعد أن تسقى الدابة السمن عشرة أيام، فى كل يوم مقدار ثلاثة أرطال أو أربعة، ولا تركب فى تلك الأيام. وبعد ذلك يطعمونها أوراق الماش كما ذكرنا شهراً أو نحوه، وهذه الحبوب التى ذكرناها هى الخريفية وإذا حصدُوها بعد ستين يومًا من زراعتها ازدرعوا الحبوب الربيعية، وهى القمح والشعير والحمص والعدس. وتكون زراعتها فى الأرض التى كانت الحبوب الخريفية مزدرعة فيها. وبلادهم كريمة طيبة التربة. وأما الأرز فإنهم يزرعونه ثلاث مرات فى السنة، وهو من أكبر الحبوب عندهم. ويزدرعون السمسم وقصب السكر مع الحبوب الخريفية التى تقدم ذكرها.

(**ولنعد إلى ما كنا بسبيله فأقول**): سافرنا من مدينة أبو هر، فى صحراء مسيرة يوم، فى أطرافها جبال منيعة يسكنها كفار الهنود، وربما قطعوا

(١) العصيدة: دقيق يلت بالسمن ويطبخ، وجمعه عصائد. الوجيز ص(٤٢٠).

(٢) جرش الشيء: دقه ولم ينعم. الوجيز ص(١٠١).

الطريق. وأهل بلاد الهند أكثرهم كفار. فمنهم رعية تحت ذمة المسلمين، يسكنون القرى، ويكون عليهم حاكم من المسلمين يقدمه العامل أو الخديم الذى تكون القرية فى إقطاعه، ومنهم عصاة محاربون يمتنعون بالجبال ويقطعون الطريق.

ولما أردنا السفر من مدينة أبو هر، خرج الناس منها أول النهار، وأقمت بها إلى نصف النهار فى لَمَّة(١) من أصحابى، ثم خرجنا، ونحن اثنان وعشرون فارسًا. منهم عرب ومنهم أعاجم، فخرج علينا فى تلك الصحراء ثمانون رجلاً من الكفار وفارسان. وكان أصحابى ذوى نجدة وعُتى، فقاتلناهم أشد القتال، فقتلنا أحد الفارسين منهم وغنمنا فرسه، وقتلنا من رجالهم نحو اثنى عشر رجلاً وأصابتنى نشابة(٢)، وأصابت فرسى نشابة ثانية، ومنّ الله بالسلامة منها، لأن نشابهم لا قوة لها، وجرح لأحد أصحابنا فرس عوضناه له بفرس الكافر، وذبحنا فرسه المجروح، فأكله الترك من أصحابنا. وأوصلنا تلك الرؤوس إلى حصن أبى بَكْهَر فعلقناها على سوره. وكان وصولنا فى نصف الليل إلى حصن أبى بَكْهَر المذكور (وضبط اسمه بفتح الباء الموحدة وسكون الكاف وفتح الهاء وآخره راء). وسافرنا منه فوصلنا بعد يومين إلى مدينة أَجُودَهَن (وضبط اسمها بفتح الهمزة وضم الجيم وفتح الدال المهمل والهاء وآخره نون)، مدينة صغيرة هى للشيخ الصالح فريد الدين البذاونى الذى أخبرنى الشيخ الصالح الولى برهان الدين الأعرج بالإسكندرية أنى سألقاه، فلقيته والحمد لله، وهو شيخ ملك الهند، وأنعم عليه بهذه المدينة. وهذا الشيخ مبتلى بالوسواس والعياذ بالله، فلا يصافح أحدًا ولا يدنو منه، وإذا ألصق ثوبه بثوب أحد غسل ثوبه. دخلت زاويته ولقيته وأبلغته سلام الشيخ برهان الدين، فعجب وقال: أنا دون ذلك. ولقيت ولديه الفاضلين معز الدين، وهو أكبرهما ولما مات أبوه تولى الشياخة بعده، وعلم الدين. وزرت قبر جده القطب الصالح فريد الدين البذاونى، منسوبة إلى

---

(١) اللَّمَّة: الرفقة. الوجيز ص(٥٦٥).

(٢) النُّشَّاب: النبل، واحدته: نُشابة. الوجيز ص(٦١٥).

مـدينة «بذاوُن» بلد السنبل. (وهى بفـتح البـاء الموحدة والذال المعـجم وضم الواو وآخرها نون) ولما أردت الانصراف عن هذه المدينة، قال لى علم الدين: لابد لك من رؤية والدى فـرأيته وهو فى أعلى سطح له، وعليـه ثياب بيض وعمـامة كبـيرة لها ذؤابـة وهى مائلة إلى جانب. ودعـا لى وبعث إلى بسكر ونبات.

ولما انصـرفت عن هذا الشـيخ، رأيت الناس يهـرعـون من عـسكرنا، ومعهـم بعض أصحابنا. فسـألتهم ما الخبـر؟ فأخبرونى أن كـافرًا من الهنود مات، وأججـت النار لحرقـه، وامرأته تحرق نفـسهـا معه. ولما احـترقـا جاء أصحابى وأخبروا أنها عانقت الميت حـتى احترقت معه. وبعد ذلك كنت فى تلك البلاد أرى المرأة من كفار الهنود متزينة راكبة، والناس يتبعونها من مسلم وكافر، والأطـبال والأبواق بين يديها، ومعـها البراهمة، وهم كـبراء الهنود. وإذا كـان ذلك ببلاد السلطان استـأذنوا السلطان فى إحـراقـهـا فيـؤذن لهم فيـحرقونهـا. ثم اتفق بعد مـدة أنى كنت بمدينة أكثـر سكانها الكفـار تعرف بأبحرى[1]، وأمـيرها مـسلم من سـامرة السند، وعلى مـقـربة منها الكفـار العصاة، فقطعـوا الطريق يومًا، وخرج الأمير المسلم لقتـالهم، وخرجت معه رعية من المسلمين والكفار، ووقع بينهم قتال شديد، مات فيه من رعية الكفار سبعة نفـر - وكان لثلاثة منهم ثلاث زوجات، فاتفقن عـلى إحراق أنفسهن. وإحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب إليه غير واجب لكن من أحرقت نفسها بعـد زوجها أحرز أهل بيتها شرفًـا بذلك، ونسبوا إلى الوفاء، ومن لم تحرق نفـسها، لبـست خشن الثـياب، وأقامت عند أهلهـا بائسة ممتـهنة لعدم وفائهـا. ولكنها لا تـكره على إحراق نفسها. ولما تـعاهدت النسـوة الثلاث اللائى ذكـرناهن على إحـراق أنفسـهن، أقـمن قبـل ذلك ثلاثة أيام فى غناء وطرب وأكل وشرب، كأنهن يودعن الدنيا. ويأتى إليهن النساء من كل جهة. وفى صبيـحة اليوم الرابع أتيت كل واحدة منهن بفـرس فركبتـه، وهى متزينة متـعطرة، وفى يمناها جوزة نارجيل تلعب بهـا، وفى يسراها مرآة تنظر فيـها

---

(١) وفى نسخة: «بأحجرى».

وجهها، والبراهمة يحفون بهـا، وأقاربها معها، وبين يديها الأطبال والأبواق والأنفار. وكل إنسان من الكفار يقـول لها: أبلغى السلام إلى أبى أو أخى أو أمى أو صاحبى، وهى تـقول: نعم، وتضحك إليهم. وركـبت مع أصحابى لأرى كيفية صنعهن فى الاحتراق. فسرنا معهن نحو ثلاثة أميال، وانتهينا إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار متكاثف الظلال، وبين أشجاره أربع قباب، فى كل قبـة صنم من الحجارة. وبيـن القباب صهـريج ماء قد تـكاثفت عليه الظلال، وتزاحمت الأشجـار فلا تتخللها الشمـس. فكأن ذلك الموضع بقعة من بقع جهنم، -أعـاذنا الله منها-، ولما وصلن إلى تلك القـباب، نزلن إلى الصهريج، وانغمـسن فيه، وجردن ما عليهن من ثيـاب وحلى، فتصدقن به. وأتيت كل واحـدة منهن بثوب قطن خـشن غيـر مخيـط، فربط بعضـه على وسطها، وبعضـه على رأسها وكتفـيها. والنيران قـد أضرمت على قرب من ذلك الصهريج، فى موضع منخـفض، وصب عليها روغن كنجت (كتجد)، وهو زيت الجُلْجُلان فـزاد فى اشتـعالها. وهنالك نحـو خمـسة عشـر رجلاً بأيديهم حزم من الحطب الرقـيق، ومعهم نحـو عشرة بأيديهم خشب كـبار، وأهل الأطبـال والأبواق وقـوف ينتظرون مـجىء المرأة، وقـد حـجـبت النار بملحفة، يمسكها الرجال بأيديهم لئـلا يدهشها النظر إليها. فرأيت إحداهن لما وصلت إلى تلك الملحفـة، نزعتها من أيدى الرجال بعـنف وقالت لهم: مارا مـيـتـرسانـى ازاطش (آنش) من مـيـدانم أواطش است رهاكنى مـارا، وهى تضحك، ومعنى هذا الكلام أبالنار تخوفـوننى؟ أنا أعلم أنها نار محرقة. ثم جمـعت يديها على رأسـها خـدمة للنار، ورمت بنفـسهـا فيهـا. وعند ذلك ضـربت الأطبـال والأنفـار والأبواق، ورمى الرجـال ما بـأيديهم من الحطب عليـها. وجعـل الآخرون تلك الخـشب من فوقـها لئلا تـتحرك، وارتفـعت الأصـوات وكثـر الضـجيـج. ولما رأيت ذلك كدت أسـقط عن فـرسى لولا أصحابى تداركونى بالماء، فغسلوا وجهى وانصرفت. وكذلك يفعل أهل الهند أيضًا فى الغـرق. يغرق كـثير منهم أنفـسهم فى نهر الكـنك، وهو الذى إليه يحجون. وفيه يرمى برماد هؤلاء المحرقين. وهم يقولون: إنه من الجنة. وإذا

أتى أحدهم ليـغرق نفسه يقـول لمن حضره: لا تظنوا أنى أغـرق نفسى لأجل شىء من أمور الدنيـا أو لقلة مال، إنما قصدى التـقرب إلى كُساى، وكُـساى (بضم الكاف والسـين المهمل) اسم الله عز وجل بلسـانهم، ثم يغرق نفـسه. فإذا مات أخرجوه وأحرقوه ورموا برماده فى البحر المذكور.

ولنعد إلى كلامنا الأول، فنقول: سافرنا من مدينة أجودهن فوصلنا بعد مسيـرة أربعة أيام منها إلى مدينة سَرْسَتى (وضبط اسمـها بسينين مفـتوحين بينهما راء ساكنة ثم تاء مثناة مكسورة وياء) مـدينة كبيرة كثيرة الأرز، وأرزها طيب ومنها يحمل إلى حضرة دهلى، ولها مجبى كثير جدًّا. أخبرنى الحاجب شمس الدين البـوشنجى بمقداره ونسـيته. ثم سافـرنا منها إلى مـدينة حَانْسى (وضبط اسـمها بفـتح الحاء المهملة وألف ونون سـاكن وسين مهـمل مكسور وياء) وهى من أحسن المدن وأتقنها وأكثرها عمارة. ولها سور عظيم ذكروا أن بانيـه رجل من كبـار سلاطين الكفـار يسـمى تُورَة (بضم التاء المعلوة وفـتح الراء). وله عندهم حكايات وأخبار. من هذه المدينة كمال الدين صدر الجهان قاضى قضـاة الهند، وأخوه قطلوخان معلم السلطان، وأخـواهما نظام الدين وشمس الديـن الذى انقطع إلى الله وجاور بمكة حـتى مات. ثم سـافرنا من حانسى فوصلنا بعد يومين إلى مسعود أباد. وهى على عشرة أميال من حضرة دهلى، وأقـمنا بهـا ثلاثة أيام. وحـانسى ومسـعـود أباد همـا للملك المعظم هُوشَنْج (بضم الهاء وفتح الشين المعجم وسكون النون وبعدها جيم) ابن الملك كمـال كُرك، وكرك (بكافـين معقـودين أولاهما مـضمومـة) ومعناه الذئب، وسيـأتى ذكره. وكان سلطان الهند الذى قـصدنا حضرته غـائبًا عنها بناحـية مدينة قـنوج، وبينها وبين حضـرة دهلى عشرة أيام، وكانت بالحـضرة والدته وتدعى المخدومـة جهان. وجهان اسم الدنـيا. وكان بها أيضًـا وزيره خواجه جهان المسـمى بأحمد بن إياس، الرومى الأصل. فبعـث الوزير إلينا أصحابه ليتلقونا، وعين للقاء كل واحد منا من كان من صنفه. فكان من الذين عينهم للقائى الشيخ البـسطامى، والشريف المازندرانى وهو حاجب الغرباء، والفـقيه علاء الدين الملتانى المعروف بقُنَّرة (بضم القـاف وفتح النون وتشديدها) وكتب

إلى السلطان بخبرنا، وبعث الكتاب مع الدواة، وهى بريد الرجالة، حسبما ذكرناه، فوصل إلى السلطان، وأتاه الجواب فى تلك الأيام الثلاثة التى أقمناها بمسعود أباد. وبعد تلك الأيام خرج إلى لقائنا القضاة والفقهاء والمشايخ وبعض الأمراء، وهم يسمون الأمراء ملوكًا. فحيث يقول أهل ديار مصر وغيرها الأمير يقولون هم الملك. وخرج إلى لقائنا الشيخ ظهير الدين الزنجانى، وهو كبير المنزلة عند السلطان. ثم رحلنا من مسعود أباد فنزلنا بمقربة من قرية تسمى بالَم (بفتح الباء المعقودة وفتح اللام) وهى للسيد الشريف ناصر الدين مطهر الأوهرى، أحد ندماء السلطان، وممن له عنده الحظوة التامة. وفى غد ذلك اليوم وصلنا إلى حضرة دِهْلِى قاعدة بلاد الهند (وضبط اسمها بكسر الدال المهمل وسكون الهاء وكسر اللام)، وهى المدينة العظيمة الشأن الضخمة الجامعة بين الحسن والحصانة، وعليها السور الذى لا يعلم له فى بلاد الدنيا نظير، وهى من أعظم مدن الهند بل مدن الإسلام كلها بالمشرق.

ومدينة دهلى كبيرة الساحة كثيرة العمارة، وهى الآن أربع مدن متجاورات متصلات، إحداها المسماة بهذا الاسم دهلى، وهى القديمة من بناء الكفار. وكان افتتاحها سنة أربع وثمانين وخمسمائة، والثانية تسمى سيرى (بكسر السين المهمل والراء بينهما ياء مد)، وتسمى أيضًا دار الخلافة، وهى التى أعطاها السلطان لغياث الدين حفيد الخليفة المستنصر العباسى لما قدم عليه، وبها كان سكنى السلطان علاء الدين وابنه قطب الدين، وسنذكرهما، والثالثة تسمى أباد باسم بانيها السلطان تغلق والد سلطان الهند الذى قدمنا عليه. وكان سبب بنائه لها أنه وقف يومًا بين يدى السلطان قطب الدين، فقال له: يا خوند عالم، كان ينبغي أن تبنى هنا مدينة. فقال له السلطان متهكمًا[1]: إذا كنت سلطانًا فابنها. فكان من قدر الله أن كان سلطانًا فبناها، وسماها باسمه. والرابعة تسمى جهان بناه، وهى مختصة بسكنى السلطان

---

(١) يُقال: تهكّم فلانٌ على غيره، وبه: استهزأ به واستخف. الوجيز ص(٦٥١).

محمد شاه ملك الهند الآن الذى قدمنا عليه، وهو الذى بناها. وكان أراد أن يضم هذه المدن الأربع تحت سور واحد فبنى منه بعضًا وترك باقيه، لعظم ما يلزم فى بنائه.

والسور المحيط بمدينة دهلى لا يوجد له نظير. عرض حائطه أحد عشر ذراعًا، وفيه بيوت يسكنها السمار وحفاظ الأبواب، وفيها مخازن للطعام ويسمونها الأنبارات، ومخازن للعُدد، ومخازن للمجانيق، والرعادات ويبقى الزرع بها مدة طائلة لا يتغير، ولا تطرقه آفة، ولقد شاهدت الأرز يخرج من بعض تلك المخازن ولونه قد اسود، ولكن طعمه طيب. ورأيت أيضًا الكُذْرو يخرج منها. وكل ذلك من اختزان السلطان بَلَبَن منذ تسعين سنة. ويمشى فى داخل السور الفرسان والرجال من أول المدينة إلى آخرها. وفيه طيقان مفتحة إلى جهة المدينة يدخل منها الضوء وأسفل هذا السور مبنى بالحجارة، وأعلاه بالآجر، وأبراجه كثيرة متقاربة. ولهذه المدينة ثمانية وعشرون بابًا، وهم يسمون الباب دروازة. فمنها دروازة بذاون، وهى الكبرى، ودروازة المندوى، وبها رحبة الزرع، ودروازة جُل (بضم الجيم) وهى موضع البساتين، ودروازة شاه: اسم رجل ودروازة بَالَم: اسم قرية قد ذكرناها، ودروازة نجيب: اسم رجل، ودروازة كمال كذلك، ودروازة غزنة، نسبة إلى مدينة غزنة التى فى طرف خراسان، وبخارجها مصلى العيد وبعض المقابر، ودروازة البَجَالصة (بفتح الباء والجيم والصاد المهمل)، وبخارج هذه الدروازة مقابر دهلى، وهى مقبرة حسنة يبنون بها القباب. ولا بد عند كل قبر من محراب، وإن كان لا قبة له، ويزرعون بها الأشجار المزهرة «مثل قُل (كل شنبو)»(١) وريبول (راى بيل) والنسرين وسواها. والأزاهير هنالك لا تنقطع فى فصل من الفصول.

وجامع دهلى كبير الساحة، حيطانه وسقفه وفرشه كل ذلك من الحجارة البيض المنحوتة، أبدع نحت، ملصقة بالرصاص أتقن إلصاقة، لا خشبة به

---

(١) وفى نسخة: «مثل: قل شنبه».

أصلاً. وفيه ثلاث عشرة قبة من حجارة، ومنبره أيضًا من الحجر، وله أربعة من الصحون. وفى وسط الجامع العمود الهائل الذى لا يدرى من أى المعادن هو. ذكر لى بعض حكمائهم أنه يسمى هَفْت جُوش (بفتح الهاء وسكون الفاء وتاء معلوة وجيم مضموم وآخره شين معجم)، ومعنى ذلك سبعة معادن، وأنه مؤلف منها. وقد جلى من هذا العمود مقدار السبابة، ولذلك المجلو منه بريق عظيم، ولا يؤثر فيه الحديد. وطوله ثلاثون ذراعًا، وأدرنا به عمامة فكان الذى أحاط بدائرته منها ثمانى أذرع. وعند الباب الشرقى من أبواب المسجد صنمان كبيران جداً من النحاس مطروحان بالأرض، قد ألصقا بالحجارة، ويطأ عليها كل داخل إلى المسجد أو خارج منه. وكان موضع هذا المسجد بدخانة، وهو بيت الأصنام، فلما افتتحت جعل مسجداً، وفى الصحن الشمالى من المسجد الصومعة التى لا نظير لها فى بلاد الإسلام. وهى مبنية بالحجارة الحمر، خلافًا لحجارة سائر المسجد، فإنها بيض. وحجارة الصومعة منقوشة، وهى سامية الارتفاع، وفحلها من الرخام الأبيض الناصع، وتفافيحها من الذهب الخالص، وسعة ممرها بحيث تصعد فيه الفيلة. حدثنى من أثق به أنه رأى الفيل حين بنيت يصعد بالحجارة إلى أعلاها. وهى من بناء السلطان معز الدين ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن. وأراد السلطان قطب الدين أن يبنى بالصحن الغربى صومعة أعظم منها، فبنى مقدار الثلث منها، واخترم[١] دون تمامها. وأراد السلطان محمد إتمامها، ثم ترك ذلك تشاؤمًا. وهذه الصومعة من عجائب الدنيا فى ضخامتها وسعة ممرها، بحيث تصعده ثلاثة من الفيلة متقارنة. وهذا الثلث المبنى منها مساوٍ لارتفاع جميع الصومعة التى ذكرنا أنها بالصحن الشمالى. وصعدتها مرةً فرأيت معظم دور المدينة، وعاينت الأسوار على ارتفاعها وسموها منحطة، وظهر لى الناس فى أسفلها كأنهم الصبيان الصغار. ويظهر لناظرها من أسفلها أن ارتفاعها ليس بذلك، لعظم جرمها وسعتها. وكان السلطان قطب الدين أراد أن يبنى أيضًا مسجدًا جامعًا بسيرى المسماة دار

---

(١) يعنى: مات قبل إتمامها.

الخلافـة، فلم يتم منه غير الحائط الـقبلي والمحراب. وبناؤه بالحجـارة البيض والسود والحمر والخضـر. ولو كمل لم يكن له مثل فى البلاد. وأراد السلطان محمـد إتمامه، وبعث عرفـاء البناء ليقدروا النفقـة فيه، فزعـموا أنه ينفق فى إتمامه، خمسـة وثلاثون لكاً فترك ذلك استكثاراً له. وأخبـرنى بعض خواصه أنه لم يتركه استكثاراً، لكنه تشاءم به لما كان السلطان قطب الدين قد قتل قبل تمامه.

ويقع بخارج دهلى الحوض العظيم المـنسوب إلى السلطان شمس الدين لَلْمِش، ومنه يشرب أهل المدينة، وهو بالـقرب من مصلاها. وماؤها يـجتمع من مـاء المطر. وطوله نحو مـيلين وعرضـه على النصف من طوله. والجـهة الغربية من ناحية المصلى مبنية بالحجارة مصنوعة أمثال الدكاكين، بعضها أعلى من بعض، وتحت كل دكان درج ينزل عليها إلى الماء، وبجـانب كل دكان قبة حجارة فيها مجالس للمتنزهين والمتفرجين. وفى وسط الحوض قبة عظيمة من الحجارة المنقوشة مـجعولة طبقتين. فإذا كثـر الماء فى الحوض، لم يكن سبيل إليها إلا فى القوارب. فإذا قلَّ الماء دخل إليـها الناس. وداخلها مسجد. وفى أكثـر الأوقات يقيم بها الفـقراء المنقطعون إلى الله المتـوكلون عليه، وإذا جف الماء فى جوانب هذا الحوض زرع فـيها قصب السكر والخيـار والقثّاء والبطيخ الأخضـر والأصفر وهو شديـد الحلاوة صغيـر الجرم. وفيـما بين دهلى ودار الخلافـة حوض الخاص وهو أكـبر من حوض السلطـان شمس الدين. وعلى جوانبه نحو أربعين قبـة، ويسكن حوله أهل الطرب، وموضعهم يسمى طرب آباد. ولهم سوق هنالك من أعظم الأسـواق، ومسجد جامع ومسـاجد سواه كثيرة. وأخبرت أن النساء المغنـيات الساكنات هنالك يصلين التراويح فى شهر رمضان بتلك المساجد مجتمـعات، ويؤم بهن الأئمة، وعددهن كبير، وكذلك الرجال المغنون. ولقـد شاهدت الرجـال أهل الطرب فى عرس الأميـر سيف الدين غدا بن مهنا. لكل واحد منهم مصلى تحت ركبته، فإذا سمع الأذان قام فتوضأ وصلى.

وفيها قبر الشيخ الصالح قطب الدين بختيار الكعكى، وهو ظاهر البركة كثير التعظيم. وسبب تسمية هذا الشيخ بالكعكى أنه كان إذا أتاه الذين عليهم

الديون شاكين من الفقر أو القلة، أو الذين لهم البنات ولم يجدوا ما يجهزوهن به إلى أزواجهن، يعطى من أتاه منهم كعكة من الذهب أو من الفضة، حتى عرف من أجل ذلك بالكعكى رحمه الله، ومنها قبر الفقيه الفاضل نور الدين الكُرْلانى (بضم الكاف وسكون الراء والنون) ومنها قبر الفقيه علاء الدين الكرمانى نسبة إلى كرمان، وهو ظاهر البركة ساطع النور ومكانه بظهر قبلة المصلى. وبذلك الموضع قبور رجال صالحين كثيرة نفع الله تعالى بهم.

ومن أشهر علمائها الشيخ الصالح العالم محمود الكبا (بالباء الموحدة)، وهو من كبار الصالحين. والناس يزعمون أنه ينفق من الكون، لأنه لا مال له ظاهر، وهو يطعم الوارد والصادر، ويعطى الذهب والدراهم والأثواب، وظهرت له كرامات كثيرة، واشتهر بها. رأيته مرات كثيرة، وحصلت لى بركته، ومنهم الشيخ الصالح العالم علاءالدين النيلى كأنه منسوب إلى نيل مصر، والله أعلم، كان من أصحاب الشيخ العالم الصالح نظام الدين البزوانى. وهو يعظُ الناسَ فى كلِّ يومِ جمعة، فيتوب كثير منهم بين يديه، ويحلقون رؤوسهم، ويتواجدون ويغشى على بعضهم.

وشاهدته فى بعض الأيام وهو يعظ، فقرأ القارىء بين يديه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾(١) ثم كررها الفقيه علاء الدين. فصاح أحد الفقراء من ناحية المسجد صيحة عظيمة، فأعاد الشيخ الآية، فصاح الفقير ثانية ووقع ميتًا، وكنت فيمن صلى عليه، وحضر جنازته. ومنهم الشيخ الصالح العابد صدر الدين الكُهْرانى (بضم الكاف وسكون الهاء وراء ونون) وكان يصوم الدهر ويقول الليل وتجرد عن الدنيا جميعًا ونبذها، ولباسه عباءة، ويزوره السلطان وأهل الدولة، وربما احتجب عنهم. فرغب السلطان

(١) سورة الحج: ١، ٢.

منه أن يقطعه قرى يطعم منها الفـقراء والواردين فأبى ذلك. وزاره يومًا وأتى إليه بعـشرة آلاف دينار فلم يقـبلها. وذكروا أنه لا يفـطر إلا بعد ثلاث، وأنه قيل له فى ذلك فقـال: لا أفطر حتى اضطر، فتحل لى الميـتة، ومنهم الإمام الصالح العالم العابد الورع الخاشع فريد دهره ووحيـد عصره كمال الدين عبد الله الغارى (بالغين المعجم والراء) نسبة إلى غار كان يسكنه خارج دهلى بمقربة من زاوية الشيخ نظام الدين البذاونى، زرته بهذا الغار ثلاث مرات.

وكان لى غـلام فأبق منى، وألفـيتـه بيد رجل من الترك، فـذهبت إلى انتزاعـه من يده، فقال لى الشـيخ: إن هذا الغلام لا يصلح لك فـلا تأخذه. وكان التركى راغبًا فى المصالحة، فصـالحته بمائة دينار أخذتها منه، وتركته له. فلما كـان بعد ستة أشـهر قتل سيـده، وأتى به إلى السلطان، فأمر بتسلـيمه لأولاد سيـده فقـتلوه. ولما شـاهدت لهذا الشـيخ هذه الكرامة انقطعت إلـيه ولازمته وتركت الدنيا ووهبت جميع ما كـان عندى للفقراء والمساكين وأقمت عنده مدة، فكنت أراه يواصل عـشرة أيام وعشرين يومًا، ويقـوم أكثر الليل. ولم أزل مـعه حـتى بحث عنى السلطان، ونَشِـبْتُ[1] فى الدنيـا ثانية. والله تعالى يختم بالخير وسأذكر ذلك فيمـا بعد إن شاء الله تعالى، وكيفية رجوعى إلى الدنيا.

وحدثنى الفقيه العالم العلامـة قاضى القضاة بالهند والسند كمال الدين محمد بن البرهان الغزنوى الملقب بصـدر الجهان، أن مدينة دهلى افتتحت من أيدى الكفار فى سنة أربع وثـمانين وخمسـمائة. وقد قـرأت أنا ذلك مكتوبًا على محراب الجامع الأعظم بها. وأخبرنى أيضـًا أنها افتتحت على يد الأمير قطب الدين أيْبَك (واسمه بفـتح الهمزة وسكون الياء آخر الحـروف وفتح الباء الموحدة)، وكان يلقب سياه (سالار)، ومعناه مقدم الجيوش. وهو أحد مماليك السلطان المعظم شهـاب الدين محمد بن سنام الغورى ملك غـزنة وخراسان، المتغلب عـلى ملك إبراهيم ابن السلطان الغازى مـحمود بن سـبكتكين الذى

(١) يُقال: نَشِب فى الشىء ينشَب نشوبًا: علق فيه. الوجيز ص(٦١٥).

ابتدأ فتح الهند. وكان السلطان شهاب الدين المذكور بعث الأمير قطب الدين بعسكر عظيم، ففتح الله عليه مدينة لاهور. وسكنها وعظم شأنه، وسعى به[1] إلى السلطان، وألقى إليه جلساؤه أنه يريد الانفراد بملك الهند، وأنه قد عصى وخالف. وبلغ هذا الخبر إلى قطب الدين فبادر بنفسه، وقدم على غزنة ليلاً، ودخل على السلطان، ولا علم عند الذين وشوا به إليه. فلما كان بالغد قعد السلطان على سريره، وأقعد أيبك تحت السرير، بحيث لا يظهر، وجاء الندماء والخواص الذين سعوا به. فلما استقر بهم الجلوس سألهم السلطان عن شأن أيبك، فذكروا له أنه عصى وخالف، وقالوا: قد صح عندنا أنه ادعى الملك لنفسه. فضرب السلطان سريره برجله، وصفق بيديه وقال: يا أيبك، قال: لبيك، وخرج عليهم، فسقط فى أيديهم[2]، وفزعوا إلى تقبيل الأرض. فقال لهم السلطان: قد غفرت لكم هذه الزلة. وإياكم والعودة إلى الكلام فى أيبك. وأمره أن يعود إلى بلاد الهند، فعاد إليها، وفتح مدينة دهلى وسواها. واستقر بها الإسلام إلى هذا العهد. وأقام قطب الدين بها إلى أن توفى.

وكان السلطانُ شمسُ الدين لَلْمِش (وضبط اسمه بفتح اللام الأولى وسكون الثانية وكسر الميم وشين معجم)، أول من ولى الملك بمدينة دهلى مستقلاً به وكان قبل تملكه مملوكًا للأمير قطب الدين أيبك وصاحب عسكره نائبًا عنه، فلما مات قطب الدين استبد بالملك، وأخذ الناس بالبيعة. فأتاه الفقهاء يقدمهم قاضى القضاة إذ ذاك وجيه الدين الكاسانى، فدخلوا عليه وقعد بين يديه، وقعد القاضى إلى جانبه على العادة وفهم السلطان عنهم ما أرادوا أن يكلموه به، فرفع طرف البساط الذى هو قاعد عليه، وأخرج لهم عقدًا يتضمن عتقه. فقرأه القاضى والفقهاء، وبايعوه جميعًا. واستقل بالملك، وكانت مدته عشرين سنة. وكان عادلاً صالحًا فاضلاً، ومن مآثره أنه اشتد فى رد المظالم وإنصاف المظلومين وأمر أن يلبس كل مظلوم ثوبًا مصبوغًا وأهل

(١) يُقال: سعى به سِعايةً: وشى ونم. الوجيز ص(٣١٢).

(٢) سقط فى يده: ندم وتحير. الوجيز ص(٣١٣).

الهند جميعًا يلبسون البياض فكان متى قعد للناس أو ركب فرأى أحدًا عليه ثوب مصبوغ نظر فى قضيته وأنصفه ممن ظلمه ثم إنه أعيا فى ذلك فقال: إن بعض الناس تجرى عليهم المظالم بالليل، وأريد تعجيل إنصافهم، فجعل على باب قصره أسدين مصورين من الرخام موضوعين على برجين هنالك، وفى أعناقهما سلسلتان من الحديد فيهما جرس كبير، فكان المظلوم يأتى ليلاً فيحرك الجرس، فيسمعه السلطان وينظر فى أمره للحين وينصفه. ولما توفى السلطان شمس الدين خلف من الأولاد الذكور ثلاثة وهم ركن الدين الوالى بعده، ومعز الدين، وناصر الدين، وبنتًا تسمى رضية هى شقيقة معز الدين منهم فتولى بعده ركن الدين كما ذكرناه.

ولما بويع ركن الدين بعد موت أبيه افتتح أمره بالتعدى على أخيه معز الدين فقتله وكانت رضية شقيقته، فأنكرت ذلك عليه، فأراد قتلها. فلما كان فى بعض أيام الجمع خرج ركن الدين إلى الصلاة. فصعدت رضية على سطح القصر القديم المجاور للجامع الأعظم، وهو يسمى دولة خانة، ولبست عليها ثياب المظلومين، وتعرضت للناس، وكلمتهم من أعلى السطح، وقالت لهم: إن أخى قتل أخاه، وهو يريد قتلى معه. وذكرتهم أيام أبيها وفعله الخير وإحسانه إليهم فثاروا عند ذلك إلى السلطان ركن الدين وهو فى المسجد فقبضوا عليه وأتوا به إليها فقالت لهم: القاتل يقتل فقتلوه قصاصًا بأخيه وكان آخرهما ناصر الدين صغيراً فاتفق الناس على تولية رضية.

ولما قتل ركن الدين اجتمعت العساكر على تولية أخته رضية الملك، فولوها. واستقلت بالملك أربع سنين وكانت تركب بالقوس والتركش والقربان، كما يركب الرجال لولا تستر وجهها، ثم إنها اتهمت بعبد لها من الحبشة فاتفق الناس على خلعها وتزويجها، فخلعت وزوجت من بعض أقاربها وولى الملك أخوها ناصر الدين.

ولما خلعت رضية ولى ناصر الدين أخوها الأصغر، واستقل بالملك مدة. ثم إن رضية وزوجها خالفا عليه، وركبا فى مماليكهما ومن تبعهما من

أهل الفساد وتهيئوا لقتاله، وخرج ناصر الدين معه مملوكه النائب عنه غياث الدين بَلَبن متولى الملك بعده فوقع اللقاء وانهزم عسكر رضية، وفرت بنفسها، فأدركها الجوع وأجهدها الإعياء، فقصدت حَرّاثًا رأته يحرث الأرض، فطلبت منه ما تأكله، فأعطاها كسرة خبز فأكلتها، وغلب عليها النوم، وكانت فى زى الرجال، فلما نامت نظر إليها الحرّاث وهى نائمة، فرأى تحت ثيابها قباء مرصعًا فعلم أنها امرأة فقتلها وسلبها وطرد فرسها ودفنها فى فدانه، وأخذ بعض ثيابها فذهب إلى السوق يبيعها، فأنكر أهل السوق شأنه وأتوا به الشحنة، وهو الحاكم، فضربه فأقر بقتلها ودلهم على مدفنها فاستخرجوها وغسلوها وكفنوها ودفنت هنالك وبنى عليها قبة وقبرها الآن يزار ويتبرك به، وهو على شاطىء النهر الكبير المعروف بنهر الجون، على مسافة فرسخ واحد من المدينة. واستقل ناصر الدين بالملك بعدها، واستقام له الأمر عشرين سنة وكان ملكًا صالحًا ينسخ نسخًا من الكتاب العزيز ويبيعها فيقتات بثمنها. وقد وقفنى القاضى كمال الدين على مصحف بخطه متقن محكم الكتابة، ثم إن نائبه غياث الدين بلبن قتله، وملك بعده ولبلبن هذا خبر ظريف نذكره.

لما قَتَل غياث الدين بَلَبَن (وضبط اسمه ببائين موحدتين بينهما لام والجميع مفتوحات وآخرها نون)، مولاه السلطان ناصر الدين استقل بالملك بعده عشرين سنة، وقد كان قبلها نائبًا له عشرين سنة أخرى وكان من خيار السلاطين، عادلاً حليمًا فاضلاً. ومن مكارمه أنه بنى دارًا، وسماها دار الأمن فمن دخلها من أهل الديون قضى دينه ومن دخلها خائفًا أمن، ومن دخلها وقد قتل أحدًا أرضى عنه أولياء المقتول، ومن دخلها من ذوى الجنايات أرضى أيضًا من يطلبه. وبتلك الدار دفن لما مات. وقد زرت قبره.

ويذكر أن أحد الفقراء ببخارى رأى بها بلبن هذا وكان قصيرًا حقيرًا دميمًا فقال له: يا تُركك، وهى لفظة تعبر عن الاحتقار. فقال له: لبيك يا خوند، فأعجبه كلامه، فقال له: اشتر لى من هذا الرمان، وأشار إلى رمان يباع بالسوق، فقال: نعم وأخرج فليسات لم يكن عنده سواها واشترى له من ذلك الرمان. فلما أخذها الفقير قال له: وهبنالك ملك الهند. فقبل بلبن يد

نفسه، وقال: قبلت ورضيت واستقر ذلك فى ضميره، واتفق أن بعث السلطان شمس الدين للمش تاجرًا يشترى له المماليك بسمرقند وبخارى وترمذ فاشترى مائة مملوك كان من جملتهم بلبن، فلما دخل بالمماليك على السلطان أعجبه جميعهم إلا بلبن، لما ذكرناه من دمامته فقال: لا أقبل هذا فقال له بلبن: يا خوند علم لمن اشتريت هؤلاء المماليك؟ فضحك منه وقال: اشتريتهم لنفسى. فقال: اشترنى أنا لله عز وجل. فقال: نعم وقبله وجعله فى جملة المماليك فاحتقر شأنه وجعل فى السقائين وكان أهل المعرفة بعلم النجوم يقولون للسلطان شمس الدين: إن أحد مماليكك يأخذ الملك من يد ابنك ويستولى عليه ولا يزالون يلقون ذلك، وهو لا يلتفت إلى أقوالهم لصلاحه وعدله، إلى أن ذكر للخاتون الكبرى أم أولاده فذكرت له ذلك، وأثر فى نفسه، وبعث على المنجمين فقال: أتعرفون المملوك الذى يأخذ ملك ابنى إذا رأيتموه؟ فقالوا له: نعم عندنا علامة نعرفة بها فأمر السلطان بعرض مماليكه، وجلس لذلك فعرضوا بين يديه طبقة طبقة، والمنجمون ينظرون إليهم ويقولون: لم نره بعد، وحان وقت الزوال، فقال السقاءون بعضهم لبعض: إنا قد جعنا، فلنجمع شيئًا من الدراهم، ونبعث أحدنا إلى السوق ليشترى لنا ما نأكله فجمعوا الدراهم، وبعثوا بها بلبن، إذ لم يكن فيهم أحقر منه. فلم يجد بالسوق ما أرادوه فتوجه إلى سوق أخرى وأبطأ وجاءت نوبة السقائين فى العرض وهو لم يأت بعد، فأخذوا زقه وماعونه وجعلوه على كاهل صبى، وعرضوه على أنه بلبن فلما نودى اسمه جاز الصبى بين أيديهم وانقضى العرض. ولم ير المنجمون الصورة التى يطلبونها. وجاء بلبن بعد تمام العرض، لما أراد الله من إنفاذ قضائه. ثم إنه ظهرت نجابته، فجعل أمير السقائين، ثم صار من جملة الأجناد، ثم من الأمراء، ثم تزوج السلطان ناصر الدين بنته قبل أن يلى الملك ولما ولى الملك جعله نائبًا عنه مدة عشرين سنة، ثم قتله بلبن واستولى على ملكه عشرين سنة أخرى كما تقدم ذكر ذلك، وكان للسلطان بلبن ولدان أحداهما الخان الشهيد ولى عهده، وكان واليًا لأبيه ببلاد السند، ساكنًا بمدينة ملتان وقتل فى حرب له مع التتر، وترك

ولدين: كى قباد وكى خسرو. وولد السلطان بلبن الثانى يسمى ناصر الدين، وكان واليًا لأبيه ببلاد اللكنوتى وبنجالة. فلما استشهد الخان الشهيد جعل السلطان بلبن العهد إلى ولده كى خسرو، وعدل به عن ابن نفسه ناصر الدين وكان لناصر الدين كذلك ولد ساكن بحضرة دهلى مع جده يسمى معز الدين، وهو الذى تولى الملك بعد جده فى خبر عجيب نذكره، وأبوه إذ ذاك حى كما ذكرناه.

ولما توفى السلطان غياث الدين ليلاً، وابنه ناصر الدين غائب ببلاد اللكنوتى، وجعل العهد لابن ابنه الشهيد كى خسرو، حسبما قصصناه، كان ملك الأمراء نائب السلطان غياث الدين عدوًّا لكى خسرو فأدار عليه حيلة تمت، وهى أنه كتب بيعة دلّس فيها على خطوط الأمراء الكبار بأنهم بايعوا السلطان معز الدين حفيد السلطان بلبن ودخل على كى خسرو كالمتنصح له فقال له: إن الأمراء قد بايعوا ابن عمك، وأخاف عليك منهم. فقال كى خسرو: فما الحيلة؟ قال: انج بنفسك هاربًا إلى بلاد السند فقال: وكيف الخروج والأبواب مسدودة؟ فقال له: إن المفاتيح بيدى، وأنا أفتح لك فشكره على ذلك وقبّل يده، وقال له: اركب الآن، فركب فى خاصته ومماليكه، وفتح له الباب وأخرجه، وسُدَّ فى إثره، واستأذن على معز الدين فبايعه، فقال: كيف لى بذلك وولاية العهد لابن عمى؟ فأعلمه بما أدار عليه من الحيلة، وبإخراجه. فشكره على ذلك ومضى به إلى دار الملك، وبعث إلى الأمراء والخواص فبايعوا ليلاً فلما أصبح بايعه سائر الناس واستقام له الملك وكان أبوه حيًّا ببلاد بنجالة واللكنوتى فاتصل به الخبر فقال: أنا وارث الملك وكيف يلى ابنى الملك ويستقل به وأنا بقيد الحياة؟ فتجهز فى جيوشه قاصدًا حضرة دهلى، وتجهز ولده فى جيوشه كذلك قاصدًا لمدافعته عنها، فتوافيا[1] معًا بمدينة كرا، وهى على ساحل نهر الكنك الذى تحج الهنود إليه فنزل ناصر الدين على شاطئه مما يلى كرا ونزل

---

(١) فى الأصل: «فتوفيا».

ولده السلطان عز الدين مما يلى الجهة الأخرى، والنهر بينهما وعزما على القتال، ثم إن الله تعالى أراد حقن دماء المسلمين، فألقى فى قلب ناصر الدين الرحمة لابنه وقال: إذا ملك ولدى فذلك شرف، وأنا أحق أن أرغب فى ذلك، وألقى فى قلب السلطان معز الدين الضراعة(١) لأبيه فركب كل واحد منهما منفرداً عن جيوشه، والتقيا فى وسط النهر فقبل السلطان رجل أبيه واعتذر له. فقال له أبوه: قد وهبت لك ملكى ووليتك وبايعه وأراد الرجوع لبلاده، فقال له ابنه: لا بد لك من الوصول إلى بلادى، فمضى معه إلى دهلى، ودخل القصر وأقعده أبوه على سرير الملك ووقف بين يديه وسمى ذلك اللقاء الذى كان بينهما بالنهر: لقاء السعدين، لما كان فيه من حقن الدماء، وتواهب المُلْك والتجافى عن المنازعة. وأكثرت الشعراء فى ذلك. وعاد ناصر الدين إلى بلاده، فمات بها بعد سنين وترك بها ذرية منهم غياث الدين بهادور الذى أسره السلطان تغلق وأطلقه ابنه محمد بعد وفاته، واستقام الملك لمعز الدين أربعة أعوام بعد ذلك وكانت كالأعياد. رأيت بعض من أدركها يصف خيراتها ورخص أسعارها، وجود معز الدين وكرمه وهو الذى بنى الصومعة بالصحن الشمالى من جامع دهلى ولا نظير لها فى البلاد. وحكى لى بعضُ أهلِ الهندِ أن معزَّ الدين كان يكثر النكاح والشرب، فاعترته علة أعجز الأطباء دواؤها، ويبس أحد شقيه فقام عليه نائبه جلال الدين فيروزشاه الخَلَجى (بفتح الخاء المعجم واللام والجيم).

ولما اعترى السلطان معز الدين ما ذكرناه من يبس أحد شقيه خالف عليه نائبه جلال الدين وخرج إلى ظاهر المدينة فوقف على تل هنالك بجانب قبة تعرف بقبة الجيشانى. فبعث معزُّ الدينِ الأمراءَ لقتاله، فكان كل من يبعثه منهم يبايع جلال الدين ويدخل فى جملته ثم دخل المدينة وحصره فى القصر ثلاثة أيام. وحدثنى من شاهد ذلك أنَّ السلطانَ معزَّ الدينِ أصابه الجوع فى تلك الأيام، فلم يجد ما يأكله، فبعث إليه أحدُ

(١) يُقال: ضرع إليه وله يضرع ضرعًا وضراعة: ذل وخضع فهو أضرع، وهى ضرعاء. الوجيز ص(٣٨٠).

الشرفاء من جيرانه ما أقام أوده[١]، ودخل عليه القصر فقتل، وولى بعده جلال الدين وكان حليمًا فاضلاً، وحلمه أداه إلى القتل، كما سنذكره واستقام له الملك سنين وبنى القصر المعروف باسمه، وهو الذى أعطاه السلطان محمد لصهره الأمير غدا بن مهنا، لما زوجه بأخته، وسيذكر ذلك، فكان للسلطان جلال الدين ولد اسمه ركن الدين، وابن أخ اسمه علاء الدين زوجه بابنته وولاه مدينة كرا ومانكبور ونواحيها، وهى من أخصب بلاد الهند كثيرة القمح والأرز والسكر وتصنع بها الثياب الرفيعة، ومنها تجلب إلى دهلى، وبينهما مسيرة ثمانية عشر يومًا وكانت زوجة علاء الدين تؤذيه، فلا زال يشكوها إلى عمه السلطان جلال الدين حتى وقعت الوحشة[٢] بينهما بسببها وكان علاء الدين شهمًا شجاعًا مظفرًا منصورًا، وحب الملك ثابت فى نفسه، إلا أنه لم يكن له مال إلا ما يستفيده بسيفه من غنائم الكفار. فاتفق أنه ذهب مرة إلى الغزو ببلاد الدويقير، وتسمى بلاد الكتكة أيضًا وسنذكرها، وهى كرسى بلاد المالوه والمرهتة، وكان سلطانها أكبر سلاطين الكفار، فعثرت بعلاء الدين فى تلك الغزوة دابة له عند حجر فسمع له طنينًا، فأمر بالحفر هنالك فوجد تحته كنزًا عظيمًا، ففرقه فى أصحابه ووصل إلى الدويقير، فأذعن له سلطانها بالطاعة، ومكنه من المدينة من غير حرب وأهدى له هدايا عظيمة فرجع إلى المدينة كرا، ولم يبعث إلى عمه شيئًا من الغنائم فأغرى الناس عمه به[٣] فبعث إليه، فامتنع من الوصول إليه فقال السلطان جلال الدين أنا أذهب إليه وآتى به فإنه محل ولدى فتجهز فى عساكره وطوى المراحل حتى حل بساحل مدينة كرا، حيث نزل السلطان معز الدين لما خرج إلى لقاء أبيه ناصر الدين، وركب النهر برسم الوصول إلى ابن أخيه، وركب ابن أخيه أيضًا فى مركب ثان عازمًا على الفتك به وقال لأصحابه: إذا أنا

(١) يُقال: أقام أوده: قوم اعوجاجه، أو أمسك رمقه. الوجيز ص(٢٩).
(٢) الوحشة من الناس: الانقطاع وبعد القلوب عن المودة. الوجيز ص(٦٦٢).
(٣) يُقال: أغرى بين القوم: أفسد. ويُقال: أغرى العداوة بينهم: ألقاها. الوجيز ص(٤٤٩).

عانقته فاقتله فلما التقيا وسط النهر عانقه ابن أخيه وقتله أصحابه كما وعدهم، واحتوى على ملكه وعساكره.

ولما قتل عمه استقل بالملك، وفر إليه عساكر عمه، وعاد بعضهم إلى دهلى، واجتمعوا على ركن الدين وخرج إلى دفاعه فهربوا جميعًا إلى السلطان علاء الدين محمد شاه الجلخى، وفر ركن الدين إلى السند، ودخل علاء الدين دار الملك، واستقام له الأمر عشرين سنة. وكان من خيار السلاطين وأهل الهند يثنون عليه كثيراً، وكان يتفقد أمور الرعية بنفسه، ويسأل عن أسعارهم، ويحضر المحتسب وهم يسمونه الرئيس فى كل يوم برسم ذلك ويذكر أنه سأله يومًا عن سبب غلاء اللحم، فأخبره أن ذلك لكثرةِ المغرمِ على البقر فى المرتّب فأمر برفع ذلك، وأمر بإحضار التجار وأعطاهم الأموال وقال لهم: اشتروا بها البقر والغنم وبيعوها، ويرتفع ثمنها لبيت المال، ويكون لكم أجرة على بيعها ففعلوا ذلك، وفعل مثل هذا فى الأثواب التى يؤتى بها من دولة أباد وكان إذا غلا ثمن الزرع فتح المخازن وباع الزرع حتى يرخص السعر. ويذكر أن السعر ارتفع ذات مرة فأمر ببيع الزرع بثمن عينه، فامتنع الناسُ من بيعه بذلك الثمن، فأمر ألا يبيع أحد زرعًا غير زرع المخزن وباع للناس ستة أشهر، فخاف المحتكرون فساد زرعهم بالسوس فرغبوا أن يؤذن لهم على أن يبيعوه بأقل من القيمة الأولى التى امتنعوا من بيعه بها. وكان لا يركب لجمعة ولا لعيد ولا سواهما وسبب ذلك أنه كان له ابن أخ يسمى سليمان شاه وكان يحبه ويعظمه، فركب يومًا إلى الصيد وهو معه، وأضمر فى نفسه أن يفعل ما فعل هو بعمه جلال الدين من الفتك فلما نزل للغداء، رماه بنشابة فصرعه وغطاه بعض عبيده بترس وأتى ابن أخيه ليجهز عليه، فقال له العبيد: إنه قد مات فصدقهم وركب فدخل القصر على الحرم وأفاق السلطان علاء الدين من غشيته وركب، واجتمعت العساكر عليه، وفر ابن أخيه فأدرك وأتى به إليه فقتله، وكان بعد ذلك لا يركب. وكان له من الأولاد خضر خان وشادى خان وأبو بكر خان

ومبارك خان، وهو قطب الدين الـذى ولى الملك، وشهاب الدين. وكان قطب الدين مـهتضـمًا[١] عنده ناقص الحظ قليل الحظوة وأعطى جـميع إخوته المراتب، وهى الأعـلام والأطبال، ولم يعطه شيئًـا وقال له يومًا، لابد أن أعطيك مثل مـا أعطيت إخوتك فقـال له: الله هو الذى يعطينى فـهال أباه هذا الـكلام وفزع منه. ثم إن الـسلطان اشتـد عليـه المرض، وكـانت زوجتـه أم ولده خـضر خـان، وتسـمى ماه حـق، والماه القمـر بلسانهم، لها أخ يسمى سنجر، فـعاهدت أخاها على تمليك ولدها خضر خان وعلم بذلك ملك نائب أكـبر أمراء السلطان، وكـان يسمى الألفى، لأن السلطان اشـتـراه بألف تنكة، وهى ألفـان وخـمسـمـائة من دنانيـر المغرب، فـوشى إلى السلطان بما اتفـقوا عليه، فـقال لخـواصه: إذا دخل على سنجر فإنى معطـيه ثوبًا، فإذا لبسه، فأمسكوا بأكـمامه واضربوا به الأرض واذبحـوه فلما دخل عليـه فعلوا ذلك وقـتلوه وكـان خضـر خان غائبًا، بموضع يقال له: سندبت، على مسيرة يوم من دهلى، توجه لزيارة شهداء مدفـونين به، لنذر كان عليه أن يمشى تلك المسافـة راجلاً ويدعو لوالده بالراحة. فلما بلغه أن أباه قتل خاله حزن عليه حزنًا شديدًا ومزق جيبه[٢]، وتلك عادة لأهل الهند يفعلونهـا إذا مات لهم من يعز عليهم، فبلغ والـده ما فعله فكـره ذلك، فلما دخل عليـه عنفه ولامـه، وأمر به فقيـدت يداه ورجلاه، وسلمه لملك نائب المذكـور، وأمره أن يذهب إلى حصن كاليُـور وضبطه (بفتح الكاف المعقودة وكسـر اللام وضم الياء آخر الحروف وآخـره راء) ويقال له أيضًا كـياليرِ بزيادة ياء ثانيـة، وهو حصن منقطع بين كفار الهنود منيع على مسيـرة عشر من دهلى، وقد سكنته أنا مدة، فلـما أوصله إلى هذا الحـصن سلمه للكتـوال وهو أميـر الحصن، وللمـفردين وهم الزمـاميون، وقـال لهم: لا تقـولوا هذا ابن السلطان فتكرمـوه، إنما هو أعدى عـدو له، فاحفظوه كـما يحـفظ العدو. ثم إن المرض اشتد بالسلطان فقـال لملك نائب: ابعث من يأتى بابنى خضر خان

(١) يُقال: هَضَمَ فلانًا يهضِم هضمًا: ظلمه، وهضمه حقه: نقصه. الوجيز ص(٦٥٠).
(٢) يعنى: شق قميصه حزنًا.

لأوليه العهد فقال له نعم وماطله[١] بذلك فمتى سأل عنه، قال: هو ذا يصل إلى أن توفى السلطان رحمه الله.

ولما توفى السلطان علاء الدين أقعد ملك نائب ابنه الأصغر شهاب الدين على سرير الملك، وبايعه الناس، وتغلب ملك نائب عليه، وسمل أعين أبى بكر خان وشادى خان، وبعث بها إلى كاليور، وأمر بسمل عينى أخيهما خضر خان المسجون هنالك، وسجنوا وسجن قطب الدين، لكنه لم تُسمل عيناه. وكان للسلطان علاء الدين مملوكان من خواصيه، يسمى أحدهما ببشير والآخر بمبشر، فبعثت إليهما الخاتون الكبرى زوجة علاء الدين، وهى بنت السلطان معز الدين، فذكرتهما بنعمة مولاهما، وقالت: إن هذا الفتى ملك نائب قد فعل فى أولادى ما تعلمانه، وأنه يريد أن يقتل قطب الدين. فقال لها: سترين ما نفعل، وكانت عادتهما أن يبيتا عند نائب ملك ويدخلا عليه بالسلاح، فدخلا عليه تلك الليلة وهو فى بيت من الخشب مكسو باللف يسمونه الخرمقة ينام فى أيام المطر فوق سطح القصر، فاتفق أنه أخذ السيف من يد أحدهما فقلبه ورده إليه، فضربه به المملوك وثنى عليه صاحبه، واحتزا رأسه وأتيا به إلى مجلس قطب الدين، فرمياه بين يديه، وأخرجاه. فدخل على أخيه شهاب الدين وأقام بين يديه أيامًا كأنه نائب له، ثم عزم خلعه فخلعه.

وخلع قطب الدين أخاه شهاب الدين وقطع إصبعه، وبعث به إلى كاليور فحبس مع إخوته. واستقام الملك لقطب الدين. ثم إنه بعد ذلك خرج من حضرة دهلى إلى دولة أباد، وهى على مسيرة أربعين يومًا منها. والطريق بينهما تكتنفه الأشجار من الصفصاف وسواه. فكأن الماشى به فى بستان. وفى كل ميل منه ثلاث داوات، وهى البريد وقد ذكرنا ترتيبه، وفى كل داوة ما يحتاج المسافر إليه. فكأنه يمشى فى سوق مسيرة الأربعين يومًا. وكذلك

---

(١) ماطله: مطله، ومطل فلانًا حقه وبحقه: أجل موعد الوفاء به مرة بعد الأخرى. الوجيز ص(٥٨٥).

يتصل الطريق إلى بلاد التلنك. والمعبر مسيرة ستة أشهر. وفى كل منزلة قصر للسلطان وزاوية للوارد والصادر، فلا يفتقر الفقير إلى حمل زاد فى ذلك الطريق. ولما خرج السلطان قطب الدين فى هذه الحركة اتفق بعض الأمراء على الخلاف عليه وتولية ولد أخيه خضر خان المسجون، وسنه نحو عشرة أعوام، وكان مع السلطان. فبلغ السلطان ذلك، فأخذ ابن أخيه المذكور وأمسك برجليه، وضرب برأسه إلى الحجارة حتى نثر دماغه وبعث أحد الأمراء ويسمى ملك شاه إلى كاليور حيث أبو هذا الولد وأعمامه وأمره بقتلهم جميعًا. فحدثنى القاضى زين الدين مبارك قاضى هذا الحصن قال: قدم علينا ملك شاه ضحوة يوم، وكنت عند خضر خان بمحبسه، فلما سمع بقدومه خاف وتغير لونه. ودخل عليه الأمير فقال له: فِيَم جئت؟ قال: فى حاجة خوند عالم. فقال له: نفسى سالمة، فقال: نعم، وخرج عنه واستحضر الكتوال وهو صاحب الحصن والمفردين وهم الزماميون، وكانوا ثلاثمائة رجل، وبعث عنى وعن العدول، واستظهر بأمر السلطان فقرأوه، وأتوا إلى شهاب الدين المخلوع فضربوا عنقه وهو متثبت غير جزع، ثم ضربوا عنق أبى بكرخان وشادى خان، ولما أتوا ليضربوا عنق خضرخان فزع وذهل، وكانت أمه معه فسدوا الباب دونها، وقتلوه وسحبوهم جميعًا فى حفرة بدون تكفين ولا غسل. وأخرجوا بعد سنين فدفنوا بمقابر آبائهم. وعاشت أم خضر خان مدة، ورأيتها بمكة سنة ثمان وعشرين. وحصن كاليور هذا فى رأس شاهق كأنه منحوت من الصخر لا يحاذيه جبل، وبداخله جباب الماء ونحو عشرين بئرًا عليها الأسوار مضافة إلى الحصن، منصوبًا عليها المجانيق والرعادات. ويصعد إلى الحصن فى طريق متسعة يصعدها الفيل والفرس. وعند باب الحصن صورة فيل منحوت من الحجر وعليه صورة فيال. وإذا رآه الإنسان على البعد لم يشك أنه فيل حقيقة. وأسفل الحصن مدينة حسنة مبنية كلها بالحجارة البيض المنحوتة، مساجدها ودورها، ولا خشب فيها ما عدا الأبواب. وكذلك دار الملك بها والقباب والمجالس. وأكثر سوقتها[1] كفار،

---

(١) السوقة: أوساط الناس، وتطلق على الواحد وغيره. فيقال: هو سوقة، وهم سوقة، وجمعه سُوَق. الوجيز ص(٣٣٠).

وفيـها سـتمـائة فارس مـن جيش السلطان لا يزالون فى جـهاد، لأنهـا بين الكفار. ولما قتل قطب الدين إخوته واسـتقل بالملك، ولم يبق من ينازعه ولا من يخالف عليه بعث الله تعالى عليـه من خاصته، الحظى[1] لديه أكبرَ أمرائه وأعظمهم منزلة عنده ناصر الـدين خسروخان ففتك به وقـتله واستقل بملكه، إلا أن مـدته لم تَطُلْ فى الملك، فبـعث الله عليـه أيضًا من قـتله بعد خلعـه السلطان تغلق، حـسبمـا يشـرح كله مستوفـى إن شاء الله تعـالى إثر هذا ونسطره.

وكـان خسـروخان من أكـبر أمـراء قطب الدين، وهو شـجاع حـسن الصورة، وكان فتح بلاد جنديرى وبلاد المـعبر، وهى من أخصب بلاد الهند. وبينهما وبين دهلى مـسيرة ستة أشهر. وكـان قطب الدين يحبه حبًّا شديدًا ويؤثره، فجرَّ ذلك حـتفه على يديه. وكان لقطب الدين مـعلم يسمى قاضى خان صدر الجهان، وهو أكبر أمرائه وكليت (كليد) دار، وهو صاحب مفاتيح القصـر. وعادته أن يبيت كل ليلة على باب السلطان ومـعه أهل النوبة، وهم ألف رجل يبيـتـون مناوبة بين أربع ليال، ويكونون صـفين فـيمـا بين أبواب القـصر، وسـلاح كل واحد منهم بين يديه، فـلا يدخل أحد إلا فـيمـا بين سمـاطيهـم. وإذا تم الليل أتى أهل نوبة النهار. ولأهل النـوبة أمراء وكـتاب يتطوفون عليهم ويكتبون من غاب منهم أو حضر. وكان معلم السلطان قاضى خان يكره أفـعال خسرو خـان، ويسوءه ما يراه من إيثاره لكفـار الهنود وميله إليهم، وأصله منهم. ولا يزال يلقى ذلك إلى السلطان فـلا يسمع منه ويقول له دعه وما يريد، لما أراد الله من قتله على يده. فلما كان فى بعض الأيام قال خسرو خان للسلطان: إن جماعة من الهنود يريدون أن يسلموا. ومن عادتهم بتلك البـلاد أن الهندى إذا أراد الإسلام أدخل إلـى السلطان فيكسـوه كسـوة حسنة ويعطـيه قلادة وأسـاور من ذهب على قدره، فقـال له السلطان: ائتنى بهم. فـقال: إنهم يسـتحـيون أن يدخلـوا إليك نهارًا لأجل أقـربائهم وأهل

---

(١) الحظى: من نال الحظوة والمكانة والحظ. الوجيز ص(١٥٩).

ملتهم. فقال له: ائتنى بهم ليلاً. فجمع خسرو خان جماعة من شجعان الهنود وكبرائهم، فيهم أخوه خان خانان، وذلك أوان الحر، والسلطان ينام فوق سطح القصر، ولا يكون عنده فى ذلك الوقت إلا بعض الفتيان. فلما دخلوا الأبواب الأربعة وهم شاكو السلاح[1] ووصلوا إلى الباب الخامس، وعليه قاضى خان، أنكر شأنهم، وأحس بالشر. فمنعهم من الدخول وقال: لا بد أن أسمع من خوند عالم بنفسى الإذن فى دخولهم، وحينئذ يدخلون. فلما منعهم من الدخول هجموا عليه فقتلوه. وعلت الضجة بالباب، فقال السلطان: ما هذا؟ فقال خسرو خان: هم الهنود الذين أتوا ليسلموا، فمنعهم قاضى خان من الدخول. وزاد الضجيج، فخاف السلطان وقام يريد الدخول إلى القصر، وكان بابه مسدودًا، والفتيان عنده فقرع الباب واحتضنه خسرو خان من خلفه. وكان السلطان أقوى منه فصرعه. ودخل الهنود فقال لهم خسرو خان: هو ذا فوقى فاقتلوه، فقتلوه وقطعوا رأسه ورموا به من سطح القصر إلى صحنه. وبعث خسرو خان من حينه إلى الأمراء والملوك وهم لا يعلمون بما اتفق. فكلما دخلت طائفة وجدوه على سرير الملك فبايعوه ولما أصبح أعلن بأمره، وكتب المراسم وهى الأوامر إلى جميع البلاد. وبعث لكل أمير خلعة فطاعوا له جميعًا. وأذعنوا إلا تغلق شاه ولد السلطان محمد شاه، وكان إذ ذاك أميراً بدبال بور، من بلاد السند. فلما وصلته خلعة خسرو خان طرحها بالأرض، وجلس فوقها. وبعث إليه أخاه خان خانان فهزمهم. ثم آل أمره إلى أن قتله كما سنشرحه فى أخبار تغلق. ولما ملك خسرو خان آثر الهنود، وأظهر أموراً منكرة، منها النهى عن ذبح البقر على قاعدة كفار الهنود، فإنهم لا يجيزون ذبحها، وجزاء من ذبحها عندهم أن يخاط فى جلدها ويحرق. وهم يعظمون البقر ويشربون أبوالها للبركة، وللاستشفاء إذا مرضوا. ويلطخون بيوتهم وحيطانهم بأرواثها. وكان ذلك مما بغَّض خسرو خان إلى المسلمين وأمالهم عنه إلى تغلق، فلم تطل مدة ولايته ولا امتدت أيام ملكه كما سنذكره.

---

(١) أى: معهم عدة السلاح تامة كاملة.

أما السلطان غياث الدين تُغْلُق شاه (وضبط اسمه بضم التاء المعلوة وسكون الغين المعجم وضم اللام وآخره قاف) فقد حدثنى الشيخ الإمام الصالح العامل العابد ركن الدين ابن الشيخ الصالح شمس الدين أبى عبد الله ابن الولى الإمام العالم العابد بهاء الدين زكريا القرشى الملتانى بزاويته. أن السلطان تغلق كان من الأتراك المعروفين بالقَرونْة (بفتح القاف والراء وسكون الواو وفتح النون)، وهم قاطنون بالجبال التى بين بلاد السند والترك. وكان ضعيف الحال، فقدم بلاد السند فى خدمة بعض التجار، وكان كُلوانيًا له، والكُلوانى (بضم الكاف المعقود) هو راعى الخيل (جلوبان)، وذلك على أيام السلطان علاء الدين، وأمير السند إذ ذاك أخوه أُولُوخان (بضم الهمزة واللام) فخدمه تغلق، وتعلق بجانبه، فرتبه فى البِيَاة (بكسر الباء الموحدة وفتح الياء آخر الحروف)، وهم الرجالة. ثم ظهرت نجابته فأثبت فى الفرسان، ثم كان من الأمراء الصغار وجعله أولوخان أمير خيله. ثم كان بعد ذلك من الأمراء الكبار، وسمى بالملك الغازى، ورأيت مكتوبًا على مقصورة الجامع بملتان، وهو الذى أمر بعملها، إنى قاتلت التتر تسعًا وعشرين مرة، فهزمتهم. فحينئذ سُمِّيتُ بالملك الغازى. ولما ولى قطب الدين ولاه مدينة دِبَال بور وعمالتها (وهى بكسر الدال المهمل وفتح الباء الموحدة)، وجعل ولده الذى هو الآن سلطان الهند أمير خيله، وكان يسمى جَوَنَه (بفتح الجيم والنون) ولما ملك تسمى بمحمد شاه. ثم لما قتل قطب الدين وولى خسروخان أبقاه الله على إمارة الخيل. فلما أراد تغلق الخلاف كان له ثلاثمائة من أصحابه الذين يعتمد عليهم فى القتال، وكتب إلى كشلو خان، وهو يومئذ بملتان، وبينهما وبين دبال بور ثلاثة أيام، يطلب منه القيام بنصرته، ويذكره نعمة قطب الدين، ويحرضه على طلب ثأره. وكان ولد كشلو خان بدهلى فكتب إلى تغلق أنه لو كان ولدى ضدى لأعنتك على ما تريد. فكتب تغلق إلى ولده محمد شاه يعلمه بما عزم عليه، ويأمره أن يفر إليه ويستصحب معه ولد كشلو خان، فأدار ولده الحيلة على خسرو خان. وتمت له كما أراد، فقال له: إن الخيل قد سمنت

وتبدنت وهى تحتاج البراق وهو التضمير[1]، فأذن له فى تضميرها. فكان يركب كل يوم فى أصحابه فيسير بها الساعة والساعتين والثلاث، واستمر إلى أربع ساعات، إلى أن غاب يومًا إلى وقت الزوال، وذلك وقت طعامهم، فأمر السلطان بالركوب فى طلبه، فلم يوجد له خبر. ولحق بأبيه واستصحب معه ولد كشلو خان. وحينئذ أظهر تغلق الخلاف، وجمع العساكر وخرج معه كشلو خان فى أصحابه، وبعث السلطان أخاه خان خانان لقتالهما، فهزماه شر هزيمة، وفر عسكره إليهما، ورجع خان خانان إلى أخيه، وقتل أصحابه، وأخذت خزائنه وأمواله وقصد تغلق حضرة دهلى.

وخرج إليه خسروخان فى عساكره، ونزل بخارج دهلى بموضع يعرف بآصيا أباد (آسياباد) ومعنى ذلك رحى الريح، وأمر بالخزائن ففتحت، وأعطى الأموال بالبدر، لا بوزن ولا عد.. ووقع اللقاء بينه وبين تغلق، وقاتلت الهنود أشد قتال. وانهزمت عساكر تغلق، ونهبت محلته، وانفرد فى أصحابه الأقدمين الثلاثمائة، فقال لهم: إلى أين الفرار حيثما أدركنا قتلنا، واشتغلت عساكر خسروخان بالنهب، وتفرقوا عنه ولم يبق إلا قليل. فقصد تغلق وأصحابه موقفه، والسلطان هنالك يعرف بالشطر (جتر) الذى يرفع فوق رأسه، وهو الذى يسمى بديار مصر القبة، والطير، ويرفع بها فى الأعياد. وأما بالهند والصين فلا يفارق السلطان فى سفر ولاحضر. فلما قصده تغلق وأصحابه حمى القتال بينهم وبين الهنود. وانهزم أصحاب السلطان ولم يبق معه أحد، وهرب فنزل عن فرسه ورمى بثيابه وسلاحه، وبقى فى قميص واحد، وأرسل شعره بين كتفيه كما يفعل فقراء الهند، ودخل بستانًا هنالك. واجتمع الناس على تغلق، وقصد المدينة، فأتاه الكتوال بالمفاتيح، ودخل القصر ونزل بناحية منه وقال لكشلو خان: أنت تكون السلطان. فقال كشلو خان: بل أنت تكون السلطان. وتنازعا، فقال له كشلوخان: فإن أبيت أن

(١) يُقال: ضمر الفرس للسباق ونحوه: ربطه وعلفه وسقاه كثيرًا مدة، وركضه فى الميدان حتى يخف ويدق، ومدة التضمير عند العرب أربعون يومًا. الوجيز ص(٣٨٢).

تكون سلطانًا فـيتولى ولدك؛ فكره هـذا، وقبل حينئـذ، وقعـد على سرير الملك وبايعه الخاص والعام، ولما كان بعد ثلاث اشـتد الجوع بخسرو خان، وهو مختف بالبستان، فخرج وطاف به فـوجد القيّم فسأله طعامًا فلم يكن عنده فأعطاه خـاتمه وقال: اذهب فـارهنه فى طعام فلمـا ذهب بالخاتم إلى السـوق أنكر الناس أمـره ورفعـوه إلى الشـحنة وهو الحـاكم فـأدخله على السلطان تغلق فأعلمـه بمن دفع إليه الخاتم. فـبعث ولده محمـدًا ليأتى به فـقبض عليـه وأتاه به راكبًـا على تَتُـو (بتائين أولاهمـا مفـتوحـة والثانيـة مضمـومة)، وهو البرذون[1]. فلما مثل بين يديه قـال له: إنى جائع فأتنى بطعام. فـأمر له بالشربة ثم الطعام ثم بـالفقاع ثم بالتنبول. فلمـا أكل قام قائمًا وقال: يا تغلق افعل معى فـعل الملوك، ولا تفضحنى. فقال له: لك ذلك. وأمـر به فضـربت رقـبتـه وذلك فى الموضع الذى قـتل هو به قطبَ الدين، ورمى برأسـه وجسده من أعلى الـسطح كما فـعل هو برأس قطب الدين، وبعد ذلك أمـر بغسله وتكفينه. ودفن فى مـقبرته، واستـقام الملك لتغلق أربعة أعوام. وكان عادلاً فاضلاً.

ولما استـقرّ تغلق بدار الملك بعث ولده ليـفتح بلاد التِّلِنْك (وضـبطها بكسر التـاء المعلوة واللام وسكون النون وكاف معـقودة) وهى على مسـيرة ثلاثة أشهر من مدينة دهـلى. وبعث معه عسكرًا عظيمًا فيـه كبار الأمراء، مثل الملك تَمُور (بفتح التـاء المعلوة وضم الميم وآخره راء) ومثل الملك تكين (بكسر التـاء المعلوة والكاف وآخره نون) ومثل ملك كافـور والمُهردار (بضم الميم) ومثل ملك بَـيْرَم (بالباء الموحـدة مفتـوحة والياء آخـر الحروف والراء مفتوحة) وسواهم. فلـما بلغ إلى أرض التلنك أراد المخالفة. وكان له نديم من الفقـهاء الشعـراء يعرف بعبـيد، فأمـره أن يلقى إلى الناس أن السلطان تغلق توفى. وظنه أن الناس يبايعونه مسرعـين إذا سمعوا ذلك. فلما ألقى ذلك إلى الناس أنكره الأمراء، وضرب كل واحـد منهم طبلة وخالف، فلم

(١) البرذون: يطلق على غيـر العربى من الخيل والبغال، من الفصيلة الخـيلية، عظيم الخلقة، غليظ الأعضاء، قوى الأرجل، عظيم الحوافر، وجمعه براذين. الوجيز ص(٤٤).

يبق معه أحد. وأرادوا قتله، فمنعهم منه ملك تمور، وقام دونه. ففر إلى أبيه فى عشرة من الفرسان سماهم ياران موافق، ومعناه الأصحاب الموافقون. فأعطاه أبوه الأموال والعساكر وأمره بالعود إلى تلنك فعاد إليها. وعلم أبوه بما أراد. فقتل الفقيه عبيداً، وأمر بملك كافور المهردار فدق له عمود فى الأرض محدودة الطرف، وركز فى عنقه حتى خرج من جنبه طرفه، ورأسه، إلى أسفل. وترك على تلك الحال. وفر من بقى من الأمراء إلى السلطان شمس الدين ابن السلطان ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بَلَبَن، واستقروا عنده.

وأقام الأمراء الهاربون عند السلطان شمس الدين. ثم إن شمس الدين توفى، وعهد لولده شهاب الدين فجلس مجلس أبيه. ثم غلب عليه أخوه الأصغر غياث الدين بهادور، بورة، ومعناه بالهندية الأسود، واستولى على الملك، وقتل أخاه قطلوخان وسائر إخوته. وفر شهاب الدين وناصر الدين منهم إلى تغلق، فتجهز معهما لقتال أخيهما، وخلف ولده محمداً نائبًا عنه فى ملكه، وجد السير إلى بلاد اللكنوتى فانتصر عليها، وأسر سلطانها غياث الدين بهادور، وقدم به أسيراً إلى حاضرة ملكه. وكان بمدينة دهلى الولى نظام البذوانى، ولا يزال محمد شاه ابن السلطان يتردد إليه، ويعظم خدامه، ويسأله الدعاء. وكان يأخذ الشيخ حالَ تغلب عليه، فقال ابن السلطان لخدامه: إذا كان الشيخ فى حاله التى تغلب عليه فأعلمونى بذلك. فلما أخذته الحال أعلموه فدخل عليه، فلما رآه الشيخ قال: وهبنا لك الملك، ثم توفى الشيخ فى أيام غيبة السلطان. فحمل ابنه محمد نعشه على كاهله، فبلغ ذلك أباه فأنكره وتوعده. وكان قد رأى منه أموراً، ونقم عليه استكثاره من شراء المماليك، وإجزاله العطايا، واستجلابه قلوب الناس، فزاد حنقه[1] عليه. وبلغه أن المنجمين زعموا أنه لا يدخل مدينة دهلى بعد سفره ذلك فتوعده. ولما عاد من سفره وقرب من الحاضرة أمر ولده أن يبنى له قصراً، وهم يسمونه الكُشْك، (بضم الكاف وشين معجم مسكن) على واد هنالك

(١) يُقال: حَنِقَ عليه يحنَق حَنَقًا: اشتد غيظه، فهو حنق، وحنيق. الوجيز ص(١٧٥).

يسمى أفغان بور، فبناه فى ثلاثة أيام. وجعل أكثر بنائه بالخشب، مرتفعًا على الأرض، قائمًا على سـوارى خشب، وأحكمه بهندسة تولى النظر فـيها الملك زاده المعروف بعد ذلك بخواجـه جهان، واسمه أحمـد بن إياس، كبير وزراء السلطان محمد، وكان إذ ذاك شحنة العـمارة. وكانت الحكمة التى اخترعوها فيـه أنه متى وطئت الفيلة جـهة منه وقع ذلك القصـر وسقط. ونزل السلطان بالقصر وأطعم الـناس وتفرقوا. واستأذنه ولده فى أن يعـرض الفيلة بين يديه وهى مزينة فـأذن له. وحدثنى الشيخ ركن الدين أنه كان يومـئذ مع السلطان ومعـهما ولد السلطان المؤثر لديه مـحمود، فجـاء محمد ابن السلطان فـقال الشـيخ: يا خوند هذا وقت العـصر، انزل فـصل. قال لى الشـيخ: فنزلت. وأتى بالأفيال من جهة واحدة حسبـما دبروه، فلما وطئتها سقط الكشك على السلطان وولده محـمود، قال الشيخ: فـسمعت الضجة، فـعدت ولم أصل، فوجدت الكشك قد سقط. فأمر ابنه أن يؤتى بالفؤوس والمساحى للحفر عنه، وأشار بالإبطاء، فـلم يؤت بهما إلا وقـد غربت الشـمس. فحفـروا ووجدوا السلطان قد حنى ظهره على ولده ليـقيه الموت. فزعم بعضهم أنه خـرج ميتًا وزعم بعضهم أنه أخرج حيًّا فأجهـز عليه[١]، وحمل ليلاً إلى مـقبرته التى بناها خارج البلدة المسمـاة باسمه تغلق أباد فدفن بها. وقـد ذكرنا السبب فى بنائه لهذه المدينة. وبها كانت خزائن تغلق وقصوره، وبه القصر الأعظم الذى جعل قراميـده مذهبة، فإذا طلعت الشمس كـان لها نور عظيم وبصيص يمنع البصـر من إدامة النظر إليـها، واختـزن بها الأمـوال الكثيرة. ويـذكر أنه بنى صهريجًا وأفـرغ فيه الذهب إفراغًا، فكان قطعة واحدة. فـصرف جميع ذلك ولده محمد شـاه لما ولى، وبسبب ما ذكرناه من هندسة الوزير خـواجة جهان فى بناء الكشك الذى سقط على تغلق، وكانت حَظوته عند ولده مـحمد شاه وإيثاره، فلم يكن أحد يدانيه فى المنزلة لديه، ولا يبلغ مرتبة عنده من الوزراء ولا غيرهم. ولما مـات السلطان تغلق استولى ابنه محمـد على الملك من غير

(١) يعنى: فقتل.

منازع له ولا مخالف عليه. وقد قدمنا أنه كان اسمه جونه. فلما ملك تسمى بمحمد، واكتنى بأبى المجاهد.

وكل ماذكرت من شأن سلاطين الهند، فهو مما أخبرت به وتلقيته أو معظمه من الشيخ كمال الدين بن البرهان الغزنوى قاضى القضاة. وأما أخبار هذا الملك فمعظمها مما شاهدته أيام كونى ببلاده.

وكان هذا الملك أحب الناس فى إسداء العطايا وإراقة الدماء. فلا يخلو بابه عن فقير يغنى أو حى يقتل. وقد شُهرت فى الناس حكاياته فى الكرم والشجاعة، وحكاياته فى الفتك والبطش بذوى الجنايات. وهو أشد الناس مع ذلك تواضعًا وأكثرهم إظهارًا للعدل والحق. وشعائر الدين عنده محفوظة. وله اشتداد فى أمر الصلاة والعقوبة على تركها. وهو من الملوك الذين اطردت سعادتهم، وخرق المعتاد يمن نقيبتهم. ولكن الأغلب عليه الكرم. وسنذكر من أخباره ما فيه عجائب لم يسمع بمثلها عمن تقدمه. وأنا أشهد بالله وملائكته ورسله أن جميع ما أنقله عنه من الكرم الخارق للعادة حق يقين وكفى بالله شهيدًا، وأعلم أن بعض مآثره من ذلك لا يسوغ فى عقل كثير من الناس ويعدونه من قبيل المستحيل عادة، ولكنه شيء عاينته وعرفت صحته وأخذت بحظٍّ وافر منه. لا يسعنى إلا قول الحق فيه. وأكثر ذلك ثابت بالتواتر فى بلاد المشرق.

ودار السلطان بدهلى تسمى دار سَرَى (بفتح السين المهمل والراء)، ولها أبواب كثيرة. أما الباب الأول فعليه جملة من الرجال موكلون به، ويقعد به أهل الأنفار والأبواق والصرنايات. فإذا جاء أمير أو كبير ضربوها، ويقولون فى ضربهم: جاء فلان. وكذلك أيضًا فى البابين الثانى والثالث. وبخارج الباب الأول دكاكين يقعد عليها الجلادون، وهم الذين يقتلون الناس. فإن العادة عندهم أنه متى أمر السلطان بقتل أحد قتل على باب المشور، ويبقى هنا ثلاثًا. وبين البابين الأول والثانى دهليز كبير، فيه دكاكين مبنية من جهتيه، يقعد عليها أهل النوبة من حفاظ الأبواب. وأما الثانى فيقعد عليه البوابون الموكلون به. وبينه وبين الباب الثالث دكانة كبيرة يقعد عليها نقيب النقباء،

وبين يديه عمود ذهب يمسكه بيده، وعلى رأسه كلاه من الذهب مجوهرة فى أعلاها ريش الطواويس، والنقباء بين يديه على رأس كـل واحد منهم شاشية مذهبة، وفى وسطه منطقة[1]، وبيده سوطًا نصابه من ذهب أو فضة، ويفضى هذا الباب الثـانى إلى مشور كبـير متسـع يقعد به الناس. وأما البـاب الثالث فعليه دكاكـين يقعد فيها كتـاب الباب. ومن عوائدهم أن لا يدخلَ على هذا البابِ أحدٌ إلا مَنْ عَيّنَهُ السلطانُ لذلك. ويعين لكل إنسان عدد من أصحابه. وناسه يدخلون معه. وكل من يأتى إلى هذا الباب يكتب الكتاب أن فلانًا جاء فى الساعة الفلانية من السـاعات إلى آخر النهار، ويطالع السلطان بذلك بعد العشاء الآخرة. ويكتبون أيضًا بكلٍّ ما يحدثُ من الباب من الأمور. وقد عين من أبناء الملوك من يوصل مـا يكتبونه إلى السلطان. ومن عـوائدهم أيضًا أنه من غاب عن دار السلطان ثلاثة أيام فـصاعدًا لعذر أو لغيـر عذر، فلا يدخل هذا الباب بعدها إلا بإذنٍ من السلطان. فإن كـان له عذر من مرض أو غيره، قدم بـين يديه هدية مما يناسب إهداءها إلى السلطان. وكـذلك القادمـون من الأسفـار. فالفـقيه يهـدى المصحف والكتـاب، وشبه الفـقير يـهدى المصلَّى والسبـحة والمِسوَاك ونحـوها، والأمراء ومن أشبهـهم يهدون الخيل والجـمال والسلاح. وهذا الباب الثـالـث يفضى إلى المشور الهائل الفـسيح المسمى هَزَار أسطون (بفـتـح الهـاء والزاى وألف وراء) ومـعنى ذلـك ألف سـارية، وهو سوارى من خشب مدهونة، عليهـا سقف خشب منقوش أبدع نقش، يجلس الناس تحتها. وبهذا المشور يجلس السلطان الجلوس العام.

وكان أكثر جلوسه بعـد العصر، وربما جلس أول النهار. وجلوسه على مصطبة مفروشة بالبياض فوقها مرتبة. ويجعل خلف ظهره مخدة كبيرة، وعن يمينه مـتكأ، وعن يساره مـثل ذلك. وقعوده كـجلوس الإنسان للتشـهد فى الصلاة، وهو جلوس أهل الهند كلهم. فإذا جلس وقف أمامه الوزير، ووقف الكتاب خلف الوزير، وخلفهم الحجاب، وكبـير الحجاب هو فيروز ملك ابن

(١) المِنْطَقَةُ: ما يُشَدُّ به الوسط. الوجيز ص(٦٢٢).

عم السلطان ونائبه، وهو أدنى الحجاب من السلطان، ثم يتلوه خاص حاجب، ثم يتلوه نائب خاص حاجب، ووكيل الدار ونائبه، وشرف الحجاب وسيد الحجاب، وجماعة تحت أيديهم. ثم يتلو الحجاب النقباء، وهم نحو مائة. وعند جلوس السلطان ينادى الحجاب والنقباء بأعلى أصواتهم: بسم الله. ثم يقف على رأس السلطان الملك الكبير قبولة وبيده المذبة يشرد بها الذباب، ويقف مائة من السلحدارية عن يمين السلطان ومثلهم عن يساره، بأيديهم الدرق والسيوف والقسى. ويقف فى الميمنة والميسرة بطول المشور قاضى القضاة ويليه خطيب الخطباء ثم كبار الفقهاء ثم كبار الشرفاء والمشايخ ثم إخوة السلطان وأصهاره ثم الأمراء الكبار ثم كبار الأعزة وهم الغرباء ثم القواد. ثم يؤتى بستين فرسًا مسرجة ملجمة بجهازات سلطانية، فمنها ما هو بشعار الخلافة، وهى التى لجمها ودوائرها من الحرير الأسود المذهب، ومنها ما يكون من الحرير الأبيض المذهب. ولا يركب بذلك غير السلطان، فيوقف النصف من هذه الخيل عن اليمين والنصف عن الشمال، بحيث يراها السلطان ثم يؤتى بخمسين فيلاً مزينة بشياب الحرير والذهب، مكسوة أنيابها بالحديد إعدادًا لقتل أهل الجرائم، وعلى عنق كل فيل فياله وبيده شبه الطبرزين من الحديد يؤدبه به، ويقومه لما يراد منه، وعلى ظهر كل فيل شبه الصندوق العظيم يسع عشرين من المقاتلة، وأكثر من ذلك ودونه على حسب ضخامة الفيل وعظم جرمه، وفى أركان هذا الصندوق أربعة أعلام مركوزة. وتلك الفيلة معلمة أن تخدم السلطان وتحط رؤوسها. فإذا خدمت قال الحجاب: بسم الله بأصوات عالية. ويوقف أيضًا نصفها عن اليمين ونصفها عن الشمال خلف الرجال الواقفين. وكل من يأتى من الناس المعينين للوقوف فى الميمنة أو الميسرة يخدم عند موقف الحجاب، ويقول الحجاب: بسم الله. ويكون ارتفاع أصواتهم بقدر ارتفاع صوت الذى يخدم. فإذا خدم انصرف إلى موقفه من الميمنة أو الميسرة لا يتعداه، ومن كان من كفار الهنود يخدم، ويقول له الحجاب والنقباء: هداك الله، ويقف عبيد السلطان من وراء الناس كلهم، بأيديهم الترسة والسيوف، فلا يمكن الدخول بينهم إلا بين يدى الحجاب القائمين بين يدى السلطان.

وإن كان بالباب أحد ممن قدم على السلطان بهدية دخل الحجاب إلى السلطان على ترتيبهم، يقدمهم أمير حاجب ونائبه خلفه، ثم خاص حاجب ونائبه خلفه، ثم وكيل الدار ونائبه، ثم سيد الحجاب وشرف الحجاب، ويخدمون فى ثلاثة مواضع. ويعلمون السلطان بمن فى الباب. فإذا أمرهم أن يأتوا به جعلوا الهدية التى ساقها بأيدى الرجال يقومون بها أمام الناس بحيث يراها السلطان ويستدعى صاحبها، فيخدم قبل الوصول إليه ثلاث مرات، ثم يخدم عند موقف الحجاب. فإن كان رجلاً كبيراً وقف فى صف أمير حاجب، وإلا وقف خلفه. ويخاطبه السلطان بنفسه ألطف خطاب ويرحب به. وإن كان ممن يستحق التعظيم فإنه يصافحه أو يعانقه، ويطلب بعض هديته فتحضر بين يديه. فإن كانت من السلاح أو الثياب قلبها بيده، وأظهر استحسانها جبراً لخاطر مهديها وإيناسًا له ورفقًا به، وخلع عليه، وأمر له بماء لغسل رأسه، على عادتهم فى ذلك بمقدار ما يستحقه المهدى.

وإذا أتى العمال بالهدايا والأموال المجتمعة من مجابى البلاد صنعوا الأوانى من الذهب والفضة مثل الطسوت والأباريق وسواها، وصنعوا من الذهب والفضة قطعًا شبه الآجر يسمونها الخِشْت (بكسر الخاء المعجمة وسكون الشين المعجم وتاء معلوة)، ويقف العراشون، وهم عبيد السلطان صفًا، والهدية بأيديهم. كل واحد منهم ممسك قطعة، ثم يقدم الفيلة إن كان فى الهدية شىء منها، ثم الخيل المسرجة الملجمة، ثم الجمال عليها الأموال. ولقد رأيت الوزير خواجة جهان قدم هديته ذات يوم حين قدم السلطان من دولة أباد، ولقيه بها فى ظاهر مدينة بيانة، فأدخلت الهدية إليه على هذا الترتيب. ورأيت فى جملتها صينية مليئة بأحجار الياقوت وصينية مليئة بأحجار الزمرد وثالثة باللؤلؤ الفاخر. وكان حاجى كاون ابن عم السلطان أبى سعيد ملك العراق حاضراً عنده حين ذلك، فأعطاه حظًا منها. وسنذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وإذا كانت ليلة العيد بعث السلطان إلى الملوك والخواص وأرباب الدولة والأعزة والكتاب والحجاب والنقباء والقواد والعبيد وأهل الأخبار الخلع التى

تعمهم جميعًا. فإذا كانت صبيحة العيد زينت الفيلة بالحرير والذهب والجواهر، ويكون منها ستة عشر فيلاً لا يركبها أحد، إنما هى مختصة بركوب السلطان. ويرفع عليها ست عشرة شطرًا (جترا) من الحرير مرصعة بالجوهر، قائمة كل شطر منها ذهب خالص. وعلى كل فيل مرتبة حرير مرصعة بالجوهر. ويركب السلطان فيلاً منها، وترفع أمامه الغاشية وهى ستارة سرجة، وتكون مرصعة بأنفس الجوهر. ويمشى بين يديه عبيده ومماليكه. وكل واحد منهم تكون على رأسه شاشية ذهب، وعلى وسطه منطقة ذهب، وبعضهم يرصعها بالجوهر. ويمشى بين يديه أيضًا النقباء، وهم نحو ثلاثمائة. وعلى رأس كل واحد منهم أقروف ذهب، وعلى وسطه منطقة ذهب، وفى يده مقرعة نصابها[1] ذهب، ويركب قاضى القضاة صدر الجهان كمال الدين الغزنوى وقاضى القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخوارزمى وسائر القضاة وكبار الأعزة من الخراسانيين والعراقيين والشاميين والمصريين والمغاربة، كل واحد منهم على مطية، وجميع الغرباء عندهم يسمون الخراسانيين، ويركب المؤذنون على الفيلة وهم يكبرون. ويخرج السلطان من باب القصر على هذا الترتيب، والعساكر تنتظره، كل أمير بفوجه على حدة معه طبوله وأعلامه، فيقدم السلطان وأمامه من ذكرناه من المشاة وأمامهم القضاة والمؤذنون يذكرون الله تعالى، وخلف السلطان مراتبه وهى الأعلام والطبول والأبواق والأنفار والصرنايات، وخلفهم جميع أهل دخلته، ثم يتلوهم أخو السلطان مبارك خان بمراتبه وعساكره، ثم يليه ابن أخ السلطان بهرام خان بمراتبه وعساكره، ثم يليه ابن عمه ملك فيروز بمراتبه وعساكره، ثم يليه الوزير بمراتبه وعساكره، ثم يليه الملك مجير بن ذى الرجا بمراتبه وعساكره، ثم يليه الملك الكبير قُبُولة بمراتبه وعساكره، وهذا الملك كبير القدر عنده عظيم الجاه كثير المال، أخبرنى صاحبُ ديوانه ثقة الملك علاء الدين على المصرى المعروف بابن الشرايشى أن نفقته ونفقة عبيده ومرتباتهم ستة وثلاثون لكًا فى السنة، ثم يليه الملك نكبية بمراتبه وعساكره، ثم يليه الملك بغرة بمراتبه وعساكره، ثم يليه الملك مخلص بمراتبه وعساكره، وهؤلاء هم الأمراء الكبار

---

(١) نصاب السكين: هو مقبض السكين. الوجيز ص(٦١٨).

الذين لا يفارقون السلطان، وهم الذين يركبون معه يوم العيد بالمراتب، ويركب غيرهم من الأمراء دون مراتب. وجميع من يركب فى ذلك اليوم يكون مدرعًا(١) هو وفرسه. وأكثر مماليك السلطان، فإذا وصل السلطان إلى باب المصلى وقف على بابه، وأمر بدخول القضاة وكبار الأمراء وكبار الأعزة، ثم ينزل السلطان، ويصلى الإمام ويخطب. فإن كان عيد الأضحى أتى السلطان بجمل فنحره برمح يسمونه النِيزَة (بكسر النون وفتح الزاى) بعد أن يجعل على ثيابه فوطة توقيًا من الدم، ثم يركب الفيل ويعود إلى قصره.

ويفرش القصر يوم العيد، ويزين بأبدع الزينة، وتضرب الباركة على المشور كله وهى شبه خيمة عظيمة، تقوم على أعمدة ضخام كثيرة، تحفها القباب من كل ناحية، ويصنع به أشجار من حرير ملون فيها شبه الأزهار، ويجعل منها ثلاثة صفوف بالمشور. ويجعل بين كل شجرتين كرسى ذهب عليه مرتبة مغطاه، وينصب السرير الأعظم فى صدر المشور وهو من الذهب الخالص كله مرصع القوائم بالجواهر، وطوله ثلاثة وعشرون شبراً وعرضه نحو النصف من ذلك، وهو منفصل، وتجمع قطعه فتتصل، وكل قطعة منها يحملها جملة رجال لثقل الذهب، وتجعل فوق المرتبة، ويرفع الشطر المرصع بالجواهر على رأس السلطان. وعندما يصعد على السرير ينادى الحجاب والنقباء بأصوات عالية: بسم الله. ثم يتقدم الناس للسلام. فأولهم القضاة والخطباء والعلماء والشرفاء والمشايخ وإخوة السلطان وأقاربه وأصهاره، ثم الأعزة ثم الوزير ثم أمراء العساكر ثم شيوخ المماليك ثم كبار الأجناد. يسلم واحد إثر واحد من غير تزاحم ولا تدافع. ومن عوائدهم فى يوم العيد أن كل من بيده قرية منعم بها عليه يأتى بدنانير ذهب مصرورة فى خرقة مكتوب عليها اسمه فيلقيها فى طست ذهب هنالك فيجتمع منها مال عظيم يعطيه السلطان لمن شاء.

فإذا فرغ الناس من السلام، وضع لهم الطعام على حسب مراتبهم،

---

(١) يعنى: لابسًا للدرع.

وينصب فى ذلك اليوم المبخرة العظمى، وهى شبه برج من خالص الذهب منفصلة، فإذا أرادوا اتصالها وصلوها. وتحمل القطعة الواحدة منها جملة من الرجال، وفى داخلها ثلاثة بيوت يدخل فيها المبخرون بوقود العود القمارى والقاقلى والعنبر الأشهب والجاوى، حتى يعم دخانها المشور كله. ويكون بأيدى الفتيان براميل الذهب والفضة مملوءة بماء الورد وماء الزهر، يصبونه على الناس صبًّا. وهذا السرير وهذه المبخرة لا يخرجان إلا فى العيدين خاصة. ويجلس السلطان فى بقية أيام العيد على سرير ذهب دون ذلك. وتنصب باركة بعيدة لها ثلاثة أبواب، يجلس السلطان فى داخلها، ويقف على الباب الأول منها عماد الملك سرتيز، وعلى الباب الثانى الملك نكبية، وعلى الباب الثالث يوسف بغرة، ويقف على اليمين أمراء المماليك السلحدارية، وعن اليسار كذلك. ويقف الناس على مراتبهم، وشحنة الباركة ملك طغى بيده عصا ذهب، وبيد نائبه عصا فضة يرتبان الناس ويسويان الصفوف، ويقف الوزير والكتاب خلفه ويقف الحجاب والنقباء، ثم يأتى أهل الطرب، فأولهم بنات الملوك الكفار من الهنود المسبيات فى تلك السنة فيغنين ويرقصن ويهبهن السلطان للأمراء والأعزة، ثم يأتى بعدهن سائر بنات الكفار، فيغنين ويرقصن ويهبهن لإخوته وأقاربه وأصهاره وأبناء الملوك، ويكون جلوس السلطان لذلك بعد العصر. ثم يجلس فى اليوم الذى بعده بعد العصر أيضًا على ذلك الترتيب ويؤتى بالمغنيات فيغنين ويرقصن ويهبهن لأمراء المماليك. وفى اليوم الثالث يزوج أقاربه وينعم عليهم. وفى اليوم الرابع يعتق العبيد. وفى اليوم الخامس يعتق الجوارى. وفى اليوم السادس يزوج العبيد بالجوارى، وفى اليوم السابع يعطى الصدقات ويكثر منها.

وإذا قدم السلطان من أسفاره، زينت الفيلة، ورفعت على ستة عشر فيلاً منها ستة عشر شطرًا، منها مزركش ومنها مرصع، وحملت أمامه الغاشية، وهى الستارة المرصعة بالجوهر النفيس، وتصنع قباب الخشب مقسومة على طبقات، وتكسى بثياب الحرير. ويكون فى كل طبقة الجوارى المغنيات، عليهن أجمل لباس وأحسن حلية، ومنهن رواقص. ويحصل فى وسط كل قبة حوض كبير، مصنوع من الجلود، مملوء بماء الجلاب محلولاً بالماء، يشرب

منه جميع الناس من وارد وصادر وبلدى أو غريب، وكل من يشرب منه يعطى التنبول والفوفل، ويكون ما بين القباب مفروشًا بثياب الحرير، يطأ[١] عليها مركب السلطان. وتزين حيطان الشارع الذى يمر به من باب المدينة إلى باب القصر بثياب الحرير. ويمشى أمامه المشاة من عبيده وهم آلاف. وتكون الأفواج والعساكر خلفه. ورأيته فى بعض قدماته على الحضرة، وقد نصبت ثلاث أو أربع من الرعادات الصغار على الفيلة، ترمى بالدنانير والدراهم على الناس، فيلتقطونها من حين دخوله إلى المدينة حتى وصوله إلى قصره.

والطعام بدار السلطان على صنفين: طعام الخاص وطعام العام. فأما الخاص فهو طعام السلطان الذى يأكل منه. وعادته أن يأكل فى مجلسه مع الحاضرين، ويحضر لذلك الأمراء والخواص وأمير حاجب ابن عم السلطان وعماد الملك سرتيز، وأمير مجلس. ومن شاء السلطان تشريفه أو تكريمه من الأعزة أو كبار الأمراء دعاه فأكل معهم، وربما أراد أيضا تشريف أحد من الحاضرين، فأخذ إحدى الصحاف بيده، وجعل عليها خبزة ويعطيه إياها، فيأخذها المعطى، ويجعلها على كفه اليسرى، ويخدم بيده اليمنى إلى الأرض. وربما بعث من ذلك الطعام إلى من هو غائب عن المجلس، فيخدم كما يصنع الحاضرون، ويأكله مع من حضره. وقد حضرت مرات الطعام الخاص، فرأيت جملة الذين يحضرون له نحو عشرين رجلاً.

وأما الطعام العام فيؤتى به من المطبخ، وأمامه النقباء يصيحون: بسم الله. ونقيب النقباء أمامهم، بيده عمود ذهب، ونائبه معه بيده عمود فضة، فإذا دخلوا من الباب الرابع، وسمع من بالمشور أصواتهم، قاموا قيامًا أجمعين، ولا يبقى أحد قاعدًا إلا السلطان وحده. فإذا وضع الطعام بالأرض، اصطفت النقباء صفًّا، ووقف أميرهم وتكلم بكلام يمدح فيه السلطان ويثنى عليه، ثم يخدم ويخدم النقباء لخدمته، ويخدم جميع من بالمشور من كبير وصغير. وعادتهم أنه من سمع كلام نقيب النقباء حين ذلك

(١) يُقال: وطئ الشيء يطؤه وطئًا: داسه. الوجيز ص(٦٧٣).

وقف إن كان ماشيًا، ولزم موقفه إن كان واقفًا، ولا يتحرك أحد، ولا يتزحزح عن مقامه، حتى يفرغ ذلك الكلام. ثم يتكلم أيضًا نائبه كلامًا نحو ذلك، ويخدم النقباء وجميع الناس مرة ثانية. وحينئذ يجلسون، ويكتب كتّاب الباب معرفين بحضور الطعام. وإن كان السلطان قد علم بحضوره، ويعطى المكتوب لصبى من أبناء الملوك موكل بذلك، فيأتى به إلى السلطان فإذا قرأه عين من شاء من كبار الأمراءلترتيب الناس وإطعامهم. وطعامهم الرقاق والشواء والأقراص ذوات الجوانب المملوءة بالحلواء، والأرز والدجاج والسمك، وقد ذكرنا ذلك وفسرنا ترتيبهم وعادتهم، أن يكون فى صدر سماط الطعام القضاة والفقهاء والخطباء والشرفاء والمشايخ، ثم أقارب السلطان، ثم الأمراء الكبار، ثم سائر الناس. ولا يقعد أحد إلا فى موضع معين له، فلا يكون بينهم تزاحم ألبتة. فإذا جلسوا أتى الشربدارية وهم السقاة بأيديهم أوانى الذهب والفضة والنحاس والزجاج مملوءة بالنبات المحلول بالماء، فيشربون ذلك قبل الطعام. فإذا شربوا، قال الحجاب: بسم الله، ثم يشرعون فى الأكل ويجعل أمام كل إنسان من جميع ما يحتوى عليه السماط، يأكل منه وحده، ولا يأكل أحد مع أحد من طبق واحد. فإذا فرغوا من الأكل أتوا بالفقاع فى أكواز القصدير. فإذا أخذوه قال الحجاب: بسم الله ثم يؤتى بأطباق التنبول والفوفل، فيعطى كل واحد غرفة من الفوفل المهشوم(١)، وخمس عشرة ورقة من التنبول مجموعة مربوطة بخيط حرير أحمر. فإذا أخذ الناس التنبول قال الحجاب: بسم الله، فيقفون جميعًا، ويخدم الأمير المعين للإطعام، ويخدمون لخدمته، ثم ينصرفون. وطعامهم مرتان فى اليوم الواحد إحداهما قبل الظهر والأخرى بعد العصر.

وأذكر من أخباره أهم ما حضرته وشاهدته وعاينته، ويعلم الله تعالى صدق ما أقول، وكفى به شهيدًا. مع أن الذى أحكيه مستفيض متواتر. والبلاد التى تقرب من أهل الهند كاليمن وخراسان وفارس مملوءة بأخباره،

(١) المهشوم: المنكسر المطحون، يُقال: هشم الشىء الأجوف أو اليابس يهشِم هشمًا: كسره. الوجيز ص(٦٥٠).

يعلمونها حقيقة، ولا سيما جوده على الغرباء، فإنه يفضلهم على أهل الهند ويؤثرهم، ويجزل لهم الإحسان، ويسبغ عليهم الإنعام، ويوليهم الخطط الرفيعة، ويوليهم المواهب العظيمة. ومن إحسانه إليهم أن سماهم الأعزة، ومنع من أن يُدْعوا الغرباء، وقال: إن الرجل إذا دعى غريبًا انكسر خاطره وتغير حاله. وسأذكر بعضًا مما لا يحصى من عطاياه الجزيلة ومواهبه إن شاء الله تعالى.

وكان شهاب الدين صديقًا لملك التجار الكازرونى الملقب ببرويز. وكان السلطان قد أقطع ملك التجار مدينة كنباية، ووعده أن يوليه الوزارة. فبعث إلى صديقه شهاب الدين ليقدم عليه، فأتاه، وأعد هدية للسلطان، وهى سراجة من الملف المقطوع المزين بورقة الذهب، وصيوان مما يناسبها، وخباء وتابع وخباء راحة، كل ذلك من الملف المزين وبغال كثيرة. فلما قدم شهاب الدين بهذه الهدية على صاحبه ملك التجار، وجده آخذًا فى القدوم على الحضرة بما اجتمع عنده من مجابى بلاده وبهدية للسلطان.

وعلم الوزير خواجة جهان بما وعده به السلطان من ولاية الوزارة، فغار من ذلك وقلق بسببه. وكانت بلاد كنباية والجزرات قبل تلك المدة فى ولاية الوزير، لأهلها تعلق بجانبه وانقطاع إليه وتخدم له. وأكثرهم كفار، وبعضهم عصاة يمتنعون بالجبال. فدس[١] الوزير إليهم أن يضربوا على ملك التجار إذا خرج إلى الحضرة.

فلما خرج بالخزائن والأموال ومعه شهاب الدين بهديته، نزلوا يومًا عند الضحى على عادتهم، وتفرقت العساكر، ونام أكثرهم فضرب عليهم الكفار فى جمع عظيم، فقتلوا ملك التجار، وسلبوا الأموال والخزائن وهدية شهاب الدين، ونجا هو بنفسه. وكتب المخبرون إلى السلطان بذلك، فأمر أن يعطى شهاب الدين من مجبى بلاد نهروالة ثلاثين ألف دينار، ويعود إلى بلاده. فعرض عليه ذلك. فأبى من قبوله، وقال: ما قصدى إلا رؤية السلطان

(١) الدس: النميمة. الوجيز ص(٢٢٧).

وتقبيل الأرض بين يديه. فكتبوا إلى السلطان بذلك، فأعجبه قوله، وأمر بوصوله إلى الحضرة مكرمًا. وصادف يوم دخوله على السلطان يوم دخولنا نحن عليه، فخلع علينا جميعًا وأمر بإنزالنا. وأعطى شهاب الدين عطاء جزلاً. فلما كان بعد ذلك أمر لى السلطان بستة آلاف تنكة. كما سنذكره، وسأل فى ذلك اليوم عن شهاب الدين أين هو؟ فقال له بهاء الدين الفلكى: يا خوند عالم نميدا ثم، معناه ما ندرى، ثم قال: شنيدم زحمت دارد (دار) معناه سمعت أن به مرضًا. فقال له السلطان: بروهمين زمان در خزانة يك لك تنكة زربكزى أوبيرى تادل أوخش (خوض) شود، معناه امش الساعة إلى الخزانة، وخذ منها مائة ألف تنكة من الذهب، واحملها إليه، حتى يبقى خاطره طيبًا. ففعل ذلك، فأعطاه إياها. وأمر السلطان أن يشترى بها ما أحب من السلع الهندية، ولا يشترى أحد من الناس شيئًا حتى يتجهز هو، وأمر له بثلاثة مراكب مجهزة من آلاتها، ومن مرتب البحرية وزادهم، ليسافر فيها. فسافر ونزل بجزيرة هرمز، وبنى بها دارًا عظيمة، رأيتها بعد ذلك، ورأيت أيضًا شهاب الدين وقد فنى جميع ما كان عنده، وهو بشيراز يستجدى سلطانها أبا إسحاق، وهكذا مال هذه البلاد الهندية، قلّما يخرج أحد منها إلا النادر، وإذا خرج به ووصل إلى غيرها من البلاد، بعث الله عليه آفة تفنى ما بيده، كمثل ما اتفق لشهاب الدين هذا، فإنه أخذ له فى الفتنة التى كانت بين ملك هرمز وابنى أخيه جميع ما عنده، وخرج سليبًا من ماله.

وكان السلطان قد بعث هدية إلى الخليفة بديار مصر أبى العباس، وطلب منه أن يبعث له أمر التقدمة على بلاد الهند والسند، اعتقادًا منه فى الخلافة فبعث إليه الخليفة أبو العباس ما طلبه مع شيخ من شيوخ ديار مصر ركن الدين. فلما قدم عليه، بالغ فى إكرامه، وأعطاه عطاء جَزْلاً[١]. وكان يقوم له متى دخل عليه ويعظمه، ثم صرفه وأعطاه أموالاً طائلة. وفى جملة ما أعطاه جملة من صفائح الخيل ومساميرها كل ذلك من الذهب الخالص، وقال له: إذا نزلت من البحر فأنعل أفراسك بها. فتوجه إلى كنباية ليركب

---

(١) الجزل: الكثير العظيم. الوجيز ص(١٠٤).

.لبحرمنها إلى بلاد اليمن، فوقعت قضية خروج القاضى جلال الدين. وأخذه مال ابن الكولمى، فأخذ أيضًا ما كان لشيخ الشيوخ، وفر بنفسه مع ابن الكولمى إلى السلطان. فلما رآه قال له ممازحًا: أمدى كزر (كه زر) برى بادكرى (دلر باى) صنم خرى زر نيرى وسر نهى، معناه: جئت لتحمل الذهب، وتأكله مع الصور الحسان. فلا تحمل ذهبًا، ورأسك تخليه هاهنا. قال له ذلك على معنى الانبساط، ثم قال له: اجمع خاطرك فها أنا سائر إلى المخالفين، وأعطيك أضعاف ما أخذوه لك. وبلغنى بعد الانفصال عن بلاد الهند أنه وفى بما وعده، وأخلف له ما ضاع منه، وأنه وصل إلى ديار مصر.

ولما قدم الفقيه الواعظ الترمذى ناصر الدين على السلطان، وأقام تحت إحسانه مدة عام. ثم أراد الرجوع إلى وطنه، أذن له فى ذلك، ولم يكن سمع كلامه ووعظه. ولما خرج السلطان يقصد بلاد المعبر، أحب سماعه قبل انصرافه. فأمر أن يهيأ له منبر من الصندل الأبيض المقاصرى، وجعلت مساميره وصفائحه من الذهب، وألصق بأعلاه حجر ياقوت عظيم، وخلع على ناصر الدين عباءة عباسية سوداء مذهبة مرصعة بالجوهر وعمامة أيضًا، ونصب له المنبر بداخل السراجة وهى أفراج. وقعد السلطان على سريره، والخواص عن يمينه ويساره، وأخذ القضاة والفقهاء والأمراء مجالسهم. فخطب خطبة عظيمة ووعظ وذكر، ولم يكن فيما فعله طائل، لكن سعادته ساعدته. ولما نزل عن المنبر قام السلطان إليه وعانقه وأركبه على فيل، وأمر جميع من حضر أن يمشوا بين يديه، وكنت فى جمعهم إلى سراجة. ضربت له مقابلة سراجة السلطان وكلها من الحرير الملون، وصيوانها من الحرير، وخباؤها كذلك. فقعد وقعدنا معه. وكان بجانب من السراجة أوانى الذهب التى أعطاها له. وذلك تنور كبير بحيث يسع فى جوفه الرجل القاعد، وقدران اثنتان وصحاف لا أذكر عددها وعدة أكواز وركوة[1] وتميسندة ومائدة

---

(١) الركوة: إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء، أو: الدلو الصغيرة. وجمعه ركاء. الوجيز ص(٢٧٧).

لهـا أربع أرجل ومـحـمل للكتب، كل ذلك من ذهب. ورفع عـمـاد الدين السمناوى وتدين من أوتاد السراجـة، أحدهما نحاس والثانى مـقصدر. يوهم بذلك أنهما من ذهب وفضة، ولم يكونا إلا كما ذكرنا. وقد كان أعطاه حين قدومـه مائة ألف دينار دراهم، ومـئتين من العـبيد، سَـرَّحَ بعضـهم وحمل بعضهم الآخر.

كما روى عن عطائه لعـبد العزيز الأردويلى أن هذا الفقيـه المحدث قرأ بدمشق على تقى الدين ابن تيـمية، وبرهان الدين بن البركـح، وجمال الدين المزى، وشمس الدين الذهبى وغـيرهم. ثم قدم على السلطان، فأحـسن إليه وأكرمـه. واتفق يومًا أنه سـرد عليه أحـاديث فى كرم العـباس وابنه -رضي الله عنهما- وشيئًا من مآثر الخلفاء أولادهما. فأعجب ذلك السلطان لحبه فى بنى العباس، وقبَّل قدمى الفقيـه، وأمر أن يؤتى بصينية ذهب فيها ألفا تنكة، فـصبها عليه بيده، وقال: هى لك مع الصينية. وقد ذكرنا هذه الحكاية فيما تقدم.

وكان الفـقيه شـمس الدين الأندكانى حكيـمًا شاعـرًا مطبوعًا، فـمدح السلطان بقصـيدة باللسان الفارسى، وكـان عدد أبياتها سـبعة وعشريـن بيتًا، فأعطاه لكل بيت ألف دينار دراهم. وهذا أعظم مما يحكى عن المتقدمين الذين كانوا يعطون على بيت شعر ألف درهم، وهو عشر عطاء السلطان.

وكان عضـد الدين فقيهًا إمـامًا فاضلاً كبـير القدر عظيم الصيت شـهير الذكر ببـلاده. فبلغت السلطان أخـباره، وسـمع بمآثره. فبعث إلـيه إلى بلده شونكارة عشرة آلاف دينار دراهم ولم يره قط ولا وفد عليه.

ولما بلغه خـبر القاضى العالم الصـالح ذى الكرامة الشهيـرة مجد الدين قاضى شيراز الذى سطرنا أخـباره فى السفر الأول[1]، وسيمـر بعض خبره. وبعد هذا بعث إليه إلى مدينة شيراز، صحبة الشيخ زاده الدمشقى عشرة آلاف دينار دراهم.

---

(١) يعنى: فى الجزء الأول من هذا الكتاب.

وكان برهان الدين الصاغرجى أحد الوعاظ الأئمة، كثير الإيثار، باذلاً لما يملكه. حتى إنه كثيرًا ما يأخذ الديون، ويؤثر على الناس. فبلغ خبره إلى السلطان، فبعث إليه أربعين ألف دينار، وطلب منه أن يصلَ إلى حضرته. فقبل الدنانير وقضى دينه منها، وتوجه إلى بلاد الخطا، وأبى أن يصل إليه، وقال: لا أمضى إلى سلطان يقف العلماء بين يديه.

وكان حاجى كاون ابن عم السلطان أبى سعيد ملك العراق، وكان أخوه موسى ملكًا ببعض بلاد العراق. فوفد حاجى كاون على السلطان، فأكرم مثواه، وأعطاه العطاء الجزل. ورأيته يومًا وقد أتى الوزير خواجه جهان بهديته. وكان منها ثلاث صينيات، إحداها مملوءة يواقيت، والأخرى مملوءة زمردًا، والأخرى مملوءة جواهر. وكان حاجى كاون حاضرًا، فأعطاه من ذلك حظًّا جزيلاً، ثم إنه أعطاه مالاً عريضًا، ومضى يريد العراق، فوجد أخاه قد توفى، وولى مكانه سليمان خان. فطلب إرث أخيه، وادعى الملك، وبايعه العسكر، وقصد بلاد فارس، ونزل بمدينة شونكارة التى بها الإمام عضد الدين الذى تقدم ذكره آنفًا. فلما نزل بخارجها تأخر شيوخها عن الخروج إليه ساعة، ثم خرجوا. فقال لهم: ما منعكم عن تعجيل الخروج إلى مبايعتنا؟ فاعتذروا له. فلم يقبل منهم، وقال لأهل سلاحه: قلنج تجار (جقار) معناه جردوا السيوف. فجردوها، وضربوا أعناقهم، وكانوا جماعة كبيرة. فسمع من بجاور هذه المدينة من الأمراء بما فعله، فغضبوا لذلك، وكتبوا إلى شمس الدين السمنانى، وهو من الأمراء الفقهاء الكبار، فأعلموه بما جرى على أهل شونكارة، وطلبوا منه الإعانة على قتاله. فتجرد فى عساكره، واجتمع أهل البلاد طالبين بثأر من قتله حاجى كاون من المشايخ، وضربوا على عسكره ليلاً فهزموه. وكان هو بقصر المدينة، فأحاطوا به، فاختفى فى بيت الطهارة، فعثروا عليه وقطعوا رأسه، وبعثوا به إلى سليمان خان، وفرقوا أعضاءه على البلاد تشفيًا منه.

وكان الأمير غياث الدين محمد بن عبد القاهر بن يوسف بن عبد العزيز ابن الخليفة المستنصر بالله العباسى البغدادى، قد وفد على السلطان علاء الدين طرمشيرين، ملك ما وراء النهر، فأكرمه وأعطاه الزاوية التى على قبر

قثم بن العباس -رضي الله عنهما-، واستوطن بها أعوامًا. ثم لما سَمِعَ بمحبة السلطان فى بنى العباس، وقيامه بدعوتهم، أحب القدوم عليه، وبعث له برسولين، أحدهما صاحبه القديم محمد ابن أبى الشرفى الجرباوى، والثانى محمد الهمدانى الصوفى. فقدما على السلطان، وكان ناصر الدين الترمذى الذى تقدم ذكره، قد لقى غياث الدين ببغداد، وشهد لديه البغداديون بصحة نسبه فشهد هو عند السلطان بذلك. فلما وصلَ رسولاه إلى السلطان، أعطاهما خمسة آلاف دينار، وبعث معهما ثلاثين ألف دينار إلى غياث الدين، ليتزود بها إليه، وكتب له خطابا بخط يده يعظمه فيه، ويسأل منه القدوم عليه. فلما وصله الكتاب رحل إليه، فلما وصل إلى بلاد السند، وكتب المخبرون بقدومه، بعث السلطان من يستقبله على العادة. ثم لما وصل إلى سرستى بعث أيضًا لاستقباله صدر الجهان قاضى القضاة كمال الدين الغزنوى وجماعة من الفقهاء، ثم بعث الأمراء لاستقباله. فلما نزل بمسعود آباد خارج الحضرة، خرج السلطان بنفسه لاستقباله. فلما التقيا ترجل غياث الدين، فترجل له السلطان، وخدم، فخدم له السلطان. وكان قد استصحب هدية فى جملتها ثياب، فأخذ السلطان أحد الأثواب، وجعله على كتفه، وخدم كما يفعل الناس معه، ثم قدمت الخيل، فأخذ السلطان أحدها بيده وقدمه له، وحلف أن يركب، وأمسك بركابه حتى ركب، ثم ركب السلطان وسايره، والشجر يظلهما معًا. وأخذ التنبول بيده، وأعطاه إياه. وهذا أعظم ما أكرمه به. فإنه لا يفعله مع أحد. وقال له: لولا أنى بايعت الخليفة أبا العباس لبايعتك. فقال له غياث الدين: وأنا أيضًا على تلك البيعة. وقال له غياث الدين: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم تسليمًا-: **«من أحيا أرضًا مواتًا فهى له»**(١) وأنت أحييتنا. فجاوبه السلطان بألطف جواب وأبره. ولما وصلا إلى السراجة المعدة لنزول السلطان، أنزله فيها. وضرب للسلطان غيرها. وباتا فى تلك الليلة بخارج الحضرة. فلما كان بالغد دخلا إلى دار الملك، وأنزله بالمدينة

---

(١) الحديث أخرجه أحمد (٣/ ٣٠٤، ٣٣٨)، والترمذى (١٣٧٩)، وابن حبان (٥٢٠٥) عن جابر، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٩٧٥).

المعروفة بسيرى، وبدار الخلافة أيضًا فى القصر الذى بناه علاء الدين الخلجى، وابنه قطب الدين. وأمر السلطان جميع الأمراء أن يمـضوا معه إليه، وأعد له فيه جـميع ما يحـتاج إليه من أوانى الذهب والفضـة، حتى كان من جملـتها مغتسل يغتسل فيـه من ذهب. وبعث له أربعمائة ألف دينار لغسل رأسه على العادة، وبعث له جملة من الفتيان والخـدم والجوارى، وعين له عن نفقته فى كل يوم ثلاثمائة دينار، وبعث له زيادة إليهـا عددًا من الموائد بالطعام الخاص، وأعطاه جميع مدينة سـيرى، إقطاعًا. وجميع ما احـتوت عليه من الدور وما يتصل بها من بساتين المخزن وأرضـه، وأعطاه مائة قرية، وأعطاه حكم البلاد الشرقيـة المضافة لدهلى، وأعطاه ثلاثين بغلة بالسروج المذهبـة، ويكون علفها من المخزن، وأمره أن لا ينزل عن دابته إذا أتى دار السلطان إلا موضعًا خاصًا لا يدخله أحد راكبًـا سوى السلطان وأمر الناس جميـعًا من كبير وصـغير أن يخـدموا له كـمـا يخدمـون السلطان. وإذا دخل على الـسلطان ينزل له عن سريره، وإن كان على الكرسى قـام قائمًا، وخدم كل واحد منهمـا لصاحبه، ويجلس مع السلطان على بساط واحد، وإذا قام قـام السلطان لقيامه، وخدم كل واحد منهمـا لصاحبه، وإذا انصرف إلى خـارج المجلس، جعل له بساط يقعد عليه ما شاء، ثم ينصرف، يفعل هذا مرتين فى اليوم.

وفى أثناء مقامـه بدهلى قام الوزير من بلاد بنجالة، فأمـر السلطان كبار الأمراء أن يخـرجوا إلى استـقباله، ثم خـرج بنفسه إلى اسـتقبـاله، وعظمه تعظيمًا كـثيرًا، وصنعت القباب بالمدينة كمـا تصنع للسلطان إذا قدم، وخرج ابن الخليـفة للقائه أيـضًا، والفقـهاء والقـضاة والأعـيان. فلما عـاد السلطان لقصـره، قال للوزير: امض إلـى دار المخدوم زاده، وبذلك يدعوه، ومـعنى ذلك ابن المخدوم. فسـار الوزير إليه، وأهدى له ألفى تنكة من الذهب وأثوابًا كثيرة. وحضر الأمير قبولة، وغيره من كبار الأمراء، وحضرت أنا كذلك.

ولما وفد على الســلطان ملك غزنة ببهـرام، وكان بينه وبين ابن الخليـفة عداوة قديمة أمر السلطان بإنزاله ببـعض دور مدينة سيرى التى لابن الخليفة، وأمر أن يُبنـى له بها دار فبلـغ ذلك ابن الخليفـة فغضب منه ومـضى إلى دار السلطان فجلس علـى البساط الذى عادته الجلـوس عليه، وبعث إلى الوزير،

فقال له: سلم على خوند عالم، وقل له: إن جميع ما أعطانيه هو بمنزلى، لم أتصرف فى شىء منه، بل زاد عندى ونما وأنا لا أقيم معكم، وقام وانصرف فسأل الوزير بعض أصحابه عن سبب هذا، فأعلمه أن سببه أمر السلطان ببناء الدار لملك غزنة فى مدينة سيرى، فدخل الوزير على السلطان فأعلمه بذلك، فركب من حينه فى عشرة من ناسه، وأتى منزل ابن الخليفة، فاستأذن له، ونزل عن فرسه خارج القصر حيث ينزل الناس، فتلقاه واعتذر له، فقبل عذره، وقال له السلطان: والله ما أعلم أنك راضٍ عنى حتى تضع قدمك على عنقى، فقال له: هذا ما لا أفعله ولو قتلت. فقال له السلطان وحق رأسى لا بد لك من ذلك ثم وضع رأسه فى الأرض وأخذ الملك الكبير قبولة رجل ابن الخليفة بيده، فوضعها على عنق السلطان ثم قام وقال: الآن علمت أنك راضٍ علىّ، وطاب قلبى. وهذه حكاية غريبة لم يُسمع بمثلها عن ملك. ولقد حضرته يوم عيد وقد جاءه الملك الكبير بثلاث خلع من عند السلطان مفرجة. قد جعل مكان عقد الحرير التى تعلق بها حبات جوهر قدر البندق الكبير، وقام الملك ببابه، حتى نزل من قصره فكساه إياه والذى أعطاه هو ما لا يحصره العد، ولا يحيط به الحد. وابن الخليفة مع ذلك كله أبخل خلق الله تعالى وله فى البخل أخبار عجيبة، يعجب منها سامعها وكأنه كان من البخل بمنزلة السلطان من الكرم.

وكانت بينى وبينه مودة، وكنت كثير التردد إلى منزله وعنده تركت ولداً لى سميته أحمد لما سافرت ولا أدرى ما فعل الله بهما فقلت له يومًا: لم تأكل وحدك، ولا تجمع أصحابك على الطعام؟ فقال لى: لا أستطيع أن أنظر إليهم على كثرتهم وهم يأكلون طعامى فكان يأكل وحده، ويعطى صاحبه محمد ابن أبى الشرفى من الطعام لمن أحب، ويتصرف فى باقيه وكنت أتردد إليه فأرى دهليز قصره الذى يسكن به مظلمًا لا سراجة به. ورأيته مراراً يجمع الأعواد الصغار من الحطب بداخل بستانه، وقد ملأ منها مخازن فكلمته فى ذلك فقال لى: يحتاج إليها. وكان يخدم أصحابه ومماليكه وفتيانه فى خدمة البستان وبنائه ويقول: لا أرضى أن يأكلوا طعامى وهم لا يخدمون. وكان

على مرة دين فَطُلِبْتُ به فقال لى فى بعض الأيام: والله لقد هممت أن أؤدى عنك دَيْنَك، فلم تسمح نفسى بذلك، ولا ساعدتنى عليه.

وحدثنى مرة قـال: خرجت عن بغداد، وأنا رابع أربعة أحدهم مـحمد ابن أبى الشرفى صاحبـه، ونحن على أقدامنا، ولا زاد عندنا فنزلنا على عين ماء ببـعض القرى، فوجـد أحدنا فى العـين درهما، فقلناومـانصنع بدرهم، فاتفقنا على أن نشترى به خبزًا، فبـعثنا أحدنا لشرائه، فأبى الخباز بتلك القرية أن يبيع الخبز وحده، وإنما يـبيع خبزًا بقيراط، وتبنًا بقيراط فـاشترى منه الخبز والتبن، فطرحنا التبن، إذ لا دابة لنا تأكله وقسمنا الخبز لقمة لقمة، وقد انتهى حالى الـيوم إلى ما تراه فـقلت له: ينبـغى لك أن تحمد الله عـلى ما أولاك، وتؤثر الفقراء والمساكين بالتصـدق فقال: لا أستطيع ذلك. ولم أره قط يجود بشىء، ولا يفعل معروفًا، ونعوذ بالله من الشح[١].

كنت يومًـا ببغـداد بعـد عودتى من بلاد الهـند، وأنا قاعـد على باب المدرسة المسـتنصرية التى بناها جده أمـير المؤمنين المستنصـر -ﷺ-، فرأيت شابـًّا ضعـيف الحال يشـتد خلف رجل خـارج عن المدرسة فقـال لى بعض الطلبة: هذا الشاب الـذى تراه هو ابن الأمير محمـد حفيد الخليفـة المستنصر الذى ببلاد الهند، فدعوته فقلت له: إنى قدمت من بلاد الهند، وإنى أعرفك بخبر أبيك فقال: قد جـاءنى خبره فى هذه الأيام ومضى يشتد خلف الرجل، فسألت عـن الرجل، فقيل لى: هو الناظر فى الحبس، وهذا الـشاب هو إمام بـعض المسـاجد، وله على ذلك أجـرة درهم واحـد فى اليـوم، وهو يطلب أجرته من الرجل، فطال عـجبى منه، والله لو بعث إليه جـوهرة من الجواهر التى فى الخلع الواصلة إليـه من السلطان لأغناه بها ونعـوذ بالله من مثل هذه الحال ونسأله أحسن الأحوال.

ولما قدم الأميـر على السلطان أكرم مثواه، وأنزله بقـصر السلطان جلال الدين داخل مدينة دهلى، ويعـرف بكشك، لعل معناه القصـر الأحمر، وهو

---

(١) الشح: البخل مع حرص. مختار الصحاح ص(٣٣١). الوجيز ص(٣٣٦).

قصر عظيم، فيه مشور كبير جدًّا، ودهليز هائل، على بابه قبة تشرف على هذا المشور، وعلى المشور الثانى الذى يدخل منه إلى القصر، وكان السلطان جلال الدين يقعد بها، وتلعب الكرة بين يديه فى هذا المشور. وقد دخلت هذا القصر عند نزوله به فرأيته مملوءًا أثاثًا[1] وفرشًا وبسطًا وغيرها، وذلك كله متمزق لا منتفع فيه فإن عادتهم بالهند أن يتركوا قصر السلطان إذا مات بجميع ما فيه، لا يتعرضون له، ويبنى المتولى بعده قصرًا لنفسه، ولما دخلته طفت به وصعدت إلى أعلاه فكانت لى فيه عِبْرة[2]، نشأت عنها عَبْرة[3] وكان معى الفقيه الطيب الأديب جمال الدين المغربى، الغرناطى، البجائى المولد مستوطن بلاد الهند، قدمها مع أبيه، وله بها أولاد فأنشدنى عندما عايناه:

وسلاطينهم سَلِ الطينَ عنهم ... فالرؤوس العظام صارت عظاما

وبهذا القصر كانت وليمة عرسه، كما نذكره وكان السلطان شديد المحبة فى العرب، مؤثرًا لهم، معترفًا بفضائلهم فلما وصله هذا الأمير أجزل العطاء، وأحسن إليه إحسانًا عظيمًا وأعطاه مرة، وقد قدمت عليه، هدية أعظم ملك البايزيدى من بلاد منكبور، أحد عشر فرسًا من عتاق الخيل، وأعطاه مرة أخرى عشرة من الخيل، مسرجة بالسروج المذهبة عليها اللجم المذهبة، ثم زوجه بعد ذلك بأخته فيروز خونده.

ولما أمر السلطان بتزويج أخته للأمير سيف الدين غدا، عين للقيان بشأن الوليمة ونفقاتها الملك فتح الله، والمعروف بشَوْنويس (بشين معجم مفتوح وواوين أولهما مسكن) والآخر معه فى تلك الأيام فأتى فتح الله بالصيوانات، تظلل بها المشورين بالقصر الأحمر المذكور، وضرب فى كل واحد منهما قبة ضخمة جدًّا، وفرش ذلك بالفرش الحسان وأتى شمس الدين التبريزى، أمير المطربين ومعه الرجال المغنون والنساء المغنيات والرواقص، وكلهن مماليك السلطان، وأحضر الطباخين والخبازين والشوائين والحلوانيين والشربدارية

---

(١) الأثاث: متاع البيت من فراش ونحوه. الوجيز ص(٥).

(٢) العبرة: العظة.

(٣) العَبرة: الدمعة من البكاء.

والتنبول داران، وَذبحت الأغنام والطيور. وأقاموا يطعمون الناس خمسة عشر يومًا ويحضر الأمراء الكبار والأعزة ليلاً ونهارًا فلما كان قبل ليلة الزفاف بليلتين جاء الخواتين من دار السلطان ليلاً إلى هذا القصر، فزيّنّهُ وفرشْنَه بأحسن الفرش، واستحضر الأمير سيف الدين، وكان عربيًّا غريبًا لا قرابة له، فحففن به وأجلسنه على مرتبة معينة له، وكان السلطان قد أمر أن تكون ربيبته أم أخيه مبارك خان مقام أم الأمير غدا، وأن تكون امرأة أخرى من الخواتين مقام أخته، وأخرى مقام عمته، وأخرى مقام خالته، حتى يكون كأنه بين أهله. ولما أجلسنه على المرتبة جعلن له الحناء فى يديه ورجليه، وأقام باقيهن على رأسه يغنين ويرقصن وانصرفن إلى قصر الزفاف، وأقام هو مع خواص أصحابه. وعين السلطان جماعة من الأمراء يكونون من جهته، وجماعة يكونون من جهة الزوجة. وعادتهم أن تقف الجماعة التى من جهة الزوجة على باب الموضع الذى تكون به جلوتها[١] على زوجها، ويأتى الزوج بجماعته فلا يدخلون إلا إن غلبوا أصحاب الزوجة، أو يعطونهم الآلاف من الدنانير إن لم يقدروا عليهم، ولما كان بعد المغرب أُتِيَ إليه بخلعة حرير زرقاء مزركشة مرصعة، قد غلبت الجواهر عليها، فلا يظهر لونها مما عليها من الجواهر وبشاشية مثل ذلك، ولم أر قط خلعة أجمل من هذه الخلعة وقد رأيت ما خلعه السلطان على سائر أصهاره مثل ابن ملك الملوك عماد الدين السمنانى، وابن ملك العلماء، وابن شيخ الإسلام، وابن صدر جهان البخارى، فلم يكن فيها مثل هذه.

ثم ركب الأمير سيف الدين فى أصحابه وعبيده، وفى يد كل واحد منهم عصا قد أعدها وصنعوا شبه إكليل من الياسمين والنسرين، وريبول وله رفرف يغطى وجه المتكلل به وصدره وأتوا به الأمير ليجعله على رأسه فأبى من ذلك وكان من عرب البادية، لا عهد له بأمور الملك والحضر فحاولته، وحلفت عليه حتى جعله على رأسه وأتى باب الصرف ويسمونه

---

(١) جلت الماشطة العروس على بعلها جِلاءً وجِلْوة: عرضتها عليه مجلوة. الوجيز ص(١١٣).

باب الحرم، وعليه جماعة الزوجة، فحمل عليهم بأصحابه حملة عربية، وصرعوا كل من عارضهم، فغلبوا عليهم ولم يكن لجماعة الزوجة من ثبات وبلغ السلطان فأعجبه فعله، ودخل إلى المشور، وقد جعلت العروس فوق منبر عال، مزين بالديباج، مرصع بالجوهر، والمشور ملآن بالنساء، والمطربات قد أحضرن أنواع الآلات المطربة، وكلهن وقوف على قدم إجلالاً له وتعظيمًا، فدخل بفرسه حتى قرب من المنبر، فنزل وخدم عند أول درجة منه وقامت العروس قائمة، حتى صعد، فأعطته التنبول بيدها فأخذه، وجلس تحت الدرجة التى وقفت بها ونثرت الذهب على رؤوس الحاضرين من أصحابه، ولقطتها النساء والمغنيات يغنين حينئذ، والأطبال والأبواق والأنفار تضرب خارج الباب ثم قام الأمير، وأخذ بيد زوجته، ونزل وهى تتبعه، فركب فرسه يطأ به الفرش والبسط، ونثرت الدنانير عليه وعلى أصحابه، وجعلت العروس فى محفة وحملها العبيد على أعناقهم إلى قصره، والخواتين بين يديها راكبات، وغيرهن من النساء ماشيات وإذا مروا بدار أمير أو كبير، خرج إليهم ونثر عليهم الدنانير والدراهم على قدر همته، حتى أوصلوها إلى قصره ولما كان بالغد بعثت العروس إلى جميع أصحاب زوجها الثياب والدنانير والدراهم وأعطى السلطان لكل واحد منهم فرسًا مسرجًا ملجمًا وبدرة[1] دراهم من ألف دينار إلى مائتى دينار، وأعطى الملك فتح الله للخواتين ثياب الحرير المنوعة والبدر، وكذلك لأهل الطرب. وعادتهم ببلاد الهند أن لا يعطى أحد شيئًا لأهل الطرب، إنما يعطيهم صاحب العرس وأطعم الناس جميعًا ذلك اليوم.

وانقضى العرس، وأمر السلطان أن يعطى للأمير غدا بلاد المالوة والجزرات وكنباية ونهروالة، وجعل فتح الله المذكور نائبًا عنه عليها، وعظمه تعظيمًا شديدًا وكان عربيًا جافيًا، فلم يقدر قدر ذلك، وغلب عليه جفاء البادية، فأداه ذلك إلى النكبة بعد عشرين ليلة من زفافه.

---

(١) البدرة: كيس فيه مقدار من المال يتعامل به، ويقدم فى العطايا، ويختلف باختلاف العهود، وجمعه بِدَرٌ. الوجيز ص(٤٠).

ولما كان بعـد عشرين يومًا من زفـافه اتفق أنه وصل إلى دار السلطان، فأراد الدخول فمنعه أمير البرد (البرده) داريه، وهم الخواص من البوابين، فلم يسمع منه وأراد التقحم، فأمسك البواب بدبوقـته، وهى الضفيرة ورده فضربه الأمير بعـصا كانت هنالك حـتى أدماه وكان هذا المضروب من كـبار الأمراء، يعـرف أبوه بقاضى غـزنة، وهو من ذرية السلطان مـحـمود بن سـبكتكين، والسلطان يخـاطبه بالأدب، ويخـاطب ابنه هذا بالأخ فـدخل على السلطان، والدم على ثيابه فأخبره بما صنع الأمير غدا، ففكر السلطان هنيهة ثم قال له: القاضى يفصل بينكما وتلك جريمة لا يغفرها السلطان لأحد من ناسه، ولابد من الموت عليها، وإنما احتمله لغربته وكان القاضى كمال الدين بالمشور، فأمر السلطان الملك تتـر أن يقف معهـما عند القاضى. وكـان تتر حـاجًّا مجاورًا يحسن العربية، فحـضرمعهما، وقال للأميـر: أنت ضربته أو قل: لا، لقصد أن يعلمه الحـجة، وكان سـيف الدين جاهلاً مغتـرًا، فقال: نعم، أنا ضـربته وأتى والد المضـروب، فرام الإصـلاح بينهمـا، فلم يقبل سـيف الدين فـأمر القاضى بسـجنه تلك الليلة فوالله مـا بعثت له زوجـته فراشًـا ينام عليه، ولا سألت عنه خوفًا من السلطان وخاف أصحابه فودعوا أموالهم.

وأردت زيارته بالسـجن، فلقـينى بعض الأمـراء، وفـهم عنى أنى أريد زيارته، فـقال لى: أو نسـيت؟ وذكرنى بقـضيـة اتفقت لى فى زيارة الشـيخ شهاب الدين ابن شـيخ الجام، وكيف أراد السلطان قتلى على ذلك، حسـبما يقع ذكره، فرجعت ولم أزره وتخلص الأمير غدا عند الظهر من سجنه فأظهر السلطان أعماله، وأضرب عما كـان أمر له بولايته وأراد نفيه، وكان للسلطان صهر يسمى بمغيث ابن ملك الملوك وكـانت أخت السلطان تشكوه لأخيها إلى أن ماتت فذكـر جواريها أنها مـاتت بسبب قهره لهـا وكان فى نسبه مـغمز، فكتب السلطان بخطه يجلى اللقـيط، يعنيه، ثم كتب ويجلى "مـوش خوار" مـعناه: آكل الفـئران، يعنى بذلك الأمـيـر غدا؛ لأن عـرب البـادية يأكلون اليربوع، وهو شبه الفـأر، وأمر بإخراجه فجاءه النقباء ليـخرجوه فأراد دخول داره ووداع أهله، فترادف النقباء فى طلبه، فخرج باكياً، وتوجهت حين ذلك

إلى دار السلطان فبت بها فسألنى عن مبيتى بعض الأمراء، فقلت له: جئت لأتكلم فى الأمير سيف الدين حتى يرد ولا ينفى. فقال: لا يكون ذلك. فقلت له: والله لأبيتن بدار السلطان، ولو بلغ مبيتى مائة ليلة، حتى يرد فبلغ ذلك السلطان فأمر برده، وأمره أن يكون فى خدمة الأمير ملك قبولة اللاهورى، فأقام أربعة أعوام فى خدمته. يركب لركوبه، ويسافر لسفره، حتى تأدب وتهذب ثم أعاده السلطان إلى ما كان عليه أولاً وأقطعه البلاد، وقدمه على العساكر، ورفع قدره.

ولما قدم خداوند زاده أعطاه السلطان عطاءً جزلاً، وأحسن إليه إحسانًا عظيمًا، وبالغ فى إكرامه، ثم زوج ولديه من بنتى الوزير خواجة جهان وكان الوزير إذ ذاك غائبًا، فأتى السلطان إلى داره ليلاً، وحضر عقد النكاح، كأنه نائب عن الوزير، ووقف حتى قرأ قاضى القضاة الصداق[1]، والقضاة والأمراء والمشايخ قعود، وأخذ السلطان بيده الأثواب والبدر فجعلها بين يدى القاضى وولدى خداوند زاده وقام الأمراء وأبوا أن يجعل السلطان ذلك بين أيديهم بنفسه، فأمرهم بالجلوس، وأمر بعض كبار الأمراء أن يقوم مقامه، وانصرف.

وحين ادعى عليه رجل من كبار الهنود أنه قتل أخاه من غير موجب، دعاه إلى القاضى، فمضى على قدميه، ولا سلاح معه، إلى مجلس القاضى فسلم وخدم، وكان قد أمر القاضى قبل ذلك أنه إذا جاء فى مجلسه، فلا يقوم له ولا يتحرك فصعد إلى المجلس، ووقف بين يدى القاضى، فحكم عليه أن يرضى خصمه من دم أخيه فأرضاه.

وادعى على السلطان مرة رجلٌ من المسلمين أن له عليه حقًّا ماليًّا، فتخاصما فى ذلك عند القاضى، فأصدر الحكم على السلطان بإعطاء المال فأعطاه.

وادعى عليه صبى من أبناء الملوك أنه ضربه من غير موجب، ورفعه إلى القاضى فتوجه الحكم عليه أن يرضيه بالمال إن قبل ذلك، وإلا أمكنه من

(١) الصداق: المهر.

القصاص، فشاهدته يومئذ وقد عاد لمجلسه واستحضر الصبى، وأعطاه عصا، وقال له: وحق رأسى لتضربنى كما ضربتك. فأخذ الصبى العصا، فضربه بها إحدى وعشرين ضربة، حتى رأيت الكلا (الكلاه) قد طارت على رأسه.

وكان السلطان شديداً فى إقامة الصلاة، آمراً بملازمتها فى الجماعات، يعاقب على تركها أشد العقاب ولقد قتل فى يوم واحد تسعة نفر على تركها كان أحدهم مغنيًا، وكان يبعث الرجال الموكلين بذلك إلى الأسواق فمن وجد بها عند إقامة الصلاة، عوقب حتى انتهى إلى عقاب الستائريين الذين يمسكون دواب الخدام، على باب المشور، إذا ضيعوا الصلاة، وأمر أن يطلب الناس بعلم فرائض الوضوء والصلاة وشروط الإسلام، فكانوا يسألون عن ذلك فمن لم يحسنه عوقب، وصار الناس يتدارسون ذلك بالمشور والأسواق ويكتبونها.

كما كان شديداً فى إقامة الشرع، ومما فعل فى ذلك أن أمر أخاه مبارك خان، أن يكون قعوده بالمشور مع قاضى القضاة كمال الدين فى قبة مرتفعة هنالك، مفروشة بالبسط وللقاضى بها مرتبة تحف بها المخاد، كمرتبة السلطان ويقعد أخو السلطان عن يمينه، فمن كان عليه حق من كبار الأمراء، وامتنع من أدائه لصاحبه، يحضره رجال أخى السلطان عند القاضى لينصف منه.

ولما كان فى سنة إحدى وأربعين أمر السلطان برفع المكوس[1] عن بلاده، وأن لا يؤخذ من الناس إلا الزكاة والعشرخاصة وصار يجلس بنفسه للنظر فى المظالم، كل يوم إثنين وخميس برحبة[2] أمام المشور، ولا يقف بين يديه فى ذلك اليوم إلا أمير حاجب وخاص حاجب وسيد الحجاب وشرف الحجاب لا غيره، ولا يمنع أحد ممن أراد الشكوى من الوقوف بين يديه، وعين أربعة من كبار الأمراء يجلسون فى الأبواب الأربعة من المشور، لأخذ

---

(١) المكس: الضريبة يأخذها المُكّاس ممن يدخلون البلد من التجار، وجمعه مكوس. الوجيز ص(٥٨٧).

(٢) الرحبة: الأرض الواسعة، ورحبة المكان: ساحته ومتسعه. الوجيز ص(٢٥٨).

القصص من المشتكين، والرابع منهم ابن عمه ملك فيروز خان، فإن أخذ صاحب الباب الأول الرفع من الشاكى فحسن، وإلا أخذه الثانى أو الثالث أو الرابع، وإن لم يأخذوه منه، مضى به إلى صدر الجهان قاضى المماليك، فإن أخذه منه، وإلا شكا إلى السلطان، فإن صحَّ عنده مضى به إلى أحد منهم فلم يأخذه منه، أدَّبه وكل ما يجتمع من القصص فى سائر الأيام، يطالع به السلطان بعد العشاء الآخرة.

ولما استولى القحط على بلاد الهند والسند، واشتد الغلاء حتى بلغ مَنُّ[1] القمح إلى ستة دنانير، أمر السلطان أن يعطى لجميع أهل دهلى نفقة ستة أشهر من المخزن، بحسب رطل ونصف من أرطال المغرب، لكل إنسان فى اليوم، صغيرًا وكبيرًا حرًّا وعبدًا. وخرج الفقهاء والقضاة يكتبون الأزمَّة بأهل الحارات، ويحضرون الناس، ويعطى لكل واحد عولة ستة أشهر يقتات بها.

وكان على ما قدمنا من تواضعه وإنصافه ورفقه بالمساكين وكرمه الخارق للعادة، كثير التجاسر على إراقة الدماء، لا يخلو بابه عن مقتول إلا فى النادر، وكنت كثيرًا ما أرى الناس يقتلون على بابه، ويطرحون هنالك. ولقد جئت يومًا فنفر بى الفرس، ونظرت إلى قطعة بيضاء فى الأرض فقلت: ما هذه؟ فقال بعض أصحابى هى صدر رجل قطع ثلاث قطع. وكان يعاقب على الصغيرة والكبيرة، ولا يحترم أحدًا من أهل العلم والصلاح والشرف وفى كل يوم يرد على المشور من المسلسلين والمغلولين والمقيدين مئون فمن كان للقتل قُتل أو للعذاب عُذِّب، أو للضرب ضرب. وعادته أن يؤتى كل يوم بجميع من فى سجنه من الناس إلى المشور، ما عدا يوم الجمعة، فإنهم لا يخرجون فيه، وهو يوم راحتهم، يتنظفون فيه ويستريحون أعاذنا الله من البلاء.

---

(١) المن: رطلان، والرطل يختلف باختلاف البلاد وهو فى مصر اثنتا عشرة أوقية، والأوقية اثنا عشر درهما. الوجيز ص(٢٦٧). ومختار الصحاح (٦٣٧).

وكان له أخ اسمه مسعود خان، وأمه بنت السلطان علاء الدين وكان من أجمل صورة رأيتها فى الدنيا فاتهمه بالقيام عليه، وسأله عن ذلك فأقر خوفًا من العذاب فإن من أنكر ما يدعيه السلطان من مثل ذلك يعذب، فيرى الناس أن القتل أهون عليهم من العذاب، فأمر به، فضربت عنقه فى وسط السوق، وبقى مطروحًا هنالك ثلاثة أيام على عادتهم. وكانت أم هذا المقتول قد رجمت فى ذلك الموضع قبل ذلك بسنتين، لاعترافها بالزنا رجمها القاضى كمال الدين.

وكان مرةً عين حصةً من العسكر، تتوجه مع الملك يوسف بغرة إلى قتال الكفار، ببعض الجبال المتصلة بحوز دهلى فخرج يوسف، وخرج معه معظم العسكر وتخلف قوم منهم، فكتب يوسف إلى السلطان يعلمه بذلك، فأمر أن يطاف بالمدينة، ويقبض على من وجد من أولئك المتخلفين ففعل ذلك، وقبض على ثلاثمائة وخمسين منهم فأمر بقتلهم أجمعين، فقتلوا.

وكان الشيخ شهاب الدين ابن شيخ الجام الخراسانى الذى تنسب مدينة الجام بخراسان إلى جده، حسبما قصصنا ذلك، من كبار المشايخ الصلحاء الفضلاء، وكان يواصل أربعة عشر يومًا. وكان السلطانان، قطب الدين وتغلق يعظمانه ويزورانه ويتبركان به، فلما ولى السلطان محمد أراد أن يخدم الشيخ فى بعض خدمته، فإن عادته أن يخدم الفقهاء والمشايخ والصلحاء، محتجًا أن الصدر الأول -ﷺ-، لم يكونوا يستعملون إلا أهل العلم والصلحاء، فامتنع الشيخ شهاب الدين من الخدمة وشافهه السلطان بذلك فى مجلسه العام، فأظهر الإباية والامتناع، فغضب السلطان من ذلك، وأمر الشيخ الفقيه المعظم ضياء الدين السمنانى أن ينتف لحيته، فأبى ضياء الدين من ذلك، وقال: لا أفعل هذا، فأمر السلطان بنتف لحية كل واحد منهما فنتف ونفى ضياء الدين إلى بلاد التلنك ثم ولاه بعد مدة قضاء ورنكل، فمات بها، ونفى شهاب الدين إلى دولة آباد، فأقام بها سبعة أعوام، ثم بعث عنه، فأكرمه وعظمه، وجعله على ديوان المستخرج، وهو ديوان بقايا العمال، يستخرجها منهم بالضرب والتنكيل ثم زاد فى تعظيمه، وأمر الأمراء أن يأتوا

للسلام عليه، ويمتثلوا أقواله ولم يكن أحد فى دار السلطان فوقه ولما انتقل السلطان إلى السكنى على نهر الكنك، وبنى هنالك القصر المعروف بسرك دوار، معناه شبه الجنة، وأمرالناس بالبناء هنالك، طلب منه الشيخ شهاب الدين أن يأذن له فى الإقامة بالحضرة، فأذن له إلى أرض موات، على مسافة ستة أميال من دهلى فحفر بها كهفًا كبيرًا، صنع فى جوفه البيوت والمخازن والفرن والحمام، وجلب الماء من نهر جون، وعمّر تلك الأرض، وجمع مالاً كثيرًا من مستغلها لأنها كانت السنون قاحطة، وأقام هنالك عامين ونصف عام مدة مغيب السلطان. وكان عبيده يخدمون تلك الأرض نهارًا، ويدخلون الغار ليلاً ويسدونه على أنفسهم وأنعامهم، خوف سراق الكفار، لأنهم فى جبل منيع هنالك، ولما عاد السلطان إلى حضرته استقبله الشيخ ولقيه على سبعة أميال منها، فعظمه السلطان وعانقه عند لقائه، وعاد إلى غاره ثم بعث عنه بعد أيام، فامتنع من إتيانه فبعث إليه مخلص الملك الندرباري، وكان من كبراء الملوك، فتلطف له فى القول، وحذره بطش السلطان فقال له: لا أخدم ظالمًا أبدًا فعاد مخلص الملك إلى السلطان فأخبره بذلك فأمر أن يأتى به، فأتى به فقال له: أنت القائل: إنى ظالم فقال: نعم، أنت ظالم، ومن ظلمك كذا وكذا، وعدد أمورًا منها تخريبه لمدينة دهلى، وإخراجه أهلها. فأخذ السلطان سيفه، ودفعه لصدر الجهان، وقال يثبت هذا أنى ظالم، واقطع عنقى بهذا السيف فقال له شهاب الدين: ومن يريد أن يشهد بذلك، فيقتل ولكن أنت تعرف ظلم نفسك وأمر بتسليمه للملك نكبية، رأس الدويدارية، فقيده بأربعة قيود، وغلّ يديه وأقام كذلك أربعة عشر يومًا مواصلاً، لا يأكل ولا يشرب وفى كل يوم منها يؤتى به إلى المشور، ويجمع الفقهاء والمشايخ، ويقولون له: ارجع عن قولك فيقول: لا أرجع عنه، وأريد أن أكون فى زمرة الشهداء. فلما كان اليوم الرابع عشر بعث إليه السلطان بطعام مع مخلص الملك، فأبى أن يأكل، وقال قد رفع رزقى من الأرض ارجع بطعامك إليه فلما أخبر بذلك السلطان، أمر عند ذلك أن يطعم الشيخ خمسة أستار (أساتير) من العذرة، وهى رطلان ونصف من أرطال المغرب فأخذ ذلك

الموكلون بمثل هذه الأمور، وهم طائفة من كفار الهنود، فمدوه على ظهره، وفتحوا فمه بالكلبتين، وحلوا العذرة بالماء وسقوه ذلك. وفى اليوم الذى بعده أتى به إلى دار القاضى صدر الجهان، وجمع الفقهاء والمشايخ ووجوه الأعزة فوعظوه، وطلبوا منه أن يرجع عن قوله، فأبى ذلك. فضربت عنقه، رحمه الله تعالى.

وكان السلطان فى سنى القحط قد أمر بحفر آبار خارج دار الملك، وأن يزرع هنالك زرع، وأعطى الناس البذر، وما يلزم على الزراعة من التفقة، وكلفهم زرع ذلك للمخزن فبلغ ذلك الفقيه عفيف الدين، فقال: هذا الزرع لا يحصل المراد منه، فوُشي به إلى السلطان فسجنه. وقال له: لأى شيء تدخل نفسك فى أمور الملك؟ ثم إنه سرحه بعد مدة فذهب إلى داره ولقيه فى طريقه إليها صاحبان له من الفقهاء، فقالا له: الحمد لله على خلاصك. فقال الفقيه: الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين وتفرقوا فلم يصلوا إلى دورهم حتى بلغ ذلك السلطان فأمر بهم فأحضر ثلاثتهم بين يديه فقال: اذهبوا بهذا، يعنى عفيف الدين، فاضربوا عنقه حمائل، وهو أن يقطع الرأس من الذراع وبعض الصدر، واضربوا أعناق الآخرين فقالوا له: أما هو فيستحق العقاب بقوله، وأما نحن فبأى جريمة تقتلنا؟ فقال: طالما أنكما سمعتما كلامه فلم تنكراه فكأنكما وافقتما عليه، فقتلوا جميعًا رحمهم الله تعالى.

وكان قد أمر فقيهين من أهل السند كانا فى خدمته أن يمضيا مع أمير عينه إلى بعض البلاد، وقال لهما: إنما سلمت أحوال البلاد والرعية لكما، ويكون هذا الأمير معكما، يتصرف بما تأمرانه به، فقالا له: إنما نكون كالشاهدين عليه، ونبين له وجه الحق ليتبعه. فقال لهما: إنما قصدكما أن تأكلا أموالى وتضيعاها، وتنسبا ذلك إلى هذا التركى الذى لا معرفة له. فقالا له: حاشا لله يا خوند عالم ما قصدنا هذا فقال لهما لم تقصدا غير هذا اذهبوا بهما إلى الشيخ زاده النهاوندى، وهو الموكل بالعذاب فذهب بهما إليه، فقال لهما: السلطان يريد قتلكما. فأقرا بما قوّلكما إياه، ولا تعذبا أنفسكما فقالا: والله ما قصدنا إلا ما ذكرنا فقال لزبانيته: ذوقوهما بعض

شىء، يعنى من العذاب فبطحا على أقفائهما وجعل على صدر كل واحد منهما صفيحة حديد محماة، ثم قلعت بعد هنيهة، فذهب بلحم صدورهما، ثم أخذ البول والرماد فجعل على تلك الجراحات فأقرا على أنفسهما أنهما لم يقصدا إلا ما قاله السلطان، وأنهما مجرمان مستحقان للقتل، فلا حق لهما ولا دعوى فى دمائهما دنيا ولا أخرى، وكتبا خطهما بذلك، واعترفا به عند القاضى، فسجل على العقد، وكتب فيه أن اعترافهما كان عن غير إكراه ولا إجبار ولو قالا: أكرهنا لعذبا أشد العذاب، ورأيا أن تعجيل ضرب العنق خير لهما من الموت بالعذاب الأليم فقتلا رحمهما الله تعالى.

وكان الشيخ زاده، المسمى بهود، حفيد الشيخ الصالح الولى ركن الدين ابن بهاء الدين ابن أبى زكريا الملتانى، وجده الشيخ ركن الدين، معظمًا عند السلطان، وكذلك أخوه عماد الدين الذى كان شبيهًا بالسلطان، وقتل يوم وقيعة كشلوخان، وسنذكره. ولما قتل عماد الدين أعطى السلطان لأخيه ركن الدين مائة قرية ليأكل منها ويطعم الصادر والوارد بزاويته فتوفى الشيخ ركن الدين، وأوصى بمكانه من الزاوية لحفيده الشيخ هود، ونازعه فى ذلك ابن أخى الشيخ ركن الدين، وقال: أنا أحق بميراث عمى، فقدما على السلطان، وهو بدولة آباد وبينهما وبين ملتان ثمانون يومًا فأعطى السلطان المشيخة لهود حسبما أوصى له الشيخ، وكان كهلاً، وكان ابن أخى الشيخ فتى وأكرمه السلطان، وأمر بتضييفه فى كل منزل يحله، وأن يخرج إلى لقائه أهل كل بلد يمر به إلى ملتان، وتصنع له فيه دعوة فلما وصل الأمر للحضرة، خرج الفقهاء والقضاة والمشايخ والأعيان للقائه وكنت فيمن خرج إليه، فتلقيناه وهو راكب فى دولة، يحملها الرجال، وخيله مجنوبة، فسلمنا عليه، وأنكرت أنا ما كان من فعله فى ركوبه الدولة، وقلت: إنما كان ينبغى له أن يركب الفرس، ويساير من خرج للقائه من القضاة والمشايخ فبلغه كلامى، فركب الفرس، واعتذر بأن فعله أولاً كان بسبب ألم منعه من ركوب الفرس. ودخل الحضرة، وصنعت له بها دعوة أنفق فيها من مال السلطان عددًا كثيرًا وحضر القضاة والمشايخ والفقهاء والأعزة، ومد السماط وأتوا بالطعام على العادة، ثم

أعطيت الدراهم لكل من حضر على قـدر استحقاقه. فأعـطى قاضى القضاة خمـسمـائة دينار، وأعطيت أنا مائتـين وخمـسين ديناراً وهذه عـادة لهم فى الدعوى السلطانيـة ثم انصرف الشيخ هود إلى بلده، ومعـه الشيخ نور الدين الشيرازى، بعثه السلطان ليجلسه على سجادة جده بزاويته، ويصنع له الدعوة من مال السلطان هنالك. واستـقر بزاويته، وأقام أعوامًـا ثم إن عماد الملك، أمير بلاد السند، كتب إلى السلطان يذكر أن الشـيخ وقرابته، يشتغلون بجمع الأموال وإنـفاقـها فى الشـهوات، ولا يطعـمون أحـدًا بالزاوية، فنفذ الأمـر بمطالبتهم بالأموال فطلبهم عماد الملك بهـا، وسجن بعضهم، وضرب بعضًا، وصار يأخذ منهم كل يوم عشرين ألف دينار مدة أيام، حتى استخلص ما كان عندهم ووجد لهم كـثيراً من الأمـوال والذخائر من جملتـها نعلان مرصـعان بالجوهر واليـاقوت، بيـعا بسبـعة آلاف دينار، قيل: إنهـما كانا لـبنت الشيخ هود، وقيل لسرّية[1] له فلما اشتـد الحال على الشيخ هرب يريد بلاد الأتراك فقبض علـيه وكتب عماد الملك بذلك إلـى السلطان، فأمره أن يبعـثه ويبعث الذى قبض عليه كليهما فى حكم الثقاف، فلما وصلا إليه، سرح الذى قبض عليه وقال للشيخ هود: أين أردت أن تفر؟ فاعتذر بعذر فقال له السلطان: إنما أردت أن تذهب إلى الأتراك، فتـقول: أنا ابن الشيخ بهاء الدين زكـريا، وقد فعل السلطـان معى كذا، وتأتى بهم لقـتالنا. اضربوا عـنقه، فضـربت عنقه رحمه الله تعالى.

وكان الشيخ الصالح شمس الدين ابن تاج العارفين، ساكنًا بمدينة كول، منقطعًا للعـبادة كبيـر القدر ودخل السلطان إلى مدينة كـول، فذهب عنه فلم يأته فذهب السلطان إلـيه ثم لما قارب منزله انصـرف، ولـم يره. واتفق، بعد ذلك أن أميراً من الأمراء خالف على السلطان ببعض الجهات، وبايعه الناس: فنقل للسلطان أنه وقع ذكـر هذا الأميـر بمجلس الشيخ شمس الـدين، فأثنى عليـه، وقال: إنه يصـلح للملك. فبـعث السلطان بعـض الأمراء إلى الشـيخ فقـيده، وقيد أولاده، وقـيد قاضى كول، ومـحتسبـها؛ لأنه ذكر أنهمـا كانا

---

(١) السُّرِّيَّةُ: الجارية المملوكة، وجمعه: سرارى. الوجيز ص(٣٠٩).

حاضـرين للمجلس الذى وقع فيه ثنـاء الشيخ على الأمير المخـالف وأمر بهم فسجنوا جميعًا، بعد أن سمل عينى القاضى، وعينى المحتسب. ومات الشيخ بالسـجن وكان القـاضى والمحتسـب يخرجان مـع بعض السجـانين فيـسألان الناس، ثم يردان إلى السجن، وكان قـد بلغ السلطان، أن أولادَ الشيخِ كانوا يخالطون كفار الهنود وعصاتهم ويصحبونهم، فلما مات أبوهم، أخرجهم من السجن، وقـال لهم: لا تعودوا إلى مـا كنتم تفعلون. فـقالوا له: ومـا فعلنا فاغتـاظ من ذلك وأمر بقتلهم جمـيعًا فقـتلوا ثم استحضر الـقاضى المذكور، فقال أخبرنى بمن كان يرى رأى هؤلاء الذين قتلوا، ويفعل مثل أفعالهم فأملى أسماء رجال كثيرين من كـفار البلد، فلما عرض ما أملاه على السلطان قال: هذا يحب أن يخرب البلد اضربوا عنقه، فضربت عنقه رحمه الله تعالى.

وكان الشيخ عـلى الحيدرى ساكنًا بمدينة كنبـاية من ساحل الهند، وهو عظيم القدر، شهير الذكر، بعيد الصيت، ينذر له التجار بالبحر النذور الكثيرة وإذا قدمـوا بدأوا بالسـلام عليه وكـان يكاشف بأحوالهم، وربما نذر أحـدهم النذر وندم عليه فإذا أتى الشيخ للسـلام عليه، أعلمه بما نذر له، وأمر بالوفاء به واتفق له ذلك مـرات، واشتـهر به فلمـا خالف القـاضى جلال الأفـغانى وقبيلـته بتلك الجهات، بلغ السلطان أن الشـيخ الحيدرى دعا للقـاضى جلال الدين، وأعطاه شاشيته من رأسه، وذكـر أيضًا أنه بايعه. فلما خرج السلطان إليهم بنفسـه، وانهزم القاضى جلال خلف السلطان شـرف الملك أمير بخت، أحد الوافدين معنا عليه بكنباية، وأمره بالبحث عن أهل الخلاف، وجعل معه فقهاء يحكم بقولهم، فأحضر الشيخ على الحيدرى بين يديه، وثبت أنه أعطى للقائم شاشـيته ودعا له، فحكموا بقـتله. فلما ضربه السياف لم يفعـل شيئًا وعجب الناس لذلك، وظنوا أنه يعفو عنه بسبب ذلك فأمر سيافًا آخر بضرب عنقه، فضربها رحمه الله تعالى.

وكان طوغان الفرغـانى وأخوه من كبار أهل مدينة فرغـانى فوفدا على السلطان، فأحسن إليـهما وأعطاهما، عطاء جزيلاً وأقامـا عنده مدة فلما طال مقامهما أرادا الرجوع إلى بلادهما، وحاولا الفرار فوشى بهما أحد أصحابهما

إلى السلطان فـأمر بتـوسيطهـما، فـوسطا وأعطى للذى وشى بهـما جمـيع مالهـما، وكذلك عادتـهم بتلك البلاد إذا وشى أحد بأحـد وثبت ما وشى به فقتل، أعطى ماله.

وكان ابن ملك التجار شابًّا صغيرًا لا نبات بعـارضيه فلما وقع خلاف عين الملك وقيامه وقتاله لـلسلطان، كما سنذكره، غلب على ابن ملك التجار هذا، فكان فى جـملته مـقهـورًا، فلما هزم عـين الملك، وقبض الملك علـيه وعلى أصحابه، كـان من جملتهم ابن ملك التجـار وصهره ابن قطب الملك، فأمر بهما، فعلقا من أيديهما فى خشب، وأمر أبناء الملوك، فرموهما بالنشاب حتى ماتا قال الحاجب خواجه أميـر على التبريزى لقاضى القضاة كمال الدين ذلك الشاب، لم يجب عليه القتل. فـبلغ ذلك السلطان فقال: هلاً قلت هذا قبل موته، وأمر به فـضرب مائتى مقرعة أو نحـوها، وسجن، وأعطى جميع ماله لأمير السيافين فرأيتـه فى ثانى ذلك اليوم قد لبس ثيابه، وجعل قلنسوته على رأسه، وركب فرسـه، فظننت أنه هو وأقام بالسجن شهـورًا ثم سرحه، ورده إلى ما كـان عليه، ثم غـضب عليه ثانية، ونفـاه إلى خراسـان فاستـقر بهراة، وكتب إليه يـستعطفه، فوقع له على ظهر كـتابه أكربار آمدى باز (آى) معناه إن كنت تبت فارجع، فرجع إليه.

وكـان قـد ولى خطيب الخطبـاء بدهلـى النظر فى خـزانة الجـواهر فى السفـر، فاتفق أن جاء سراق الكفـار ليلاً فضربوا على تلك الخـزانة، وذهبوا بشىء منها فأمر بضرب الخطيب حتى مات. رحمه الله تعالى.

ومن أعظم ما كان ينقم على السلطان إجلاؤه لأهل دهلى عنها، وسبب ذلك أنهم كانوا يكتبون بطائق فـيها شتمه وسبه، ويختمـون عليها، ويكتبون عليهـا، وحق رأس خوند عالم، مـا يقرأها غيره ويرمـونها بالمشور ليـلاً فإذا فضهـا وجد فيها شـتمه وسبـه فعزم على تخريب دهلى، واشـترى من أهلها جميـعًا دورهم ومنازلهم، ودفع لهم ثمنها، وأمرهم بالانتـقال عنها إلى دولة آباد، فـأبوا ذلك، فنادى مـناديه أن لا يبـقى بهـا أحـد بعـد ثلاث فـانتـقل معظمـهم، واختفى بعـضهم فى الدور فأمر بالبـحث عمن بقى بها، فـوجد

عبيده بأزقتها رجلين: أحدهما مقعد والآخر أعمى، فأتوا بهما فأمر بالمقعد فرمى به فى المنجنيق، وأمر أن يجر الأعمى من دهلى إلى دولة آباد، مسيرة أربعين يومًا فتمزق فى الطريق، ووصل منه رجله، ولما فعل ذلك خرج أهلها جميعًا، وتركوا أثقالهم وأمتعتهم وبقيت المدينة خاوية على عروشها، فحدثنى من أثق به قال: صعد السلطان ليلة إلى سطح قصره، فنظر إلى دهلى وليس بها نار ولا دخان ولا سراج فقال: الآن طاب قلبى وتهدن[1] خاطرى ثم كتب إلى أهل البلاد أن ينتقلوا إلى دهلى ليعمروها فخربت بلادهم ولم تعمر دهلى لاتساعها وضخامتها وهى من أعظم مدن الدنيا، وكذلك وجدناها لما دخلنا إليها خالية، ليس بها إلا قليل عمارة.

وقد ذكرنا كثيراً من مآثر هذا السلطان، ومما نقم عليه أيضًا فلنذكر جملاً من الوقائع والحوادث الكائنة فى أيامه:

ولما ولى السلطان الملك بعد أبيه وبايعه الناس، أحضر السلطان غياث الدين بهادور بوره الذى كان أسره السلطان تغلق، فمنَّ عليه، وفك قيوده، وأجزل له العطاء من الأموال والخيل والفيلة، وصرفه إلى مملكته وبعث ابن أخيه إبراهيم خان، وعاهده على أن تكون تلك المملكة مشاطرة بينهما ويكتب اسمهما معًا فى السكة، ويخطب لهما وعلى أن يصرف غياث الدين ابنه محمد المعروف برباط، يكون رهينة عند السلطان فانصرف غياث الدين إلى مملكته، والتزم ما شرط عليه إلا أنه لم يبعث ابنه، وادعى أنه امتنع وأساء الأدب فى كلامه فبعث السلطان العساكر إلى ابن أخيه إبراهيم وأميرهم دلجى التترى، فقاتلوا غياث الدين، فقتلوه وسلخوا جلده وحشى بالتبن وطيف به على البلاد.

وكان للسلطان تغلق ابن أخت يسمى بهاء الدين كُشْت اسبْ (بضم الكاف وسكون الشين المعجم وتاء معلوة) واسب (بالسين المهمل والباء الموحدة مسكنين)، فجعله أميرًا ببعض النواحى، فلما مات خاله امتنع من

(١) هدن خاطره: سكن وهدأ واستراح. الوجيز ص(٦٤٦).

بيعة ابنه، وكان شجاعًا بطلاً فبعث السلطان إليه العساكر، فيهم الأمراء الكبار، مثل الملك مجير، والوزير خواجه جهان أمير على الجمع فالتقى الفرسان، واشتد القتال، وصبر كلا العسكرين ثم كانت الكرة[1] لعسكر السلطان ففر بهاء الدين إلى ملك من ملوك الكفار، يعرف بالراى كنْبيلَة والراى عندهم كمثل ما هو بلسان الروم عبارة عن السلطان وكنبيلة اسم الإقليم الذى هو به، وهو (بفتح الكاف وسكون النون وكسر الباء الموحدة وياء ولام مفتوحة) وهذا الراى له بلاد فى جبال منيعة، وهو من أكابر سلاطين الكفار. فلما هرب إليه بهاء الدين، اتبعه عساكر السلطان وحصروا تلك البلاد واشتد الأمر على الكافر، ونفد ما عنده من الزرع وخاف أن يؤخذ باليد فقال لبهاء الدين: إن الحال قد بلغت لما تراه، وأنا عازم على هلاك نفسى وعيالى ومن تبعنى فاذهب أنت إلى السلطان فلان من الكفار، وسماه له فأقم عنده، فإنه سيمنعك وبعث معه من أوصله إليه. وأمر راى كنبيلة بنار عظيمة فأججت وأحرق فيها أمتعته وقال لنسائه وبناته: إنى أريد قتل نفسى فمن أرادت موافقتى فلتفعل فكانت المرأة منهن تغتسل وتدهن بالصندل والمقاصرى وتقبل الأرض بين يديه وترمى بنفسها فى النار، حتى هلكن جميعًا، وفعل مثل ذلك نساء أمرائه ووزرائه وأرباب دولته ومن أراد من سائر النساء ثم اغتسل الراى وادهن بالصندل، ولبس السلاح ما عدا الدرع، وفعل كفعله من أراد الموت معه من ناسه، وخرجوا إلى عسكر السلطان فقاتلوا حتى قتلوا جميعًا ودخل المدينة فأسر أهلها وأسر من أولاد راى كنبيلة أحد عشر ولدًا، فأتى بهم السلطان فأسلموا جميعًا وجعلهم السلطان أمراء، وعظمهم لأصالتهم، ولفعل أبيهم فرأيت عنده منهم نصرًا وبختيار والمهردار، وهو صاحب الخاتم الذى يختم به على الماء الذى يشرب السلطان منه وكنيته أبو مسلم وكانت بينى وبينه صحبة ومودة، ولما قتل راى كنبيلة توجهت عساكر السلطان إلى بلد الكافر الذى لجأ إليه بهاء الدين، وأحاطوا به فقال ذلك السلطان: أنا لا أقدر على أن أفعل ما فعله راى كنبيلة فقبض على بهاء الدين

---

(١) أى: الغلبة والنصر.

وأسلمه إلى عسكر السلطان، فقيدوه وغلوه[١] وأتوا به فلما أتى به إليه أمر بإدخاله إلى قرابته من النساء فشتمنه وبصقن فى وجهه، وأمر بسلخه، وهو بقيد الحياة، فسلخ وطبخ لحمه مع الأرز، وبعث لأولاده وأهله، وجعل باقيه على صحفة، وطرح للفيلة لتأكله فأبت أكله وأمر بجلده فحشى بالتبن وقرن بجلد بهادور بوره، وطيف بهما على البلاد فلما وصلا إلى بلاد السند وأمير أمرائها يومئذ كشلوخان صاحب السلطان تغلق ومعينه على أخذ الملك. وكان السلطان يعظمه ويخاطبه بالعمٍ ويخرج لاستقباله إذا وفد من بلاده وأمر كشلوخان بدفن الجلدين فبلغ ذلك السلطان فشق عليه فعله وأراد الفتك به.

ولما اتصل بالسلطان ما كان من فعله فى دفن الجلدين، بعث عنه وعلم كشلوخان أنه يريد عقابه. فامتنع وخالف وأعطى الأموال وجمع العساكر، وبعث إلى الترك والأفغان وأهل خراسان فأتاه منهم العدد الجم، حتى كافأ[٢] عسكره عسكر السلطان، أو أربى[٣] عليه كثرة. وخرج السلطان بنفسه لقتاله، فكان اللقاء على مسيرة يومين من ملتان بصحراء أبو هر. وأخذ السلطان بالحزم عند لقائه، فجعل تحت الشطر عوضًا منه الشيخ عماد الدين شقيق الشيخ ركن الدين الملتانى، وهو حدثنى هذا، وكان شبيهًا به. فلما حمى القتال، انفرد السلطان فى أربعة آلاف من عسكره، وقصد عسكر كشلوخان الشطر معتقدين أن السلطان تحته، فقتلوا عماد الدين وشاع فى العسكر أن السلطان قتل. فاشتغلت عساكر كشلوخان بالنهب، وتفرقوا عنه، ولم يبق معه إلا القليل. فقصده السلطان بمن معه فقتله وجز رأسه. وعلم بذلك جيشه ففروا. ودخل السلطان مدينة ملتان، وقبض على قاضيها كريم الدين، وأمر بسلخه فسلخ، وأمر برأس كشلوخان فعلق على بابه. وقد رأيته معلقًا لما وصلت إلى ملتان. وأعطى السلطان للشيخ ركن الدين أخى عماد ولابنه صدر الدين، مائة قرية إنعامًا عليهم ليأكلوا منها ويطعموا بزاويتهم المنسوبة

---

(١) أى: وضعوا فى يده أو عنقه الغُلَّ، والغل: طوق من حديد أو جلد، يجعل فى عنق الأسير أو المجرم، أو فى أيديهما. الوجيز ص(٤٥٣، ٤٥٤).

(٢) أى: ساواه عدة وعددًا.

(٣) أى: زاد.

لجدهم بهاء الديـن زكريا، وأمر السلطان وزيره خواجـه جهان أن يذهب إلى مدينة كمال بور وهى مدينة كبيرة على ساحل البحر، وكان أهلها قد خالفوا، فأخبرنى بعض الفقهاء أنه حـضر دخول الوزير إياها. قال: وأحضر بين يديه القاضى بهاء الخطيب، فأمـر بسلخ جلديهما. فقالا: اقتلنا بغـير ذلك. فقال لهما: بِمَ استوجبتما القتل؟ فقالا: بمخالفتنا أمر السلطان، فقال لهما: فكيف أخالف أنا أمره؟ وقد أمرنى أن أقتلكما بهذه القـتلة. وقال للمتولين لسلخهما احفروا لهمـا حفراً تحت وجهيهمـا، يتنفسان فيها. فإنـهم إذا سلخوا والعياذ بالله يطرحون على وجوههم. ولما فعل ذلك تمهدت بلاد السند وعاد السلطان إلى حضرته.

خبر الوقيعة بجبل قراجيل

(وأول اسمه قاف وجيم معقودة) وجـبل قراجيل هذا جبل كبير، يتصل مسيرة ثلاثة أشهر. وبينه وبين دهلى مسيرة عشر، وسلطانه من أكبر سلاطين الكفـار. وكـان السلطان بعث ملك نكبيـة رأس الدويدارية إلى حـرب هذا الجبل، ومـعه مائة ألف فـارس، ورجاله سواهم كثـير، فملك مـدينة جِدْيَدَة (وضبطها بكسـر الجيم وسكون الدال المهمل وفتح اليـاء آخر الحروف)، وهى أسفل الجبل. وملك مـا يليها، وسبى وخرب وأحـرق، وفر الكفار إلى أعلى الجبل. وتركوا بلادهم وأموالهم وخزائن ملكهم. وللجبل طريق واحد، وعن أسفل منه واد وفـوقه الجبل، فـلا يجوز فيـه إلا فارس منفرد، وخلفـه آخر، فـصعـدت عسـاكر المسلمـين على ذلك الطريق، وتملكوا مـدينة وَرَنْكَل التى بأعلى الجـبل، (وضـبطهـا بفـتح الواو والراء وسكون النون وفـتح الكاف)، واحتـووا على ما فيـها، وكتـبوا إلى السلطان بالفـتح، فبـعث إليهم قاضـيًا وخطيبًـا، وأمرهم بالإقـامة. فلما كـان وقت نزول المطر، غلب المرض على العـسكر وضـعـفـوا ومـاتت الخـيل وانحلت القـسـى فكتب الأمـراء إلى السلطان، واسـتـأذنوه فى الخروج عن الجـبل، والنزول إلى أسـفله، بخـلال ماينصرم فصل نزول المطـر فيعودون. فأذن لهم فى ذلك. فأخذ الأمـير نكبية

الأموال التى استولى عليها من الخزائن والمعـادن، وفرقها على الناس ليرفعوها ويوصلوها إلى أسفل الجبل. فعندما علم الكفار بخروجهم، قعدوا لهم بتلك المهاوى وأخـذوا عليهـم المضيق، وصاروا يـقطعون الأشجـار العادية قـطعًا، ويطرحـونها من أعلى الجـبل، فلا تمر بأحـد إلا أهلكته. فـهلك الكثيـر من الناس، وأسر الباقون منهم، وأخذ الكفار الأمـوال والأمتعة والخيل والسلاح. ولم يفلت من الجند إلا ثلاثة من الأمـراء، كبـيرهم نكبيـة وبدر الدين الملك دولة شاه وثالث لهما لا أذكره. وهذه الوقيعة أثرت فى جيش الهند أثرًا كبيرًا وأضعفته ضعفًا بينًا. وصالح السلطان بعدها أهل الجبل على مال يؤدونه إليه، لأن لهم البلاد أسفل الجبل، ولا قدرة لهم على عمارتها إلا بإذنه.

خبر ثورة الشريف جلال الدين ببلاد المعبر وما اتصل من قتل ابن أخت الوزير

وكان السلطان قد أمـر على بلاد المعبر، وبينها وبين دهلى مسـيرة ستة أشهر، الشريف جلال الدين أحسن شـاه، فخالف وادعى الملك لنفسه. وقتل نواب السلطان وعـماله، وضرب الدنانيـر والدراهم باسمـه. وكان يكتب فى إحدى صفحـتى الدينار سلالة طه ويس، أبو الفقراء والمساكـين، جلال الدنيا والدين، وفى الصفحة الأخرى الواثق بتـأييد الرحمن، أحسن شاه السلطان. وخرج السلطان لما سمع بثورته يريد قـتاله، فنزل بموضع يقال له: كشك زر، معناه قصر الذهب، وأقام به ثمانية أيام لقضاء حوائج الناس. وفى تلك الأيام أتى بابن أخت الوزير خـواجـه جـهان، وأربعـة من الأمـراء أو ثلاثة، وهم مقيدون مغلولون. وكان السلطان قـد بعث وزيره المذكور فى مقدمته، فوصل إلى مدينة ظهار، وهى على مسيرة أربـع وعشرين من دهلى، وأقام بها أيامًا. وكان ابـن أخته شـجاعـًا بطلاً، فـاتفق مع الأمراء الذين أتى بهم على قـتل خاله، والهرب بما عنده من الخزائن والأموال إلى الشـريف القائم ببلاد المعبر، وعزموا على الفـتك بالوزير عند خروجه إلى صلاة الجمعـة، فوشى بهم أحد من أدخلوه فى أمرهم إلى الوزير، وكان يسمى الملك نـصرة الحاجب، وأخبر

الوزير أن آية ما يرومـونه، لبسهم الدروع تحت ثيابهم، فـبعث الوزير عنهم، فوجـدهم كذلك. فـبعث بهم إلى السلطان، وكنت بين يدى السـلطان حين وصولهم. فرأيت أحدهم وكـان طوالاً ألحى، وهو يرعد، ويتلو سورة يس. فأمر بهم، فطرحوا للفيلة المعلمة لقتل الناس، وأمر بابن أخت الوزير فرد إلى خاله ليـقتله، فقتله، وسنذكـر ذلك. وتلك الفيلة التى تقتل، تكسى أنيـابها بحدائد مـسنونة شبه سكك الحـرث، لها أطراف كالسكاكين. ويركب الفـيال على الفـيل، فإذا رمى الـرجل بين يديه لف عليـه خرطومـه، ورمى به إلى الهواء، ثم يتلقفه بنابيه ويطرحه بعد ذلك بين يديه، ويجعل يده على صدره، ويفعل به ما يأمـره الفيال، على حسب مـا أمره السلطان. فإن أمره بتـقطيعه قطعـه الفيل قطعًـا بتلك الحـدائد، وإن أمر بتـركه، تركـه مطروحًا فـسلخ. وكذلك فعـل بهؤلاء. وخرجت من دار السلطان بعد المغـرب فرأيت الكلاب تأكل لحـومهم. وقد مـلئت جلودهم بالتبن والعيـاد بالله. ولما تجهـز السلطان لهذه الحركة أمرنى بالإقامة بالحضـرة، كما سنذكره، ومضى فى سفره إلى أن بلغ دولة آباد. فثار الأمير هلاجون ببلاده، وخرج ذلك. وكان الوزير خواجه جهان قد بقى أيضًا بالحضرة لحشد الحشود وجمع العساكر.

خبر ثورة هلاجون

ولما بلغ السلطان إلى دولة آبـاد، وبعد عن بلاده، ثار الأمـير هلاجـون بمدينة لاهور، وادعى الملك، وساعده الأميـر قلجند على ذلك، وصيره وزيراً له. واتصل ذلك بالوزير خواجـه جهان، وهو بدهلى، فحـشد الناس وجمع العسـاكر وجمع الخـراسانيين، وكل مـن كان مقـيمًا من الخـدام بدهلى أخذ أصحـابه، وأخذ فى الجملة أصـحابى لأنى كنت بها مـقيمًـا وأعانه السلطان بأميرين كبيـرين أحدهما قيران ملك صفدار، ومعناه مـرتب العساكر، والثانى الملك تمور الشريدار وهو الساقى، وخرج هلاجون بعساكره، فكان اللقاء على ضفة أحد الأودية الكبـار. فانهزم هلاجون وهرب، وغرق كثيـر من عساكره فى النهر. ودخل الوزير المدينة فسلخ بعض أهلها وقـتل آخرين بغير ذلك من

أنواع القتل. وكـان الذى تولى قتلهم مـحمد بن النجـيب نائب الوزير، وهو المعـروف بأجدر ملك، ويسـمى أيضًا صك (سـك) السلطان والصك عندهم الكلب. وكان ظالمًا قاسي القلب. ويسمـيه السلطان أسد الأسواق. وكان ربما عض أرباب الجنايات بأسنانه شرهًا وعدوانًا. وبعث الوزيـر من نساء المخالفين نحو ثلاثمائة إلى حـصن كاليور، فَسُجِنَّ به. ورأيت بعـضهن هنالك. وكان أحد الفقهاء له فيهن زوجة فكان يدخل إليها حتى ولدت منه فى السجن.

ولما وصل السلطان إلى بلاد التلنك، وهو قاصد إلى قتال الشريف ببلاد المعبر، نزل مـدينة بَدْرَكُوت (وضبط اسمها بفـتح الباء الموحدة وسكون الدال وفتح الراء وضم الكاف وواو وتاء معلوة)، وهى قاعدة بلاد التلنْك (وضبطها بكسـر التاء المعلوة واللام وسكون النون وكـاف معـقودة)، وبينهـا وبين بلاد المعبر مسـيرة ثلاثة أشهر. ووقع الوباء إذ ذاك فى عسكره، فـهلك معظمهم، ومات العبيد والمماليك وكبار الأمراء مثل دولة شاه الذى كان السلطان يخاطبه بالعم، ومثل أمـير عبد الله الهـروى، وقد تقدمت حكايته فى الـسفر الأول، وهو الذى أمر السلطان أن يرفع من الخزانة مـا استطاع من المال، فربط ثلاث عشرة خـريطة بأعضاده ورفـعها، ولما رأى السلطان ما حل بالعـسكر عاد إلى دولة آباد، وخالفت البلاد، وانتقـضت الأطراف، وكاد الملك يخرج عن يده، لولا ما سبق به القدر من استحكام سعادته.

ولما عادَ السلطانُ إلى دولةِ آباد مرض فى طريقه، فأرجف الناس[1] بموته وشاع ذلك، فنشـأت عنه فتن عريضـة. وكان الملك هوشنج ابن الملك كـمال الدين كرك بدولة آباد، وكان بينه وبين السلطان عهد أن لا يبايع غيره أبدًا، لا فى حياتـه ولا بعد موته. فلما أرجف بموت السلطان هرب إلى سلـطان كافر يسمـى بُربَرة، يسكن بجبـال مانعـة بين دولةِ آباد وكون تانه، فـعلم السلطان بفراره وخـاف وقوع الفتنة، فـجد السير إلى دولـة آباد، واقتفى أثر هوشنج، وحصـره بالخيل. وأرسل الكافر أن يسلمـه إليه فأبى وقـال: لا أسلم دخيلى

(١) أرجف القومُ: خاضوا فى الأخبار السيئة وذكر الفتن. الوجيز ص(٢٥٧).

ولو آل بى الأمـر لما آل براى كنبـيلة. وخـاف هوشنج على نفـسه، فـراسل السلـطان وعـاهـد على أن يرحل السـلطان إلى دولة آباد، ويـبـقى هـنالك قطلوخـان معلم السلطان، ليـستـوثق منه هوشنج، وينزل إليه عـلى الأمان. فرحل السلطان ونزل هوشنج إلى قطلوخان، وعاهده أن لا يقتله السلطان ولا يحط منزلته، وخرج بماله وعياله وأصحـابه وقدم على السلطان، فسر بقدومه وأرضاه وخلع عليه. وكان قطلوخان صاحب عهد يستنيم الناس إليه ويقولون فى الوفاء عليه. ومنزلته عند السلطان عليَّـة، وتعظيمه له شديد، ومتى دخل عليه قـام له إجلالاً. فكان بسـبب ذلك لا يدخل عليه حـتى يكون هو الذى يدعوه لئلا يتـعبه بالقيام له. وهو مـحب فى الصدقات، كثيـر الإيثار، مولع بالإحسان للفقراء والمساكين.

وكان الشـريف إبراهيم المعروف بالخريطة دار، وهو صـاحب الكاغد[1] والأقلام بدار السلطان، واليًـا على بلاد حانسى وسرسـتى. لما تحرك السلطان إلى بلاد المعبر، وأبوه هو قائم ببلاد المعـبر الشريف أحسن شاه، فلما أرجف بموت السلطان، طمع إبـراهيم فى السلطنة، وكـان شجـاعًـا كريـمًا حـسن الصورة. وكنت متزوجًـا بأخته حور نسب، وكانت صالحة تتـهجد بالليل لها أوراد من ذكر الله عز وجل، وولدت منى بنتًا، ولا أدرى ما فـعل الله فيهما. وكانت تقـرأ، لكنها لا تكتب. فلما هَمَّ إبراهيم بـالثورة، اجتاز به أمـير من أمراء السند، مـعه الأموال يحـملها إلى دهلى. فقـال له إبراهيم: إن الطريق مخوف وفيه القطع[2]، فأقم عندى حتى يصلح الطريق وأوصلك إلى المأمن، وكان قصده أن يتحقق موت السلطان فـيستولى على تلك الأموال. فلما تحقق حياته سرح ذلك الأمير، وكان يسمى ضياء الملك بن شمس الملك. ولما وصل السلطان إلى الحضرة بعد غيبـته سنتين ونصف، وصل الشريف إبراهيم إليه. فوشـى به بعض غلمانه، وأعلم السـلطان بما كان همَّ به. فـأراد السلطان أن يعجـل بقتله، ثم تأنى لمحـبته فـيه. فـاتفق أن أتى يومًا إلى السلطـان بغزال

(١) الكاغد: الورق.

(٢) يعنى: وفيه قطاع الطريق.

مذبوح ينظر إلى ذبحته، فقال: ليس يجيد الذكاة، اطرحوه. فرآه إبراهيم فقال: إن ذكاته جيدة، وأنا آكله. فأخبر السلطان بقوله، فأنكر ذلك وجعله ذريعة إلى أخذه. فأمر به فقيد وغلل، ثم قرره على ما رُمى به من أنه أراد أخذ الأموال التى مر بها ضياء الملك، وعلم إبراهيم أنه إنما يريد قتله بسبب أبيه، وأنه لا تنفعه معذرة، وخاف أن يعذب، فرأى الموت خيراً له، فأقر بذلك، فأمر به، فوسط[1]، وترك هنالك. وعادتهم أنه متى قتل السلطان أحداً أقام مطروحًا بموضع قتله ثلاثًا. فإذا كان بعد الثلاث أخذه طائفة من الكبار موكلون بذلك، فحملوه إلى خندق خارج المدينة يطرحونه به، وهم يسكنون حول الخندق، لئلا يأتى أهل المقتول فيعرفونه، وربما أعطى بعضهم لهؤلاء الكفار مالاً، فتجافوا له عن قتيله حتى يدفنه، وكذلك فعل الشريف إبراهيم رحمه الله تعالى.

ولما عاد السلطان من التلنك وشاع خبر موته، وكان ترك تاج الملك نصرة خان نائبًا عنه ببلاد التلنك، وهو من قدماء خواصه، بلغه ذلك فعمل عزاء السلطان، ودعا لنفسه، وتابعه الناس بحضرة بدركوت. فبلغ خبره إلى السلطان، فبعث معلمه قطلوخان فى عساكر عظيمة، فحصره بعد قتال شديد هلك فيه أمم من الناس، واشتد الحصار على أهل بدركوت، وهى منيعة، وأخذ قطلوخان فى نقبها. فخرج إليه نصرة خان على الأمان فى نفسه، فأمنه وبعث به إلى السلطان، وأمن أهل المدينة والعسكر.

ولما استولى القحط على البلاد، انتقل السلطان بعساكره إلى نهر الكنك الذى تحج إليه الهنود، على مسيرة عشرة من دهلى، وأمر الناس بالبناء، وكانوا قبل ذلك صنعوا خيامًا من حشيش الأرض، فكانت النار كثيراً ما تقع فيها وتؤذى الناس، حتى كانوا يصنعون كهوفًا تحت الأرض، فإذا وقعت النار رموا أمتعتهم بها وسدوا عليها بالتراب. ووصلت أنا فى تلك الأيام لمحلة السلطان، وكانت البلاد التى بغربى النهر حيث السلطان

(١) أى: قطع نصفين.

شديدة القحط، والبلاد التى بشرقيه خصبة، وأميرها عين الملك بن ماهر. ومنها مدينة عوض، ومدينة ظفر آباد، ومدينة اللكنو، وغيرها. وكان الأمير عين الملك كل يوم يحضر خمسين ألف منٍّ، منها قمح وأرز وحمص لعلف الدواب. فأمر السلطان أن تحمل الفيلة ومعظم الخيل والبغال إلى الجهة الشرقية المخصبة لترعى هنالك، وأوصى عين الملك بحفظها. وكان لعين الملك أربعة إخوة، هم شهر الله ونصر الله وفضل الله، ولا أذكر اسم الآخر، فاتفقوا مع أخيهم عين الملك أن يأخذوا فيلة السلطان ودوابه، ويبايعوا عين الملك، ويقوموا على السلطان. وهرب إليهم عين الملك بالليل، وكاد الأمر يتم لهم. ومن عادة ملك الهند أنه يجعل مع كل أمير كبير أو صغير مملوكًا له يكون عينًا عليه، ويعرفه بجميع حاله، ويجعل أيضًا جوارى فى الدور يكن عيونًا له على أمرائه، ونسوة يسميهن الكناسات، يدخلن الدور بلا استئذان، ويخبرهن الجوارى بما عندهن، فتخبر الكناسات بذلك المخبرين، فيخبر بذلك السلطان. ويذكرون أن بعض الأمراء كان فى فراشه مع زوجته، فأراد مماستها، فحلفته برأس السلطان أن لا يفعل، فلم يسمع منها، فبعث إليه السلطان صباحًا، وأخبره بذلك، وكان سبب هلاكه. وكان للسلطان مملوك يعرف بابن ملك شاه، هو عين الملك المذكور، فأخبر السلطان بفراره وجوازه النهر، فسقط فى يده، وظن أنها القاضية عليه، لأن الخيل والفيلة والزرع كل ذلك عند عين الملك، وعساكر السلطان مفترقة، فأراد أن يقصد حضرته ويجمع العساكر، وحينئذ يأتى لقتاله. وشاور أرباب الدولة فى ذلك. وكان أمراء خراسان والغرباء أشد الناس خوفًا من هذا القائم، لأنه هندى، وأهل الهند مبغضون فى الغرباء، لإظهار السلطان لهم، فكرهوا ما ظهر له، وقالوا: ياخوند عالم، إن فعلت ذلك بلغه الخبر. فاشتد أمره ورتب العساكر، وانثال عليه طلاب الشر ودعاة الفتن، والأولى معالجته قبل استحكام قوته. وكان أول من تكلم بهذا ناصر الدين مطهر الأوهرى، ووافقه جميعهم. ففعل السلطان بإشارتهم. وكتب تلك الليلة إلى من قرب منه من الأمراء والعساكر، فأتوا

من حينهم. وأدار فى ذلك حيلة حسنة، فكان إذا قدم على محلته مثلاً مائة فارس، بعث الآلاف من عنده للقائهم ليلاً، ودخلوا معهم إلى المحلة، كأن جميعهم مدد له. وتحرك السلطان مع ساحل النهر، ليجعل مدينة قنوج وراء ظهره، ويتحصن بها لمنعها وحصانتها. وبينها وبين الموضع الذى كان فيه ثلاثة أيام. فرحل أول مرحلة، وقد عبأ جيشه للحرب، وجعلهم صفًّا واحدًا، عند نزولهم كل واحد منهم بين يديه سلاحه وفرسه إلى جانبه، ومعه خباء صغير يأكل به ويتوضأ، ويعود إلى مجلسه. والمحلة الكبرى على بعد منهم. ولم يدخل السلطان فى تلك الأيام الثلاثة خباء، ولا استظل بِظِلٍّ. وكنت فى يوم منها بخبائى، فصاح بى فتى من فتيانى اسمه سنبل، واستعجلنى، وكان معى الجوارى، فخرجت إليه. فقال: إن السلطان أمر الساعة أن يقتل كل من معه امرأته أوجاريته، فشفع عنده الأمراء. فأمر أن لا تبقى الساعة بالمحلة امرأة، وأن يحملن إلى حصن هنالك على ثلاثة أميال، يقال له كنبيل. فلم تبق امرأة بالمحلة، ولا مع السلطان. وبتنا تلك الليلة على تعبئة، فلما كان فى اليوم الثانى رتب السلطان عسكره أفواجًا، وجعل مع كل فوج الفيلة المدرعة، عليها الأبراج، فوقها المقاتلة، وتدرع العسكر، وتهيأوا للحرب. وباتوا تلك الليلة على أهبة. ولما كان اليوم الثالث، بلغ الخبر بأن عين الملك الثائر جاز النهر، فخاف السلطان من ذلك، وتوقع أنه لم يفعله إلا بعد مراسلة الأمراء الباقين مع السلطان، فأمر فى الحين بقسم الخيل العتاق على خواصه، وبعث لى حظًّا منها. وكان لى صاحب يسمى أمير أميران الكرمانى من الشجعان، فأعطيته فرسًا منها أشهب اللون. فلما حركه جمح به، فلم يستطع إمساكه، ورماه عن ظهره فمات رحمه الله تعالى. وجدَّ السلطان ذلك اليوم فى مسيره، فوصل بعد العصر إلى مدينة قنوج، وكان يخاف أن يسبقه القائم إليها. وبات ليلته تلك، يرتب الناس بنفسه، ووقف علينا، ونحن فى المقدمة مع ابن عمه ملك فيروز، ومعنا الأمير غدا بن مهنا، والسيد ناصر الدين مطهر، وأمراء خراسان فأضافنا إلى خواصه

وقال: أنتم أعزة على، ينبغى أن تفارقونى. وكان فى عاقبة ذلك الخير، فإن القائم ضرب فى آخر الليل على المقدمة، وفيها الوزير خواجه جهان، فقامت ضجة فى الناس كبيرة، فحينئذ أمر السلطان أن لا يبرح أحد من مكانه، ولا يقاتل الناس إلا بالسيوف. فاستل العسكر سيوفهم، ونهضوا إلى أصحابهم. وحمى القتال، وأمر السلطان أن يكون شعار جيشه دهلى وغزنة. فإذا لقى أحدهم فارسًا قال له: دهلى. فإن أجابه بغزنة، علم أنه من أصحابه، وإلا قاتله، وكان القائم إنما قصد أن يضرب على موضع السلطان، فأخطأ به الدليل، فقصد موضع الوزير، فضرب عنق الدليل. وكان فى عسكر الوزير الأعاجم والترك والخراسانيون، وهم أعداء الهنود، فصدقوا القتال. وكان جيش القائم نحو الخمسين ألفًا، فانهزموا عند طلوع الفجر. وكان الملك إبراهيم المعروف بالبَنْجى (بفتح الباء الموحدة وسكون النون وجيم) التترى قد أقطعه السلطان بلاد سنديلة، وهى ابن قطب الملك وابن ملك التجار على فيلة السلطان وخيله موافقاه أيضًا، وجعل داود قرية من بلاد عين الملك، فاتفق معه على الخلاف، وجعله نائبه. وكان داوُد بن قطب الملك وابن ملك التجار على فيلة السلطان وخيله فوافقاه أيضًا، وجعل داود حاجبه. وكان داوُد هذا لما ضربوا على محلة الوزير يجهر بسبٍّ السلطان ويشتمه أقبح شتم، والسلطان يسمع ذلك ويعرف كلامه. فلما وقعت الهزيمة قال عين الملك لنائبه إبراهيم التترى: ماذا ترى يا ملك إبراهيم؟ قد فر أكثر العسكر وذوو النجدة منهم، فهل لك أن ننجو بأنفسنا؟ فقال إبراهيم لأصحابه بلسانهم: إذا أراد عين الملك أن يفر، فإنى سأقبض على دبوقته. فإذا فعلت ذلك، فاضربوا أنتم فرسه ليسقط إلى الأرض، فنقبض عليه، ونأتى به إلى السلطان، ليكون ذلك كفارة لذنبى فى الخلاف معه، وسببًا لخلاصى. فلما أراد عين الملك الفرار، قال له إبراهيم: إلى أين يا سلطان علاء الدين؟ وكان يسمى بذلك، وأمسك بدبوقته، وضرب أصحابه فرسه، فسقط على الأرض، ورمى إبراهيم بنفسه عليه فقبضه، وجاء أصحاب الوزير ليأخذوه فمنعهم وقال: لا أتركه حتى أوصله للوزير،

أو أموت دون ذلك، فتركوه فأوصله إلى الوزير. وكنت أنظر عند الصبح إلى الفيلة والأعلام يؤتى بها إلى السلطان. ثم جاءنى بعض العراقيين فقال: قد قبض على عين الملك، وأتى به الوزير، فلم أصدق. فلم يمر إلا يسير، وجاءنى الملك تمور الشربدار فأخذ بيدى وقال: أبشر، فقد قبض على عين الملك، وهو عند الوزير. فتحرك السلطان عند ذلك ونحن معه إلى محلة عين الملك على نهر الكنك، فنهبت العساكر ما فيها، وَاقْتَحَمَ كثيرٌ مِنْ عسكر عين الملك النهرَ فغرقوا. وأخذوا داود بن قطب الملك وابن ملك التجار وخلق كثيرٌ معهم، ونهبت الأموال والخيل والأمتعة. ونزل السلطان على المجاز، وجاء الوزير بعين الملك، وقد أركب على ثور، وهو عريان مستور العورة بخرقة مربوطة بحبل وباقية فى عنقه، فوقف على باب السراجة، ودخل الوزير إلى السلطان، فأعطاه الشربة عناية به. وجاء أبناء الملوك إلى عين الملك فجعلوا يسبونه ويبصقون فى وجهه ويصفعون أصحابه. وبعث إليه السلطانُ الملك الكبير، فقال له: ما هذا الذى فعلت؟ فلم يجد جوابًا. فأمر به السلطان أن يكسى ثوبًا من ثياب الزمالة، وقيد بأربعة كبول، وغلت يداه إلى عنقه، وسلم للوزير ليحفظه. وجاز إخوته النهر هاربين، ووصلوا مدينة عوض، فأخذوا أهلهم وأولادهم وما قدروا عليه من المال، وقالوا لزوجة أخيهم عين الملك: اخلصى بنفسك، وبنوك معنا. فقالت: أفلا أكون كنساء الكفار اللاتى يحرقن أنفسهن مع أزواجهن؟ فأنا أيضًا أموت لموت زوجى، وأعيش لعيشه، فتركوها. وبلغ ذلك السلطان، فكان سبب خيرها، وأدركته لها رقة، وأدرك الفتى سهيل نصر الله من أولئك الإخوة فقتله، وأُتى السلطان برأسه. وأُتى بأم عين الملك وأخته وامرأته فسلمن إلى الوزير، وجعلن فى خباء بقرب خباء عين الملك. فكان يدخل إليهن، ويجلس معهن، ويعود إلى محبسه. ولما كان بعد العصر من يوم الهزيمة، أمر السلطان بسراح لفيف من الناس الذى مع عين الملك من الزمالة والسوقة والعبيد ومن لا يعبأ به، وأتى بملك إبراهيم البنجى الذى ذكرناه، فقال ملك العسكر الملك نوا: يا خوند عالم، اقتل

هذا، فإنه من المخالفين. فقال الوزير: إنه قد فدى نفسه بالقائم، فعفا عنه السلطان وسرحه إلى بلاده.

ولما كان بعد المغرب جلس السلطان ببرج الخشب، وأُتى باثنين وستين رجلاً من كبار أصحاب القائم، وأُتى بالفيلة، فطرحوا بين أيديها، فجعلت تقطعهم بالحدائد الموضوعة على أنيابها، وترمى ببعضهم إلى الهواء، وتتلقفه. والأبواق والأنفار والطبول تضرب عند ذلك، وعين الملك واقف يعاين مقتلهم، ويطرح منهم عليه، ثم أعيد إلى محبسه.

وأقام السلطان على جواز النهر أيامًا لكثرة الناس وقلة القوارب. وأجاز أمتعته وخزائنه على الفيلة، وفرق الفيلة على خواصه، ليجيزوا أمتعتهم، وبعث إلى بفيل منها أجزت عليه رحلى. وقصد السلطان ونحن معه إلى مدينة بَهْرَايج (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة وهاء مسكن وراء وألف وياء آخر الحروف مكسورة وجيم)، وهى مدينة حسنة فى عدوة نهر السرور، وهو واد كبير شديد الانحدار، وأجازه السلطان برسم زيارة قبر الشيخ الصالح البطل سالار عود، الذى فتح أكثر تلك البلاد، وله أخبار عجيبة وغزوات شهيرة. وتكاثر الناس للجواز وتزاحموا، حتى غرق مركب كبير فيه نحو ثلاثمائة نفس، لم ينج منهم إلا أعرابى من أصحاب الأمير غدا، وكنا ركبنا نحن مركبًا صغيرًا، فسلمنا الله تعالى. وكان العربى الذى سلم من الغرق يسمى بسالم، وذلك اتفاق عجيب.

وكان أراد أن يصعد معنا فى مركبنا، فوجدنا قد ركبنا النهر، فركب فى المركب الذى غرق. فلما خرج، ظن الناس أنه كان معنا. فقامت ضجة فى أصحابنا وفى سائر الناس، وتوهموا أنا غرقنا. ثم لما رأونا بعد استبشروا بسلامتنا. وزرنا قبر الصالح المذكور، وهو فى قبة لم نجد سبيلاً إلى دخولها لكثرة الزحام. وفى تلك الوجهة دخلنا غيضة[1] قصب، فخرج علينا منها الكركدن، فقتل وأُتى الناس برأسه. وهو دون الفيل، ورأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف وقد ذكرناه.

---

(١) الغيضة: الموضع الذى يكثر فيه الشجر ويلتف. الوجيز ص(٤٥٩).

ولما ظفر السلطان بعين الملك كما ذكرنا، عاد إلى حضرته بعد مغيب عامين ونصف، وعفا عن عين الملك، وعفا أيضًا عن نصرة خان القائم ببلاد التلنك، وجعلهما معًا على عمل واحد، وهو النظر على بساتين السلطان. وكساهما وأركبهما، وعين لهما نفقة من الدقيق واللحم فى كل يوم. وبلغ الخبر بعد ذلك أن أحد أصحاب قطلوخان، وهو على شاه كر، ومعنى كر الأطرش، خالف على السلطان. وكان شجاعًا حسن الصورة والسيرة، فغلب على بدركوت، وجعلها مدينة ملكه. وخرجت العساكر إليه، وأمر السلطان معلمه أن يخرج إلى قتاله، فخرج فى عساكر عظيمة، وحصره ببدركوت، ونقبت أبراجها، واشتدت به الحال، فطلب الأمان فأمنه قطلوخان، وبعث به إلى السلطان مقيدًا، فعفا عنه ونفاه إلى مدينة غزنة من طرف خراسان، فأقام بها مدة. ثم اشتاق إلى وطنه، فأراد العودة إليه، لما قضاه الله من حينه، فقبض عليه ببلاد السند، وأتى به السلطان. فقال له: إنما جئت لتثير الفساد ثانية، وأمر به فضربت عنقه.

وكان السلطان قد وجد على أمير بخت الملقب بشرف الملك، أحد الذين وفدوا معنا على السلطان، فحط مرتبه من أربعين ألفًا إلى ألف واحد، وبعثه فى خدمة الوزير إلى دهلى. فاتفق أن مات أمير عبد الله الهروى فى الوباء فى التلنك، وكان ماله عند أصحابه بدهلى، فاتفقوا مع أمير بخت على الهروب. فلما خرج الوزير من دهلى إلى لقاء السلطان، هربوا مع أمير بخت وأصحابه، ووصلوا إلى أرض السند فى سبعة أيام، وهو مسيرة أربعين يومًا، وكان معهم الخيل مجنوبة، وعزموا على أن يقطعوا نهر السند عومًا، ويركب أمير بخت وولده ومن لا يحسن العوم فى معدية قصب يصنعونها، وكانوا قد أعدوا حبالاً من الحرير برسم ذلك. فلما وصلوا إلى النهر خافوا من عبوره بالعوم، فبعثوا رجلين منهم إلى جلال الدين صاحب مدينة أوجه، فقال له: إن ها هنا تجارًا أرادوا أن يعبروا النهر، وقد بعثوا إليك بهذا السرج، لتبيح لهما الجواز، فأنكر أمير أن يعطى التجار مثل ذلك السرج، وأمر بالقبض على الرجلين. ففر أحدهما، ولحق بشرف الملك وأصحابه، وهم نيام لما لحقهم من

الإعياء ومواصلة السهر، فأخبرهم الخبر، فركبوا مذعورين وفروا، وأمر جلال الدين بضرب الرجل الذى قبض عليه، فاعترف بقضية شرف الملك. فأمر جلال الدين نائبه، فركب فى العسكر، وقصدوا نحوهم. فوجدوهم قد ركبوا، فاقتفوا أثرهم فأدركوهم. فرموا العسكر بالنشاب، ورمى طاهر بن شرف الملك نائب الأمير جلال الدين بسهم، فأثبته فى ذراعه، وغلب عليهم، فأتى بهم إلى جلال الدين، فقيدهم وغل أيديهم، وكتب إلى الوزير فى شأنهم. فأمر الوزير أن يبعثهم إلى الحضرة، فبعثهم إليها. وسجنوا بها، فمات طاهر فى السجن. فأمر السلطان أن يضرب شرف الملك مائة مقرعة فى كل يوم، فبقى على ذلك مدة، ثم عفا عنه. وبعثه مع الأمير نظام الدين أمير نجلة إلى بلاد جنديرى، فانتهت حاله إلى أن كان يركب البقر، ولم يكن له فرس يركبه. وأقام على ذلك مدة، ثم وفد ذلك الأمير على السلطان وهو معه. فجعله السلطان شاشنكير (جاشنكير)، وهو الذى يقطع اللحم بين يدى السلطان. ويمشى مع الطعام. ثم إنه بعد ذلك نوه به ورفع مقداره. وانتهت حاله إلى أن مرض. فزاره السلطان وأمر بوزنه بالذهب، وأعطاه ذلك. وقد قدمنا هذه الحكاية فى السفر الأول. وبعد ذلك زوجه بأخته وأعطاه بلاد جنديرى التى كان بها البقر فى خدمة الأمير نظام الدين. فسبحان مقلب الأرض ومحول الأحوال.

وكان شاه أفغان خالف على السلطان بأرض ملتان من بلاد السند، وقتل الأمير بها، وكان يسمى بِهْ زاد، وادعى السلطنة لنفسه. وتجهز السلطان لقتاله، فعلم أنه لا يقاومه. فهرب ولحق بقومه الأفغان، وهم ساكنون بجبال منيعة لا يقدر عليها، فاغتاظ السلطان مما فعله. وكتب إلى عماله أن يقبضوا على من وجدوه من الأفغان ببلاده، فكان ذلك سببًا لخلاف القاضى جلال.

وكان القاضى جلال وجماعة من الأفغانيين قاطنين بمقربة من مدينة كنباية ومدينة بلوذرة، فلما كتب السلطان إلى عماله بالقبض على الأفغانيين كتب إلى ملك مقبل نائب الوزير ببلاد الجزرات ونهر واله، أن يحتال فى القبض على القاضى جلال ومن معه. وكانت بلاد بلوذرة إقطاعًا لملك الحكماء، وكان ملك الحكماء متزوجًا بربيبة السلطان زوجة أبيه تغلق، ولها

بنت من تغلق هى التى تزوجها الأمير غدا. وملك الحكماء إذ ذاك فى صحبة مقبل، لأن بلاده تحت نظره. فلما وصلوا إلى بلاد الجزرات أمر مقبل ملك الحكماء أن يأتى بالقاضى جلال وأصحابه. فلما وصل ملك الحكماء إلى بلاده حذرهم فى خفية، لأنهم كانوا من أهل بلاده، وقال: إن مقبلاً طلبكم ليقبض عليكم فلا تدخلوا عليه إلا بالسلاح، فركبوا فى نحو ثلاثمائة مدرع وأتوه وقالوا: لا ندخل إلا جملة. فظهر له أنه لا يمكن القبض عليهم وهم مجتمعون، وخاف منهم. فأمرهم بالرجوع، وأظهر تأمينهم. فخلفوا عليه، ودخلوا مدينة كنباية، ونهبوا خزانة السلطان بها، وأموال الناس، ونهبوا مال ابن الكومى التاجر، وهو الذى عمر المدرسة الحسنة بإسكندرية، وسنذكره إثر هذا. وجاء ملك مقبل لقتالهم فهزموه هزيمة شنيعة. وجاء الملك عزيز الخمار والملك جهان بنبل لقتالهم فى سبعة آلاف من الفرسان، فهزموهم أيضًا، وتسامع بهم أهل الفساد والجرائم فانثالوا عليهم. وادعى القاضى جلال السلطنة، وبايعه أصحابه. وبعث السلطان إليه العساكر فهزمها. وكان بدولة آباد جماعة من الأفغان فخالفوا أيضًا.

وكان ابن الملك مل ساكنًا بدولة آباد فى بعض من الأفغان، فكتب السلطان إلى نائبه بها، وهو نظام الدين أخو معلمه قطلوخان أن يقبض عليهم، وبعث إليه بأحمال كثيرة من القيود، والسلاسل، وبعث بخلع الشتاء. وعادة ملك الهند أن يبعث لكل أمير على مدينة، ولوجوه جنده خلعتين فى السنة: واحدة للشتاء والثانية للصيف. وإذا جاءت الخلع، يخرج الأمير والجند للقائها. فإذا وصلوا إلى الآتى بها نزلوا عن دوابهم، وأخذ كل واحد خلعته، وحملها على كتفه وخدم لجهة السلطان. وكتب السلطان لنظام الدين إذا خرج الأفغان ونزلوا عن دوابهم لأخذ الخلع فاقبض عليهم عند ذلك. وأتى أحد الفرسان الذين أوصلوا الخلع إلى الأفغان، فأخبرهم بما يراد بهم. فكان نظام الدين ممن احتال، فانعكست عليه، فركب وركب الأفغان معه حتى إذا لقوا الخلع، ونزل نظام الدين عن فرسه، حملوا عليه وأصحابه، فقبضوا عليه وقتلوا كثيرًا من أصحابه، ودخلوا المدينة فاستولوا على الخزائن،

وقدموا على أنفسهم ناصر الدين ابن ملك مل، وانثال عليهم المفسدون، فقويت شوكتهم.

ولما علم السلطان ما فعله الأفغان بكنباية ودولة آباد، خرج بنفسه، وعزم أن يبدأ بكنباية، ثم يعود إلى دولة آباد. وبعث أعظم ملك البايزيدى صهره أربعة آلاف مقدمة، فاستقبله جند القاضى جلال شيخ يسمى جلول، وهو أحد الشجعان. فلا يزال يفتك فى الجند ويقتل، ويطلب المبارزة فلا يتجاسر[1] أحد على مبارزته. واتفق يومًا أنه دفع فرسه، فكبا[2] به فى حفرة فسقط عنه وقتل. ووجدوا عليه درعين، فبعثوا برأسه إلى السلطان، وصلبوا جسده بسور بلوذرة، وبعثوا يديه ورجليه إلى البلاد. ثم وصل السلطان بجنده فلم يكن للقاضى جلال من ثبات، ففر فى أصحابه، وتركوا أموالهم وأولادهم، فنهب ذلك كله، ودخلت المدينة وأقام بها السلطان أيامًا ثم رحل عنها، وترك بها صهره شرف الملك أمير بخت الذى قدمنا ذكره وقضية فراره وأخذه بالسند وسجنه، وما جرى له من الذل، ثم من العز. وأمره بالبحث عمن كان فى طاعة جلال الدين، وترك معه الفقهاء ليحكم بأقوالهم. فأدى ذلك إلى قتل الشيخ على الحيدرى حسبما قدمناه. ولما هرب القاضى جلال لحق بناصر الدين ملك مل بدولة آباد، ودخل فى جملته. فأتى السلطان بنفسه إليهم، واجتمعوا فى نحو أربعين ألفًا من الأفغان والترك والهنود والعبيد، وتحالفوا على أن لا يفروا، وأن يقاتلوا السلطان. وأتى السلطان لقتالهم ولم يُرفع الشطر الذى هو علامته. فلما استحرَّ القتال رُفع الشطر، ولما عاينوه دهشوا وانهزموا أقبح هزيمة، ولجأ ابن ملك مل والقاضى جلال فى نحو أربعمائة من خواصهما إلى قلعة الدويقير، وسنذكرها وهى من أمنع القلاع فى الدنيا، واستقرّ السلطان بمدينة آباد والدويقير هى قلعتها. وبعث لهم أن ينزلوا على حكمه فأبوا أن ينزلوا إلا على الأمان. فأبى السلطان أن يؤمنهم، وبعث لهم الأطعمة تهاونًا بهم، وأقام هنالك. وهذا آخر عهدى بهم.

---

(١) يعنى: لا يقدم ويمضى لقتاله أحد. وانظر الوجيز ص(١٠٥).
(٢) يُقال: كبا الحيوان يكبو كبوًا وكُبُوًّا: انكب على وجهه. الوجيز (٥٢٦).

كان تاج الدين الكولمى من كبار التجار، فنزل على السلطان من أرض الترك بهدايا جليلة، منها المماليك والجمال والمتاع والسلاح والثياب. فأعجب السلطان فعله وأعطاه اثنى عشر لكًا، ويذكر أنه لم تكن قيمة هديته إلا لكًا واحدًا. وولاه مدينة كنباية. وكانت لنظر الملك المقبل نائب الوزير، ووصل إليها، وبعث السفن إلى بلاد المليبار وجزيرة سلان وغيرها. وجاءته التحف والهدايا فى السفن، وعظمت حاله، ولما لم يبعث أموال تلك الجهات إلى الحضرة، بعث الملك مقبل إلى ابن الكولمى أن يبعث ما عنده من الهدايا والأموال مع هدايا تلك الجهات على العادة. امتنع ابن الكولمى عن ذلك وقال: أنا أحملها بنفسى، أو أبعثها مع خدامى، ولا حكم لنائب الوزير على ولا للوزير، واغتر بما أولاه السلطان من الكرامة والعطية. فكتب مقبل إلى الوزير بذلك، فوقع له الوزير على ظهر كتابه: إن كنت عاجزًا عن بلادنا فاتركها وارجع إلينا.

ولما وصله الجواب تجهز فى جنده ومماليكه، والتقيا بظاهر كنباية. فانهزم الكولمى، وقتل جملة من الفريقين. واستخفى ابن الكولمى فى دار الناخوذة (الناخذا)، إلياس أحد كبراء التجار.

ودخل مقبلٌ فضرب رقاب جند ابن الكولمى، وبعث له الأمان نظير أن يأخذ ماله المختص به، ويترك مال السلطان وهديته ومجبى البلد، وبعث مقبل بذلك كله مع خدامه إلى السلطان، وكتب شاكيًا من ابن الكولمى، وكتب ابن الكولمى شاكيًا منه. وبعث السلطان ملك الحكماء ليتنصف بينهما. وبإثر ذلك كان خروج القاضى جلال الدين. فنهب مال ابن الكولمى، وهرب ابن الكولمى فى بعض مماليكه ولحق بالسلطان.

وفى مدة غياب السلطان عن حضرته، إذ خرج يقصد بلاد المعبر، وقع الغلاء واشتد الأمر، وانتهى المن إلى ستين درهمًا، ثم زاد على ذلك. وضاقت الأحوال، وعظم الخطب، ولقد خرجت مرة إلى لقاء الوزير، فرأيت ثلاث نسوة يقطعن قطعًا من جلد فرس مات منذ أشهر ويأكلنه. وكانت الجلود تطبخ وتباع فى الأسواق وكان الناس إذا ذبحت البقر، أخذوا دماءها

فأكلوها. وحدثنى بعض طلبة خراسان أنهم دخلوا بلدة تسمى أكروهة، بين حانسى وسرستى فوجدوها خالية، فقصدوا بعض المنازل ليبيتوا بها، فوجدوا فى بعض بيوته رجلاً قد أضرم ناراً، وبيده رجل آدمى، وهو يشويها فى النار ويأكل منها، والعياذ بالله. ولما اشتد الحال، أمر السلطان أن يعطى لجميع أهل دهلى نفقة ستة أشهر. فكانت القضاة والكتاب والأمراء يطوفون بالأزقة والحارات، ويكتبون الناس، ويعطون لكل أحد نفقة ستة أشهر، بحساب رطل ونصف من أرطال المغرب فى اليوم لكل واحد. وكنت فى تلك المدة أطعم الناس من الطعام الذى أصنعه بمقبرة السلطان قطب الدين، حسبما يذكر، فكان الناس ينتعشون بذلك. والله تعالى ينفع بالقصد فيه.

وإذ قد ذكرنا من أخبار السلطان، وما كان فى أيامه من الحوادث ما فيه الكفاية، فلنعد إلى ما يخصنا من ذلك، ونذكر كيفية وصولنا أولاً إلى حضرته، ونتقل الحال إلى خروجنا عن الخدمة، ثم خروجنا عن السلطان فى الرسالة إلى الصين، وعودتنا منها إلى بلادنا، إن شاء الله تعالى.

ولما دخلنا حضرة دهلى قصدنا باب السلطان، ودخلنا الباب الأول ثم الثانى والثالث، ووجدنا عليه النقباء، وقد تقدم ذكرهم. فلما وصلنا إليهم تقدم بنا نقيبهم إلى مشور عظيم متسع، فوجدنا به الوزير خواجه جهان ينتظرنا، فتقدم ضياء الدين خداوند زاده ثم تلا أخوه قوام الدين، ثم أخوهما عماد الدين، ثم تلوتهم، ثم تلانى أخوهم برهان الدين، ثم الأمير مبارك السمرقندى، ثم أرون بغا التركى، ثم ملك زاده ابن أخت خداوند زاده، ثم بدر الدين الفصال.

ولما دخلنا من الباب الثالث ظهر لنا المشور الكبير المسمى هزار اسطون (استون) ومعنى ذلك ألف سارية، وبه يجلس السلطان الجلوس العام. فخدم الوزير عند ذلك حتى قرب رأسه من الأرض، وخدمنا نحن بالركوع، وأوصلنا أصابعنا إلى الأرض، وخدمتنا لناحية سرير السلطان، وخدم جميع من معنا. فلما فرغنا من الخدمة، صاح النقباء بأصوات عالية: بسم الله وخرجنا.

وكانت أم السلطان المخدومة جهان، وهى من أفضل النساء، كثيرة الصدقات، عمرت زوايا كثيرة، وجعلت فيها الطعام للوارد والصادر. وهى مكفوفة البصر، وسبب ذلك أنه لما ملك ابنها، جاء إليها جميع الخواتين وبنات الملوك والأمراء فى أحسن زى، وهى على سرير الذهب المرصع بالجواهر، فخدمن بين يديها جميعًا، فذهب بصرها للحين، وعولجت بأنواع العلاج فلم ينفع. وولدها أشد الناس برًّا بها. ومن بره أنها سافرت معه مرة فقدم السلطان قبلها بمدة، فلما قدمت خرج لاستقبالها، وترجل عن فرسه وقبل رجلها، وهى فى المحفة بمرأى الناس أجمعين.

ولنعد لما قصدناه فنقول: ولما انصرفنا عن دار السلطان خرج الوزير ونحن معه إلى باب الصرف، وهم يسمونه بابا الحرم، وهنالك سكنى المخدومة جهان. فلما وصلنا بابها نزلنا عن الدواب، وكل واحد منا قد أتى بهدية على قدر حاله.

ودخل معنا قاضى قضاة المماليك كمال الدين بن البرهان، فخدم الوزير والقاضى عند بابها، وخدمنا كخدمتهم، وكتب كاتب بابها هدايانا. ثم رجعوا إلى الوزير، ثم عادوا إلى القصر، ونحن وقوف. ثم أمرنا بالجلوس فى سقيف هنالك، ثم أتوا بالطعام، وأتوا بقلال من الذهب يسمونها السُّيُن (بضم السين والياء آخر الحروف)، وهى مثل القدور، ولها مرافع من الذهب تجلس عليها، ويسمونها السُّبُك (بضم السين وضم الباء الموحدة) وأتوا بأقداح وطسوت وأباريق كلها ذهب، وجعلوا الطعام سماطين، وعلى كل سماط صفان. ويكون فى رأس الصف كبير القوم الواردين.

ولما تقدمنا للطعام، خدم الحجاب والنقباء، وخدمنا لخدمتهم. ثم أتوا بالشربة فشربنا. وقال الحجاب: بسم الله، ثم أكلنا وأتوا بالفقاع والتنبول، وقال الحجاب: بسم الله، فخدمنا جميعًا. ثم دعينا إلى موضع هنالك، فخلع علينا حلل الحرير المذهبة، وأتوا بنا إلى باب القصر، تحت ثياب غير مخيطة من حرير وكتان. فأعطى كل واحد منا نصيبه منها. ثم أتوا بطيفور ذهب فيه الفاكهة اليابسة، وبطيفور مثله فيه الجلاب، وطيفور ثالث فيه التنبول. ومن

عادتهم أن الذى يخرج لـه ذلك، يأخذ الطيفور بيده، ويجعله على كاهله، ويخدمه بيده الثانية إلى الأرض. فأخذ الوزير الطيفور بيده قصد أن يعلمنى كيف أفعل إيناسًا منه وتواضعًا ومبرة، جزاه الله الخير. ففعلت كما فعل، وانصرفنا إلى الدار المعدة لنزولنا بمدينة دهلى، وبمقربة من دروازة بالم منها، وبعث لنا الضيافة.

ولما وصلتُ إلى الدار التى أعدت لنزولى وجدت فيها ما يحتاج إليه من فرش وبسط وحصر وأوان وسرير الرقاد، وأَسِرَّتُهُمْ بالهند خفيفة الحمل، يحمل السرير منها الرجل الواحد ولابد لكل أحد أن يستصحب السرير فى السفر، يحمله غلامه على رأسه، وهو أربع قوائم مخروطة، يعرض عليها أربعة أعواد، وتُنسج عليها ضفائر من الحرير والقطن، فإذا نام الإنسان عليه لم يحتج ما يُرَطِّبه به، لأنه يعطى الرطوبة من ذاته. وجاءوا مع السرير بمضربين ومخدتين ولحاف، كل ذلك من الحرير وعادتهم أن يجعلوا للمضربات واللحوف (اللحف) وجوهًا تغشيها وأتوا تلك الليلة برجلين أحدهما الطاحونى ويسمونه الخراص والثانى الجزار ويسمونه القصاب فقالوا لنا خذوا من هذا كذا وكذا من الدقيق، ومن هذا كذا وكذا من اللحم، لأوزان لا أذكرها الآن وعادتهم أن يكون اللحم الذى يعطون بقدر وزن الدقيق، وهذا الذى ذكرناه فى ضيافة أم السلطان وبعدها وصلتنا ضيافة السلطان وسنذكرها. ولما كان من غير ذلك اليوم ركبنا إلى دار السلطان، وسلمنا على الوزير، فأعطانى بدرتين، كل بدرة من ألف دينار دراهم، وقال لى: هذه سر ششتى (شستى) ومعناه لغسل رأسك، وأعطانى خلعة من المرعز، وكتب جميع أصحابى وخدامى وغلمانى، فجعلوا أربعة أصناف، فالصنف الأول منها أعطى كل واحد منهم مائتى دينار، والصنف الثانى أعطى كل واحد منهم مائة وخمسين دينارًا والصنف الثالث أعطى كل واحد منهم مائة دينار. والصنف الرابع أعطى كل واحد منهم خمسة وسبعين دينارًا، وكانوا نحو أربعين وكان جملة ما أعطوه أربعة آلاف دينار ونيفًا، وبعد ذلك عينت ضيافة السلطان، وهى ألف رطل هندية من الدقيق، ثلثها من الميرا وهو

الدرمك، وثلثاها من الخشكار وهو المدهون، وألف رطل من اللحم، ومن السكر والسمن والسليف والفوفل أرطال كثيرة، لا أذكر عددها والألف من ورق التنبول والرطل الهندى عشرون رطلاً من أرطال المغرب، وخمسة وعشرون من أرطال مصر، وكانت ضيافة خداوند زاده أربعة آلاف رطل من الدقيق، ومثلها من اللحم، مع ما يناسبها مما ذكرناه.

ولما كان بعد شهر ونصف من مقدمنا توفيت بنت لى سنها دون السنة. فاتصل خبر وفاتها بالوزير، فأمر أن تدفن فى زاوية بناها خارج دروازة بالم، بقرب مقبرة هنالك لشيخنا إبراهيم القونوى، فدفناها بها وكتب بخبرها إلى السلطان فأتاه الجواب فى عشى اليوم الثانى، وكان بين متصيد السلطان وبين الحضرة مسيرة عشرة أيام وعادتهم أن يخرجوا إلى قبر الميت صبيحة الثالث من دفنه، ويفرشون جوانب القبر بالبسط وثياب الحرير، ويجعلون على القبر الأزاهير، وهى لا تنقطع هنالك فى فصل من الفصول كالياسمين وقل شبه (كل شبو) وهى زهر أصفر، وريبول وهو أبيض، والنسرين وهو على صنفين أبيض وأصفر، ويجعلون أغصان النارنج والليمون بثمارها، وإن لم يكن فيها ثمار علقوا منها حبات بالخيوط ويصبون على القبر الفواكه اليابسة وجوز النارجيل، ويجتمع الناس ويؤتى بالمصاحف فيقرأون القرآن، فإذا ختموا أتوا بماء الجلاب فسقوه الناس، ثم يصب عليهم ماء الورد صبًّا، ويعطون التنبول ويصرفون.

ولما كان صبيحة الثالث من دفن هذه البنت، خرجت الصبح على العادة، وأعددت ما تيسر من ذلك كله، فوجدت الوزير قد أمر بترتيب ذلك، وأمر بسراجة فضربت على القبر، وجاء الحاجب شمس الدين الفوشنجى الذى تلقانا بالسند، والقاضى نظام الدين الكروانى وجملة من كبار أهل المدينة، ولم آت إلا والقوم المذكورون، قد أخذوا مجالسهم، والحاجب بين أيديهم، وهم يقرأون القرآن فقعدت مع أصحابى بمقربة من القبر. فلما فرغوا من القراءة، قرأ القراء بأصوات حسان، ثم قام القاضى فقرأ رثاء فى البنت المتوفاة، وثناء على السلطان. وعند ذكر اسمه قام الناس جميعًا قيامًا فخدموا

ثم جلسوا، ودعا القاضى دعاء حسنًا، ثم أخـذ الحاجب وأصحابه براميل ماء الورد وصبـوا على الناس، ثم داروا عليـهم بأقداح شـربة النبات، ثم فـرقوا عليهم التنبول، ثم أتى بإحدى عشـرة خلعة لى ولأصحابى ثم ركب الحاجب وركبنا مـعه إلى دار السلطـان، فخدمنا للسـرير على العادة، وانـصرفت إلى منزلى فما وصلت إلا وقد جاء الطعام من دار المخـدومة جهان، ما ملأ الدار ودور أصحابى، وأكلوا جـميعاً،وأكل المساكـين. وفضلت الأقراص والحلواء والنبات، فأقـامت بقاياها أيامًا، وكان فعل ذلك كله بـأمر السلطان وبعد أيام جاء الفـتيان من دار المخـدومة جهـان بالدولة وهى المحفـة التى يحمل فيـها النساء، ويركـبهـا الرجال وهى شبـه السرير، سطحهـا من ضفـائر الحرير أو القطن، وعليـها عـود شبه الذى علـى البوجات عنـدنا، معوج من الـقصب الهندى المغلوق، ويحملها ثمـانية رجال فى نوبتين: يستـريح أربعة، ويحمل أربعة، وهذه الدول بالهند كـالحمير بديار مـصر، عليها ينصـرف أكثر الناس فمن كان له عـبيد حملوه، ومن لم يكن له عبيـد اكترى(١) رجالاً يحملونه. وبالبلد منهم جمـاعة يسيرة، يقفـون فى الأسواق وعند باب السلطان، وعند أبواب الناس للكرى، وتكون دول النسـاء مغـشاة(٢) بغـشاء حرير. وكـذلك كانت هـذه الدولة التى أتى الفتـيان بهـا من دار أم السلطان، فحـملوا فيـها جاريتى، وهى أم البنت المتوفاة وبعثت أنا معها عن هدية جارية تركية فأقامت الجارية أم البنت عندهم ليلة، وجاءت فى اليـوم الثانى وقد أعطوها ألف دينار دراهم، وأساور ذهب مـرصعة، وتهليـلاً من الذهب مرصعًـا وقميص كـتان مزركشًا بالذهب وخلعة حرير مذهبـة وتختًا بأثواب، ولما جاءت بذلك أعطيته لأصـحابى وللتـجار الذين لهم على الـدين، محـافظة على نفسى، وصـونًا لعرضى لأن المخبرين يكتبون إلى السلطان بجميع أحوالى.

وفى أثناء إقـامتى أمـر السلطان أن يعين لى من القُـرى ما يكون فـائدة خمسة آلاف دينار فى السنة، فعـينها لى الوزير وأهل الديوان، وخرجت إليها

(١) يُقال: اكترى الدار وغيرها: استأجرها. الوجيز ص(٥٣٣).

(٢) يعني: مغطاة.

فمنهـا قرية تسمى بَدَلى (بفتح البـاء الموحدة وفتح الدال المهملـة وكسر اللام) وقرية تسـمى بَسَهى (بفتح الباء الموحـدة والسين المهمل وكسـر الهاء) ونصف قرية تسمى بَلَرة (بفـتح الباء الموحدة واللام والراء)، وهذه القرى على مـسافة ستة عشر كروهًا، وهو الميل، بصدى يعرف بصدى هندبت، والصدى عندهم مجموع مـائة قرية من قرى بلاد الهند، وأحواز المدينة مقـسومة أصداء، وكل صدى له جوطرى، وهو شـيخ من كفار تلك البلاد، ومـتصرف، وهو الذى يضم مجابيها. وكان قد وصل فى ذلك الوقت سبى من الكفار، فبعث الوزير إلى عشر جوار منه، فأعطيت الذى جاء بهن واحدة منهن، فما رضى بذلك، وأخذ أصحـابى ثلاثًا صغاراً منهن، وباقيهن لا أعـرف ما اتفق لهن. والسبى هنالك رخيص الثـمن، لأنهن قذرات لا يعرفن مـصالح الحضـر، والمعلمات رخيصات الأثمان، فلا يفتقر أحد إلى شراء السبي. والكفار ببلاد الهند فى بر متصل وبلاد متصلة مع المسلمين، والمسلمون غالبون عليهم وإنما يمتنع الكفار بالجبال والأوعار، ولهم غيضات من القصـب، وقصبهم غير مجوف، ويعظم ويلتف بعضه على بعض، ولا تؤثر فيه النار، وله قـوة عظيمة فيسكنون تلك الغياض، وهى لهم مـثل السور، وبداخلها تكون مواشـيهم وزروعهم، ولهم فيـها المياه مما يجتـمع من ماء المطر فلا يقـدر عليهم إلا بالعساكـر القوية من الرجـال الذين يدخلون تلك الغيـاض، ويقطعون تلك الـقصب بآلات مـعدة لذلك.

وأطلّ عيد الفطر، والسلطان لم يعد بعـد إلى الحضرة، فلما كان يوم العيـد ركب الخطيب على الفـيل، وقد مـهد له على ظهـره شبه الـسرير، وركـزت أربعة أعـلام فى أركـانه الأربعة، ولبس الخـطيب ثياب السـواد، وركب المؤذنون على الفـيلة يكبرون أمامـه، وفقهـاء المدينة وقضـاتها وكل واحد منهم يستصحب صدقـة يتصدق بها حين الخروج إلى المصلى ونصب على المصلى صـيـوان قطن، وفـرش ببسـط، واجتـمع الناس ذاكـرين الله تعـالى. ثم صلى بهـم الخطيب وخطب وانصـرف الناس إلى مـنازلهم، وانصـرفنا إلى دار السلطـان وجعل الـطعام، فـحـضـره الملوك والأمـراء، والأعزاء وهم الغرباء، وأكلوا وانصرفوا.

ولما كان في رابع شوال نزل السلطان بقصر اسمه تلْبَت (بكسر التاء المعلوة الأولى وسكون اللام وفتح الباء الموحدة ثم تاء كالأولى) وهي على مسافة سبعة أميال من الحضرة فأمرنا الوزيرُ بالخروجِ إليه فخرجنا، ومع كل إنسان هديته من الخيل والجمال والفواكه الخراسانية والسيوف المصرية والمماليك والغنم المِجلوبة من بلاد الأتراك فوصلنا إلى باب القصر واجتمع جميع القادمين فكانوا يدخلون إلى السلطان على قدر مراتبهم، ويخلع عليهم ثياب الكتان المزركشة بالذهب، ولما وصلت إلى النوبة، دخلت فوجدته قاعداً على كرسى، فظننته أحد الحجاب حتى رأيت معه ملك الندماء ناصر الدين الكافى الهروى، وكنت عرفته أيام غيبة السلطان، فخدم الحاجب، فخدمت واستقبلنى أمير حاجب، وهو ابن عم السلطان فيروز، وخدمت ثانية لخدمته، ثم قال لى ملك الندماء بسم الله، مولانا بدر الدين. وكانوا يدعوننى بأرض الهند بدر الدين وكل من كان من أهل الطلب إنما يقال له مولانا فقربت من السلطان حتى أخذ بيدى وصافحنى وأمسك يدى وجعل يخاطبنى بأحسن خطاب، ويقول لى بالفارسى، حلت البركة، قدومك مبارك، اجمع خاطرك، اعمل معك من المراحم، وأعطيك من الأنعام، ما يسمع به أهل بلادك، فيأتون إليك. ثم سألنى عن بلادى فقلت له: بلاد المغرب فقال لى: بلاد عبد المؤمن؟ فقلت له: نعم. وكان كلما قال لى كلاماً جيداً قبلت يده حتى قبلتها سبع مرات. وخلع على، وانصرفت واجتمع الواردون، فمد لهم سماط. ووقف على رؤوسهم قاضى القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخوارزمى، وكان من كبار الفقهاء، وقاضى قضاة المماليك صدر الجهان كمال الدين الغزنوى، وعماد الملك عرض المماليك، والملك جلال الدين الكيجى، وجماعة من الحجاب والأمراء، وحضر كذلك خداوند زاده غياث الدين، ابن عم خداوند زاده قوام الدين قاضى ترمذ الذى قدم معنا، وكان السلطان يعظمه ويخاطبه بالأخ وتردد إليه مراراً من بلاده. والواردون الذين خلع عليهم فى ذلك اليوم هم خداوند زاده قوام الدين وإخوته ضياء الدين وعماد الدين وبرهان الدين وابن أخيه أمير بخت ابن السيد تاج الدين، وكان جده

وجيه الدين وزير خراسان، وكان خاله علاء الدين أمير هند ووزيراً أيضاً، والأمير هبة الله ابن الفلكى التبريزى، وكان أبوه نائب الوزير بالعراق، وهو الذى بنى المدرسة الفلكية بتبريز، وملك كراى من أولاد بهرام جور (جوبين) صاحب كسرى، وهو من أهل جبل بدخشان الذى منه يجلب الياقوت البلخش واللازورد، والأمير مبارك شاه السمرقندى، وأرون بغا البخارى، وملك زاده الترمذى، وشهاب الدين الكازرونى، التاجر الذى قدم تبريز بالهدية إلى السلطان فسلب فى طريقه.

وفى الغد من يوم خروجنا إلى السلطان أعطى كل واحد منا فرساً من مراكب السلطان، عليه سرج ولجام محليان وركب السلطان لدخول حضرته، وركبنا فى مقدمته مع صدر الجهان، وزينت الفيلة أمام السلطان، وجعلت عليها الأعلام، ورفعت عليها ستة عشر شطراً، منها مزركشة، ومنها مرصعة، ورفع فوق رأس السلطان شطرٌ منها، وحملت أمامه الغاشية، وهى ستارة مرصعة، وجعل على بعض الفيلة رعادات صغار، فلما وصل السلطان إلى قرب المدينة، قذف فى تلك الليلة الرعادات بالدنانير والدراهم مختلطة، والمشاة بين يدى السلطان وسواهم ممن حضر يلتقطون ذلك. ولم يزالوا ينثرونها إلى أن وصلوا القصر وكان بين يديه آلاف من المشاة على الأقدام وصنعت قباب الخشب المكسوة بثياب الحرير، وفيها المغنيات حسبما ذكرنا ذلك.

ولما كان يوم الجمعة، ثانى يوم دخول السلطان، أتينا باب المشور، فجلسنا فى سقائف[1] الباب الثالث، ولم يكن الإذن حصل لنا بالدخول، وخرج الحاجب شمس الدين الفوشنجى، فأمر الكتاب أن يكتبوا أسماءنا، وأذن لهم فى دخولنا، ودخول بعض أصحابنا وعيَّن للدخول معى ثمانية، فدخلنا ودخلوا معنا، ثم جاءوا بالبدر والقبان، وهو الميزان، وقعد قاضى القضاة، والكتاب، ودعوا من بالباب من الأعزة وهم الغرباء، فعينوا لكلٍ نصيبه من تلك البدر، فحصل لى خمسة آلاف دينار، وكان مبلغ المال مائة

---

(١) السقائف: جمع سقيفة، والسقيفة: العريش يستظل به، وسقيفة بنى ساعدة: ظُلة كانت لهم، بايع تحتها المسلمون أبا بكر الصديق -رضي الله عنه- بالخلافة. الوجيز ص(٣١٤).

ألف دينار، تصدقت به أم السلطان لما قدم ابنها، وانصرفنا ذلك اليوم وكان السلطان بعد ذلك يستدعينا للطعام بين أيديه، ويسأل عن أحوالنا، ويخاطبنا بأجمل الكلام ولقد قال لنا في بعض الأيام: أنتم شرفتمونا بقدومكم فما نقدر على مكافأتكم فالكبير منكم مقام والدى، والكهل مقام أخى، والصغير مقام ولدى، وما فى ملكى أعظم من مدينتى هذه أعطيكم إياها فشكرناه ودعونا له.

ثم بعد ذلك أمر لنا بالمرتبات فعين لنا اثنى عشر ألف دينار فى السنة، وزادنى قريتين على الثلاث التى أمر لى بها قبل، إحداهما قرية جوزة، والثانية قرية ملك بور، وفى بعض الأيام بعث لنا خداوند زاده، وغياث الدين وقطب الملك صاحب السند فقالا لنا: إن خوند عالم يقول لكم: من كان منكم يصلح للوزارة أو الكتابة أو الإمارة أو القضاة أو التدريس أو المشيخة، أعطيته ذلك فسكت الجميع لأنهم كانوا يريدون تحصيل الأموال والانصراف إلى بلادهم، وتكلم أمير بخت ابن السيد تاج الدين الذى تقدم ذكره فقال: أما الوزارة فميراثى، وأما الكتابة فشغلى، وغير ذلك لا أعرفه.

وتكلم هبة الله بن الفلكى فقال مثل ذلك، وقال لى خداوند زاده بالعربى: ما تقول أنت يا سيدى؟ وأهل تلك البلاد ما يدعون العربى إلا بالتسويد، وبذلك يخاطبه السلطان، تعظيمًا للعرب، فقلت له: أما الوزارة والكتابة فليست شغلى، وأما القضاء والمشيخة فشغلى وشغل آبائى، وأما الإمارة فتعلمون أن الأعاجم ما أسلمت إلا بأسياف العرب، فلما بلغ ذلك السلطان أعجبه كلامى وكان بهزار اسطون يأكل الطعام، فبعث عنا، فأكلنا بين يديه، وهو يأكل، ثم انصرفنا إلى خارج هزار اسطون، فقعد أصحابى وانصرفت بسبب دمل كان يمنعنى الجلوس، فاستدعانا السلطان ثانية فحضر أصحابى، واعتذر راليه عنى بعد صلاة العصر، فصليت بالمشور المغرب والعشاء الآخرة، ثم خرج الحاجب فاستدعانا، فدخل خداوند زاده ضياء الدين، وهو أكبر الإخوة المذكورين، فجعله السلطان أمير داد وهو من الأمراء الكبار، فجلس بمجلس القاضى. فمن كان له حق على أمير أو كبير أحضره

بين يديه، وجعل مرتبه على هذه الخطة خمسين ألف دينار فى السنة، عين له مجاشر فائدها ذلك المقدار، فأمر له بخمسين ألفًا عن يد، وخلع عليه خلعة حرير مزركشة تسمى صورة الشير، ومعناه صورة السبع، لأنه يكون فى صدرها وظهرها صورة سبع، وقد خيط فى باطن الخلعة بطاقة بمقدار ما زركش فيها من الذهب، وأمر له بفرس من الجنس الأول. والخيل عندهم أربعة أجناس وسروجهم كسروج أهل مصر، ويكسون أعظمها بالفضة المذهبة، ثم دخل أمير بخت، فأمر أن يجلس مع الوزير فى مسنده، ويقف على محاسبات الدواوين وعين له مرتبًا أربعين ألف دينار فى السنة أعطى مجاشر قائدها بمقدار ذلك، وأعطى أربعين ألفًا عن يد، وأعطى فرسًا مجهزًا، وخلع عليه كخلعة الذى قبله، ولقب شرف الملك.

ثم دخل هبة الله بن الفلكى فجعله رسول دار، ومعناه حاجب الإرسال، وعين له مرتبًا أربعين ألف دينار فى السنة أعطى مجاشر يكون قائدها بمقدار ذلك وأعطى أربعة وعشرين ألفًا عن يد وأعطى فرسًا مجهزًا وخلعة، وجعل لقبه بهاء الملك. ثم دخلت فوجدت السلطان على سطح القصر مستندًا إلى السرير، والوزير خواجه جهان بين يديه، والملك الكبير قبولة واقف بين يديه فلما سلمت عليه، قال لى الملك الكبير: أخدم فقد جعلك خوند عالم قاضى دار الملك دهلى، وجعل مرتبك اثنى عشر ألف دينار فى السنة، وعين لك مجاشر بمقدارها، وأمر لك باثنى عشر ألفًا نقدًا تأخذها من الخزانة غدًا إن شاء الله، وأعطاك فرسًا بسرجه ولجامه، وأمر لك بخلعة محاربى، وهى التى يكون فى صدرها وظهرها شكل محراب، فخدمت وأخذ بيدى فتقدم بى إلى السلطان فقال لى السلطان: لا تحسب قضاء دهلى من أصغر الأشغال، هو أكبر الأشغال عندنا، وكنت أفهم قوله، ولا أحسن الجواب عنه وكان السلطان يفهم العربى ولا يحسن الجواب عنه، فقلت له: يا مولانا أنا على مذهب مالك، وهؤلاء حنفية وأنا لا أعرف إنسانًا فقال لى: قد عينت بهاء الدين الملتانى وكمال الدين البجنورى ينوبان عنك ويشاورانك، وتكون أنت تسجل على العقود وأنت عندنا بمقام الوالد، فقلت له: بل عبدكم وخديمكم فقال لى باللسان العربى، بل أنت سيدنا

ومخدومنا، تواضعًا منه وفضـلاً وإيناسًا، ثم قال لشرف الملك أمير بخت: إن كان الذى ترتب له لا يكفيه لأنه كثيـر الإنفاق، فأنا أعطيه زاوية إن قدر على إقامة حال الفقراء، وقـال: قل له هذا بالعربى، وفهم السلطان ذلك فقال له: برو ويكجـا بخصـبى (بخسبـى) وآن حكاية بروابكوى وتفهـيم كنى (بكنى) تافردا إن شاء الله بيش من بيايى (و) جواب أو بكرى (بكوى). معناه: امشوا الليلة فارقدوا فى موضع واحد، وفهّـمه هذه الحكاية، فإذا كان بالغد إن شاء الله تجىء إلى وتعلمنى بكلامه، فانصـرفنا وذلك فى ثلث الليل، وقد ضربت النوبة. والعادة عندهم إذا ضربت لا يخرج أحـد فانتظرنا الوزير حتى خرج، وخرجنا مـعه، ووجـدنا أبواب دهلى مسـدودة فبتـنا عند السيـد أبى الحسن العبـادى العراقى، بزقـاق يعرف بسـرابور خان وكـان هذا الشيخ يتـجر بمال السلطان ويشترى له الأسلحة والأمتعة بالعراق وخراسان. ولما كان بالغد بعث عنا، فـقبـضنا الأموال والخـيل والخلع، وأخـذ كل واحد منا البـدرة بالمال، فجعلهـا على كاهله، ودخلنا كذلك على السلطان فخـدمنا، وأتينا بالأفراس فقبلـنا حوافرها، بعد أن جـعلت عليها الخرق، وقـدناها بأنفسنا إلى باب دار السلطان فـركـبناها، وذلك كلـه عادة عنـدهم، ثم انصـرفنا وأمـر السلطان لأصحابى بألفى دينار وعشر خلع، ولم يعط لأصحابِ أحد سواى شيئًا وكان أصحابى لهم رواء ومنظر، فأعجبوا السلطان وخدموا بين يديه وشكرهم.

وكنت يومًا بالمشـور، بعد أيام من توليـتى القضاء والإحـسان إلى، وأنا قاعـد تحت شجرة هنـالك، وإلى جانبى مولانا ناصـر الدين الترمـذى العالم الواعظ، فأتى بعض الحجاب فدعا مولانا ناصر الدين، فدخل إلى السلطان، فخلع عليه، وأعطاه مصحفًـا مكللاً بالجوهر، ثم أتانى بعض الحجاب فقال: أعطنى شيئًا وآخذ لك خط خرد بإثنى عشر ألفًا، أمر لك بها خوند عالم فلم أصـدقـه وظننتـه يريد الحـيلة علىَ، وهو مـجـد فى كلامـه، فـقـال بعض الأصحاب: أنا أعطيه، فأعطاه دينارين أو ثلاثة، وجاء بخط خرد ومعناه الخط الأصغر مكتوبًا بتعريف الحاجب، ومعناه أمر خوند عالم أن يعطى من الخزانة الموفورة كذا لفلان بتبليغ فلان أى بتعريفه، ويكتب المبلغ اسمه ثم يكتب على

تلك البراءة ثلاثة من الأمراء: وهم الخان الأعظم قطلوخان معلم السلطان، والخريطة دار وهو صاحب خريطة الكاغد والأقلام، والأمير نكبية الدوادار صاحب الدواة، فإذا كتب كل واحد منهم خطه، تذهب البراءة إلى ديوان الوزارة فينسخها كتاب الديوان عندهم، ثم تثبت فى ديوان الأشراف، ثم تثبت فى ديوان النظر، ثم تكتب البراونة، وهى الحكم من الوزير للخازن بالعطاء، ثم يثبتها الخازن فى ديوانه، ويكتب تلخيصًا فى كل يوم بمبلغ ما أمر به السلطان ذلك اليوم من المال، ويعرضه عليه فمن أراد التعجيل بعطائه أمر بتعجيله ومن أراد التوقيف وقف له ولكن لا بد من عطاء ذلك، ولو طالت المدة فقد توقفت هذه الاثنا عشر ألفًا ستة أشهر ثم أخذتها مع غيرها حسبما يأتى. وعادتهم إذا أمر السلطان بإحسان لأحد يحط منه العُشْر فمن أمر له مثلاً بمائة ألف، أُعطى تسعين ألفًا، أو بعشرة آلاف أُعطى تسعة آلاف.

وكنت حسبما ذكرته قد استدنت من التجار مالاً أنفقته فى طريقى، وما صنعت به الهدية للسلطان، وما أنفقته فى إقامتى فلما أرادوا السفر إلى بلادهم ألحوا علىّ فى طلب ديونهم فمدحت السلطان بقصيدة طويلة أولها:

إليك أميرَ المؤمنين المُبجَّلا ... أتينا نجدُّ السيرَ نحوك فى الفلا
فجئت محلاً من علائك زائرًا ... ومغْناك كهفٌ للزيارة أُهلا
فلو أن فوق الشمس للمجد رتبةً ... لكنتَ لأعْلاها إمامًا مُؤهلا
فأنت الإمام الماجد الأوحد الذى ... سجاياه(١) حتمًا أن يقولَ ويفعلا
ولى حاجة من فيض جودك أرتجى ... قضاها وقصدى عند مجدك سُهلا
أأذكرها أم قد كفانى حَياؤكم ... فإن حَيَاكم ذَكَرهُ كان أجملا
فعجِّلْ لمن وافى محلك زائرًا ... قضا دينه إن الغريمَ تعجَّلا

فقدمتها بين يديه، وهو قاعد على كرسى، فجعلها على ركبته، وأمسك طرفها بيده، وطرفها الثانى بيدى. وكنت إذا أكملت بيتًا منها أقول

---

(١) السجايا جمع سجية، والسجية: الطبيعة والخلق. الوجيز ص(٣٠٤).

لقاضى القضاة كمال الدين الغزنوى بيّن معناه لخوند عالم، فيبينه ويعجب السلطان وهم يحبون الشعر العربى فلما بلغت إلى قولى:

فعجل لمن وافى. . . البيت، قال: مرحمة ومعناه: ترحمت عليك فأخذ الحجاب حينئذ بيدى ليذهبوا بى إلى موقفهم، وأخدم على العادة فقال السلطان: اتركوه حتى يكملها فأكملتها وخدمت، وهنأنى الناس بذلك، وأقمت مدة، وكتبت رفعًا، وهم يسمونه عرض داشت، فدفعته إلى قطب الملك صاحب السند، فدفعه للسلطان فقال له: امض إلى خواجه جهان فقل له: يعطى دينه فمضى إليه وأعلمه، فقال: نعم وأبطأ ذلك أيامًا وأمره السلطان فى خلالها بالسفر إلى دولة آباد وفى أثناء ذلك خرج السلطان إلى الصيد، وسافر الوزير، فلم آخذ شيئًا منها إلا بعد مدة.

والسبب الذى توقف به عطاؤها أذكره مستوفى وهو أنه لما عزم الذين كان لهم على الدين إلى السفر، قلت لهم: إذا أنا أتيت دار السلطان فدرهونى[1] على العادة فى تلك البلاد، لعلمى أن السلطان متى يعلم بذلك خلصهم، وعادتهم أنه متى كان لأحد دين على رجل من ذوى العناية وأعوزه خلاصه وقف له بباب دار السلطان فإذا أراد الدخول قال له: دروهى، وحق رأس السلطان ما تدخل حتى تخلصنى، فلا يمكنه أن يبرح من مكانه حتى يخلصه، أو يرغب إليه فى تأخيره. فاتفق يومًا أن خرج السلطان إلى زيارة قبر أبيه، ونزل بقصر هنالك فقلت لهم: هذا وقتكم، فلما أردت الدخول، وقفوا لى بباب القصر فقالوا لى دروهى السلطان ما تدخل حتى تخلصنا. وكتب كتاب الباب بذلك إلى السلطان، فخرج حاجب قصة شمس الدين، وكان من كبار الفقهاء، فسألهم لأى شىء درهتموه؟ فقالوا: لنا عليه الدين فرجع إلى السلطان فأعلمه بذلك، فقال له: اسألهم كم مبلغ الدين؟ فقالوا له خمسة وخمسون ألف دينار، فعاد إليه فأعلمه فأمره أن يعود إليهم، ويقول لهم: إن خوند عالم يقول لكم: المال عندى وأنا أنصفكم منه فلا تطلبوه به

(١) يعنى: طالبونى بديونكم.

وأمر عماد الدين السمنانى وخداوندزاده غياث الدين أن يقعدوا بهزار اسطون، ويأتى أهل الدين بعقودهم، وينظروا إليها، ويتحققوها ففعلا ذلك وأتى الغرماء بعقودهم فدخلا إلى السلطان وأعلماه بثبوت العقود، فضحك وقال ممازحًا: أنا أعلم أنه قاض جهز شغله فيها ثم أمر خداوند زاده أن يعطينى ذلك من الخزانة فطمع فى الرشوة على ذلك وامتنع أن يكتب خط خرد، فبعثت إليه مائتى تنكة، فردها ولم يأخذها وقال لى عنه بعض خدامه: إنه طلب خمسمائة تنكة فامتنعت من ذلك وأعلمت عميد الملك بن عماد الدين السمنانى بذلك، فأعلم به أباه وأعلمه الوزير، وكانت بينه وبين خداوندزاده عداوة فأعلم السلطان بذلك، وذكر له كثيراً من أفعال خداوندزاده، فغير خاطر السلطان عليه، فأمر بحبسه فى المدينة وقال: لأى شىء أعطاه فلان ما أعطاه ووقفوا ذلك حتى يعلم هل يعطى خداوندزاده شيئًا إذا منعته أو يمنعه إذا أعطيته فبهذا السبب توقف عطاء دينى.

ولما خرج السلطان إلى الصيد خرجت معه من غير تربص، وكنت قد أعددت ما يحتاج إليه، وعلمت ترتيب أهل الهند، فاشتريت سراجة، وهى أفراج. وضربها هنالك مباح ولابد منها لكبار الناس وتمتاز سراجه السلطان بكونها حمراء، وسواها بيضاء منقوشة بالأزرق، واشتريت الصيوان، وهو الذى يظل به داخل السراجة، ويرفع على عمودين كبيرين ويجعل ذلك الرجال على أعناقهم، ويقال لهم اليكوانية[1] والعادة هنالك أن يكترى المسافر اليكوانية، وقد ذكرناهم، ويكترى من يسوق له العشب لعلف الدواب لأنهم لا يطعمونها التبن ويكترى الكهارين، وهم الذين يحملون أوانى المطبخ، ويكترى من يحمله فى الدولة، وقد ذكرناها، ويحملها فارغة، ويكترى الفراشين، وهم الذين يضربون السراجة، ويفرشونها، ويرفعون الأحمال على الجمال، ويكترى الدوادوية، وهم الذين يمشون بين يديه، ويحملون المشاعل بالليل، فاكتريت أنا جميع من احتجت له منهم، وأظهرت القوة والهمة، وخرجت يوم خروج السلطان وغيرى أقام بعده اليومين والثلاثة، فلما كان

(١) وفى نسخة: «الكيوانية».

بعد العصر من يوم خروجه ركب الفيل، وقصده أن يتطلع على أحوال الناس، ويعرف من تسارع إلى الخروج، ومن أبطأ وجلس خارج السراجة على كرسى، فجئت وسلمت ووقفت فى موقفى بالميمنة، فبعث إلى الملك الكبير قبولة سرجامدار، وهو الذى يشرد الذباب عنه، فأمرنى بالجلوس عناية بى، ولم يجلس فى ذلك اليوم سواى ثم أتى بالفيل، وألصق به سلم فركب عليه، ورفع الشطر فوق رأسه وركب معه الخواص وجال ساعة، ثم عاد إلى السراجة. وعادته إذا ركب، أن يركب الأمراء أفواجًا كل أمير بفوجه وعلاماته وطبوله وأنفاره وصرناياته يسمون ذلك المراتب، ولا يركب أمام السلطان، إلا الحجاب وأهل الطرق والطبالة الذين يتقلدون الأطبال الصغار، والذين يضربون الصرنايات. ويكون عن يمين السلطان نحو خمسة عشر رجلاً، وعن يساره مثل ذلك، منهم قضاة القضاة والوزير وبعض الأمراء الكبار وبعض الأعزة، وكنت أنا من أهل ميمنته، ويكون بين يديه المشاءون والأدلاء، ويكون خلفه علاماته، وهى من الحرير المذهب، والأطبال على الجمال وخلف ذلك مماليكه، وأهل دخلته، وخلفهم الأمراء وجميع الناس، ولا يعلم أحد أين يكون النزول فإذا مرَّ السلطان بمكان يعجبه النزول به أمر بالنزول، ولا تضرب سراجة أحد حتى تضرب سراجته، ثم يأتى الموكلون بالنزول فينزلون، كل واحد فى منزله خلال ذلك ينزل السلطان على نهر أو بين أشجار، وتقدم بين يديه لحوم الأغنام والدجاج المسمنة والكراكى وغيرها من أنواع الصيد، ويحضر أبناء الملوك فى يد كل واحد منهم سفود[1]، ويوقدون النار ويشوون ذلك، ويؤتى بسراجة صغيرة فتضرب للسلطان ويجلس من معه من الخواص خارجها، ويؤتى بالطعام، ويستدعى من شاء فيأكل معه، وكان فى بعض تلك الأيام وهو بداخل السراجة يسأل عمن بخارجها، فقال له السيد ناصر الدين مطهر الأوهرى أحد ندمائه: ثَم فلان المغربى، وهو متغير فقال لماذا: بسبب الدين الذى عليه وغرماؤه يلحون فى الطلب وكان خوند

(١) السفود: عود من حديد ينظم فيه اللحم ليشوى. الوجيز ص(٣١٢).

عالم قد أمر الوزير بإعطائه فسافر قبل ذلك فإن طلب مولانا أن يصير أهل الدين حتى يقدم الوزير أو أمر بإنصافهم. وحضر لهذا الملك دولة شاه وكان السلطان يخاطبه بالعم فقال: يا خوند عالم كل يوم وهو يكلمنى بالعربية ولا أدرى ما يقول يا سيدى ناصر الدين ماذا، وقصد أن يكرر ذلك الكلام فقال يتكلم لأجل الدين الذى عليه فقال السلطان إذا دخلنا دار الملك، فامض أنت يا أومار، ومعناه: يا عم إلى الخزانة، فأعطه ذلك المال وكان خداوندزاده حاضراً فقال يا خوند عالم إنه كثير الإنفاق، وقد رأيته ببلادنا عند السلطان طرمشيرين. وبعد هذا الكلام استحضرنى السلطان للطعام، ولا علم عندى بما جرى فلما خرجت قال لى السيد ناصر الدين: اشكر للمَلك دولة شاه وقال لى الملك دولة شاه: اشكر لخداوند زاده وفى بعض تلك الأيام، ونحن مع السلطان فى الصيد ركب فى المحلة، وكان طريقه على منزلى وأنا معه فى الميمنة وأصحابى فى الساقة، وكان لى خباء عند السراجة، فوقف أصحابى عندها، وسلموا على السلطان فبعث عماد الملك وملك دولة شاه ليسأل لمن تلك الأخبية والسراجة فقيل لهما: لفلان فأخبراه بذلك فتبسم. فلما كان بالغد، نفد الأمر أن أعود أنا وناصر الدين مطهر الأوهرى وابن قاضى مصر وملك صبيح إلى البلد، فخلع علينا وعدنا إلى الحضرة.

وكان السلطان فى تلك الأيام سألنى عن الملك الناصر هل يركب الجمل، فقلت: نعم يركب المهارى فى أيام الحج فيسير إلى مكة من مصر فى عشرة أيام ولكن تلك الجمال ليست كجمال هذه البلاد. وأخبرته أن عندى جملاً منها فلما عدت إلى الحضرة بحثت عن بعض عرب مصر فصور لى صورة الكور الذى تركب المهارى به من القير، وأريتها بعض النجارين فعمل الكور وأتقنه وكسوته بالملف، وصنعت له ركبًا وجعلت على الجمل عباءة حسنة وجعلت له خُطام حرير وكان عندى رجل من أهل اليمن يحسن عمل الحلواء فصنع منها ما يشبه التمر وغيره، وبعثت الجمل والحلواء إلى السلطان وأمرت الذى حملها أن يدفعها على يد ملك دولة شاه وبعثت له بفرس وجملين فلما وصله ذلك دخل على السلطان وقال: يا خوند عالم رأيت

العجب قال: وما ذلك؟ قال: فلان بعث جملاً عليه سرج فقال: ائتوا به. فأدخل الجمل داخل السراجة، وأعجب به السلطان، وقال لراجلى: اركبه ومشاه بين يديه وأمر له بمائتى دينار دراهم وخلعة، وعاد الرجل إلىّ فأعلمنى فسرنى ذلك وأهديت له جملين بعد عودته إلى الحضرة. ولما عاد إلى راجلى الذى بعثته بالجمل، فأخبرنى بما كان من شأنه صنعت كورين اثنين، وجعلت مقدم كل واحد ومؤخره مكسوًّا بصفائح الفضة المذهبة وكسوتها بالملف وصنعته رسنًا[1] مصفحًا بصفائح الفضة المذهبة، وجلعت لهما جلّين من زردخانة مبطنين، بالكمخا، وجعلت للجملين الخلاخيل من الفضة المذهبة، وصنعت أحد عشر طيفورًا، وملأتها بالحلواء، وغطيت كل طيفور بمنديل حرير، فلما قدم السلطان من الصيد وقعد ثانى يوم قدومه بموضع جلوسه العام غدوت عليه بالجمال، فأمر بها، فحركت بين يديه، وهرولت فطار خلخال أحدها فقال لبهاء الدين ابن الفلكى: بايل وردارى، معنى ذلك: ارفع الخلخال، فرفعه ثم نظر إلى الطيافير فقال: جدارى (جه دارى): درآن طبقها حلوا است، معنى ذلك: ما معك فى تلك الأطباق، حلواء هى؟ فقلت له: نعم فقال للفقيه ناظر الدين الترمذى الواعظ: ما أكلت قط، ولا رأيت مثل الحلواء التى بعثتها إلينا ونحن بالمعسكر، ثم أمر بتلك الطيافير أن ترفع لموضع جلوسه فرفعت وقام إلى مجلسه، واستدعانى، وأمر بالطعام، فأكلت ثم سألنى عن نوع الحلواء الذى بعثت له: فقلت له: يا خوند عالم، تلك الحلواء أنواعها كثيرة، ولا أدرى عن أى نوع تسألون منها فقال: ايتوا بتلك الأطباق وهم يسمون الطيفور طبقًا، فأتوا بها وقدموها بين يديه وكشفوا عنها، فقال: عن هذا سألتك، وأخذ الصحن الذى هى فيه فقلت له: هذه يقال لها: المقرصة، ثم أخذ نوعًا آخر فقال: وما اسم هذه؟ فقلت له هى لقيمات القاضى. وكان بين يديه تاجر من شيوخ بغداد يعرف بالسامرى، وينتسب إلى آل العباس -رضى الله تعالى عنه-، وهو كثير المال ويقول له السلطان والدى،

---

(١) أرسن الدابة: جعل لها رسنًا، والرسن: الزمام على الأنف، وجمعه أرسان، الوجيز ص(٢٦٤).

فحسدنى وأراد أن يخجلنى فقال: ليست هذه لقيمات القاضى، بل هى هذه وأخذ قطعة من التى تسمى جلد الفرس وكان بإزائه ملك الندماء ناصر الدين الكافى الهروى، وكان كثيراً ما يمازح هذا الشيخ بين يدى السلطان فقال: يا خواجة أنت تكذب والقاضى يقول الحق. فقال له السلطان وكيف ذلك؟ فقال: يا خوند عالم هو القاضى وهى لقيماته، فإنه أتى بها فضحك السلطان وقال: صدقت. فلما فرغنا من الطعام أكل الحلواء ثم شرب الفقاع بعد ذلك وأخذنا التنبول وانصرفنا فلم يكن غير هنيهة وأتانى الخازن فقال: ابعث أصحابك يقبضون المال، فبعثتهم وعدت إلى دارى بعد المغرب فوجدت المال بها وهو ثلاث بدر فيها ستة آلاف ومائتان وثلاث وثلاثون تنكة، وذلك صرف الخمسة والخمسين ألفًا التى هى دين على، وصرف الاثنى عشر ألفًا التى أمر لى بها فيما تقدم، بعد حط العشر على عادتهم وصرف التنكة ديناران ونصف دينار من ذهب المغرب.

وفى تاسع جمادى الأولى خرج السلطان برسم قصد بلاد المعبر، وقتال القائم بها وكنت قد خلصت أصحاب الدين، وعزمت على السفر، وأعطيت مرتب تسعة أشهر للكهارين والفراشين والكيوانية والدوادوية، وقد تقدم ذكرهم فخرج الأمر بإقامتى فى جملة ناس وأخذ الحاجب خطوطنا بذلك لتكون حجة له، وتلك عادتهم خوفًا من أن ينكر المبلغ، وأمر لى بستة آلاف دينار دراهم، وأمر لابن قاضى مصر بعشرة آلاف وكذلك كل من أقام من الأعزة، وأما البلديون فلم يعطوا شيئًا، وأمر لى السلطان أن أتولى النظر فى مقبرة السلطان قطب الدين، الذى تقدم ذكره. وكان السلطان يعظم تربته تعظيمًا شديداً؛ لأنه كان خديمًا له ولقد رأيته إذا أتى قبره يأخذ نعله فيقبله ويجعله فوق رأسه. وعادتهم أن يجعلوا نعل الميت عند قبره فوق متكأة. وكان إذا وصل القبر خدم له كما كان يخدم أيام حياته، وكان يعظم زوجته، ويدعوها بالأخت وجعلها مع حرمه وزوّجها بعد ذلك لابن قاضى مصر، واعتنى به من أجلها وكان يمضى لزيارتها فى كل جمعة. ولما خرج السلطان بعث عنا للوداع فقام ابن قاضى مصر فقال: أنا لا أودع ولا أفارق خوند عالم، فكان له فى ذلك الخير، فقال له السلطان: امضِ فتجهز للسفر،

وقدمت بعـده للوداع، وكنت أحب الإقامـة، ولم تكن عاقـبتهـا محـمودة، فقال: مـالك من حاجة فـأخرجت بطاقة فيـها ست مسائل فـقال لى: تكلم بلسانك فقلت له إن خوند عالم أمر لى بالقضاء، وما قعدت لذلك بعد وليس مرادى من القضاء إلا حرمته فأمرنى بالقـعود للقضاء وقعود النائبين معى، ثم قال لى: إيه؟ فقلت وروضة السلطان قطب الدين، ماذا أفعل بها؟ فإنى رتبت فيها أربعمـائة وستين شخصًا ومحصول أوقافـها لا يفى بمرتباتهم وطعامهم. فقال للوزير بنجاة: هزار، ومعناه: خـمسين ألفًا. ثم قال: لا بد لك من غلة بدية يعنى أعطه مائة ألف منٍّ من الغلة، وهى القمح والأرز، ينفقها فى هذه السنة حتى تأتى غلة الروضة والمنّ عشرون رطلاً مغربية. ثم قال لى ماذا أيضًا فقلت: إن أصـحابى سجنوا بسبب الـقرى التى أعطيتمـونى، فإنى عوضتـها بغيرها فطلب أهل الديـوان ما وصلنى منها أو الاستظهار بأمـر خوند عالم أن يرفع عنى ذلك فقال كم وصلك منها فقلت خمسة آلاف دينار فقال هى إنعام عليك فقلت له: وداري التى أُمرَ لى بها مفتقرة إلى البناء فقال للوزير: عمارة كنيد، أى مـعناه عمروها ثم قال لى: ديكر نماند، مـعناه هل بقى لك كلام. فقلت له: لا فقال لى: وصيـة ديكرهست، معناه: أوصيك أن لا تأخذ الدين لئلا تطلب فلا تجـد من يبلغ خبرك إلىّ. أنفق على قدر مـا أعطيتك قال الله تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾[1] ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا﴾[2] ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[3]. فأردت أن أقبل قدمه، وأمسك رأسى بيده فقبلتها وانصرفت وعدت إلى الحـضرة فاشتغلـت بعمارة دارى، وأنفقت فيـها أربعة آلاف دينار، أعطيت منهـا من الديوان ستـمائة دينار، وزدت علـيها البـاقى، وبنيت بإزائها مسـجدًا واشتغلت بترتيب مقبـرة السلطان قطب الدين وكان قد أمرنى أن تبنى عليـه قبة يكون ارتفاعـها فى الهواء مائة ذراع، بزيادة عـشرين

(١) سورة الإسراء: ٢٩.

(٢) سورة الأعراف: ٣١.

(٣) سورة الفرقان: ٦٧.

ذراعًا على ارتفاع القبة المبنية على قازان ملك العراق، وأمر أن تشترى ثلاثون قرية تكون وقفًا عليها، وجعلها بيدى على أن يكون لى العشر من فائدها على العادة.

وعادة أهل الهند أن يرتبوا لأمواتهم ترتيبًا كترتيبهم بقيد الحياة، ويؤتى بالفيلة والخيل فتربط عند باب التربة، وهى مزينة. فرتبت أنا فى هذه التربة بحسب ذلك ورتبت من قراء القرآن مائة وخمسين، وهم يسمونهم الختميين، ورتبت من الطلبة ثمانين، ومن المعيدين، ويسمونهم المكررين، ثمانية، ورتبت لها مدرسًا، ورتبت من الصوفية ثمانين، ورتبت الإمام والمؤذنين والقراء بالأصوات الحسان والمداحين وكتاب الغيبة والمعرفين، وجميع هؤلاء يعرفون عندهم بالأرباب. ورتبت صنفًا آخر يعرفون بالحاشية، وهم الفراشون والطباخون والدوادوية والأبدارية، وهم السقاءون والشربدارية الذين يسقون الشربة، والتنبول دارية الذين يعطون التنبول والسلحدارية والنيزدارية والشطر دارية والطشت دارية والحجاب والنقباء فكان جميعهم أربعمائة وستين، وكان السلطان أمر أن يكون الطعام بها كل يوم اثنى عشر منًّا من الدقيق ومثلها من اللحم، فرأيت أن ذلك قليل، والزرع الذى أمر به كثير فكنت أنفق كل يوم خمسة وثلاثين منًّا من الدقيق ومثلها من اللحم مع ما يتبع ذلك من السكر، والنبات، والسمن، والتنبول، وكنت أطعم المرتبين وغيرهم من صادر ووارد وكان الغلاء شديدًا فارتفق الناس بهذا الطعام وشاع خبره، وسافر الملك صبيح إلى السلطان بدولة آباد سأله عن حال الناس. فقال له لو كان بدهلى اثنان مثل فلان لما شكا الجهد، فأعجب ذلك السلطان، وبعث إلى بخلعة من ثيابه وكنت أصنع فى المواسم وهى العيدان والمولد الكريم ويوم عاشوراء وليلة النصف من شعبان ويوم وفاة السلطان قطب الدين مائة من الدقيق ومثلها لحمًا فيأكل الفقراء والمساكين، وأما أهل الوظيفة فيجعل أمام كل إنسان منهم ما يخصه ولنذكر عادتهم فى ذلك.

وعادتهم ببلاد الهند وببلاد السرا أنه إذا فرغ من أكل الطعام فى الوليمة جعل أمام كل إنسان من الشرفاء والفقهاء والمشايخ والقضاة وعاء شبه المهد له أربع قوائم منسوج سطحه من الخوص، وجعل عليه الرقاق، ورأس غنم مشوى، وأربعة أقراص معجونة بالسمن مملوءة بالحلواء الصابونية مغطاة بأربع

قطع من الحلواء كأنها الآجر وطبقًا صغيرًا مصنوعًا من الجلد فيه الحلواء والسموسك، ويغطى ذلك الوعاء بثوب قطن جديد. ومن كان دون من ذكرناه جعل أمامه نصف رأس غنم، ويسمونه الزلة ومقدار النصف مما ذكرناه. ومن كان دون هؤلاء أيضًا جعل أمامه مثل الربع من ذلك ويرفع رجال كل أحد ما جعل أمامه وأول ما رأيتهم يصنعون هذا بمدينة السرا حضرة السلطان أوزبك، فامتنعت أن يرفع رجالى ذلك إذ لم يكن لى به عهد وكذلك يبعثون أيضًا لدار كبراء الناس من طعام الولائم.

وكان الوزير قد أعطانى من الغلة المأمور بها للزاوية عشرة آلاف، ونفذ لى الباقى فى هزار أمروها. وكان والى الخراج بها عزيز الخمار، وأميرها شمس الدين البذخشانى. فبعثت رجالى فأخذوا بعض الإحالة، وتشكوا من تعسف عزيز الخمار. فخرجت بنفسى لاستخلاص ذلك. وبين دهلى وهذه العمالة ثلاثة أيام، وكان ذلك فى أوان نزول المطر. فخرجت فى نحو ثلاثين من أصحابى، واستصحبت معى أخوين من المغنين المحسنين يغنيان لى فى الطريق، فوصلنا إلى بلدة بِجْنَوَر، وضبط اسمها (بكسر الباء الموحدة وسكون الجيم وفتح النون وآخره راء) فوجدت بها أيضًا ثلاثة إخوة من المغنين، فاستصحبتهم. فكانوا يغنون لى نوبة والآخران نوبة.

ثم وصلنا إلى أمروها وهى بلدة صغيرة حسنة، فخرج عمالها للقائى، وجاء قاضيها الشريف أمير على، وشيخ زاويتها، وأضافانى معًا ضيافة حسنة. وكان عزيز الخمار بموضع يقال له: أفغان بور، على نهر السرو. وبيننا وبينه النهر، ولا معدية فيه. فأخذنا الأثقال فى معدية صنعناها من الخشب والنبات، وجزنا فى اليوم الثانى. وجاء نجيب أخو عزيز فى جماعة أصحابه، وضرب لنا سراجة. ثم جاء أخوه الوالى، وكان معروفًا بالظلم، وكانت القرى التى فى عمالته ألفًا وخمسمائة قرية. ومجباها ستون لكًا فى السنة، له فيها نصف العشر. ومن عجائب النهر الذى نزلنا عليه أنه لا يشرب منه أحد فى أيام نزول المطر، ولا تسقى منه دابة. ولقد أقمنا عليه ثلاثًا. فما غرف منه أحد غرفة، ولا كدنا نقرب منه، لأنه ينزل من جبل قراجيل التى بها معادن الذهب، ويمر على الحشاش المسمومة، فمن شرب منه مات. وهذا الجبل متصل مسيرة ثلاثة أشهر، وينزل منه إلى بلاد تبت حيث غزلان المسك. وقد

ذكرنا ما اتفق على جيش المسلمين بهذا الجبل. وبهذا الموضع جاء إلىَّ جماعة من الفقراء الحيدرية، وعملوا السماع، وأوقدوا النيران فدخلوها ولم تضرهم. وقد ذكرنا ذلك. وكانت قد نشأت بين أمير هذه البلاد شمس الدين البذخشانى وبين واليها عزيز الخمار منازعة. وجاء شمس الدين لقتاله، فامتنع منه بداره. وبلغت شكاية أحدهما الوزير بدهلى، فبعث إلىّ الوزير وإلى الملك شاه أمير المماليك بأمروها، وهم أربعة آلاف مملوك للسلطان، وإلى شهاب الدين الرومى أن ننظر فى قضيتهما. فمن كان على الباطل بعثناه مثقفًا[1] إلى الحضرة. فاجتمعوا جميعًا بمنزلى وادعى عزيز على شمس الدين دعاوى. منها أن خديمًا له يعرف بالرضى الملتانى نزل بدار خازن عزيز المذكور فشرب بها الخمر، وسرق خمسة آلاف دينار من المال الذى عند الخازن. فاستفهمت الرضى عن ذلك فقال لى: ما شربت الخمر منذ خروجى من ملتان، وذلك منذ ثمانية أعوام. فقلت له: أو شربتها بملتان؟ قال: نعم، فأمرت بجلده ثمانين وسجنته بسبب الدعوى للوث[2] ظهر عليه. وانصرفت عن أمورها. فكانت غيبتى نحو شهرين، وكنت فى كل يوم أذبح لأصحابى بقرة. وتركت أصحابى ليأتوا بالزرع المنفذ على عزيز وحمله عليه. فوُزِّع على أهل القرى التى لنظره ثلاثون ألف مَنٍّ يحملونها على ثلاثة آلاف بقرة وأهل الهند لا يحملون إلا على البقر، وعليه يرفعون أثقالهم فى الأسفار. وركوب الحمير عندهم عيب كبير. وحميرهم صغار الأجرام، ويسمونها اللاشة، وإذا أرادوا إشهار أحدهم بعد ضربه أركبوه الحمار.

وكان السيد ناصر الدين الأوهرى قد ترك عندى لما سافر ألفًا وستين تنكة، فتصرفت فيها، فلما عدت إلى دهلى وجدته قد أحال فى ذلك المال خداوندزاده قوام الدين، وكان قد قدم نائبًا على الوزير. فاستقبحت أن أقول له: تصرفت فى المال. فأعطيته نحو ثلثه. وأقمت بدارى أيامًا. وشاع أنى مرضت. فأتى ناصر الدين الخوارزمى صدر الجهان لزيارتى. فلما رآنى قال:

---

(١) ثقف الإنسان: أدبه وهذبه. الوجيز ص(٨٥).

(٢) اللوث: شبه الدلالة على حدث من الأحداث ولا يكون بينة تامة. يُقال: لم يقم على اتهام فلان بالجناية إلا لوث. الوسيط ص(٨٤٤).

ما أرى بك مرضًا؟ فقلت له: إنى مـريض القلب. فقال لى: عرفنى بذلك. فقلت له: ابعث إلى نائبك شيخ الإسلام أعرفه به. فبـعثه إلىَّ فأعلمته، فعاد إليه فأعلمه. فبعث إلى بألف دينار دراهم. وكان له عندى قبل هذا ألف ثان، ثم طلب منى بقيـة المال. فقلت فى نفسى، ما يخلصنى منه إلا صـدر الجهان المذكور، لأنه كثير المال. فبعثت إليه بفرس مـسرج، قيمته وقيمة سرجه ألف وستمائة دينار، وبفرس ثان قيمته وقيمة سرجه ثمانمائة دينار، وبغلتين قيمتهما ألف ومائتا دينار، وبتركش فضة، وبسيفين غـمداهما مغشيان بالفضة. وقلت له: انظر قيمـة الجميع، وابعث إلى ذلك. فأخذ ذلك. وعـمل لجميعه قـيمة ثلاثة آلاف دينار. فبعث إلى ألفًا، واقتطع الألفين. فتغير خاطرى، ومرضت بالحمى، وقلت لنفسى: إن شكوت به إلى الوزير افتضـحت. فأخذت خمسة أفراس وجاريتين ومملوكين وبعثت الجميع للملك مغيث الدين محمد بن ملك الملوك عماد الدين السمنانى وهو فتى السنّ، فرد على ذلك، وبعث إلى مائتى تنكة وأغزر، وخلصت من ذلك المال. فشتان بين فعل محمد ومحمد.

وكان السلطان لمـا توجه إلى بلاد المعبـر وصل إلى التلنك، ووقع الوباء بعـسكره، فعـاد إلى دولة آباد، ثم وصل إلى نهـر الكنك فنزل عليه، وأمـر الناس بالبناء. وخـرجت فى تلك الأيام إلى مـحلتـه، واتفق ما سـردناه من مـخالفـة عين الملك، ولازمت السلطـان فى تلك الأيام، وأعطانى من عتـاق الخيل، لما قسمهـا على خواصه، وجعلنى فيهم، وحضرت مـعه الوقيعة على عين الملك والقـبض عليه، وجزت معـه نهر الكنك ونهر السرو، لزيـارة قبر الصالح البطل سالارعود (مسعود)، وقد استوفيت ذلك كله، وعدت معه إلى حضرة دهلى لما عاد إليها.

وقد هم السلـطان بمعاقبـتى ولكن الله سبـحانه وتعالى تداركنـى بلطفه ونجانـى. وكان سبـب ذلك أنى ذهبت يومًا لزيارة الشـيخ شهـاب الدين ابن الشـيخ الجام، بالغـار الذى احتـفره خارج دهلـى، وكان قصـدى رؤية ذلك الغار. فلمـا أخذه السلطان، سأل أولاده عـمن كان يزوره، فذكـروا أناسًا أنا من جملتهم. فأمر السلطان أربعة من عبيده بملازمتى بالمشور. وعادته أنه متى

فعل ذلك مع أحد قلما يتخلص. فكان أول يوم من ملازمتهم لى يوم الجمعة، فألهمنى الله تعالى إلى تلاوة قوله ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[1] فقرأتها ثلاثًا وثلاثين ألف مرة، وبت بالمشور، وواصلت إلى خمسة أيام، فى كل يوم منها أختم القرآن وأفطر على الماء خاصة، ثم أفطرت بعد خمس، وواصلت أربعًا، وتخلصت بعد قتل الشيخ، والحمد لله تعالى.

ولما كان بعد مدة انقبضت عن الخدمة، ولازمت الشيخ الإمام العالم العابد الزاهد الخاشع الورع فريد الدهر وحيد العصر كمال الدين عبد الله الغارى وكان من الأولياء، وله كرامات كثيرة، فقد ذكرت منها ما شاهدت عند ذكر اسمه. وانقطعت إلى خدمة هذا الشيخ، ووهبت ما عندى للفقراء والمساكين. وكان الشيخ يواصل عشرة أيام، وربما واصل عشرين. فكنت أحب أن أواصل، فكان ينهانى ويأمرنى بالرفق على نفسى فى العبادة، ويقول لى: إن المنبتّ لا أرضًا قطع ولا ظهراً أبقى. وظهر لى من نفسى تكاسل بسبب شىء بقى معى، فخرجت عن جميع ماعندى من قليل وكثير، وأعطيت ثياب ظهرى لفقير، ولبست ثيابه. ولزمت هذا الشيخ خمسة أشهر، والسلطان إذ ذاك غائب ببلاد السند.

ولما بلغه خبر خروجى عن الدنيا استدعانى وهو يومئذ بسوستان، فدخلت عليه فى زى الفقراء، فكلمنى أحسن كلام وألطفه، وأراد منى الرجوع إلى الخدمة فأبيت، وطلبت منه الإذن فى السفر إلى الحجاز، فأذن لى فيه، وانصرفت عنه، ونزلت بزاوية تعرف بالنسبة إلى الملك بشير، وذلك فى أواخر جمادى الثانية سنة اثنتين وأربعين. فاعتكفت بها شهر رجب وعشرة من شعبان، وانتهيت إلى مواصلة خمسة أيام، أفطرت بعدها على قليل أرز دون إدام. وكنت أقرأ القرآن كل يوم، وأتهجد بما شاء الله. وكنت إذا أكلت الطعام آذانى، فإذا طرحته وجدت الراحة. وأقمت كذلك أربعين يومًا، ثم بعث عنى ثانية.

---

(١) سورة آل عمران: ١٧٣.

ولما كملت لى أربعون يوما بعث إلىّ السلطان خيلاً مسرجة وجوارى وغلمانًا وثيابًا ونفقة، فلبست ثيابه وقصدته. وكانت لى جبة قطن زرقاء مبطنة، لبستها أيام اعتكافى. فلما جردتها ولبست ثياب السلطان أنكرت نفسى. وكنت متى نظرت إلى تلك الجبة أجد نورًا فى باطنى، ولم تزل عندى إلى أن سلبنى الكفار فى البحر. ولما وصلت إلى السلطان زاد فى إكرامى على ما كنت أعهده، وقال لى: إنما بعثت إليك لتتوجه عنى رسولاً إلى ملك الصين. فإنى أعلم حبك فى الأسفار والجولان. فجهزنى بما أحتاج له، وعين للسفر معى من يذكر بعد.

وكان ملك الصين قد بعث إلى السلطان مائة مملوك وجارية وخمسمائة ثوب من الكمخا، منها مائة من التى تصنع بمدينة الزيتون، ومائة من التى تصنع بمدينة الخنسا، وخمسة أمنان من المسك، وخمسة أثواب مرصعة بالجوهر، ومثلها من التراكش مزركشة، ومثلها سيوف. وطلب من السلطان أن يأذن له فى بناء بيت الأصنام بناحية جبل قراجيل المتقدم ذكره، ويعرف الموضع الذى هو به بِسَمْهَل (بفتح السين المهمل وسكون الميم وفتح الهاء). وإليه يحج أهل الصين. وتغلب عليه جيش الإسلام بالهند فخربوه وسلبوه. ولما وصلت هذه الهدية إلى السلطان كتب إليه بأن هذا المطلب لا يجوز فى ملة الإسلام إسعافه، ولا يباح بناء كنيسة بأرض المسلمين إلا لمن يعطى الجزية. فإن رضيت بإعطائها أبحنا لك بناءه والسلام على من اتبع الهدى. وكافأه على هديته بخير منها، وذلك مائة فرس من الجياد مسرجة ملجمة ومائة مملوك ومائة جارية من كفار الهند، مغنيات ورواقص، ومائة ثواب بيرمية، وهى من القطن ولا نظير لها فى الحسن، قيمة الثوب منها مائة دينار، ومائة شقة من ثياب الحرير المعروفة بالْجُز (بضم الجيم وزاى)، وهى التى يكون حرير إحداها مصبوغًا بخمسة ألوان وأربعة، ومائة ثوب من الثياب المعروفة بالصلاحية، ومثلها من الشيرين باف، ومثلها من الشان باف، وخمسمائة ثوب من المرعز، مائة منها سود، ومائة بيض، ومائة حمر، ومائة

خضر، ومـائة زرق، ومائة شقة من الكتان الرومى، ومـائة فضلة من الملف، وسراجة، وست من القباب، وأربع حسك من ذهب، وست حسك من فضة منيلة، وأربعـة طسوت من الذهب ذات أباريق كـمثلهـا، وستة طـسوت من الفضة، وعشـر خلع من ثياب السلطان مزركشة، وعشـر شواش من لباسه، إحداها مرصعة بالجواهر، وعشرة تراكش مزركشة، وأحدها مرصع بالجواهر، وعشرة من السيوف، أحدها مرصع الغمد[1] بالجواهر، ودشت بان (دستبان) وهو قفاز مرصع بالجـواهر، وخمسة عشر من الفتيـان. وعين السلطان للسفر مـعى بهـذه الهـدية الأمـير ظهـيـر الدين الزنجـانى، وهو من فـضـلاء أهل العلم، والفتى كافور الشريداد، وإليه سلمت الهدية، وبعث معنا الأمير محمد الهروى فى ألف فـار.س ليوصلنا إلى الموضع الذى نركب منه البحـر. وتوجه صحبتنا أرسال ملك الصين: وهم خمسة عشر رجلاً، يسمى كبيرهم ترسى، وخدامهم نحو مـائة رجل. وانفصلنا فى جمع كبير ومـحلة عظيمة، وأمر لنا السلطان بالضيافة مدة سفرنا ببلاده.

وكان سفرنا فى السابع عشر لشهر صفر سنة ثلاث وأربعين، وهو اليوم الذى اختاروه للسفر، لأنهم يختارون للسفر من أيام الشهر ثانيه، أو سابعه أو الثانى عشـر أو السابع عشر أو الثـانى والعشرين أو السابع والعـشرين. فكان نزولنا فى أول مـرحلة بمنزل تلبت على مـسافة فـرسخـين وثلث من حـضرة دهلى.

«ورحلنا منها إلى منزل هيلوور»[2] ورحلنا منه إلى مدينة بَيَـانَة (وضبط اسمها بفتح الـباء الموحدة وفتح الياء آخر الحروف مع تخفيـفها وفتح النون)، وهى كبيرة حسنة البناء مليحة الأسـواق، ومسجدها الجامع من أبدع المساجد، وحـيطانه وسقـفه حـجـارة. والأمـيـر بها مظـفر ابن الداية، وأمـه هى داية للسلطان. وكان بها قبله الملك مجيـر ابن أبى الرجاء، أحد كبراء الملوك، وقد

(١) الغمد: غلاف السيف، وجمعه أغماد. الوجيز ص(٤٥٤).
(٢) وفى نسخة: «ورحلنا منه إلى منزل هيلو».

تقدم ذكره، وهو ينتسب إلى قريش وفيه تجبر، وله ظلم كثير. قتل من أهل هذه المدينة جملة، ومثَّل بكثير منهم.

ولقد رأيت من أهلها رجلاً حسن الهيئة قاعدًا فى أسطوان منزله، وهو مقطوع اليدين والرجلين. وقدم السلطان مرة على هذه المدينة، فتشكى الناس من الملك مجير المذكور، فأمر السلطان بالقبض عليه، وجعلت فى عنقه الجامعة وكان يقعد بالديوان بين يدى الوزير، وأهل البلد يكتبون عليه المظالم، فأمره السلطان بإرضائهم، فأرضاهم بالأموال. ثم قتله بعد ذلك. ومن كبار أهل هذه المدينة الإمام العالم عز الدين الزبيرى من ذرية الزبير بن العوام -رضي الله عنه-، أحد كبار الفقهاء الصلحاء. لقيته بكاليور عند الملك عز الدين البنتانى، المعروف بأعظم ملك. ثم رحلنا من بيانة فوصلنا إلى مدينة كُول (وضبط اسمها بضم الكاف) مدينة حسنة ذات بساتين، وأكثر أشجارها العنبا. ونزلنا بخارجها فى بسيط أفيح. ولقينا بها الشيخَ الصالحَ العابدَ شمسَ الدينِ المعروف بابن العارفين، وهو مكفوف البصر معمر، وبعد ذلك سجنه السلطان، ومات فى سجنه، وقد ذكرنا حديثه.

ولما بلغنا إلى مدينة كول، بلغنا أن بعض كفار الهنود حاصروا بلدة الجلالى وأحاطوا بها، وهى على مسافة سبعة أميال من كول. قصدناها والكفار يقاتلون أهلها وقد أشرفوا على التلف، ولم يعلمِ الكفارُ بنا، حتى صدقنا الحملة عليهم، وهم فى نحو ألف فارس، وثلاثة آلاف راجل، فقتلناهم عن آخرهم، واحتوينا على خيلهم وأسلحتهم، واستشهد من أصحابنا ثلاثة وعشرون فارسًا وخمسة وخمسون راجلاً، واستشهد الفتى كافور الساقى الذى كانت الهدية مسلمة بيده. فكتبنا إلى السلطان بخبره، وأقمنا فى انتظار الجواب. وكان الكفار فى أثناء ذلك ينزلون من جبل هنالك منيع، فيغيرون على نواحى بلدة الجلالى. وكان أصحابنا يركبون كلَّ يومٍ مع أمير تلك الناحية ليعينوه على مدافعتهم.

وفى أحد الأيام ركبت فى جماعة من أصحابى، ودخلنا بستانًا نقيل فيه، وذلك فى فصل القيظ. فسمعنا الصياح، فركبنا ولحقنا كفارًا أغاروا على

قرية من قرى الجلالى فاتبعناهم فتفرقوا، وتفرق أصحابنا فى طلبهم. وانفردت فى خمسة من أصحابنا. فخرج علينا جملة من الفرسان والرجال من غيضة هنالك، ففرونا منهم لكثرتهم. واتبعنى نحو عشرة منهم، ثم انقطعوا عنى إلا ثلاثة منهم. ولا طريق بين يدى، وتلك الأرض كثيرة الحجارة. فنشبت يد فرسى بين الحجارة فنزلت عنه، واقتلعت يده، وعدت إلى ركوبه. والعادة بالهند أن يكون مع الإنسان سيفان أحدهما معلق بالسراج ويسمى الركابى والآخر فى التركش. فسقط سيفى الركابى من غمده، وكانت حليته ذهبًا، فنزلت فأخذته وتقلدته وركبت، وهم فى إثرى. ثم وصلت إلى خندق عظيم فنزلت ودخلت فى جوفه فكان آخر عهدى بهم.

ثم خرجت إلى واد فى وسط شجراء ملتفة فى وسطها طريق. فمشيت عليها ولا أعرف منتهاها، فبينا أنا فى ذلك خرج على نحو أربعين رجلاً من الكفار بأيديهم القسى فأحدقوا بى، وخفت أن يرمونى رمية رجل واحد إن فررت منهم. وكنت غير متدرع، فألقيت بنفسى إلى الأرض، واستأسرت. وهم لا يقتلون من فعل ذلك، فأخذونى وسلبونى جميع ما على، غير جبة وقميص وسروال، ودخلوا بى إلى تلك الغابة، فانتهوا بى إلى موضع جلوسهم منها على حوض ماء بين تلك الأشجار، وأتونى بخبز ماش وهو الجلبان فأكلت منه وشربت من الماء. وكان معهم مسلمان، كلمانى بالفارسية، وسألانى عن شأنى، فأخبرتهما ببعضه وكتمتهما[1] أنى من جهة السلطان فقالا لى: لا بد أن يقتلك هؤلاء أو غيرهم، ولكن هذا مقدمهم. وأشاروا إلى رجل منهم، فكلمته بترجمة المسلمين وتلطفت له. فوكل بى ثلاثة منهم، أحدهم شيخ ومعه ابنه والآخر أسود خبيث. وكلمنى أولئك الثلاثة، ففهمت منهم أنهم أمروا بقتلى واحتملونى عشى النهار إلى كهف. وسلط الله على الأسود منهم حمى مرعدة، فوضع رجليه على، ونام الشيخ وابنه. فلما أصبح الصباح، تكلموا فيما بينهم، وأشاروا إلى بالنزول معهم إلى الحوض،

---

(١) يعنى: ولم أخبرهما أنى من جهة السلطان.

وفهمـت أنهم يريدون قتلى. فكلمت الشيخ وتلطفت إليـه فرق لى، وقطعت كمى قميصى وأعطيته إياهما، لكى لا يأخذه أصحابه فى إن فررت.

ولما كان عند الظهر سمعنا كـلامًا عند الحوض، فظنوا أنهم أصحابهم. فأشاروا إلى بالنزول مـعهم، فنزلنا ووجدنا قومًا آخرين، فـأشاروا عليهم أن يذهبوا فى صحبتهم فأبوا. وجلس ثلاثتهم أمامى، وأنا مواجه لهم. ووضعوا حبل قنب كان معهم بالأرض، وأنا أنظر إليـهم وأقول فى نفسى، بهذا الحبل يربطونى عند القتل. وأقمت كذلك ساعة، ثم جاء ثلاثة من أصحابهم الذين أخذونى، فتكلموا معهم، وفهمت أنـهم قالوا: لأى شىء ما قتلتموه؟ فأشار الشيخ إلى الأسود، كأنه اعتـذر بمرضه. وكان أحد هؤلاء الثلاثة شابًّا حسن الوجه، فـقال لى: أتريد أن أسرحك؟ فـقلت: نعم. فقال اذهب. فـأخذت الجـبة التى كـانت على فـأعطيـته إياهـا، وأعطانى منيـّرة باليـة عنده وأرانى الطريق، فذهبت وخـفت أن يبدو لهم، فيدركـوننى. فدخلت غيضـة قصب وأخفيت نفسى فيها إلى أن غابت الشمس.

ثم خرجت وسلكت الطريق التى أرانيـها الشاب، فأفـضت بى إلى ماء فشربت منه، وسرت إلى ثلث الليل، فوصـلت إلى جبل، فنمت تحته. فلما أصبحت سلكت الطريق فوصلت ضحىً إلى جبل من الصـخر عالٍ فيه شجر أم غيـلان والسدر، فكنت أجنى النبق فآكله حـتى أثّر الشوك فى ذراعى آثارًا هى باقية حتى الآن.

ثم نزلت من ذلك الجبل إلى أرض مزروعة قطنًا، وبها أشجار الخروع، وهنالك باين، والباين عندهم بئر مـتسعة جدًّا مطوية بالحجارة لها درج ينزل عليـها إلى ورد الماء بعـضـها يكون فى وسطه وجـوانبـه القبـاب من الحجـر والسقائف والمجـالس، ويتفاخر ملوك الـبلاد وأمراؤها بعمارتهـا فى الطرقات التى لا ماء بها، وسنذكر بعض ما رأيناه منه فيما بعد. ولما وصلت إلى الباين شربت منه ووجدت عليه شـيئًا من عساليج الخردل، قـد سقطت لمن غسلها، فأكلت منها، وادخرت باقيها، ونمت تحت شـجرة خروع. فبينما أنا كذلك إذ وردَ البايـنَ نـحوُ أربعين فـارسًا مـدرعين، فـدخل بعضهم إلـى المزرعة. ثم

ذهبوا، وطمس الله أبصارهم دونى. ثم جاء بعدهم نحو خمسين فى السلاح، ونزلوا إلى الباين. وأتى أحدهم إلى الشجرة إزاء الشجرة التى كنت تحتها، فلم يشعر بى، ودخلت إذ ذاك فى مزرعة القطن، وأقمت بها بقية نهارى. وأقاموا على الباين يغسلون ثيابهم ويلعبون. فلما كان الليل هدأت أصواتهم. فعلمت أنهم قد مروا أو ناموا، فخرجت حينئذ، واتبعت أثر الخيل والليل مقمر، وسرت حتى انتهيت إلى باين آخر عليه قبة، فنزلت إليه وشربت من مائه، وأكلت من عساليج الخردل التى كانت عندى، ودخلت القبة فوجدتها مملوءة بالعشب مما يجمعه الطير، فنمت بها. وكنت أحس حركة حيوان فى ذلك العشب أظنه حية فلا أبالى بها لما بى من الجهد. فلما أصبحت سلكت طريقًا واسعة تفضى إلى قرية خربة، وسلكت سواها، فكانت كمثلها. وأقمت كذلك أيامًا، وفى بعضها وصلت إلى أشجار ملتفة، بينها حوض ماء، وداخلها شبه بيت، وعلى جوانب الحوض نبات الأرض كالنجيل وغيره. فأردت أن أقعد هنالك حتى يبعث الله من يوصلنى إلى العمارة. ثم إنى وجدت يسير قوة، فنهضت على طريق وجدت بها أثر البقر، ووجدت ثورًا عليه بردعة ومنجل، فإذا تلك الطريق تفضى إلى قرى الكفار. فاتبعت طريقًا أخرى، فأفضت بى إلى قرية خربة. ورأيت بها أسودين عريانين فخفتهما، وأقمت تحت أشجار هنالك. فلما كان الليل دخلت القرية، ووجدت دارًا فى بيت من بيوتها شبه خابية[1] كبيرة، يصنعونها لاختزان الزرع، وفى أسفلها نقب يسع منه الرجل، فدخلتها ووجدت داخلها مفروشًا بالتبن وفيه حجر جعلت رأسى عليه ونمت. وكان فوقها طائر يرفرف بجناحيه أكثر الليل وأظنه كان يخاف فاجتمعنا خائفين.

وأقمت على تلك الحال سبعة أيام من يوم أسرت، وهو يوم السبت. وفى السابع منها وصلت إلى قرية للكفار عامرة، وفيها حوض ماء ومنابت خضر فسألتهم الطعام فأبوا أن يعطونى، فوجدت جماعة كفار لهم طليعة،

(١) الخابية: وعاء الماء الذى يحفظ فيه، وجمعه: الخوابى. الوجيز ص(١٨٣).

فدعاني طليعتهم فلم أجبه، وقعدت إلى الأرض. فأتى أحدهم بسيف مسلول(١) ورفعه ليضربني به، فلم ألتفت إليه لعظيم ما بي من الجهد، ففتشني فلم يجد عندي شيئًا، فأخذ القميص الذي كنت أعطيت كميه للشيخ الموكل بي.

ولما كان في اليوم الثامن اشتد بي العطش وعدمت الماء، ووصلت إلى قرية خراب، فلم أجد بها حوضًا. وعادتهم بتلك القرى أن يصنعوا أحواضًا يجتمع بها ماء المطر فيشربون منه جميع السنة. فاتبعت طريقًا، فأفضت بي إلى بئر غير مطوية، عليها حبل مصنوع من نبات الأرض وليس فيه آنية يستقى بها، فربطت خرقة كانت على رأسي في الحبل، وامتصصت ما تعلق بها من الماء، فلم يروني، فربطت خفي واستقيت به فلم يروني، فاستقيت به ثانيًا، فانقطع الحبل ووقع الخف في البئر، فربطت الخف الآخر وشربت حتى رويت، ثم قطعته فربطت أعلاه على رجلي بحبل البئر، وبخرق وجدتها هنالك. فبينا أنا أربطها وأفكر في حالي إذ لاح لي شخص، فنظرت إليه فإذا رجل أسود اللون بيده إبريق وعكاز، وعلى كاهله جراب. فقال لي: سلام عليكم. فقلت له: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته. فقال لي بالفارسية جيكس (جه كسى) معناه: من أنت؟ فقلت له: أنا تائه. فقال لي: وأنا كذلك. ثم ربط إبريقه بحبل كان معي واستقى ماء، فأردت أن أشرب، فقال لي: اصبر، ثم فتح جرابه، فأخرج منه غرفة حمص أسود مقلي مع قليل أرز، فأكلت منه وشربت وتوضأ وصلى ركعتين، وتوضأت أنا وصليت. وسألني عن اسمي. فقلت له: محمد، وسألته عن اسمه فقال لي: القلب الفارح. فتفاءلت بذلك وسررت به. ثم قال لي: بسم الله. ترافقني؟ فقلت: نعم. فمشيت معه قليلاً، ثم وجدت فتورًا في أعضائي، ولم أستطع النهوض فقعدت. فقال لي: ما شأنك؟ فقلت له: كنت قادرًا على المشي قبل أن ألقاك، فلما لقيتك عجزت.

---

(١) يُقال: سل السيف من غمده: أخرجه وانتزعه منه فهو مسلول. الوجيز ص(٣١٩).

فقال: سبحان الله، اركب فوق عنقى. فقلت له: ضعيف، ولا تستطيع ذلك. فقال: يقوينى الله. لا بد لك فركبت على عنقه. وقال لى أكثر من قراءة: حسبنا الله ونعم الوكيل، فأكثرت من ذلك.

وغلبتنى عينى فلم أفق إلا لسقوطى على الأرض. فاستيقظت، ولم أر للرجل أثرًا، وإذا أنا فى قرية عامرة، فدخلتها فوجدتها لرعية الهنود وحاكمها من المسلمين، فأعلموه بى فجاء إلى فقلت له: ما اسم هذه القرية؟ فقال لى: تاج بوره. وبينها وبين مدينة كول حيث أصحابنا فرسخان. وحملنى ذلك الحاكم إلى بيته، وأطعمنى طعامًا سخنًا واغتسلت. وقال لى: عندى ثوب وعمامه أودعهما عند رجل عربى مصرى من أهل المحلة التى بكول. فقلت له: هاتهما ألبسهما إلى أن أصل إلى المحلة. فأتى بهما، فوجدتهما من ثيابى التى كنت قد وهبتها لذلك العربى لما قدمنا كول. فطال تعجبى من ذلك.

وفكرت فى الرجل الذى حملنى على عنقه، فتذكرت ما أخبرنى به ولى الله تعالى أبو عبد الله المرشدى، حسبما ذكرناه فى السفر الأول، إذ قال لى: ستدخل أرض الهند وتلقى بها أخى ويخلصك من شدة تقع فيها. وتذكرت قوله لما سألته عن اسمه فقال: القلب الفارح وتفسيره بالفارسية دلشاد، فعلمت أنه هو الذى أخبرنى بلقائه، وأنه من الأولياء. ولم يحصل لى من صحبته إلا المقدار الذى ذكر، وأتيت تلك الليلة إلى أصحابى بكول معلمًا لهم بسلامتى، فجاءوا إلى بفرس وثياب، واستبشروا بى ووجدت جواب السلطان قد وصلهم، وبعث بفتى يسمى بسنبل الجامدار، عوضًا عن كافور المستشهد، وأمرنا أن نتمادى على سفرنا لما جرى فيها علي وعلى كافور، وهم يريدون أن يرجعوا. فلما رأيت تأكيد السلطان فى السفر أكدت عليهم، وقوى عزمى. فقالوا: ألا ترى ما اتفق فى بداية هذه السفرة؟ والسلطان يعذرك، فلنرجع إليه أو نقيم حتى يصل جوابه. فقلت لهم: لا يمكن المقام، وحيثما كنا أدركنا الجواب. فرحلنا من كول ونزلنا برج بوره، وبه زاوية حسنة، فيها شيخ حسن الصورة والسيرة يسمى بمحمد العريان، لأنه لا يلبس

عليه إلا ثوبًا من سرته إلى أسفل، وباقى جسده مكشوف وهو تلميذ الصالح الولى محمد العريان القاطن بقرافة مصر نفع الله به. وكان من أولياء الله تعالى، قائمًا على قدم التجرد، يلبس تنورة وهو ثوب يستر من سرته إلى أسفل. ويذكر أنه كان إذا صلى العشاء الآخرة أخرج كل ما بقى بالزاوية من طعام وإدام وماء، وفرقه على المساكين، ورمى بفتيلة السراج وأصبح على غير معلوم[١]. وكانت عادته أن يطعم أصحابه عند الصباح خبزًا وفولاً. فكان الخبازون والفوالون يستبقون إلى زاويته، فيأخذ منهم مقدار مايكفى الفقراء، ويقول لمن أخذ منه ذلك: اقعد حتى يأخذ أول ما يفتح به عليه فى ذلك اليوم قليلاً أو كثيرًا. ومن حكاياته أنه لما وصل قازان ملك التتر إلى الشام بعساكره، وملك دمشق ما عدا قلعتها، وخرج الملك الناصر إلى مدافعته، ووقع اللقاء على مسيرة يومين من دمشق، بموضع يقال له: قشجب. والملك الناصر إذ ذلك حديث السن لم يعهد الوقائع. وكان الشيخ العريان فى صحبته فتزل. وأخذ قيدًا فقيد به فرس الملك الناصر لئلا يتزحزح عند اللقاء لحداثة سنه، فيكون ذلك سبب هزيمة المسلمين. فثبت الملك الناصر وهزم التتر هزيمة شنعاء، قتل منهم فيها كثير وغرق كثير بما أرسل عليه من المياه. ولم يعد التتر إلى قصد بلاد الإسلام بعدها. وأخبرنى الشيخ محمد العريان المذكور تلميذ هذا الشيخ أنه حضر هذه الوقيعة وهوحديث السن. ورحلنا من برج بوره ونزلنا على الماء المعروف باب سياه، ثم رحلنا إلى مدينة قِنَوْج (وضبط اسمها بكسر القاف وفتح النون وواو ساكن وجيم) مدينة كبيرة حسنة العمارة حصينة رخيصة الأسعار كثيرة السكر، ومنها يحمل إلى دهلى. وعليها سور عظيم، وقد تقدم ذكرها. وكان بها الشيخ معين الدين الباخرزى، أضافنا بها، وأميرها فيروز البدخشانى من ذرية بهرام جور (جوبين) صاحب كسرى. وسكن بها جماعة من الصلحاء الفضلاء المعروفين بمكارم الأخلاق يعرفون بأولاد شرف جهان، وكان جدهم قاضى القضاة بدولة آباد، وهو من المحسنين المتصدقين، وانتهت الرياسة ببلاد الهند إليه.

(١) يعنى: ويبقى بغير مال ولا زاد.

وقد عزل مرة عن القضاء وكان له أعداء، فادعى أحدهم عند القاضى الذى ولى بعده أن له عشرة آلاف دينار قبله، وكان قصده أن يحلفه. فبعث القاضى له، فقال لرسوله: بِمَ ادعى على؟ فقال: بعشرة آلاف دينار. فبعث إلى مجلس القاضى عشرة آلاف، وسلمت للمدعى. وبلغ خبره السلطان علاء الدين، وصح عنده بطلان تلك الدعوى، فأعاده إلى القضاء، وأعطاه عشرة آلاف. وأقمنا بهذه المدينة ثلاثًا، ووصلنا فيها جواب السلطان فى شأنى بأنه إن لم يظهر لفلان أثر، فيتوجه وجيه الملك قاضى دولة آباد عوضًا منه. ثم رحلنا من هذه المدينة فنزلنا بمنزل هنول ثم بمنزل وزير بور ثم بمنزل البجالصة، ثم وصلنا إلى مدينة مَوْرى (وضبط اسمها فتح الميم وواو وراء) وهى صغيرة، ولها أسواق حسنة. ولقيت بها الشيخَ الصالحَ المعمرَ قطبَ الدينِ المسمى بحيدر الفرغانى، وكان بحال مرض، فدعانى وزودنى رغيف شعير، وأخبرنى أن عمره ينوف على مائة وخمسين، وذكر لى أصحابه أنه يصوم الدهر، ويواصل كثيراً، ويكثر الاعتكاف، وربما أقام فى خلوته أربعين يومًا يقتات فيها بأربعين تمرة، فى كل يوم واحدة. وقد رأيت بدهلى الشيخ المسمى برجب البرقعى دخل الخلوة بأربعين تمرة فأقام بها أربعين يومًا ثم خرج، وفضل معه منها ثلاث عشرة تمرة. ثم رحلنا ووصلنا إلى مدينة مَرْه وضبط اسمها (بفتح الميم وسكون الراء وهاء)، وهى مدينة كبيرة، أكثر سكانها كفار تحت الذمة، وهى حصينة. وبها القمح الطيب الذى ليس مثله بسواها، ومنها يحمل إلى دهلى، وحبوبه طوال شديدة الصفرة ضخمة، ولم أر قمحًا مثله إلا بأرض الصين. وتنسب هذه المدينة إلى المالَوة (بفتح اللام)، وهى قبيلة من قبائل الهنود كبار الأجسام عظام الخلق حسان الصور، لنسائهم الجمال الفائق، وهن مشهورات بطيب الخلوة ووفرة الحظ من اللذة. وكذا نساء المرهتة ونساء جزيرة ذيبة المهل. ثم سافرنا إلى مدينة عَلاَبُور (وضبط اسمها بفتح العين ولام وألف وباء موحدة مضمومة وواو وراء) مدينة صغيرة أكثر سكانها الكفار تحت الذمة، وعلى مسيرة يوم منها سلطان كافر اسمه قَتَم (بفتح القاف والتاء المعلوة) وهو

سلطان جَنْبيل (بفتح الجيم وسكون النون وكسر الباء الموحدة وياء مد ولام) الذى حاصر مدينة كياليرِ وقتل بعد ذلك.

وكـان هذا السلطان الكافـر قد حـاصر مـدينة رابرى، وهى على نهـر اللجون، كـثيرة القـرى والمزارع. وكان أميـرها خطاب الأفغـانى، وهو أحد الشجعان. واستعان السلطان الكافر بسلطان كافر مثله يسمى رَجُو (بفتح الراء وضم الجيم) وبلده يسمى سلطان بور، وحاصـر مدينة رابرى، فبعث خطابٌ إلى السلطان يطلب منه الإعانة، فأبطأ عليه المدد وهـو على مسيرة أربعين من الحضرة، فخاف أن يتغلب الكفار عليه، فجمع من قبيلة الأفغان نحو ثلاثمائة ومثلهم من المماليك، ونحو أربعمـائة من سائر الناس، وجعلوا العـمائم فى أعناق خيلهم، وهى عادة أهل الهند إذا أرادوا الموت وباعـوا نفوسهم من الله تعالى. وتقـدم خطابٌ وقبيلتـه وتبعهم الناس، وفـتحوا البـاب عند الصبح، وحملوا على الكفار حملة واحـدة، وكانوا نحو خمسة عشر ألفًـا، فهزموهم بإذن الله وقتلوا سلطانَيْهم: قـتم ورجو، وبعثوا برأسيـهما إلى السلطان. ولم يَنْجُ من الكفار إلا الشريد.

وكان أمـير عـلابور بدر الحبشى مـن عبيـد السلطان، وهو من الأبطال الذين تضرب بهـم الأمثال، وكـان لا يزال يغير على الكفـار منفردًا بنفـسه، فيقتل ويسبى، حتى شاع خبره واشتهر أمره وهابه الكفار.

وكان طويلاً ضخـمًا يأكل الشاة عن آخرها فى أكلة. وأخـبرت أنه كان يشرب نحو رطل ونصف من السـمن بعد غدائه على عادة الحبـشة ببلادهم، وكان له ابن يدانيـه فى الشجاعة. فاتفق أنه أغـار فى جماعة من عـبيده على قرية للكفـار فوقع به الفرس فى مطمورة، واجـتمع عليه أهل القريـة فضربه أحدهم بقُتَّارة، والقُتَّارة (بقاف معـقود وتاء معلوة) حديدة شبه سكة الحرث، يدخل الرجل يده فيها فتكسوا ذراعه ويفـضل منه مقدار ذراعين، وضربتها لا تبقى، فقتله بتلك الضربة ومات فيها. وقـاتل عبيده أشد القتال، فتغلبوا على القرية وقتلوا رجالها وسبوا نسـاءها وأخرجوا الفرس من المطمورة سالمًا، فأتوا به ولده. فكان من الاتفاق الغريب أنه ركب الفرس وتوجه إلى دهلى، فخرج عليه الكفـار، فقاتلهم حـتى قتل، وعاد الفـرس إلى أصحابه، فدفـعوه إلى

أهله، فركبه صـهر له، فقتله الكفار عليه أيضًا. ثم سافـرنا إلى مدينة كَالِيُور (وضبط اسمها بفتح الكاف المعـقود وكسر اللام وضم الياء آخر الحروف وواو وراء) ويقال فيه أيضًـا: كيالير، وهى مدينة كبيـرة لها حصن منيع منقطع فى رأس شاهق، على بابه صورة فـيل وفيال من الحجارة وقـد مر ذكره فى اسم السلطان قطب الدين. وأمـير هـذه المديـنة أحمـد بن سيـرخان، فاضـل كان يكرمنى أيام إقـامتى عـنده قبل هذه السـفرة، ودخلـت عليه يومًـا وهو يريد توسيط رجل من الكفار، فقلت له: بالله لا تفـعل ذلك، فإنى ما رأيت أحدًا قط يقتل بحضرى، فأمر بسجنه. وكان ذلك سبب خلاصه ورحلنا من مدينة كاليور إلى مدينة بَرْوَن (وضبط اسمهـا بفتح الباء المعقودة وسكون الراء وفتح الواو وآخره نون) مدينة صغيرة للمسلمـين بين بلاد الكفار، أميرها محمد بن بيرم التركى الأصل. والسباع بها كثـيرة، وذكر لى بعض أهلها أن السبع كان يدخل إليها ليلاً، وأبوابهـا مغلقة فيفترس الناس. حتى قتـل من أهلها كثيرًا، وكانوا يعجبون فى شأن دخوله.

وأخبرنى محـمد التوفيرى من أهلها، وكـان جارًا لى بها أنه دخل داره ليلاً وافترس صبيًّا من فوق السرير. وأخبرنى غيره أنه كان مع جماعة فى دار عرس فخرج أحدهم لحـاجة فافترسه أسد فخرج أصـحابه فى طلبه، فوجدوه مطرحًا بالـسوق وقد شـرب دمه، ولم يأكل لحمـه. وذكروا أنه كـذلك فعله بالناس. ومن العـجب أن بعـض الناس أخـبـرنى أن الذى يفـعل ذلك ليس بسبع، وإنما هو آدمى من السحرة المعروفين بالجوكية، يتصور فى صورة سبع. ولما أخبرت بذلك أنكرته، وأخـبرنى جماعة. ولنذكر بعـضًا من أخبار هؤلاء السحرة.

فهؤلاء الطائفة تظهر منهم العجائب، ويروى أن أحدهم يقيم الأشهر لا يأكل ولا يشرب، وكثـير منهم تحفر لهم حفـر تحت الأرض وتبنى عليه، فلا يترك له إلا موضع يدخل منه الهواء، ويقيم بها الشهور. وسمعت أن بعضهم يقيم كذلك سنة. ورأيت بمدينة منجرور رجـلاً من المسلمين ممن يتعلم منهم، قد رفعت له طبلة، وأقـام بأعلاها، لا يأكل ولا يشرب مدة خمسـة وعشرين يوماً، وتركته كذلك، فلا أدرى كم أقام بعدى. والناس يذكرون أنهم يركِّبون

حبوبًا، يأكلون الحبة منها لأيام معلومة وأشهر، فلا يحتاج فى تلك المدة إلى طعام ولا شراب. ويخبرون بأمور مغيبة والسلطان يعظمهم ويجالسهم. ومنهم من يقتصر فى أكله على البقل، ومنهم من لا يأكل اللحم وهم الأكثرون. والظاهر من حالهم أنهم عودوا أنفسهم الرياضة. ولا حاجة لهم فى الدنيا وزينتها. ومنهم من ينظر إلى الإنسان فيقع ميتًا من نظرته وتقول العامة: إنه إذا قتل بالنظر، وشق عن صدر الميت، وجد دون قلب. ويقولون: أكل قلبه. وأكثر ما يكون هذا فى النساء. والمرأة التى تفعل ذلك تسمى كفتار.

ولما وقعت المجاعة العظمى ببلاد الهند بسبب القحط، والسلطان ببلاد التلنك، نفذ أمره أن يعطى لأهل دهلى ما يقوتهم بحساب رطل ونصف للواحد فى اليوم. فجمعهم الوزير ووزع المساكين منهم على الأمراء والقضاة ليتولوا إطعامهم. فكان عندى منهم خمسمائة نفس، فعمرت لهم سقائف فى واد[1]، وأسكنتهم بها. وكنت أعطيتهم نفقتهم خمسة أيام. فلما كان فى بعض الأيام أتونى بامرأة منهم وقالوا: إنها كفتار. وقد أكلت قلب صبى كان إلى جانبها، وأتوا بالصبى ميتًا. فأمرتهم أن يذهبوا بها إلى نائب السلطان، فأمر باختبارها. وذلك بأن ملأوا أربع جرات بالماء وربطوها بيديها ورجليها وطرحوها فى نهر الجون، فلم تغرق. فعلم أنها كفتار، ولو لم تطف على الماء لم تكن بكفتار. فأمر بإحراقها بالنار. وأتى أهل البلد رجالاً ونساء فأخذوا رمادها. وزعموا أنه من تبخّر به أمن فى تلك السنة من سحر كفتار.

وقد بعث إلى السلطان يومًا وأنا عنده بالحضرة، فدخلت عليه وهو فى خلوة، وعنده بعض خواصه ورجلان من هؤلاء الجوكية، وهم يلتحفون بالملاحف، ويغطون رؤوسهم لأنهم ينتفونها بالرماد، كما ينتف الناس آباطهم. فأمرنى بالجلوس فجلست فقال لهما: إن هذا العزيز من بلاد بعيدة فأرياه ما لم يره، فقالا: نعم. فتربع أحدهما، ثم ارتفع عن الأرض حتى

(١) وفى نسخة: «فى دارين».

صار فى الهـواء فوقنا متربعًا. فعجبت منه، وأدركنى الوهم فوقعت على الأرض. فأمر السلطان أن أسقى دواء عنده، فأفقت وقعدت، وهو على حاله متربع. فأخذ صاحبه نعلاً له من شكارة كانت معه فضرب بها الأرض كالمغتاظ فصعدت إلى أن علت فوق عنق المتربع وجعلت تضرب فى عنقه، وهو ينزل قليلاً قليلاً حتى جلس معنا. فقال السلطان: إن المتربع هو تلميذ صاحب النعل. ثم قال: لولا أنى أخاف على عقلك لأمرتهم أن يأتوا بأعظم مما رأيت. فانصرفت عنه، وأصابنى الخفقان(١)، ومرضت، حتى أمر لى بشربة أذهبت ذلك عنى.

ولنعد لما كنا بسبيله فنقول: سافرنا من مدينة برون إلى منزل أموارى ثم منزل كجرا، وبه حوض عظيم طوله نحو ميل، وعليه الكنائس فيها الأصنام، قد مثل بها المسلمون. وفى وسطه ثلاث قباب من الحجارة الحمر على ثلاث طباق، وعلى أركانه الأربعة قباب. ويسكن هنالك جماعة من الجوكية، وقد لبدوا(٢) شعورهم، وطالت، حتى صارت فى طولهم، وغلبت عليهم صفرة الألوان من الرياضة. وكثير من المسلمين يتبعونهم ليتعلموا منهم، ويذكرون أن من كان به عاهة من برص أو جذام يأوى إليهم مدة طويلة فيبرأ بإذن الله تعالى. وأول ما رأيت هذه الطائفة بمحلة السلطان طرمشيرين ملك تركستان، وكانوا نحو الخمسين. فحفر لهم غارًا تحت الأرض، وكانوا مقيمين به لا يخرجون إلا لقضاء حاجة. ولهم شبه القرن يضربونه أول النهار وآخره، وبعد العتمة. وشأنهم كله عجب. ومنهم الرجل الذى صنع للسلطان غياث الدين الدامغانى سلطان بلاد المعبر حبوبًا يأكلها تقويه على الجماع، وكان من أخلاطها برادة الحديد فأعجبه فعلها، فأكل منها أزيد من مقدرات الحاجة فمات. وولى ابن أخيه ناصر الدين فأكرم هذا الجوكى ورفع قدره.

ثم سافرنا إلى مدينة جَنْدِيرى (وضبط اسمها بفتح الجيم المعقود وسكون

---

(١) الخفقان: زيادة عارضة فى سرعة نبضات القلب لانفعال أو إجهاد أو مرض. الوجيز ص(٢٠٥).

(٢) تلبد الشعر والصوف ونحوهما: تداخل ولزق بعضه ببعض. الوجيز ص(٥٤٩).

النون وكسر الدال المهمل وياء مد وراء) مدينة عظيمة لها أسواق حافلة يسكنها أمير أمراء تلك البلاد عز الدين البنتـانى وهو المدعو بأعظم ملك، وكان خيِّرًا فاضـلاً يجالسُ أهلَ العلمِ. وممن كـان يجالسـه الفقـيه عز الديـن الزبيرى، والفقيـه العالم وجيه الدين البيـانى نسبة إلى مدينة بيـانة، التى تقدم ذكرها، والفقيه القاضى المعروف بقاضى خاصة، وإمامهم شمس الدين، وكان النائب عنه على أمور المخـزن يسمى قـمر الدين، ونائبه علـى أمور العسكر سـعادة التلنكى من كبار الشجعان، وبين يديه تعرض العساكر. وأعظم ملك لا يظهر إلا فى يوم الجمعة أو فى غيـرها نادراً. ثم سرنا من جنديرى إلى مدينة ظهار (وضبط اسـمها بكسـر الظاء المعجم)، وهى مـدينة المالوة، أكبر عـمار تلك البلاد، وزرعها كثير، خـصوصًا القمح. ومن هذه المدينة تحمل أوراق التنبول إلى دهلى وبينهما أربعـة وعشرون يومًا، وعلى الطريق بينهما أعـمدة منقوش عليها عـدد الأميال فيمـا بين كل عمودين. فإذا أراد المسافـر أن يعلم عدد ما سـار فى يومه، ومـا بقى له إلى المنزل وإلى المدينة التى يقـصدها قـرأ النقش الذى فى الأعمدة فـعرفه. ومدينة ظهـار إقطاع للشيخ إبراهيم الذى من أهل ذيبة المهل.

وكان الشيخ إبراهيم قدم على هذه المدينة ونزل بخارجـها، فأحيا أرضًا مواتًا هنالك. وصـار يزدرعهـا بطيخًا، فـتأتى فى الغـاية من الحلاوة. وليس بتلك الأرض مثلها. ويزرع الناس بطيـخًا فيما يجاوره فـلا يكون مثله، وكان يطعم الفقـراء والمساكين. فلما قـصد السلطان إلى بلاد المعبـر أهدى إليه هذا الشيخ بطيخًا فقبله واستطابه، وأقطعه مدينة ظهار، وأمره أن يعمر زاوية بربوة يشرف عليها. فعمرها أحـسن عمارة، وكان يطعم بها الوارد والصادر، وأقام على ذلك أعوامًا. ثم قـدم على السلطان وحمل إليه ثلاثة عشـر لكًا، فقال: هذا فضل مما كنت أطعمه الناس، وبيت المال أحق به. فقبضه منه ولـم يعجب السلطان فعله، لكونه جـمع المال ولـم ينفق جميعه فى الـطعام. وبهذه المدينة أراد ابن أخت الوزير خواجه جـهان أن يفتك بخاله، ويسـتولى على أمواله، ويسيـر إلى القائم ببـلاد المعبر. فنمـى خبره إلى خـاله فقبض عـليه، وعلى

جماعة من الأمـراء، وبعثهم إلى السلطان، فقتل الأمـراء، ورد ابن أخته إليه فقتله الوزير.

ولما رد ابن أخت الوزير إليه أمر به أن يقتل كما قتل أصحابه، وكانت له جارية يحبها. فاستحضرها وأطعمـها التنبول وأطعمته، وعانقها مودعًا، ثم طرح للفـيلة، وسلخ جلده وملىء تبنًا. فلمـا كان من الليل، خـرجت الجارية من الدار، فرمت بنفسهـا فى بئر هنالك تقرب من الموضع الذى قتل فيه، فوُجِـدَتْ ميتة من الغد، فأخـرجت ودفن لحمه معها فـى قبر واحد، وسمى قـبور (كور) عاشـقان. وتفسـير ذلك بلسانهم قـبر العاشـقين. ثم سافرنا من مدينة ظهـار إلى مدينة أُجَين (وضبط اسمهـا بضم الهمزة وفتح الجيم وياء ونون) مـدينة حسنة كثيـرة العمارة. وكان يسكنهـا الملك ناصر الدين بن عـين الملك، من الفضـلاء الكرمـاء العلماء، استشـهد بجـزيرة سندابور حين افـتتاحهـا. وقد زرت قبره هنالك، وسنذكـره. وبهذه المدينة كان سكنى الفقيه الطبيب جمال الدين المغربى الغرناطى الأصل. ثم سافرنا من مدينة أجين إلى مـدينة دولة آباد، وهى المدينة الضخمة العظيـمة الشأن الموازية لحضرة دهلى، فى رفعة قدرها واتسـاع خطتها. وهى منقسمة ثلاثة أقسام: أحـدها دولة آباد وهو مختص بسكنى السلطان وعسـاكره، والقسم الثانـى اسمه الكَـتكَة (بفتح الكافـين والتاء المعلوة التى بيـنهما)، والـقسم الثالث قلعتها التى لا مثل لها ولا نظـير فى الحصانة وتسمى الدويقير (بضم الدال المهمل وفتح الواو وسكون الياء وقاف مـعقود مكسور وياء مد وراء). وبهذه المدينـة سكنى الخان الأعظم قطلوخـان معلم السلطان وهو أمـيرها، والنائب عن السلطـان بها، وببـلاد صـاغر وبلاد التلـنك وما أضـيف إلى ذلك، وعمالتها مسيرة ثلاثة أشهـر، عامرة كلها لحكمه ونوابه فيها. وقلعة الدويقيـر التى ذكرناها فى قطعـة حجـر فى بسيط من الأرض، قـد نُحتت وبنى بأعلاها يصعد إليهـا بسلم مصنوع من جلود ويرفع ليلاً. ويسكن بها المفردون وهم الزمـاميون بأولادهم. وفيـها سجن أهل الجرائم العظيـمة فى جيوب بهـا. وبها فيران ضخام أعظم من الـقطوط، والقطوط تهرب منها،

ولا تطيق مدافعتها لأنها تغلبها. ولا تصاد إلا بحبل تدار عليها. وقد رأيتها هناك، فعجبت بها.

وأخبرنى الملك خطاب الأفغانى أنه سجن مرة فى جب[1] بهذه القلعة، يسمى جب الفيران. قال: فكانت تجتمع على ليلاً لتأكلنى. فأقاتلها، وألقى من ذلك جهداً. ثم إنى رأيت فى النوم قائلاً يقول لى: اقرأ سورةَ الإخلاصِ مائة ألف مرة، ويفرج الله عنك. قال: فقرأتها. فلما أتممتها أخرجت. وكان سبب خروجى أن ملك مل كان مسجونًا فى جب يجاورنى فمرض. وأكلت الفيران أصابعه وعينيه فمات. فبلغ ذلك السلطان فقال: أخرجوا خطابًا لئلا يتفق له مثل ذلك. وإلى هذه القلعة لجأ ناصرُ الدين بن ملك مل المذكور، والقاضى جلال حين هزمهما السلطان. وأهل بلاد آباد هم قبيل المرهتة الذين خص الله نساءهم بالحسن، وخصوصًا فى الأنوف والحواجب. ولهن من طيب الخلوة والمعرفة بحركات الجماع ما ليس لغيرهن. وكفار هذه المدينة أصحاب تجارة. وأكثر تجارتهم فى الجواهر، وأموالهم طائلة. وهم يسمون الساهة وأحدهم ساه بإهمال السين، وهم الأكارم بديار مصر. وبدولة آباد العنب والرمان. ويثمران مرتين فى السنة. وهى من أعظم البلاد مجبى، وأكبرها خراجًا، لكثرة عمارتها واتساع عمالتها. وأخبرت أن بعضَ الهنود التزم مغارمها وعمالتها جميعًا. وهي كما ذكرناها مسيرة ثلاثة أشهر، بسبعة عشر كروراً، والكرور مائة لك واللَّكُّ مائة ألف دينار. ولكنه لم يفِ بذلك، فبقى عليه بقية، وأخذ ماله وسلخ جلده.

وبمدينة دولة آباد سوق للمغنين والمغنيات تسمى سوق طرب آباد، من أجمل الأَسواق وأكبرها، فيه الدكاكين الكثيرة. كلُّ دكانٍ له باب يفضى إلى دار صاحبه. وللدار باب سوى ذلك. والحانوتُ مزين بالفرش، وفى وسطه شكل مهد كبير، تجلس فيه المغنية أو ترقد، وهى متزينة بأنواع الحلى؛ وجواريها يحركن مهدها. وفى وسط السوق قبة

---

(١) الجُبُّ: البئر الواسعة، وجمعها: أجباب، وجباب. الوجيز ص(٩٠).

عظيمة مفروشة مزخرفة، يجلس فيها أمير المطربين بعد صلاة العصرِ من كلِّ يوم خميس، وبين يديه خدامه ومماليكه. وتأتى المغنيات طائفة بعد أخرى، فيغنين بين يديه ويرقصن إلى وقت المغرب، ثم ينصرف. وفى تلك السوق المساجد للصلاة. ويصلى الأئمة فيها التراويح فى شهر رمضان. وكان بعض سلاطين الكفار بالهند إذا مر بهذه السوق ينزل بقبتها، وتغنى المغنيات بين يديه. وقد فعل ذلك بعض سلاطين المسلمين أيضًا. ثم سافرنا إلى مدينة نَذَرْبار (وضبط اسمها بنون وبذال معجم مفتوحين وراء مسكن وباء موحدة مفتوحة وألف وراء) مدينة صغيرة يسكنها المرهتة، وهم أهل الإتقان فى الصنائع والأطباء والمنجمون. وشرفاء المرهتة هم البراهمة، وهم الكتريون أيضًا. وأكلهم الأرز والخضر ودهن السمسم. ولا يرون بتعذيب الحيوان ولا ذبحه. ويغتسلون للأكل كغسل الجنابة، ولا ينكحون فى أقاربهم إلا فيمن كان بينهم سبعة أجداد. لا يشربون الخمر، وهى عندهم أعظم المعائب. وكذلك هى ببلاد الهند عند المسلمين. ومن شربها من مسلم جلد ثمانين جلدة، وسجن فى مطمورة ثلاثة أشهر، لا تفتح عليه إلا حين طعامه.

ثم سافرنا من هذه المدينة إلى مدينة صَاغَر (وضبط اسمها بفتح الصاد المهمل وفتح الغين المعجم وآخره راء) وهى مدينة كبيرة على نهر كبير يسمى أيضًا صاغر كاسمها. وعليه النواعير والبساتين. فيها العنب والموز وقصب السكر. وأهلُ هذه المدينة أهل صلاح ودين وأمانة. وأحوالهم كلها مرضية. ولهم بساتين فيها الزوايا للوارد والصادر. وكل من يبنى زاوية يحبس البستان عليها، ويجعل النظر فيه لأولاده. فإن انقرضوا عاد النظر للقضاة. والعمارة بها كثيرة. والناس يقصدونها للتبرك بأهلها، ولكونها محررة من المغارم والوظائف.

ثم سافرنا من صاغر المذكورة إلى مدينة كِنْبَاية (وضبط اسمها بكسر الكاف وسكون النون وفتح الباء الموحدة وألف وياء آخر الحروف مفتوحة)

وهى على خور[١] من البحر، وهو شبه الوادى، تدخله المراكب وبه المد والجزر. وعاينت المراكبَ به مُرْسَاةً فى الوحل حين الجَزْر، فإذا كان المد عامت فى الماء. وهذه المدينة من أحسن المدن فى إتقان البناء وعمارة المساجد. وسبب ذلك أن أكثر سكانها التجار الغرباء. فهم أبدًا يبنون بها الديار الحسنة والمساجد العجيبة، ويتنافسون فى ذلك. ومن الديار العظيمة بها دار الشريف السامرى الذى اتفقت لى معه قضية الحلواء، وكذبه ملك الندماء. ولم أر قط أضخمَ من الخشب الذى رأيته بهذه الدار وبابها كأنه باب مدينة. وإلى جانبها مسجد عظيم يعرف باسمه. ومنها دار ملك التاجر الكازرونى، وإلى جانبها مسجده، ومنها دار التاجر شمس الدين كلاه وز[٢] ومعناه خياط الشواشى.

ولما وقع ما قدمناه من مخالفة القاضى جلال الأفغانى أراد شمس الدين المذكور والناخوذة الياس، وكان من كفار أهل هذه المدينة وملك الحكماء الذى تقدم ذكره، على أن يمتنعوا منه بهذه المدينة. وشرعوا فى حفر خندق عليها إذ لا سور لها، فتغلب عليهم ودخلها. واختفى الثلاثةُ المذكورون فى دار واحدة، وخافوا أن يتطلع عليهم. فاتفقوا على أُن يقتلوا أنفسهم فضرب كل واحد منهم صاحبه بقتارة، وذكرنا صفتها، فمات اثنان منهم، ولم يمت ملك الحكماء. وكان من كبار التجار أيضًا بها نجم الدين الجيلانى، وكان حسن الصورة كثير المال، وبنى بها دارًا عظيمة ومسجدًا، ثم بعث السلطان عنه وأمّره عليها وأعطاه المراتب. فكان ذلك سبب تلف نفسه وماله. وكان أمير كنباية حين وصلنا إليها مقبل التلنكى، وهو كبيرُ المنزلةِ عند السلطان. وكان فى صحبته الشيخ زاده الأصبهانى نائبًا عنه فى جميع أموره. وهذا الشيخُ له أموال عظيمةٌ، وعنده معرفةٌ بأمورِ السلطنة. ولا يزال يبعث الأموال إلى بلاده، ويتحيل فى الفرار. وبلغ خبره إلى السلطان، وذكر عنه أنه يروم

(١) الخَوْرُ: المنخفض من الأرض بين مرتفعين. والخور: الخليج أيضًا، والخليج: امتداد من الماء متوغل فى اليابس، أو: النهير يقتطع من النهر الكبير إلى جهة ينتفع به فيها، وجمعه: خُلُج وخلجان. الوجيز ص(٢٠٦، ٢١٤).

(٢) فى نسخة: «كلاه نور»، وفى أخرى: «كلاه دوز».

الهروب. فكتب إلى مقبل أن يبعثه فبعثه على البريد، وأحضر بين يدى السلطان ووكل به. والعادة عنده أنه متى وكل بأحد فقلما ينجو. فاتفق هذا الشيخ مع الموكل به على مال يعطيه إياه، وهربا جميعًا. وذكر لى أحدُ الثقات أنه رآه فى ركن مسجد بمدينة قلهات، وأنه وصل بعد ذلك إلى بلاده، فحصل على أمواله، وأمن مما كان يخافه.

وأضافنا الملك مقبل يومًا بداره، فكان من النادر أن جلس قاضى المدينة، وهو أعور العين اليمنى، وفى مقابلته شريف بغدادى شديد الشبه به فى صورته وعوره، إلا أنه أعور اليسرى. فجعل الشريف ينظر إلى القاضى ويضحك. فزجره القاضى، فقال له: لا تزجرنى، فإنى أحسن منك. قال: كيف ذلك؟ قال: لأنك أعور اليمنى، وأنا أعور اليسرى. فضحك الأمير والحاضرون. وخجل القاضى، ولم يستطع أن يرد عليه. والشرفاء ببلاد الهند معظمون أشد التعظيم.

وكان بهذه المدينة من الصالحين الحاج ناظر من أهل ديار بكر، وسكناه بقبة من قباب الجامع. دخلنا إليه، وأكلنا من طعامه. واتفق له لما دخل القاضى جلال مدينة كنباية حين خلافه، أنه أتاه، وذكر للسلطان أنه دعا له. فهرب لئلا يقتل كما قتل الحيدرى. وكان بها أيضًا من الصالحين التاجر خواجه إسحاق، وله زاوية يطعم فيه الوارد والصادر، وينفق على الفقراء والمساكين. وماله على هذا ينمو ويزيد كثرة.

وسافرنا من هذه المدينة إلى بلد كاوى، وهى على خور فيه المد والجزر وهى من بلاد الرى جالنسى الكافر، وسنذكره. وسافرنا منها إلى مدينة قَنْدَهار (وضبط اسمها بفتح القاف وسكون النون وفتح الدال المهمل وهاء وألف وراء)، وهى مدينة كبيرة للكفار على خور من البحر.

وكان لقندهار سلطان كافر جَالَنْسى (بفتح الجيم واللام وسكون النون وكسر السين المهمل)، وهو تحت حكم الإسلام، ويعطى لملك الهند هدية كل عام. لما وصلنا إلى قندهار خرج إلى استقبالنا، وعظمنا أشد التعظيم، وخرج

عن قصره الناخوذة إبراهيم، له ستة من المراكب مختصة له. ومن هذه المدينة ركبنا البحر في مركب لإبراهيم المذكور تسمى الْجَاكر (بفتح الجيم والكاف المعقودة)، وجعلنا فيه من خيل الهدية سبعين فرسًا، وجعلنا باقيها مع خيل أصحابنا في مركب لأخي إبراهيم المذكور يسمى مَنُورْت (بفتح الميم ونون وواو مد وراء مسكن وتاء معلوة) وأعطانا جالنسى مركبًا جعلنا فيه ظهير الدين وسنبل وأصحابهما، وجهزه لنا بالماء والزاد والعلف. وبعث معنا ولدًا في مركب يسمى العُكَيْرِى (بضم العين المهمل وفتح الكاف وسكون الياء وراء)، وهو شبه الغراب، إلا أنه أوسع منه. وفيه ستون مجذافًا[1]. ويسقف حين القتال حتى لا ينال الجذافين شيء من السهام ولا الحجارة. وكان ركوبي أنا في الجاكر، وكان فيه خمسون راميًا وخمسون من المقاتلة الحبشة، وهم زعماء هذا البحر. وإذا كان بالمركب أحد منهم تحاماه لصوص الهنود وكفارهم. ووصلنا بعد يومين إلى جزيرة بَيْرَم (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة وسكون الياء وفتح الراء)، وهي خالية. وبينها وبين البر أربعة أميال. فنزلنا بها، واستقينا الماء من حوض بها. وسبب خرابها أن المسلمين دخلوها على الكفار فلم تعمر بعد. وكان ملك التجار الذى تقدم ذكره أراد عمارتها، وبنى سورها، وجعل بها المجانيق، وأسكن بها بعض المسلمين.

ثم سافرنا منها ووصلنا في اليوم الثاني إلى مدينة قُوقَة وهي (بضم القاف الأولى وفتح الثانية)، وهي مدينة كبيرة عظيمة الأسواق فرسينا على أربعة أميال منها بسبب الجزر، ونزلت في عشارى مع بعض أصحابي حين الجزر لأدخل إليها، فوحل العشارى في الطين، وبقى بيننا وبين البلد نحو ميل. فكنت لما نزلنا في الوحل أتوكأ على رجلين من أصحابي وخوفني الناس من وصول المد قبل وصولي إليها، وأنا لا أحسن السباحة، ثم وصلت إليها، وطفت بأسواقها، ورأيت بها مسجدًا ينسب للخضر وإلياس -عليهما

---

(١) المجذاف والمجداف: خشبة في رأسها لوح عريض تدفع به السفينة، وجمعه مجاديف. الوجيز ص(٩٥)، (٩٧).

السلام-. صليت به المغرب ووجدت به جماعةً من الفقراء الحيدرية مع شيخ لهم ثم عدت إلى المركب.

وكان لقوقة سلطان يسمى دُنْكُول (بضم الدال المهمل وسكون النون وضم الكاف وواو ولام). وكان يظهر الطاعةَ لملك الهند، وهو فى الحقيقة عاصٍ. ولما أقلعنا عن هذه المدينة ووصلنا بعد ثلاثة أيام إلى جزيرة سَنْدَابُور (وضبط اسمها بفتح السين المهمل وسكون النون وفتح الدال المهمل وألف وباء موحدة وواو مد وراء)، وهى جزيرة فى وسطها ست وثلاثون قرية، ويدور بها خور، وإذا كان الجزر فماؤها عذب طيب، وإذا كان المد فهو ملح أجاج. وفى وسطها مدينتان: إحداهما قديمة من بناء الكفار، والثانية بناها المسلمون عند استفتاحهم لهذه الجزيرة الفتح الأول، وفيها مسجد جامع عظيم يشبه مساجد بغداد عمره الناخوذة حسن والد السلطان جمال الدين محمد الهنورى، وسيأتى ذكره. وذكر عند حضورى معه لفتح هذه الجزيرة الفتح الثانى إن شاء الله. وتجاوزنا هذه الجزيرة لما مررنا بها، وأرسينا على جزيرة صغيرة قريبة من البر، فيها كنيسة وبستان وحوض ماء، ووجد بها أحد الجوكية.

ولما نزلت بهذه الجزيرة الصغرى وجدنا بها جوكية مستندًا إلى حائط بدخانة، وهى بيت الأصنام، وهو فيما بين صنمين منها، وعليه أثر المجاهدة. فكلمناه فلم يتكلم، ونظرنا هل معه طعام، فلم نر معه طعامًا. وفى حين نظرنا، صاح صيحة عظيمة فسقطت عند صياحه جوزة النارجيل بين يديه، ودفعها لنا. فعجبنا من ذلك، دفعنا له دنانير ودراهم فلم يقبلها. وأتيناه بزاد فرده. وكانت بين يديه عباءة من صوف الجمال مطروحة فقلبتها بيدى، فدفعها لى. وكانت بيدى سبحة زيلع فقلبها فى يدى فأعطيته إياها، ففركها بيده وشمها وقبلها، وأشار إلى السماء، ثم إلى سمت القبلة. فلم يفهم أصحابى إشارته، ففهمت أنا عنه أنه أشار أنه مسلم يخفى إسلامه من أهل تلك الجزيرة، ويتعيش من تلك الجوز. ولما ودعناه قبلت يده. فأنكر أصحابى ذلك. ففهم إنكارهم. فأخذ يدى وقبلها وتبسم، وأشار لنا بالانصراف فانصرفنا.

وكنت آخر أصحابى خروجًا، فـجذب ثوبى فرددت رأسى إليه. فأعطانى عشـرة دنانير. فلمـا خرجنا عنه قـال لى أصحـابى: لِمَ جذبك؟ فـقلت لهم: أعطانى هذه الدنانيـر وأعطيت لظهيـر الدين ثلاثة منهـا، ولسنبل ثلاثة، وقلت لهما: الرجل مسلم، ألا ترون كيف أشـار إلى السماء؟ يشير إلى أنه يعرف الله تعالى، وأشار إلى القـبلة، يشير إلى معـرفة الرسول -عليه السلام-، وأَخْذُهُ السبحة يصدق ذلك. فرجعا لما قلت لهما ذلك إلـيه فلم يجداه. وسافرنا تلك الساعة. وبالغد وصلنا إلى مدينـة هِنَوْر (وضبط اسمها بكسـر الهاء وفتح النون وسكون الواو وراء)، وهى على خور كـبير تدخله المراكب الكبـار. والمدينة على نصف مـيل من البحـر. وفى أيام البـشكال، وهو المطر، يشـتد هيـجـان هذا البحـر وطغيانه، فيبقى مدة أربعة أشهر لا يستطيع أحد ركوبه إلا للتصيد فيه. وفى يوم وصولنا إليـها جاءنى أحد الجـوكية من الهنود فى خلوة، وأعطانى ستـة دنانير، وقال لى: البرهمى بعـثها إليك، يعنى الجوكى الذى أعطيته السـبحة. وأعطانى الدنانيـر فأخـذتها منه، وأعطيـته دينارًا منهـا فلم يقبلـه، وانصرف. وأخـبرتُ صاحبىَّ بالقـضية، وقلت لهما: إن شـئتما فخذا نصـيبكما منها، فأبيـا وجعلا يعجـبان من شأنه. وقالا لى: إن الدنـانير الستة التى أعطيـتنا إياها جعلنا معـه مثلها، وتركناها بين الصنمين حيث وجدناها. فطال عجبى من أمره، واحتفلت بتلك الدنانيـر التى أعطانيها. وأهـل مدينة هِنَوْر شافـعية المـذهب، لهم صلاح ودين وجهاد فى الحرب وقـوة، وبذلك عرفوا، حتى أذلهم الزمان بعـد فتحهم لسندابور، وسنذكـر ذلك. ولقـيت من المتعبـدين بهذه المدينـة الشيخ مـحمـد الناقورى، أضافنى بزاويتـه. وكان يطبخ الطعام بيده استقـذارًا للجارية والغلام. ولقيت بها الفقـيه إسماعيل معلم كتـاب الله تعالى وهو ورع حسن الخلق كريم النفس، والقـاضى بها نور الديـن على، والخطيب لا أذكر اسـمه. ونسـاء هذه المدينة وجـميع هذه البلاة السـاحلية لا يلبـسن المخيط، وإنما يلبـسن ثيابًا غـير مخيطة. تحتـزم إحداهن بأحد طرفى الثوب وتجعل باقيـه على رأسها وصدرها. ولهن جـمـال وعـفاف. وتجـعل إحـداهن خُـرْصًا[1] ذهب فى أنفـهـا. ومن

---

(١) الخُرْصُ: الحلقـة من الذهب والفضة، أو: القـرط - الحَلَق - ذو الحبة الواحدة. الوجـيز ص(١٩١).

خصائصهن أنهن جميعًا يحفظن القرآن الكريم. ورأيت بالمدينة ثلاثة عشر مكتبًا لتعليم البنات، وثلاثة وعشرين لتعليم الأولاد. ولم أر ذلك فى سواها. ومعاش أهلها من التجارة فى البحر. ولا زرع لهم. وأهل بلاد المليبار يعطون للسلطان جمال الدين فى كل عام شيئًا معلومًا، خوفًا منه لقوته فى البحر. وعسكره نحو ستة آلاف بين فرسان ورجالة وكان سلطان هنور جمال الدين محمد بن حسن، من خيار السلاطين وكبارهم وهو تحت حكم سلطان كافر يسمى هريب، سنذكره. والسلطان جمال الدين مواظب للصلاة فى الجماعة. وعادته أن يأتى إلى المسجد قبل الصبح، فيتلو فى المصحف حتى يطلع الفجر، فيصلى أول الوقت، ثم يركب إلى خارج المدينة. ويأتى عند الضحى فيبدأ بالمسجد، فيركع فيه ثم يدخل فيه، ثم يدخل إلى قصره. وهو يصوم الأيام البيض[1] وكان أيام إقامتى عنده يدعونى للإفطار معه فأحضر لذلك، ويحضر الفقيه على والفقيه إسماعيل. فتوضع أربعة كراسى صغار على الأرض. فيقعد على أحدها، ويقعد كل واحد منا على كرسى.

وترتيبه أن يؤتى بمائدة نحاس يسمونها خونجة، ويجعل عليها طبق نحاس يسمونه الطَالَم (بفتح الطاء المهمل وفتح اللام)، وتأتى جارية حسنة ملتحفة بثوب حرير، فتقدم قدور الطعام بين يديه، ومعها مغرفة نحاس كبيرة، فتغرف بها من الأرز مغرفة واحدة، وتجعلها فى الطالم، وتصب فوقها السمن، وتجعل مع ذلك عناقيد الفلفل المملوح والزنجبيل الأخضر والليمون المملوح والعنبا، فيأكل الإنسان لقمة، ويتبعها بشىء من تلك الموالح. فإذا تمت الغَرفة التى جعلها فى الطالم غرفت غرفة أخرى من الأرز، وأفرغت دجاجة مطبوخة فى سكرجة، فيؤكل بها الأرز أيضًا. فإذا تمت الغَرفة الثانية، وغرفت وأفرغت لونًا آخر من الدجاج تؤكل به. فإذا

(١) وهى: يوم الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر، وذلك بالتقويم الهجرى.

تمت ألوان الدجاج، أتوا بألوان من السمك، فيـأكلون بها الأرز أيضًا. فإذا فرغت ألوان السمك أتوا بالخـضر مطبوخة بالسمن، والألباب فـيأكلون بها الأرز، فـإذا فـرغ ذلك كلـه أتوا بالكوشـان، وهو اللـبن الرائب، وبهـذا يختمون طعامهم. فإذا وضع علم أنه لم يبق شيء يؤكل بعده. ثم يشربون على ذلك الماء السـخن، لأن الماء البـارد يضـرّ بهم فى فـصل نزول المطر. ولقد أقـمت عند هذا السلطان فى كـرة أخرى أحد عـشر شـهرًا، لم آكل خبزًا، إنمـا طعامهم الأرز. وبقيت أيضًـا بجزائر المهل وسيلان وبلاد المـعبر والمليبـار ثلاث سنين لا آكل فـيها إلا الأرز، حـتى كنت لا أستـسيـغه إلا بالماء. ولبـاس هذا السلطان مـلاحف الحـرير والكتان والـرقاق، يشـد فى وسطه فوطة، ويلتحف ملحفتين: إحـداهما فوق الأخرى. ويقص شعره، ويلف عليه عمامة صغيرة. وإذا ركب لبس قـباء، والتحف بملحفتين فوقه. وتضرب بين يديه طبـول وأبواق يحملها الرجال. وكانت إقـامتنا عنده فى هذه المرة ثلاثة أيام. وزودنا وسافرنا عنه.

وبعد ثلاثة أيام وصلنا إلى بلاد الْمُلَيْـبَار (بضم الميم وفتح اللام وسكون الياء آخر الحروف وفتح الباء الموحدة وألف وراء)، وهى بلاد الفلفل. وطولها مسيرة شهرين على ساحل البحر من سندابور إلى كولم، والطريق فى جميعها بين ظلال الأشجار. وفى كل نصف مـيل بيت من الخشب فيه دكاكـين يقعد عليها كل وارد وصادر من مسلم وكافـر. وعند كل بيت منها بئر يشرب منها ورجل كافر مـوكل بها. فمن كان كـافرًا سقاه فى الأوانى، ومن كـان مسلمًا سقاه فى يديه. ولا يزال يصب له حتى يشير له أن يكف. وعادة الكفار ببلاد المليـبار أن لا يدخل المسلم دورهم، ولا يطعم فى أوانـيهم. فـإن طعم فيـها كسروها وأعطوها للمسلمين. وإذا دخل المسلم مـوضعًا منها لا يكون فيه دار للمسلمين، طبخوا له الطعـام وصبوه له على أوراق الموز وصبوا عليه الإدام، ومـا فضل عنه تأكله الكلاب والطـير. وفى جـميع المنازل بهـذا الطريق ديار المسلميـن ينزل عندهم المسلمون فـيبيـعون منهم جـميع ما يحـتاجـون إليه، ويطبخون لهم الطعام. ولولاهـم لما سافر فيه مسلم. وهذا الطريق الذى ذكرنا أنه مسيـرة شهرين، ليس فيه موضع شـبر فما فوقه دون عـمارة. وكل إنسان

بستانه على حدة وداره فى وسطه. وعلى الجميع حائط خشب. والطريق يمر فى البساتين. فإذا انتهى إلى حائط بستان كان هنالك درج خشب يصعد عليها ودرج آخر ينزل إلى البستان الآخر. هكذا مسيرة الشهرين.

ولا يسافر أحد فى تلك البلاد بدابة، ولا تكون الخيل إلا عند السلطان. وأكثر ركوب أهلها فى دولة على رقاب العبيد أو المستأجرين. ومن لم يستطع أن يركب فى دولة، مشى على قدميه كائنًا من كان. ومن كان له رحل أو متاع من تجارة وسواها اكترى رجالاً يحملونه على ظهورهم، فنرى هنالك التاجر ومعه المائة فما دونها أو فوقها يحملون أمتعته، وبيد كل واحد منهم عود غليظ له زج حديد(١)، وفى أعلاه مخطاف حديد، فإذا أعيا ولم يجد دكّانَةً يستريح عليها، ركز عوده بالأرض، وعلق حمله منه، فإذا استراح أخذ حمله من غير معين، ومضى به. ولم أر طريقًا آمن من هذا الطريق. وهم يقتلون السارق على الجوزة الواحدة. فإذا سقط شىء من الثمار لم يلتقطه أحد، حتى يأخذها صاحبه. وأخبرت أن بعض الهنود مروا على الطريق فالتقط أحدهم جوزة. وبلغ خبره إلى الحاكم، فأمر بعود، فركز فى الأرض وبرى طرفه الأعلى، وأدخل فى لوح خشب حتى برز منه. ومد الرجل على اللوح، وركز فى العود وهو على بطنه حتى خرج من ظهره، وترك عبرة للناظرين. ومن هذه العيدان على هذه الصورة بتلك الطريق كثير ليراها الناس فيتعظوا. ولقد كنا نلقى الكفار بالليل فى هذه الطريق فإذا رأونا تنحوا عن الطريق حتى نجوز. والمسلمون أعزُّ الناسِ بها، غير أنهم كما ذكرنا لا يؤاكلونهم ولا يدخلونهم دورهم. وفى بلاد المليبار اثنا عشر سلطانًا من الكفار. منهم القوى الذى يبلغ عسكره خمسين ألفًا، ومنهم الضعيف الذى عسكره ثلاثة آلاف. ولا فتنة بينهم ألبتة، ولا يطمع القوى منهم فى انتزاع ما بيد الضعيف. وبين بلاد أحدهم وصاحبه باب خشب منقوش فيه اسم الذى هو مبدأ عمالته، ويسمونه باب أمان فلان. وإذا فر مسلم أو كافر بسبب جناية من بلاد أحدهم ووصل إلى باب أمان الآخر أمن على نفسه. ولم يستطع الذى هرب عنه أخذه، وإن كان القوى صاحب العدد والجيوش. وسلاطين

(١) الزُّجُّ: الحديدة التى فى أسفل الرمح. الوجيز ص(٢٨٦).

تلك البلاد يورثون ابن الأخت ملكهم دون أولادهم. ولم أر من يفعل ذلك إلا مسوفة أهل الثلم (اللثام)، وسنذكرهم فيما بعد. وإذا أراد السلطان من أهل بلاد المليبار منع الناس من البيع والشراء أمر بعض غلمانه، فعلق على الحوانيت بعض أغصان الأشجار بأوراقها، فلا يبيع ولا يشترى ما دامت عليها تلك الأغصان.

وشجرات الفلفل شبيهة بدوالى العنب، وهم يغرسونها إزاء النارجيل، فتصعد فيها كصعود الدوالى إلا أنها ليس لها عسلوج، وهو الغزل كما للدوالى. وأوراق شجره تشبه آذان الخيل. بعضها يشبه أوراق العليق، ويثمر عناقيد صغاراً. حبها كحب أبى قنينة، إذا كانت خضراء. وإذا كان أوان الخريف قطفوه وفرشوه على الحصر فى الشمس. كما يصنع بالعنب عند تزبيبه. ولا يزالون يقلبونه حتى يستحكم يبسه، ثم يبيعونه من التجار. والعامة ببلادنا يزعمون أنهم يقلونه بالنار. وبسبب ذلك يحدث فيه التكريش، وليس كذلك، وإنما يحدث ذلك فيه بالشمس. ولقد رأيته بمدينة قالقوط، يصب للكيل، كالذرة ببلادنا. وأول مدينة دخلناها من بلاد المليبار مدينة أبى سَرور (بفتح السين)، وهى صغيرة على خور كبير، كثيرة أشجار النارجيل. وكبير المسلمين بها الشيخ جمعة المعروف بأبى ستة، أحد الكرماء. أنفق أمواله على الفقراء والمساكين حتى نفدت. وبعد يومين منها وصلنا إلى مدينة فاكَنَور (وضبط اسمها بفتح الفاء والكاف والنون وآخره راء) مدينة كبيرة على خور، بها قصب السكر الكثير الطيب الذى لا مثيل له بتلك البلاد. وبها جماعة من المسلمين يسمى كبيرهم بحسين السلاط، وبها قاض وخطيب. وعمر بها حسين المذكور مسجداً لإقامة الجمعة.

وكان سلطان فاكنور كافراً واسمه بَاسَدَو (بفتح الباء الموحدة والسين المهمل والدال المهمل وسكون الواو)، وله نحو ثلاثين مركبًا حربيًّا قائدهم مسلم يسمى لولا، وكان من المفسدين يقطع بالبحر ويسلب التجار. ولما أرسينا على فاكنور، وبعث سلطانها إلينا ولده، فأقام بالمركب كالرهينة،

ونزلنا إليه. فأضافنا ثلاثًا بأحسن ضيافة تعظيمًا لسلطان الهند، وقيامًا بحقه رغبة فيما يستفيده فى التجارة مع أهل مراكبنا. ومن عادتهم هنالك أن كل مركب يمر ببلد فلا بد من إرسائه بها، وإعطائه هدية إلى صاحب البلد، يسمونها حق البندر. ومن لم يفعل ذلك خرجوا فى اتباعه بمراكبهم، وأدخلوه المرسى قهرًا، وضاعفوا عليه المغرم، ومنعوه عن السفر ما شاءوا. وسافرنا منها، فوصلنا بعد ثلاثة أيام إلى مدينة مَنْجَرور (وضبط اسمها بفتح الميم وسكون النون وفتح الجيم وضم الراء وواو وراء ثانية) مدينة كبيرة على خور، يسمى خور الدُنْب (بضم الدال المهمل وسكون النون وباء موحدة)، وهو أكبر خور ببلاد المليبار. وبهذه المدينة ينزل معظم تجار فارس واليمن. والفلفل والزنجبيل بها كثير جدًّا وكان سلطانها أكبر سلاطين تلك البلاد واسمه رَامَ دَوْ (بفتح الراء والميم والدال المهمل وسكون الواو)، وبها نحو أربعة آلاف من المسلمين، يسكنون ربضًا بناحية المدينة. ربما وقعت الحرب بينهم وبين أهل المدينة، فيصلح بينهم لحاجته إلى التجار. وبها قاض من الفضلاء الكرماء شافعى المذهب يسمى بدر الدين المعبرى، وهو يقرىء العلم. صعد إلينا، إلى المركب، ورغب منا فى النزول إلى بلده فقلنا حتى يبعث ولده يقيم بالمركب. فقال: إنما يفعل ذلك سلطان فاكنور، لأنه لا قوة للمسلمين فى بلده. وأما نحن فالسلطان يخافنا. فأبينا عليه إلى أن بعث السلطان ولده، كما فعل الآخر، ونزلنا إليهم. فأكرمونا إكرامًا عظيمًا. وأقمنا عنده ثلاثة أيام، ثم سافرنا إلى مدينة هيلى، فوصلناها بعد يومين (وضبط اسمها بهاء مكسورة وياء مد ولام مكسورة)، وهى كبيرة حسنة العمارة، على خور عظيم تدخله المراكب الكبار. وإلى هذه المدينة تنتهى مراكب الصين. لا تدخل إلا مرساها ومرسى كولم وقالقوط. ومدينة هيلى معظمة عند المسلمين والكفار بسبب مسجدها الجامع، فإنه عظيم البركة مشرق النور. وركاب البحر ينذرون له النذور الكثيرة. وله خزانةُ مال عظيمة تحت نظر الخطيب حسين وحسن الوزان كبير المسلمين. وبهذا المسجد جماعة من الطلبة يتعلمون العلم، ولهم مرتبات من مال المسجد.

وله مطبخة يصنع فيها الطعام للوارد والصادر، ولإطعام الفقراء من المسلمين بها. ولقيت بهذا المسجد فقيهًا صالحًا من أهل مقدشو يسمى سعيدًا، حسن اللقاء والخلق. يسرد الصوم. وذكر أنه جاور بمكة أربع عشرة سنة، ومثلها بالمدينة. وأدرك الأمير بمكة أبا نمى، والأمير بالمدينة منصور ابن جماز، وسافر فى بلاد الهند والصين. ثم سافرنا من هيلى إلى مدينة جُرْفَتَّن (وضبط اسمها بضم الجيم وسكون الراء وفتح الفاء وفتح التاء المعلوة وتشديدها وآخره نون)، وبينها وبين هيلى ثلاثة فراسخ. ولقيت بها فقيهًا من أهل بغداد كبير القدر يعرف بالصرصرى، نسبة إلى بلدة على مسافة عشرة أميال من بغداد فى طريق الكرفة، واسمها كاسم صرصر التى عندنا بالمغرب. وكان له أخ بهذه المدينة كثير المال، له أولاد صغار أوصى إليه بهم. وتركته آخذًا فى حملهم إلى بغداد. وعادة أهل الهند كعادة السودان لا يتعرضون لمال الميت، ولو ترك الآلاف إنما يبقى ماله بيد كبير المسلمين، حتى يأخذه مستحقه شرعًا وكان سلطانها يسمى بِكُوَيل (بضم الكاف على لفظ التصغير)، وهو من أكبر سلاطين المليبار. وله مراكب كثيرة تسافر إلى عمان وفارس واليمن. ومن بلاده فتن وبدفتن، وسنذكرهما. وسرنا من جرفتن إلى مدينة دَهْ فَتَّن (بفتح الدال المهمل وسكون الهاء)، وقد ذكرنا ضبط فتن. وهى مدينة كبيرة على خور، كثيرة البساتين. وبها النارجيل والفلفل والفوفل والتنبول، وبها القلقاص الكثير، ويطبخون به اللحم. وأما الموز فلم أر فى البلاد أكثر منه بها ولا أرخص ثمنًا. وفيها الباين الأعظم، طوله خمسمائة خطوة وعرضه ثلاثمائة خطوة. وهى مطوى بالحجارة الحمر المنحوتة، وعلى جوانبه ثمان وعشرون قبة من الحجر. فى كل قبة أربعة مجالس من الحجر. وكل قبة يصعد إليها على درج حجارة. وفى وسطه قبة كبيرة من ثلاث طبقات، فى كل طبقة أربعة مجالس. وذكر لى أن والد هذا السلطان كويل هو الذى عمر هذا الباين. وبإزائه مسجد جامع للمسلمين، وله أدراج ينزل منها إليه فيتوضأ منه الناس ويغتسلون. وحدثنى الفقيه حسين أن الذى عمر المسجد والباين أيضًا هو أحد أجداد كويل، وأنه كان مسلمًا، ولإسلامه خبرعجيب نذكره.

ورأيت بإزاء الجامع شجرة خضراء تشبه أوراقها أوراق التين، إلا أنها

لينة. وعليها حائط يطيف بها، وعندها محراب صليت فيه ركعتين. واسم هذه الشجرة عندهم دَرَخْت الشهادة ودَرَخْت (بفتح الدال المهمل والراء وسكون الخاء المعجم وتاء معلوة) وأخبرت هنالك أنه إذا كان زمان الخريف من كل سنة، تسقط من هذه الشجرة ورقة واحدة، بعد أن يستحيل لونها إلى الصفرة، ثم إلى الحمرة، ويكون فيها مكتوبًا بقلم القدرة: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وأخبرنى الفقيه حسين وجماعة من الثقات أنهم عاينوا هذه الورقة، وقرأوا المكتوب الذى فيها. وأخبرنى أنه إذا كانت أيام سقوطها قعد تحتها الثقات من المسلمين والكفار، فإذا سقطت أخذ المسلمون نصفها، وجعل نصفها فى خزانة السلطان الكافر، وهم يستشفون بها للمرضى. وهذه الشجرة كانت سبب إسلام جد كويل الذى عمر المسجد والباين. فإنه كان يقرأ الخط العربى. فلما قرأها وفهم ما فيها أسلم وحسن إسلامه. وحكايته عندهم متواترة. وحدثنى الفقيه حسين أن أحد أولاده كفر بعد أبيه وطغى، وأمر باقتلاع الشجرة من أصلها فاقتلعت، ولم يترك لها أثر. ثم نبتت بعد ذلك، وعادت كأحسن مما كانت عليه، وهلك الكافر سريعًا. ثم سافرنا إلى مدينة بدفتن. وهى مدينة كبيرة على خور كبير، وبخارجها مسجد بمقربة من البحر يأوى إليه غرباء المسلمين. لأنه لا مسلم بهذه المدينة. ومرساها من أحسن المراسى، وماؤها عذب، والفوفل بها كثير. ومنها يحمل للهند والصين. وأكثر أهلها براهمة. وهم معظمون عند الكفار، مبغضون فى المسلمين. ولذلك ليس بينهم مسلم.

وقد أخبرت أن سبب تركهم هذا المسجد غير مهدوم، أن أحد البراهمة خرب سقفه ليصنع منه سقفًا لبيته، فاشتعلت النار فى بيته. فأحرق هو وأولاده ومتاعه. فاحترموا هذا المسجد، ولم يتعرض له بسوء بعدها، وخدموه، وجعلوا بخارجه الماء، يشرب منه الصادر والوارد، وجعلوا على بابه شبكة لئلا يدخله الطير. ثم سافرنا من مدينة بدفتن إلى مدينة فَنْدرَينا (وضبط اسمها بفاء مفتوح ونون ساكن ودال مهمل وراء مفتوحة وياء آخر الحروف) مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأسواق. وبها للمسلمين ثلاث

محلات، فى كل محلة مسجد والجامع بها على الساحل، وهو عجيب، له مناظر ومجالس على البحر. وقاضيها وخطيبها رجل من أهل عمان، وله أخ فاضل. وبهذه البلدة تشتو مراكب الصين. ثم سافرنا منها إلى مدينة قالقوط (وضبط اسمها بقافين وكسر اللام وضم القاف الثانى وآخره طاء مهمل)، وهى إحدى البنادر العظام ببلاد المليبار. يقصدها أهل الصين والجاوة وسيلان والمهل وأهل اليمن وفارس. ويجتمع بها تجار الآفاق. ومرساها من أعظم مراسى الدنيا وكان سلطان قالقوط كافرًا يعرف بالسامرى، وهو شيخ مسن يحلق لحيته، كما تفعل طائفة الروم، رأيته بها، وسنذكره إن شاء الله. وأمير التجار بها إبراهيم شاه بندر من أهل البحرين فاضل ذو مكارم، يجتمع إليه التجار، ويأكلون فى سماطه. وقاضيها فخر الدين عثمان فاضل كريم، وصاحب الزاوية بها الشيخ شهاب الدين الكازرونى، وله تعطى النذور التى ينذر بها أهل الهند والصين للشيخ أبى إسحاق الكازرونى نفع الله به. وبهذه المدينة الناخوذة مثقال، الشهير الاسم، صاحب الأموال الطائلة والمراكب الكثيرة لتجارته بالهند والصين واليمن وفارس. ولما وصلنا إلى هذه المدينة، خرج إلينا إبراهيم شاه بندر، والقاضى، والشيخ شهاب الدين، وكبار التجار، ونائب السلطان الكافر المسمى بقلاج، (بضم القاف وآخره جيم) ومعهم الأطبال والأنفار والأبواق والأعلام فى مراكبهم. ودخلنا المرسى فى بروز عظيم ما رأيت مثله بتلك البلاد. فكانت فرحة تتبعها ترحة[1]. وأقمنا بمرساها، وبه يومئذ ثلاثة عشر من مراكب الصين ونزلنا بالمدينة. وجعل كل واحد منا فى دار. وأقمنا ننتظر زمان السفر إلى الصين ثلاثة أشهر، ونحن فى ضيافة الكافر، وبحر الصين لا يسافر فيه إلا بمراكب الصين. ولنذكر ترتيبها.

ومراكب الصين ثلاثة أصناف: الكبار منها تسمى الجنوك، واحدها جُنْك (بجيم معقود مضموم ونون ساكن)، والمتوسطة اسمها الزَّوَ (بفتح الزاى وواو)، والصغار اسم أحدها الككَم (بكافين مفتوحتين). ويكون فى المركب الكبير منها اثنا عشر قلعًا فما دونها إلى ثلاثة، وقلعها من قضبان الخيزران

(١) يُقال: ترِحَ يترَح ترحًا: حزن، فهو ترِح. الوجيز ص(٧٤).

منسوجة كـالحصر لا تحط أبدًا، ويديرونها بحـسب دوران الريح. وإذا أرسوا تركـوها واقفـة فى مهب الريح، ويخـدم فى المركب منهـا ألف رجل، منهم البحـرية ستمـائة، ومنهم أربعمـائة من المقاتلة تكون فـيهم الرماة وأصـحاب الدرق والجرخـية، وهم الذين يـرمون بالنفط. ويتـبع كل مركب كـبير مـنها ثلاثة: النصفى والثلثى والربعى. ولا تصنع هذه المراكب إلا بمدينة الزيتون من الصين، أو بصين كلان، وهى صين الصين. ضخام جدًّا، موصولة بالعرض والطول بمسامـير ضخـام، طول المسمار منـها ثلاثة أذرع. فإذا التـأم الحائطان بهذه الخشب صنعوا على أعلاهما فرش الأسفل، ودفعوهما فى البحر، وأتموا عمله، وتبقى تلك الخـشب والحائطان موالية الماء ينزلون فيغـتسلون ويقضون حـاجـتهم. وعـلى جوانـب تلك الخشـب تكون مـجاذيفـهم، وهى كـبـار كالصوارى، يجتمع على أحدها العشرة والخمسة عشر رجلاً، ويجذفون وقوفًا على أقدامهم. ويجعلون للمركب أربعـة ظهور، ويكون فى البيوت والمصارى والغرف للتجـار، والمصرية منها يكون فيـه البيوت والسنداس، وعليهـا المفتاح يسدها صاحبـها، يحمل معه الجوارى والنساء، وربما كـان الرجل فى مصريته فلا يعرف به غـيره ممن يكون بالمركب، حتى يتلاقيـا إذا وصلا بعض البلاد. والبـحرية يسكنون فـيه أولادهم ويزدرعـون الخضـر والبقـول والزنجبـيل فى أحواض خـشب، ووكيل المركب كأنـه أمير كـبير، وإذا نزل إلى البـر مشت الرماة والحبـشة بالحراب والسيـوف والأطبال والأبواق والأنفار أمـامه. كذلك مدة إقامته. ومن أهل الصين من تكون لـه المراكب الكثيرة، يبعث بها وكلاءه إلى البلاد. وليس فى الدنيا أكثر أموالا من أهل الصين.

ولما حان وقت السفر إلى الصين، جـهز لنا السلطان السامرى جنكًا من الجنوك الثلاثة عشـر التى بمرسى قالقوط. وكان وكيل الجنك يسـمى بسليمان الصفدى الشامى، وبينى وبينه معرفة. فقلت له: أريد مصرية لا يشاركنى فيها أحد، لأجـل الجوارى. ومن عـادتى أن لا أسافر إلا بـهن. فقـال: إن تجار الصين قد اكـتروا المصارى ذاهبين وراجـعين. ولصهرى مصـرية أعطيكها، لكنها لاسنداس فيها. وعسى أن تمكن معاوضتها. فأمرت أصحابى فأوسقوا

ما عندى من المتاع، وصعد العبيد والجوارى إلى الجنك، وذلك فى يوم الخميس. وأقمت لأصلى الجمعة وألحق بهم. وصعد الملك سنبل وظهير الدين مع الهدية. ثم إن فتى لى يسمى بهلال أتانى غدوة الجمعة فقال: إن المصرية التى أخذناها بالجنك ضيقة لا تصلح، فذكرت ذلك للناخوذة، فقال: ليس فى ذلك حيلة، فإن أحببت أن تكون فى الككم ففيه المصارى على اختيارك. فقلت: نعم. وأمرت أصحابى، فنقلوا الجوارى والمتاع إلى الككم. واستقروا به قبل صلاة الجمعة. وعادة هذا البحر أن يشتد هيجانه كل يوم بعد العصر، فلا يستطيع أحد ركوبه. وكانت الجنوك قد سافرت، ولم يبق منها إلا الذى فيه الهدية، وجنك عزم أصحابه على أن يشتوا بفندرينا، والككم المذكور، فبتنا ليلة السبت على الساحل، لا نستطيع الصعود إلى الككم، ولا يستطيع من فيه النزول إلينا. ولم يكن بقى معى إلا بساط أفترشه. وأصبح الجنك والككم يوم السبت على بعد من المرسى. ورمى البحر بالجنك الذى كان أهله يريدون فندرينا، فتكسر. ومات بعض أهله، وسلم بعضهم، وكانت فيه جارية لبعض التجار عزيزة فرغب فى إعطاء عشرة دنانير ذهبًا لمن يخرجها. وكانت قد التزمت خشبة فى مؤخر الجنك. فانتدب لذلك بعض البحرية الهرمزيين فأخرجها، وأبى أن يأخذ الدنانير، وقال: إنما فعلت ذلك لله تعالى. ولما كان الليل رمى البحر بالجنك الذى كانت فيه الهدية، فمات جميع من فيه. ونظرنا عند الصباح إلى مصارعهم، ورأيت ظهير الدين قد انشق رأسه، وتناثر دماغه، والملك سنبل قد ضرب مسمار فى أحد صدغيه، ونفد من الآخر. وصلينا عليهما ودفناهما. ورأيت الكافر سلطان قالقوط فى وسطه شقة بيضاء كبيرة قد لفها من سرته إلى ركبته، وفى رأسه عمامة صغيرة، وهو حافى القدمين، والشطر بيد غلام فوق رأسه، والنار توقد بين يديه فى الساحل، وزبانيته يضربون الناس لئلا ينتهبوا ما يرمى البحر. وعادة بلاد المليبار أن كل ما انكسر من مركب يرجع ما يخرج منه للمخزن إلا فى هذا البلد خاصة، فإن ذلك يأخذه أربابه. ولذلك عمرت، وكثر تردد الناس إليها. ولما رأى

أهل الككم ماحدث عن الجنك، رفعوا قلعهم وذهبوا، ومعهم جميع متاعى وغلمانى وجوارى، وبقيت منفرداً على الساحل، ليس معى إلا فتى كنت أعتقته. فلما رأى ما حل بى ذهب عنى، ولم يبق عندى إلا العشرة الدنانير التى أعطانيها الجوكى، والبساط الذى كنت أفترشه. وأخبرنى الناس أن ذلك الككم لا بد له أن يدخل مرسى كولم، فعزمت على السفر إليها، وبينهما مسيرة عشر فى البر أو فى النهر أيضًا لمن أراد ذلك. فسافرت فى النهر، واكتريت رجلاً من المسلمين يحمل لى البساط. وعادتهم إذا سافروا فى ذلك النهر أن ينزلوا بالعشى فيبيتوا بالقرى التى على حافتيه، ثم يعودوا إلى المركب بالغدو. فكنا نفعل ذلك. ولم يكن بالمركب مسلم إلا اكتريته، وكان يشرب الخمر عند الكفار إذا نزلنا، ويعربد على، فيزيد خاطرى. ووصلنا فى اليوم الخامس من سفرنا إلى كُنْجى كَرى (وضبط اسمها بكاف مضموم ونون ساكن وجيم وياء مد وكاف مفتوح وراء مكسور وياء)، وهى بأعلى جبل هنالك. يسكنها اليهود، ولهم أمير منهم، ويؤدون الجزية لسلطان كولم.

وجميع الأشجار التى على هذا النهر أشجار القرفة والبقم، وهى حطبهم هنالك. ومنها كنا نوقد النار لطبخ طعامنا فى ذلك الطريق. وفى اليوم العاشر وصلنا إلى مدينة كَوْلَم (وضبط اسمها بفتح الكاف واللام وبينهما واو)، وهى أحسن بلاد المليبار، وأسواقها حسان، وتجارها يعرفون بالصُّوليين. (بضم الصاد) لهم أموال عريضة، يشترى أحدهم المركب بما فيه، ويوسقه من داره بالسلع. وبها من التجار المسلمين جماعة، كبيرهم علاء الدين الآوجى من أهل آوة، من بلاد العراق. وهو رافضى، ومعه أصحاب له على مذهبه، وهم يظهرون ذلك. وقاضيها فاضل من أهل قزوين. وكبير المسلمين بها محمد شاه بندر، وله أخ فاضل كريم اسمه تقى الدين. والمسجد الجامع بها عجيب، عمره التاجر خواجه مهذب. وهذه المدينة أول ما يوالى الصين من بلاد المليبار. وإليها يسافر أكثرهم. والمسلمون بها أعزة محترمون. وكان سلطان كولم كافراً يعرف بالتيروَرى (بكسر التاء المعلوة وياء مد وراء

وواو مفتوحين وراء مكسورة ويـاء) وهو معظم للمسلمين. وله أحكام شديدة على السراق والدعار(١).

ومما شاهدت بكولم أن بعض الرمـاة العراقيين قتل آخـر منهم، وفر إلى دار الآوجى، وكان له مال كثير، وأراد المسلمـون دفن المقتول، فمنعهم نواب السلطان من ذلك، وقالوا: لا يدفن حـتى تدعوا لنا قاتله فيـقتل به. وتركوه فى تابوته على بابا الآوجى، حتى أنتن وتغيـر. فمكنهم الآوجى من القاتل، ورغب منهم أن يعطيهم أمـواله، ويتركوه حيًّا، فأبوا ذلك وقتلـوه. وحينئذ دفن المقتول.

وأخبرت أن السلطان كـولم ركب يومًا إلى خارجها، وكان طريقـه فيما بين البساتين، ومعه صهره زوج بنته، وهو من أبناء الملوك، فأخذ حبة واحدة من العنبة سقطـت من بعض البساتين. وكان السلطان ينظر إليـه فأمر به عند ذلك، فـوسط، وقسم نصـفين، وصلب نصـفه عن يمـين الطريق، ونصـفه الآخر عن يساره، وقـسمت حبة العنبة نصفـين، فوضع على كل نصف منه نصف منها، وترك هنالك عبرة للناظرين.

ومما اتفق نحـو ذلك بقالقـوط أن ابن أخى النائب عن سلطانهـا غصب سيـفًا لبعض تجـار المسلمين، فشكا بذلـك إلى ابن عمه، فـوعده بالنظر فى أمره، وقـعد على باب داره. فـإذا بابن أخيـه متـقلد ذلك السيف. فـدعاه، فقـال: هذا سـيف المسلم؟ قال: نعم. قـال: اشتـريته منه؟ قـال: لا فقـال لأعوانه: أمسكوه. ثم أمر به. فضربت عنقه بذلك السيف.

وأقمت بكولـم مدة بزاوية الشيخ فخر الدين ابن الشيخ شهاب الدين الكازرونى، شـيخ زاوية قالقـوط، فلم أتعـرف للككم خبـرًا. وفى أثناء مقامى بها، دخل إليها أرسـال ملك الصين الذين كانوا معنا، وكانوا مع أحـد تلك الجنوك، فانكسـر أيضًـا، فكساهم تجـار الصين، وعـادوا إلى بلادهم، ولقـيـتهم بـها بعـد. وأردت أن أعـودَ من كـولم إلى السلطان

---

(١) يعني: الزُّناة.

لأعلمه بما اتفق على الهدية، ثم خفت أن يتعقب فعلى ويقول: لِمَ فارقت الهدية؟ فعزمت على العودة إلى السلطان جمال الدين الهنورى، وأقيم عنده، حتى أتعرف خبر الككم، فعدت إلى قالقوط، ووجدت بها بعض مراكب السلطان. فبعث فيها أميراً من العرب يعرف بالسيد أبى الحسن، وهو من البردداريه، وهم خواص البوابين، بعثه السلطان بأموال يستجلب بها من قدر عليه من العرب من أرض هرمز والقطيف لمحبته فى العرب، فتوجهت إلى هذا الأمير، ورأيته عازمًا على أن يشتو بقالقوط، وحينئذ يسافر إلى بلاد العرب. فشاورته فى العودة إلى السلطان فلم يوافق على ذلك. فسافرت بالبحر من قالقوط، وذلك آخر فصل السفر فيه. فكنا نسير نصف النهار الأول ثم نرسوا إلى الغد. ولقينا فى طريقنا أربعة أجفان غزوية. فخفنا منها ثم لم يتعرضوا لنا بشرٍّ. ووصلنا إلى مدينة هنور، فنزلت إلى السلطان، وسلمت عليه. فأنزلنى بدار، ولم يكن لى خديم. وطلب منى أن أصلى معه الصلوات. فكان أكثر جلوسى فى مسجده. وكنت أختم القرآن كل يوم، ثم كنت أختم مرتين فى اليوم. أبتدئ القراءة بعد صلاة الصبح فأختم عند الزوال، وأجدد الوضوء وأبتدئ القراءة فأختم الختمة الثانية عند الغروب. ولم أزل كذلك مدة ثلاثة أشهر، واعتكفت فيها أربعين يومًا.

وكان السلطان جمال الدين قد جهز اثنين وخمسين مركبًا وسفرته برسم غزو سندابور. كان وقع بين سلطانها وولده خلاف، فكتب ولده إلى السلطان جمال الدين أن يتوجه لفتح سندابور، ويسلم الولد المذكور، ويزوجه السلطان أخته. فلما تجهزت المراكب، ظهر لى أن أتوجه فيها إلى الجهاد. ففتحت المصحف أنظر فيه، فكان فى أول الصفح: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾[1] فاستبشرت بذلك. وأتى السلطان إلى صلاة العصر، فقلت له؛ إنى أريد السفر. فقال: فأنت إذًا تكون أميرهم. فأخبرته

---

(١) سورة الحج: ٤٠.

بماخرج لى فى أول الصفح، فأعجبه ذلك، وعزم على السفر بنفسه. ولم يكن ظهر لـه ذلك من قبل، فركب مركبًا منها، وأنا معه، وذلك فى يوم السبت. فوصلنا عشى الإثنين إلى سندابور، ودخلنا خورها، فوجدنا أهلها مستعدين للحرب، وقد نصبوا المجانيق. فبتنا عليها تلك الليلة. فلما أصبح، ضربت الطبول والأنفار والأبواق، وزحفت المراكب، ورموا عليها بالمجانيق. فلقد رأيت حجراً أصاب بعض الواقفين بمقربة من السطان ورمى أهل المراكب أنفسهم فى الماء، وبأيديهم الترسة والسيوف. ونزل السلطان إلى العكيرى، وهو شبه الشلير، ورميت بنفسى فى الماء فى جملة الناس. وكان عندنا طريدتان مفتوحتا المواخر، فيها الخيل. وهى بحيث يركب الفارس فرسه فى جوفها ويتدرع ويخرج. ففعلوا ذلك. وأذن الله فى فتحها. وأنزل النصر على المسلمين، فدخلنا بالسيف، ودخل معظم الكفار فى قصر سلطانها. فرمينا النار فيه فخرجوا، وقبضنا عليهم. ثم إن السلطان أمنهم، ورد لهم نساءهم وأولادهم، وكانوا نحو عشرة آلاف، وأسكنهم بربض المدينة. وسكن السلطان القصر، وأعطى الديار بمقربة منه لأهل دولته، وأعطانى جارية منهن، تسمى بلكى، فسميتها مباركة. وأراد زوجها فداءها فأبيت، وكسانى فرجية مصرية، وجدت فى خزائن الكافر. وأقمت عنده بسندابور من يوم فتحها، وهو الثالث عشر لجمادى الأولى إلى منتصف شعبان. وطلبت منه الإذن فى السفر، فأخذ على العهد فى العودة إليه. وسافرت إلى هنور، ثم إلى فاكنور، ثم إلى منجرور، ثم إلى هيلى، ثم إلى جرفتن وده فتن وبدفتن وفندرينا وقالقوط، وقد تقدم ذكر جميعها، ثم إلى مدينة الشاليات، (وهى بالشين المعجم وألف ولام وياء آخر الحروف وألف وتاء معلوة)، مدينة من حسان المدن، تصنع بها الثياب المنسوبة لها. وأقمت بها، فطال مقامى، فعدت إلى قالقوط. ووصل إليها غلامان كانا لى بالككم، فأخبرانى أن الجارية التى كانت حاملاً، وبسببها كان غير خاطرى توفيت. وأخذ صاحب الجاوة سائر الجوارى، واستولت الأيدى على المتاع، وتفرق أصحابى إلى الصين والجاوة، وبنجالة فعدت لما تعرفت هذا، إلى هنور ثم إلى سندابور،

فوصلتها فى آخر المحرم، وأقمت بها إلى الثانى من شهر ربيع الآخر. وقدم سلطانهم الكافر الذى دخلنا عليه برسم أخذها، وهرب إليه الكفار كلهم. وكانت عساكر السلطان متفرقة فى القرى، فانقطعوا عنا، وحصرنا الكفار وضيقوا علينا. ولما اشتد الحال خرجت عنها، وتركتها محصورة، وعدت إلى قالقوط، وعزمت على السفر إلى ذيبة المهل، وكنت أسمع بأخبارها. فبعد عشرة أيام من ركوبنا البحر بقالقوط وصلنا جزائر ذيب الْمَهَل، وذيبة على لفظ مؤنث الذيب، والْمَهَل (بفتح الميم والهاء). وهذه الجزائر إحدى عجائب الدنيا، وهى نحو ألفى جزيرة، ويكون منها مائة فما دونها مجتمعات مستديرة كالحلقة، لها مدخل كالباب، لا تدخل المراكب إلا منه. وإذا وصل المركب إلى إحداها فلا بد له من دليل من أهلها يسير به إلى سائر الجزائر. وهى من التقارب بحيث تظهر رؤوس النخل التى بإحداها عند الخروج من الأخرى، فإن أخطأ المركب سمتها، لم يمكنه دخولها، وحملته الريح إلى المعبر أو سيلان. وهذه الجزائر أهلها كلهم مسلمون ذوو ديانة وصلاح. وهى منقسمة إلى أقاليم. على كل إقليم والٍ يسمونه الكردوبى. ومن أقاليمها إقليم بالبور (وهو ببائين معقودتين وكسر اللام وآخره راء)، ومنها كَنَّلُوس (بفتح الكاف والنون مع تشديدها وضم اللام وواو وسين مهمل)، ومنها إقليم المهل، وبه تعرف الجزائر كلها. وبها يسكن سلاطينها، ومنها إقليم تَلاَدِيب (بفتح التاء المعلوة واللام وألف ودال مهمل وباء مد وباء موحدة)، ومنها إقليم كَارايدو (بفتح الكاف وسكون الياء المسفولة وضم الدال المهمل)، ومنها إقليم التَّيْم (بفتح التاء المعلوة وسكون الياء المسفولة)، ومنها إقليم تَلْدُمَّتِى (بفتح التاء المعلوة الأولى واللام وضم الدال المهمل وفتح الميم وتشديدها وكسر التاء الأخرى وياء)، ومنها إقليم هَلْدُمَّتى، وهو مثل اللفظ الذى قبله إلا أن الهاء أوله، ومنها إقليم بَرَوَيْدو (بفتح الباء الموحدة والراء وسكون الياء وضم الدال المهمل وواو)، ومنها إقليم كَنَدْكَل (بفتح الكافين والدال المهمل ولام)، ومنها إقليم مُلوك (بضم الميم)، ومنها إقليم السويد (بالسين المهمل)، وهو أقصاها. وهذه الجزائر كلها لا زرع بها، إلا أن فى إقليم السويد منها زرعًا يشبه أتلسي، ويجلب منه إلى المهل. وإنما أكل أهلها سمك يشبه الليرون،

ويسمونه قُلب الماس (بضم القاف)، ولحمه أحمر، ولا زفر له، إنما ريحه كريح لحم الأنعام، وإذا اصطادوه، قطعوا السمكة منه أربع قطع، وطبخوه يسيرًا، ثم جعلوه فى مكائيل من سعف النخل، وعلقوه للدخان. فإذا استحكم يبسه أكلوه. ويحمل منها إلى الهند والصين واليمن.

ومعظم أشجار هذه الجزائر النارجيل، وهو من أقواتهم مع السمك، وقد تقدم ذكره. وأشجار النارجيل شأنها عجيب. وتثمر النخلة منها اثنى عشر عذقًا فى السنة، يخرج فى كل شهر عذق، فيكون بعضها صغيرًا وبعضها كبيرًا وبعضها يابسًا وبعضها أخضر، هكذا أبدًا. ويصنعون منها الحليب والزيت والعسل، حسبما ذكرنا لك فى السفر الأول. ويصنعون من عسله الحلواء، فيأكلونها مع الجوز اليابس منه. ولذلك كله، وللسمك الذى يغتذون به قوة عجيبة فى الباءة، لا نظير لها. ولأهل هذه الجزائر عجب فى ذلك. ولقد كان لى بها أربع نسوة وجوار سواهن، فكنت أطوف على جميعهن كل يوم، وأبيت عند من تكون ليلتها. وأقمت بها سنة ونصف أخرى على ذلك. ومن أشجارها الجموح(١) والأترج والليمون والقلقاص، وهم يصنعون من أصوله دقيقًا يعملون منه شبه الأطرية، ويطبخونها بحليب النارجيل، وهى من أطيب الطعام. كنت أستحسنها كثيرًا وآكلها.

وأهل هذه الجزائر أهل صلاح وديانة وإيمان صحيح ونية صادقة، أكلهم حلال، دعاؤهم مجاب. وإذا رأى الأنسان أحدهم قال له: الله ربى، ومحمد نبيى، وأنا أمى مسكين. وأبدانهم ضعيفة، ولا عهد لهم بالقتال والمحاربة، وسلاحهم الدعاء. ولقد أمرت مرة بقطع يد سارق بها، فغشى على جماعة منهم كانوا بالمجلس. ولا تطرقهم لصوص الهند، ولا تذعرهم، لأنهم جربوا أن من أخذ لهم شيئًا أصابته مصيبة عاجلة. وإذا أتت أجفان العدو إلى ناحيتهم أخذوا من وجدوا من غيرهم، ولم يتعرضوا لأحد منهم بسوء. وإن أخذ أحد الكفار، ولو ليمونة، عاقبه أمير الكفار وضربه الضرب المبرح، خوفًا من عاقبة ذلك. ولولا هذه لكانوا أهون الناس على قاصدهم بالقتال لضعف

---

(١) وفي نسخة: «الجمون».

بنيتـهم. وفى كل جزيرة من جزائـرهم المساجد الحسنة، وأكثرهم يغـتسلون مرتين فى اليـوم تنظفًا لشـدة الحر بها، وكـثرة العـرق. ويكثرون من الأدهان العطرية كالصندليـة وغيرها، ويتلطخـون بالغالية المجلوبة من مقـدشو. ومن عادتهم أنهم إذا صلوا الصبح أتت كل امرأة إلى زوجها أو ابنها بالمكحلة وماء الورد ودهن الغالية، فـتصقل بشرته، وتزيل الشحوب عن وجـهه. ولباسهم فوط، يشدون الفـوطة منها على أوساطهم عوض السـراويل، ويجعلون على ظهورهم ثياب الوِلْيان (بكسـر الواو وسكون اللام وياء) وهى شبه الأحاريم. وبعضهم يجعل عمامة، وبعضهم منديلاً صغيرًا عوضًا منها. وإذا لقى أحدهم القاضـى أو الخطيب، وضع ثوبه عن كتـفيـه، وكشف ظهـره، ومضى مـعه كـذلك، حـتى يصل إلى منزله. ومن عـوائدهم أنه إذا تـزوج الرجل منهم، ومـضى إلى دار زوجـتـه، بسطت له ثيـاب القطـن من باب دارها إلى باب البيت، وجعل عليـها غرفات من الودع عن يمين طريقه إلى البـيت وشماله، وتكون المرأة واقفة عند باب البيت تنتظره. فـإذا وصل إليها رمت على رجليه ثوبًا يأخـذه خدامـه، وإن كانت المرأة هى التى تـأتى إلى منزل الرجل بسطت داره، وجعل فيها الودع، ورمت المرأة عند الـوصول إليه الثوب على رجليه. وكذلك عـادتهم فى السلام على السـلطان عندهم، لا بد من ثوب يرمى عند ذلك، وسنذكره.

وبنيانهم بالخشب، ويجـعلون سطوح البيوت مرتفعـة عن الأرض توقيًا من الرطوبات، لأن أرضهم ندية. وكيفيـة ذلك أن ينحتوا حجارة يكون طول الحجـر منها ذراعين أو ثلاثة، ويجعلـونها صُفوفًـا، ويعرضون عليهـا خشب النارجيل، ثم يصنعـون الحيطان من الخشب. ولهم صناعة عجـيبة فى ذلك، ويبنون فى أسطوان الدار بيتًا يسمونه المالَم (بفتح اللام)، يجلس الرجل به مع أصحـابه، ويكون له بابان: أحدهمـا إلى جهـة الأسطوان يدخل منه الناس، والآخر إلى جـهة الدار يدخل منه صـاحبهـا. ويكون عند هذا البيت خـابية مملوءة ماء، ولها مـستقى، يسمـونه الوَالَنج (بفتح الواو واللام وسكون النون وجيم)، هو من قشر جوز النارجـيل، وله نصاب، طوله ذراعان. وبه يسقون الماء من الآبار لقربهـا. وجميعهم حـفاة الأقدام من رفيع ووضـيع، وأزقتهم

مكنوسة نقية، تظللها الأشجـار. فالماشى بها كأنه فى بستان. ومع ذلك لا بد لكل داخل إلى الدار أن يغسل رجليه بالماء الذى فى الخابيـة بالمالم، ويمسحها بحصيـر غليظ من الليف، يكون هنالك، ثم يدخل بيته. وكـذلك يفعل كل داخل إلى المسجد.

ومن عـوائدهم إذا قدم عليـهم مـركب، أن تخرج إليـه الكنادر، وهى القوارب الصغـار، واحدها كُنْدُرة (بضم الكاف والدال). وفيـها أهل الجزيرة معهم التنبول أو الكرنبة، وهى جوز النارجيل الأخضر، فيعطى الإنسان منهم ذلك لمن شاء من أهل المركب، ويكون نزيله، ويحمل أمـتعته إلى داره، كأنه بعض أقربائه. ومن أراد التزوج من القادمين عليـهم تزوج. فإذا حان سفره، طلق المرأة لأنهن لا يخـرجن عن بلادهن. ومن لم يتزوج، فـالمرأة التى ينزل بدارها، تطبخ له وتخدمه وتزوده إذا سافر، وترضى منه فى مقابلة ذلك بأيسر شىء من الإحسان. وفائدة المخزن، ويسمونه البندر، أن يشترى من كل سلعة بالمركب حظًّا بسوم مـعلوم، سواء كانت السـلعة تساوى ذلك أو أكـثر منه، ويسمونه شرع البندر، ويكون للبندر بيت فى كل جزيرة من الخشب، يسمونه البَجَنْصار (بفتح الباء الموحدة والجـيم وسكون النون وفتح الصاد المهمل وآخره راء)، يجمع به الوالى وهو الكردورى جميع سلعه، ويبيع بها ويشترى. وهم يشترون الفخار إذا جلب إليهم بالدجاج. فتباع عندهم القدر بخمس دجاجات وست، وتحمل المراكب من هذه الجزائر السـمك الذى ذكرناه وجوز النارجيل والفوط والوليان والعمائـم، وهى من القطن، ويحملون منها أوانى النحاس. فإنها عندهم كـثيرة، ويحملون الودع، ويحملون القَنْبَـرَ (بفتح القاف وسكون النون وفتح الباء الموحدة والراء)، وهو ليـف جوز النارجيل. وهم يدبغونه[١] فى حفر على الساحل، ثم يضربونه بالمرازب[٢]. ثم تغزله النساء، وتصنع منه الحبـال لخيـاطة المراكب، وتحـمل إلى الصين والهند واليـمن. وهوخيـر من

(١) يُقال: دبغ الجلد يدبُغ دبغًا ودباغًا ودباغة: عالجه بمادة ليلين ويزول ما به من رطوبة ونتن. الوجيز ص(٢٢٠).

(٢) المرازب جمع مِرْزَبَّة، وهى: المطرقة الكبيرة تكسر بها الحجارة. الوجيز ص(٢٦٢).

القنب. وبهذه الحبال تخاط مراكب الهند واليمن، لأن ذلك البحر كثير الحجارة، فإن كان المركب مسمراً بمسامير الحديد صدم الحجارة فانكسر، وإذا كان مخيطًا بالحبال أعطى الرطوبة فلم ينكسر. وصرف أهل الجزائر الودع، وهو حيوان يتلقطونه فى البحر، ويضعونه فى حفر هنالك، فيذهب لحمه، ويبقى عظمه أبيض، ويسمون المائة منه سياه (بسين مهمل وياء آخر الحروف)، ويسمون السبعمائة منه الفال (بالفاء)، ويسمون الاثنى عشر ألفًا منه الكُتّى (بضم الكاف وتشديد التاء المعلوة)، ويسمون المائة ألف منه بُستُو (بضم الباء الموحدة والتاء المعلوة وبينهما سين مهمل)، ويباع بها بقيمة أربعة بساتى بدينار من الذهب، وربما رخص حتى يباع عشر بساتى منه بدينار. ويبيعونه من أهل بنجالة بالأرز، وهو أيضًا صرف أهل بلاد بنجالة. ويبيعونه من أهل اليمن، فيجعلونه عوض الرمل فى مراكبهم. وهذا الودع أيضًا هو صرف السودان فى بلادهم، رأيته يباع بمالى وجوجو بحساب ألف وخمسين للدينار الذهبى.

ونساؤها لا يغطين رؤوسهن، ولا سلطانتهم تغطى رأسها. ويمشطن شعورهن، ويجمعنها إلى جهة واحدة. ولا يلبس أكثرهن إلا فوطة واحدة تسترها من السرة إلى أسفل، وسائر أجسادهن مكشوفة. وكذلك يمشين فى الأسواق وغيرها. ولقد جهدت لما وليت القضاء بها أن أقطع تلك العادة وآمرهن باللباس، فلم أستطع ذلك. وكانت لا تدخل إلى منهن امرأة فى خصومة إلا مسترة الجسد، وما عدا ذلك لم تكن عليه قدرة. ولباس بعضهن قمص زائدة على الفوطة، وقمصهن قصار الأكمام عراضها. وكان لى جوارٍ كسوتهن لباس أهل دهلى يغطين رؤوسهن، فعابهن ذلك أكثر مما زانهن إذ لم يتعودنه. وحليهن الأساور وتجعل المرأة منها جملة فى ذراعيها، بحيث تملأ ما بين الكوع والمرفق، وهى من الفضة. ولا تحمل أساور الذهب إلا نساء السلطان وأقاربه. ولهن الخلاخيل، ويسمونها البَايِل (بباء موحدة وألف وياء آخر الحروف مكسورة)، وقلائد ذهب يجعلنها على صدورهن، ويسمونها البَسْدَر (بالباء الموحدة وسكون السين المهمل وفتح الدال المهمل والراء). ومن

عجيب أفعالهن أنهن يؤجرن أنفسهن للخدمة بالديار على عدد معلوم من خمسة دنانير فما دونها. وعلى مستأجرهن نفقتهن، ولا يرين ذلك عيبًا، ويفعله أكثر بناتهم، فتجد فى دار الإنسان الغنى منهن العشرة والعشرين. وكل ما تكسره من الأوانى يحسب عليها قيمته. وإذا أرادت الخروج من دار إلى دار أعطاها أهل الدار التى تخرج إليها العدد الذى هى مرتهنة فيه، فتدفعه لأهل الدار التى خرجت منها، ويبقى عليها للآخرين. وأكثر شغل هؤلاء المستأجرات غزل القنبر. والتزوج بهذه الجزائر سهل، لنزارة[1] الصداق وحسن معاشرة النساء. وأكثر الناس لا يسمى صداقًا، إنما تقع الشهادة، ويعطى صداق مثلها. وإذا قدمت المراكب تزوج أهلها النساء، فإذا أرادوا السفر طلقوهن، وذلك نوع من نكاح المتعة. وهن لا يخرجن عن بلادهن أبدًا. ولم أر فى الدنيا أحسن معاشرة منهن. ولا تكل المرأة عندهم خدمة زوجها لسواها، بل هى تأتيه بالطعام، وترفعه بين يديه، وتغسل يده، وتأتيه بالماء للوضوء، وتغم رجليه عند النوم. ومن عوائدهن أن لا تأكل المرأة مع زوجها، ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة. ولقد تزوجت بها نسوة، فأكل معى بعضهن بعد محاولة، وبعضهن لم تأكل معى، ولا استطعت أن أراها تأكل، ولا نفعتنى حيلة فى ذلك.

وحدثنى الثقات من أهلها كالفقيه عيسى اليمنى، والفقيه المعلم على، والقاضى عبد الله، وجماعة سواهم، أن أهل هذه الجزائر كانوا كفارًا، وكان يظهر لهم فى كل شهر عفريت من الجن، يأتى ناحية البحر، كأنه مركب مملوء بالقناديل. وكانت عادتهم إذا رأوه، أخذوا جارية بكرًا فزينوها وأدخلوها إلى بدخانة. وهى بيت الأصنام، وكان مبنيًا على ضفة البحر، وله طاق ينظر إليه، ويتركونها هنالك ليلة، ثم يأتون عند الصباح فيجدونها مفتضة ميتة. ولا يزالون فى كل شهر يقترعون بينهم فمن أصابته القرعة أعطى بنته. ثم إنه قدم عليهم مغربى يسمى بأبى البركات البربرى، وكان

---

(١) يعنى: لقلته. والنزر: هو القليل. الوجيز ص(٦١٠).

حافظًا لـلقرآن العظيم، فنزل بدار عـجوز منهم بجـزيرة المهل، فدخل عليـها يومًا، وقـد جمعت أهلـها، وهن يبكين كأنهن فى مـأتم. فاسـتفهـمهن عن شأنهن، فلم يفهمنه. فـأتى ترجمان فأخبره أن العجوز كانـت القرعة عليها، وليس لها إلا بنت واحدة، يقتلها العفـريت. فقال لها أبو البركات: أنا أتوجه عوضًـا من بنتك بالليل. وكـان سُناطًا، لا لحية له، فـاحتـملوه تلك الليلة، وأدخلوه إلى بدخانة، وهو متوضىء. وأقام يتلو القرآن، ثم ظهر له العفريت من الطاق، فـداوم التلاوة، فلمـا كان منـه بحيث يسـمع القراءة غـاص فى البحر. وأصبح المغربى، وهو يتلو على حـاله. فجاءت العجوز وأهلها وأهل الجزيرة، ليسـتخرجوا البنت على عادتـهم فيحرقوها، فـوجدوا المغربى يتلو، فمضوا به إلى ملكهم، وكان يسـمى شَنُورازة (بفتح الشين المعجم وضم النون وواو وراء وألف وزاى وهاء) وأعلموه بخبره، فعـجب، وعرض المغربى عليه الإسلام، ورغـبه فـيه. فقـال له: أقم عندنا إلى الشهـر الآخر، فـإن فعلت كفعلك، ونجوت من العفريت أسلمت. فأقام عندهم. وشرح الله صدر الملك للإسلام فأسـلم قبل تمام الشهر، وأسلم أهله وأولاده وأهل دولتـه. ثم حمل المغربى لما دخـل الشهر إلى بدخـانة، ولم يأت العفـريت، فجعل يـتلو حتى الصباح. وجاء السلطان والناس معه فـوجدوه على حاله من التلاوة، فكسروا الأصنام، وهدمـوا بدخانة، وأسلم أهل الجـزيرة، وبعثـوا إلى سائر الجـزائر فأسلم أهلهـا. وأقام المغربى عندهم مـعظمًا، وتمذهبوا بمذهبه مـذهب الإمام مالك -رضي الله عنه-. وهم إلى هذا العهد يعظمون المغاربة بسببه، وبنى مسجدًا هو معـروف باسمـه، وقرأت على مـقصـورة الجامع منقـوشًا فى الخـشب أسلم السلطان أحمـد شنورازة على يد أبى البركات البربرى المغـربى. وجعل ذلك السلطان ثلث مجابى الجزائر صدقة على أبناء السبـيل إذ كان إسلامه بسببهم، فسمى على ذلـك حتى الآن، وبسبب هذا العفريـت، خرب من هذه الجزائر كثير قبل الإسلام.

ولما دخلناها لم يـكن لى علم بشـأنه. فـبينا أنـا ذات ليلة فى بعض شأنى، إذ سمعت الناس يجهرون بالتهليل والتكبير، ورأيت الأولاد، وعلى رؤوسهم المصاحف، والنساء يضربن فى الطسوت وأوانى النحاس. فعجبت

من فعلهم، وقلت ما شأنكم؟ فقالوا: ألا تنظر إلى البحر؟ فنظرت فإذا مثل المركب الكبير، وكأنه مملوء سرجًا ومشاعل. فقالوا: ذلك العفريت، وعادته أن يظهر مرة فى الشهر. فإذا فعلنا ما رأيت انصرف عنا ولم يضرنا.

ومن عجائبها أن سلطانتها امرأة، وهى خديجة بنت السلطان جلال الدين عمر ابن السلطان صلاح الدين صالح البنجالى. وكان الملك لجدها ثم لأبيها، فلما مات أبوها ولى أخوها شهاب الدين، وهو صغير السن. فتزوج الوزير عبد الله بن محمد الحضرمى أمه، وغلب عليه، وهو الذى تزوج أيضًا هذه السلطانة خديجة بعد وفاة زوجها الوزير جمال الدين، كما سنذكره. فلما بلغ شهاب الدين مبلغ الرجال، أخرج ربيبه الوزير عبد الله، ونفاه إلى جزائر السويد. واستقل بالملك، واستوزر أحد مواليه، ويسمى على كلكى، ثم عزله بعد ثلاثة أعوام، ونفاه إلى السويد. وكان يذكر عن السلطان شهاب الدين المذكورأنه يختلف إلى حرم أهل دولته وخواصه بالليل، فخلعوه لذلك ونفوه إلى إقليم هلدتنى، وبعثوا من قتله بها. ولم يكن بقى من بيت الملك إلا أخواته خديجة الكبرى ومريم وفاطمة، فقدموا خديجة سلطانة، وكانت متزوجة لخطيبهم جمال الدين، فصار وزيراً وغالبًا على الأمر، وقدم ولده محمدًا للخطابة عوضًا منه. ولكن الأوامر إنما تنفذ باسم خديجة. وهم يكتبون الأوامر فى سعف النخل بحديدة معوجة شبه السكين. ولايكتبون فى الكاغد[1] إلا المصاحف وكتب العلم، ويذكرها الخطيب يوم الجمعة، وغيرها، فيقول: اللهم انصر أمتك التى اخترتها على علم على العالمين، وجعلتها رحمة لكافة المسلمين، ألا وهى السلطانة خديجة بنت السلطان جلال الدين ابن السلطان صلاح الدين. ومن عادتهم إذا قدم الغريب عليهم، ومضى إلى المشور، وهم يسمونه الدار، فلا بد له أن يستصحب ثوبين، فيخدم لجهة هذه السلطانة، ويرمى بأحدهما، ثم يخدم لوزيرها، وهو زوجها جمال الدين، ويرمى بالثانى. وجندها نحو ألف نفر من الغرباء، وبعضهم بلديون. ويأتون

(١) الكاغد: الورق.

كل يوم إلى الدار، فيخدمون وينصرفون. ومرتبهم الأرز يعطاهم من البندر فى كل شهر، فإذا تمّ الشهر أتوا الدار، وخدموا، وقالوا للوزير: بلغ عنا الخدمة، واعلم بأنا أتينا بطلب مرتبنا. فيؤمر لهم به عند ذلك. ويأتى أيضًا إلى الدار كل يوم القاضى وأرباب الخطط، وهم الوزراء عندهم، فيخدمون، ويبلغ خدمتهم الفتيان، وينصرفون.

وهم يسمون الوزير الأكبر النائب عن السلطانة كَلَكى (بفتح الكاف الأولى واللام)، ويسمون القاضى فَنْدَرَيار قَالُواَ (وضبط ذلك بفاء مفتوح ونون مسكن ودال مهمل مفتوح وياء آخر الحروف وألف وراء وقاف وألف ولام مضموم)، وأحكامهم كلها راجعة إلى القاضى، وهو أعظم عندهم من الناس أجمعين، وأمره كأمر السلطان وأشد، ويجلس على بساط فى الدار. وله ثلاث جزائر، يأخذ مجباها لنفسه. عادة قديمة أجراها السلطان أحمد شنورازة. ويسمون الخطيب هَنْديجَرى (بفتح الهاء وسكون الدال وياء مد وجيم مفتوح وراء وياء). ويسمون صاحب الديوان الفَاملدارى (بفتح الفاء والدال المهمل)، واسم صاحب الأشغال مَافاكَلُو (بفتح الميم والكاف وضم اللام)، واسم الحاكم فِتْنَايَك (بكسر الفاء وسكون التاء المعلوة وفتح النون وألف وياء آخر الحروف مفتوحة أيضًا وكاف)، واسم قائد البحر مَانَايَاك (بفتح الميم والنون والياء). وكل من هؤلاء يسمى وزيرًا. ولا سجن عندهم بتلك الجزائر، إنما يحبس أرباب الجرائم فى بيوت خشب، هى معدة لأمتعة التجار، ويجعل أحدهم فى خشبة، كما يفعل عندنا بأسارى الروم.

ولما وصلت إليها نزلت بجزيرة كنلوس، وهى جزيرة حسنة فيها المساجد الكثيرة. ونزلت بدار رجل من صلحائها، وأضافنى بها الفقيه على، وكان فاضلاً، له أولاد من طلبة العلم. ولقيت بها لأجل اسمه محمد من أهل ظفار الحموض، فأضافنى وقال لى: إن دخلت جزيرة المهل أمسكك الوزير بها. فإنهم لا قاضى عندهم. وكان غرضى أن أسافر منها إلى المعبر وسرنديب وبنجالة ثم إلى الصين. وكان قدومى عليها فى مركب الناخوذة عمر الهنورى، وهو من الحجاج الفضلاء.

ولما وصلنا كنلوس أقام بها عشراً، ثم اكترى كندرة يسافر فيها إلى المهل بهدية للسلطانة وزوجهـا، فأردت السفر معه، فـقال: لا تسعك الكندرة أنت وأصحابـك. فإن شئت السفـر منفرداً عنهم فدونك، فأبيت ذلـك، وسافر. فلعبت به الريح، وعـاد إلينا بعد أربعة أيام، وقـد لقى شدائد. فاعـتذر لى، وعزم على فـى السفر مـعه بأصـحابى، فكنا نرحل غـدوة، فننزل فى وسط النهار لبعض الجزائر، ونرحل فنبيت بأخرى.

ووصلنا بعـد أيام إلى إقليم التـيم. وكان الـكردوى يسمى بهـا هلالاً، فسلم علـى وأضافنى، وجاء إلى ومـعه أربعـة رجال، وقد جـعل اثنان منهم عوداً على أكتافـهما، وعلقا منه أربع دجاجات، وجـعل الآخران عوداً مثله، وعلقا منه نحو عـشر من جوز النارجيل. فعجبت من تعظـيمهم لهذا الشىء الحقير. فـأخبرت أنهم صنعوه على جهـة الكرامة والإجلال. ورحلنا عنهم، فنزلنا فى اليوم السـادس بجزيرة عثمان، وهو رجل فـاضل من خيار الناس، فأكرمنا وأضافنا. وفى اليوم الثـامن نزلنا بجزيرة لوزير يقال له التلمذى. وفى اليـوم العاشـر وصلنا إلى جزيرة المهـل، حيث السلطانة وزوجـها. وأرسـينا بمرساها. وعادتهم أن لا ينزل أحد من المرسى إلا بإذنهم. فأذنوا لنا بالنزول، وأردت التوجـه إلى بعض المساجـد فمنعنى الخـدام الذين بالساحـل، وقالوا: لابد من الدخول إلى الوزير.

وكنت أوصيت الناخـوذة أن يقول إذا سئل عنى: لا أعرفـه، خوفاً من إمسـاكهم إياى. ولم أعلم أن بعـض أهل الفضول، قـد كتب إليـهم معـرفاً بخـبرى، وأنى كنت قـاضيًـا بدهلى، فلما وصلت إلى الدار، وهو المـشور، ونزلنا فى سقائف على الباب الثالث منه، وجاء القاضى عيسى اليمنى، فسلم على، وسلمت على الوزير، وجـاء الناخوذة إبراهيم بعـشرة أثواب، فـخدم لجهة السلطانة، ورمى بثوب منها، ثم خدم للوزير، ورمى بثوب آخر، ورمى بجميعها، وسئل عنى فقال: لا أعرفه. ثم أخرجوا التنبول وماء الورد، وذلك هو الكرامة عندهم، وأنزلنا بدار، وبعث إلينا الطعام، وهو قصعـة كبيرة فيها الأرز، وتدور بها صحاف فيها اللحم الخليع والدجاج والسمن والسمك. ولما

كان بالغد مضيت مع الناخوذة والقاضى عيسى اليمنى لزيارة زاوية فى طرف الجزيرة، عمرها الشيخ الصالح نجيب، وعدنا ليلاً. وبعث الوزير إلىَّ صبيحة تلك الليلة كسوة وضيافة، فيها الأرز والسمن والخليع وجوز النارجيل والعسل المصنوع منها، وهم يسمونه القُرْبَانى (بضم القاف وسكون الراء وفتح الباء الموحدة وألف ونون وياء)، ومعنى ذلك ماء السكر. وأتوا بمائة ودعة للنفقة. وبعد عشرة أيام قدم مركب من سيلان فيه فقراء من العرب والعجم يعرفوننى فعرفوا خدام الوزير بأمرى، فزاد اغتباطى. وبعث عنى عند استهلال رمضان، فوجدت الأمراء والوزراء. وأحضر الطعام فى موائد، يجتمع على المائدة طائفة. فأجلسنى الوزير إلى جانبه، ومعه القاضى عيسى، والوزير الفاملدارى، والوزير عمر دهرد، ومعناه مقدم العسكر. وطعامهم الأرز والدجاج والسمن والسمك والخليع والموز المطبوخ، ويشربون بعده عسل النارجيل مخلوطًا بالأفاويه، وهو يهضم الطعام. وفى التاسع من شهر رمضان مات صهر الوزير زوج بنته. وكانت قبله عند السلطان شهاب الدين، ولم يدخل بها أحد منهما لصغرها، فردها أبوها لداره، وأعطانى دارها، وهى من أجمل الدور. واستأذنته فى ضيافة الفقراء القادمين من زيارة القدم فأذن لى فى ذلك، وبعث إلى خمسًا من الغنم، وهى عزيزة عندهم، لأنها مجلوبة من المعبر والمليبار ومقدشو، وبعث الأرز والدجاج والسمن والأبازير. فبعث ذلك كله إلى دار الوزير سليمان مانايك، فطبخ لى بها فأحسن فى طبخه وزاد فيه، وبعث الفرش وأوانى النحاس، وأفطرنا على العادة بدار السلطانة مع الوزير. واستأذنته فى حضور بعض الوزراء بتلك الضيافة، فقال لى: وأنا أحضر أيضًا، فشكرته وانصرفت إلى دارى، فإذا به قد جاء، ومعه الوزراء وأرباب الدولة. فجلس فى قبة خشب مرتفعة. وكان من يأتى من الأمراء والوزراء يسلم على الوزير ويرمى بثوب غير مخيط، حتى اجتمع مائة ثوب أو نحوها، فأخذها الفقراء. وقدم الطعام فأكلوا، ثم قرأ القراء بالأصوات الحسان، ثم أخذوا فى السماع والرقص. وأعدت النار، فكان الفقراء يدخلونها ويطأونها بالأقدام، ومنهم من يأكلها، كما تؤكل الحلواء، إلى أن خمدت.

ولما تمت الليلة انصرف الوزير، ومضيت معه، فمررنا ببستان للمخزن. فقال لى الوزير: هذا البستان لك، وسأعمر لك فيه داراً لسكناك. فشكرت فعله، ودعوت له. ثم بعث لى من الغد بجارية وقال لى خديمه: يقول لك الوزير: إن أعجبتك هذه فهى لك، وإلا بعثت لك جارية مرهتية، وكانت الجوارى المرهتيات تعجبنى، فقلت له: إنما أريد المرهتية، فبعثها لى، وكان اسمها قل استان، ومعناه زهر البستان، وكانت تعرف اللسان الفارسى فأعجبتنى. وأهل تلك الجزائر لهم لسان لم أكن أعرفه، ثم بعث إلى فى غد ذلك بجارية معبرية تسمى عنبرى. ولما كانت الليلة بعدها، جاء الوزير إلى بعد العشاء الأخيرة فى نفر من أصحابه، فدخل الدار، ومعه غلامان صغيران، فسلمت عليه، وسألنى عن حالى، فدعوت له وشكرته فألقى أحد الغلامين بين يديه لقشة (بقشة)، وهى شبه السبنية، وأخرج منها ثياب حرير، وحُقًّا فيه جوهر فأعطانى ذلك، وقال لى: لو بعثته لك مع الجارية، لقالت هو مالى جئت به من دار مولاى، والآن هو مالك، فأعطها إياه. فدعوت له وشكرته، وكان أهلاً للشكر رحمه الله.

وكان الوزير سليمان مانايك قد بعث إلى أن أتزوج بنته، فبعثت إلى الوزير جمال الدين مستأذنًا فى ذلك. فعاد إلى برسول، وقال: لم يعجبه ذلك، وهو يحب أن يزوجك بنته، إذا انقضت عدتها. فأبيت أنا ذلك، وخفت من شؤمها، لأنه مات تحتها زوجان قبل الدخول، وأصابتنى أثناء ذلك حمى مرضت بها. ولا بد كل من يدخل، تلك الجزيرة أن يحم، فقوى عزمى على الرحلة عنه، فبعت بعض الحلى بالودع، واكتريت مركبًا أسافر فيه لبنجالة. فلما ذهبت لوداع الوزير خرج إلىَّ القاضى فقال: الوزير يقول لك: إن شئت السفر، فأعطنا ما أعطيناك وسافر، فقلت له: إن بعض الحلى اشتريت به الودع، فشأنكم وإياه. فعاد إلى فقال: يقول: إنما أعطيناك الذهب ولم نعطك الودع. فقلت له: أنا أبيعه، وآتيكم بالذهب. فبعثت إلى التجار ليشتروه منى، فأمرهم الوزير أن لا يفعلوا. وقصده بذلك كله أن لا أسافر عنه، ثم بعث إلى أحد خواصه وقال:

الوزير يقول لك: أقم عندنا، ولك كل ما أحببت. فقلت فى نفسى: أنا تحت حكمهم، وإن لم أقم مختاراً أقمت مضطراً، فالإقامة باختيارى أولى. وقلت لرسوله: نعم، أنا أقيم معه. فعاد إليه ففرح بذلك، واستدعانى. فلما دخلت إليه قام إلى وعانقنى وقال: نحن نريد قربك، وأنت تريد البعد عنا. فاعتذرت له، فقبل عذرى، وقلت له: إن أردتم مقامى فأنا اشترط عليكم شروطًا. فقال: نقبلها فاشترط. فقلت له: أنا لا أستطيع المشى على قدمى، ومن عادتهم أن لا يركب أحد هنالك إلا الوزير. ولقد كنت لما أعطونى الفرس فركبته، يتبعنى الناس رجالاً وصبيانًا، يعجبون منى حتى شكوت له، فضربت الدنقرة، وبرح فى الناس أن لا يتبعنى أحد، والدُّنْقُرة (بضم الدال المهمل وسكون النون وضم القاف وفتح الراء) شبه الطست من النحاس تضرب بحديدة، فيسمع لها صوت على البعد. فإذا ضربوها حينئذ يبرح فى الناس بما يراد. فقال لى الوزير: إن أردت أن تركب الدولة وإلا فعندنا حصان ورمكة[1]، فاختر أيهما شئت. فاخترت الرمكة. فأتونى بها فى تلك الساعة، وأتونى بكسوة. فقلت له: وكيف أصنع بالودع الذى اشتريته؟ فقال: ابعث أحد أصحابك ليبيعه لك ببنجالة، فقلت له: على أن تبعث أنت من يعينه على ذلك. فقال: نعم. فبعثت حينئذ رفيقى أبا محمد ابن فرحان، وبعثوا معه رجلاً يسمى الحاج عليًّا، فاتفق أن هال[2] البحر، فرموا بكل ما عندهم، حتى الزاد والماء والصارى والقربة. وأقاموا ست عشرة ليلة لا قلع لهم ولا سكان ولا غيره. ثم خرجوا إلى جزيرة سيلان، بعد جوع وعطش وشدائد وقدم علىَّ صاحبى أبو محمد بعد سنة، وقد زار القدم، وزارها مرة ثانية معى.

---

(١) الرَّمَكة - بفتحتين -: الأنثى من البراذين، وجمعها رماك ورمكات وأرماك مثل ثمار وأثمار. والبرذون: يطلق على غير العربى من الخيل والبغال، من الفصيلة الخيلية، عظيم الخلقة، غليظ الأعضاء، قوى الأرجل، عظيم الحوافر، وجمعه براذين. مختار الصحاح ص(٢٥٧)، والوجيز ص(٤٤).

(٢) يعنى: كثرت أمواجه.

ولما تم شهر رمضان بعث الوزير إلى بكسوة، وخرجنا إلى المصلى، وقد زينت الطريق التى يمر الوزير عليها من داره إلى المصلى، وفرشت الثياب فيها، وجعلت كتاتى الودع يمنة ويسرة. وكل من له على طريقه دار من الأمراء والكبار، وقد غرس عندها النخل الصغار من النارجيل وأشجار الفوفل والموز، ومدّ من شجرة إلى أخرى شرائط، وعلق منها الجوز الأخضر. ويقف صاحب الدار عند بابها، فإذا مَرَّ الوزير رمى على رجليه ثوبًا من الحرير أو القطن، فيأخذه عبيده مع الودع الذى يجعل على طريقه أيضًا، والوزير ماشٍ على قدميه، وعليه فرجية مصرية من المرعز، وعمامة كبيرة، وهو متقلد فوطة حرير، وفوق رأسه أربعة شطور، وفى رجليه النعل، وجميع الناس سواه حفاة. والأبواق والأنفار والأطبال بين يديه، والعساكر أمامه وخلفه، وجميعهم يكبرون حتى أتوا المصلى، فخطب ولده بعد الصلاة. ثم أتى بمحفة فركب فيها الوزير وخدم الأمراء والوزراء، ورموا بالثياب على العادة. ولم يكن ركب فى المحفة قبل ذلك، لأن ذلك لا يفعله إلا الملوك. ثم رفعه الرجال، وركبت فرسى، ودخلنا القصر. فجلس بموضع مرتفع، وعنده الوزراء والأمراء، ووقف العبيد بالترسة والسيوف والعصى، ثم أتى بالطعام ثم الفوفل والتنبول، ثم أتى بصحفة صغيرة فيها الصندل المقاصرى. فإذا أكلت جماعة من الناس تلطخوا بالصندل. ورأيت على بعض طعامهم يومئذ حوتًا من السردين مملوحًا غير مطبوخ، أهدى لهم من كولم، وهو فى بلاد المليبار كثير. فأخذ الوزير سردينة وجعل يأكلها. وقال لى: كل منه، فإنه ليس ببلادنا. فقلت: كيف آكله وهو غير مطبوخ؟ فقال: إنه مطبوخ. فقلت: أنا أعرف به، فإنه ببلادى كثير.

وفى الثانى من شوال اتفقت مع الوزير سليمان ماناياك على تزوج بنته، فبعثت إلى الوزير جمال الدين أن يكون عقد النكاح بين يديه بالقصر، فأجاب إلى ذلك، وأحضر التنبول على العادة والصندل، وحضر الناس، وأبطأ الوزير سليمان، فاستدعى، فلم يأتِ، ثم استدعى ثانية، فاعتذر بمرض البنت. فقال لى الوزير سرًّا: إن بنته امتنعت، وهى مالكة أمر نفسها. والناس

قد اجتمعوا فهل لك أن تتزوج بربيبة السلطان زوجة أبيها، وهى التى ولده متزوج بنتها؟ فقلت له: نعم. فاستدعى القاضى والشهود، ووقعت الشهادة، ودفع الوزير الصداق، ورفعت إلى بعد أيام، فكانت من خيار النساء. وبلغ حسن معاشرتها أنها كانت إذا تزوجت عليها تطيبنى وتبخر أثوابى، وهى ضاحكة، لا يظهر عليها تغير. ولما تزوجتها أكرهنى الوزير على القضاء. وسبب ذلك اعتراضى على القاضى، لكونه كان يأخذ العشر من التركات، إذا قسمها على أربابها فقلت له: إنما لك أجرة تتفق بها مع الورثة، ولم يكن يحسن شيئًا فلما وليت، اجتهدت جهدى فى إقامة رسوم الشرع[1]. وليست هنالك خصومات، كما هى ببلادنا. فأول ما غيرت من عوائد السوء مكث المطلقات فى ديار المطلقين. وكانت إحداهن لا تزال فى دار المطلق حتى تتزوج غيره. فحسمت علة ذلك. وأتى إلى بنحو خمسة وعشرين رجلاً ممن فعل ذلك، فضربتهم وشهرتهم بالأسواق، وأخرجت النساء عنهم، ثم اشتددت فى إقامة الصلوات، وأمرت الرجال بالمبادرة إلى الأئمة والأسواق إثر صلاة الجمعة، فمن وجدوه لم يصل ضربته وشهرته. وألزمت الأئمة والمؤذنين أصحاب المرتبات المواظبة على ما هم بسبيله، وكتبت إلى جميع الجزائر بنحو ذلك وجهدت أن أكسو النساء، فلم أقدر على ذلك.

وكنت قد تزوجت ربيبته بنت زوجته، وأحببتها حبًّا شديدًا. ولما بعث الوزير عنه، ورده إلى جزيرة المهل، بعثت له التحف، وتلقيته ومضيت معه إلى القصر فسلم على الوزير، وأنزله فى دار جيدة. فكنت أزوره بها. واتفق أن اعتكفت فى رمضان. فزارنى جميع الناس إلا هو، وزارنى جمال الدين، فدخل هو معه، بحكم الموافقة. فوقعت بيننا الوحشة. فلما خرجت من الاعتكاف شكا إلى أخوال زوجتى ربيبته أولاد الوزير جمال الدين السنجرى، فإن أباهم أوصى عليهم الوزير عبد الله، وأن مالهم باق بيده، وقد خرجوا عن حجره بحكم الشرع، وطلبوا إحضاره بمجلس الحكم، وكانت عادتى إذا بعثت عن خصم من الخصوم، أبعث له قطعة كاغد مكتوبة، فعندما يقف

(١) رسوم الشرع: حدوده وأوامره ونواهيه.

عليها يبادر إلى مجلس الحكم الشرعى، وإلا عاقبته، فبعثت إليه على العادة، فأغضبه ذلك، وحقدها لى، وأضمرعداوتى، ووكل من يتكلم عنه، وبلغنى عنه كلام قبيح. وكانت عادة الناس من صغير وكبير أن يخدموا له كما يخدمون للوزير جمال الدين، وخدمتهم أن يوصلوا السبابة إلى الأرض، ثم يقبلونها ويضعونها على رؤوسهم. فأمرت المنادى فنادى بدار السلطان على رؤوس الأشهاد أنه من خدم للوزير عبد الله كما يخدم للوزير الكبير لزمه العقاب الشديد. وأخذت عليه أن لا يترك الناس لذلك. فزادت عداوته. وتزوجت أيضًا زوجة أخرى، بنت وزير معظم عندهم، كان جده السلطان داودُ حفيد السلطان أحمد شنورازه. ثم تزوجت زوجة كانت تحت السلطان شهاب الدين، وعمرت ثلاث ديار بالبستان الذى أعطانيه الوزير. وكانت الرابعة هى ربيبة الوزير عبد الله تسكن فى دارها، وهى أحبهن إلى فلما صاهرت من ذكرته، هابنى الوزير وأهل الجزيرة، وتخوفوا منى لأجل ضعفهم، وسعوا بينى وبين الوزير بالنمائم، وتولى الوزير عبد الله كبر[1] ذلك حتى تمكنت الوحشة.

واتفق فى بعض الأيام أن عبدًا من عبيد السلطان الذى شكته زوجته إلى الوزير، وأعلمته أنه عند سرية من سرارى السلطان يزنى بها. فبعث الوزير الشهود، ودخلوا دار السرية، فوجدوا الغلام نائمًا معها فى فراش واحد، وحبسوهما. فلما أصبحت وعلمت بالخبر، توجهت إلى المشور، وجلست فى موضع جلوسى، لم أتكلم فى شىء من أمرها. فخرج إلى بعض الخواص فقال: يقول لك الوزير: ألك حاجة؟ فقلت: لا. وكان قصده أن أتكلم فى شأن السرية والغلام. إذ كانت عادتى أن لا تقطع قضية إلا حكمت فيها. فلما وقع التغير والوحشة قصرت فى ذلك. فانصرفت إلى دارى بعد ذلك، وجلست بموضع الأحكام. فإذا ببعض الوزراء، فقال الوزير: يقول لك: إنه وقع البارحة كيت وكيت، لقضية السرية والغلام، فاحكم فيها بالشرع فقلت

(١) الكبر: الإثم الكبير، قال تعالى: ﴿والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾. الوجيز ص(٥٢٥).

له: هذه قضية لا ينبغى الحكم أن يكون فيها إلا بدار السلطان، فعدت إليها واجتمع الناس وأحضرت السرية والغلام، فأمرت بضربهما فى الخلوة، وأطلقت سراح المرأة، وحبست الغلام. وانصرفت إلى دارى، فبعث الوزير إلى جماعة من كبراء ناسه فى شأن تسريح الغلام، فقلت لهم: أتشفعون فى غلام زنجى يهتك حرمة مولاه؟ وأنتم بالأمس خلعتم السلطان شهاب الدين وقتلتموه بسبب دخوله لدار غلام له. وأمرت بالغلام عند ذلك فضرب بقضبان الخيزران، وهى أشد وقعًا من السياط، وشهرته بالجزيرة، وفى عنقه حبل. فذهبوا إلى الوزير فأعلموه. فقام وقعد، واستشاط غضبًا، وجمع الوزراء ووجوه العسكر، وبعث عنى فجئته. وكانت عادتى أن أخدم له، فلم أخدم. وقلت: سلام عليكم. ثم قلت للحاضرين: اشهدوا على أنى قد عزلت نفسى عن القضاء لعجزى عنه. فكلمنى الوزير، فصعدت وقعدت بموضع أقابله فيه، وجاوبته أغلظ جواب. وأذن مؤذن المغرب. فدخل إلى داره وهو يقول: ويقولون إنى سلطان. وها أناذا طلبته لأغضب عليه، فغضب على. وإنما كان اعتزازى عليهم بسبب سلطان الهند، لأنهم تحققوا مكانتى عنده، وإن كانوا على بعد منه، فخوفه فى قلوبهم متمكن. فلما دخلنا إلى داره بعث إلى القاضى المعزول، وكان جرىء اللسان، فقال لى: إن مولانا يقول لك: كيف هتكت حرمته على رؤوس الأشهاد ولم تخدم له؟ فقلت له: إنما كنت أخدم له حين كان قلبى له طيبًا، فلما وقع التغير تركت ذلك، وتحية المسلمين إنما هى السلام، وقد سلمت. فبعثه إلى ثانية فقال: إنما غرضك الرحيل عنا، فأعط صداقات النساء وديون الناس، وانصرف إذا شئت فخدمت له على هذا القول، وذهبت إلى دارى، فخلصت مما على من الدين. وقد أعطانى فى تلك الأيام فرش دار وجهازها من أوانى نحاس وسواها. وكان يعطينى كل ما أطلبه، ويحبنى ويكرمنى، ولكنه غيَّر خاطره، وتخوف منى. فلما عرف أنى قد خلصت الدين وعزمت على الرحيل، ندم على ما قاله، وتلكأ فى الإذن لى فى الرحيل. فحلفت بالأيمان المغلظة أن لابد من رحيلى. ونقلت ما عندى إلى مسجد على البحر، وطلقت إحدى

الزوجات، وكانت إحداهن حاملاً، فجعلت لها أجلاً تسعة أشهر، إن عدت فَبِهَا، وإلا فأمرها بيدها. وحملت معى زوجتى التى كانت امرأة السلطان شهاب الدين لأسلمها لأبيها بجزيرة ملوك، وزوجتى الأولى التى بنتها أخت السلطانة. وتوافقت مع الوزير عمر دهرد، والوزير حسن قائد البحر، على أن أمضى إلى بلاد المعبر. وكان ملكها سلفى فأبى مدها بالعساكر لترجع الجزائر إلى حكمه، وأنوب أنا عنه فيها. وجعلت بينى وبينهم علامة: رفع أعلام بيض فى المراكب. فإذا رأوها ثاروا فى البحر. ولم أكن حدثت نفسى بهذا قط، حتى وقع ما وقع من التغير. وكان الوزير خائفًا منى يقول للناس: لابد لهذا أن يأخذ الوزارة، إما فى حياتى، وإما بعد مماتى. ويكثر السؤال عن حالى، ويقول: سمعت أن ملك الهند بعث إليه الأموال ليثور بها على. وكان يخاف من سفرى لئلا آتى بالجيوش من بلاد المعبر. فبعث إلى أن أقيم حتى يجهز لى مركبًا فأبيت. وشكت أخت السلطانة إليها بسفر أمها معى، فأرادت منعها فلم تقدر على ذلك. فلما رأت عزمها على السفر قالت لها: إن جميع ما عندك من الحلى هو من مال البندر، فإن كان لك شهود بأن جلال الدين وهبه لك، وإلا فرديه، وكان حليًّا له خطر فردته إليهم، وأتانى الوزراء والوجوه، وأنا بالمسجد، وطلبوا منى الرجوع فقلت لهم: لولا أنى حلفت لعدت. فقالوا: تذهب إلى بعض علماء الجزائر ليبر قسمك وتعود. فقلت لهم: نعم، إرضاء لهم. فلما كانت الليلة التى سافرت فيها، أتيت لوداع الوزير فعانقنى وبكى حتى قطرت دموعه على قدمى، وبات تلك الليلة يحرس الجزيرة بنفسه خوفًا أن يثور عليه أصهارى وأصحابى. ثم سافرت ووصلت إلى جزيرة الوزير على. فأصابت زوجتى أوجاع عظيمة، وأحبت الرجوع فطلقتها، وتركتها هنالك، وكتبت للوزير بذلك لأنها أم زوجة ولده، وطلقت التى كنت ضربت لها الأجل. وبحثت عن جارية كنت أحبها، وسرنا فى تلك الجزائر من إقليم إلى إقليم.

وفى بعض تلك الجزائر، رأيتُ امرأةً لها ثدى واحد فى صدرها، ولها ابنتان إحداهما كمثلها ذات ثدى واحد، والأخرى ذات ثديين، إلا أن أحدهما

كبير فيه اللبن، والآخر صغير لا لبن فيه. فعجبت من شأنهن، ووصلنا إلى جزيرة من تلك الجزائر ليس بها إلا دار واحدة فيها رجل حائك له زوجة وأولاد، ونخيلات نارجيل، وقارب صغير يصطاد فيه السمك. ويسير به إلى حيث أراد من الجزائر. وفى جزيرته أيضًا شجيرات موز. ولم نر فيها من طيور البر غير غرابين خرجا إلينا لما وصلنا الجزيرة وطافا بمركبنا. فغبطت والله ذلك الرجل، ووددت أن لو كانت تلك الجزيرة لى، فانقطعت فيها إلى أن يأتينى اليقين. ثم وصلت إلى جزيرة ملوك، حيث المركب الذى للناخوذة إبراهيم، وهو الذى عزمت على الرحيل فيه إلى المعبر. فجاء إلى ومعه أصحابه، وأضافونى ضيافة حسنة. وكان الوزير قد كتب لى أن أُعْطَى بهذه الجزيرة مائة وعشرين بستوا من الكودة، وهى الودع وعشرين قدحًا من الأطوان، وهى عسل النارجيل، وعددًا معلومًا من التنبول والفوفل والسمك فى كل يوم. وأقمت بهذه الجزيرة سبعين يومًا، وتزوجت بها امرأتين. وهى من أحسن الجزائر، خضرة نضرة، رأيت من عجائبها أن الغصن ينقطع من شجرها ويركز فى الأرض أو الحائط فيورق ويصير شجرة. ورأيت الرمان بها لا يقتطع له ثمر بطول أيام السنة. وخاف أهل هذه الجزيرة من الناخوذة إبراهيم أن ينهبهم عند سفره، فأرادوا إمساك ما فى مركبه من السلاح حتى يوم سفره، فوقعت المشاجرة بسبب ذلك، وعدنا إلى المهل، ولم ندخلها. وكتبت إلى الوزير معلمًا بذلك، فكتب أن لا سبيل لأخذ السلاح. وعدنا إلى ملوك، وسافرنا منها فى نصف ربيع الثانى عام خمسة وأربعين. وفى شعبان من هذه السنة توفى الوزير جمال الدين رحمه الله، وكانت السلطانة حاملاً منه، فولدت إثر وفاته، وتزوجها الوزير عبد الله. وسافرنا، ولم يكن معنا رئيس(١) عارف. ومسافة ما بين الجزائر والمعبر ثلاثة أيام، فسرنا نحو تسعة أيام. وفى التاسع منها خرجنا إلى جزيرة سيلان، ورأينا جبل سرنديب فيها ذاهبًا فى السماء كأنه عمود دخان. ولما وصلناها قال البحرية: إن هذا المرسى ليس فى بلاد السلطان الذى يدخل التجار إلى بلاده آمنين، إنما هذا مرسى فى

(١) وفى نسخة: «رائس».

بلاد السلطان أَيْرِى شكروتى، وهو من العتاة المفسدين. وله مراكب تقطع فى البحر، فخفنا أن ننزل بمرساه. ثم اشتدت الريح فخفنا الغرق فقلت للناخوذة: أنزلنى إلى الساحل، وأنا آخذ لك الأمان من هذا السلطان، ففعل ذلك، وأنزلنى بالساحل. فأتانا الكفار فقالوا: من أنتم؟ فأخبرتهم أنى سلف سلطان المعبر وصاحبه، جئت لزيارته. وأن الذى فى هذا المركب هدية له. فذهبوا إلى سلطانهم فأعلموه بذلك، فاستدعانى فذهبت له إلى مدينة بَطَّالة (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة والطاء المهمل وتشديدها)، وهى حضرته، مدينة صغيرة حسنة، عليها سور خشب، وأبراج خشب. وجميع سواحلها مملوءة بأعواد القرفة. تأتى بها السيول فتجمع بالساحل، كأنها الروابى ويحملها أهل المعبر والمليبار دون ثمن. إلا أنهم يهدون للسلطان فى مقابلة ذلك الثوب ونحوه. وبين بلاد المعبر وهذه الجزيرة مسيرة يوم وليلة. وبها أيضًا من خشب البقم كثير، ومن العود الهندى المعروف بالكلخى، إلا أنه ليس كالقمارى والقاقُلّى، وسنذكره.

وكان **سلطان سيلان** يدعى أَيْرى شكَرْوَتى (بفتح الهمزة وسكون الياء وكسر الراء ثم ياء وشين معجم مفتوح وكاف مثله وراء مسكنة وواو مفتوح وتاء معلوة مكسورة وياء)، وهو سلطان قوى فى البحر. رأيت مرة وأنا بالمعبر، مائة مركب من مراكبه بين صغار وكبار. وصلت إلى هنالك، وكانت بالمرسى ثمانية مراكب للسلطان برسم السفر إلى اليمن، فأمر السلطان بالاستعداد، وحشد الناس لحماية أجفانه. فلما يئسوا من انتهاز الفرصة فيها، قالوا: إنا جئنا لحماية مراكب لنا تسير أيضًا إلى اليمن. ولما دخلت على هذا السلطان الكافر، قام إلى وأجلسنى إلى جانبه وكلمنى بأحسن كلام، وقال: ينزل أصحابك على الأمان، ويكونون فى ضيافتى إلى أن يسافروا. فإن سلطان المعبر، بينى وبينه الصحبة، ثم أمر بإنزالى. فأقمت عنده ثلاثة أيام فى إكرام عظيم متزايد. فى كل يوم. وكان يفهم اللسان الفارسى، ويعجبه ما أحدثه به عن الملوك والبلاد. ودخلت عليه يومًا وعنده جواهر كثيرة أتى بها من مغاص الجوهر الذى ببلاده، وأصحابه يميزون النفيس منها من غيره. فقال لى: هل رأيت مغاص الجوهر فى البلاد التى جئت منها؟ فقلت له: نعم،

رأيته بجزيرة قيس، وجزيرة كش، التى لابن السواملى. فقال: سمعت بها ثم أخذت منه حبات. فقال: أيكون فى تلك الجزيرة مثل هذه؟ فقلت له: رأيت ما هو دونها. فأعجبه ذلك. وقال: هى لك. وقال لى: لا تستح، واطلب منى ما شئت. فقلت له: ليس مرادى منذ وصلت هذه الجزيرة إلا زيارة القدم الكريمة، قدم آدم -عليه السلام-، وهو يسمونه (بابا)، ويسمون حواء (ماما). قال: هذا هين. نبعث معك من يوصلك. فقلت: ذلك أريد. ثم قلت له: وهذا المركب الذى جئت به، يسافر آمنًا إلى المعبر، وإذا عدت أنا بعثتنى فى مراكبك. فقال: نعم. فلما ذكرت ذلك لصاحب المركب، قال لى: لا أسافر حتى تعود، ولو أقمت سنة بسببك. فأخبرت السلطان بذلك. فقال: يقيم فى ضيافتى حتى تعود. فأعطانى دولة يحملها عبيده على أعناقهم، وبعث معى أربعة من الجوكية الذين عادتهم السفر كل عام إلى زيارة القدم، وثلاثة من البراهمة، وعشرة من سائر أصحابه، وخمسة عشر رجلاً يحملون الزاد. وأما الماء فهو بتلك الطريق كثير. ونزلنا ذلك اليوم على واد جزناه فى معدية مصنوعة من قصب الخيزران، ثم رحلنا من هنالك إلى مَنَارمَنْدَلِي (وضبط ذلك بفتح الميم والنون وألف وراء مسكنة وميم مفتوح ونون مسكن ودال مهمل مفتوح ولام مكسور وياء)، مدينة حسنة هى آخر عمالة السلطان. أضافنا أهلها ضيافة حسنة. وضيافتهم عجول الجواميس يصطادونها بغابة هنالك، ويأتون بها أحياء، ويأتون بالأرز والسمن والحوت والدجاج واللبن. وليس بالمدينة مسلم غير رجل خراسانى انقطع بسبب مرضه، فسافر معنا. ورحلنا إلى بَنْدَرْسَلاوَات (وضبطه بفتح الباء الموحدة وسكون النون وفتح الدال المهمل وسكون الراء وفتح السين المهمل واللام والواو وألف وتاء معلوة) بلدة صغيرة. وسافرنا منها فى أوعار كثيرة المياه، وبها الفيلة الكثيرة، إلا أنها لا تؤذى الزوار والغرباء. وذلك ببركة الشيخ أبى عبد الله بن خفيف رحمه الله، وهو أول من فتح هذا الطريق إلى زيارة القدم. وكان هؤلاء الكفار يمنعون المسلمين من ذلك، ويؤذونهم ولا يؤاكلونهم ولا يبايعونهم. فلما اتفق للشيخ أبى عبد الله ما ذكرنا فى السفر الأول من قتل الفيلة لأصحابه،

وسلامته من بينهم، وحمل الفيل له على ظهره، وصار الكفار من ذلك العهد يعظمـون المسلمين، ويدخلونهم دورهم، ويطـعمـون معـهم ويطمـئنون لهم بأهلهم وأولادهـم. وهم إلى الآن يعظمـون الـشـيخ المذكـور أشـد تعظيم، ويسمونه الشيخ الكبير. ثم وصلنا بعـد ذلك إلى مدينة كُنكار (وضبط اسمها بضم الكاف الأول وفـتح النون والكاف الثـانيـة وآخـره راء)، وهى حضـرة السلطان الكبـير بتلك البـلاد، وبناؤها فى خندق بين جبلين على خـوركبـير يسمى بخـور الياقوت، لأن الياقـوت يوجد به. وبخارج هذه المدينة مـسجد الشـيخ عثـمان الشـيرازى المعـروف بشَاوُش (بـشينين مـعجـمين بينهمـا واو مضـموم)، وسلطان هذه المدينة وأهلها يزورونه ويعظمـونه. وهو كان الدليل إلى القـدم، فلما قطعت يده ورجله، صـار الأدلاء أولاده وغلمانه، وسـبب قطعه أنه ذبح بقـرة. وحكم كفار الهنود أنه من ذبح بقرة، ذبح كـمثلها، أو جعل فى جلدها وحـرق. وكان الشيخ عثـمان معظمًا، فـقطعوا يده ورجله، وأعطوه مجبى بعض الأسواق.

وكـان سلطان كنـكار يعـرف بالكُنار (بضم الكـاف وفـتح النون وألف وراء)، وعنده الفيل الأبيض. ولم أر فى الدنيـا فيلاً أبيض سواه، يركـبه فى الأعياد، ويجعل على جبهته أحـجار الياقوت العظيمة. واتفق له أن قام عليه أهل دولته، وسملوا عينيه، وولوا ولده وهو هنالك أعمى.

والياقوت العـجيب البهرمان إنما يكون بهذه البلدة. فـمنه ما يخرج من الخور وهـو عزيز عندهم، ومنه مـا يحفـر عنه. وفى جزيرة سـيلان يـوجد الياقوت فى جميع مـواضعها، وهى متملكة. فيشتـرى الإنسان القطعة منها، ويحفر عن الياقوت، فـيجد أحجارًا بيضًا مشعـبة، وهى التى يتكون الياقوت فى أجوافهـا فيعطيها الحكاكين، فـيحكوها حتى تنفلق عن أحجـار الياقوت. فمنه الأحـمر ومنه الأصفـر ومنه الأزرق ويسمونه النَّيْـلَم (بفتح النون واللام وسكون الياء آخر الحروف)، وعادتهم أن ما بلغ ثمنه من أحجار الياقوت إلى مائة فنم (بفـتح الفاء والنون) فهو للسلطان، يعطى ثمنه ويـأخذه. وما نقص عن تلك القيـمة فهـو لأصحابه. وصـرف مائة فنم ستـة دنانير من الذهب.

وجميع النساء بجزيرة سيلان لهن القلائد من الياقوت الملون، ويجعلنه فى أيديهن وأرجلهن عوضًا من الأسورة والخلاخيل. وجوارى السلطان يصنعن منه شبكة يجعلنها على رؤوسهن. ولقد رأيت على جبهة الفيل الأبيض سبعة أحجار منه. كل حجر أعظم من بيضة الدجاج. ورأيت عند السلطان أيرى شكروتى سكرجة على مقدار الكف من الياقوت، فيها دهن العود. فجعلت أعجب منها، فقال: إن عندنا ما هو أضخم من ذلك. ثم سافرنا من كنكار فنزلنا بمغارة تعرف باسم اسطا محمود اللُورى (بضم اللام)، وكان من الصالحين، واحتفر تلك المغارة فى سفح جبل، عند خور صغير هنالك. ثم رحلنا عنها ونزلنا بالخور المعروف بخور بُوزنه (بالباء الموحدة وواو وزاى ونون وهاء)، وبوزنه هى القرود.

والقرود بتلك الجبال كثيرة جدًا، وهى سود الألوان، لها أذناب طوال. ولذكورها لحى كما هى للآدميين. وأخبرنى الشيخ عثمان وولده وسواهما أن هذه القرود لها مقدم تتبعه كأنه سلطان، يشد على رأسه عصابة من أوراق الأشجار، يتوكأ على عصا، ويكون عن يمينه ويساره أربعة من القرود ولها عصى بأيديها. وأنه إذا جلس القرد المقدم تقف القرود الأربعة على رأسه، وتأتى أنثاه وأولاده فتقعد بين يديه كل يوم، وتأتى القرود فتقعد على بعد منه. ثم يكلمها أحد القرود الأربعة فتنصرف القرود كلها. ثم يأتى كل فرد منها بموزة أو ليمونة أو شبه ذلك، فيأكل القرد المقدم وأولاده والقرود الأربعة. وأخبرنى بعض الجوكية أنه رأى القرود الأربعة بين يدى مقدمها، وهى تضرب بعض القرود بالعصى، ثم نتفت وبره بعد ضربه. وذكر لى الثقات أنه إذا ظفر قرد من هذه القرود بصبية لا تستطيع الدفاع عن نفسها جامعها. وأخبرنى بعض أهل هذه الجزيرة أنه كان بداره قرد منها، فدخلت بنت له بعض البيوت، فدخل عليها، فصاحت به، فغلبها، قال: ودخلنا عليها وهو بين رجليها فقتلناه.

ثم كان رحيلنا إلى خور الخيزران. ومن هذا الخور أخرج أبو عبد الله ابن خفيف الياقوتتين اللتين أعطاهما لسلطان هذه الجزيرة، حسبما ذكرناه فى

السفر الأول. ثم رحلنا إلى موضع يعرف ببيت العجوز، وهو آخر العمارة. ثم رحلنا إلى مغارة بابا طاهر، وكان من الصالحين، ثم رحلنا إلى مغارة السَبِيك (بفتح السين المهمل وكسر الباء الموحدة وياء مد وكاف)، وكان السبيك من سلاطين الكفار، وانقطع للعبادة هنالك.

وبهذا الموضع رأينا العلق الطيار، ويسمونه الزُلُو (بضم الزاى واللام)، ويكون بالأشجار والحشائش التى تقرب من الماء. فإذا قرب الإنسان منه وثب عليه. فحيثما وقع من جسده، خرج منه الدم الكثير. والناس يعدون له الليمون، يعصرونه عليه، فيسقط عنهم. ويحردون[1] الموضع الذى يقع عليه بسكين خشب معدٍّ لذلك. ويذكر أن بعض الزوار مر بذلك الموضع فتعلقت به العلق، فأظهر الجلد، ولم يعصر عليها الليمون، فنزف دمه ومات. وكان اسمه بابل خوزى (بالخاء المعجم المضموم والزاى)، وهنالك مغارة تنسب إليه. ثم رحلنا إلى السبع مغارات، ثم إلى عقبة إسكندر، ثم مغارة الأصفهانى وعين ماء، وقلعة غير عامرة تحتها خور يعرف بغوطة كاه عارفان، وهنالك مغارة النارنج، ومغارة السلطان، وعندها دروازة الجبل أى بابه. وجبل سرنديب من أعلى جبال الدنيا. رأيناه من البحر، وبيننا وبينه مسيرة تسعة. ولما صعدناه كنا نرى السحاب أسفل، قد حال بيننا وبين رؤية أسفله. وفيه كثير من الأشجار التى لا يسقط لها ورق، والأزاهير الملونة، والورد الأحمر على قدر الكف. ويزعمون أن فى ذلك الورد كتابة يقرأ منها اسم الله تعالى واسم رسوله عليه الصلاة والسلام. وفى الجبل طريقان إلى القدم: أحدهما يعرف بطريق (بابا)، والآخر بطريق (ماما). يعنون آدم وحواء -عليهما السلام-. فأما طريق ماما فطريق سهل، عليه يرجع الزوار إذا رجعوا. ومن مضى عليه فهو عندهم كمن لم يزر، وأما طريق بابا فصعب، وعر المرتقى. وفى أسفل الجبل حيث دروزاته، مغارة تنسب أيضًا إلى الإسكندر وعين ماء. ونحت الأولون فى الجبل شبه درج يصعد عليها،

---

(١) يعنى: يقطعونه. وانظر الوجيز ص(١٤٣).

وغرزوا فيها أوتاد الحديد، وعلقوا منها السلاسل ليتمسك بها من يصعده. وهى عشر سلاسل، اثنتان فى أسفل الجبل إلى حيث الدروازة، وسبع متوالية بعدها، والعاشرة هى سلسلة الشهادة. لأن الإنسان إذا وصل إليها ونظر إلى أسفل الجبل أدركه الوهم خوف السقوط. ثم إذا جاوزت هذه السلسلة، وجدت طريقًا مهملة. ومن السلسلة العاشرة إلى مغارة الخضر سبعة أميال. وهى فى موضع فسيح، عندها عين ماء تنسب إليه أيضًا ملأى بالحوت، ولا يصطاده أحد. وبالقرب منها حوضان منحوتان فى الحجارة عن جانبى الطريق. وبمغارة الخضر يترك الزوار ما عندهم، ويصعدون منها ميلين إلى أعلى الجبل حيث القدم.

وأثر القدم الكريمة قدم أبينا آدم -ﷺ- فى صخرة سوداء، مرتفعة بموضع فسيح. وقد غاصت القدم الكريمة فى الصخرة، حتى عاد موضعها منخفضًا. وطولها أحد عشر شبرًا. وأتى إليها أهل الصين قديمًا، فقطعوا من الصخرة موضع الإبهام وما يليه، وجعلوه فى كنيسة بمدينة الزيتون، ويقصدونها من أقصى البلاد. وفى الصخرة حيث القدم تسع حفر منحوتة، يجعل الزوار من الكفار فيها الذهب واليواقيت والجواهر. فترى الفقراء إذا وصلوا مغارة الخضر يتسابقون منها لأخذ ما بالحفر، ولم نجد نحن بها إلا يسير حجيرات وذهبًا أعطيناها الدليل. والعادة أن يقيم الزوار بمغارة الخضر ثلاثة أيام يأتون فيها إلى القدم غدوة وعشيًّا، وكذلك فعلنا.

ولما تمت الأيام الثلاثة، عدنا على طريق ماما. فنزلنا بمغارة شيث وهو شيث بن آدم -عليهما السلام-(١)، ثم إلى خور السمك، ثم إلى قرية كُرْمُله (بضم الكاف وسكون الراء وضم الميم)، ثم إلى قرية جَبَرْكَاوان (بفتح الجيم والباء الموحدة وسكون الراء وفتح الكاف والواو وآخره نون)، ثم إلى قرية دِلْ دِينَوَة (بدالين مهملين مكسورين بينهما لام مسكن وياء مد ونون مفتوح وواو مفتوح وتاء تأنيث)، ثم إلى قرية أت قلنجة (بهمزة مفتوحة وتاء مثناة مسكنة

---

(١) وذكر ذلك ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ١٠١). قال: فلما مات آدم -عليه السلام- قام بأعباء الأمر بعده ولده شيث -عليه السلام-. وكان نبيًّا بنص الحديث الذى رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر مرفوعًا أنه أنزل عليه خمسون صحيفة.

وقاف ولام مفتوحين ونون مسكن وجيم مفتوح)، وهنالك (كان) يشتو الشيخ أبو عبد الله ابن خفيف. وكل هذه القرى والمنازل هى بالجبل. وعند أصل الجبل فى هذا الطريق دَرَخْت رَوان، ودرخت هى (بفتح الدال المهمل والراء وسكون الخاء المعجم وتاء معلوة) وروان (بفتح الراء والواو وألف ونون)، وهى شجرة عادية لا يسقط لها ورق. ولم أر من رأى ورقها، ويعرفونها أيضًا بالماشية، لأن النظر إليها من أعلى الجبل يراها بعيدة منه، قريبة من أسفل الجبل، والناظر إليها من أسفل الجبل يراها بعكس ذلك. ورأيت هنالك جملة من الجوكيين ملازمين أسفل الجبل ينتظرون سقوط ورقها. وهى بحيث لا يمكن التوصل إليها ألبتة. ولهم أكاذيب فى شأنها، من جملتها أن من أكل من أوراقها عاد له الشباب إن كان شيخًا. وذلك باطل. وتحت هذا الجبل الخور العظيم الذى يخرج منه الياقوت، وماؤه يظهر فى رأى العين شديد الزرقة.

ورحلنا من هنالك يومين إلى مدينة دِينَوَر (وضبط اسمها بدال مهمل مكسور وياء مد ونون وواو مفتوحين وراء)، مدينة عظيمة على البحر، يسكنها التجار. وبها الصنم المعروف بدينور، فى كنيسة عظيمة، فيها نحو ألف من البراهمة والجوكية، ونحو خمسمائة من النساء بنات الهنود، ويغنين كل ليلة عند الصنم، ويرقصن. والمدينة ومجابيها وقف على الصنم. وكل من بالكنيسة ومن يرد عليها يأكلون ذلك. والصنم من ذهب على قدر الآدمى، وفى موضع العينين منه ياقوتتان عظيمتان، أخبرت أنهما تضيئان بالليل كالقنديل. ثم رحلنا إلى مدينة قَالِي (بالقاف وكسر اللام)، وهى صغيرة، على ستة فراسخ من دينور، وبها رجل من المسلمين، يعرف بالناخوذة إبراهيم. أضافنا بموضعه ورحلنا إلى مدينة كَلَنْبُو (بفتح الكاف واللام وسكون النون وضم الباء الموحدة وواو)، وهى من أحسن بلاد سرنديب وأكبرها، وبها يسكن الوزير حاكم البحر، جالستي، ومعه نحو خمسمائة من الحبشة. ثم رحلنا، فوصلنا بعد ثلاثة أيام إلى بطَّالة، وقد تقدم ذكرها، ودخلنا إلى سلطانها الذى تقدم ذكره، ووجدت الناخوذة إبراهيم فى

انتظارى، فسافرنا بقصد بلاد المعبر. وقويت الريح، وكاد الماء يدخل فى المركب، ولم يكن لنا رئيس عارف. ثم وصلنا إلى حجارة، كاد المركب ينكسر فيها. ثم دخلنا بحرًا قصيرًا. فتجلّس المركب، ورأينا الموت عيانًا، ورمى الناس بما معهم، وتوادعوا، وقطعنا صارى[1] المركب، فرمينا به. وصنع البحرية معدية من الخشب. وكان بيننا وبين البحر فرسخان، فأردت أن أنزل فى المعدية. وكان لى جاريتان وصاحبان من أصحابى. فقالا: أتنزل وتتركنا؟ فآثرتهما على نفسى، وقلت: انزلا أنتما والجارية التى أحبها. فقالت الجارية: إنى أحسن السباحة، فأتعلق بحبل المعدية، وأعوم معهم. فنزل رفيقاى، وأحدهما محمد بن فرحان التوزرى، والآخر رجل مصرى، والجارية معهم، والأخرى تعوم. وربط البحرية فى المعدية حبالاً وسبحوا بها. وجعلت معهم ما عز على من المتاع والجواهر والعنبر، فوصلوا إلى البر سالمين، لأن الريح كانت تساعدهم. وأقمت بالمركب، ونزل صاحبه إلى البر على الدقّة. وشرع البحرية فى عمل أربع من المعادى. فجاء الليل قبل تمامها، ودخل معنا الماء، فصعدت إلى المؤخرة، وأقمت به حتى الصباح. وحينئذ جاء إلينا بعض الكفار فى قارب لهم، ونزلنا معهم إلى الساحل ببلاد المعبر، فأعلمناهم أنا من أصحاب سلطانهم، وهم تحت ذمته. فكتبوا إليه بذلك. وهو على مسيرة يومين فى الغزو، كتبت أنا إليه بما اتفق على ، وأدخلنا أولئك الكفار إلى غيضة عظيمة، فأتونا بفاكهة تشبه البطيخ تثمرها، شجرة المقل. وفى داخلها شبه قطن، فيه عسلية يستخرجونها، ويصنعون منها حلواء يسمونها التل، وهى تشبه السكر. وأتوا بسمك طيب وأقمنا ثلاثة أيام. ثم وصل من جهة السلطان أمير يعرف بقمر الدين معه جماعة من فرسان ورجال، وجاءوا بالدولة وبعشرة خيول، فركبت وركب أصحابى وصاحب المركب وإحدى الجاريتين، وحملت الثانية فى الدولة، ووصلنا إلى حصن هَرْكَاتُو (وضبط اسمه بفتح الهاء وسكون الراء وفتح الكاف وألف وتاء معلوة مضمومة وواو)، وبتنا. وتركت فيه الجوارى وبعض الغلمان والأصحاب،

---

(١) الصارى: عمود يُقام فى السفينة يشد عليه الشراع، وجمعه صوارٍ. الوجيز ص(٣٦٤).

ووصلنا فى اليوم الثانى إلى محلة السلطان. وسلطان بلاد المعبر هو غياث الدين الدامغانى، وكان فى أول أمره فارسًا من فرسان الملك مجير ابن أبى الرجا، أحد خدام السلطان محمد، ثم خدم الأمير حاجى ابن السيد السلطان جلال الدين، ثم ولى الملك، وكان يدعى سراج الدين قبله. فلما ولى تسمى غياث الدين. وكانت بلاد المعبر تحت حكم السلطان محمد ملك دهلى، ثم صار بها صهرى الشريف جلال الدين أحسن شاه. وملك بها خمسة أعوام، ثم قتل. وولى أحد أمرائه وهو علاء الدين أُدَيْجِى (بضم الهمزة وفتح الدال المهمل وسكون الياء آخر الحروف وكسر الجيم)، فملك سنة. ثم خرج إلى غزو الكفار فأخذ لهم أموالاً كثيرة وغنائم واسعة، وعاد إلى بلاده. وغزاهم فى السنة الثانية، فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة. واتفق يوم قتله لهم أن رفع المغفر عن رأسه ليشرب. فأصابه سهم غرب، فمات من حينه. فولوا صهره قطب الدين. ثم لم يحمدوا سيرته فقتلوه بعد أربعين يومًا. وولى بعده السلطان غياث الدين، وتزوج بنت السلطان الشريف جلال الدين التى كنت متزوجًا أختها بدهلى.

ولما وصلنا إلى قرب من منزله بعث بعض الحجاب لتلقينا. وكان قاعدًا فى برج خشب. وعادتهم بالهند أن لا يدخل أحد على السطان دون خف. ولم يكن عندى خف، فأعطانى بعض الكفار خفًّا، وكان هنالك من المسلمين جماعة، فعجبت من أن الكافر كان أتم مروءة منهم. ودخلت على السلطان، فأمرنى بالجلوس،ودعا القاضى الحاج صدر الزمان بهاء الدين. وأنزلنى فى جواره فى ثلاثة من الأخبية، وهم يسمونها الخيام. وبعث بالفرش وبطعامهم، وهو الأرز واللحم. وعادتهم هنالك أن يسقوا اللبن الرائب على الطعام. كما يفعل ببلادنا. ثم اجتمعت به بعد ذلك، وألقيت له أمر جزائر ذيبة المهل، وأن يبعث الجيش إليها. فأخذ فى ذلك بالعزم، وعين المراكب لذلك. وعين الهدية لسلطانتها، والخلع للوزراء والأمراء، والعطايا لهم. وفوض إلى فى عقد نكاحه مع أخت السلطانة، وأمر بوسق ثلاثة مراكب بالصدقة لفقراء الجزائر، وقال لى: يكون رجوعك بعد خمسة أيام. فقال له قائد البحر

خواجه سرلك: لا يمكن السفر إلى الجزائر إلا بعد ثلاثة أشهر من الآن. فقال لى السلطان: أما إذا كان الأمر هكذا، فامض إلى فتَّن حتى نقضى هذه الحركة، وتعود إلى حضرتنا مترة، ومنها تكون الحركة. فأقمت معه بخلال ما بعثت إلى الجوارى والأصحاب.

وكانت الأرض التى نسلكها فى غيضة واحدة من الأشجار والقصب، بحيث لا يسلكها أحد. فأمر السلطان أن يكون مع كل واحد ممن فى الجيش من كبير وصغير قَدُوم لقطع ذلك. فإذا نزلت المحلة ركب إلى الغابة والناس معه، فقطعوا تلك الأشجار من غدوة النهار إلى الزوال. ثم يؤتى بالطعام فيأكل جميع الناس، طائفة بعد أخرى، ثم يعودون إلى قطع الأشجار إلى العشى. وكل من وجدوه من الكفار فى الغيضة أسروه، وصنعوا خشبة محددة الطرفين، فجعلوها على كتفيه يحملها، ومعه امرأته وأولاده. ويؤتى بهم إلى المحلة. وعادتهم أن يصنعوا على المحلة سوراً من خشب، يكون له أربعة أبواب. ويسمونه الكَتْكَر (بفتح الكافين وسكون التاء المعلوة وآخره راء)، ويصنعون على دار السلطان كتكراً ثانيًا، ويصنعون خارج الكتكر الأكبر مصاطب، ارتفاعها نحو نصف قامة، ويوقدون عليها النار بالليل. ويبيت عندها العبيد والمشاءون، ومع كل واحد منهم حزمة من رقيق القصب. فإذا أتى أحد من الكفار ليضربوا على المحلة ليلاً، أوقد كل واحد منهم الحزمة التى بيده، فعاد الليل شبه النهار، لكثرة الضياء. وخرجت الفرسان فى اتّباع الكفار، فإذا كان عند الصباح قسم الكفار المأسورون بالأمس أربعة أقسام. وأتى إلى كل باب من أبواب الكتكر بقسم منهم. فركزت بالخشب التى كانوا يحملونها بالأمس عنده، ثم ركزوا فيها حتى تنفذهم، ثم تذبح نساؤهم، ويربطن بشعورهن إلى تلك الأخشاب، ويذبح الأولاد الصغار فى حجورهن، ويتركون هنالك. وتنزل المحلة، ويشتغلون بقطع غيضة أخرى، ويصنعون بمن أسروه كذلك. وذلك أمر شنيع، ما علمته لأحد من الملوك. وبسببه عجل الله حينه. ولقد رأيته يومًا، والقاضى عن يمينه، وأنا عن شماله، وهو يأكل معنا، وقد أتى بكافر معه امرأته وولد سنه سبع. فأشار إلى السيافين بيده أن يقطعوا رأسه. ثم قال لهم: وزن أو بسر أو، معناه: وابنه وزوجته، فقطعت رقابهم. وصرفت بصرى عنهم. فلما قمت وجدت

رؤوسـهم مطروحـة بالأرض. وحـضـرت عنده يومًـا، وقـد أتى برجل من الكفار، فتكلم بما لم أفهـمه. فإذا بجماعة من الزبانيـة قد استلوا سكاكينهم، فبـادرت القـيام، فـقال لى: إلى أين؟ فـقلت: أصلى العصـر. ففـهم عنى وضحك وأمر بقطع يديه ورجليه. فلما عدت وجدته متشحطًا(١) فى دمائه.

وكان فيما يجاور بلاده سلطان كافر يسمى بَلال دِيُو (بفتح الباء الموحدة ولام وألف ولام ثانية ودال مـهمل مكسور وياء آخـر الحروف مفتـوحة وواو مسكن) وهو من كـبار سلاطين الكفـار، يزيد عسكره على مائة ألف، ومـعه نحو عشرين ألفًا من المسلمين، أهل الدعـارة وذوى الجنايات والعبيد الفارين، فطمع فى الاستـيلاء على بلاد المعبـر، وكان عسكر المسلمين بها سـتة آلاف، منهم النصف من الجـياد، والنصف الثانى لا خـير فيـهم، ولا غناء عندهم. فلقوه بظاهرمـدينة كُبّان، فهـزمهم. ورجعـوا إلى حضرة متـرة، ونزل الكافر على كبان، وهى من أكبر مدنهم وأحصنها، وحاصرها عشرة أشهر، ولم يبق لهم من الطعام إلا قوت أربعة عشر يومًـا. فبعث لهم الكافر أن يخرجوا على الأمـان، ويتـركـوا له البلد. فـقـالوا له: لابد من مطالعـة سلـطاننا بذلك. فوعدهم إلى تمام أربعة عشر يومًـا. فكتبوا إلى السلطان غياث الدين بأمرهم، فقرأ كتابهم على الناس يوم الجمعة، فبكوا، وقالوا: نبيع أنفسنا من الله. فإن الكافر إن أخذ تلك المدينة انتقل إلى حصارنا، فالموت تحت السيوف أولى بنا. فـتعـاهدوا على الموت، وخرجـوا من الغـد، ونزعوا العـمائم عن رءوسـهم وجعلوها فى أعناق الخيل، وهى علامة من يريد الموت. وجعلوا ذوى النجدة والأبطال منهم فى المقدمة، وكانوا ثلاثمـائة. وجعلوا على الميمنة سيف الدين بهادور، وكان فـقيهًا ورعًـا شجاعًا، وعلى الميـسرة الملك محمـد السلحدار. وركب السلطان فى القلب ومـعه ثلاثة آلاف، وجـعل الثلاثة الآلاف البـاقين ساقة لهم، وعليهم أسد الدين كيخـسرو الفارسى. وقصدوا محلة الكافر عند القـايلة، وأهلها على غـرة(٢)، وخـيلهم فى المرعى. فأغـاروا عليهـا. وظن

(١) المتشحط فى دمه: يعنى: المضطرب فيه.

(٢) الغرة: الفجأة.

الكفار أنهم سراق. فخرجوا إليهم على غير تعبية، وقاتلوهم. فوصل السلطان غياث الدين، فانهزم الكفار شر هزيمة، وأراد سلطانهم أن يركب، وكان ابن ثمانين سنة، فأدركه ناصر الدين ابن أخى السلطان الذى ولى الملك بعده، فأراد قتله، ولم يعرفه. فقال له أحد غلمانه: هو السلطان فأسره وحمله إلى عمه فأكرمه فى الظاهر حتى جبى منه الأموال والفيلة والخيل، وكان يعده السراح. فلما استصفى ما عنده، ذبحه وسلخه، وملأ جلده بالتبن. فعلق على سور مترة، ورأيته بها معلقًا.

ولنعد إلى كلامنا فنقول: ورحلت عن المحلة، فوصلت إلى مدينة فتَّن (بفتح الفاء والتاء المثناة المشددة ونون)، وهى كبيرة حسنة على الساحل، ومرساها عجيب قد صنعت فيه قبة خشب كبيرة قائمة على الخشب الضخام، يصعد إليها على طريق خشب مسقف، فإذا جاء العدو ضموا إليها الأجفان التى تكون بالمرسى، وصعدها الرجال والرماة، فلا يصيب العدو فرصة. وبهذه المدينة مسجد حسن مبنى بالحجارة، وبها العنب الكثير والرمان الطيب. ولقيتُ الشيخَ الصالحَ محمدًا النيسابورى أحد الفقراء المولهين الذين يسدلون شعورهم على أكتافهم، ومعه سبع ربّاه. يأكل مع الفقراء ويقعد وكان معه نحو ثلاثين فقيرًا، لأحدهم غزالة تكون مع الأسد فى موضع واحد فلا يعرض لها. وأقمت بمدينة فتن، وكان السلطان غياث الدين قد صنع له أحد الجوكية حبوبًا للقوة على الجماع. وذكروا أن من جملة أخلاطها برادة الحديد، فأكل منها فوق الحاجة فمرض، ووصل إلى فتن. فخرجت إلى لقائه، وأهديت له هدية. فلما استقر بها بعث عن قائد البحر خواجه سرور فقال له: لا تشتغل بسوى المراكب المعينة للسفر إلى الجزائر. وأراد أن يعطينى قيمة الهدية فأبيت، ثم ندمت، لأنه مات. فلم آخذ شيئًا. وأقام بفتن نصف شهر، ثم رحل إلى حضرته. وأقمت أنا بعده نصف شهر، ثم رحلت إلى حضرته، وهى مدينة مُتْرَة (بضم الميم وسكون التاء المعلوة وفتح الراء)، مدينة كبيرة متسعة الشوارع. وأول من اتخذها حضرة صهرى السلطان الشريف جلال الدين أحسن شاه. وجعلها شبيهة بدهلى، وأحسن بناءها. ولما قدمتها

وجدت بها وباء يموت منه الناس موتًا ذريعًا، فمن مرض مات من ثانى يوم مرضه أو ثالثه، وإن أبطأ موته فإلى الرابع. فكنت إذا خرجت لا أرى إلا مريضًا أو ميتًا. واشتريت بها جاريه على أنها صحيحة، فماتت فى يوم آخر. ولقد جاءت إلى فى بعض الأيام امرأة كان زوجها من وزراء السلطان أحسن شاه، ومعها ابن لها سنه ثمانية أعوام، نبيل كيس فطن. فشكت ضعف حالها، فأعطيتها نفقة، وهما صحيحان سويان. فلما كان من الغد جاءت تطلب لولدها المذكور كفنًا، وإذا به قد توفى من حينه. وكنت أرى بمشور السلطان حين مات المئين من الخدم اللاتى أتى بهن لدق الأرز المعمول منه الطعام لغير السلطان، وهن مريضات قد طرحن أنفسهن فى الشمس. ولما دخل السلطان مترة، وجد أمه وامرأته وولده مرضى. فأقام بالمدينة ثلاثة أيام، ثم خرج إلى نهر على فرسخ منها، كانت عليه كنيسة للكفار. وخرجت إليه فى يوم خميس، فأمر بإنزالى إلى جانب القاضى. فلما ضربت لى الأخبية رأيت الناس يسرحون، ويموج بعضهم فى بعض. فمن قائل: إن السلطان مات، ومن قائل: إن ولده هو الميت. ثم تحققنا ذلك، فكان الولد هو الميت، ولم يكن له سواه. فكان موته مما زاد فى مرضه. وفى يوم الخميس بعده توفيت أم السلطان.

وفى الخميس الثالث توفى السلطان غياث الدين، وشعرت بذلك، فبادرت الدخول إلى المدينة خوف الفتنة. ولقيت ناصر الدين ابن أخيه الوالى بعده خارجًا إلى المحلة، قد وجه عنه، إذ ليس للسلطان ولد. فطلب إلىّ الرجوع معه، فأبيت. وأثر ذلك فى قلبه. وكان ناصر الدين هذا خديمًا بدهلى قبل أن يملك عمه. فلما ملك عمه هرب فى زى الفقراء إليه، فكان من القدر ملكه بعده. ولما بويع، مدحته الشعراء، فأجزل لهم العطاء وأول من قام منشدًا القاضى صدر الزمان، فأعطاه خمسمائة دينار وخلعة، ثم الوزير المسمى بالقاضى، فأعطاه ألفى دينار دراهم، وأعطانى أنا ثلاثمائة دينار وخلعة. وبثّ الصدقات فى الفقراء والمساكين. ولما خطب الخطيب أول خطبة خطبها باسمه، نثرت عليه الدنانير والدراهم فى أطباق الذهب والفضة. وعمل عزاء السلطان غياث الدين، فكانوا يختمون القرآن على قبره كل يوم، ثم يقرأ العشارون، ثم يؤتى بالطعام فيأكل الناس، ثم يعطون الدراهم، كل

إنسان على قـدره. وأقاموا على ذلك أربعين يومًا. ثم يفـعلون ذلك فى مثل يوم وفـاته من كل سنة. وأول ما بدأ به السلطان ناصر الدين أن عـزل وزير عمه، وطلبه بالأموال. وولى الوزارة الملك بدر الدين الذى بعثه عمه إلى وأنا بفتن ليتلقانى، فتـوفى سريعًا. فولى الوزارة خواجه سرور قـائد البحر، وأمر أن يخاطب بخـواجه جهان، كمـا يخاطب الوزير بدهلى. ومن خاطبـه بغير ذلك غرم دنانير مـعلومة. ثم إن السلطان ناصر الدين قتل ابن عمـته المتزوج بنت السلطان غياث الدين، وتزوجها بعـده. وبلغه أن الملك مسعودًا زاره فى محـبسه قـبل موته، فقـتله أيضًا، وقتل الملك بهـادور، وكان من الشجـعان الكرماء الفضلاء، وأمر لى بجميع ما كان عينه عمه من المركب برسم الجزائر. ثم أصابتـنى الحمى القاتلـة هنالك، فظننت أنها القـاضية. وألهـمنى الله إلى التمر الهندى، وهو هنالك كثير، فأخذت نحو رطل منه، وجعلته فى الماء ثم شربته. فأسهلنى ثـلاثة أيام، وعافانى الله من مرضى. فكرهت تلك المدينة، وطلبت الإذن فى السفر، فقال لى السلطان: كيف تسافر ولم يبق لأيام السفر إلى الجزائر غـير شهـر واحد؟ أقم حتى نعطيك جـميع ما أمـر لك به خوند عالم. فأبيت، وكتب لى إلى فتن لأسـافر فى أى مركب أردت. وعدت إلى فتن، فوجـدت ثمانية من المراكـب تسافر إلى اليـمن، فسافـرت فى أحدها، ولقينا أربعة أجفان، فقاتلتنا يسيراً ثم انصرفت. ووصلنا إلى كولم، وكان فىَّ بقيـة مرض، فأقـمت بها ثلاثة أشهـر. ثم ركبت فى مركب بقـصد السلطان جمال الدين الهنورى، فخرج علينا الكفار بين هنور وفاكنور.

ولما وصلنا إلى الجزيرة الصغرى بين هنـور وفاكنور، خرج علينا الكفار فى اثنى عشر مـركبًا حربيًّا، وقاتلونا قـتالاً شديدًا، وتغلبوا علينـا، فأخذوا جمـيع ما عندى مما كنت أدخـره للشدائد، وأخـذوا الجواهر واليواقـيت التى أعطانيها ملك سيلان، وأخـذوا ثيابى والزرادات التى كانت عندى مما أعطانيه الصالحـون والأولياء، ولم يتركوا لى سـاترًا خلا السراويل، وأخذوا مـا كان لجـميع الناس، وأنزلونا بالسـاحل. فـرجعت إلى قـالقوط، فـدخلت بعض المساجد. فبعث إلىَّ أحد الفقهاء بثوب، وبعث القاضى بعمامة، وبعث بعض

التجار بثـوب آخر. وتعرفت هنالك بتزوج الوزير عبـد الله بالسلطانة خديجة بعد موت الوزير جمال الدين وبأن زوجتى التي تركتها حاملاً ولدت ولداً ذكراً فخطر لـى السفر إلى الجـزائر. وتذكرت العـداوة التى بينى وبين الوزير عـبد الله، ففتحت المصـحف، فخرج لى ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا﴾[1] فاستـخرت الله، وسافرت. فوصلت بعد عـشرة أيام إلى جزائر ذيبة المهـل، ونزلت منها بكنلوس. فـأكرمنى واليـها عبـد العزيز المقـدشاوى وأضافنى وجـهز لى كندرة، ووصلت بعد ذلك إلى هـللى، وهى الجزيرة التى تخرج السلطانة وأخواتها إليها برسم التفرج والسباحة، ويسمون ذلك التتجر. ويلعبون فى المراكب، ويبعث لها الوزراء والأمراء بالهدايا والتحف متى كانت بها. وجـدت بها أخت السلطانة وزوجـها الخطيب محـمد ابن الوزير جـمال الدين وأمـها التى كانت زوجـتى. فجـاء الخطيب إلى، وأتوا بالطعـام. ومر بعض أهل الجزيرة إلى الوزير عـبد الله فأعلموه بقدومى. فـسأل عن حالى، وعمن قـدم معى. وأخبـر أنى جئت برسم حمل ولدى، وكـان سنه عامين. وأتته أمه تشكو من ذلك. فقال لهـا: أنا لا أمنعه من حمل ولده. وصادرنى فى دخول الجزيرة، وأنزلنى بدار تقابل برج قصره، ليتطلع على حالى. وبعث إلى بكسوة كـاملة، وبالتنبول وماء الـورد على عادتهم. وجئت بثـوبى حرير للرمى عند السلام، فأخذوهمـا، ولم يخرج الوزير إلى ذلك اليوم. وأتى إلى بولدى فظهر لى أن إقامتـه معهم خير له. فرددته إليهم، وأقـمت خمسة أيام وظهر لى أن تعجيل السفر أولى. فطلبت الإذن فى ذلك، فاستدعانى الوزير، ودخلت عليه وأتونى بالثوبين اللذين أخذوهما منى، عند السلام على العادة. وأجلسنى إلى جانبه، وسألنى عن حـالى، وأكلت معه الطعام، وغسلت يدى معـه في الطست، وذلك شيء لا يفعله مع أحد. وأتوا بالتنبـول وانصرفت، وبعث إلى بأثواب وبساتى من الودع، وأحسن فى أفعاله وأجمل. وسافرت، فـأقـمنا على ظهـر البـحـر ثلاثًا وأربعين ليلة، ثم وصـلنا إلى بلاد بَنْجـالة (وضبطها بفتح الباء الموحدة وسكون النون وجيم معقود وألف ولام مفتوح)،

---

(١) سورة فصلت: ٣٠.

وهى بلاد متسعة كثيرة الأرز. ولم أر فى الدنيا أرخص أسعارًا منها، لكنها مظلمة. وأهل خراسان يسمونها دوزخست (دوزخ) بور (بر) نعمة، معناه جهنم ملأى بالنعم. رأيت الأرز يباع فى أسواقها خمسة وعشرين رطلاً دهلية بدينار فضى، والدينار الفضى هو ثمانية دراهم، ودرهمهم كالدرهم النقرة سواء، والرطل الدهلى عشرون رطلاً مغربية. وسمعتهم يقولون: إن ذلك غلاء عندهم. وحدثنى محمد المصمودى المغربى، وكان من الصالحين وسكن هذا البلد قديمًا ومات عندى بدهلى، أنه كانت له زوجة وخادم، فكان يشترى قوت ثلاثتهم فى السنة بثمانية دراهم، وأنه كان يشترى الأرز فى قشرة بحساب ثمانين رطلاً دهلية بثمانية دراهم، فإذا دقه خرج منه خمسون رطلاً دهلية بثمانية دراهم، فإذا دقه خرج منه خمسون رطلاً صافية، وهى عشرة قناطير. ورأيت البقرة تباع بها للحلب بثلاثة دنانير فضية وبقرهم الجواميس، ورأيت الدجاج السمان تباع بحساب ثمان بدرهم واحد، وفراخ الحمام، تباع خمسة عشر بدرهم، ورأيت الكبش السمين يباع بدرهمين، ورطل السكر بأربعة دراهم، وهو رطل دهلى ورطل الجلاب بثمانية دراهم ورطل السمن بأربعة دراهم ورطل السيرج بدرهمين، ورأيت ثوب القطن الرقيق الجيد الذى ذرعه ثلاثون ذراعًا يباع بدينارين، ورأيت الجارية المليحة للفراش تباع بدينار -من الذهب- واحد، وهو ديناران ونصف دينار من الذهب المغربى. واشتريت بنحو هذه القيمة جارية تسمى عاشورة، وكان لها جمال بارع. واشترى بعض أصحابى غلامًا صغير السن حسنًا اسمه لؤلؤ بدينارين من الذهب. وأول مدينة دخلناها من بلاد بنجالة مدينة سُدْكاوَان، وضبط اسمها (بضم السين وسكون الدال المهملين وفتح الكاف والواو وآخره نون)، وهى مدينة عظيمة على ساحل البحر الأعظم، ويجتمع بها نهر الكنك الذى يحج إليه الهنود، ونهر الجون، ويصبان فى البحر. ولهم فى النهر مراكب كثيرة يقاتلون بها أهل بلاد اللكنوتى.

وكان سلطان بنجالة فخر الدين الملقب بفَخْره (بالفاء والخاء المعجم والراء)، وهو سلطان فاضل محب فى الغرباء، وخصوصًا الفقراء والمتصوفة. وكانت مملكة هذه البلاد للسلطان ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن،

وهو الذى ولى ولده معز الدين الملك بدهلى، فتوجه لقتاله والتقيا بالنهر، وسمى لقاؤهما لقاء السعدين، وقد ذكرنا ذلك، وأنه ترك الملك لولده وعاد إلى بنجالة، فأقام بها إلى أن توفى، ولى ابنه شمس الدين إلى أن توفى فولى ابنه شهاب الدين إلى أن غلب عليه أخوه غياث الدين بهادوربور، فاستنصر شهاب الدين بالسلطان غياث الدين تغلق فنصره، وأخذ بهادوربور أسيراً، ثم أطلقه ابنه محمد لما ملك، على أن يقاسمه ملكه، فنكث[1] عليه، فقاتله حتى قتله، وولى على هذه البلاد صهراً له فقتله العسكر، واستولى على ملكها على شاه، وهو إذ ذاك ببلاد اللكنوتى. فلما رأى فخر الدين أن الملك قد خرج عن أولاد السلطان ناصر الدين، وهو مولى لهم، خالف بسدكاوان وبلاد بنجالة، واستقل بالملك. واشتدت الفتنة بينه وبين على شاه. فإذا كانت أيام الشتاء والوحل، أغار فخر الدين على بلاد اللكنوتى فى البحر لقوته فيه، وإذا عادت الأيام التى لا مطر فيها أغار على شاه على بنجالة فى البر لقوته فيه.

وانتهى حب الفقراء بالسلطان فخر الدين إلى أن جعل أحدهم نائبًا عنه فى الملك بسدكاوان، وكان يسمى شَيْدا (بفتح الشين المعجم والدال المهمل بينهما ياء آخر الحروف)، وخرج إلى قتال عدو له. فخالف عليه شيدا، وأراد الاستبداد بالملك، وقتل ولد السلطان فخر الدين، ولم يكن له ولد غيره. فعلم بذلك فكرّ عائداً إلى حضرته، ففر شيدا ومن اتبعه إلى مدينة سُنُرْهكاوان، وهى منيعة. فبعث السلطان بالعساكر إلى حصاره، فخاف أهلها على أنفسهم، فقبضوا على شيدا وبعثوا إلى عسكر السلطان، فكتبوا إليه بأمره. فأمرهم أن يبعثوا له رأسه فبعثوه. وقتل بسببه جماعة كبيرة من الفقراء. ولما دخلت سدكاوان لم أر سلطانها، ولا لقيته، وعلمت أنه مخالف على ملك الهند. فخفت عاقبة ذلك، وسافرت من سدكاوان بقصد جبال كَامَرو، وهى (بفتح الكاف والميم وضم الراء). وبينها وبين سدكاوان مسيرة

(١) يُقال: نكث العهد أو اليمين أو البيعة: نبذها ولم يف. الوجيز ص(٦٣٣).

شهر، وهى جبال متسعة متصلة بالصين، وتتصل أيضًا ببلاد التبت حيث غزلان المسك. وأهل هذا الجبل يشبهون الترك، ولهم قوة على الخدمة. والغلام منهم يساوى أضعاف ما يساويه الغلام من غيرهم. وهم مشهورون بمعاناة السحر والاشتغال به. وكان قصدى بالمسير إلى هذه الجبال لقاء ولى من الأولياء بها وهو الشيخ جلال الدين التبريزى. وكان الشيخ جلال الدين من كبار الأولياء، وأفراد الرجال. له الكرامات الشهيرة والمآثر العظيمة، وهو من المعمرين. أخبرنى رحمه الله أنه أدرك الخليفة المستعصم بالله العباسى ببغداد، وكان بها حين قَتْله، وأخبرنى أصحابه بعد هذه المدة أنه مات، وهو ابن مائة وخمسين، وأنه كان له نحو أربعين سنة يسرد الصوم، ولا يفطر إلا بعد مواصلة عشر، وكانت له بقرة يفطر على حليبها، ويقوم الليل كله. وكان نحيف الجسم طوالاً خفيف العارضين. وعلى يديه أسلم أهل تلك الجبال، ولذلك أقام بينهم.

وقد أخبرنى بعض أصحابه أنه استدعاهم قبل موته بيوم واحد، وأوصاهم بتقوى الله، وقال لهم: إنى أسافر عنكم غدًا إن شاء الله، وخليفتى عليكم الله الذى لا إله إلا هو، فلما صلى الظهر من الغد قبضه الله فى آخر سجدة منها، ووجدوا فى جانب الغار الذى كان يسكنه قبرًا محفورًا عليه الكفن والحنوط، فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه به، رحمه الله تعالى.

ولما قصدت زيارة هذا الشيخ لقينى أربعة من أصحابه على مسيرة يومين من موضع سكناه، فأخبرونى أن الشيخ قال للفقراء الذين معه: قد جاءكم سائح من المغرب فاستقبلوه، وأنهم أتوا لذلك بأمر الشيخ. ولم يكن عنده علم من أمرى، وإنما كوشف به، وسرت معهم إلى الشيخ فوصلت زاويته خارج الغار ولا عمارة عندها. وأهل تلك البلاد من مسلم وكافر يقصدون زيارته، ويأتون بالهدايا والتحف فيأكل منها الفقراء والواردون. وأما الشيخ فقد اقتصر على بقرة يفطر على حليبها بعد عشر كما قدمناه.

ولما دخلت عليه قام إلى وعانقنى وسألنى عن بلادى وأسفارى، فأخبرته فقال لى: أنت مسافر العرب. فقال له من حضر من أصحابه: والعجم يا

سيدنا. فقال: والعجم، فأكرموه. فاحتملونى إلى الزاوية وأضافونى ثلاثة أيام.

ولما كان يوم دخولى إلى الشيخ رأيت عليه فرجية مرعز فأعجبتنى، وقلت فى نفسى: ليت الشيخ أعطانيها. فلما دخلت عليه للوداع، قام إلى جانب الغار وجرد الفرجية وألبسنيها مع طاقية من رأسه، ولبس مرقعة، فأخبرنى الفقراء أن الشيخ لم تكن عادته أن يلبس تلك الفرجية، وإنما لبسها عند قدومى، وأنه قال لهم هذه الفرجية يطلبها المغربى، ويأخذها منه سلطان كافر، ويعطيها لأخينا برهان الدين الصاغرجى، وهى له وبرسمه كانت. فلما أخبرنى الفقراء بذلك، قلت لهم: لقد حصلت لى بركة الشيخ، بأن كسانى لباسه. وأنا لا أدخل بهذه الفرجية على سلطان كافر ولا مسلم، وانصرفت عن الشيخ. فاتفق لى بعد مدة طويلة أنى دخلت بلاد الصين، وانتهيت إلى مدينة الخنسا. فافترق منى أصحابى لكثرة الزحام، وكانت الفرجية على. فبينا أنا فى بعض الطرق إذا بالوزير فى موكب عظيم. فوقع بصره على فاستدعانى وأخذ بيدى وسألنى عن مقدمى، ولم يفارقنى حتى وصلت إلى دار السلطان معه فأردت الانفصال، فمنعنى وأدخلنى على السلطان، فسألنى عن سلاطين الإسلام فأجبته، ونظر إلى الفرجية فاستحسنها. فقال لى الوزير: جردها، فلم يمكنى خلاف ذلك. فأخذها وأمر لى بعشر خلع وفرس مجهز ونفقة. وتغيرخاطرى لذلك. ثم ذكرت قول الشيخ إنه يأخذها سلطان كافر. فطال عجبى من ذلك. ولما كان فى السنة الأخرى دخلت دار ملك الصين بخان بالق، فقصدت زاويةَ الشيخِ برهان الدين الصاغرجى فوجدته يقرأ، والفرجية عليه بعينها، فعجبت من ذلك وقلبتها بيدى، فقال لى: لَمَ تقلبها وأنت تعرفها؟ فقلت له: نعم، هى التى أخذها منى سلطان الخنسا. فقال لى: هذه الفرجية صنعها أخى جلال الدين برسمى. وكتب إلىَّ أن الفرجية تصلك على يد فلان. ثم أخرج لى الكتاب فقرأته. وعجبت من صدق يقين الشيخ، وأعلمته بأول الحكاية. فقال لى: أخى جلال الدين أكبر من ذلك كله وقد انتقل إلى رحمة الله تعالى.

ثم قال: بلغنى أنه كان يصلى الصبح كل يوم بمكة، وأنه يحج كل عام. لأنه كان يغيب عن الناس يومى عرفة والعيد، فلا يعرف أين ذهب. ولما ودعت الشيخ جلال الدين سافرت إلى مدينة حَبَنْق (وضبط اسمها بفتح الحاء المهملة والباء الموحدة، وسكون النون وقاف)، وهى من أكبر المدن وأحسنها. يشقها النهر الذى يتزل من جبال كامرو، ويسمى النهر الأزرق، ويسافر فيه إلى بنجالة وبلاد اللكنوتى، وعليه النواعير والبساتين والقرى يمنة ويسرة، كما هى على نيل مصر. وأهلها كفار تحت الذمة، يؤخذ منهم نصف ما يزدرعون ووظائف سوى ذلك. وسافرنا فى هذا النهر خمسة عشر يومًا بين القرى والبساتين فكأنما نمشى فى سوق من الأسواق، وفيه من المراكب ما لا يحصى كثرة، وفى كل مركب منها طبل، فإذا التقى المركبان ضرب كل واحد طبله، وسلم بعضهم على بعض، وأمر السلطان فخر الدين المذكور أن لا يؤخذ بذلك النهر من الفقراء نول، وأن يعطى الزاد لمن لا زاد له منهم. وإذا وصل الفقير إلى مدينة أعطى نصف دينار. وبعد خمسة عشر يومًا من سفرنا فى النهر، كما ذكرناه، وصلنا إلى مدينة سُنُرْهكاوان وسنر (بضم السين المهمل والتون وسكون الراء)، وهى المدينة التى قبض أهلها على الفقير شيدا عندما لجأ إليها. ولما وصلناها وجدنا بها جنكًا يريد السفر إلى بلاد الجاوة. وبينهما أربعون يومًا فركبنا فيه ووصلنا بعد خمسة عشر يومًا إلى بلاد البَرَهْنكَار الذين أفواههم كأفواه الكلاب (وضبطها بفتح الباء الموحدة والراء والنون والكاف وسكون الهاء)، وهذه الطائفة من الهمج لا يرجعون إلى دين الهنود ولا إلى غيره، وسكانهم فى بيوت قصب مسقفة بحشيش الأرض على شاطئ البحر. وعندهم من أشجار الموز والفوفل والتنبول كثير. ورجالهم على مثل صورنا إلا أن أفواههم كأفواه الكلاب. وأما نساؤهم فلسن كذلك، ولهن جمال بارع. ورجالهم عرايا لا يستترون. إلا أن الواحد يجعل ذكره وأنثيه فى جعبة من القصب منقوشة معلقة فى بطنه، وتستتر نساؤهم بأوراق الشجر. ومعهم جماعة من المسلمين من أهل بنجالة والجاوة ساكنون فى حارة على حدة. أخبرونا أنهم يتناكحون كالبهائم، لا يستترون بذلك. ويكون

للرجل منهم ثلاثون امـرأة فما دون ذلك أو فـوقه، وأنهم لا يزنون. وإذا زنا رجل منهم، فحـد الرجل أن يصلب حتى يموت، أو يؤتى بصـاحبه أو عـبده فيصلب عـوضًا منه، ويسرح هو. وحد المرأة أن يأمر السلطان جمـيع خدامه فينكحونـها واحدًا بعد واحد بحـضرته حتى تموت، ويرمون بهـا فى البحر. ولأجل ذلك لا يتـركون أحـدًا من أهل المراكب ينزل إليهم، إلا إن كـان من المقيـمين عندهم. وإنما يبـايعون الناس ويشارونـهم على الساحل، ويسـوقون إليهم الماء على الفيلة، لأنه بعـيد من الساحل. ولا يتركونهم لاستـقائه خوفًا على نسائهم، لأنهن يطمحن[1] إلى الرجال الحسان. والفـيلة كثيرة عندهم، ولا يسعها أحد غيـر سلطانهم. ثم يشترى منهم بالأثواب. ولهم كلام غريب لا يفقـهه إلا من ساكنهم، وأكـثر التردد إليهم. ولما وصـلنا إلى ساحلهم أتوا إلينا فى قوارب صغـار، كل قارب من خشبة واحـدة منحوتة، وجاءوا بالموز والأرز والتنبول والفوفل والسمك.

وأتى إلينا سلطانهم راكبًا على فيل، عليه شبه بردعة من الجلود، ولباس السلطان ثوب من جلود المعـزى، وقـد جعل الوبر إلى خـارج، وفوق رأسـه ثلاث عصائب من الحـرير ملونات، وفى يده حربة من القصب، ومـعه نحو عشرين من أقاربه على الـفيلة. فبعثنا إليه هدية من الفلفل والزنجـبيل والقرفة والحوت الذى يكون بجزائـر ذيبة المهل وأثوابًا من بنجالية، وهم لا يلبـسونها إنما يكسـونها الفـيلة فى أيام عيـدهم. ولهذا السلطان على كل مـركب ينزل ببـلاده جارية ومملوك وثيـاب لكسوة الفـيل وحلى ذهب تجعلـها زوجتـه فى محزمها وأصابع رجليها. ومـن لم يعط هذه الوظيفة صنعوا له سحرًا يهيج به البحر، فيهلك أو يقارب الهلاك.

واتفق فى ليلة من ليـالى إقامتنا بمرسـاهم أن غلامًـا لصاحب المركب ممن تردد إلى هؤلاء الطائفـة نزل من المركب ليلاً، وتـواعد مع امـرأة أحد كبرائهم إلى موضع شبه الغار على الساحل. وعلم بذلك زوجها، فجاء فى

(١) يُقال: طمح إلى الأمر: تطلع واستشرف. الوجيز ص(٣٩٤).

جمع من أصحابه إلى الغار فوجدهما به. فحملا إلى سلطانهم. فأمر بالغلام فقطعت أنثياه وصلب. وأمر بالمرأة فجامعها الناس حتى ماتت. ثم جاء السلطان إلى الساحل فاعتذر عما جرى، وقال: إنا لا نجد بدًّا من إمضاء أحكامنا. ووهب لصاحب المركب غلامًا عوض الغلام المطلوب، ثم سافرنا عن هؤلاء. وبعد خمسة وعشرين يومًا وصلنا إلى جزيرة الجاوة (بالجيم)، وهى التى ينسب إليها اللبان الجاوى. رأيناها على مسيرة نصف يوم وهى خضرة نضرة. وأكثر أشجارها النارجيل والفوفل والقرنفل والعود الهندى والشكى والبركى والعنبة والجمون والنارنج الحلو وقصب الكافور. وبيع أهلها وشراؤهم بقطع قصدير وبالذهب الصينى التبر غير المسبوك. والكثير من أفاويه الطيب التى ببلاد الكفار إنما هو منها، وأما ببلاد المسلمين فهو أقل من ذلك. ولما وصلنا المرسى خرج إلينا أهلها فى مراكب صغار، ومعهم جوز النارجيل والموز والعنبة والسمك. وعادتهم أن يهدوا ذلك للتجار، فيكافئهم كل إنسان على قدره. وصعد إلينا أيضًا نائب صاحب البحر، وشاهد من معنا من التجار، وأذن لنا فى النزول إلى البر. فنزلنا إلى البندر، وهى قرية كبيرة على ساحل البحر، بها دور اسمها السَرْحَى (بفتح السين المهمل وسكون الراء وفتح الحاء المهمل)، وبينها وبين البلد أربعة أميال. ثم كتب بهروز نائب صاحب البحر إلى السلطان فعرفه بقدومى، فأمر الأمير دولسة بلقائى، والقاضى الشريف أمير سيد الشيرازى، وتاج الدين الأصفهانى، وسواهم من الفقهاء. فخرجوا لذلك وجاءوا بفرس من مراكب السلطان، وأفراس سواه فركبت، وركب أصحابى، ودخلنا إلى حضرة السلطان وهى مدينة سُمَطْرة (بضم السين المهمل والميم وسكون الطاء وفتح الراء)، مدينة حسنة كبيرة، عليها سور خشب وأبراج خشب.

وكان سلطان الجاوة الملك الظاهر من فضلاء الملوك وكرمائهم، شافعى المذهب محب فى الفقهاء يحضرون مجلسه للقراءة والمذاكرة وهو كثير الجهاد والغزو ومتواضع يأتى إلى صلاة الجمعة ماشيًا على قدميه وأهل بلاده شافعية

محبون فى الجهاد يخرجون معه تطوعًا وهم غالبون على من يليهم من الكفار والكفار يعطونهم الجزية على الصلح.

ولما قصـدنا إلى دار السلطان وجـدنا بالقرب منه رمـاحًا مركـوزة على جانبى الطريق، وهى علامة على نزول الناس، فلا يتـجاوزها من كان راكبًا. فنزلنا عندها ودخلنا المشور، فوجدنا نائب السلطان، وهو يسمى عمدة الملك. فقام إلينا وسلم علينا، وسـلامهم بالمصافحة، وقعدنا مـعه. وكتب بطاقة إلى السلطان يعلمه بذلك، وخـتمهـا ودفعها لبـعض الفتيان. فـأتاه الجواب على ظهرها. ثم جاء أحد الفتيان ببُقْشة والبقشة (بضم الباء الموحدة وسكون القاف وفتح الشين المعجم)، هى السبنية فـأخذها النائب بيده، وأخذ بيدى وأدخلنى إلى دويرة يسمـونها فردخـانة، على وزن زردخانة (إلا أن أولهـا فاء)، وهى موضع راحته بالنهار فإن العادة أن يأتى نائب السلطان إلى المشور بعد الصبح، ولا ينصرف إلا بعد العشاء الآخـرة. وكذلك الوزراء والأمراء الكبار. وأخرج من البقشـة ثلاث فوط: إحداها من خالص الحـرير، والأُخرى حرير وقطن، وأخرى حرير وكـتان. وأخرج ثلاثة أثواب، يسمـونها التحتـانيات من جنس الفوط، وأخـرج ثلاثة من الثيـاب مختـلفة الأجناس، تسمى الـوسطانيات، وأخـرج ثلاثة أثواب من الأرمك، أحـدها أبيض، وأخـرج ثلاث عـمـائم. فلبست فـوطة منها عوضًا عن السـراويل على عادتهم، وثوبًا من كل جنس. وأخذ أصحابى ما بقى منها.

ثم جـاءوا بالطعـام، أكثـره الأرز، ثم أتوا بنوع من الفـقـاع، ثم أتوا بالتنبـول، وهو علامـة الانصـراف، فأخـذناه وقمنـا، وقام النائب لمقـامنا، وخرجنا عـن المشور، فركـبنا وركب النائب معنـا. وأتوا بنا إلى بستـان عليه حـائط خشب، وفى وسطهـا دار بناؤها بالخـشب، مفـروشـة بقطائف قطن يسمونها المخملات (بالميم والخاء المعجم)، منها مصبوغ وغير مصبوغ.

وفى البـيت أسرة من الخـيزران، فوقـها مـضربات من الحـرير، ولحف خفاف، ومخاد، يسمونهـا البوالشت. فجلسنا بالدار، ومعنا النائب. ثم جاء الأمير دولسة بجاريـتين وخادمين، وقال لى: يقـول لك السلطان: هذا على قدرنا، لا على قـدر السلطان محمـد. ثم خرج النائب، وبقى الأميـر دولسة

عندى. وكانت بينى وبينه معرفة؛ لأنه كان ورد رسولاً على السلطان بدهلى. فقلت له: متى تكون رؤية السلطان؟ فقال لى: إن العادة عندنا أن لا يسلم القادم على السلطان. إلا بعد ثلاثة أيام ليذهب عنه تعب السفر، ويثوب إليه ذهنه. فأقمنا ثلاثة أيام، يأتى إلينا الطعام ثلاث مرات فى اليوم، وتأتينا الفواكه والطرف مساء وصباحًا. فلما كان اليوم الرابع، وهو يوم الجمعة، أتانى الأمير دولسة فقال لى: يكون سلامك على السلطان بمقصورة الجامع بعد الصلاة. فأتيت الجامع وصليت به الجمعة مع حاجبه قَيْران (بفتح القاف وسكون الياء آخر الحروف والراء)، ثم دخلت إلى السلطان، فوجدت القاضى أمير سيد، والطلبة عن يمينه وشماله. فصافحنى وسلمت عليه، وأجلسنى عن شماله، وسألنى عن السلطان محمد، وعن أسفارى فأجبته. وعاد إلى المذاكرة فى الفقه على مذهب الإمام الشافعى. ولم يزل كذلك إلى صلاة العصر، فلما صلاها دخل بيتًا هنالك، فنزع الثياب التى كانت عليه، وهى ثياب الفقهاء، وبها يأتى الجامع يوم الجمعة ماشيًا، ثم لبس ثياب الملك، وهى الأقبية من الحرير والقطن.

ولما خرج من الجامع وجد الفيلة والخيل على بابه، والعادة عندهم أنه إذا ركب السلطان الفيل، ركب من معه الخيل. وإذا ركب الفرس، ركبوا الفيلة. ويكون أهل العلم عن يمينه. فركب ذلك اليوم على الفيل، وركبنا الخيل وسرنا معه إلى المشور. فنزلنا حيث العادة، ودخل السلطان راكبًا وقد اصطف فى المشور الوزراء والأمراء والكتاب وأرباب الدولة ووجوه العسكر صفوفًا، فأول الصفوف صف الوزراء والكتاب، ووزراؤه أربعة، فسلموا عليه وانصرفوا إلى موضع وقوفهم، ثم صف الأمراء فسلموا ومضوا إلى مواقفهم. وكذلك تفعل كل طائفة ثم صف الشرفاء والفقهاء ثم صف الندماء والحكماء والشعراء، ثم صف وجوه العسكر، ثم صف الفتيان والمماليك. ووقف السلطان على فيه إزاء قبة الجلوس، ورفع رأسه شطر مرصع، وجعل عن يمينه خمسون فيلاً مزينة، وعن شماله مثلها، وعن يمينه أيضًا مائة فرس، وعن شماله مثلها، وهى خيل النوبة، ووقف بين يديه خواص الحجاب. ثم أتى أهلَ الطربِ من الرجال فغنوا بين يديه، وأتى

بخيل مجللة[١] بالحرير، لها خلاخيل ذهب وأرسان حرير مزركشة، فرقصت الخيل بين يديه فعجبت من شأنها، وكنت رأيت ذلك عند ملك الهند. ولما كان عند الغروب دخل السلطان إلى داره. وانصرف الناس إلى منازلهم.

وكان له ابن أخ متزوج ببنته، فولاه بعض البلاد. وكان الفتى يتعشق بنتًا لبعض الأمراء، ويريد تزوجها. والعادة هنالك أنه إذا كانت لرجل من الناس أمير أو سوقى أو سواه بنت قد بلغت مبلغ النكاح، فلا بد أن يستأمر للسلطان فى شأنها، ويبعث السلطان من النساء من تنظر إليها، فإن أعجبته صفتها تزوجها، وإلا تركها يزوجها أولياؤها ممن شاءوا. والناس هنالك يرغبون فى تزوج السلطان بناتهم، لما يحوزون به من الجاه والشرف. ولما استأمر والد البنت التى تعشقها ابن أخى السلطان، بعث السلطان من نظر إليها وتزوجها. واشتد شغف الفتى بها، ولم يجد سبيلاً إليها. ثم إن السلطان خرج إلى الغزو، وبينه وبين الكفار مسيرة شهر. فخالفه ابن أخيه إلى سمطرة، ودخلها إذ لم يكن عليها سور حينئذ، وادعى الملك، وبايعه بعض الناس، وامتنع آخرون. وعلم عمه بذلك، فقفل[٢] راجعًا عائدًا إليها فأخذ ابن أخيه ما قدر عليه من الأموال والذخائر، وأخذ الجارية التى تعشقها، وقصد بلاد الكفار بمُل جاوه. ولهذا بنى عمه السور على سمطرة. وكانت إقامتى عنده بسمطرة خمسة عشر يومًا، ثم طلبت منه السفر إذ كان أوانه. ولا يتهيأ السفر إلى الصين فى كل وقت. فجهز لنا جنكًا، وزودنا، وأحسن وأجمل جزاه الله خيرًا، وبعث معنا من أصحابه من يأتى لنا بالضيافة إلى الجنك. وسافرنا بطول بلاده إحدى وعشرين ليلة، ثم وصلنا إلى مُل جاوة (بضم الميم)، وهى بلاد الكفار وطولها مسيرة شهرين، وبها الأفاويه العطرة والعود الطيب القاقلى والقمارى، وقاقلة وقمارة من بعض بلادها، وليس ببلاد السلطان

(١) يعنى: مغطاة.

(٢) قفل الجيش: رجع. الوجيز ص(٥١١).

الظاهر بالجاوة إلا اللبان والكافور وشيء من القرنفل وشيء من العود الهندى، وإنما معظم ذلك بمل جاوه. ولنذكر ما شهدناه منها، ووقفنا على أعيانه وحققناه.

أما شجرة اللبان فصغيرة تكون بقدر قامة الإنسان إلى ما دون ذلك، وأغصانها كأغصان الخرشف، وأوراقها صغار رقاق، وربما سقطت فبقيت الشجرة منها دون ورقة. واللبان صمغية تكون فى أغصانها. وهى فى بلاد المسلمين أكثر منها فى بلاد الكفار.

وأما شجرة الكافور فهى قصب كقصب بلادنا، إلا أن الأنابيب منها أطول وأغلظ. ويكون الكافور داخل الأنابيب، فإذا كسرت القصبة. وجد فى داخل الأنبوب مثل شكله من الكافور والسر العجيب فيه أنه لا يتكون فى تلك القصب، حتى يذبح عند أصولها شيء من الحيوان، وإلا لم يتكون شيء منه. والطيب المتناهى فى البرودة الذى يقتل منه وزن الدرهم، بتجميد الروح، وهو المسمى عندهم بالحردالة، هو الذى يذبح عند قصبه الآدمى، ويقوم مقام فى ذلك الفيلة الصغار.

وأما العود الهندى فشجره يشبه شجر البلوط، إلا أن قشره رقيق، وأوراقه كأوراق البلوط سواء، ولا ثمر له. وشجرته لا تعظم كل العظم، وعروقه طويلة، وفيها الرائحة العطرة. وأما عيدان شجرته وورقها، فلا عطرية فيها. وكل ما ببلاد المسلمين من شجره فهو متملك. وأما الذى فى بلاد الكفار فأكثره غير متملك. والمتملك منه إنما كان بقاقلة، وهو أطيب العود. وكذلك القمارى هو أطيب أنواع العود، ويبيعونه لأهل الجاوة بالأثواب. ومن القمارى صنف يطبع عليه كالشمع. وأما العطاس يقطع العرق منه، ويدفن فى التراب أشهراً فتبقى فيه قوته، وهو من أعجب أنواعه.

وأما أشجار القرنفل فهى عادية ضخمة، وهى ببلاد الكفار أكثر منها ببلاد الإسلام، وليست بمتملكة لكثرتها. والمجلوب إلى بلادنا منها هو العيدان، والذى يسميه أهل بلادنا نوّار القرنفل، هو الذى يسقط من زهره، وهو شبيه بزهر النارنج. وثمر القرنفل، هو جوز بوا المعروفة فى بلادنا بجوزة

الطيب، والزهر المتكون فيها هو البسباسة، رأيت ذلك كلّه وشاهدته. ووصلنا إلى مرسى قاقلة، فوجدنا به جملة من الجنوك معد للشرفة، ولمن يستعصى عليهم من الجنوك، فإن لهم على كل جنك وظيفة. ثم نزلنا من الجنك إلى مدينة قاقُلَة (وهى بقافين آخرها مضموم ولامها مفتوح)، وهى مدينة حسنة، عليها سور من حجارة منحوتة، عرضه بحيث تسير فيه ثلاثة من الفيلة. وأول ما رأيت بخارجها الفيلة عليها الأحمال من العود الهندى يوقدونه فى بيوتهم، وهو بقيمة الحطب عندنا أو أرخص ثمنًا، هذا إذا ابتاعوا فيما بينهم. وأما للتجار فيبيعون الحمل منه بثوب من ثياب القطن، وهى أغلى عندهم من ثياب الحرير. والفيلة بها كثيرة جدًّا، عليها يركبون ويحملون وكل إنسان يربط فيلته على بابه، وكل صاحب حانوت يربط فيله عنده، يركبه إلى داره ويحمل له. وكذلك جميع أهل الصين، والخطا على مثل هذا الترتيب.

وكان سلطان مُل جاوه كافرًا، رأيته خارج قصره جالسًا عليه قبة ليس بينه وبين الأرض بساط، ومعه أرباب دولته. والعساكر يعرضون عليه مشاة، ولاخيل هنالك إلا عند السلطان، وإنما يركبون الفيلة، وعليها يقاتلون. فعرف شأنى، فاستدعانى فجئت وقلت: السلام على من اتبع الهدى، فلم يفقهوا إلا لفظ السلام. فرحب بى وأمر أن يفرش لى ثوب أقعد عليه فقلت للترجمان: كيف أجلس على الثوب والسلطان قاعد على الأرض؟ فقال: هكذا عادته يقعد على الأرض تواضعًا، وأنت ضيف، وجئت من سلطان كبير، فيجب إكرامك، فجلست، وسألنى عن السلطان، فأوجز فى سؤاله، وقال لى: تقيم عندنا فى الضيافة ثلاثة أيام، وحينئذ يكون انصرافك.

ورأيت فى مجلس هذا السلطان رجلاً بيده سكين شبه سكين المسفر، قد وضعه على رقبة نفسه، وتكلم بكلام كثير لم أفهمه، ثم أمسك السكين بيده معًا وقطع عنق نفسه. فوقع رأسه لحدة السكين، وشدة إمساكه بالأرض. فعجبت من شأنه، وقال لى السلطان: أيفعل هذا عندكم؟ فقلت له: ما رأيت هذا قط. فضحك وقال: هؤلاء عبيدنا، يقتلون أنفسهم فى

محبتنا. وأمر به فرفع وأحرق. وخرج لإحراقه النواب وأرباب الدولة والعساكر والرعايا. وأجرى الرزق الواسع على أولاده وأهله وإخوانه، وعظموا لأجل فعله. وأخبرنى من كان حاضراً فى ذلك المجلس أن الكلام الذى تكلم به، كان تقريراً لمحبته فى السلطان، وأنه يقتل نفسه فى حبه، كما قتل أبوه نفسه فى حب أبيه، وجده قتل نفسه فى حب جده، ثم انصرفت عن المجلس. وبعث إلى بضيافة ثلاثة أيام. وسافرنا فى البحر فوصلنا بعد أربعة وثلاثين يومًا إلى البحر الكاهل، وهو الراكد وفيه حمرة زعموا أنها من تربة أرض تجاوره. ولا ريح فيه ولا موج ولا حركة مع اتساعه. ولأجل هذا البحر تتبع كل جنك من جنوك الصين ثلاثة مراكب، كما ذكرناه، تجذف به فتجره. ويكون فى الجنك مع ذلك نحو عشرين مجذافًا كالصوارى، يجتمع على المجذاف منها ثلاثون رجلاً أو نحوها، ويقومون قيامًا صفين، كل صف يقابل الآخر. وفى المجذاف حبلان عظيمان كالطوابيس. فتجذف إحدى الطائفتين الحبل، ثم تتركه، وتجذف الطائفة الأخرى. وهم يغنون عند ذلك بأصواتهم الحسان، وأكثر ما يقولون: لعلى لعلى. وأقمنا على ظهر هذا البحر سبعة وثلاثين يومًا، وعجبت البحرية من التسهيل فيه، فإنهم يقيمون فيه خمسين يومًا إلى أربعين، وهى أنهى ما يكون من التيسير عليهم. ثم وصلنا إلى بلاد طَوالسِى وهى (بفتح الطاء المهمل والواو وكسر السين المهمل)، وملكها هو المسمى بطوالسى. وهى بلاد عريضة، وملكها يضاهى ملك الصين. وله الجنوك الكثيرة، يقاتل بها أهل الصين حتى يصالحوه على شىء. وأهل هذه البلاد عبدة أوثان، حسان الصور، أشبه الناس بالترك فى صورهم، والغالب على ألوانهم الحمرة، ولهم شجاعة ونجدة. ونساؤهم يركبن الخيل، ويحسنّ الرماية، ويقاتلن كالرجال سواء. وأرسينا من مراسيهم بمدينة كَيْلُوكرِى (وضبطها بكاف مفتوح وياء آخر الحروف مسكنة ولام مضموم وراء مكسور)، وهى من أحسن مدنهم وأكبرها، وكان يسكن بها ابن ملكهم. فلما أرسينا بالمرسى جاءت عساكرهم، ونزل الناخوذة إليهم، ومعه هدية لابن الملك، فسألهم عنه، فأخبروه أن أباه ولاه بلدًا غيرهم،

وولى بنته بتلك المدينة واسمها أُرْدُجا (بضم الهمزة وسكون الراء وضم الدال المهمل وجيم).

ولما كان اليوم الثانى من حلولنا بمرسى كيلوكرى، استدعت هذه الملكة الناخوذة صاحب المركب والكرانى، وهو الكاتب والتجار، والرؤساء، والتنديل، وهو مقدم الرجال، وسباه سالار، وهو مقدم الرماة، لضيافة صنعتها لهم على عادتها. ورغب الناخوذة منى أن أحضر معم. فأبيت، لأنهم كفار لا يجوز أكل طعامهم. فلما حضروا عندها، قالت لهم: هل بقى أحد منكم لم يحضر؟ فقال لها الناخوذة: لم يبق إلا رجل واحد بَخْشِى وهو القاضى بلسانهم، وبخشى (بفتح الباء الموحدة وسكون الخاء وكسر الشين المعجمة)، وهو لا يأكل طعامكم. فقالت: ادعوه. فجاء جنادرتها وأصحاب الناخوذة، فقالوا: أجب الملكة. فأتيتها، وهى بمجلسها الأعظم، بين يديها نسوة، بأيديهن الأزمة، يعرضن ذلك عليها، وحولها النساء القواعد، وهن وزيراتها، وقد جلسن تحت السرير على كراسى الصندل، وبين يديها الرجال. ومجلسها مفروش بالحرير، وعليه ستور حرير وخشبه من الصندل، وعليه صفائح الذهب. وبالمجلس مساطب خشب، منقوش عليها أوانى ذهب كثيرة من كبار وصغار كالخوابى والقلال والبواقيل. أخبرنى الناخوذة أنها مملوءة بشراب مصنوع من السكر مخلوط بالأفاويه، يشربونه بعد الطعام، وأنه عطر الرائحة حلو المطعم، يفرح ويطيب النكهة، ويهضم، ويعين على الباءة، فلما سلمت على الملكة قالت لى بالتركية: حسن مسن يخشى مسن (خوشميسن يخشميسن)، معناه: كيف حالك؟ كيف أنت؟ وأجلستنى على قرب منها وكانت تحسن الكتاب العربى، فقالت لبعض خدامها: دواة وبتك كاتور (كتور) معناه: الدواة والكاغد. فأتى بذلك فكتبت فيه بسم الله الرحمن الرحيم. فقالت: ما هذا؟ فقلت لها: تنضرى (تنكرى) نام، وتَنْضَرى (بفتح التاء المعلوة وسكون النون وفتح الضاد وراء وياء) ونام (بنون وألف وميم)، ومعنى ذلك اسم الله. فقالت: خشن (خوش)، ومعناه جيد. ثم سألتنى من أى البلاد قدمت، فقلت لها من بلاد الهند. فقالت: بلاد الفلفل. فقلت: نعم. فسألتنى عن تلك البلاد وأخبارها فأجبتها.

فقالت: لا بد أن أغزوها وآخذها لنفسى، فإنى يعجبنى كثرة مالها وعساكرها. فقلت لها: افعلى. وأمرت لى بأثواب وحمل فِيلَيْنِ من الأرز وبجاموستين وعشر من الضأن وأربعة أرطال جلاب وأربع مرطبانات، وهى أوانٍ ضخمة، مملوءة بالزنجبيل والفلفل والليمون والعنبا. كل ذلك مملوح مما يستعد به للبحر، وأخبرنى الناخوذة أن هذه الملكة فى عسكرها نسوة وخدم وجوار يقاتلن كالرجال، وأنها تخرج فى العساكر من رجال ونساء، فتغير على عدوها، وتشاهد القتال، وتبارز الأبطال. وأخبرنى أنها وقع بينها وبين بعض أعدائها قتال شديد، وقتل كثير من عسكرها، وكادوا ينهزمون، فدفعت بنفسها، وخرقت الجيوش، حتى وصلت إلى الملك الذى كانت تقاتله، فطعنته طعنة كان فيها حتفه فمات، وانهزمت عساكره. وجاءت برأسه على رمح فافتكّه أهله منها بمال كثير. فلما عادت إلى أبيها ملكها تلك المدينة التى كانت بيد أخيها. وأخبرنى أن أبناء الملوك يخطبونها، فتقول: لا أتزوج إلا من يبارزنى فيغلبنى. فيتحامون مبارزتها، خوف المعرة إن غلبتهم. ثم سافرنا عن بلاد طوالسى فوصلنا بعد سبعة عشر يومًا والريح مساعدة لنا، ونحن نسير بها أشد السير وأحسنه إلى بلاد الصين. وإقليم الصين متسع، كثير الخيرات والفواكه والزرع والذهب والفضة، لا يضاهيه فى ذلك إقليم من أقاليم الأرض. ويخترقه النهر المعروف بآب حياة، معنى ذلك ماء الحياة، ويسمى أيضًا نهر السبر (السرو). كاسم النهر الذى بالهند ومنبعه من جبال بقرب مدينة خان بالق تسمى كوه بوزنه، معناه جبل القرود، ويمر فى وسط الصين مسيرة ستة أشهر إلى أن ينتهى إلى صين الصين. وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والأسواق كنيل مصر، إلا أن هذه أكثر عمارة وعليه النواعير الكثيرة.

وببلاد الصين السكر الكثير مما يضاهى المصرى، بل يفضله، والأعناب والإجاص. وكنت أظن أن الإجاص العثمانى الذى بدمشق لا نظير له، حتى رأيت الإجاص الذى بالصين. وبها البطيخ العجيب، يشبه بطيخ خوارزم وأصفهان. وكل ما ببلادنا من الفواكه فإن بها مثله وأحسن منه. والقمح بها كثير جدًّا، ولم أر قمحًا أطيب منه، وكذلك العدس والحمص.

وأما الفخار الصينى فلا يصنع منه إلا بمدينة الزيتون وبصين كلان. وهو من تراب جبال هنالك، توقد فيه النار كالفحم، وسنذكر ذلك، ويضيفون إليه حجارة عندهم. ويوقدون النار عليها ثلاثة أيام، ثم يصبون عليها الماء، فيعود الجميع ترابًا، ثم يخمرونه. فالجيد منه ما خمر شهرًا كاملاً، ولا يزاد على ذلك. والدون ما خمر عشرة أيام. وهو هنالك بقيمة الفخار ببلادنا أو أرخص ثمنًا. ويحمل إلى الهند وسائر الأقاليم، حتى يصل إلى بلادنا بالمغرب. وهو أبدع أنواع الفخار.

ودجاج الصين وديوكها ضخمة جدًّا، أضخم من الإوز عندنا. وبيض الدجاج عندهم أضخم من بيض الإوز عندهم فلا ضخامة لها. ولقد اشترينا دجاجة، فأردنا طبخها، فلم يسع لحمها فى برمة(١) واحدة، فجعلناها فى برمتين. ويكون الديك بها على قدر النعامة. وربما انتتف ريشها، فيبقى بضعة حمراء. وأول ما رأيت الديك الصينى بمدينة كولم، فظننته نعامة وعجبت منه، فقال لى صاحبه: إن ببلاد الصين ما هو أعظم منه. فلما وصلت إلى الصين رأيت مصداق ما أخبرنى به من ذلك.

وأهل الصين كفار يعبدون الأصنام، ويحرقون موتاهم كما تفعل الهنود. وملك الصين تترى من ذرية تنكيز خان. وفى كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين، ينفردون بسكانهم، ولهم فيها المساجد لإقامة الجمعات وسواها وهم معظمون محترمون. وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب، ويبيعونها فى أسواقهم. وهم أهل رفاهية وسعة عيش، إلا أنهم لا يحتفلون فى مطعم ولا ملبس. وترى التاجر الكبير منهم الذى لا تحصى أمواله كثرة، وعليه جبة قطن خشنة. وجميع أهل الصين إنما يحتفلون فى أوانى الذهب والفضة. ولكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه فى المشى، ويقولون هو الرِّجل الثالثة. والحرير عندهم كثير جدًّا، لأن الدودة تتعلق بالثمار وتأكل منها فلا تحتاج إلى كثير مؤونة، ولذلك كثر، وهو لباس الفقراء

---

(١) البرمة: القدر من الحجارة، وجمعه: بُرَم، وبِرَام. الوجيز ص(٤٧).

والمساكين بها، ولولا التجار لما كانت له قيمة. ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأثواب الكثيرة من الحرير. وعادتهم أن يسبك التاجر مايكون عنده من الذهب والفضة قطعًا، تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه، ويجعل ذلك على باب داره. ومن كان له خمس عشرة قطع منها، جعل فى إصبعه خاتمًا، ومن كانت له عشر جعل خاتمين، ومن كان له خمس سموه السَّتِى (بفتح السين المهمل وكسر التاء المعلوة) وهو بمعنى الكارمى بمصر. ويسمون القطعة الواحدة منها بَرْكالة (بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وفتح الكاف واللام).

وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم. وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعًا، كما ذكرناه، وإنما بيعهم وشراؤهم. بقطع كاغد، كل قطعة منها بقدر الكف، مطبوعة بطابع السلطان، وتسمى الخمس والعشرون قطعة منها، بَالِشْت (بباء موحدة وألف ولام مكسور وسين معجم مسكن وتاء معلوة)، وهو بمعنى الدينار عندنا. وإذا تمزقت تلك الكواغد فى يد إنسان حملها إلى دار كدار السكة عندنا، فأخذ عوضها جدداً ودفع تلك. ولا يعطى على ذلك أجرة ولا سواها، لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من قبل السلطان، وقد وكل بتلك الدار أمير من كبار الأمراء. وإذا مضى الإنسان إلى السوق بدرهم فضة أو دينار يريد شراء شىء، لم يؤخذ منه، ولا يلتفت عليه، حتى يصرفه بالبالشت، ويشترى به ما أراد.

وجميع أهل الصين والخطا، إنما فحمهم تراب عندهم، منعقد كالطَّفل(١) عندنا، ولونه الطَّفل، تأتى الفيلة بالأحمال منه، فيقطعونه قطعًا على قدر قطع الفحم عندنا، ويشعلون النار فيه. فيتقد كالفحم، وهو أشد حرارة من نار الفحم. وإذا صار رماداً عجنوه بالماء وييبسوه وطبخوا به ثانية. ولا يزالون يفعلون به كذلك إلى أن يتلاشى. ومن هذا التراب يصنعون أوانى الفخار الصينى، ويضيفون إليه حجارة سواه، كما قلنا.

---

(١) الطفل: طين أصفر يتجمد على هيئة دقائق بتأثير ضغط ما فوقه من صخور، وتصبغ به الثياب، وجمعه: طفول. الوجيز ص(٣٩٢).

وأهل الصين أعظم الأمم إحكامًا للصناعات، وأشدهم إتقانًا فيها، وذلك مشهور من حالهم، قد وصفه الناس فى تصانيفهم فأطنبوا فيه، وأما التصوير فلا يجاريهم أحد فى إحكامه، من الروم ولا من سواهم. فإن لهم فيه اقتدارًا عظيمًا. ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك، أنى ما دخل قط مدينة من مدنهم، ثم عدت إليها، إلا ورأيت صورتى وصور أصحابى منقوشة فى الحيطان والكواغد، موضوعة فى الأسواق.

ولقد دخلت إلى مدينة السلطان فمررت على سوق النقاشين، ووصلت إلى قصره مع أصحابى، ونحن على زى العراقيين. فلما عدت من القصر عشيًا، مررت بالسوق المذكورة، فرأيت صورتى وصور أصحابى منقوشة فى كاغد قد ألصقوه بالحائط. فجعل الواحد منا ينظر إلى صورة صاحبه لا تخطىء شيئًا من شبهه.

وذكر لى السلطان أمرهم بذلك، وأنهم أتوا إلى قصره ونحن به، فجعلوا ينظرون إلينا ويصورون صورنا، ونحن لم نشعر بذلك، وتلك عادة لهم فى تصوير كل من يمر بهم. وتنتهى حالهم فى ذلك إلى أن الغريب إذا فعل ما يوجب فراره عنهم، بعث صورته إلى البلاد، وبحث عنه. فحيثما وجد شبه تلك الصورة أخذ.

قال ابن جزى: هذا مثل ما حكاه أهل التأريخ من قضية سابور ذى الأكتاف، ملك الفرس، حين دخل إلى بلاد الروم متنكرًا، وحضر وليمة صنعها ملكهم، وكانت صورته على بعض الأوانى فنظر إليها بعض خدام قيصر، فانطبعت على صورة سابور. فقال لملكه: إن هذه الصورة تخبرنى أن كسرى معنا فى هذا المجلس. فكان الأمر على ما قاله، وجرى فيه ما هو مسطور فى الكتب.

وعادة أهل الصين إذا أراد جنك من جنوكهم السفر، صعد إليه صاحب البحر وكتابه، وكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدم والبحرية، وحينئذ يباح لهم السفر. فإذا عاد الجنك إلى الصين، صعدوا إليه أيضًا وقابلوا ما قيدوه

بأشخاص الناس، فإن فقدوا أحدًا ممن قيدوه، طالبوا صاحب الجنك. فإما أن يأتى ببرهان على موته أو فراره، أو غير ذلك مما يحدث عليه، وإلا أخذ فيه. فإذا فرغوا من ذلك أمروا صاحب المركب أن يملى عليهم تفصيلاً بجميع ما فيه من السلع، قليلها وكثيرها، ثم ينزل من فيه، ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم. فإن عثروا على سلعة قد كتمت عنهم، عاد الجنك بجميع ما فيه مالاً للمخزن وذلك نوع من الظلم ما رأيته ببلاد الكفار ولا المسلمين إلا بالصين، اللهم إلا أنه كان بالهند ما يقرب منه.

وإذا قدم التاجر المسلم على بلد من بلاد الصين خيّر فى النزول عند تاجر من المسلمين المتوطنين معيّن أو فى الفندق، فإن أحب النزول عند التاجر حصر ماله، وضمنه التاجر المستوطن، وأنفق عليه منه بالمعروف. فإذا أراد السفر بحث عن ماله، فإن وجد شيئًا منه قد ضاع، أغرمه التاجر المستوطن الذى ضمنه، وإن أراد النزول بالفندق، سلم ماله لصاحب الفندق وضمنه، وهو يشترى له ما أحب ويحاسبه، فإن أراد التسرى اشترى له جارية، وأسكنه بدار يكون بابها فى الفندق، وأنفق عليهما. والجوارى رخيصات الأثمان، إلا أن أهل الصين أجمعين يبيعون أولادهم وبناتهم، وليس ذلك عيبًا عندهم غير أنهم لا يجبرون على السفر مع مشتريهم، ولا يمنعون أيضًا منه إن اختاروه. وكذلك إن أراد التزوج تزوج. وأما إنفاق ماله فى الفساد فشىء لا سبيل له إليه. ويقولون: لا نريد أن يسمع فى بلاد المسلمين أنهم يخسرون أموالهم فى بلادنا، فإنها أرض ضلال.

وبلاد الصين آمن البلاد وأحسنها حالاً للمسافرين. فإن الإنسان يسافر منفردًا مسيرة تسعة شهور، وتكون معه الأموال الطائلة، فلا يخاف عليها. وترتيب ذلك أن لهم فى كل منزل ببلادهم فندقًا، عليه حاكم يسكن به فى جماعة من الفرسان والرجال، فإذا كان بعد المغرب أو العشاء، جاء الحاكم إلى الفندق، ومعه الكاتب لكتابة أسماء جميع من يبيت به من المسافرين، وختم عليها، وأقفل باب الفندق عليهم. فإذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه فدعا كل واحد باسمه، وكتب به تفصيلا، وبعث معهم من يوصلهم إلى

المنزل الثانى له، ويأتيه ببراءة من حاكمه أن الجميع قد وصلوا إليه. وإن لم يفعل طلبه لهم. وهكذا العمل فى كل منزل ببلادهم من صين الصين إلى خان بالق. وفى هذه الفنادق جميع ما يحتاج إليه المسافر من الأزواد، وخصوصًا الدجاج والإوز. وأما الغنم فهى قليلة عندهم.

ولنعد إلى ذكر سفرنا فنقول: لما قطعنا البحر، كانت أول مدينة وصلنا إليها مدينة الزيتون. وهذه المدينة ليس بها زيتون، ولا بجميع بلاد أهل الصين والهند، ولكنه اسم وضع عليها، وهى مدينة عظيمة كبيرة، تصنع بها ثياب الكمخا والأطلس، وتعرف بالنسبة إليها، وتفضل على الثياب الخنساوية والخنبالقية. ومرساها من أعظم مراسى الدنيا، أو هو أعظمها. رأيت به نحو مائة جنك كبار، وأما الصغر فلا تحصى كثرة. وهو خور كبير من البحر يدخل فى البر حتى يختلط بالنهر الأعظم. وهذه المدينة وجميع بلاد الصين، يكون للإنسان بها البستان والأرض وداره فى وسطها. كمثل ما هى بلدة سجلماسة ببلادنا. وبهذا عظمت بلادهم. والمسلمون ساكنون بمدينة على حدة. وفى يوم وصولى إليها رأيت بها الأمير الذى توجه إلى الهند رسولاً بالهدية، ومضى فى صحبتنا وغرق به الجنك، فسلم على، وعرّف صاحب الديوان بى، فأنزلنى فى منزل حسن. وجاء إلى قاضى المسلمين تاج الدين الأردويلى، وهو من الأفاضل الكرماء، وشيخ الإسلام كمال الدين عبد الله الأصفهانى، وهو من الصلحاء، جاء إلى كبار التجار، فيهم شرف الدين التبريزى، أحد التجار الذين استدنت منهم حين قدومى على الهند، وأحسنهم معاملة، حافظ القرآن، مكثر للتلاوة. وهؤلاء التجار لسكناهم فى بلاد الكفار، إذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح، وقالوا: جاء من أرض الإسلام. وله يعطون زكوات أموالهم، فيعود غنيًا، كواحد منهم. وكان بها من المشايخ الفضلاء برهان الدين الكازرونى. له زاوية خارج البلد، وإليه يدفع التجار النذور التى ينذرونها للشيخ أبى إسحاق الكازرونى. ولما عرف صاحب الديوان أخبارى، كتب إلى القان، وهو ملكهم الأعظم، يخبره بقدومى من جهة ملك الهند. فطلبت منه أن يبعث معى من يوصلنى لبلاد

الصين (صين الصين)، وهم يسمونه صين كـلان، لأشاهد تلك البلاد، وهى فى عمالته، بخلال ما يعـود جواب القان. فأجاب إلى ذلك، وبعث معى من أصحـابى من يوصلنى. وركبت فى النهر، فى مـركب يشبـه أجفـان بلادنا الغزوية، إلا أن الجذافين يـجذفون فيه قـيامًا، وجميـعهم فى وسط المركب، والركـاب فى المقدم والمؤخـر، ويظللون على المركب بثـياب تصنع من نبـات بلادهم، يشبه الكتان، وليس به، وهو أرق من القنب.

وسافـرنا فى هذا النهر سبعـة وعشرين يومًـا. وفى كل يوم نرسو عند الزوال بقرية، نشترى بها ما نحتاج إليه، ونصلى الظهر. ثم ننزل بالعشى إلى أخرى. وهكذا إلى أن وصلنا مـدينة صين كَلان (بفـتح الكاف)، وهى مدينة صين الصين، وبهـا يصنع الفخار، وبالـزيتون أيضًا. وهنالك يـصب نهر آب حيـاة فى البحر، يسمـونه مجمع البـحرين. وهى من أكبر المدن، وأحـسنها أسواقًا. ومن أعظم أسواقها سوق الفخار، ومنها يحمل إلى سائر بلاد الصين والهند واليمن. وفى وسط هذه المدينة كنيسة عظيمة، لها تسعة أبواب، داخل كل باب أسطوان ومصـاطب، يقعد عليهـا الساكنون بها، وبين البـابين الثانى والثالث منها موضع فيه بيوت يسكنها العميان، وأهل الزمانات. ولكل واحد منهم نفقته وكسوته من أوقاف الكنيسة. وكذلك فيما بين الأبواب كلها. وفى داخلها المارستان لـلمرضى، والمطبخة لطبخ الأغذية، وفيـها الأطباء والخدام. وذكر لى أن الشيوخ الذين لا قدرة لهم على التكسب، لهم نفقتهم وكسوتهم بهذه الكنيسة، وكذلك الأيتام والأرامل ممـن لا مال لهم. وعمَّر هذه الكنيسة بعض ملوكهم، وجعل هذه المدينة وما إليها من القـرى والبساتين وقفًا عليها. وصور ذلك الملك مـصورة بالكنيـسة المذكـورة، وهم يعبدونهـا. وفى بعض جهات هذه المديـنة بلدة المسلمين، لهم بها المسجد الجـامع والزاوية والسوق، ولهم قـاض وشيخ. ولا بد فى كل بلـد من بلاد الصين من شيخ الإسـلام، تكون أمور المسلمين كلها راجعة إليـه، وقاض يقضى بينهم. وكان نزولى عند أوحـد الدين السنجـارى، وهو أحد الفـضلاء الأكـابر ذو الأمـوال الطائلة، وأقمت عنده أربعة عـشر يومًا، وتحف القاضى وسـائر المسلمين تتوالى على.

وكل يوم يصنعون دعوة جديدة. ويأتون إليها بالعُشارين الحسان والمغنين. وليس وراء هذه المدينة مدينة، لا للكفار ولا للمسلمين. وبينها وبين سد يأجوج ومأجوج ستون يومًا فيما ذكر لى، يسكنها كفار رحالة يأكلون بنى آدم إذا ظفروا بهم. ولذلك لا تسلك بلادهم ولا يسافر إليها. ولم أر بتلك البلاد من رأى السدّ، ولا من رأى من رآه.

ولما كنت بصين كلان، سمعت أن بها شيخًا كبيرًا قد أناف على مائتى سنة، وأنه لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث، ولا يباشر النساء مع قوته التامة، وأنه ساكن فى غار بخارجها يتعبد فيه. فتوجهت إلى الغار، فرأيته على بابه، وهو نحيف شديد الحمرة، عليه أثر العبادة، ولا لحية له. فسلمت عليه فأمسك يدى وشمها وقال للترجمان: هذا من طرف الدنيا، كما نحن من طرفها الآخر. ثم قال لقد رأيت عجبًا. أتذكر يوم قدومك الجزيرة التى فيها الكنيسة، والرجل الذى كان جالسًا بين الأصنام وأعطاك عشرة دنانير من الذهب؟ فقلت: نعم. فقال: أنا هو. فقبلت يده وفكر ساعة، ثم دخل الغار، فلم يخرج إلينا. وكأنه ظهر منه الندم على ما تكلم به. فتهجمنا ودخلنا الغار عليه فلم نجده. ووجدنا بعض أصحابه، ومعه جملة بوالشت من الكاغد. فقال: هذه ضيافتكم. فانصرفوا. فقلنا له: ننتظرالرجل. فقال: لو أقمتم عشر سنين لم تروه. فإن عادته إذا اطلع أحد على سر من أسراره لا يراه بعده. ولا تحسب أنه غاب عنك، بل هو حاضر معك. فعجبت من ذلك، وانصرفت. فأعلمت القاضى وشيخ الإسلام وأوحد الدين السنجارى بقضيته، فقالوا: كذلك عادته مع من يأتى إليه من الغرباء، ولا يعلم أحد ما ينتحله من الأديان. والذى ظننتموه أحد أصحابه هو هو. وأخبرونى أنه كان قد غاب عن هذه البلاد نحو خمسين سنة ثم قدم عليها منذ سنة، وكان السلاطين والأمراء والكبراء يأتونه زائرين، فيعطيهم التحف على أقدارهم. ويأتيه الفقراء كل يوم، فيعطى لكل واحد على قدره. وليس فى الغار الذى هو به ما يقع عليه البصر. وأنه يحدث عن السنين الماضية، ويذكر النبى -ﷺ-، ويقول: لو كنت معه لنصرته. ويذكر الخليفتين عمر بن

الخطاب وعلى بن أبى طالب بأحسن الذكر، ويثنى عليهما. ويلعن يزيد بن معاوية، ويقع فى معاوية. وحدثونى عنه بأمور كثيرة. وأخبرنى أوحد الدين السنجارى قال: دخلت عليه الغار، فأخذ بيدى. فخيل إلى أنى فى قصر عظيم، وأنه قاعد فيه على سرير، وفوق رأسه تاج، وعن جانبيه الوصائف الحسان، والفواكه تتساقط فى أنهار هنالك، وتخيلت أنى أخذت تفاحة لآكلها، فإذا أنا بالغار، وبين يديه، وهو يضحك منى. وأصابنى مرض شديد لازمنى شهوراً، فلم أعد إليه.

وأهل تلك البلاد يعتقدون أنه مسلم. لكن لم يره أحد يصلى. أما الصيام فهو صائم أبدًا. وقال لى القاضى: ذكرت له الصلاة فى بعض الأيام، فقال لى: أتدرى أنت ما أصنع؟ إن صلاتى غير صلاتك. وأخباره جميعها غريبة. وفى اليوم الثانى من لقائه سافرت راجعًا إلى مدينة الزيتون.

ثم بعد وصولى إليها بأيام، جاء أمر القان بوصولى إلى حضرته على البر والكرامة. إن شئت فى النهر، وإلا ففى البر. فاخترت السفر فى النهر. فجهزوا لى مركبًا حسنًا من المراكب المعدة لركوب الأمراء، وبعث الأمير معنا أصحابه، ووجه لنا الأمير والقاضى والتجار المسلمون أزوادًا كثيرة. ثم سرنا فى الضيافة، نتغدى بقرية، ونتعشى بأخرى، فوصلنا بعد سفر عشرة أيام إلى مدينة قَنْجَنْفُو (وضبط اسمها بفتح القاف وسكون النون وفتح الجيم وسكون النون الآخر وضم الفاء وواو) وهى مدينة كبيرة حسنة فى بسيط أفيح، والبساتين محدقة بها، فكأنها غوطة[1] دمشق. وعند وصولنا، خرج إلينا القاضى وشيخ الإسلام والتجار، ومعهم الأعلام والطبول والأبواق والأنفار وأهل الطرب. وأتونا بالخيل فركبنا، ومشوا بين أيدينا، ولم يركب معنا غير القاضى والشيخ. وخرج أمير البلد وخدامه. وضيف السلطان عندهم معظم أشد التعظيم. دخلنا المدينة، ولها أربعة أسوار. يسكن ما بين السور الأول والثانى عبيد السلطان، من حراس المدينة وسمارها، يسمون البَصْوانان (الباسوانان) (بفتح الباء الموحدة وسكون الصاد المهمل وواو وألف ونون)،

---

(١) الغوطة: مجتمع النبات والماء. الوجيز ص(٤٥٧).

ويسكن ما بـين السور الثانى والثـالث الجنود المركبـون، والأميـر الحاكم على البلد، ويسكن داخل السور الثالث المسلمون. وهنالك نزلنا عند شيخهم ظهير الدين القُـرْلانى (بـضم القـاف وسكون الراء)، ويسكـن داخل السـور الرابع الصينيون، وهو أعظم المدن الأربعة. ومقـدار ما بين كل باب منها والذى يليه ثلاثة أميال وأربعة. ولكل إنسان كما ذكرناه بستانه وداره وأرضه.

وبينا أنا يومًـا فى دار ظهـير الدين القـرلانى، إذا بمركب عظيم لبـعض الفـقهـاء المعظمين عندهم. فـاستـؤذن له على، وقـالوا: مولانا قـوام الدين السبتى. فعـجبت من اسمه. ودخل إلى. فلما حصلت المؤانسة بعـد التحية، سنح[1] لى أن أعـرفه. فـأطلت النظر إليـه، فـقـال: أراك تنظر إلى نظر من يعرفنى، فقلت له: من أى البلاد أنت؟ فقـال: من سبتة. فقلت له: وأنا من طنجة. فـجدد السلام علىَّ وبكى حتى بكيـت لبكائه. فقلت له: هل دخلت بلاد الهند؟ فقال لى: نعم، دخلت حضـرة دهلى. فلما قال لى ذلك تذكرت له، وقلت: أأنت البشرى؟ قال: نعم وكـان قد وصل إلى دهلى مع خاله أبى القاسم المرسى، وهـو يومئذ شـاب، لا نبات بعارضـيه، من حـذاق الطلبة، يحفظ الموطـأ. وكنت أعلمت سلطان الهند بأمره، فـأعطاه ثلاثة آلاف دينار، وطلب منه الإقامة عنده فأبى. وكان قـصده فى بلاد الصين، فعظم شأنه بها، واكتـسب الأموال الطائلة. أخـبرنى أنه له نحـو خمـسين غلامًا ومـثلهم من الجوارى. وأهدى إلى منهم غلامين وجـاريتين وتحفًا كثيرة. ولقـيت أخاه بعد ذلك ببلاد السودان فـيا بعد ما بينهما. وكـانت إقامتى بقنجنفو خمـسة عشر يومًا.

وسـافرت منهـا إلى بلاد الصين، على مـا فـيهـا من الحـسن لم تكن تعجـبنى، بل كان خـاطرى شديد التغـير بسـبب غلبة الكفر علـيها. فـمتى خرجت عن منزلى رأيت المنـكرات الكثيرة، فأقـلقنى ذلك، حتى كنت ألازم المنزل، فلا أخرج إلا للضـرورة. وكنت إذا رأيت المسلمين بها، فكأنى لقيت

(١) سنح: عرض وخطر. الوجيز ص(٣٢٣).

أهلى وأقاربى. ومن تمام فضيلة هذا الفقيه البشرى، أن سافر معى لما رحلت عن قنجنفو أربعة أيام، حتى وصلت إلى مدينة بَيْوَمقُطْلو (وهى بباء موحدة مفتوحة وياء آخر الحروف ساكنة وواو مفتوحة وميم وقاف مضموم وطاء مسكنة ولام مضموم وواو) مدينة صغيرة يسكنها الصينيون من جند وسوقة، ليس بها للمسلمين إلا أربعة من الدور أهلها من جهة الفقيه المذكور. نزلنا بدار أحدهم وأقمنا عنده ثلاثة أيام. ثم ودعت الفقيه وانصرفت. فركبت النهر على العادة، نتغدى بقرية ونتعشى بأخرى إلى أن وصلنا بعد سبعة عشر يومًا إلى مدينة الخنساء، واسمها على نحو اسم الخنساء الشاعرة. ولا أدرى، أعربىٌّ هو أم وافق العربى. وهذه المدينة أكبر مدينة رأيتها على وجه الأرض. طولها مسيرة ثلاثة أيام يرحل المسافر فيها وينزل.

وهى على ما ذكرناه من ترتيب عمارة الصين، كل واحد له بستانه وداره. وهى منقسمة إلى ست مدن، سنذكرها. وعند وصولنا إليها، خرج إلينا قاضيها فخر الدين، وشيخ الإسلام بها، وأولاد عثمان بن عفان المصرى، وهم كبراء المسلمين بها، ومعهم علم أبيض والأطبال والأنفار والأبواق. وخرج أميرها فى موكبه، ودخلنا المدينة. وهى ست مدن، على كل مدينة سور، ومحدق[1] بالجميع سور واحد. فأول مدينة منها يسكنها حراس المدينة وأميرهم. حدثنى القاضى وسواه أنهم اثنا عشر ألفًا فى زمام العسكرية. وبتنا ليلة دخولنا فى دار أميرهم. وفى اليوم الثانى دخلنا المدينة الثانية، على باب يعرف بباب اليهود. ويسكن بها اليهود والنصارى والترك عبدة الشمس، وهم كثير. وأمير هذه المدينة من أهل الصين. وبتنا عنده الليلة الثانية.

وفى اليوم الثالث دخلنا المدينة الثالثة، ويسكنها المسلمون. ومدينتهم حسنة، وأسواقهم مرتبة كترتيبها فى بلاد الإسلام. وبها المساجد والمؤذنون سمعناهم يؤذنون بالظهر، عند دخولنا. ونزلنا منها بدار أولاد عثمان بن عفان

---

(١) يعنى: ويحيط بالجميع سور واحد.

المصرى، وكان أحد التجار الكبار. استحسن هذه المدينة فاستوطنها، وعرفت بالنسبة إليه وأورث عقبه به الجاه والحرمة على ما كان عليه أبوهم من الإيثار على الفقراء والإعانة للمحتاجين. ولهم زاوية تعرف بالعثمانية، حسنة العمارة، لها أوقاف كثيرة. وبها طائفة من الصوفية. وبنى عثمان المذكور المسجد الجامع بهذه المدينة، ووقف عليه وعلى الزاوية أوقافًا عظيمة. وعدد المسلمين بهذه المدينة كثير.

وكانت إقامتنا عندهم خمسة عشر يومًا. فكنا كل يوم وليلة فى دعوة جديدة. ولا يزالون يختلفون فى أطعمتهم، ويركبون معنا كل يوم للنزهة فى أقطار المدينة. وركبوا معى يومًا، فدخلنا إلى المدينة الرابعة، وهى دار الإمارة. وبها سكنى الأمير الكبير قرطىْ. ولما دخلنا من بابها. ذهب عنى أصحابى، ولقينى الوزير وذهب بى إلى دار الأمير الكبير قرطى. فكان من أخذه الفرجية التى أعطانيها ولى الله جلال الدين الشيرازى ما قد ذكرته. وهذه المدينة منفردة لسكنى عبيد السلطان وخدامه، وهى من أحسن المدن الست. ويشقها أنهار ثلاثة: أحدها خليج يخرج من النهر الأعظم، وتأتى فيه القوارب الصغار إلى هذه المدينة بالمرافق من الطعام، وأحجار الوقد. وفيه السفن للنزهة. والمشور فى وسط هذه المدينة، وهو كبير جدًّا ودار الإمارة فى وسطه، وهو يحف بها من جميع الجهات. وفيه سقائف(١)، فيها الصناع يصنعون الثياب النفيسة وآلات الحرب. أخبرنى الأمير قرطى أن عددهم ألف وستمائة معلم. كل واحد منهم يتبعه الثلاثة والأربعة من المتعلمين. وهم أجمعون عبيد القان، وفى أرجلهم القيود، ومساكنهم خارج القصر. ويباح لهم الخروج إلى أسواق المدينة، دون الخروج على بابها. ويعرضون كل يوم على الأمير مائة مائة. فإن نقص أحدهم، طلب به أميره. وعادتهم أنه إذا خدم أحدهم عشر سنين فك عنه قيده، وكان يخير فى النظرين: إما أن يقيم فى الخدمة غير مقيد، وإما أن يسير حيث شاء من بلاد القان، ولا يخرج

(١) السقائف مفردها: السقيفة: وهى العريش يستظل به. الوجيز ص(٣١٤).

عنها. وإذا بلغ سنه خمسين عامًا أعتق من الأشغال وأنفق عليه، كذلك ينفق على من بلغ هذه السن أو نحوها من سواهم. ومن بلغ ستين سنة عدوه كالصبى، فلم تجر عليه الأحكام. والشيوخ بالصين يعظمون تعظيمًا كثيرًا، ويسمى أحدهم آطا، ومعناه الوالد.

وكان الأمير الكبير قُرْطى اسمه (بضم القاف وسكون الراء وفتح الطاء المهمل وسكون الياء)، أمير أمراء الصين، أضافنا بداره، وصنع الدعوة، ويسمونها الطُّوَى (بضم الطاء المهمل وفتح الواو) وحضرها كبار المدينة. وأتى بالطباخين المسلمين فذبحوا وطبخوا الطعام. وكان هذا الأمير على عظمته يناولنا الطعام بيده، ويقطع اللحم بيده. وأقمنا فى ضيافته ثلاثة أيام، وبعث ولده معنا إلى الخليج. فركبنا فى سفينة تشبه الحراقة[1]، وركب ابن الأمير فى أخرى، ومعه أهل الطرب وأهل الموسيقى، وكانوا يغنون بالصينى وبالعربى وبالفارسى، وكان ابن الأمير معجبًا بالغناء الفارسى، فغنوا شعرًا منه. وأمرهم بتكريره مرارًا، حتى حفظته من أفواههم. وله تلحين عجيب وهو:

تا دل بمحنت داديم ... در بحر فكر افتاديم
جن (جون در نماز استاديم ... قوى بمحراب اندرى (اندريم)[2]

واجتمعت بذلك الخليج من السفن طائفة كبيرة لها القلاع الملونة ومظلات الحرير. وسفنهم منقوشة أبدع نقش. وجعلوا يتحاملون ويترامون بالنارنج والليمون. وعدنا بالعشى إلى دار الأمير، فبتنا بها. وحضر أهل الطرب فغنوا بأنواع من الغناء العجيب.

وفى تلك الليلة حضر أحد المشعوذة[3]، وهو من عبيد القان، فقال له الأمير: أرنا من عجائبك. فأخذ كرة خشب لها ثقب فيها سيور طوال، فرمى بها إلى الهواء فارتفعت حتى غابت عن الأبصار، ونحن فى وسط المشور أيام

(١) الحَرَّاقَةُ: ضرب من السفن فيها مرامى نيران يرمى بها العدو فى البحر. وجمعها حراقات. الوجيز ص(١٤٦).

(٢) وفسره بعض من علق على الكتاب بقوله: معنى هذا الشعر: إننا منذ سلمنا أنفسنا للأحزان غرقنا فى بحر التفكير، ولكننا عندما نقف بالمحراب لنصلى نكون أقوياء.

(٣) شعوذ: مهر فى الاحتيال، وأظهر الشىء على غير حقيقته معتمدًا على خداع الحواس، فهو مشعوذ. الوجيز ص(٣٤٥).

الحر الشديد. فلما لم يبق من السير فى يده إلا يسير، أمر متعلمًا له فتعلق به وصعد فى الهواء إلى أن غاب عن أبصارنا. فدعاه فلم يجبه ثلاثًا. فأخذ سكينًا بيده كالمغتاظ وتعلق بالسير إلى أن غاب أيضًا، ثم رمى بيد الصبى إلى الأرض، ثم رمى برجله، ثم بيده الأخرى، ثم برجله الأخرى، ثم بجسده، ثم برأسه، ثم هبط، وهو ينفخ، وثيابه ملطخة بالدم. فقبل الأرض بين يدى الأمير، وكلمه بالصينى وأمر له الأمير بشىء.

ثم إنه أخذ أعضاء الصبى، فألصق بعضها ببعض، وَرَكَلَهُ(١) برجله فقام سويًّا. فعجبت منه. وأصابنى خفقان القلب، كمثل ما كان أصابنى عند ملك الهند، حين رأيت مثل ذلك. فسقونى دواء أذهب عنى ما وجدت. وكان القاضى أفخر الدين إلى جانبى، فقال لى: والله ما كان من صعود ولا نزول ولا قطع عضو، وإنما ذلك شعوذة. وفى غد تلك الليلة دخلنا من باب المدينة الخامسة، وهى من أكبر المدن، يسكنها عامة الناس. وأسواقها حسان، وبها الحذاق بالصنائع، تصنع الثياب الخنساوية. ومن عجيب ما يصنعون بها أطباق يسمونها الدست، وهى من القصب، وقد ألصقت قطعه أبدع إلصاق، ودهنت بصبغ أحمر مشرق. وتكون هذه الأطباق عشرة: واحد فى جوف آخر لرقتها. تظهر لرائيها كأنها طبق واحد، ويصنعون غطاء يغطى جميعها. ويصنعون من هذا القصب صحافًا. ومن عجائبها أن تقع من العلو فلا تنكسر، ويجعل فيها الطعام السخن فلا يتغير صباغها، ولا يحول. وتجلب من هنالك إلى الهند وخراسان وسواها.

ولما دخلنا هذه المدينة بتنا ليلة فى ضيافة أميرها. وبالغد دخلنا من باب يسمى كشتى وانان إلى المدينة السادسة. ويسكنها البحرية والصيادون والجلافطة والنجارون، ويدعون دودكاران (درودكران)، والأصباهية وهم الرماة، والبيادة وهم الرجالة، وجميعهم عبيد السلطان. ولايسكن معهم سواهم، وعددهم كثير. وهذه المدينة على ساحل النهر الأعظم. بتنا بها ليلة فى ضيافة أميرها، وجهز لنا الأميرقرطى مركبًا بما يحتاج إليه من زاد وسواه، وبعث معنا أصحابه برسم التضييف.

---

(١) ركله: رفسه برجله. الوجيز ص(٢٧٦).

وسافرنا من هذه المدينة وهى آخر أعمال الصين، ودخلنا إلى بلاد الخطا (بكسر الخاء المعجم وطاء مهمل)، وهى أحسن بلاد الدنيا عمارة. ولا يكون فى جميعها موضع غير معمور، فإنه إن بقى موضع غيرمعمور، طلب أهله أو من يواليهم بخراجه. والبساتين والقرى والمزارع منتظمة بجانبى هذا النهر، من مدينة الخنسا إلى مدينة خان بالق. وذلك مسيرة أربعة وستين يومًا. وليس بها أحد من المسلمين إلا من كان حاضراً غير مقيم، لأنها ليست بدار مقام، وليس بها مدينة مجتمعة، إنما هى قرى وبسائط، فيها الزرع والفواكه والسكر. ولم أر فى الدنيا مثلها، غير مسيرة أربعة أيام من الأنبار إلى عانة. وكنا كل ليلة ننزل بالقرى لأجل الضيافة، حتى وصلنا إلى مدينة خان بالق (وضبط اسمها بخاء معجم وألف ونون مسكن وباء معقود وألف ولام مكسور وقاف)، وتسمى أيضًا خانِقو (بخاء معجم ونون مكسور وقاف وواو)، وهى حضرة القان، والقان هو سلطانهم الأعظم، الذى مملكته بلاد الصين والخطا. ولما وصلنا إليها أرسينا على عشرة أميال منها، على العادة عندهم. وكتب إلى أمراء البحر بخبرنا، فأذنوا لنا فى دخول مرساها، فدخلناه ثم نزلنا إلى المدينة، وهى من أعظم مدن الدنيا. وليست على ترتيب بلاد الصين فى كون البساتين داخلها. إنما هى كسائر البلاد والبساتين بخارجها، ومدينة السلطان فى وسطها كالقصبة حسبما نذكره. ونزلت عند الشيخ برهان الدين الصاغرجى، وهو الذى بعث إليه ملك الهند بأربعين ألف دينار، واستدعاه فأخذ الدنانير وقضى بها دينه، وأبى أن يسير إليه. وقدم على بلاد الصين فقدمه القان على جميع المسلمين الذين ببلاده، وخاطبه بصدر الجهان.

والقان عندهم سمة لكل من يلى ملك الأقطار، كمثل ما يسمى كل من ملك بلاد اللور بأتابك واسمه بَاشَاى (بفتح الباء المعقودة والشين المعجمة وسكون الياء). وليس للكفار على وجه الأرض مملكة أعظم من مملكته.

وقصره فى وسط المدينة المختصة بسكناه. وأكثر عمارته بالخشب المنقوش، وله ترتيب عجيب. وعليه سبعة أبواب: فالباب الأول منها يجلس به الكُتوال، وهو أمير البوابين. وله مصاطب مرتفعة عن يمين الباب ويساره، فيها المماليك البرددارية، وهم حفاظ باب القصر، وعددهم خمسمائة رجل. وأخبرت أنهم كانوا فيما تقدم ألف رجل. والباب الثانى يجلس عليه الإصباهية، وهم الرماة، وعددهم خمسمائة. والباب الثالث يجلس عليه النزدارية (بالنون والزاى)، وهم أصحاب الرماح، وعددهم خمسمائة. والباب

الرابع يجلس عليه التغدارية (بالتاء المثناة والغين المعجم)، وهم أصحاب السيوف والترسة. والباب الخامس فيه ديوان الوزارة، وبه سقائف كثيرة. فالسقيفة العظمى يقعد بها الوزير، على مرتبة هائلة مرتفعة، ويسمون ذلك الموضع المسند. وبين يدى الوزير دواة عظيمة من الذهب. وتقابل هذه السقيفة سقيفة كاتب السر، وعن يمينها سقيفة كُتّاب الرسائل، وعن يمين سقيفة الوزير كُتّاب الأشغال. وتقابل هذه السقائف سقائف أربع. إحداها تسمى ديوان الأشراف، يقعد بها المشرف، والثانية سقيفة ديوان المستخرج، وأميرها من كبار الأمراء، والمستخرج هو ما يبقى قبل العمال وقبل الأمراء من إقطاعاتهم، والثالثة ديوان الغوث، ويجلس فيها أحد الأمراء الكبار، ومعه الفقهاء والكتاب. فمن لحقته مظلمة استغاث بهم. والرابعة ديوان البريد، يجلس فيها أمير الإخباريين. والباب السادس من أبواب القصر يجلس عليه الجندارية، وأميرهم الأعظم. والباب السابع يجلس عليه الفتيان، ولهم ثلاث سقائف: إحداها سقيفة الحبشان منهم، والثانية سقيفة الهنود، والثالثة سقيفة الصينيين: ولكل طائفة منهم أمير من الصينيين.

ولما وصلنا حضرة خان بالق، وجدنا القان غائبًا عنها إذ ذاك وخرج للقاء ابن عمه فيروز القائم عليه، بناحية قراقرم وبش بالغ، من بلاد الخطا. وبينها وبين الحضرة مسيرة ثلاثة أشهر عامرة. وأخبرنى صدر الجهان برهان الدين الصاغرجى، أن القان لما جمع الجيوش وحشد الحشود، اجتمع عليه من الفرسان مائة فوج، كل فوج منها من عشرة آلاف فارس. وأميرهم يسمى أمير طومان، وكان من خواص السلطان، وأهل دخلته خمسين ألفًا زائدًا إلى ذلك. وكانت الرجالة خمسمائة ألف. ولما خرج خالف عليه أكثر الأمراء، واتفقوا على خلعه. لأنه كان قد غير أحكام الياساق، وهى الأحكام التى وضعها تنكيز خان جدهم الذى خرب بلاد الإسلام. فمضوا إلى ابن عمه القائم، وكتبوا إلى القان أن يخلع نفسه، وتكون مدينة الخنساء إقطاعًا له. فأبى ذلك، وقاتلهم فانهزم وقتل. وبعد أيام من وصولنا إلى حضرته ورد الخبر بذلك. فزينت المدينة وضربت الطبول والأبواق والأنفار، واستعمل اللعب والطرب مدة شهر.

ثم جىء بالقان المقتول، وبنحو مائة من المقتولين بنى عمه وأقاربه وخواصه. فحفر للقان ناووس عظيم، وهو بيت تحت الأرض، وفرش

بأحسن الفرش وجعل فيه القان بسلاحه، وجعل معه ما كان فى داره من أوانى الذهب والفضة، وجعل معه أربع من الجوارى، وستة من خواص المماليك، معهم أوانى الشرب. وبنى باب البيت، وجعل فوقه التراب حتى صار كالتل العظيم.

ثم جاءوا بأربعة أفراس فأجروها عند قبره حتى وقفت، ونصبوا خشبًا على القبر، وعلقوها عليه. بعد أن أدخلوا فى دبر كل فرس خشبة حتى خرجت من فمه، وجعل أقارب القان المذكورون فى نواويس ومعهم سلاحهم وأوانى دورهم، وصلبوا على قبور كبارهم. وكانوا عشرة: ثلاثة من الخيل على كل قبر، وعلى قبور الباقين فرسًا فرسًا. وكان هذا اليوم يومًا مشهودًا لم يتخلف عنه أحد من الرجال ولا النساء المسلمين والكفار، وقد لبسوا أجمعون ثياب العزاء، وهى الطيالسة البيض للكفار والثياب البيض للمسلمين. وأقام خواتين القان وخواصه فى الأخبية على قبره أربعين يومًا، وبعضهم يزيد على ذلك إلى سنة. وصنعت هنالك سوق يباع فيه ما يحتاجون إليه من طعام وسواه. وهذه الأفعال لا أذكر أن أمة تفعلها سواهم فى هذا العصر. فأما الكفار من الهنود وأهل الصين فيحرقون موتاهم، وسواهم من الأمم يدفنون الميت ولا يجعلون معه أحدًا. لكن أخبرنى الثقات ببلاد السودان أن الكفار منهم، إذا مات ملكهم صنعوا له ناووسًا، وأدخلوا معه بعض خواصه وخدامه، وثلاثين من أبناء كبارهم وبناتهم، بعد أن يكسروا أيديهم وأرجلهم، ويجعلون معهم أوانى الشراب. وأخبرنى بعض كبار مسّوفة، ممن يسكن بلاد كوبر مع السودان، واختصه سلطانهم، أنه كان له ولد. فلما مات سلطانهم أرادوا أن يدخلوا ولده مع من أدخلوه من أولادهم، قال: فقلت لهم: كيف تفعلون ذلك وليس على دينكم، ولا من ولدكم؟ وفديته منهم بمال عريض. ولما قتل القان كما ذكرنا، واستولى ابن عمه فيروز على الملك، اختار أن تكون حضرته مدينة قَرَاقُرُم (وضبطها بفتح القاف الأول والراء وضم الثانية وضم الراء الثانية)، لقربها من بلاد بنى عمه ملوك تركستان وما وراء النهر. ثم خالفت عليه الأمراء ممن لم يحضر لقتل القان، وقطعوا الطرق، وعظمت الفتن.

ولما وقع الخلاف وتسعرت الفتن، أشار علىّ الشيخ برهان الدين وسواه أن أعود إلى الصين قبل تمكن الفتن، ووقفوا معى إلى نائب السلطان فيروز، فبعث معى ثلاثة من أصحابه، وكتب لى بالضيافة. وسرنا منحدرين فى النهر

إلى الخنساء، ثم إلى قنجنفو، ثم إلى الزيتون. فلما وصلتها وجدت الجنوك على السفر إلى الهند، وفى جملتها جنك للملك الظاهر، صاحب الجاوة، وأهله مسلمون. وعرفنى وكيله، وسر بقدومى. وصادفنا الريح الطيبة عشرة أيام، فلما قاربنا بلاد طوالسى، تغيرت الريح، وأظلم الجو، وكثر المطر، وأقمنا عشرة أيام لا نرى الشمس. ثم دخلنا بحراً لا نعرفه، وخاف أهل الجنك فأرادوا الرجوع إلى الصين، فلم يتمكن ذلك. وأقمنا اثنين وأربعين يومًا لا نعرف فى أى البحار نحن.

ولما كان فى اليوم الثالث والأربعين، ظهر لنا بعد طلوع الفجر جبل فى البحر، بيننا وبينه نحو عشرين ميلاً، والريح تحملنا إلى صوبه. فعجب البحرية وقالوا: لسنا بقرب من البر، ولا يعهد فى البحر جبل، وإن اضطرتنا الريح إليه هلكنا فلجأ الناس إلى التضرع والإخلاص، وجددوا التوبة، وابتهلنا إلى الله بالدعاء، وتوسلنا بنبيه -ﷺ-، ونذر التجار الصدقات الكثيرة، وكتبتها لهم فى زمام بخطى وسكنت الريح بعض سكون، ثم رأينا الجبل عند طلوع الشمس قد ارتفع فى الهواء، وظهر الضوء فيما بينه وبين البحر، . فعجبنا من ذلك. ورأيت البحرية يبكون ويودع بعضهم بعضًا، فقلت: ما شأنكم؟ فقالوا: إن الذى تخيلناه جبلاً هو الرخ[1]. وإن رآنا أهلكنا. وبيننا وبينه إذ ذاك أقل من عشرة أميال. ثم إن الله تعالى منّ علينا بريح طيبة، صرفتنا عن صوبه، فلم نره، ولا عرفنا حقيقة صورته. وبعد شهرين من ذلك اليوم وصلنا الجاوة، ونزلنا إلى سمطرة، فوجدنا سلطانها الملك الظاهر قد قدم من غزوة له، وجاء بسبى كثير. فبعث لى جاريتين وغلامين، وأنزلنى على العادة، وحضرت أعراس ولده مع بنت أخيه.

وشاهدت يوم الجلوة[2]، فرأيتهم قد نصبوا فى وسط المشور منبراً كبيراً، وكسوه بثياب الحرير. وجاءت العروس من داخل القصر على قدميها بادية الوجه، ومعها نحو أربعين من الخواتين، يرفعن أذيالها، من نساء السلطان وأمرائه ووزرائه، وكلهن باديات الوجوه، ينظر إليهن كل من حضر من رفيع

---

(١) الرُّخُّ: طائر خرافى بالغ القدامى فى وصفه. الوجيز ص(٢٥٩).

(٢) يعنى: يوم الزفاف، وهو يوم تجلى العروس لزوجها يعنى تزين.

أو وضيع. وليست تلك بعادة لهن فى الأعراس خاصة. وصعدت العروس المنبر، وبين يديها أهلُ الطربِ رجالاً ونساء، يلعبون ويغنون. ثم جاء الزوج على فيل مزين، على ظهره سرير وفوقه قبة شبيه البوجة، والتاج على رأس العروس المذكور، عن يمينه ويساره نحو مائة من أبناء الملوك والأمراء، قد لبسوا البياض وركبوا الخيل المزينة، وعلى رؤوسهم الشواشى المرصعة، وهم أتراب العروس ليس فيهم ذو لحية. ونثرت الدنانير والدراهم على الناس عند دخوله. وقعد السلطان بمنظرة له يشاهد ذلك. ونزل ابنه فقبل رجله، وصعد المنبر إلى العروس فقامت إليه وقبلت يده وجلس إلى جانبها، والخواتين يروِّحن عليها، وجاءوا بالفوفل والتنبول. فأخذه الزوج بيده، وجعل منه فى فمها. ثم أخذت هى بيديها وجعلت فى فمه. ثم أخذ الزوج بفمه ورقة تنبول وجعلها فى فمها، وذلك كله على أعين الناس، ثم فعلت هى كفعله. ثم وضع عليها الستر، ورفع المنبر وهما فيه، إلى داخل القصر. وأكل الناس وانصرفوا. ثم لما كان من الغد جمع الناس، وأجرى له أبوه ولاية العهد، وبايعه الناس، وأعطاهم العطاء الجزل من الثياب والذهب. وأقمت بهذه الجزيرة شهرين، ثم ركبت فى بعض الجنوك.

وأعطانى السلطان كثيراً من العود والكافور والقرنفل والصندول، وزودنى. وسافرت عنه، فوصلت بعد أربعين يومًا إلى كولم، فنزلت بها فى جوار القزوينى، قاضى المسلمين. وذلك فى رمضان. وحضرت بها صلاة العيد، فى مسجدها الجامع. وعادتهم أن يأتوا المسجد ليلاً. فلا يزالون يذكرون الله إلى الصبح. ثم يذكرون إلى حين صلاة العيد، ثم يصلون ويخطب الخطيب وينصرفون. ثم سافرنا من كولم إلى قالقوط، وأقمنا بها أيامًا. وأردت العودة إلى دهلى. ثم خفت من ذلك، فركبت البحر فوصلت بعد ثمان وعشرين ليلة إلى ظفار. وذلك فى محرم سنة ثمان وأربعين. ونزلت بدار خطيبها عيسى بن طاطأ.

وكان سلطان ظفار فى هذه الكرة الملك الناصر ابن الملك المغيث، الذى كان ملكًا بها حين وصولى إليها فيما تقدم، ونائبه سيف الدين عمر أمير جندر، التركى الأصل. وأنزلنى هذا السلطان، وأكرمنى. ثم ركبت البحر،

فوصلت إلى مَسْقط (بفتح الميم)، وهى بلدة صغيرة بها السمك الكثير المعروف بقُلب الماس، ثم سافرنا إلى مرسى القُرَيات (وضبطها بضم القاف وفتح الراء والياء آخر الحروف وألف وتاء مثناة). ثم سافرنا إلى مرسى شَبَّةَ (وضبط اسمها بفتح الشين المعجم وفتح الباء الموحدة وتشديدها)، ثم إلى مرسى كَلْبَة، ولفظها على لفظ مؤنثة الكلب، ثم إلى قلهات، وقد تقدم ذكرها. وهذه البلاد كلها من عمالة هرمز، وهى محسوبة من بلاد عمان. ثم سافرنا إلى هرمز، وأقمنا بها ثلاثًا. وسافرنا فى البر. إلى كورستان ثم إلى اللار ثم إلى خنج بال، وقد تقدم ذكر جميعها. ثم سافرنا إلى كَارْزِى (وضبط اسمها بفتح الكاف وسكون الراء وكسر الزاى)، وأقمنا بها ثلاثًا.

ثم سافرنا إلى جَمكَان (وضبط اسمها بفتح الجيم والميم والكاف وآخره نون)، ثم سافرنا منها إلى مَيْمَن (وضبط اسمها بفتح الميمين وبينهما ياء آخر الحروف مسكنة وآخره نون)، ثم سافرنا إلى بَسّا (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة والسين المهمل مع تشديدها)، ثم إلى مدينة شيراز. فوجدنا سلطانها أبا إسحاق على ملكه إلا أنه كان غائبًا عنها. ولقيت بها شيخنا الصالح العالم مجد الدين قاضى القضاة، وهو قد كف بصره. نفعه الله ونفع به. ثم سافرت إلى ماين، ثم إلى يزدخاص، ثم إلى كليل، ثم إلى كشك زر، ثم إلى أصبهان ثم إلى تستر، ثم إلى الحويزا، ثم إلى البصرة، وقد تقدم ذكر جميعها. وزرت بالبصرة القبور الكريمة التى بها، وهى قبر الزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وأبى بكرة، وأنس بن مالك، والحسن البصرى، وثابت البنانى، ومحمد بن سيرين، ومالك بن دينار، ومحمد بن واسع، وحبيب العجمى، وسهل بن عبد الله التسترى، -رضى الله تعالى عنهم أجمعين-. ثم سافرنا من البصرة، فوصلنا إلى مشهد على بن أبى طالب -رضي الله عنه-، وزرناه. ثم توجهنا إلى الكوفة، فزرنا مسجدها المبارك، ثم إلى الحلة، حيث مشهد صاحب الزمان، واتفق فى بعض تلك الأيام أن وليها بعض الأمراء فمنع أهلها من التوجه على عادتهم إلى مسجد صاحب الزمان، وانتظاره هنالك. ومنع عنهم الدابة التى كانوا يأخذونها كل ليلة من الأمير، فأصابت ذلك الوالى علة مات منها سريعًا. فزاد ذلك فى فتنة الرافضة، وقالوا: إنما

أصابه ذلك لأجل منعه الدابة، فلم تمنع بعد. ثم سافرت إلى صرصر، ثم إلى مدينة بغداد. وصلتها فى شوال سنة ثمان وأربعين، ولقيت بها بعض المغاربة فعرفنى بكائنة طريف، واستيلاء الروم على الخضراء. جبر الله صدع الإسلام فى ذلك.

وكان سلطان بغداد والعراق فى عهد دخولى إليها فى التاريخ المذكور الشيخ حسن ابن عمة السلطان أبى سعيد رحمه الله. ولما مات أبو سعيد استولي على ملكه بالعراق، وتزوج زوجته دلشاد بنت دمشق خواجة ابن الأمير الجوبان، حسبما كان فعله السلطان أبو سعيد من تزوج الشيخ حسن. وكان السلطان حسن غائبًا عن بغداد فى هذه المدة، متوجهًا لقتال السلطان أتابك افراسياب، صاحب بلاد اللور. ثم رحلت من بغداد فوصلت إلى مدينة الأنبار، ثم إلى هيت، ثم إلى الحديثة، ثم إلى عانة. وهذه البلاد من أحسن البلاد وأخصبها. والطريق فيما بينها كثير العمارة، كأن الماشى فى سوق من الأسواق، وقد ذكرنا أنا لم نر ما يشبه البلاد التى على نهر الصين إلا هذه البلاد. ثم وصلت إلى مدينة الرحبة، وهى التى تنسب إلى مالك بن طوق. ومدينة الرحبة أحسن بلاد العراق، وأول بلاد الشام. ثم سافرنا إلى السخنة، وهى بلدة حسنة، أكثر سكانها الكفار من النصارى. وإنما سميت السخنة لحرارة مائها. وفيها بيوت للرجال وبيوت للنساء، يستحمون فيها، ويستقون الماء ليلاً، ويجعلونه فى السطوح ليبرد. ثم سافرنا إلى تدمر، مدينة نبى الله سليمان -عليه السلام-، التى بنتها له الجن، كما قال النابغة:

يبنون تدمر بالصُّفَّاح والعَمَد

ثم سافرنا منها إلى مدينة دمشق الشام، وكانت مدة مغيبى عنها عشرين سنة كاملة. وكنت تركت بها زوجة لى حاملاً، وتعرفت وأنا ببلاد الهند أنها ولدت ولدًا ذكرًا، فبعثت حينئذ إلى جده للأم، وكان من أهل مكناسة المغرب أربعين دينارًا ذهبًا هنديًّا. فحين وصولى إلى دمشق فى هذه الكرة، لم يكن لى همٌّ إلا السؤال عن ولدى. فدخلت الجامع، فوفق لى نور الدين السخاوى إمام المالكية وكبيرهم، فسلمت عليه فلم يعرفنى فعرفته بنفسى، وسألته عن الولد. فقال مات منذ اثنتى عشرة سنة. وأخبرنى أن فقيهًا من أهل طنجة

يقيم بالمدرسة الظاهرية، فسرت إليه لأسـأله عن ولدى وأهلى، فوجدته شيخًا كبيرًا، فسلمت عليه وانتسبت له، فأخبرنى أن ولدى توفى منذ خمس عشرة سنة، وأن الوالدة بقيد الحياة. وأقمت بدمشق الشام بقية العام والغلاء شديد، والخبز قد انتهى إلى قيمة سبع أواقى بدرهم نقرة، وأوقيتهم أربع أواقٍ مغربية. وكان قاضى قضاة المالكية إذ ذاك جمال الدين المسلاتى، وكان من أصحاب الشيخ علاء الدين القونوى، وقدم معه دمشق، فعرف بها. ثم ولى القضاء وقاضى قضاة الشافعية تقى الدين بن السبكى، وأمير دمشق ملك الأمراء أرغون شاه.

ومات تلك الأيام بعض كبراء دمشق، وأوصى بمال للمساكين. فكان المتولى لإنفاذ الوصية يشترى الخبز ويفرقه عليهم كل يوم بعد العصر. فاجتمعوا فى بعض الليالى وتزاحموا واختطفوا الخبز الذى يفرق عليهم، ومدوا أيديهم إلى خبز الخبازين. وبلغ ذلك الأمير أرغون شاه. فأخرج زبانيته، فكانوا حيث ما لقوا أحدًا من المساكين، قالوا له: تعال تأخذ الخبز. فاجتمع منهم عدد كثير. فحبسهم تلك الليلة، وركب من الغد، وأحضرهم تحت القلعة، وأمر بقطع أيديهم وأرجلهم. وكان أكثرهم براء عن ذلك. وأخرج طائفة الحرافيش عن دمشق فانتقلوا إلى حمص وحماه وحلب. وذكر لى أنه لم يعش بعد ذلك إلا قليلاً وقتل. ثم سافرت من دمشق إلى حماه ثم إلى المعرة ثم إلى سرمين ثم إلى حلب. وكان أمير حلب فى هذا العهد الحاج رُغْطَى (بضم الراء وسكون الغين المعجم وفتح الطاء المهمل وياء آخر الحروف مسكنة).

واتفق فى تلك الأيام أن فقيرًا يعرف بشيخ المشايخ، وهو ساكن فى جبل خارج مدينة عنتاب، والناس يقصدونه ويتبركون به. وله تلميذ ملازم له، وكان متجردًا عزبًا لا زوجة له، قال فى بعض كلامه: إن النبى -ﷺ- كان لا يصبر عن النساء، وأنا أصبر عنهن. فشهد عليه بذلك، وثبت عند القاضى، ورفع أمره إلى ملك الأمراء، وأتى به وبتلميذه الموافق له على قوله، فأفتى القضاة الأربعة، وهم شهاب الدين المالكى، وناصر الدين العديم

الحنفى، وتقى الدين الصائغ الشافعى، وعز الدين الدمشقى الحنبلى، بقتلهما معًا، فقتلا. وفى أوائل شهر ربيع الأول عام تسعة وأربعين، بلغنى الخبر فى حلب أن الوباء وقع بغزة، وأنه انتهى عدد الموتى فيها زائد على الألف فى يوم واحد. فسافرت إلى حمص، فوجدت الوباء قد وقع بها، ومات يوم دخولى إليها نحو ثلاثمائة إنسان، ثم سافرت إلى دمشق ووصلتها يوم الخميس، وكان أهلها قد صاموا ثلاثة أيام، وخرجوا يوم الجمعة إلى جامع الأقدام، حسبما ذكرناه فى السفر الأول. فخفف الله الوباء عنهم، فانتهى عدد الموتى عندهم إلى ألفين وأربعمائة فى اليوم، ثم سافرت إلى عجلون ثم إلى البيت المقدس، ووجدت الوباء قد ارتفع عنهم، ولقيت خطيبه عز الدين ابن جماعة ابن عم عز الدين قاضى القضاة بمصر، وهو من الفضلاء الكرماء. ومرتبه على الخطابة ألف درهم فى الشهر.

وصنع الخطيب عز الدين يومًا دعوة. ودعانى فيمن دعا إليها، فسألته عن سببها، فأخبرنى أنه نذر أيام الوباء، أنه إن ارتفع ذلك، ومر عليه يوم لا يصلى فيه على ميت، صنع الدعوة. ثم قال لى: ولما كان بالأمس، لم أصلِّ على ميت، فصنعت الدعوة التى نذرت. ووجدت من كنت أعهده من جميع الأشياخ بالقدس قد انتقلوا إلى جوار الله تعالى رحمهم الله، فلم يبق منهم إلا القليل، مثل المحدث العالم الإمام صلاح الدين خليل بن كيكلدى العلائى، ومثل الصالح شرف الدين الخشى شيخ زاوية المسجد الأقصى، ولقيت الشيخ سليمان الشيرازى، فأضافنى. ولم ألق بالشام ومصر من وصل إلى قدم آدم -عليه السلام- سواه.

ثم سافرت عن القدس، ورافقنى الواعظ المحدث شرف الدين سليمان المليانى، وشيخ المغاربة بالقدس الصوفى الفاضل طلحة العبد الوادى. فوصلنا إلى مدينة الخليل -عليه السلام-، وزرناه ومن معه من الأنبياء -عليهم السلام-، ثم سرنا إلى غزة، فوجدنا معظمها خاليًا من كثرة من مات بها فى الوباء. وأخبرنا قاضيها أن العدول بها كانوا ثمانين، فبقى منهم الربع، وأن عدد الموتى بها انتهى إلى ألف ومائة فى اليوم.

ثم سـافرنا فى البـر، فوصلت إلى دمـيـاط، ولقيت بهـا قطب الدين النفشوانـى، وهو صائم الدهر، ورافقنى منها إلى فـارسكور وسمنود ثم إلى أبى صير (بـكسر الصاد المهمل وياء وراء)، ونزلنا فى زاوية لبـعض المصريين بها.

وبينما نـحن بتلك الزاوية إذ دخل علينا أحد الفـقراء فسـلم، وعرضنا عليه الطـعام فأبى وقـال: إنما قصدت زيـارتكم، ولم يزل ليلته تلك سـاجدًا وراكعًا. ثم صلينا الصبح واشتغلنا بالذكر، والفقير بركن الزاوية. فجاء الشيخ بالطعام، ودعـاه فلم يجبه. فمـضى إليه فوجـده ميتًا. فـصلينا عليه ودفناه، رحمـة الله عليه. ثم سـافرت إلى المحلة الكبـيرة، ثم إلى نحـرارية، ثم إلى أبيار، ثم إلى دمنهور، ثم إلى الإسكندرية. فوجدت الوباء قد خف بها، بعد أن بلغ عـدد الموتى إلى ألف وثمـانين فى اليـوم. ثم سافـرت إلى القـاهرة، وبلغنى أن عدد الموتى أيام الوباء انتهى فيها إلى واحد وعشرين ألفًا فى اليوم. ووجدت جميع من كان بها من المشايـخ الذين أعرفهم قد ماتوا، رحمهم الله تعالى.

وكـان ملك ديار مصـر فى هذا العـهد الملك الـناصر حـسن ابن الملك الناصر مـحمد بن الملك المنصور قـلاوون. وبعد ذلك خلع عن الملك، وولى أخوه الملك الصالـح. ولما وصلت القاهرة، وجدت قاضى القـضاة عز الدين ابن قاضى القضـاة بدر الدين بن جماعة، قـد توجه إلى مكة فى ركب عظيم يسمونه الرجـبى، لسفرهم فى شهر رجب. وأخبـرت أن الوباء لم يزل معهم حتى وصلوا إلى عقـبة أيلة، فارتفع عنهم. ثم سافـرت من القاهرة إلى بلاد الصعيد، وقـد تقدم ذكرها، إلى عيذاب. وركبت منهـا البحر، فوصلت إلى جدة. ثم سـافرت منها إلى مكة، شرفـها الله تعالى وكـرمها، فوصلتـها فى الثانى والعـشرين لشـعبان سنـة تسع وأربعين. ونزلت فى جوار إمـام المالكية الصالح الولى الفاضل أبى عبد الله محمد بن عبد الله المدعو بخليل. فصمت شهر رمضـان بمكة، وكنت أعتمر كل يوم على مذهب الشـافعى. ولقيت ممن أعهد من أشياخها شهـاب الدين الحنفى، وشهاب الدين الطبرى، وأبا محمد

اليافعى، ونجم الدين الأصفونى، والحرازى. وحججت ذلك العام، ثم سافرت مع الركب الشامى إلى طيبة، مدينة رسول الله -ﷺ-. وزرت قبره المكرم، زاده الله طيبًا وتشريفا، وصليت فى المسجد الكريم، طهره الله وزاده تعظيمًا، وزرت من بالبقيع من أصحاب النبى -ﷺ- ورضى عنهم، ولقيت من الأشياخ أبا محمد بن فرحون. ثم سافرنا من المدينة الشريفة إلى العلا وتبوك، ثم إلى بيت المقدس، ثم إلى مدينة الخليل -ﷺ-، ثم إلى غزة، ثم إلى منازل الرمل، وقد تقدم ذكر ذلك كله، ثم إلى القاهرة. وهنالك تعرفنا أن مولانا أمير المؤمنين ناصر الدين المتوكل على رب العالمين أبا عنان أيده الله تعالى. قد ضم الله به نشر الدولة المرينية، وشفى ببركته بعد إشفائها البلاد المغربية، وأفاض الإحسان على الخاص والعام، وغمر جميع الناس بسابغ الإنعام. فتشوقت النفوس إلى المثول[١] ببابه، وأملت لثم[٢] ركابه. فعند ذلك قصدت القدوم على حضرته العلية، مع ما شاقنى من تذكار الأوان، والحنين إلى الأهل والخلان، والمحبة إلى بلادى التى لها الفضل عندى على البلدان.

بلاد بها نيطت على تمائمى وأول أرض مس جلدى تُرابَها

فركبت البحر فى قرقورة لبعض التونسيين صغيرة، وذلك فى صفر سنة خمسين. وسرت حتى نزلت بجربة. وسافر المركب المذكور إلى تونس، فاستولى العدو عليه. ثم سافرت فى مركب صغير إلى قابس، فنزلت فى ضيافة الأخوين الفاضلين أبي مروان وأبى العباس ابنى مكى أميرى جربة وقابس. وحضرت عندهما مولد رسول الله -ﷺ-، ثم ركبت فى مركب إلى سفاقس، ثم توجهت فى البحر إلى بليانة، ومنها سرت فى البر مع العرب، فوصلت بعد مشقات إلى مدينة تونس، والعرب محاصرون لها.

وكانت تونس فى إيالة مولانا أمير المسلمين، وناصر الدين، المجاهد فى سبيل رب العالمين، علم الأعلام، وأوحد الملوك الكرام، أسد الآساد، وجواد

---

(١) يُقال: مَثَلَ الرجل بين يدى فلان يمثُل مثولاً: قام بين يديه منتصبًا. الوجيز ص(٥٠٧).

(٢) يعنى: تقبيله. الوجيز ص(٥٥١).

الأجـواد، القانت الأواب، الخـاشع العـادل، أبى الحـسن ابن مـولانا أميـر المسلمين، المجاهد فى سـبيل رب العالمين، ناصر دين الإسـلام، الذى سارت الأمثـال بجوده، وشـاع فى الأقطار أثر كرمـه وفضله، ذى المناقب والمفـاخر والفضـائل والمآثر، الملك العادل الفاضل أبى سـعيد ابن مولانا أمـير المسلمين وناصر الدين، المجاهد فى سبيل رب العالمين، قـاهر الكفار ومبيدها، ومبدى آثار الجهاد ومعيدها، نـاصر الإيمان، الشديد السطوة فى ذات الرحمن، العابد الزاهد، الراكع الساجد، الخاشع الصـالح، أبى يوسف ابن عبد الحق، رضى الله عنهم أجـمـعين، وأبقى الملك فى عـقـبهم إلـى يوم الدين. ولما وصلت تونس قـصدت الحـاج أبا الحسن النامـيسى لمـا بينى وبينه من مودات القـرابة والبلدية. فـأنزلنى بداره، وتوجـه معى إلى المشـور، فدخلت المشـور الكريم وقبلت يد مولانا أبى الحسن -ﷺ-، وأمرنى بالقـعود فقعدت. وسألنى عن الحجاز الشريف وسلطان مصر فأجبـته. وسألنى عن ابن تيفراجين فأخبرته بما فعلت المغاربة معه. وإرادتهم قتله بالإسكندرية، وما لقى من أذيتهم، انتصاراً منهم لمولانا أبى الحسن -ﷺ-، وكان فى مجلسه من الفقهاء الإمام أبو عبد الله السطى، والإمام أبو عبد الله محمد بن الـصباغ. ومن أهل تونس قاضيها أبو على عـمر بـن عبـد الرفـيع، وأبو عبـد الله بن هارون. وانصـرفت عن المجلس الكريم. فلما كان بعد العصر استدعانى مولانا أبو الحسن، وهو ببرج يشرف على مـوضع القتال، ومعـه الشيوخ الأجلة أبو عمـر عثمان بن عـبد الواحد التنالفتى، وأبو حسون زيان بن أمريون العلوى، وأبو زكرياء يحيى بن سليـمان العـسكرى، والحاج أبو الحـسن الناميـسى. فسـألنى عن ملك الهند فأجبته عما سأل.

ولـم أزل أتردد إلى مـجلسه الكريم أيام إقـامتى بتـونس، وكانت سـتة وثلاثين يومًا. ولقيت بتـونس إذ ذاك الشيخ الإمام خاتمة العلماء وكـبيرهم أبا عبد الله الأبلّى، وكان فى فراش المرض، وباحثنى عن كثير من أمور رحلتى.

ثم سـافرت من تونس فى البـحر مع القـطلانيين، فوصلنا إلى جـزيرة سردانية، من جـزر الروم، ولها مرسى عجيب، عليه خـشب كبار دائرة به.

وله مدخل كأنه باب، لا يفتح إلا بإذن منهم، وفيها حصون. دخلنا أحدها، وبه أسواق كثيرة، ونذرت لله تعالى إن خلصنا الله منها صوم شهرين متتابعين. لأننا تعرفنا أن أهلها عازمون على اتباعنا إذا خرجنا عنها ليأسرونا.

ثم خرجنا عنها فوصلنا بعد عشر إلى مدينة تنس، ثم إلى مازونة، ثم إلى مستغانم، ثم إلى تلسمان. فقصدت العباد، وزرت الشيخ أبا مدين -رضي الله عنه- ونفع به، ثم خرجت عنها على طريق مدرومة، وسلكت طريق أخندقان. وبت بزاوية الشيخ إبراهيم. ثم سافرنا منها، فبينما نحن بقرب أزغنغان، إذ خرج علينا خمسون راجلاً وفارسان. وكان معى الحاج ابن قريعات الطنجى وأخوه محمد، المستشهد بعد ذلك فى البحر. فعزمنا على قتالهم، ورفعنا علمًا، ثم سالمونا وسالمناهم، والحمد الله، ووصلت إلى مدينة تازى، وبها تعرفت خبر موت والدتى بالوباء رحمها الله تعالى.

ثم سافرت عن تازى، فوصلت يوم الجمعة فى أواخر شهر شعبان المكرم من عام خمسين وسبعمائة إلى حضرة فاس، فمثلت بين يدى مولانا الأعظم، الإمام الأكرم، أمير المؤمنين، المتوكل على رب العالمين، أبى عنان، وصل الله علوه، وكبت[1] عدوه فأنستنى هيبته هيبة سلطان العراق، وحسنه حسن ملك الهند، وحسن أخلاقه حسن خلق ملك اليمن، وشجاعته شجاعة ملك الترك، وحلمه حلم ملك الروم، وديانته ديانة ملك تركستان، وعلمه علم ملك الجاوة. وكان بين يديه وزيره الفاضل ذو المكارم الشهيرة والمآثر الكثيرة أبو زيان ابن ودرار، فسألنى عن الديار المصرية، إذ كان قد وصل إليها فأجبته عما سأل. وغمرنى من إحسان مولانا أيده الله تعالى بما أعجزنى شكره. والله ولى مكافأته. وألقيت عصا التسيار ببلاده الشريفة، بعد أن تحققت بفضل الإنصاف أنها أحسن البلدان. لأن الفواكه بها متيسرة، والمياه والأقوات غير متعذّرة. وقلَّ إقليم يجمع ذلك، ولقد أحسن من قال:

---

(١) يُقال: كبت الله العدو: رده بغيظه. الوجيز (٥٢٥).

الغـــرب أحـســـن أرض ولـــى دليـل علـيـــه
البـــدر يـرقـــب مـنـــه والـشـمـس تسعـى إليـه

ودراهم الغرب صغيرة وفوائدها كثيرة، وإذا تأملت أسعاره مع أسعار ديار مصر والشام ظهر لك الحق فى ذلك، ولاح فضل بلاد المغرب. فأقول: إن لحوم الأغنام بديار مصر تباع بحساب ثمانى عشرة أوقية بدرهم نقرة، والدرهم النقرة ستة دراهم من دراهم المغرب، وبالمغرب يباع اللحم إذا غلا سعره ثمانى عشرة أوقية بدرهمين، وهما ثلث النقرة. وأما السمن فلا يوجد بمصر فى أكثر الأوقات. والذى يستعمله أهل مصر من أنواع الإدام لا يلتفت إليه بالمغرب، ولأن أكثر ذلك العدس والحمص يطبخونه فى قدور راسيات، ويجعلون عليه السيرج والبسلا، وهوصنف من الجلبان، يطبخونه ويجعلون عليه الزيت، والقرع يطبخونه ويخلطونه باللبن، والبقلة الحمقاء يطبخونها كذلك، وأعين أغصان اللوز يطبخونها ويجعلون عليها اللبن، والقلقاس يطبخونه. وهذا كله متيسر بالمغرب، لكن أغنى الله عنه بكثرة اللحم والسمن والزبد والعسل وسوى ذلك. وأما الخضر فيه أقل الأشياء ببلاد مصر، وأما الفواكه فأكثرها مجلوبة من الشام، وأما العنب فإذا كان رخيصًا بيع عندهم ثلاثة أرطال من أرطالهم بدرهم نقرة، ورطلهم اثنتا عشرة أوقية. وأما فى بلاد الشام فالفواكه بها كثيرة، إلا أنها ببلاد المغرب أرخص منها ثمنًا، فإن العنب يباع بها بحساب رطل من أرطالهم بدرهم نقرة، ورطلهم ثلاثة أرطال مغربية. وإذا رخص ثمنه بيع بحساب رطلين بدرهم نقرة، والإجاص يباع بحساب عشر أواق بدرهم نقرة، وأما الرمان والسفرجل فتباع الحبة منهما بثمانية فلوس، وهى درهم من دراهم المغرب. وأما الخضر فيباع بالدرهم النقرة منها أقل مما يباع فى بلادنا بالدرهم الصغير. وأما اللحم فيباع فيها الرطل منه من أرطالهم بدرهمين ونصف درهم نقرة. فإذا تأملت ذلك كله تبين لك أن بلاد المغرب أرخص البلاد أسعارًا وأكثرها خيرات، وأعظمها مرافق وفوائد. ولقد زاد الله بلاد المغرب شرفًا إلى شرفها، وفضلاً إلى فضلها، بإمامة مولانا أمير المؤمنين، الذى مد ظلال الأمن فى أقطارها،

وأطلع شمس العدل فى أرجائها، وأفاض سحاب الإحسان فى باديتها وحاضرتها، وطهرها من المفسدين، وأقام بها رسوم الدنيا والدين. وأنا أذكر ما عاينته وتحققته من عدله وحلمه وشجاعته، واشتغاله بالعلم، وتفقهه، وصدقته الجارية، ورفع المظالم.

أما عدله فأشهر من أن يسطر فى كتاب. فمن ذلك جلوسه للمشتكين من رعيته، وتخصيصه يوم الجمعة للمساكين منهم، وتقسيمه ذلك اليوم بين الرجال والنساء، وتقديمه النساء لضعفهن. فتقرأ قصصهن بعد صلاة الجمعة إلى العصر، ومن وصلت نوبتها نودى باسمها، ووقفت بين يديه الكريمتين، يكلمها دون واسطة. فإن كانت منظلمة عجل إنصافها، أو طالبة إحسان وقع إسعافها. ثم إذا صليت العصر قرئت قصص الرجال، وفعل مثل ذلك فيها. ويحضر المجلس الفقهاء والقضاة، فيرد إليهم ما تعلق بالأحكام الشرعية. وهذا شىء لم أر فى الملوك من يفعله على هذا التمام، ويظهر فيه مثل هذا العدل. فإن ملك الهند عيَّن بعض أمرائه لأخذ القصص من الناس، وتلخيصها ورفعها إليه، دون حضور أربابها بين يديه. وأما حلمه فقد شاهدت منه العجائب. فإنه أيده الله عفا عن الكثير ممن تعرض لقتال عساكره والمخالفة عليه، وعن أهل الجرائم الكبار الذين لا يعفو عن جرائمهم إلا من وثق بربه. وعلم علم اليقين معنى قوله تعالى: ﴿ **وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ** ﴾[1].

قال ابن جزى: من أعجب ما شاهدته من حلم مولانا أيده الله، أنى منذ قدومى على بابه الكريم فى آخر عام ثلاثة وخمسين إلى هذا العهد، وهو أوائل عام سبعة وخمسين، لم أشاهد أحدًا أمر بقتله إلا من قتله الشرع فى حد من حدود الله تعالى قصاصٍ أو حرابة، هذا على اتساع المملكة وانفساح البلاد واختلاف الطوائف. ولم يسمع بمثلٍ ذلك فى ما تقدم من الأعصار، ولا فيما تباعد من الأقطار.

وأما شجاعته فقد علم ما كان منه فى المواطن الكريمة من الثبات

---

(١) سورة آل عمران: ١٣٤.

والإقدام، مثل يوم قتال بنى عبد الوادى وغيرهم. ولقد سمعت خبر ذلك اليوم ببلاد السودان، وذكر ذلك عند سلطانهم فقال: هكذا وإلا فلا.

قال ابن جزى: لم يزل الملوك الأقدمون تتفاخر بقتل الآساد وهزائم الأعادى، ومولانا أيده الله كان قتل الأسد عليه أهون من قتل الشاة على الأسد، فإنه لما خرج الأسد على الجيش بوادى النجارين من المعمورة بحوز سلا، وتحامته الأبطال، وفرت أمامه الفرسان والرجال، برز إليه مولانا أيده الله غير محتفل[1] به، ولا متهيب منه، فطعنه بالرمح ما بين عينه طعنة خرّ بها صريعًا لليدين وللفم. وأما هزائم الأعادى فإنها اتفقت للملوك بثبوت جيوشهم وإقدام فرسانهم، فيكون حظ الملوك الثبوت والتحريض على القتال. وأما مولانا أيده الله فإنه أقدم على عدوه منفردًا بنفسه الكريمة، بعد علمه بفرار الناس، وتحققه أنه لم يبق معه من يقاتل. فعند ذلك وقع الرعب فى قلوب الأعداء. وانهزموا أمامه. فكان من العجائب فرار الأمم أمام واحد. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والعاقبة للمتقين، وما هو إلا ثمرة ما يمتاز به أعلى مقامه من التوكل على الله والتفويض إليه. وأما اشتغاله بالعلم فها هو -أيده الله تعالى- يعقد مجالس العلم فى كل يوم بعد صلاة الصبح، ويحض لذلك أعلام الفقهاء ونجباء[2] الطلبة بمسجد قصره الكريم، فيقرأ بين يديه تفسير القرآن العظيم، وحديث المصطفى -ﷺ-، وفروع مذهب مالك -رضي الله عنه-، وكتب المتصوفة. وفى كل علم منها له القدح المعلى، يجلو مشكلاته بنور فهمه، ويلقى نكته[3] الرائقة من حفظه. وهذا شأن الأئمة المهتدين والخلفاء الراشدين.

ولم أر من ملوك الدنيا من بلغت عنايته بالعلم إلى هذه النهاية. فقد رأيت ملك الهند يتذاكر بين يديه بعد صلاة الصبح فى العلوم المعقولات خاصة، ورأيت ملك الجاوة يتذاكر بين يديه بعد صلاة الجمعة فى الفروع على

(١) أى: لم يبال به ولم يعتق، يُقال. حفل الشيءَ والأمرَ وبه: عُنى وبالى. الوجيز ص(١٦١).

(٢) نجباء جمع نجيب، والنجيب: الفاضل على مثله فى نوعه. الوجيز ص(٦٠٢).

(٣) النكتة: المسألة العلمية الدقيقة يتوصل إليها بدقة وإنعام فكر. الوجيز ص(٦٣٣).

مذهب الشافعى. وكنت أعجب من ملازمة ملك تركستان لصلاتى العشاء الآخرة والصبح فى الجماعة، حتى رأيت ملازمة مولانا، أيده الله، فى الصلوات كلها فى الجمعة وقيام رمضان: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾(١).

قال ابن جزى: لو أن عالمًا ليس له شغل إلا بالعلم ليلاً ونهاراً، لم يكن يصل إلى أدنى مراتب مولانا -أيده الله- فى العلوم، مع اشتغاله بأمور الأمة، وتدبيره لسياسة الأقاليم النائية(٢)، ومباشرته من حال ملكه ما لم يباشره أحد من الملوك، ونظره بنفسه فى شكايات المظلومين. ومع ذلك كله فلا تقع بمجلسه الكريم مسألة علم فى أى علم كان، إلاجلا مشكلها، وباحث فى دقائقها، واستخرج غوامضها، واستدرك على علماء مجلسه ما فاتهم من مغلقاتها. ثم سما أيده الله إلى العلم الشريف التصوفى، ففهم إشارات القوم، وتخلق بأخلاقهم. وظهرت آثار ذلك فى تواضعه مع رفعته، وشفقته على رعيته، ورفقه فى أمره كله. وأعطى للآداب حظًّا من نفسه، فاستعمل أحسنها منزعًا، وأعظمها موقعًا، وصارت عنه الرسالة الكريمة والقصيدة اللتان بعثهما إلى الروضة الشريفة المقدسة الطاهرة، روضة سيد المرسلين وشفيع المذنبين رسول الله -ﷺ-، وكتبهما بخط يده الذى يخجل الروض حسنًا.

وذلك شىء لم يتعاط أحد من ملوك الزمان إنشاءه، ولا رام إدراكه. ومن تأمل التوقيعات الصادرة عنه -أيده الله تعالى-، وأحاط علمًا بحصولها، لاح له فضل ما وهب الله لمولانا من البلاغة التى فطره عليها، وجمع له بين الطبيعى والمكتسب منها. للوارد والصادر، فذلك ما لم يفعله أحد من الملوك، غير السلطان أتابك أحمد. وقد زاد عليه مولانا -أيده الله- بالتصدق على المساكين بالطعام كل يوم، والتصدق بالزرع على المتسترين من أهل البيوت.

---

(١) سورة البقرة: ١٠٥.

(٢) النائية: البعيدة.

قال ابن جزى: اخترع مولانا أيده الله فى الكرم والصدقات أمورًا لم تخطر فى الأوهام، ولا اهتدت إليها السلاطين. فمنها إجراء الصدقات على المساكين بكل بلد من بلاده على الدوام، ومنها تعيين الصدقة الوافرة للمسجونين فى جميع البلاد أيضًا، ومنها كون تلك الصدقات خبزًا مخبوزًا ميسرًا للانتفاع به، ومنها كسوة المساكين والضعفاء والعجائز والمشايخ والملازمين للمساجد بجميع بلاده، ومنها تعيين الضحايا لهؤلاء الأصناف فى عيد الأضحى، ومنها التصدق بما يجتمع فى مجابى أبواب بلاده يوم سبعة وعشرين من رمضان إكرامًا لذلك اليوم الكريم وقيامًا بحقه، ومنها إطعام الناس فى جميع البلاد ليلة المولد الكريم، واجتماعهم لإقامة رسمه، ومنها إعذار اليتامى من الصبيان وكسوتهم يوم عاشوراء، ومنها صدقته على الزمنى[1] والضعفاء بأزواج الحرث، يقيمون بها أودهم[2]، ومنها صدقته على المساكين بحضرته بالطنافس الوثيرة والقطائف والجياد يفترشونها عند رقادهم. وتلك مكرمة لا يعلم لها نظير. ومنها بناء المرستانات فى كل بلد من بلاده، وتعيين الأوقاف الكثيرة لمؤن المرضى، وتعيين الأطباء لمعالجتهم والتصرف فى طلبهم، إلى غير ذلك مما أبدع فيه من أنواع المكارم، وضرب المآثر، كافأ الله أياديه، وشكر نعمه.

وأما رفعه للمظالم عن الرعية، فمنها الرتب التى كانت تؤخذ بالطرقات، أمر -أيده الله- بمحو رسمها، وكان لها مجبى عظيم، فلم يلتفت إليه، وما عند الله خير وأبقى، وأما كفه أيدى الظلام فأمر مشهور، وقد سمعته -أيده الله- يقول لعماله: لا تظلموا الرعية، ويؤكد عليهم تلك الوصية.

قال ابن جزى: ولو لم يكن من رفق مولانا -أيده الله- برعيته إلا رفعه التضييف الذى كانت عمال الزكاة وولاة البلاد تأخذه من الرعايا، لكفى ذلك

(١) زَمْنَى: جمع زَمِن، يُقال: زمن يزمَن زَمَنًا وزُمنة وزمانة: مرض مرضا يدوم زمانًا طويلاً، وضعف بكبر سن أو مطاولة علة فهو زَمِن، وزمين. الوجيز ص(٢٩٢).

(٢) يُقال: أقام أوده: قوم اعوجاجه، أو أمسك رمقه. الوجيز ص(٢٩).

أثرًا فى العدل ظاهرًا ونورًا فى الرفق باهرًا، فكيف وقد رفع من المظالم وبسط من المرافق ما لا يحيط به الحصر. وقد صدر فى أيام تصنيف هذا من أمره الكريم فى الرفق بالمسجونين، ورفع الوظائف الثقيلة التى كانت تؤخذ منهم، ما هو اللائق بإحسانه، والمعهود من رأفته، وشمل الأمر بذلك جميع الأقطار، وكذلك صدر من التنكيل[1] بمن ثبت جوره[2] من القضاة والحكام، ما فيه زجر الظلمة وردع المعتدين.

وأما فعله فى معاونة أهل الأندلس على الجهاد، ومحافظته على إمداد الثغور[3] بالأموال والأقوات والسلاح، وفته فى عضد العدو بإعداد العدد وإظهار القوة[4]، فذلك أمر شهير، لم يغب علمه عن أهل المغرب والمشرق، ولا سبق إليه أحد من الملوك.

قال ابن جزى: حسب المتشوف إلى علم ما عند مولانا أيده الله من سداد الفكر إلى المسلمين، ودفاع القوم الكافرين، ما فعله فى فداء مدينة طرابلس أفريقية. فإنها لما استولى العدو عليها، ومد يد العدوان إليها، ورأى، أيده الله، أن بعث الجيوش إلى نصرتها لا يتأتى لبعد الأقطار، كتب إلى خدامه ببلاد إفريقية أن يفدوها بالمال. ففديت بخمسين ألف دينار من الذهب العين. فلما بلغه خبر ذلك قال: الحمد لله الذى استرجعها من أيدى الكفار بهذا النزر اليسير. وأمر للحين ببعث ذلك العدد إلى إفريقية، وعادت المدينة إلى الإسلام على يديه. ولم يخطر فى الأوهام أن أحدًا تكون عنده خمسة قناطير من الذهب نزرًا يسيرًا حتى جاء بها مولانا أيده الله مكرمة

---

(١) التنكيل: العقاب والتأديب. الوجيز ص(٦٣٤).

(٢) الجور: الظلم والتعدى.

(٣) الثغر: الموضع يخاف منه هجوم العدو، ومنه سميت المدينة على شاطئ البحر: ثغرًا. الوجيز ص(٨٤).

(٤) وذلك عملاً بقول الله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ [الأنفال: ٦٠].

بعيدة، ومأثرة فـائقة، قلّ فى الملوك أمثالها وعز عليهم مـثالها. ومما شاع من أفعال مولانا أيده الله فى الجهاد إنشاؤه الأجـفان بجميع السواحل، واستكثاره من عُدد البحـر، وهذا فى زمان الصلح والمهادنة، إعـداداً لأيام الغزاة. وأخذ بالحزم فى قطع أطماع الكفار، وأكد ذلك بتوجهه، أيده الله، بنفسه إلى جبال جاناته فى العام الفارط ليباشـر قطع الخشب للإنشاء، ويظهر قدر ما له بذلك من الاعتناء، ويتـولى بذاته أعمال الجهـاد، مترجيًا ثواب الله تعـالى، وموقنًا بحسن الجزاء.

ومن أعظم حسناته، أيده الله، عـمارة المسجد الجديد بالمدينة البـيضاء، دار ملكه العلى، وهو الذى امـتاز بالحـسن وإتقان البناء وإشـراق النور وبديع الترتيب، وعمارة المـدرسة الكبرى بالموضع المعروف بالقصر مما يجـاوز قصبة فاس، ولا نظيـر لها فى المعمـورة اتساعًا وحسنًـا وإبداعًا وكثرة مـاء وحسن وضع. ولم أر فى مدارس الشام ومصر والعراق وخراسان ما يشبهها. وعمارة الزاوية العظمى على غدير[1] الحمّص، خارج المـدينة البيضاء، فلا مـثل لها أيضًا فى عـجيب وضعـها وبديع صنعـها. وأبدع زاوية رأيتهـا بالشرق زاوية سرياقص (سرياقوس) التى بناها الملك الناصر. وهذه أبدع منها وأشد إحكامًا وإتقانًا. والله سـبحـانه ينفع مولانا، أيده الله، بمقـاصده الشريفـة، ويكافىء فـضائـله المنيـفة، ويديم للإسـلام والمسلمين أيـامه، وينصـر ألويتـه المظفـرة وأعلامه.

ولنعـد إلى ذكـر الرحلة فنقـول: ولما حـصلت لى مـشاهدة هذا المقـام الكريم، وعمنى فضل إحـسانه العميم، قصدت زيارة قـبر الوالدة. فوصلت إلى بلدة طنجـة وزرتها، وتوجهت إلى مـدينة سبـتة، فأقـمت بها أشـهرًا، وأصابنى بها المرض ثلاثة أشهر، ثم عافانى الله. فأردت أن يكون لى حظ من الجهاد والرباط، فركبت البحر من سـبتة فى شطى لأهل أصيلا، فوصلت إلى بلاد الأندلس، حرسـها الله تعـالى، حيث الأجر مـوفور للسـاكن، والثواب

(١) الغدير: القطعة من الماء يغادرها السيل. الوجيز ص(٤٤٦).

مـذخور للـمقـيم والظاعن. وكـان ذلك إثر مـوت طاغيـة الروم ألفـونس، وحصاره الجبل عشرة أشـهر، وظنه أنه يستولى على ما بقى من بلاد الأندلس للمسلمين. فأخـذه الله من حيث لم يحتسب، ومـات بالوباء الذى كان أشد الناس خوفًا منه. وأول بلد شـاهدته من البلاد الأندلسية جـبل الفتح. فلقيت به خطيبه الفاضل أبا زكريا يحيى بن السراج الرندى، وقاضيه عيسى البربرى، وعنده نزلت وتطوفت معـه على الجبل، فرأيت عجائب مـا بنى به مولانا أبو الحسن، -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، وأعد فيه من العدد، وما زاد على ذلك مولانا، أيده الله. وودت أن لو كنت ممن رابط به إلى نهاية العمر.

قال ابن جزى: جبل الفتح هو معقل الإسلام المعترض شجىً فى حلوق عبدة الأصنام، حـسنة مولانا أبى الحسن -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، المنسوبة إليـه، وقربته التى قدمها نورًا بين يديه، محل عدد الجهاد، ومقر آساد الأجناد، والثغر الذى افتر عن نصر الإيمان، وأذاق أهل الأندلس بعد مـرارة الخوف حلاوة الأمان، ومنه كان مبدأ الفتح الأكبـر، وبه نزل طارق بن زياد، مولى موسى بن نصير، عند جوازه، فنسب إليـه، فيقال له: جـبل طارق، وجبل الفتح، لأن مبـدأه كان منه. وبقايا السـور الذى بناه من معه باقـية إلى الآن، تسمى بسـور العرب. شاهدتها أيام إقامتى به عند حصـار الجزيرة، أعادها الله، ثم فتحه مولانا أبو الحسن، -رضوان الله عليـه-، واستـرجعـه من أيدى الروم بعـد تملكهم له عشـرين سنة ونيفًا، وبعث إلى حـصاره ولده الأميـر الجليل أبا مالك، وأيده بالأموال الطائلة والعساكر الجرارة. وكان فتـحه بعد حصار ستة أشهر، وذلك فى عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة، ولم يكن حينئذ على ما هو الآن عليه. فبنى به مولانا أبو الحسن -رحمـة الله عليه- المأثرة العظمى بأعلى الحصن، وكانت قبل ذلك برجًـا صغيرًا، تهـدم بأحجار المجانيـق، فبناها مكانه، وبنى به دار الصناعة، ولم يكن به دار صنعة، وبنى السور الأعظم المحيط بالتربة الحمراء، الآخذ من دار الصنعـة إلى القرمدة. ثم جدد مولانا أمـير المؤمنين أبو عنان، أيده الله، عهـد تحصينه وتحـسينه، وزاد بناء السور بطـرف الفتح، وهو أعظم أسـواره غناء، وأعمـها نفـعًا. وبعـث إليه العـدد الوافرة والأقـوات والمرافق

العامة، وعـامل الله تعالى فيه بحسن النية، وصـدق الإخلاص. ولما كان فى الأشهر الأخيرة من عام ستة وخـمسين، وقع بجبل الفتح ما ظهر فيه أثر يقين مولانا، أيده الله، وثمرة توكله فى أمـوره على الله، وبان مصداق ما اطرد له من السعادة الكافية. وذلك أن عامل الجبل الخائن الذى ختم له بالشقاء عيسى ابن الحـسن بن أبى منديـل نزع يده المغلولة عن الطاعـة، وفـارق عـصـمـة الجماعة، وأظهر النفاق، وجمح[1] فى الغدر والشقاق، وتعاطى ما ليس من رجاله، وعمى عن مـبدأ حاله السيئ ومآله، وتوهم الناس أن ذلك مـبدأ فتنة تنفق على إطفـائها كـرائم الأموال، ويسـتعـد لاتقائهـا بالفرسـان والرجال. فحكـمت سعادة مـولانا، أيده الله ببطلان هذا التـوهم، وقضى صدق يقـينه بانخراق الـعادة فى هذه الفتنة، فـلم تكن إلا أيام يسيرة، وراجـع أهل الجبل بصائرهم، وثاروا على الثائر، وخالفـوا الشقى المخالف، وقاموا بالواجب من الطاعـة، وقـبـضوا عليـه وعلى ولده المـساعـد له فى النفـاق، وأتى بهـمـا مصفدين[2] إلى الحضرة العلية، فنفذ فيهما حكم الله فى المخربين، وأراح الله من شرهما. ولما خـمدت نار الفتنة أظهر مـولانا، أيده الله، من العناية ببلاد الأندلس ما لم يكن فى حـساب أهلها، وبعث إلى جبل الفـتح ولده الأسعد المبارك الأرشـد أبا بكر، المدعو من السمات السلطانيـة بالسعيـد، أسعده الله تعالى، وبعث معه أنجـاد الفرسان ووجوه القبائل وكـفاة الرجال، وأدر عليهم الأرزاق، ووسع لهم الإقطاع، وحـرر بلادهم من المغارم، وبذل لهم جـزيل الإحسـان. وبلغ من اهتمامه بأمـور الجبل أن أمر، أيده الله ببناء شكل يشـبه شكل الجبل المذكور، فـمثل فيه أشكال أسـواره وأبراجه وحصنه وأبوابه ودار صنعته ومساجده ومخازن عُدَده وأهرية زرعه وصورة الجبل، وما اتصل به من التربة الحمراء. فـصنع ذلك بالمشور السعيد، فكان شكلاً عجـيبًا أتقنه الصناع إتقانًا يعرف قدره من شاهد الجبل، وشـاهد هذا المثال، وما ذلك إلا لتشوقه، أيده الله، إلى استطلاع أحواله وتهمّمه بتـحصينه وإعداده. والله تعالى يجعل

(١) جمح الرجل: ركب هواه فلا يمكن رده فهو جامح وجموح. الوجيز ص(١١٤).
(٢) صفده يصفده صفدًا: شده وأوثقه. الوجيز ص(٣٦٥).

نصر الإسلام بالجزيرة الغربية على يديه، ويحقق ما يؤمله فى فتح بلاد الكفار، وشتّ شمل عباد الصليب. وتذكرت حين هذا التقييد قول الأديب البليغ المفلق أبى عبد الله محمد بن غالب الرصافى البلنسى، رحمه الله، فى وصف هذا الجبل المبارك من قصيدته الشهيرة فى مدح عبد المؤمن بن علىّ التى أولها:

لو جئت نار الهدى من جانب الطور ... قبست ما شئت من علم ومن نور

وفيها يقول فى وصف الجبل، وهو من البديع الذى لم يسبق إليه، بعد وصفه السفن وجوازها:

حتى رمت جبل الفتحين من جبل ... معظم القدر فى الأجيال مذكور
من شامخ الأنف فى سحنائه[1] طلس[2] ... له من الغيم جيب غير مزرورِ
تمسى النجوم على تكليل مفرقه ... فى الجو حائمة مثل الدنانير
فربما مسحته من ذوائبها ... بكل فضل على فوديه مجرورِ
وأدرد[3] من ثناياه بم أخذت ... منه معاجم أعواد الدهارير
محنكٍ حلب الأيام أشطرها ... وساقها سَوْق حادى العير للعير
مقيد الخطو جوّال الخواطر فى ... عجيب أمر به من ماضٍ ومنظور
قد واصل الصمت والإطراق مفتكراً ... بادى السكينة مُغْبَرّاً الأسارير
كأنه مكمد مما تعبده ... خوف الوعيدين من دك وتسيير
أخلق به وجبال الأرض راجفة ... أن يطمئن غداً من كل محذور

ثم استمرّ فى قصيدته على مدح عبد المؤمن بن على.

قال ابن جزى: ولنعد إلى كلام الشيخ أبى عبد الله قال: ثم خرجت من جبل الفتح إلى مدينة رندة، وهى من أمنع معاقل المسلمين وأجملها

(١) السّحنة - بفتحتين - الهيئة. وقد تسكن. مختار الصحاح ص(٢٨٩).
(٢) الطُّلسة: الغبرة إلى السواد. الوجيز ص(٣٩٣)، مختار الصحاح ص(٣٩٥).
(٣) الأدرد: الذى ذهبت أسنانه.

وضعًا، وكـان قائدها إذ ذاك الشيخ أبو الربيع سليمـان بن داود العسكرى، وقاضيهـا ابن عمى الفقيه أبو القاسم محمـد بن يحيى بن بطوطة. ولقيت بهـا الفقـيه القـاضى الأديب أبا الحجـاج يوسف بن موسى المنـتشـاقرى، وأضافنى بمنزله، ولقيت بها أيضًا خطيبها الصالح الحاج الفاضل أبا إسحاق إبراهيم المعروف بالشندرخ، المتوفى بعـد ذلك بمدينة سلا من بلاد المغرب، ولقيت بها جماعة من الصالحين منهم عـبد الله الصفّار وسواه. وأقمت بها خمسة أيام.

ثم سافرت منـها إلى مدينة مربلة، والطريق فـيما بينهمـا صعب شديد الوعورة، ومـربلة بليدة حـسنة خصـبة. ووجدت بـها جمـاعة من الفـرسان متوجهين إلى مالقة، فأردت التوجـه فى صحبتهم. ثم إن الله تعالى عصمنى بفضله فـتوجـهوا قبلى، فـأسروا فى الطريق، كـما سنذكـره. وخرجت فى إثرهم، فلما جـاوزت حوز مربلة، ودخلت فى حـوز سهيل، مـررت بفرس ميت فى بعض الخنادق، ثم مررت بقـفة حوّات[1] مطروحة بالأرض، فرابنى ذلك، وكان أمامى برج الناظور. فقلت فـى نفسى: لو ظهر هاهنا عدو لأنذر به صاحب البرج. ثم تقدمت إلى دار هنالك، فوجدت فرسًـا مقتولاً. فبينما أنا هنالك، إذ سـمعت الصـياح من خـلفى، وكنت قد تقـدمت أصحـابى، فعدت إليـهم، فوجدت معهم قـائد حصن سهيل، فأعلمنى أن أربعـة أجفان للعـدو ظهرت هـنالك، ونزل بعض عمـارتهـا إلى البـر. ولم يكن الناظور بالبرج، فـمر بهم الفـرسان الخارجـون من مربلة، وكانوا اثـنى عشر، فـقتل النصارى أحدهم، وفر واحد، وأسر العشرة. وقتل معهم رجل حوّات، وهو الذى وجدت قفته مطروحة بالأرض. وأشـار على ذلك القائد بالمبيت معه فى موضـعه ليـوصلنى منه إلى مـالقة، فـبت عنده بحصن الرابطة المنسـوب إلى سهيل. والأجفان المذكورة مرسـاة عليه. وركب معى بالغد فوصلنا إلى مدينة مالقة إحدى قواعد الأندلس، وبلادها الحسـان جامعة بين مرافق البر والبحر، كثيـر الخيرات والفواكه. رأيت العنب يبـاع فى أسواقها بحسـان ثمانية أرطال

---

(١) يعنى: بها السمك.

بدرهم صغير. ورمانها المرسى الياقوتى لا نظير له فى الدنيا. وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن أحوازها إلى بلاد المشرق والمغرب.

قال ابن جزى: وإلى ذلك أشار الخطيب أبو محمد عبد الوهاب بن على المالقى فى قوله، وهو من مليح التجنيس(١):

مالقة حييت يا تينها ... فالفلك من أجلك يأتينها

نهى طبيبى عنك فى علة ... ما لطبيبى عن حياتى نهى

وذيلها قاضى الجماعة أبو عبد الله بن عبد الملك بقوله فى قصد المجانسة:

وحمص لا تنس لها تينها ... واذكر مع التين زياتينها

وبمالقة يصنع الفخار المذهب العجيب، ويجلب منها إلى أقاصى البلاد. ومسجدها كبير المساحة، شهير البركة، وصحنه لا نظير له فى الحسن، فيه أشجار النارنج البعيدة. ولما دخلت مالقة، وجدت قاضيها الخطيب الفاضل أبا عبد الله ابن خطيبها الفاضل أبى جعفر ابن خطيبها ولى الله تعالى أبى عبد الله الطنجالى قاعدًا بالجامع الأعظم، ومعه الفقهاء ووجوه الناس، يجمعون مالاً برسم فداء الأسارى الذين تقدم ذكرهم. فقلت له: الحمد لله الذى عافانى، ولم يجعلنى منهم. وأخبرته بما اتفق لى بعدهم، فعجب من ذلك، وبعث إلى بالضيافة، رحمه الله. وأضافنى أيضًا خطيبها أبو عبد الله الساحلى المعروف بالمعمم(٢).

ثم سافرت منها إلى مدينة بلّش، وبينهما أربعة وعشرون ميلاً. وهى مدينة حسنة، بها مسجد عجيب، وفيها الأعناب والفواكه والتين، كمثل ما

---

(١) الجناس فى البديع من الشعر: أن يشتمل الكلام على لفظين متفقين فى كل الحروف أو أكثرها مع اختلاف المعنى. الوجيز ص(١٢١). وهو هنا بين كلمتى ياتينها ويأتينها. وفى البيت الآخر بين لها تينها وزياتينها. وهو جناس ناقص فيهما.

(٢) وفى نسخة: «المعروف بالعم».

بمالقة، ثم سافرنا منها إلى الحمة، وهى بلدة صغيرة، لها مسجد بديع الوضع عجيب البناء. وبها العين الحارة على ضفة واديها، وبينها وبين البلد ميل أو نحوه. وهنالك بيت لاستحمام الرجال، وبيت لاستحمام النساء.

ثم سافرت منها إلى مدينة غرناطة، قاعدة بلاد الأندلس، وعروس مدنها، وخارجها لا نظير لها فى بلاد الدنيا، وهو مسيرة أربعين ميلاً، يخترقه نهر شنّيل المشهور، وسواه من الأنهار الكثيرة، والبساتين والجنان والرياض والقصور. والكروم محدقة بها من كل جهة. ومن عجيب مواضعها عين الدمع، وهو جبل فيه الرياض والبساتين، لا مثل لها بسواها.

قال ابن جزى: لولا خشيت أن أنسب إلى العصبية لأطلت القول فى وصف غرناطة، فقد وجدت مكانه. ولكن ما اشتهر كاشتهارها، لا معنى لإطالة القول فيه. ولله در شيخنا أبى بكر محمد بن أحمد بن شيرين البستى، نزيل غرناطة، حيث يقول:

رعى الله من غرناطة مُتَبوأً ... يَسُرُّ حزينًا أو يجير طريدا
تبرَّم منها صاحبى عندمًا رأى ... مسارحها بالثلج عُدْن جليدا
هى الثغر، صان الله مَنْ أَهِلَتْ به ... وما خير ثغر لا يكون برودا

وكان ملك غرناطة فى عهد دخولى إليها السلطان أبا الحجاج يوسف بن السلطان أبى الوليد إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف ابن نصر. ولم ألقه بسبب مرض كان به. وبعثت إلى والدته الحرة الصالحة الفاضلة بدنانير ذهب ارتفقت بها. ولقيت بغرناطة جملة من فضلائها، منهم قاضى الجماعة بها الشريف البليغ أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسينى السبتى، ومنهم فقيهها المدرس الخطيب العالم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم البيانى، ومنهم قاضيها وعالمها ومقرئها الخطيب أبو سعيد فرج بن قاسم، الشهير بابن لب، ومنهم قاضى الجماعة، نادرة العصر وطرفة الدهر أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم السلمى البلفيقى. قدم عليها من المرية فى تلك الأيام، فوقع

الاجتماع به فى بستان بالفقيه أبى القاسم محمد ابن الفقيه الكاتب الجليل أبى عبد الله بن عاصم. وأقمنا هنالك يومين وليلة.

قال ابن جزى: كنت معهم فى ذلك البستان، ومتعنا الشيخ أبو عبد الله[١] بأخبار رحلته، وقيدت عنه أسماء الأعلام الذين لقيهم فيها، واستفدنا منه الفوائد العجيبة. وكان معنا جملة من وجوه أهل غرناطة، منهم الشاعر المجيد الغريب الشأن أبو جعفر أحمد بن رضوان بن عبد العظيم الجذامى. ولهذا الفتى أمر عجيب. فإنه نشأ بالبادية، ولم يطلب العلم، ولا مارس الطلبة[٢]. ثم إنه نبغ بالشعر الجيد الذى يندر وقوعه من كبار البلغاء وصدور الطلبة[٣] مثل قوله:

يا مَن اختار فؤادى منزلاً ... بابُه العينُ التى تَرمُقُهُ
فَتَحَ البابَ سُهادى بَعْدَكم ... فابعثوا طَيفَكم يُغلِقُهُ

ولقيت بغرناطة الشيوخ والمتصوفين منهم الفقيه أبا على عمر بن الشيخ الصالح الولى أبى عبد الله محمد بن المحروق، وأقمت أيامًا بزاويته التى بخارج غرناطة، وأكرمنى أشد الإكرام.

وتوجهت معه إلى زيارة الزاوية الشهيرة البركة المعروفة برابطة العقاب، والعقاب جبل مطل على خارج غرناطة، وبينهما نحو ثمانية أميال، وهو مجاور لمدينة التيرة الخربة. ولقيت أيضًا ابن أخيه الفقيه أبا الحسن على بن أحمد بن المحروق بزاويته المنسوبة للجام، بأعلى ربض نجد، من خارج غرناطة، المتصل بجبل السبيكة، وهو شيخ المتسببين من الفقراء.

وبغرناطة جملة من فقراء العجم، استوطنوها لشبهها ببلادهم. منهم الحاج أبو عبد الله السمرقندى، والحاج أحمد التبريزى، والحاج إبراهيم

---

(١) يعنى به: ابن بطوطة رحمه الله.

(٢) مارس الطلبة: خالطهم وباحثهم. الوجيز ص(٥٧٨).

(٣) صدور الطلبة: أقوياؤهم.

القونوى، والحاج حسين الخراسانى والحاجان على ورشيدى الهنديان، وسواهم.

ثم رحلت من غرناطة إلى الحمة، ثم إلى بلش، ثم إلى مالقة، ثم إلى حصن ذكوان، وهو حصن حسن كثير المياه والأشجار والفواكه، ثم سافرت منه إلى رندة، ثم إلى قرية بنى رياح. فأنزلنى شيخها أبو الحسن على بن سليمان الرياحى، وهو أحد كرماء الرجال وفضلاء الأعيان، يطعم الصادر والوارد، وأضافنى ضيافة حسنة. ثم سافرت إلى جبل الفتح، وركبت البحر فى الجفن الذى جزت فيه أولاً، وهو لأهل أصيلا، فوصلت إلى سبتة. وكان قائدها إذ ذاك الشيخ أبو مهدى عيسى بن سليمان بن منصور، وقاضيها الفقيه أبا محمد الزجندرى. ثم سافرت منها إلى أصيلا، وأقمت بها شهوراً. ثم سافرت منها إلى مدينة سلا، فوصلت إلى مدينة مراكش. وهى من أجمل المدن، فسيحة الأرجاء. متسعة الأقطار كثيرة الخيرات، بها المساجد الضخمة، كمسجدها الأعظم المعروف بمسجد الكتبيين، وبها الصومعة الهائلة العجيبة، صعدتها، وظهر لى جميع البلد منها. وقد استولى عليه الخراب. فما شبهته إلا ببغداد، إلا أن أسواق بغداد أحسن.

وبمراكش المدرسة العجيبة التى تميزت بحسن الوضع وإتقان الصنعة وهى من بناء الإمام مولانا أمير المسلمين أبى الحسن رضوان الله عليه.

قال ابن جزى: فى مراكش يقول قاضيها الإمام التاريخى أبو عبد الله محمد بن الملك الأوسى:

لله مراكش الغراء من بلد ... وحبذا أهلها السادات من سكن
إن حلها نازح الأوطان مغترب ... أسلوه بالأنس عن أهل وعن وطن
بين الحديث بها أو العيان لها ... ينشأ التحاسد بين العين والأذن

ثم سافرنا من مراكش، صحبة الركاب العلى، ركاب مولانا أيده الله، فوصلنا إلى مدينة سلا، ثم إلى مدينة مكناس العجيبة الخضرة النضرة، ذات البساتين والجنات، المحيطة بها بحائر الزيتون من جميع نواحيها. ثم وصلنا

إلى حضرة فاس، حرسها الله تعالى، فوادعت بها مولانا أيده الله، وتوجهت برسم السفر إلى بلاد السودان، فوصلت إلى مدينة سجلماسة. وهى من أحسن المدن، وبها التمر الكثير الطيب، وتشبهها مدينة البصرة فى كثرة التمر. لكن تمر سجلماسة أطيب، وصنف إيرار منه لانظير له فى البلاد. ونزلت منها عند الفقيه أبى محمد البشرى، وهو الذى لقيت أخاه بمدينة قنجنفو من بلاد الصين. فيا شدّ ما تباعدا، فأكرمنى غاية الإكرام، واشتريت بها الجمال، وعلفتها أربعة أشهر.

ثم سافرت فى غرة شهر الله المحرم سنة ثلاث وخمسين، فى رفقة مقدمها أبو محمد يندكان المسوفى رحمه الله تعالى، وفيها جماعة من تجار سجلماسة وغيرهم. فوصلنا بعد خمسة وعشرين يومًا إلى تَغَازَى، وضبط اسمها (بفتح التاء المثناة والغين المعجم وألف وزاى مفتوح أيضًا)، وهى قرية لاخير فيها. ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح، وسقفها من جلول الجمال. ولا شجر بها، إنما هى رمل فيه معدن الملح، يحفر عليه فى الأرض، فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة، كأنها قد نحتت ووضعت تحت الأرض، يحمل الجمل منها لوحين. ولا يسكنها إلا عبيد مسوفة، وهم الذين يحفرون على الملح، ويتعيشون بما يجلب إليهم من تمر درعة وسجلماسة، ومن لحوم الجمال، ومن أنلى المجلوب من بلاد السودان، ويصل السودان من بلادهم، فيحملون منها الملح. ويباع الحمل منه بأيوالاتن بعشر مثاقيل إلى ثمانية، وبمدينة مالى بثلاثين مثقالاً إلى عشرين، وربما انتهى إلى أربعين مثقالاً.

وبالملح يتصارف السودان، كما يتصارف بالذهب والفضة. يقطعونه قطعًا، ويتبايعون به. وقرية تغازى على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبن. وأقمنا بها عشرة أيام فى جهد، لأن ماءها زعاق. وهى أكثر المواضع ذبابًا، ومنها يرفع الماء لدخول الصحراء التى بعدها. وهى مسيرة عشرة، لا ماء فيها إلا فى النادر. ووجدنا نحن بها ماء كثيرًا فى غدران أبقاها المطر. ولقد وجدنا فى بعض الأيام غديرًا بين تَلَّيْن من حجارة، ماؤه عذب،

فتروينا منه، وغسلنا ثيابنا. والكمأة بتلك الصحراء كثيرة، ويكثر القمل بها، حتى يجعل الناس فى أعناقهم خيوطًا فيها الزئبق، فيقتلها.

وكنا فى تلك الأيام نتقدم أمام القافلة، فإذا وجدنا مكانًا يصلح للرعى رعينا الدواب به. ولم نزل كذلك حتى ضاع فى الصحراء رجل يعرف بابن زيرى، فلم أتقدم بعد ذلك، ولاتأخرت. وكان ابن زيرى وقعت بينه وبين ابن خاله، ويعرف بابن عدى منازعة ومشاتمة، فتأخر عن الرفقة، فضل. فلما نزل الناس، لم يظهر له خبر. فأشرت على ابن خاله بأن يكترى من مسوفة، من يقص أثره لعله يجده فأبى، وانتدب فى اليوم الثانى رجل من مسوفة دون أجرة لطلبه، فوجد أثره، وهو يسلك الجادة طوراً، ويخرج عنها تارة، ولم يقع له على خبر. ولقد لقينا قافلة فى طريقنا، فأخبرونا أن بعض رجال انقطعوا عنهم. فوجدنا أحدهم ميتًا تحت شجيرة من أشجار الرمل، وعليه ثيابه، وفى يده سوط. وكان الماء على نحو ميل منه. ثم وصلنا إلى تاسرهلا (بفتح التاء المثناة والسين المهمل والراء وسكون الهاء)، وهى سحاء[1] ماء، تنزل القوافل عليها، ويقيمون ثلاثة أيام. فيستريحون ويصلحون أسقيتهم ويملأونها بالماء ويخيطون عليها التلاليس خوف الريح، ومن هنالك يبعث التكشيف.

التكشيف اسم لكل رجل من مسوفة يكتريه أهل القافلة، فيتقدم إلى أيوالاتن يكتب الناس إلى أصحابهم بها، ليكتروا لهم الدور، ويخرجون للقائهم بالماء، مسيرة أربع. ومن لم يكن له صاحب بأيوالاتن، كتب إلى من شهر بالفضل من التجار بها، فيشاركه فى ذلك. وربما هلك التكشيف فى هذه الصحراء، فلا يعلم أهل أيوالاتن بالقافلة، فيهلك أهلها، أو الكثير منهم. وتلك الصحراء كثيرة الشياطين، فإن كان التكشيف منفرداً لعبت به، واستهوته حتى يضل عن قصده فيهلك، إذ لا طريق يظهر بها ولا أثر، إنما هى رمال تسفيها الريح، فترى جبالاً من الرمل فى مكان، ثم تراها قد انتقلت

---

(١) السحاء: الدائمة الصب. الوجيز ص(٣٠٤).

إلى سـواه، والدليل هنالك من كـثر تردده، وكـان له قلب ذكى. ورأيت من العجـائب أن الدليل الذى كان لنا هو أعـور العين الواحدة، مريض الثـانية، وهو أعرف الناس بالطريق. واكترينا التكشيف فى هـذه السفرة بمائة مثقال من الذهب، وهو من مسـوفة. وفى ليلة اليـوم السابع رأينا نيران الذين خـرجوا للقائنا، فاستبشرنا بذلك. وهذه الصحراء منيـرة مشرقة، ينشرح الصدر فيها، وتطيب النفس. وهى آمنة من السراق. والبقر الوحشـية بها كثير يأتى القطيع منها حتى يقـرب من الناس فيصطادونه بالكلاب والنشاب. لكن لحـمها يولِّد أكله العطش، فيتـحاماه كثير من الناس لذلك. ومن العـجائب أن هذه البقرة إذا قتلت، وجد فى كـروشها الماء. ولقد رأيت أهل مسوفـة يعصرون الكرش منها، ويشربون الماء الذى فيه. والحيات أيضًا بهذه الصحراء كثير.

وكـان فى القافلة تاجـر تلمـسانى يعـرف بالحاج زيان. ومن عـادته أن يقبض على الحيات، ويعبث بها. وكنت أنهاه عن ذلك، فلا ينتهى. فلما كان ذات يوم أدخل يده فى جحـر ضب ليخـرجه، فوجـد مكانه حية، فـأخذها بيـده. وأراد الركوب، فلسـعتـه فى سبـابته اليـمنى، وأصابه وجع شـديد. فكويت يده، وزاد ألمه عشى النهار فنحر جمـلاً وأدخل يده فى كرشه وتركها كذلك ليلة، ثم تناثر لحم إصبـعه، فقطعها من الأصل. وأخبـرنا أهل مسوفة أن تلك الحية كانت قد شربت الماء قبل لسعه. ولو لم تكن شربت لقتلته. ولما وصل إلينا الذين استقبلونا بالماء شربت خـيلنا. ودخلنا صحراء شديدة الحر، ليست كالتى عهدنا. وكنا نرحل بعـد صلاة العصر، ونسرى الليل كلهُ وننزل عند الصباح. وتأتى الرجـال من مسوفة وبردامة وغيرهم بأحـمال الماء للبيع. ثم وصلنا إلى مـدينة أيوالاتن فى غرة شـهر ربيع الأول، بعد سـفر شـهرين كاملين من سـجلماسة. وهى أول عـمالة السودان، ونائب السلطان بهـا فَوْبا حسين، وفوبا (بفـتح الفاء وسكون الواو وفتح الباء الموحـدة) ومعناه النائب. ولما وصلناها جـعل التجار أمـتعتـهم فى رحبـة، وتكفل السودان بحـفظها، وتوجهـوا إلى الفوبا، وهو جـالس على بساط فـى سقيف، أعـوانه بين يديه بأيديهم الرماح والقسى، وكبراء المسوفة من ورائهم. وواقف التجار بين يديه،

وهو يكلمهم بترجمان على قـربهم منه، احتقاراً لهم. فعند ذلك ندمت على قدومى بلادهم، لسـوء أدبهم، واحتقارهم للأبيض. وقـصدت دار ابن بداء، وهو رجل فـاضل من أهل سلا، كنت كـتبت له أن يكتـرى لى داراً، ففـعل ذلك. ثم إن مشـرف أيوالاتن، ويسمى مَنْشَاجـو، (بفتح الميم وسكون النون وفتح الشين المعجم وألف وجيم مضـموم وواو)، استدعى من جاء فى القافلة إلى ضيافته، فأبيت حضور ذلك. فعزم الأصحاب على أشد العزم، فتوجهت فيمن توجه. ثم أتى بالضيافة، وهى جريش أنلى مخلوطًا بيسير عسل ولبن، قد وضعوه فى نصف قرعة صيروه شبـه الجفنة، فشرب الحاضرون وانصرفوا، فقلت لهم: ألهذا دعانا الأسود؟ قالوا: نعـم، وهى الضيافة الكبيرة عندهم. فأيقنت حينئذ أن لا خير يرتجى منهم، وأردت أن أسافر مع حجاج أيوالاتن، ثم ظهر لى أن أتوجه لمشـاهدة حضرة ملكهم. وكانت إقـامتى بأيوالاتن نحو خمسين يومًا. وأكرمنى أهلها، وأضافونى. منهم قـاضيها محمد بن عبد الله ابن ينومر، وأخوه الفـقيه المدرس يحيى. وبلدة أيوالاتن شديدة الحـر، وفيها يسيـر نخيلات، يزرعون فى ظلالهـا البطيخ. وماؤهم من أحسـاء بها، ولحم الضأن كثير بها. وثياب أهلها حسـان مصرية، وأكثر السكان بها من مسوفة. ولنسائها الجمال الفائق، وهن أعظم شأنًا من الرجال.

وشأن هؤلاء القـوم عجيب، وأمـرهم غريب، فأمـا رجالهم فلا غـيرة لديهم، ولا ينتسب أحـدهم إلى أبيه، بل ينتـسب لخاله، ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيـه. وذلك شىء ما رأيته فى الدنيا إلا عند كفـار بلاد المليبار من الهنود. وأما هؤلاء فـهم مسلمون محافظون على الصلـوات وتعلم الفقه وحفظ القـرآن. وأما نسـاؤهم فلا يحـتشـمن من الرجال، ولا يحـتجبن مع مواظبـتهن على الصلوات. ومن أراد التزوج منهن تزوج، لكنهن لا يسـافرن مع الزوج، ولو أرادت إحداهن ذلك لمنعهـا أهلها. والنساء هنالك يكون لهن الأصدقـاء والأصحاب من الرجـال الأجانب، وكذلك للرجـال صواحب من النساء الأجنبيـات. ويدخل أحدهم داره، فيجد امـرأته ومعها صاحبـها، فلا ينكر ذلك.

ودخلت يومًا على القاضى بأيوالاتن بعد إذنه فى الدخول، فوجدت عنده امرأة صغيرة السن بديعة الحسن، فلما رأيتها ارتبت وأردت الرجوع، فضحكت منى ولم يدركها خجل، وقال لى القاضى: لِمَ ترجع؟ إنها صاحبتى. فعجبت من شأنهما، فإنه من الفقهاء الحجاج، وأخبرت أنه استأذن السلطان فى الحج فى ذلك العام مع صاحبته، لا أدرى، أهى هذه أم لا؟ فلم يأذن له.

ودخلت يومًا على أبى محمد يندكان المسوفى الذى قدمنا فى صحبته، فوجدته قاعدًا على بساط، وفى وسط داره سرير مظلل، عليه امرأة معها رجل قاعد، وهما يتحدثان. فقلت له: من هذه المرأة؟ فقال: هى زوجتى. فقلت: ومن الرجل الذى معها؟ فقال: هو صاحبها. فقلت له: أترضى بهذا؟ وأنت قد سكنت بلادنا، وعرفت أمور الشرع. فقال لى: مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير وأحسن طريقة، لا تهمة فيها، ولسن كنساء بلادكم. فعجبت من رعونته، وانصرفت عنه، فلم أعد إليه بعدها. واستدعانى فى مرات، فلم أجبه. ولما عزمت على السفر إلى مالى، وبينها وبين أيوالاتن مسيرة أربعة وعشرين يومًا، للمُجِد، اكتريت دليلاً من مسوفة، إذ لا حاجة إلى السفر فى رفقة إلا من تلك الطريق، وخرجت فى ثلاثة من أصحابى. وتلك الطريق كثير الأشجار، وأشجارها عادية ضخمة، تستظل القافلة بظل الشجرة منها، وبعضها لا أغصان لها ولا ورق لكن ظل جسدها بحيث يستظل به الإنسان، وبعض تلك الأشجار قد استأنس داخلها، واستنقع فيه ماء المطر، فكأنها بئر، ويشرب الناس من الماء الذى فيها. ويكون فى بعضها النحل والعسل، فيشتاره الناس منها. ولقد مررت بشجرة منها، فوجدت فى داخلها رجلاً حائكًا(١)، قد نصب بها مرمته، وهو ينسج. فعجبت منه.

قال ابن جزى: إن ببلاد الأندلس شجرتين من شجر القسطل، فى

---

(١) الحائك: صانع الثياب. الوجيز ص(١٨٢).

جوف كل واحدة منهما حائك، ينسج الثياب إحداهما بسندا وادى آش، والآخرى ببشارة غرناطة.

وفى أشجار هذه الغابة التى بين أيوالاتن ومالى ما يشبه ثمرة الإجاص، والتفاح والخوخ والمشمش، وليست بها. وفيها أشجار تثمر شبه الفقوس، فإذا طاب انفلق عن شىء شبه الدقيق، فيطبخونه ويأكلونه، ويباع بالأسواق. ويستخرجون من هذه الأرض حبات كالفول، فيقلونها ويؤكلونها، وطعمها كطعم الحمص المقلو. وربما طحنوها وصنعوا منها شبه الإسفنج، وقلوه بالغرتى، والغرتى (بفتح الغين المعجم وسكون الراء وكسر التاء المثناة) هو ثمر كالإجاص، شديد الحلاوة، مضر بالبيضان إذا أكلوه، ويدق عظمه، فيستخرج منه زيت لهم فيه منافع، فمنها أنهم يطبخون به، ويسرجون السرج ويقلون به هذا الإسفنج، ويدهنون به، ويخلطونه بتراب عندهم، ويسطحون به الدور، كما تسطح بالجير. وهو عندهم كثير متيسر، ويحمل من بلد إلى بلد فى قرع كبار، تسع القرعة منها قدر ما تسعه القلة ببلادنا. والقرع ببلاد السودان يعظم، ومنه يصنعون الجفان. يقطعون القرعة نصفين، فيصنعون منها جفنتين، وينقشونها نقشًا حسنًا. وإذا سافر أحدهم يتبعه عبيده وجواريه، يحملون فرشه وأوانيه التى يأكل ويشرب فيها، وهى من القرع.

والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زادًا ولا إدامًا ولا ديناراً ولا درهمًا. إنما يحمل قطع الملح، وحلى الزجاج الذى يسميه الناس النظم، وبعض السلع العطرية. وأكثر ما يعجبهم منها القرنفل والمصطكى وتاسر غنت، وهو بخورهم. فإذا وصل قرية، جاءت نساء السودان بأنلى واللبن والدجاج ودقيق النبق والأرز والفونى، وهو كحب الخردل يصنع من الكسكسو، والعصيدة، ودقيق اللوبيا، فيشترى منهن ما أحب من ذلك. إلا أن الأرز يضر أكله بالبيضان، والفونى خير منه. وبعد مسيرة عشرة أيام من أيوالاتن وصلنا إلى قرية زَاغرى (وضبطها بفتح الزاى والغين المعجم وكسر الراء)، وهى قرية كبيرة يسكنها تجار السودان، ويسمون وَنْجَرَاتة (بفتح الواو

وسكون النون وفتح الجيم والراء وألف وتاء مثناة وتاء تأنيث). ويسكن معها جماعة من البيضان، يذهبون مذهب الإباضية من الخوارج، ويسمون صَغَنَغُو (بفتح الصاد المهمل والغين المعجم الأول والنون وضم الغين الثانى وواو). والسنيون المالكيون من البيض يسمون عندهم تورى (بضم التاء المثناة وواو وراء مكسورة). ومن هذه القرية يجلب أنلى إلى أيوالاتن. ثم سرنا من زاغرى فوصلنا إلى النهر الأعظم، وهو النيل وعليه بلدة كارْسَخُو (بفتح الكاف وسكون الراء وفتح السين المهمل وضم الخاء المعجم وواو)، والنيل ينحدر منها إلى كَابرَة (بفتح الباء الموحدة والراء)، ثم إلى زَاغَة (بفتح الزاى والغين المعجم)، ولكابرة ديانة وطلب للعلم، ثم ينحدر النيل من زاغة إلى تنبكتو، ثم إلى كَوْكَوْ، وسنذكرهما، ثم إلى بلدة مُولِى (بضم الميم وكسر اللام) من بلاد الليميين، وهى آخر عمالة مالى، ثم إلى يوفى واسمها (بضم الياء آخر الحروف وواو مكسورة)، وهى من أكبر بلاد السودان، وسلطانها من أعظم سلاطينهم. ولا يدخلها الأبيض من الناس، لأنهم يقتلونه قبل الوصول إليها. ثم ينحدر إلى بلاد النوبة، وهم على دين النصرانية، ثم إلى دُنْقُلَة، وهى أكبر بلادهم (وضبطها بضم الدال والقاف وسكون النون بينهما وفتح اللام)، وسلطانها يدعى بابن كنز الدين، أسلم على أيام الملك الناصر، ثم ينحدر إلى جنادل، وهى آخر عمالة السودان، وأول عمالة أسوان من صعيد مصر. ورأيت التمساح بهذا الموضع من النيل بالقرب من الساحل، كأنه قارب صغير. ولقد نزلت يومًا إلى النيل لقضاء حاجة، فإذا بأحد السودان قد جاء، ووقف فيما بينى وبين النهر. فعجبت من سوء أدبه، وقلة حيائه، وذكرت ذلك لبعض الناس فقال: إنما فعل ذلك خوفًا عليك من التمساح، فحال بينك وبينه. ثم سرنا من كارسخو فوصلنا إلى نهر صَنْصَرة (بفتح الصادين المهملين والراء وسكون النون)، وهو على نحو عشرة أميال من مالى. وعادتهم أن يمنع الناس من دخولها إلا بإذن. وكنت كتبت قبل ذلك لجماعة البيضان، وكبيرهم محمد بن الفقيه الجزولى، وشمس الدين بن النقويش المصرى، ليكتروا لى دارًا، فلما

وصلت إلى النهر المذكور، جزت فى المعدية، ولم يمنعنى أحد، فوصلت إلى مدينة مالى حضرة ملك السودان فنزلت عند مقبرتها ووصلت إلى محلة البيضان، وقصدت محمد بن الفقيه، فوجدته قد اكترى لى داراً إزاء داره، فتوجهت إليها. وجاء صهره الفقيه المقرئ عبد الواحد بشمعة وطعام، ثم جاء ابن الفقيه إلى من الغد وشمس الدين بن النقويش، وعلى الزودى المراكشى، وهو من الطلبة، ولقيت القاضى بمالى عبد الرحمن، جاءنى، وهو من السودان، حاج فاضل، له مكارم أخلاق، بعث إلى بقرة فى ضيافته. ولقيت الترجمان دوغَا (بضم الدال وواو وغين معجم)، وهو من أفاضل السودان وكبارهم، وبعث إلى بثور، وبعث إلى الفقيه عبد الواحد غرارتين من الفونى، وقرعة من الغرتى، وبعث إلى ابن الفقيه الأرز والفونى، وبعث إلى شمس الدين ضيافة وقاموا بحقى أتم قيام. شكر الله حسن أفعالهم. وكان ابن الفقيه متزوجًا ببنت عم السلطان، فكانت تتفقدنا بالطعام وغيره. وأكلنا بعد عشرة أيام من وصولنا عصيدة تصنع من شىء شبه القلقاس، يسمى القافى (بقاف وألف وفاء)، وهى عندهم مفضلة على سائر الطعام. فأصبحنا جميعًا مرضى، وكنا ستة. فمات أحدنا، وذهبت أنا لصلاة الصبح، فغشى علىَّ فيها، وطلبت من بعض المصريين دواء مسهلاً فأتى بشىء يسمى بَيْدر (بفتح الباء الموحدة وتسكين الياء آخر الحروف وفتح الدال المهمل وراء)، وهو عروق نبات، وخلطه بالأنيسون والسكر، ولته بالماء فشربته، وتقيأت ما أكلته مع صفراء كثيرة. وعافانى الله من الهلاك. ولكنى مرضت شهرين.

وكان سلطان مالى مَنْسَى سليمان، ومنسى (بفتح الميم وسكون النون وفتح السين المهمل) معناه السلطان، وسليمان اسمه وهو ملك بخيل لا يرجى منه كبير عطاء، واتفق أنى أقمت هذه المدة ولم أره بسبب مرضى، ثم إنه صنع له طعامًا برسم عزاء مولانا أبى الحسن -ﷺ-، واستدعى الأمراء والفقهاء والقاضى والخطيب، وحضرت معهم فأتوا بالربعات وختم القرآن، ودعوا لمولانا أبى الحسن رحمه الله، ودعوا لمنسى سليمان. ولما فرغ من ذلك، تقدمت فسلمت على منسى سليمان، وأعلمه القاضى والخطيب وابن

الفقيه بحالى، فأجابهم بلسانهم فقالوا لى: يقول لك السلطان اشكر الله فقلت: الحمد لله، والشكر على كل حال.

ولما انصرفت بعث إلى الضيافة فوجهت إلى دار القاضى، وبعث القاضى بها مع رجاله إلى دار ابن الفقيه. فخرج ابن الفقيه من داره مسرعًا، حافى القدمين، فدخل على وقال: قم، قد جاءك قماش السلطان وهديته. فقمت، وظننت أنها الخلع والأموال، فإذا هى ثلاثة أقراص من الخبز وقطعة لحم بقرى مقلوّ بالغرتى وقرعة فيها لبن رائب، فعندما رأيتها ضحكت، وطال تعجبى من ضعف عقولهم، وتعظيمهم لهذا الشىء الحقير.

وأقمت بعد بعث هذه الضيافة شهرين، لم يصل إلى فيهما شىء من قبل السلطان. ودخل شهر رمضان، وكنت خلال ذلك أتردد إلى المشور، وأسلم عليه، وأقعد مع القاضى والخطيب، فتكلمت مع دوغا الترجمان، فقال: تكلم عنده، وأنا أعبر عنك بما يجب فجلس فى أوائل رمضان، وقمت بين يديه، وقلت له إنى سافرت بلاد الدنيا، ولقيت ملوكها، ولى ببلادك أربعة أشهر، ولم تضفنى، ولا أعطيتنى شيئًا. فماذا أقول عنك عند السلاطين؟ فقال: إنى لم أرك، ولا علمت بك فقام القاضى وابن الفقيه فردا عليه، وقالا: إنه قد سلم عليك، وبعثت إليه الطعام فأمر لى عند ذلك بدار أنزل بها، ونفقة تجرى على ثم فرق على القاضى والخطيب والفقهاء مالاً، ليلة سبع وعشرين من رمضان، يسمونه الزكاة وأعطانى معهم ثلاثة وثلاثين مثقالاً وثلثًا وأحسن إلى عند سفرى بمائة مثقال ذهبًا.

وله قبة مرتفعة بابها بداخل داره، يقعد فيها أكثر الأوقات ولها من جهة المشور طبقات ثلاث من الخشب، مغطاة بصفائح الفضة، وتحتها ثلاث مغشاة بصفائح الذهب، أو هى فضة مذهبة، عليها ستور ملف فإذا كان يوم جلوسه بالقبة، رفعت الستور فعلم أنه يجلس. فإذا جلس أخرج من شباك إحدى الطاقات شرابة حرير، قد ربط فيها منديل مصرى مرقوم، فإذا رأى الناس المنديل، ضربت الأطبال والأبواق، ثم يخرج من باب القصر نحو ثلاثمائة من العبيد، فى أيدى بعضهم القسى، وفى أيدى بعضهم الرماح الصغار

والدرق[١]، فيقف أصـحاب الرماح منهم ميـمنة وميسرة، ويجـلس أصحاب القسى كذلك ثم يؤتى بفرسين مـسرجين ملجمين. ومعهما كـبشان، يذكرون أنهما ينفعان من العين.

وعند جلوسه يخـرج ثلاثة من عبيـده مسرعين، فـيدعون نائبـه قنجاه موسى وتأتى الفَـرارية (بفتح الفاء)، وهم الأمراء، ويأتى الخطيب والفـقهاء، فيقعدون أمام السلحدارية يمنة ويسـرة فى المشور، ويقف دوغا الترجمان على باب المشور، وعليه الثياب الفاخرة من الزردخـانة وغيرها، وعلى رأسه عمامة ذات حواشٍ، لهم فى تعـميمـها صنعة بديعـة، وهو متقلد سـيفًا غـمده من الذهب، وفى رجليـه الخف والمهامـيز[٢]، ولا يلبس أحـد ذلك اليوم خـفًا غيره. ويكون فى يده رمحان صغيـران أحدهما من ذهـب، والآخر من فضة، وأسنتهما من الحديد.

ويجلس الأجناد والولاة والفتيان ومسـوفة وغيرهم خارج المشور، فى شارع هنالـك متسع، فـيه أشـجار وكل فـرارى بين يديه أصحابـه بالرماح والقـسى والأطبـال والأبواق، بوقـاتهم من أنيـاب الفـيلة، وآلات الطرب المصنوعة من القصب والقرع وتضرب بالسطاعـة، ولها صوت عجيب وكل فرارى له كنانة قـد علقهـا بين كتفـيه، وقوســه بيده، وهو راكب فـرسه، وأصحابه بين مشاة وركبان ويكون بداخل المشور تحت الطيقان رجل واقف، فمن أراد أن يكلم السلطان كلم دوغـا، ويكلم دوغا ذلك الواقف، ويكلم الواقف السلطان.

ويجلس أيضًا فى بعض الأيام بالمشور، وهنالك مصطبة تحت شجرة لها ثلاث درجات، يسمونها البَنْبى (بفتح الباء المعقود الأولى وكسر الثانية وسكون النون بينهمـا)، وتفرش بالحرير، ويجـعل المخاد عليـها، ويرفع الشطر، وهو شبه قبة من الحرير، وعلـيه طائر من ذهب على قدر البازى، ويخرج السلطان من باب فى ركن القصر، وقوسه بيده، وكنانته بين كتفيه، وعلى رأسه شاشية

(١) الدرق مفردها الدرقة: وهى الترس من جلد. الوجيز ص(٢٢٦).

(٢) المهامـيز مـفردها مـهمـاز، وهى حديدة فى مـؤخر حـذاء الفارس أو الرائض. الوجـيز ص(٦٥٢).

ذهب، مشدودة بعصابة ذهب، لها أطراف مثل السكاكين رقاق، طولها أزيد من شبر، وأكثر لباسه جبة حمراء موبرة، من الثياب الرومية التى تسمى المطنفس، ويخرج بين يديه المغنون، بأيديهم قنابر الذهب والفضة، وخلفه نحو ثلاثمائة من العبيد أصحاب السلاح. ويمشى مشيًا رويدًا، ويكثر التأنى وربما وقف، فإذا وصل إلى البَنْبى وقف ينظر فى الناس، ثم يصعد برفق، كما يصعد الخطيب المنبر وعند جلوسه تضرب الطبول والأبواق والأنفار، ويخرج ثلاثة من العبيد مسرعين، فيدعون النائب والفرارية فيدخلون ويجلسون ويؤتى بالفرسين والكبشين معهما، ويقف دوغا على الباب، وسائر الناس فى الشارع تحت الأشجار.

والسودان أعظم الناس تواضعًا لملكهم، وأشدهم تذللاً له ويحلفون باسمه فيقولون: منسى سليمان كى، فإذا دعا بأحدهم عند جلوسه بالقبة التى ذكرناها، نزع المدعو ثيابه، ولبس ثيابًا خلقة، ونزع عمامته، وجعل شاشية وسخة، ودخل رافعًا ثيابه وسراويله إلى نصف ساقه، وتقدم بذلة ومسكنة، وضرب الأرض بمرفقيه ضربًا شديدًا، ووقف كالراكع يسمع كلامه.

وإذا كلم أحدهم السلطان، فرد عليه جوابه، كشف ثيابه عن ظهره، ورمى بالتراب على رأسه وظهره، كما يفعل المغتسل بالماء، وكنت أعجب منهم، كيف لا تعمى أعينهم. وإذا تكلم السلطان فى مجلسه بكلام، وضع الحاضرون عمائمهم عن رؤوسهم، وأنصتوا للكلام، وربما قام أحدهم بين يديه، فيذكر أفعاله فى خدمته، ويقول: فعلت كذا يوم كذا، وقتلت كذا يوم كذا، فيصدقه من علم ذلك وتصديقهم أن ينزع أحدهم وتر قوسه، ثم يرسلها، كما يفعل إذا رمى، فإذا قال له السلطان: صدقت، أو شكره، نزع ثيابه وترب وتربع، وذلك عندهم من الأدب.

قال ابن جزى: وأخبرنى الصاحب العلامة الفقيه أبو القاسم بن رضوان أعزه الله أنه لما قدم الحاج موسى الونجراتى رسولاً عن منسى سليمان إلى مولانا أبى الحسن -رضي الله عنه-، كان إذا دخل المجلس الكريم، حمل بعض ناسه معه قفة تراب فيترب لهما قال له مولانا كلامًا حسنًا، كما يفعل ببلاده.

وحضـرت بمالي عيـدى الأضحى والفطر فخـرج الناس إلى المصلى، وهو بمقـربة من قصـر السلطان، وعليهم الثـياب البـيض الحسـان، وركب السلطان، وعلى رأسـه الطيلسـان، والسودان لا يلبـسون الطيلسـان إلا فى العيد، ما عـدا القاضى والخطيب والفقهاء، فإنهم يلبسونه فى سائر الأيام وكـانوا يوم العـيد بين يدى السـلطان، وهم يهللون ويكبـرون، وبين يديه العلامات الحـمر من الحرير، ونصب عند المصلى خبـاء فدخل السلطان إليه وأصلح من شأنه ثم خـرج إلى المصلى، فقضيت الصـلاة والخطبة، ثم نزل الخطيب، وقعـد بين يدى السلطان، وتكلم بكلام كثيـر وهنالك رجل بيده رمح، يبين للناس بلسـانهم كلام الخطيب، وذلك وعظ وتذكـير وثناء على السلطان، وتحـريض على لزوم طاعتـه، وأداء حقـه. ويجلس السلطان فى أيام العيدين بعد العصر عـلى البَنْى ويأتى السلحدارية بالسلاح العجيب من تراكش الذهب والفـضة والسـيوف المحـلاة بالذهب وأغـمادها منه ورمـاح الذهب والفـضـة ودبابيس البلور، ويقف علـى رأسه أربعـة من الأمـراء، يشردون الذباب، وفى أيديهم حلية من الفضة، تشبه ركاب السرج ويجلس الفرارية والقاضي والخطيب على العادة، ويأتى دوغا الترجمان بنسائه الأربع وجواريه، وهن نحو مائة عليهن الملابس الحـسان، وعلى رؤوسهن عصائب الذهب والفضة، فـيها مفاتيح ذهب وفضـة، وينصب لدوغا كرسى يجلس عليه، ويضـرب بالآلة التى هى من قصب، وتحـتها قـريعات ويغنى بشـعر يمدح السلطان فيه، ويذكـر غزواته وأفعاله، ويغنى النساء والجـوارى معه، ويلعبن بالقسىّ، ويكون مـعه نحو ثلاثين من غلمانه، عليـهم جباب الملف والحمـر، وفى رؤوسهم الشـواشى البيض، وكل واحـد منهم متقلـد طلبه بضـريه ثم يأتى أصحـابه من الصـبيـان، ويلعبـون فى الهواء كـما يفـعل السندى، ولهم فى ذلك رشاقة وخفة بديعة، ويلعبون بالسيوف أجمل لعب ويلعب دوغا بالسـيف لعبًا بديعًا. وعند ذلك يأمر السـلطان له بالإحسان، فيأتى بصـرة فيها مـائتا مثقال من التـبر، وينثر ما فيـها على رؤوس الناس وتقوم الفرارية، فينزعون فى قسيهم شكراً للسلطان وبالغد يعطى كل واحد

منهم لدوغا عطاء على قدره وفى كل يوم جمعة بعد العصر، يفعل دوغا مثل هذا الترتيب الذى ذكرناه.

وإذا كان يوم عيد، وأتم دوغا لعبه، جاء الشعراء، ويسمون الْجُلا (بضم الجيم)، وأحدهم جالى، وقد دخل كل واحد منهم فى جوف صورة مصنوعة من الريش تشبه الشقشاق، وجعل لها من رأس الخشب له منقار أحمر كأنه رأس الشقشاق، ويقفون بين يدى السلطان بتلك الهيئة المضحكة، فينشدون أشعارهم وذكر لى أن شعرهم نوع من الوعظ يقولون فيه للسلطان: إن هذا البَنْى الذى عليه جلس فوقه من الملوك فلان، وكان من حُسْن أفعاله كذا، وفلان كان من أفعاله كذا، فافعل أنت من الخير ما يذكر بعدك. ثم يصعد كبير الشعراء على درج البَنْى، ويضع رأسه فى حجر السلطان، ثم يصعد إلى أعلى البَنْى فيضع رأسه على كتف السلطان الأيمن، ثم على كتفه الأيسر، وهو يتكلم بلسانهم، ثم ينزل. وأخبرت أن هذا الفعل لم يزل قديمًا عندهم قبل الإسلام، فاستمروا عليه.

حضرت مجلس السلطان فى بعض الأيام، فأتى أحد فقهائهم، وكان قدم من بلاد بعيدة، وقام بين يدى السلطان، وتكلم كلامًا فقام القاضى فصدقه، ثم صدقهما السلطان فوضع كل واحد منهم عمامته عن رأسه، وترب بين يديه وكان إلى جانبى رجل من البيضان، فقال: أتعرف ما قالوه؟ فقلت: لا أعرف فقال: إن الفقيه قد أخبر أن الجراد وقع ببلادهم، فخرج أحد صلحائهم إلى موضع الجراد، فهاله أمره، فقال: هذا جراد كثير. فأجابته جرادة منهم، وقالت إن البلاد التى يكثر فيها الظلم، يبعثنا الله لفساد زرعها. فصدقه القاضى والسلطان، وقال عند ذلك للأمراء: إنى برىء من الظلم، ومن ظلم منكم عاقبته، ومن علم بظالم ولم يعلمنى به، فذنوب ذلك الظالم فى عنقه، والله حسيبه وسائله. ولما قال هذا الكلام؛ وضع الفرارية عمائمهم عن رؤوسهم، وتبرأوا من الظلم.

وحضرت الجمعة يومًا فقام أحد التجار من طلبة مسوفة، ويسمى بأبى حفص، فقال: يا أهل المسجد، أشهدكم أن منسى سليمان فى دعوتى إلى

رسول الله -ﷺ- فلما قـال ذلك، خرج إليـه جماعـة رجال من مقـصورة السلطان فقالوا له: من ظلمك؟ من أخذ لك شيئًا؟ فقال: منشاجو أيوالاتن، يعني مشرفها أخـذ مني ما قيمته ستمائة مثـقال، وأراد أن يعطيني في مقابلته مائة مثقال خـاصة فبعث السلطان إليه عنه للحين فحضـر بعد أيام، وصرفها للقاضي، فثبت للتاجر حقه فأخذه، وبعد ذلك عزل المشرف عن عمله.

واتفق في يوم إقامتي بمالي أن السلطان غضب على زوجته الكبرى بنت عمه المدعـوة بقاسا، ومعنى قاسا عندهم الملـكة وهي شريكته في الملك على عادة الـسودان، ويذكـر اسمـها مع اسـمه على المنبـر، وسجنهـا عند بعض الفرارية، وولى في مكانها زوجتـه الأخرى بنجو، ولم تكن من بنات الملوك فأكـثر الناس الكلام في ذلك، وأنكروا فـعله، ودخل بنات عمـه على بنجو يهنئنها بالمملكة، فـجعلن الرماد على أذرعهن، ولم يتـربن رؤوسهن، ثم إن السلطان سرح قـاسا من ثقـافها فـدخل عليها بنات عـمه يهنئنهـا بالسراح، وتربن على العادة فشكت بنجو إلى السلطان بذلـك. فغضب على بنات عمه فخفن منه، واستجرن بالجامع فعفى عنهن، واستدعاهن، وعادتهن إذا دخلن على السلطان، أن يتجردن عن ثيابـهن، ويدخلن عرايا، ففعلن ذلك ورضي عنهن، وصرن يأتين باب السلطان غدوًا وعشيًا مدة سبعة أيام وكذلك يفعل كل من عـفـا عنه السلطان. وصـارت قـاسـا تركب كل يوم في جـواريهـا وعبيدها، وعلى رؤوسـهم التراب، وتقف عند المشور متنقبـة لا يرى وجهها وأكثـر الأمراء الكلام في شأنهـا، فجمـعهم السلطان في المشـور، وقال لهم دوغا على لسـانه: إنكم قد أكـثرتم الكلام في أمر قـاسا، وأنهـا أذنبت ذنبًا كبيرًا.

ثم أتي بجارية من جواريها مقيدة مغلولة، فقيل لها: تكلمي بما عندك. فأخبرت أن قاسا بعثـتها إلى جاطل ابن عم السلطان الهارب عنه إلى كنبرني، واستدعـته ليخلع السلطان عن ملكه، وقـالت له: أنا وجميع العـساكر طوع أمرك، فلما سمع الأمراء ذلك قالوا: إن هذا ذنب كـبير، وهي تستحق القتل عليه. فخافت قاسا من ذلك واستـجارت بدار الخطيب وعادتهم أن يستجيروا

هنالك بالمسجد، وإن لم يتمكن فبدار الخطيب وكان السودان يكرهون منسى سليمان لبخله، وكان قبله منسى مغا، وقبل منسى مغامنسى موسى، وكان كريمًا فاضلاً يحب البيضان ويحسن إليهم، وهو الذى أعطى لأبى إسحاق الساحلى فى يوم واحد أربعة آلاف مثقال، وأخبرنى بعض الثقات أنه أعطى لمدرك بن فقوص ثلاثة آلاف مثقال فى يوم واحد وكان جده سارق جاطه أسلم على يدى جد مدرك هذا.

وأخبرنى الفقيه مدرك هذا أن رجلاً من أهل تلمسان، يعرف بابن شيخ اللبن، كان قد أحسن إلى السلطان منسى موسى فى صغره بسبعة مثاقيل وثلث، وهو يومئذ صبى غير معتبر، ثم اتفق أن جاء إليه فى خصومة، وهو سلطان، فعرفه، وأدناه منه، حتى جلس معه على البَنْبى، ثم قرره على فعله معه، وقال للأمراء: ما جزاء من فعل ما فعله من الخير؟ فقالوا له: الحسنة بعشر أمثالها، فأعطه سبعين مثقالاً، فأعطاه عند ذلك سبعمائة مثقال وكسوة وعبيداً وخدمًا، وأمره أن لا ينقطع عنه، وأخبرنى بهذه الحكاية أيضًا ولد ابن شيخ اللبن المذكور، وهو من الطلبة يعلم القرآن بمالى.

فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم فهم أبعد الناس عنه، وسلطانهم لا يسامح أحداً فى شيء منه. ومنها شمول الأمن فى بلادهم، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب. ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان، ولو كان القناطير المقنطرة، إنما يتركونه بيد ثقة من البيضان، حتى يأخذه مستحقه، ومنها مواظبتهم للصلوات، والتزامهم لها فى الجماعات، وضربهم أولادهم عليها وإذا كان يوم الجمعة، ولم يبكر الإنسان إلى المسجد، لم يجد أين يصلى لكثرة الزحام. ومن عادتهم أن يبعثَ كلُّ إنسانٍ غلامَهُ بسجادته، فيبسطها له بموضع يستحقه بها، حتى يذهب إلى المسجد، وسجاداتهم، من سعف شجر يشبه النخل، ولا ثمر له، ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة، ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة، ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم، وهم يجعلون لأولادهم

القيـود إذا ظهر فى حـقهم التـقصـير فى حـفظه، فلا تفك عنهـم حتى يحفظوه.

ولقد دخلت على القاضى يوم العيـد، وأولاده مقيدون، فقلت له: ألا تسرحهم؟ فقـال: لا أفعل حتى يحفظون القرآن، ومررت يـومًا بشاب حسن الصورة، عليه ثيـاب فاخرة، وفى رجله قيد ثقيل. فقـلت لمن كان معى، ما فعل هذا؟ أقـتل؟ ففهم عن الشاب وضـحك وقيل لى: إنما قيد حـتى يحفظ القرآن. ومن مـساوئ أفعالهم كـون الخدم والجوارى والبنات الصغـار يظهرن للناس عرايا باديات الـعورات. ولقد كنت أرى فى رمـضان كثـيرًا منهن على تلك الصورة. فـإن عادة الفرارية أن يفطروا بدار الـسلطان، ويأتى كل واحد منهم بطعامـه، تحمله العشرون فـما فوقهن من جواريه، وهن عـرايا. ومنها دخول النساء على السلطان عرايا غير مستترات، وتعرى بناته، ولقد رأيت فى ليلة سبع وعـشرين من رمضـان نحو مائة جـارية خرجن بالطعام من قـصره عرايا، ومعـهن بنتان له ناهدان[1] ليس عليهـما ستر، ومنها جـعلهم التراب والرماد على رؤوسهم تأدبًا ومنها ما ذكرته من الأضحوكة فى إنشاد الشعراء، ومنها أن كثير منهم يأكلون الجيف والكلاب والحمير.

وكـان دخولى إلى مـالى فى الرابع عـشر لجمـادى الأولى سنة ثلاث وخمـسين، وخروجى عنها فى الثانـى والعشرين لمحرم سنة أربع وخـمسين. ورافقنى تاجـر يعرف بأبى بكر بن يعقوب. وقـصدنا طريق ميمـة. وكان لى جمل أركبه. لأن الخيل غالية الأثمان، يساوى أحدها مائة مثقال، فوصلنا إلى خليج كبـير يخرج من النيـل، لا يجاز إلا فى المراكب. وذلك الموضع كثـير البعوض، فلا يمر أحد به إلا بالليل. ووصلنا الخليج ثلث الليل مقمر.

ولما وصلنا الخليج رأيت على ضـفته ست عشـرة دابة صخمـة الخلقة، فعجبت منها، وظننتها فـيلة لكثرتها هنالك. ثم إنى رأيتها دخلت فى النهر.

(١) الناهد: المرأة التى برز ثديها وارتفع وظهر، وجمعه: نواهد. ويُقال: غلام ناهد: مراهق. الوجيز ص(٦٣٦).

فقلت لأبى بكر بن يعقوب: ما هذه الدواب؟ فقال: هى خيل البحر، خرجت ترعى فى البر، وهى أغلظ من الخيل. ولها أعراف وأذناب، ورؤوسها كرؤوس الخيل، وأرجلها كأرجل الفيلة. ورأيت هذه الخيل مرة أخرى لما ركبنا النيل من تُنبكتو إلى كَوْكَوْ، وهى تعوم فى الماء، وترفع فى رؤوسها وتنفخ. وخاف منها أهل المركب فقربوا من البر لئلا تغرقهم. ولهم حيلة فى صيدها حسنة، وذلك أن لهم رماحًا مثقوبة، قد جعل فى ثقبها شرائط وثيقة، فيضربون الفرس منها. فإن صادفت الضربة رجله أو عنقه أنفذته، وجذبوه بالحبل حتى يصل إلى الساحل، فيقتلونه ويأكلون لحمه. ومن عظامها بالساحل كثير. وكان نزولنا عند هذا الخليج بقرية كبيرة، عليها حاكم من السودان حاج فاضل يسمى فربامغا (بفتح الميم والغين المعجم)، وهو ممن حج مع السلطان منسى موسى لما حج.

أخبرنى فربامغا أن منسى موسى لما وصل إلى هذا الخليج، كان معه قاض من البيضان يكنى بأبى العباس، ويعرف بالدكالى، فأحسن إليه بأربعة آلاف مثقال لنفقته. فلما وصلوا إلى ميمة، شكا إلى السلطان بأن الأربعة آلاف مثقال سرقت له من داره. فاستحضر السلطان أمير ميمة، وتوعده بالقتل إن لم يحضر من سرقها. وطلب الأمير السارق فلم يجد أحدًا، ولا سارق يكون بتلك البلاد. فدخل دار القاضى، واشتد على خدامه، وهددهم. فقالت له إحدى جواريه: ما ضاع له شيء، وإنما دفنها بيده فى ذلك الموضع، وأشارت له إلى الموضع. فأخرجها الأمير، وأتى بها السلطان، وعرفه الخبر، فغضب على القاضى، ونفاه إلى بلاد الكفار الذين يأكلون بنى آدم، فأقام عندهم أربع سنين، ثم رده إلى بلده. وإنما لم يأكله الكفار لبياضه، لأنهم يقولون: إن أكل الأبيض مضر، لأنه لم ينضج. والأسود هو النضج بزعمهم.

قدمت على السلطان منسى سليمان جماعة من هؤلاء السودان الذين يأكلون بنى آدم، معهم أمير لهم. وعادتهم أن يجعلون فى آذانهم أقراطًا كبارًا وتكون فتحة القرط منها نصف شبر، ويلتحفون فى ملاحف الحرير. وفى بلادهم يكون معدن الذهب. فأكرمهم السلطان وأعطاهم فى الضيافة خادمة،

فذبحوها وأكلوها، ولطخوا وجوههم وأيديهم بدمها، وأتوا السلطان شاكرين. وأخبرت أن عادتهم متى ما وفدوا عليه أن يفعلوا ذلك. وذكر لى عنهم أنهم يقولون إن أطيب ما فى لحوم الآدميات الكف والثدى. ثم رحلنا من هذه القرية التى عند الخليج، فوصلنا إلى بلدة قُرِى منسا. وقرِى (بضم القاف وكسر الراء)، ومات لى بها الجمل الذى كنت أركبه، فأخبرنى راعيه بذلك، فخرجت لأنظر إليه، فوجدت السودان قد أكلوه كعادتهم فى أكل الجيف. فبعثت غلامين كنت استأجرتهما على خدمتى ليشتريا لى جملاً بزاغرى، وهى على مسيرة يومين. وأقام معى بعض أصحاب أبى بكر بن يعقوب، وتوجه هو لينتظرنا بميمة. فأقمت سبعة أيام، أضافنى فيها بعض الحجاج بهذه البلدة، حتى وصل الغلامان بالجمل.

وفى أيام إقامتى بهذه البلدة رأيت ليلة فيما يرى النائم كأن إنسانًا يقول لى: يا محمد بن بطوطة لماذا لا تقرأ سورة يس فى كل يوم؟ فمن يومئذ ما تركت قراءتها كل يوم، فى سفر ولا حضر. ثم رحلت إلى بلدة مِيمَة (بكسر الميم الأول وفتح الثانى) فنزلنا على آبار بخارجها.

ثم سافرنا منها إلى مدينة تُنْبُكْتُو (وضبط اسمها بضم التاء المعلوة وسكون النون وضم الباء الموحدة وسكون الكاف وضم التاء المعلوة الثانية وواو)، وبينها وبين النيل أربعة أميال. وأكثر سكانها مسوفة أهل اللثام، وحاكمها يسمى فربا موسى. حضرت عنده يومًا وقد قدم أحد مسوفة أميرًا على جماعة، فجعل عليه ثوبًا وعمامة وسروالاً، كلها مصبوغة، وأجلسه على درقة، ورفعه كبراء قبيلته على رؤوسهم. وبهذه البلدة قبر الشاعر المفلق أبى إسحاق الساحلى الغرناطى المعروف ببلده بالطويجن، وبها قبر سراج الدين بن الكويك، أحد كبار التجار من أهل الإسكندرية.

وكان السلطان منسى موسى لما حج، نزل بروض لسراج الدين هذا، ببركة الحبش خارج مصر، وبها ينزل السلطان. واحتاج إلى مال، فتسلفه من سراج الدين، وتسلف منه أمراؤه أيضًا. وبعث معهم سراج الدين وكيله يقتضى المال، فأقام بمالى. فتوجه سراج الدين بنفسه لاقتضاء ماله، ومعه ابن

له. فلما وصل تنبكتو أضافه أبو إسحاق الساحلى، فكان من القدر موته تلك الليلة. فتكلم الناس فى ذلك، واتهموا أنه سم. فقال لهم ولده: إنى أكلت معه ذلك الطعام بعينه. فلو كان سم لقتلنا جميعًا، لكنه انقضى أجله. ووصل الوالى إلى مالى، واقتضى ماله، وانصرف إلى ديار مصر. ومن تنبكتو ركبت النيل فى مركب صغير منحوت من خشبة واحدة. وكنا ننزل كل ليلة بالقرى، فنشترى ما نحتاج إليه من الطعام والسمن، بالملح وبالعطريات وبحلى الزجاج. ثم وصلت إلى بلدة أُنسيت اسمه، له أمير فاضل حاج يسمى فربا سليمان، مشهور بالشجاعة والشدة. لا يتعاطى أحد النزع فى قوسه، ولم أر فى السودان أطول منه ولا أضخم جسمًا، واحتجت بهذه البلدة إلى شيء من الذرة، فجئت إليه، وذلك يوم مولد رسول الله -ﷺ- فسلمت عليه، وسألنى عن مقدمى. وكان معه فقيه يكتب له. فأخذت لوحًا كان بين يديه، وكتبت فيه: يا فقيه، قل لهذا الأمير: إنا نحتاج إلى شيء من الذرة للزاد، والسلام. وناولت الفقيه اللوح يقرأ ما فيه سرًّا، ويكلم الأمير فى ذلك بلسانه. فقرأه جهرًا، وفهمه الأمير. فأخذ بيدى، وأدخلنى إلى مشوره، وبه سلاح كثير من الدرق والقسى والرماح، ووجدت عنده كتاب «المدهش» لابن الجوزى، فجعلت أقرأ فيه.

ثم أتى بمشروب لهم يسمى الدَّقْنُو (بفتح الدال المهمل وسكون القاف وضم النون وواو)، وهو ماء فيه جريش الذرة مخلوط بيسير عسل أو لبن، وهم يشربونه عوض الماء؛ لأنهم إن شربوا الماء خالصًا أضرَّ بهم وإن يجدوا الذرة خلطوه بالعسل أو اللبن. ثم أتى ببطيخ أخضر فأكلنا منه، ودخل غلام خماسى فدعاه وقال لى: هذا ضيافتك، واحفظه لئلا يفر. فأخذته وأردت الانصراف، فقال: أقم حتى يأتى الطعام. وجاءت إلينا جارية له دمشقية عربية، فكلمتنى بالعربى. فبينما نحن فى ذلك، إذ سمعنا صراخًا بداره. فوجه الجارية لتعرف خبر ذلك، فعادت إليه، فأعلمته أن بنتًا له قد توفيت، فقال: إنى لا أحب البكاء، فتعالَ نمش إلى البحر، يعنى النيل. وله على ساحله ديار. فأتى بالفرس فقال لى: اركب. فقلت: لا أركبه، وأنت ماش.

فمشينا جـميعًا، ووصلنا إلى دياره على النيل. وأتى بالطعام فـأكلنا. وودعته وانصرفت.

ولم أر فى السـودان أكرم مـنه ولا أفضل. والغـلام الذى أعطانيـه باق عندى إلى الآن. ثم سرت إلى مـدينة كَوْكَوْ، وهى مدينة كبـيرة على النيل، من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها. فيها الأرز الكثير واللبن والدجاج والسمك، وبـها الفقـوس العنانى الذى لا نظير لـه. وتعامل أهلها فـى البيع والشراء بالودع، وكـذلك أهل مالى. وأقـمت بها نحو شـهر. وأضـافنى بها محمد بن عمر، من أهل مكناسة، وكان ظريفًا مزاحًا فاضلاً، وتوفى بها بعد خروجى عنهـا. وأضافنى بها الحـاج محمد الوجـدى التازى. وهو ممن دخل اليمن، والفقيه محمد الفيلالى إمام مسجد البيضان.

ثم سافـرت منها برسم تَكْدّا فـى البر، مع قافلة كـبيـرة للغدامـسيين. دليلهم ومقـدمهم الحاج وُجّين (بضم الواو وتشـديد الجيم المعقـودة)، ومعناه الذئب بلسـان السودان. وكان لـى جمل لركوبـى، وناقة لحمل الزاد. فـلما رحلنا أول مرحلة[١] وقفت الناقة، فأخذ الحاج وجين مـا كان عليها، وقسمه على أصحابه، فتوزعوا حمله. وكـان فى الرفقة مغربى من أهل تادلى، فأبى أن يرفع من ذلك شيـئًا كـما فعل غـيره. وعطش غلامى يومًـا، فطلبت منه الماء، فلمَ يسـمح به. ثم وصـلنا إلى بلاد بَرْدامـة، وهى قـبـيلة من البـربر (وضبطها بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وفتح الدال المهمل وميم مفتوح وتاء تأنيث). ولا تسير القـوافل إلا فى خفارتهم[٢]. والمرأة عندهم فى ذلك أعظم شأنًا من الرجل. وهم رحّالة لا يقـيمون، وبيوتهم غريبة الشكـل، ويقيمون أعوادًا من الخـشب، ويضعـون عليها الحـصر، وفوق ذلك أعـواد مشـتبكة، وفوقها الجلود أو ثياب القطن. ونساؤهم أتم النساء جمالاً، وأبدعهن صوراً، مع البياض الـناصع والسمن. ولم أر فى البلاد من يبلغ مبلغـهن فى السمن. وطعامهن حليب البقر وجريش الذ رة، يشربنه مخلوطًا بالماء غير مطبوخ، عند

(١) المرحلة: المسافة يقطعها السائر ما بين المنزلين، وجمعه: مراحل. الوجيز ص(٢٥٩).
(٢) الخَفَارة: الذمة والعهد والأمان والحراسة. الوجيز ص(٢٠٤).

المساء والصباح. ومن أراد التزوج منهن، سكن بهن فى أقرب البلاد إليهن، ولا يتجاوز بهن كوكو ولا أيوالاتن. وأصابنى المرض فى هذه البلاد، لاشتداد الحر وغلبة الصفراء. واجتهدنا فى السير إلى أن وصلنا إلى مدينة تكدا (وضبطها بفتح التاء المعلوة والكاف المعقودة والدال المهمل مع تشديده). ونزلت بها فى جوار شيخ المغاربة سعيد بن على الجزولى. وأضافنى قاضيها أبو إبراهيم إسحاق الجاناتى، وهو من الأفاضل، وأضافنى جعفر بن محمد المسوفى. وديار تكدا مبنية بالحجارة الحمر، وماؤها يجرى على معادن النحاس، فيتغير لونه وطعمه بذلك، ولا زرع بها إلا يسير من القمح، يأكله التجار والغرباء. ويباع بحساب عشرين مدًّا من أمدادهم بمثقال ذهب، ومدهم ثلث المد ببلادنا. وتباع الذرة عندهم بحساب تسعين مدًّا بمثقال ذهب. وهى كثيرة العقارب. وعقاربها تقتل من كان صبيًّا لم يبلغ، وأما الرجال فقلما تقتلهم.

ولقد لدغت يومًا وأنا بها ولدًا للشيخ سعيد بن على عند الصبح فمات لحينه، وحضرت جنازته. ولا شغل لأهل تكدا غير التجارة. يسافرون كل عام إلى مصر، ويجلبون من كل ما بها من حسان الثياب وسواها. ولأهلها رفاهية وسعة حال، ويتفاخرون بكثرة العبيد والخدم، وكذلك أهل مالى وأيوالاتن. ولا يبيعون المعلمات منهن إلا نادرًا وبالثمن الكثير.

لما دخلت تكدا أردت شراء خادم معلمة فلم أجدها، ثم بعث إلى القاضى أبو إبراهيم بخادم لبعض أصحابه، فاشتريتها بخمسة وعشرين مثقالاً. ثم إن صاحبها ندم ورغب فى الإقالة، فقلت له: إن دللتنى على سواها أقلتك. فدلنى على خادم لعلى أغيول، وهو المغربى التادلى الذى أبى أن يرفع شيئًا من أسبابى حين وقعت ناقتى، وأبى أن يسقى غلامى الماء حين عطش. فاشتريتها منه، وكانت خيرًا من الأولى، وأقلت صاحبى الأول. ثم ندم المغربى على بيع الخادم، ورغب فى الإقالة، وألح فى ذلك فأبيت إلا أن أجازيه فعله، فكاد أن يجن أو يهلك أسفًا. ثم أقلته بعد.

ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عليه فى الأرض، ويأتون إلى البلد، فيسبكونه[١] فى دورهم. ويفعل ذلك عبيدهم وخدمهم. فإذا سبكوه نحاسًا أحمر، صنعوا منها قضبانًا فى طول شبر ونصف، بعضها رقاق، وبعضها غلاظ. فتباع الغلاظ منها بحساب أربعمائة قضيب بمثقال ذهب، وتباع الرقاق بحساب ستمائة وسبعمائة بمثقال. وهى صرفهم، يشترون برقاقها اللحم والحطب، ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح ويحملون النحاس منها إلى مدينة كوبر من بلاد الكفار، وإلى زغاى، وإلى بلاد برنو، وهى على مسيرة أربعين يومًا من تكدا. وأهلها مسلمون، لهم ملك اسمه إدريس، لا يظهر للناس، ولا يكلمهم إلا من وراء حجاب.

ومن هذه البلاد يؤتى بالجوارى الحسان والفتيان وبالثياب المجسدة. ويحمل النحاس أيضًا منها إلى جوجرة وبلاد المورتيين وسواها.

وفى أيام إقامتى بها، توجه القاضى أبو إبراهيم، والخطيب محمد، والمدرس أبو حفص، والشيخ سعيد بن على، إلى سلطان تكدّا، وهو بربرى يسمى إزْار (بكسر الهمزة وزاى وألف وراء)، وكان على مسيرة يوم منها، ووقعت بينه وبين التكركرى، وهو من سلاطين البربر أيضًا منازعة، فذهبوا إلى الإصلاح بينهما. فأردت أن ألقاه. فاكتريت دليلاً وتوجهت إليه، وأعلمه المذكورون بقدومى. فجاء إلى راكبًا فرسًا دون سرج، وتلك عادتهم.

وقد جعل عوض السرج طنفسة[٢] حمراء بديعة، وعليه ملحفة وسراويل وعمامة، كلها زرق، ومعه أولاد أخته، وهم الذين يرثون ملكه. فقمنا إليه، وصافحناه. وسأل عن حالى ومقدمى، فأعلم بذلك. وأنزلنى ببيت من بيوت الىناطيين، وهم كالوصفان عندنا. وبعث برأس غنم مشوى

---

(١) يُقال: سبك المعدن يسبِكه سَبْكًا: أذابه وخلصه من الخبث، ثم أفرغه فى قالب. الوجيز ص(٣٠١).

(٢) الطنفسة: البساط. الوجيز ص(٣٩٦).

فى السفود(١)، وقعب(٢) من حليب البقر. وكان فى جوارنا بيت أمه وأخته، فجاءتا إلينا، وسلمتا علينا. وكانت أمه تبعث لنا الحليب بعد العتمة، وهو وقت حلبهم، ويشربونه ذلك الوقت وبالغدو. وأما الطعام فلا يأكلونه ولا يعرفونه. وأقمت عندهم ستة أيام. وفى كل يوم يبعث بكبشين مشويين، عند الصباح والمساء. وأحسن إلى بناقة وعشرة مثاقيل من الذهب، وانصرفت عنه، وعدت إلى تكدا.

ولما عدت إلى تكدا، وصل غلام الحاج محمد بن سعيد السجلماسي، بأمر مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين آمراً لى بالوصول إلى حضرته العلية. فقبَّلته وامتثلته على الفور.

واشتريت جملين لركوبى بسبعة وثلاثين مثقالاً وثلث، وقصدت السفر إلى توات. ورفعت زاد سبعين ليلة، إذ لا يوجد الطعام فيما بين تكدا وتوات، وإنما يوجد اللحم واللبن والسمن يشترى بالأثواب، وخرجت من تكدا يوم الخميس الحادى عشر لشعبان سنة أربع وخمسين، فى رفقة كبيرة، فيهم جعفر التوانى، وهو من الفضلاء، ومعنا الفقيه محمد بن عبد الله قاضى تكدا. وفى الرفقة نحو ستمائة خادم. فوصلنا إلى كاهر من بلاد السلطان الكركرى، وهى أرض كثيرة الأعشاب، يشترى بها الناس من برابرها الغنم، ويقددون لحمها، ويحمله أهل توات إلى بلادهم. ودخلنا منها إلى برية لا عمارة بها ولا ماء، وهى مسيرة ثلاثة أيام.

ثم سرنا بعد ذلك خمسة عشر يومًا فى برية لا عمارة بها، إلا أن بها الماء . ووصلنا إلى الموضع الذى يفترق به طريق غات الآخذ إلى ديار مصر وطريق توات. وهنالك أحساء ماء يجرى على الحديد فإذا غسل به الثوب الأبيض اسود لونه.

وسرنا من هنالك عشرة أيام، ووصلنا إلى بلاد هكار، وهم طائفة من البربر ملثمون لا خير عندهم، ولقينا أحد كبرائهم، فحبس القافلة حتى غرموا له أثوابًا وسواها. وكان وصولنا إلى بلادهم فى شهر رمضان. وهم لا يغيرون فيه ولا يعترضون القوافل، وإذا وجد سراقها المتاع بالطريق فى رمضان

(١) السَّفُّود: عود من حديد ينظم فيه اللحم ليشوى، وجمعه سفافيد. الوجيز ص(٣١٢).
(٢) القعب: قدح ضخم غليظ، وجمعه قِعاب. الوجيز ص(٥٠٩).

لم يعرضوا له، وكـذلك جميع من بهذه الطريق من البـرابر. وسرنا فى بلاد هكار شهرًا، وهى قليلة النبات، كثيرة الحجارة، طريقها وعر(١). ووصلنا يوم عـيد الفطر إلى بـلاد برابر، أهل لثام كـهـؤلاء. فأخـبـرونا بأخبـار بلادنا، وأعلمونا أن أولاد خـراج وابن يغمـور خالفوا، وسكنوا تسـابيت من توات. فخاف أهل القافلـة من ذلك. ثم وصلنا إلى بُودا (بضم الباء الموحدة)، وهى من أكبر قرى توات، وأرضها رمال سباخ(٢)، وثمرها كثير ليس بطيب، لكن أهلها يفـضلونه على ثمر سـجلماسة. ولا زرع بهـا ولا سمن ولا زيت، إنما يجلب بهـا ذلك من بلاد المغـرب. وأكل أهلها التـمـر والجراد، وهو كـثيـر عندهم، يختزنونه كما يختزن التمـر، ويقتاتون به، ويخرجون إلى صيده قبل طلوع الشمس، فإنه لايطـير إذ ذاك لأجل البرد. وأقمنا ببودا أيامًـا ثم سافرنا فى قافلة، ووصلنا فى وسط ذى القعدة إلى مدينة سلجماسة. وخرجت منها فى ثانى ذى الحجة، وذلك أوان البرد الشديد، ونزل بالطريق ثلج كثير. ولقد رأيت الطرق الصعبة والثلج الكثير ببخارى وسمرقند وخراسان وبلاد الأتراك، فلم أر أصـعب من طريق أم جنيـبـة. ووصلنا ليلة عـيـد الأضـحى إلى دار الطمع، فأقمت هنالـك يوم عيد الأضحى، ثم خرجت فـوصلت إلى حضرة فاس، حـضرة مـولانا أميـر المؤمنين أيده الله، فـقبلت يده الكريمة وتيـمـنت بمشاهـدة وجهه المبـارك، وأقمت فى كنف إحـسانه بعـد طول الرحلة. والله تعالى يشكر ما أولانيه من جزيل إحـسانه، وسابغ امتنانه، ويديم أيامه، ويمتع المسلمين بطول بقائه.

وههنا انتهت الرحلة المسـماة «تحفـة النظار فى غرائب الأمصار وعـجائب الأسفار».

وكان الفراغ من تقييدها فى ثالث ذى الحجة عام ستة وخمسين وسبعمائة.

والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

---

(١) الطريق الوعـر: الصلب، يُـقال: اسـتـوعـر الطريق والمكان: وجـده صلبًـا. الوجـيـز ص(٦٧٥).

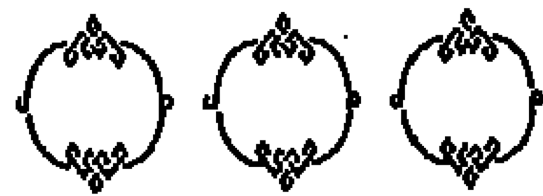
(٢) السباخ: جمع سبخة، وهى أرض ذات نزو وملح. الوجيز ص(٣٠٠).

الخاتمة

قال ابن جزى

انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبى عبد الله محمد بن بطوطة، أكرمه الله. ولا يخفى على ذى عقل أن هذا الشيخ هو رحال العصر. ومن قال: رحال هذه الملة لم يبعد، ولم يجعل بلاد الدنيا للرحلة. واتخذ حضرة فاس مقرًا ومستوطنًا بعد طول جولانه، لما تحقق أن مولانا، أيده الله، أعظم ملوكها شأنًا، وأعمهم فضائل، وأكرمهم إحسانًا، وأشدهم بالواردين عليه عناية، وأتمهم بمن ينتمى إلى طلب العلم حماية. فيجب على مثلى أن يحمد الله تعالى، لأن وفقه فى إحلاله وترحاله لاستيطان هذه الحضرة التى اختارها هذا الشيخ، بعد رحلة خمسة وعشرين عامًا. إنها لنعمة لا يقدر قدرها، ولا يوفى شكرها. والله تعالى يرزقنا الإعانة على خدمة مولانا أمير المؤمنين، ويبقى علينا ظل حمايته ورحمته، ويجزيه عنا معشر الغرباء المنقطعين إليه أفضل جزاء المحسنين. اللهم وكما فضلته على الملوك بفضيلتى العلم والدين، وخصصته بالحلم والعقل الرصين، فمد لملكه أسباب التأييد والتمكين، وعرفه عوارف النصر العزيز والفتح المبين، واجعل الملك فى عقبه إلى يوم الدين، وأره قرة العين فى نفسه وبيته وملكه ورعايته، يا أرحم الراحمين. وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وإمام المرسلين. والحمد لله رب العالمين.

وكان الفراغ من تأليفها فى شهر صفر عام سبعة وخمسين وسبعمائة.



الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة المحقق	٣
ترجمة ابن بطوطة	٦
المقدمة	٧
نقطة البداية	١٠
خبر حاكم تونس	١٤
مدينة الإسكندرية - أبوابها - مرساها	١٧
منار الإسكندرية	١٧
عمود السوارى الهائل	١٨
خبر بعض علماء الإسكندرية	١٩
خبر الشيخ جمال الدين الساوى	٣٠
مسجد عمرو بن العاص والمدارس	٣٣
قرافة مصر ومزاراتها	٣٤
نيل مصر	٣٥
الأهرام والبرابى	٣٧
خبر الملك الناصر سلطان مصر	٣٨
أمراء مصر	٣٩
قضاة مصر عند دخولى إليها	٤٠
نبذة عن بعض علماء مصر وأعيانها	٤١
يوم المحمل	٤٢
قصة خصيب	٤٤
زيارة الأقصر	٤٨
زيارة أسنا وإدفو	٤٨
زيارة بلبيس	٤٩
زيارة غزة والخليل	٥٠
زيارة القدس	٥٣
خبر المسجد المقدس	٥٣
قبة الصخرة	٥٣

الموضـــــــــوع	الصفحة
المشاهد المباركة بـالقدس الشريفة	٥٤
فضلاء القـدس المشهورين	٥٥
طريقـة عمل حلواء الخـروب	٥٦
زيارة عكة	٥٦
زيارة صور	٥٧
زيارة صـيدا	٥٧
حكاية أبى يعقـوب يوسف المذكور	٥٨
حكاية الأمـير سندمـور	٦٠
زيارة حـمص ومعالمـها	٦٠
زيارة حـماه ونواعيـرها	٦١
زيارة المعـــرة	٦٢
زيارة حلب الشهـباء وذكر أهم معـالمها	٦٣
أشهر قـضاة حلب	٦٨
قصة قـراسنقور	٧٠
حكاية الولى إبراهيم بن أدهم	٧٢
حكاية ابـن المؤيد	٧٥
الوصول إلى دمشق	٧٧
خبر جامع بنى أمـية الكبير	٨١
أئمة المسجـد الكبير	٨٦
حلقات الدرس والمشرفون عليها	٨٧
مشاهير قضاة دمـشق وفقهائها	٨٨
مـدارس دمـشق	٨٩
أبواب دمـــشق	٩٠
بعض المشـاهـد والمزارات بدمـشق	٩١
أرباض دمـــشق	٩٤
جبل قاسيون ومشاهده المباركة	٩٤
أخبار الأوقاف بدمشق وبعض فـضائل أهلها وعوائدهم	٩٦
خبر سـماعى بدمشق	١٠٠
طيـبة مدينـة رسول الله ﷺ	١٠٥

الموضوع	الصفحة
مسجد رسول الله ﷺ وروضته الشريفة	١٠٥
وقت ابتداء بناء المسجد الشريف	١٠٦
قصة حنين المنبر الشريف	١١٠
خطيب مسجد رسول الله -ﷺ- وإمامه	١١١
خدام المسجد الشريف وسدنته والمؤذنون به	١١١
بعض المجاورين بالمدينة المنورة	١١٢
بعض المشاهد الكريمة خارج المدينة المنورة	١١٤
مسجد قباء	١١٥
ذكر موقع بدر	١١٨
مدينة مكة المكرمة	١٢٠
المسجد الحرام شرَّفه الله وكرمه	١٢١
الكعبة المعظمة الشريفة	١٢٢
خبر الميزاب المبارك	١٢٤
خبر الحجر الأسود الشريف	١٢٤
خبر المقام الكريم	١٢٥
خبر الحِجْر والمطاف	١٢٦
بئر زمزم	١٢٦
أبواب المسجد الحرام وما يحيط به من المشاهد الشريفة	١٢٧
المسعى بين الصفا والمروة	١٢٩
الجبانة المباركة	١٣٠
المشاهد الواقعة خارج مكة المكرمة	١٣١
جبال مكة المكرمة	١٣٢
أخبار أهل مكة المكرمة وفضائلهم	١٣٦
نبذة عن قاضى مكة وخطيبها وإمام الموسم وعلمائها	١٣٨
خبر المجاورين بمكة المكرمة	١٤٠
قصة حسن المغربى المجنون	١٤٥
عادة أهل مكة فى صلواتهم	١٤٧
عمرة رجب	١٤٩
عاداتهم ليلة النصف من شعبان المعظم	١٥١

الموضوع	الصفحة
عاداتهم فى شهر رمضان المبارك	١٥٢
عاداتهم فى شوال	١٥٣
خبر إحرام الكعبة المشرَّفة	١٥٤
شعائر الحج وأعماله	١٥٤
خبر كسوة الكعبة	١٥٦
الخروج من مكة شرفها الله تعالى	١٥٧
خبر الوصول إلى طيبة ثانية	١٥٩
خبر الوصول إلى وادى الكروش	١٥٩
خبر الوصول إلى زمالة	١٦١
خبر الوصول إلى القادسية	١٦١
خبر الوصول إلى النجف	١٦١
خبر الروضة والقبور التى فيها	١٦٢
خبر نقيب الأشراف	١٦٣
خبر الوصول إلى البصرة	١٧٠
حكاية اعتبار	١٧٠
خبر المشاهد المباركة بالبصرة	١٧٢
خبر ملك إيذج وتستر	١٧٧
خبر الوصول إلى أشتركان	١٨١
كرامات الشيخ قطب الدين	١٨٣
خبر سلطان شيراز	١٨٩
خبر الأمير عبد الله	١٩٢
بعض المشاهير بشيراز	١٩٤
قصة الذين أكلوا لحم الفيل ونهايتهم	١٩٥
مدينة الكوفة	١٩٩
مدينة بغداد	٢٠٢
خبر قبور الخلفاء ببغداد	٢٠٦
خبر سلطان العراقين وخراسان	٢٠٧
خبر المتغلبين على الملك	٢١٠
مدينة الموصل	٢١٤

الموضوع	الصفحة
خبر سلطان ماردين فى عهد دخولى إليها	٢١٧
خبر سلطان اليمن	٢٢٧
خبر سلطان مقديشو	٢٣١
خبر الوصول إلى كلوا	٢٣٣
خبر الوصول إلى ظفار	٢٣٥
خبر شجر التنبول	٢٣٨
خبر شجر النارجيل	٢٣٩
خبر سلطان ظفار	٢٤١
خبر الولى الذى لقيناه فى الجبل	٢٤٢
خبر الوصول إلى قلهات	٢٤٥
خبر سلطان عمان	٢٤٧
خبر سلطان هرمز	٢٤٨
خبر سلطان لار	٢٥١
مغاص الجوهر	٢٥٢
حكاية الأمير أحمد	٢٥٤
خبر سلطان العلايا	٢٥٧
خبر الأخية الفتيان	٢٥٨
خبر سلطان أنطالية	٢٦٠
خبر سلطان أكريدور	٢٦٠
خبر سلطان قُلْ حصار	٢٦١
خبر سلطان لاذق	٢٦٣
خبر سلطان ميلاس	٢٦٥
خبر سلطان اللارندة	٢٦٧
خبر الوصول إلى نكدة	٢٦٧
خبر الوصول إلى قيسارية	٢٦٨
خبر الوصول إلى سيواس	٢٦٨
خبر الوصول إلى كمش	٢٧٠
خبر الوصول إلى بركى	٢٧٠
خبر سلطان بركى	٢٧١

الموضـــــوع	الصفحة
خبر سلطان مـغنيسية	٢٧٧
خبر سلطـان برغمة	٢٧٨
خـبر سلطـان بلى كسـرى	٢٧٨
خبر سلطان برصا	٢٨٠
خبر الوصول إلى كردى بولى	٢٨٦
خـبر سلـطان قصطمـونيـة	٢٨٧
خـبر الوصـول إلى صنوب	٢٨٩
خـبـر الوصــول إلى مـرسى الكرش	٢٩١
خـبر الوصـول إلى القـرم	٢٩٢
خـبـر الـوصـول إلى أزاق	٢٩٦
خـبر الوصـول إلى الماجـر	٢٩٨
خـبر السلطان مـحـمد أوزبك خـان	٣٠٠
أخـبار الخـواتين وترتيبـهن	٣٠٢
ذكر سفرى إلى مدينة بلغار	٣٠٦
ذكر أرض الظلمة	٣٠٧
خبر الوصول إلى مدينة الحاج ترخان	٣١٠
التـوجه إلى القـسطنطينيـة	٣١١
خـبر الوصـول إلى الفنيكة	٣١٤
نبـذة عن المانسـتـارات بقـسطنطينيـة	٣٢٠
خـبـر الوصـول إلى مـدينة السـرا	٣٢٣
أمـيــر خــوارزم	٣٢٨
خـبـر الوصـول إلى وبكنة	٣٣٢
غزو التتر لبخارى	٣٣٣
المرور بنخشب	٣٣٥
خـبر سلطـان ما وراء النهـر	٣٣٥
رجع الحـــديث إلـى بوزن	٣٤١
السفر إلى سـمرقند	٣٤٣
خـبـر الوصــول إلى ترمـذ	٣٤٤
حكايـة زوجـة أمـيــر بلخ	٣٤٥

الموضوع	الصفحة
خبر الوصول إلى هراة	٣٤٧
قصة العابد شهاب الدين الجامى	٣٥١
خبر الوصول إلى طوس	٣٥٢
خبر الوصول إلى سرخس وزاوة	٣٥٢
خبر الوصول إلى نيسابور	٣٥٣
خبر الوصول إلى برون	٣٥٥
خبر الوصول إلى غزنة	٣٥٥
خبر الوصول إلى كابل	٣٥٦
خبر الوصول إلى وادى السند	٣٦١
خبر الوصول إلى جنانى	٣٦٤
خبر الوصول إلى لاهرى	٣٦٨
خبر الوصول إلى بكار	٣٦٩
خبر الوصول إلى أوجة	٣٦٩
خبر الوصول إلى مُلتان	٣٦٩
خبر الوصول إلى أبوهر بالهند	٣٧٢
أشجار بلاد الهند وفواكهها	٣٧٣
خبر الوصول إلى أجودهن	٣٧٦
خبر الوصول إلى أبحرى	٣٧٧
خبر الوصول إلى سرستى	٣٧٩
خبر الوصول إلى حضرة دهلى	٣٨٠
خبر الغلام الآبق	٣٨٥
قصة فقير من بخارى مع بلبن	٣٨٨
أخبار السلطان تغلق شاه	٣٩٩
أخبار الأمير غياث الدين	٤١٧
خبر زواج الأمير سيف الدين غدا	٤٢٢
خبر الشيخ زاده	٤٣٢
خبر الشيخ ابن تاج العارفين	٤٣٣
خبر الشيخ على الحيدرى	٤٣٤
خبر ابن ملك التجار	٤٣٥

الموضـــــوع	الصفحة
خبر الأمير بهاء الدين كُشْت اسبْ	٤٣٦
خبر الوقيعة بجبل قراجيل	٤٣٩
خبر ثورة الشريف جلال الدين	٤٤٠
خبر ثورة هلاجون	٤٤١
خبر الشريف إبراهيم	٤٤٣
خبر الاحتفال بعيد الفطر	٤٦٠
خبر تولى القضاء	٤٦٣
خبر الخروج للصيد مع السلطان	٤٦٨
عادة أهل الهند فى ترتيب الأموات	٤٧٤
خبر استئذان السلطان فى السفر للحجاز	٤٧٨
خبر الوصول إلى بيانة	٤٨٠
خبر الوصول إلى كول	٤٨١
خبر الوصول إلى مَوْرِي	٤٨٨
خبر الوصول إلى مِره	٤٨٨
قصة أمير علابور	٤٨٩
بعض أخبار السحرة	٤٩٠
السفر إلى جنديرى	٤٩٢
السفر إلى ظهار	٤٩٣
خبر الوصول إلى أُجين	٤٩٤
أخبار مدينة دولة آباد	٤٩٥
خبر الوصول إلى صاغر	٤٩٦
خبر الوصول إلى كنباية	٤٩٦
خبر الوصول إلى قندهار	٤٩٨
خبر الوصول إلى قوقة	٤٩٩
خبر الوصول إلى هِنَور	٥٠١
خبر الوصول إلى بلاد المُليبار	٥٠٣
خبر الشجرة العجيبة	٥٠٧
خبر الوصول إلى قالقوط	٥٠٩
أنواع المراكب الصينية	٥٠٩

الموضوع	الصفحة
خبر الوصول إلى كولم	٥١٢
خبر الوصول إلى سندابور	٥١٥
خبر الوصول إلى جزائر ذيبة المهل	٥١٦
حكاية العفريب مع الشيخ المغربي	٥٢١
خبر السلطانة خديجة	٥٢٣
خبر الوصول إلى جزيرة كنلوس	٥٢٤
خبر الوصول إلى إقليم التيم	٥٢٥
خبر النساء ذوات الثدى الواحد	٥٣٣
خبر سلطان سيلان	٥٣٥
خبر الوصول إلى منار مندلى	٥٣٦
خبر الوصول إلى بندر سلاوات	٥٣٦
خبر سلطان كنكار	٥٣٧
خبر قدم آدم -عليه السلام-	٥٤٠
خبر الوصول إلى دينور	٥٤١
خبر الوصول إلى قالى وكلنبو	٥٤١
خبر الوصول إلى فَتَّن	٥٤٦
خبر الوصول إلى مُترة	٥٤٦
خبر الوصول إلى سُدكاوان	٥٥٠
خبر سلطان بنجالة	٥٥٠
خبر الوصول إلى جبال كامَرَو	٥٥١
خبر الولى الشيخ جلال الدين التبريزى	٥٥٢
خبر الوصول إلى حَبَنْق	٥٥٤
خبر الوصول إلى سنرهكاوان	٥٥٤
خبر الوصول إلى جزيرة الجاوة	٥٥٦
خبر سلطان الجاوة	٥٥٦
الوصول إلى مرسى كيلو كرى	٥٦٢
المتوجات الزراعية والصناعية فى الصين	٥٦٤
الوضع الأمنى فى الصين	٥٦٨
حكاية الشيخ المعمر فى الصين	٥٧١

الموضوع	الصفحة
خبر لقاء قوام الدين السبتى	٥٧٣
خبر أحد المشعوذين	٥٧٦
خبر الوصول إلى حضرة خان بالق	٥٧٩
خبر يوم الجلوة	٥٨١
ذكر سلطان ظفار الملك الناصر	٥٨٢
ذكر الوصول إلى بغداد	٥٨٤
ذكر الوصول إلى دمشق	٥٨٤
ذكر الوصول إلى بيت المقدس	٥٨٦
ذكر الوصول إلى القاهرة	٥٨٧
خبر الوصول إلى مكة	٥٨٧
خبر زيارة قبر المصطفى ﷺ بطيبة	٥٨٨
خبر زيارة تونس	٥٨٨
خبر العودة إلى المغرب	٥٩٠
خبر زيارة طنجة	٥٩٧
خبر السفر إلى غرناطة	٦٠٣
خبر السفر إلى مراكش	٦٠٥
خبر السفر إلى مكناس وفاس	٦٠٥
خبر التوجه إلى السودان	٦٠٦
خبر سلطان مالى	٦١٣
خبر السلطان منسى سليمان	٦١٣
خبر الوصول إلى تكدا	٦٢٦
خبر الامتثال لأمر أمير المؤمنين بالعودة	٦٢٨
الخاتمة	٦٣٠
فهرس الكتاب	٦٣١